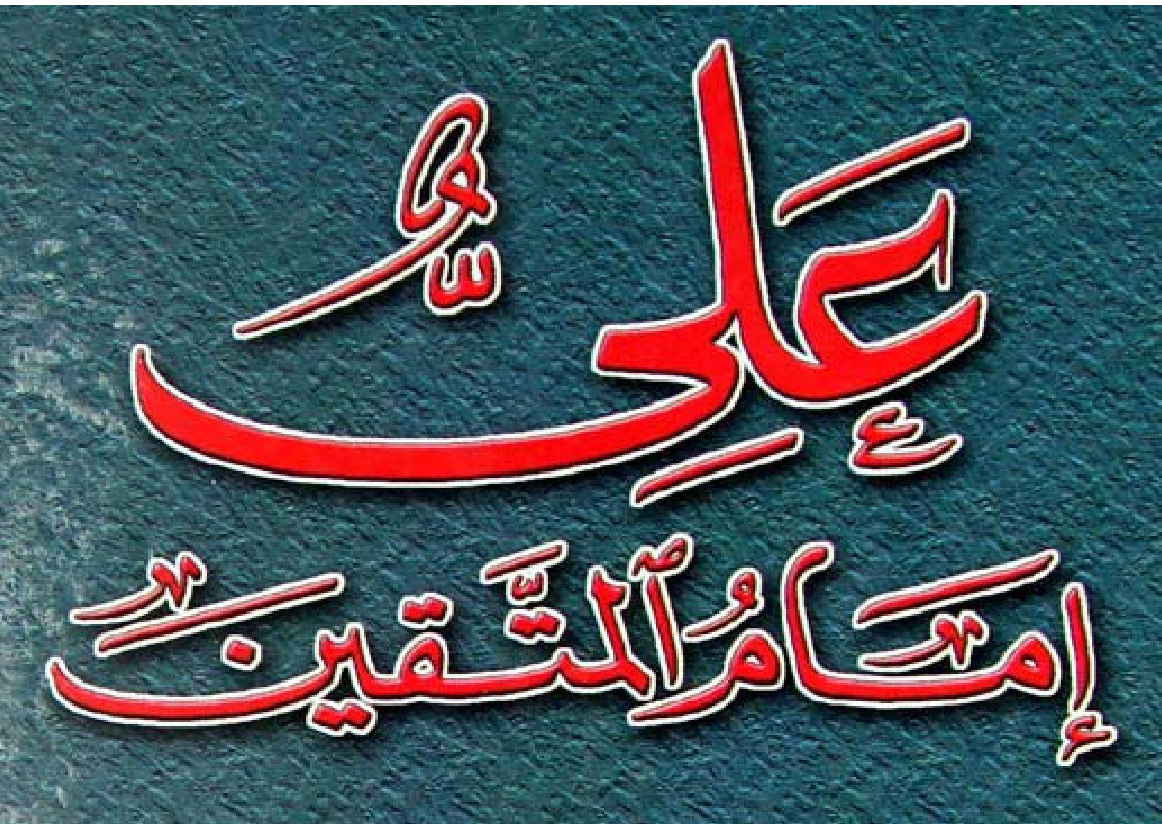


عبد الرحمن الشرقاوي

ولاية علي بن ابي طالب حصني
فمن دخل حصني امن من عذابي

علي إمام المتقين

﴿ عليّ امام المتقين ﴾

تأليف .... عبد الرحمن الشرقاوي

الناشر .... مؤسسة مدين للطباعة و النشر

المطبعة .... پرستش

الطبعة .... الأولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢ م

الكمية .... ١٠٠٠ نسخة

القطع .... وزيرى

عدد الصفحات ٧٦٨

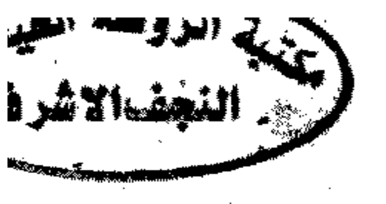
التصوير الفني (الزينكغراف)........................ **مدين**

شابك ٩٦٤-٦٦٤٢-٤٩-٧



الجزء الأول

عبد الرحمن الشرقاوي



مقدمة الناشر

ما يجب التأكيد عليه في هذه الأسطر القليلة أنه في مختلف الأزمنة والعصور كان بعض المؤرخين لا يدونون في صفحات التاريخ إلا ما يتماشى مع أهوائهم، ورغباتهم، ومعتقداتهم وطبيعي أن لا يعني هذا مطلقاً عدم وجود مؤرخين صادقين يهمهم أن يدونوا الحقائق فقط ويقولونها بصدق لا يرجون من ذلك جزاءً ولا شكوراً، فقط وجه الله العزيز الحليم.

من هنا على الباحث اليوم وهو يقلب صفحات التاريخ أن لا يأخذ بآراء ومدونات مؤرخ واحد من مذهب واحد أو طائفة واحدة فقط ويبني على أساسها وجهات نظره وبالتالي يستخلص منها أحكامه على رجالات الإسلام السالفين إذا ما أراد الأمانة والصدق فيما يقول.

وهذا ما فعله الأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في تناوله لإحدى الشخصيات الإسلامية وهي شخصية الإمام علي (عليه أفضل الصلاة والسلام)، تلك الشخصية التي تعرضت لبليغ التجريح والتشويه والظلم في الوقت الذي يشهد فيه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف طهارة ونقاوة هذه الشخصية الإسلامية، ورفعتها وعلو منزلتها.

على كل حال، لسنا هنا في وارد تبيان أسباب هذه الهجمة لضيق

المجال، فقط نريد أن نقول وبأمانة إن الأستاذ الشرقاوي أعطى شخصية الإمام عليه﷣ حقها في كتابة هذا (علي إمام المتقين) رغم ما لاقاه من الانتقادات والتهم والهجمات العنيفة، فإليه أخلص وأجل تحية، وإلى المسلمين كافة دعوة صادقة، مخلصة لقراءة هذا الكتاب واستخلاص معانيه وحقائقه والله عنده حسن الثواب.

الناشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إهداء

إلى أخي الدكتور عبد الغفار

كنت تشفق علي ونحن صغار من أن يصرفني الأدب عن طلب العلم، فلما أنهيت دراستي بكلية الحقوق، خفت أن يصرفني الأدب عن الاشتغال بالقانون، كما كان يريد أبونا رحمه الله. . .

فلما أدركتني حرفة الأدب، عانيت أنت ما جرته عليَّ الحرفة من عسف وسخط وكيد. .

ثم تعودت أن تلومني لأني رفضت كثيراً من المناصب الكبرى والرياسية لكي أتفرغ للأدب وحده، بما يتطلبه من انشغال البال بالقراءة والتفكير والتأمل وهموم التعبير! . . ولكم شق عليك هذا . . !

عسى أن تجد في هذه الصفحات بعض العوض عما سببه لك اشتغالي بالأدب من متاعب ومشقات!

إنها صفحات عن إنسان عظيم، تعودنا أن نحبه منذ الصغر، وحفظنا عنه كلماته الجليلة، وما زالت قلوبنا تخفق بحبه، لا لأن آباءنا علمونا أننا من ذرية ابنه الحسين فحسب، ولكن لأننا حين تعرفنا عليه، أكبرنا فيه تلك الفضائل الرائعة التي تجعل الإنسان قادراً على أن يدافع

عن الحق والحرية والعدل، مهما تكن المعاناة، ومهما تكن صولة الباطل...

أخوك المطيع

(عبد الرحمن)

مقدمة

ليس هذا الكتاب بحثاً تاريخياً، ولا هو كتاب سيرة، ولا هو مفاضلة بين الصحابة رضي الله عنهم.. ولا هو بدفاع عن حق أحد في الخلافة قبل الآخر!!

فمن كان يلتمس في هذا الكتاب شيئاً من هذا فليعدل عنه إلى غيره..

ما أردت بهذا الكتاب إلا أن أصطنع شكلاً فنياً أقرب إلى الفن القصصي أعتمد فيه على حقائق التاريخ الثابتة، لأعرض مبادىء الإسلام وقيمه، من خلال تصوير فني للإمام علي رضي الله عنه..

ذلك أن الإمام علياً تجسدت فيه أخلاق الإسلام، ومثله، فقد تعهده الرسول طفلاً، ورباه صبياً، وثقفه فتى، وقال عنه: **«أنا مدينة العلم وعلي بابها»**.

ثم إن علياً قد كرم الله وجهه: لم يسجد لغير الله تعالى، وما دخل قلبه منذ الطفولة شيء غير الإسلام... ثم كان هو المجاهد العظيم في سبيل الله، وما صارع أحداً إلا صرعه..

وقد علم الصحابة رضي الله عنهم مكانة علي عند الرسول ﷺ.. وأنهم ومعهم المسلمون في كل مكان وزمان ليقولون في كل صلاة:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. وبارك على محمد وعلى آل محمد.

كنت أنشر هذا الكتاب في جريدة الأهرام كل أربعاء منذ رمضان الماضي، وعندما وصلت إلى موقف علي وأبي ذر من المال، كتب الصديق ثروت أباظة معلناً خلافه معي حول هذا الموقف من المال، وزعم أنه موقف الشيوعية لا موقف الإسلام!. فرددت عليه.. وكان هذا الخلاف في ظل ظليل من الاحترام، والود المتبادل.. ولكن الصديق ثروت لم يكد يعلن رأيه، حتى انفجرت ضدي ثورة سماها الأستاذ الجليل الدكتور محمد الطيب النجار ثورة ظالمة!!

وكأن الذين أشعلوها كانوا ينتظرون إشارة البدء، فقد استغلوا كلام الصديق ثروت أباظة، وأولوه ضدي، مما اضطره إلى أن يكتب مرة أخرى ليزجرهم وينهاهم عن سوء استغلال خلاف الرأي فيما بيننا!

وقد رأيت أن الأمانة تحتم علي أن أضم إلى الكتاب ما دار من جدال حوله.. حتى ما وجهه إلي البعض من افتراءات واتهامات جائرة أثبتها، وأثبت ردي عليها في آخر الكتاب..

وفي الحق أني كنت قد تلقيت رسائل من بعض القراء تتضمن بعض الملاحظات، فرأيت أن أحرر الكتاب من كل ما يحتمل سوء الفهم، أو سوء التأويل، آخذاً بنصيحة قراء أعتز بتقديرهم.. كان ذلك كله قبل أن تقوم الثورة الظالمة على الكتاب..

وإن تعجب فعجب أن يتخيل أحد مهما يكن حظه من الفهم أني أتجشم هذه المشقة لأسيء إلى أحد من الصحابة أو لأشوه صورته!!

ولكني أسوق ما لا بد أن أسوقه من قصص الخلاف بين الصحابة لأن هذا الخلاف أثر تأثيراً بالغاً في شخصية الإمام علي ومواقفه،

وشحذ اجتهاده ليضع أحكاماً ما كان يعرفها المسلمون من قبل، وما كانوا ليعرفوها لولا هذا الخلاف!

وقد ظلت هذه الأحكام هي التي تطبق حتى اليوم كلما تحاربت فئتان من المسلمين منذ الفتنة الكبرى.

ولا ريب أن للصحابة احترامهم الذي يجب أن يلتزمه كل مسلم!!

ولقد كان في قصصهم عبرة!.. والعبرة يستوعبها أولو الألباب!!

ولقد أجمع أئمة الإسلام على أن أحكام قتال أهل البغي إنما وضعها الإمام علي خلال حروب الفتنة الكبرى.. وفصل الإمام الشافعي ذلك في موسوعته «الأم».. وهذه نتيجة انتهى إليها أئمة أهل السنة من قبله، ووصى بها الإمام أحمد بن حنبل أصحابه وأتباعه من بعده، فقال لهم: «ما ابتلي أحد قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقتال أهل البغي؟».

وما أظن أن أحداً يستطيع أن يتهم أئمة الدين من أهل السنة بإهانة الصحابة!! واليقين أن الإمام الشافعي والإمام أحمد، وغيرهما من أئمة أهل السنة، أكثر حرصاً على الصحابة وأشد معرفة بمكانتهم، من العلماء المعاصرين!..

وأود آخر الأمر أن أؤكد للذين اتهموني بالأخذ بالروايات الضعيفة أو بالاعتماد على كتب غلاة الشيعة.. أود أن أؤكد لهم أنهم لم ينصفوا أنفسهم، إذ خالفوا الحقيقة!! فقد تحريت ألا أعتمد إلا على المراجع الصحاح الموثوق بها من كتب وموسوعات أهل السنة وحدهم، لأسد الذرائع أمام من يحاولون إثارة الفرقة، أو إيقاظ الفتنة النائمة بين الشيعة والسنة، لا لأني أشك فيما كتبه مؤرخو الشيعة وفيهم مؤرخون ثقات!

من أجل ذلك حرصت على أن أضع ثبتاً بالمراجع في آخر الكتاب، مخالفاً بذلك ما اتبعته من قبل، عسى أن يجهد المشككون

أنفسهم في البحث فيعلموا ويتيقنوا، ويبذلوا في سبيل ذلك بعض العرق، بدلاً من أن يريحوا أنفسهم بتوجيه الاتهام ويتعبوا الآخرين، وبدلاً من أن يجهدوا القراء بإثارة الزوابع بغبارها الذي يخفي الحقيقة عن العيون.

وأود آخر الأمر أن أؤكد أننا في مصر لا نعرف هذا الخلاف الغريب بين المذاهب الإسلامية.. نحن لا نعرف غير الكتاب والسنة وما أجمع عليه أئمة الدين، وما استنبطوه من أحكام..

إن الصلاة الواحدة لتقام عدة مرات في بعض بلادنا الإسلامية، لأن أتباع كل مذهب لا يصلون إلا خلف إمام من أهل المذهب!!.. وإن أتباع بعض المذاهب السنية لا يتزاوجون في بعض تلك البلاد الإسلامية..

أما نحن في مصر فنحن أهل سنة، ومريدون ومحبون لآل البيت في الوقت نفسه.. ولا نجد في هذا تناقضاً!!

ونحن نصلي وراء الإمام الصالح شيعياً كان أم سنياً.. مالكياً كان أم حنفياً أم شافعياً أم حنبلياً أم ظاهرياً.. ونحن ننتمي إلى الإسلام، ونحترم كل أئمته على السواء، لا نفرق بين أحد منهم، ولا نعرف هذا الخلاف بين المذاهب.

والقانون المصري أخذ في الأحوال الشخصية من فقه الشيعة الزيدية، كما أخذ من فقه الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ومن فقه كل من الأئمة: مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وابن حنبل، وابن حزم الظاهري، وابن تيمية (الحنبلي)..

وفي الحق أن الذين يثيرون هذه الخلافات بين المذاهب الإسلامية يضرون الأمة والإسلام جميعاً..

إن المسلمين في حاجة إلى أن يجتمعوا على كلمة سواء، وإلى أن يرجعوا إلى النبع النوراني الأصيل: كتاب الله وسنة رسوله.. ولئن فعلوا

ذلك، إنهم إن شاء الله لصائرون إلى فلاح، ليعودوا كما كانوا بنعمة الله إخواناً..

وبعد.. فأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة مضيئة للإسلام، ولقدرته على مواجهة مشكلات العصر، من خلال تصويري للإمام علي بطلاً خارقاً، ومفكراً، وحكيماً، وعالماً، وزاهداً، وإنساناً عظيماً..

ويا لهذا البطل المثالي الذي كان يواجه بنبالة الفروسية، وبعظمة الزهد وبسمو الفكر، كل ما طالعته به الحياة الجديدة من أطماع، وجحود، ودسائس، وحيل، وأباطيل!!

وأنا أدعو الله مخلصاً أن ينتفع القراء بهذا الكتاب.. وفي سبيل الله ما كابدت فيه من مشقة وجهد وكيد!!.. وفقنا الله إلى ما فيه خير الإسلام والأمة، والإنسانية، والله ولي التوفيق.

عبد الرحمن الشرقاوي

تعمدت ألا أذكر أرقام الأجزاء أو الصفحات في المراجع اتباعاً لرأي أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة الذي درس لي الشريعة الإسلامية عامين في كلية الحقوق.

وكان يرى ألا يكتب شيئاً بأسماء المراجع أو أرقام الصفحات، ومن أراد أن يأخذ منه وجب عليه أن يجد ويعرق ويتعب كما صنع.. وأنا أوجه هذا للمنكرين أو للطاعنين في المراجع.. فليرجعوا إلى هذه الموسوعات، وليبذلوا بعض ما بذلت من جهد، وما أنفقت من وقت، وما سفحت من عرق!!



الفصل الأول
في أحضان النبوة

قال له رسول الله ﷺ: «يا علي، ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟» قال: «بلى يا رسول الله» قال «تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك».

وأوصاه الرسول حين زوجه ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما، قال «يا علي! لا تغضب، إذا غضبت فاقعد وتذكر قدرة الله تعالى على العباد، وحلمه عنهم، وإذا قيل لك: اتق الله فاترك غضبك عنك، وارجع لحلمك».

وعلمه الرسول أن: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله إيماناً وأمناً، ومن وضع ثوب جمال تواضعاً لله وهو يقدر عليه كساه الله تعالى حلة الكرامة».

وعلمه ﷺ أن: «من استأجر أجيراً فظلمه ولم يوفه أجره، فأنا خصمه يوم القيامة. ومن أكن خصمه فأنا أخصمه (أي أغلبه)».

على هذه التعاليم التي تلقاها منذ نعومة أظفاره، عاش علي بن أبي طالب.

ولكم عفا عمن ظلمه، ووصل من قطعه، وأعطى من حرمه!!

ولكم كظم من غيظ!

ولكم ناضل لكي يوفي الأجراء أجورهم، قبل أن يجف عرقهم!!

وواجه بكل هذه الفضائل التي تعلمها من النبي عليه الصلاة والسلام عصراً شرساً تنهار فيه قِيَمٌ لتسود قِيَمٌ جديدة!

فهو عصر تضمحل فيه الإمامة بجلال تقواها، لتنشأ فيه الملكية بأطماعها وقبضتها وطَغْواها!! حيث انتهت الخلافة الراشدة، وبدأ الملك العضوض!!

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

فهو أول هاشمي يولد من أبوين هاشميين، إذ كان بنو هاشم قد تعودوا أن يصهروا إلى أسر أخرى من قريش، قبل أن يتزوج أبو طالب من بنت عمه فاطمة بنت أسد!!

كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) يعيش في كنف عمه أبي طالب، فقد كفل محمداً وهو صبي يتيم منذ وفاة جده عبد المطلب، وكان يعامل أبا طالب كما يعامل ابنٌ أباً، ويعامل فاطمة بنت أسد كما يعامل ابن بَرٌّ أمًّا!

هكذا فتح علي بن أبي طالب عينيه أول ما فتحهما على ابن عمه محمد، الذي أصبح فيما بعد رسول الله.. عليه الصلاة والسلام.

منه تعلم أولى الكلمات، وأولى الخطوات..

حتى إذا شب محمد، وتزوج من خديجة بنت خويلد، ترك بيت عمه أبي طالب ليعيش في بيت الزوجية.

ومع ذلك فقد ظل يبر عمه أبا طالب وزوجة عمه فاطمة، ويرعى ابنهما عليًا.

ثم أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، لكن هذه الأزمة التي طحنت قريشاً، كانت نعمة من الله على الصبي عليٍّ بن أبي طالب. فقد كان أبو

طالب كثير العيال، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكفلهما عنه».

فقال العباس: «نعم».

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: «إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه».

فقال لهما أبو طالب: «إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما».

وكان عقيل ضعيفاً، سقيم البدن.

فأخذ محمدٌ علياً وهو أصغر أبناء أبي طالب، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، وهو أكبر من علي بعشر سنين.

فلم يزل عليٌّ مع محمد حتى بعثه الله تبارك وتعالى رسولاً نبياً، فاتّبعه علي رضي الله عنه، وآمن به وصدقه. ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة ـ وهي التعبد قبل أن تفرض الصلاة ليلة الإسراء ـ خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب فيصليان، فإذا أمسيا، رجعا..

فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم أن أبا طالب عثر عليهما وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: «يابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟» فقال: «أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه».

فأقسم له أن يحميه ما بقي حياً مهما يكن من أمر فلا يخلص إليه أحد بسوء..!

ثم أن أبا طالب سأل علياً: «ما هذا الدين الذي أنت عليه؟!» فقال: «يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتَّبعته». فقال له: «أما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه».

أما فاطمة بنت أسد فأسلمت، فكانت أول امرأة تسلم بعد أم المؤمنين خديجة رضي الله عنهما..

ثم أن أبا طالب وابنه جعفراً أتيا النبي عليه الصلاة والسلام في داره، فوجداه يتعبد، وعن يمينه عليٌّ، فقال أبو طالب لابنه جعفر: «صِلْ جناح ابن عمك»، فصلى عن يساره.

على أن أبا طالب كتم إسلامه إيثاراً للسلامة، ولكيلا يصطدم بشراسة الملأ من قريش الذين كانوا يرون في الدين الجديد خطراً كبيراً لا لأنه يخرجهم عما ألفوه، وعما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام والأوثان فحسب، بل لأنه سيفسد عليهم أمر الكعبة والتجارة، فما تزدهر التجارة في مكة إلا لأن قصادها من أرجاء الجزيرة يأتونها لعبادة الأوثان المنصوبة في الكعبة.. فكيف إذا صرفهم الدين الجديد عن عبادة هذه الأوثان، وعن إتيان مكة والكعبة؟!

وكان أبو طالب رجلاً مهاباً شريفاً في قومه، له عليهم حقوق، فمنع محمداً أن يصل إليه ما يسوؤه..

نشأ علي بن أبي طالب إذن في حجر النبيﷺ، ولم يفارقه حتى اختاره الله إلى جواره، وفي هذا يقول علي لقومه: «تعلمون موضعي من رسول اللهﷺ، بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره، ويكنفني فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرقه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلاً في فعل، وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بهذا الاقتداء».

ويهذا العلم وهذا الاقتداء، لم يُحْنِ علي بن أبي طالب وجهه لصنم أو وثن قط، فقد كرم الله وجهه، فلم يُحْنِه لغير الله تعالى.. وانفرد بهذه الخصلة إذ كان أول من أسلم من الذكور، وأول من صلى منهم خلف رسول الله ﷺ.

وكرّم الله وجهه فلم يقع على عورة قط، وكان إذا سقط خصمه في الصراع، وأدرك أنه هالك بسيف عليٍّ، كشف الخصم عن عورته، فأشاح علي بوجهه تعففاً، بل شاعت في وجهه الكريم أمارات الإشفاق، فتركه!

وكرّم الله وجهه، فكان على سمرته كالقمر المنير كما يقول معاصروه..

ما أجهز على جريح قط، وبهذا كان يأمر جنده في كل المواقع والحروب: «لا تجهزوا على جريح»!

بهذه النبالة كابد عصراً من اللؤم عندما وَلِيَ أمر المؤمنين، بعد الرسول ﷺ وثلاثة خلفاء راشدين رضي الله عنهم!

وكان رضي الله عنه كثير التبسم، ينزع أحياناً إلى السخرية، ولكنها ليست سخرية الممرور المحروم من طيبات الدنيا، بل سخرية من عرف الدنيا فزهد فيها، وسما عليها.. فهي سخرية تريح القلب بحلاوة الدعابة، ودفء الإيمان، وتقنع العقل بأن العظمة تنبع من الاستغناء عن الزخرف، لا من استجداء الأبهة!..

وكان قوي البنية، عريض المنكبين، ممتلىء الجسم، عظيم العينين، كثير الشعر، عريض اللحية، ربعة في الرجال لا بالطويل ولا بالقصير. في زمن كان طوال رجاله في مثل قامة الجمل، حتى ليقال إن من هؤلاء الطوال من كان يقبل امرأته وهي في هودجها على ظهر بعير!! ومنهم من كان إذا ركب جواده كادت قدماه تمسان الأرض..!

وكان كرم الله وجهه ضخم عضلة الذراع، ضخم عضلة الساق، إذا أمسك بخصمه كاد يحبس أنفاسه. فما صارع أحداً إلا صرعه، يتدفق بيانه كالسيل، جذاب الحديث، قوي الحجة، ما جادل أحداً إلا أسكته..

كان يسرع في سيره، وقد انكفأ إلى أمام، فإذا سار إلى الحرب هرول.. متشبهاً في مشيته بالرسولﷺ، الذي جعله أسوته منذ نشأ.

وعندما تقدم به العمر، دهمه الصلع، وابيضت لحيته العريضة، وما في رأسه من شعر.

ولأنه أسلم وهو صبي لم يبلغ الحلم، ولأنه لزم الرسولﷺ، فقد كان يشعر إلى أغوار قلبه بكرامة الإنسان الذي علا على الشهوات، والتزم مكارم الأخلاق..

ولقد ظن الزبير بن العوام، وكان من سنه وابن عمته، أن اعتزاز علي بقوته الروحية والبدنية وبطهارته هو الزهو والخيلاء..

حتى لقد مر رسول اللهﷺ وبصحبته الزبير بن العوام فلقيا علي بن أبي طالب في بعض شأنه، فضحك له الرسول، وضحك علي محيياً ولم يقدم على الرسول مسلماً.. فقال الزبير: «لا يَدَعُ ابن أبي طالب زهوه!». قال رسول اللهﷺ على مسمع من علي والقوم: «إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم»..!!

وقد بلغ من عمق تأثير علي بن أبي طالب على الناس أنه اشترى عبداً، فعلمه الإسلام وأعتقه، لكن العبد لزمه.. حتى إذا مات النجاشي ملك الحبشة، واضطربت الأمور من بعده، اكتشف الملأ من الحبشة أن هذا العبد هو ابن للنجاشي قد خطفه تجار الرقيق وهو غلام وباعوه في مكة!! فجاءه الملأ من الحبشة يعرضون عليه مُلك الحبشة خلفاً لأبيه النجاشي، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام في صحبة علي!!

وكان هو الذي أقنع أهل اليمن جميعاً بالإسلام من قبل. وعندما كتب إلى الرسول بذلك، سجد لله شكراً، ودعا لعلي ولأهل اليمن.. وكان أول من أسلم من أهل اليمن هم همذان الذين أمّهم علي في الصلاة، ثم تبعهم بقية أهل اليمن. فقال الرسول: سلام على همذان.. سلام على همذان..

ولقد قال الرسول لصحابته حين اطلع على فتاوى علي وقضائه في اليمن: «علي أقضاكم».

وكان عمر يكرر: «علي أقضانا».

وحين أصبح عمر أميراً للمؤمنين كان يستعيذ من معضلة ليس لها أبو الحسن، أي علي بن أبي طالب.. ولقد استشاره أبو بكر من قبل، وعثمان من بعد، رضي الله عنهم جميعاً..

ويروى أن أحد الصحابة سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن حكم المسح على الخفين في الوضوء، متى يجوز بدلاً من غسل القدمين؟ فقالت له: «إيتِ علياً فَسَلْه».

وعن سعيد بن المسيب: «ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. فما من آية نزلت يجهل كيف نزلت، وماذا تعني».

وقال عنه أحد الصحابة: «إن علياً عليه السلام كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله ﷺ، والفقه في المسألة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون».

قال معاوية لرجل من أصحاب علي بعد مصرعه: «صف لي علياً» فقال الرجل واسمه ضرار: «اعفني» قال معاوية «لَتَصِفَنّه». قال: «أما إذا لا بد من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً،

ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة من نواحيه ويستَوْحِش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه. ونحن والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا - لا نكاد نكلمه هيبة له. يعظِّم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييئس الضعيف من عدله. وأشهد أني لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري، ! أإليّ تعرضت أم إليّ تشوفت!؟ هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق».

فبكى معاوية حتى اخضلت لحيته وقال: «رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟» قال: «حزن من ذُبِحَ وحيدُها في حجرها».

ولما بلغ معاوية قتل علي قال: «ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب» فقال له أخوه عتبة بن أبي سفيان: «لا يسمع هذا منك أهل الشام» فقال له: «دعك مني».

ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال لوفد ثقيف بعد أن خدعوه: «لتسلمن أو لأبعثن رجلاً مثل نفسي فليضربن أعناقكم، وليسبين ذراريكم، وليأخذن أموالكم». قال عمر: «والله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ. وجعلت أنصب صدري رجاء أن يقول: «هو هذا»، قال فالتفت إلى علي رضي الله عنه فأخذ بيده ثم قال: هو هذا، هو هذا».

كان يُكنَى أبا الحسن فابنه الأكبر اسمه الحسن، كما كان يُكنى أبا تُراب.

قيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام أتاه، فلم يجده في بيته، فسأل فاطمة: «أين ابن عمك» قالت: «في المسجد». فوجده الرسول مضطجعاً في المسجد، وقد سقطت عباءته والتراب يغطي ظهره، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يزيل التراب عن ظهره وهو يدعوه مبتسماً: «اجلس أبا تراب».

وإذا كان علي بن أبي طالب هو أول من أسلم من الصبيان، فإن أبا بكر هو أول عربي أسلم من الرجال، وزيد بن حارثة مولى الرسول هو أول من أسلم من الموالي..

وكان علي يرعى لهما وقارهما.. فقد كان يحب ما يحبه الرسول الذي رباه، ومن يحبه الرسول ﷺ كان آثر عنده من كل فرد سواه..

لهذا أحب أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم..

قال كرم الله وجهه: بينما أنا جالس مع رسول الله ﷺ إذ أقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: «يا علي هذان سيدا كهول أهل الجنة إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام. ولا تخبرهما يا عليٌّ».

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «وضع عمر رضي الله عنه على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يُرْفع، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت، فإذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يترحم على عمر رضي الله عنه، وقال: «والله ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله تعالى بمثل عمله منك يا عمر.. وأيم الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبك، وذاك أني كنت سمعت رسول الله ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وكنت أنا وأبو بكر وعمر، وإن كنت لأظن أن يجعلك الله تعالى معهما».

رأى رسول الله ﷺ يعطف على أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر،

وسلمان الفارسي فرق لهم، وصحبهم وأولاهم تأييده بعد الرسول، حتى ماتوا، رضي الله عنهم.

بل إنه دافع عن عمار في حياة الرسول، فقد أمر الرسول ببناء مسجد عندما استقروا بيثرب، وأمر المهاجرين والأنصار جميعاً أن يعملوا في بناء المسجد. ونشط الرسول للعمل معهم، إلا نفراً من المهاجرين اعتزلوا العمل واشتطوا على غيرهم في إلقاء الأوامر فحملوا عمار بن ياسر ما لا يطيق من التراب والأحجار واللبنات، فمضى إلى الرسول شاكياً: «يا رسول الله إنهم قتلوني، يحملون علي ما لا يحملون» فنفض الرسول عن رأس عمار التراب وقال: «إنهم لا يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية».

فأقبل عليٌّ إلى عمار يترضاه، ويشجعه، وارتجز مداعباً وساخراً بمن لا يعملون.

لا يستوي من يعمر المساجدا

يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فغاظ هذا الرجز القاعدين، وسر عمار بن ياسر، فردده، فجاءه أحد القاعدين وفي يده عصا وقال: «سمعت ما تقول منذ اليوم يابن سمية. والله إني أراني سأعرض هذه العصا لأنفك». فكفّه علي بن أبي طالب عن عمار. وغضب رسول الله وقال: «ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»؟

آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والمهاجرين، والمهاجرين والأنصار، ليُذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويؤنس بعضهم ببعض.

قال الرسول: «تآخوا في الله أخوين أخوين». ثم أخذ بيد عليٍّ فقال: «هذا أخي في الدنيا والآخرة».

وفي الحق أنه كان له أخاً وابناً وعوناً..

ظل كذلك إلى آخر عهد الرسول بالحياة، منذ ذلك اليوم الذي دعا فيه الرسول عشيرته الأقربين إلى الإسلام، فصدّوه، وسخروا به، ثم كرر الدعوة إليهم، فلم يلتفتوا إليه، إلا علي بن أبي طالب، وهو إذ ذاك صبي دون الحلم!..

سمع الرسول يقول لعشيرته: «ما أعلم أحداً من الرجال جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟». فانتفض الصبي الذي تشرب الإسلام من الرسول، وهو يرى العشيرة الأقربين ينصرفون عن رسول الله، صاح الصبي بصوته الذي كان ما يزال بعد ناعماً، وهو يلوح بذراعه في الهواء كأنه يتحدى المجهول: «أنا يا رسول الله عونك. أنا حرب على من حاربت!»..

وضحكت العشيرة!

غير أنها لم تضحك طويلاً!

فما هي إلا سنوات قلائل، حتى أصبح علي فتى فتيان بني هاشم، يحمل لواء الرسول في كل الغزوات، ويشهد معه المشاهد إلا تبوك! ذلك أن الرسول استخلفه مكانه على المدينة.

ثم إن الرسول ﷺ حين نزلت الآية الكريمة: ﴿**يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾. دعا بعلي وفاطمة والحسن والحسين وألقى عليهم برده قائلاً: «يا رب هؤلاء هم أهل بيتي».

وحين نزلت آية المباهلة: ﴿**قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**﴾. إلى آخر الآية الكريمة. جمع الرسول علياً وفاطمة وأولادهما، وقال: «اللهم هؤلاء هم أبنائي».

ويوم غدير خم والنبي عليه الصلاة والسلام بين صحابته، أمسك بيد علي ورفعها وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فقال عمر بن الخطاب، وكانت بينه وبين عليّ مودة ودعابة: «هنيئاً لك يابن أبي طالب. أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن، ومؤمنة»!.

وفي غزوة خيبر قال الرسول: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، يفتح الله على يديه».

فتمنى كل الفرسان من الصحابة أن يعطيهم الرسول الراية، وقال عمر: «ما تمنيت الإمارة إلا تلك الليلة». وفي الصباح دعا الرسول بأصغر فرسان الله: علي بن أبي طالب، فأعطاه الراية، ففتح الله عليه.

وقال رسول الله حين زوج ابنته فاطمة الزهراء علي بن أبي طالب، قال لها: «زوجك سيد في الدنيا والآخرة».

وجعل يدعو لهما كما لم يدع الله لأحد غيرهما.

وقد تزوجا في السنة الثانية للهجرة على أثاث قليل خشن.

وكانت تطحن له الشعير والقمح وتصنع الخبز وكان علي يساعدها في عمل المنزل..

تعود أن يشترك في عمل المنزل أسوة برسول الله.

وعندما نزل الكوفة، وتولى أمر المؤمنين بعد عثمان، عاش في أدنى بيت من بيوت المسلمين في الكوفة.

وكان يدير طاحونة اليد بنفسه، يطحن عليها الشعير والقمح، ليصنع منه أهل بيته الخبز..

ولم يتبدل ولم يتغير، وهو يحكم أكبر دولة، وأغنى دولة عرفها ذلك الزمان!!..

ذلك أنه يملك خصالاً من الزهد امتاز بها، وهي خصال وفرت له خصائص الإمامة، لا سمات الملك!

وفي الحق أنه كان متعدد المواهب بحيث يصعب أن نحصيها عَدًّا.

ومع ذلك فقد حاول الأولون حصر مناقبه.

قال ابن عباس: «لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ، وهو الذي كان لواء الرسول إليه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم فر عنه غيره. وهو الذي غسله وأدخله قبره»..

أما الحسن البصري فقد سأله رجل عن علي بن أبي طالب فقال: «كان والله سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، وكان ربّانِيّ هذه الأمة، وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ. أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياض مونقة. ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه يالكع!».

وفي الحق أنه شهد منذ صباه نزول آيات القرآن الكريم، منذ كان في حِجْر النبوة، وتَفَقّه في أسباب النزول، والتفسير، وعايش أغلب السنة الشريفة عملاً وقولاً فتفقه فيها جميعاً.. حتى لقد صح ما قاله فيه الرسول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي من مناقب. فمناقبه كثيرة».

وزاد غيره: «وسبب ذلك بغض بني أمية له، فكان كل من عنده علم عن شيء من مناقبه من الصحابة يثبته. وكلما أراد بنو أمية إخماده، وهددوا من حدث بمناقبه لا يزداد إلا انتشاراً».

على أن هذا الفارس الذي حمل راية الرسول في بدر وهو ابن عشرين عاماً، والذي ما بارز أحداً إلا قتله.. هذا الفارس الشجاع ذو

القوة البدنية الخارقة، كان يتمتع بقوة ذهنية خارقة أيضاً..

فمن روائع بلاغته، ومن فيض حكمته ومن نفحات عقله نشأت علوم كثيرة.. كعلوم الفقه والنحو والحساب والزهد والتصوف الواعي والكلام، وغير ذلك من علوم الدين والدنيا.

وكان ذا هيبة خاصة تجعل الناس يتحرزون أمامه من الخطأ.

عندما علمت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بمصرع الإمام علي كرم الله وجهه قالت: «فلتصنع العرب ما شاءت، فليس لها أحد ينهاها».

لقد كان يملك هذه الطاقة الخارقة على الصبر والعفو، كما تعلم منذ طفولته في حجر النبوة..

فعندما تخلف بعض الناس عن بيعته أبى أن يُذِلّهم، واكتفى بقوله عنهم: «أولئك قوم خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل.. تخلفوا عن الحق، ولم يقوموا مع الباطل».

على أن لكل صفة نادرة من هذه الصفات لشأناً عظيماً فيما سيستقبله كرم الله وجهه من أيام حياته..

ومن هذه الصفات ما روي عن رسول الله ﷺ كما أثبته الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بسند جيد: «قيل: يا رسول الله من تؤمر بعدك؟ قال: إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يأخذكم بالطريق المستقيم».

كان ﷺ حريصاً عليه، وكان به حفياً.

ولكنه لم يوص به خليفة له.

ولم يوص بأحد يخلفه.

بل ترك الأمر للمسلمين على نحو ما جاء في الحديث السابق، يختارون حاكمهم بمحض إرادتهم الحرة.

وكان علي كرم الله وجهه ـ على ما عُرِفَ به من حياء ـ جسوراً في الحق، لا يتهيب في سبيل تحري الحقيقة شيئاً، لا يستحيي من البحث والتقصي، فلا يظلم أحداً.

وهذه هي طبيعة القاضي التي ركبت فيه، إلى جوار طبيعة الزاهد!

فهو لا يريد أن يحكم بمظاهر الأمور، لأن من الظاهر ما يظلم!..

لما هاجر، وهو دون العشرين، إلى يثرب بعد الرسول ﷺ بثلاثة أيام نزل بقباء وهي على أول الطريق إلى يثرب، أقام بها ليلتين. ويروي كرم الله وجهه أنه كانت بقباء امرأة لا زوج لها، مسلمة. قال: رأيت إنساناً يأتيها في جوف الليل فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً فتأخذه. فاستربت بشأنه فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى غدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها فقال: احتطبي بها».

منذ مطلع عمره تعود علي كرّم الله وجهه أن يقتحم الضباب على الريب ليجلو الحقيقة، ويزيل الريبة.

وهذا النهج في علاج الأمور، وتقصي الحقيقة فيما وراء المظاهر سيعين على إقامة العدل في عهد عمر حين يغدو عليٌّ صاحب الشورى في أمور الفقه والقضاء، حتى ليقول عمر «لولا عليٌّ لهلك عمر».

على أن خير ما يمكن أن نجمل فيه مناقب علي كرم الله وجهه

وخصائصه، هو ما كتبه الزمخشري عن مناقبه فيما صنفه عن مناقب العشرة الكرام البررة (المبشرين بالجنة).

أجمل الزمخشري مناقب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في ثماني عشرة خاصة نوجزها فيما يلي:

الخاصة الأولى: إنه أول من أسلم من الصبيان وأول من يدخل الجنة في هذه الأمة، وقال رسول الله ﷺ «يا علي إنك أول من يقرع باب الجنة فتدخلها بغير حساب بعدي».

الخاصة الثانية: إنه المتخلف على الودائع من قبل رسول الله ﷺ في وقت الهجرة.

وبقي بمكة ثلاث ليال بأيامها حتى رد ما كان عند الرسول من ودائع لأصحابها..

ثم خلفه الرسول ﷺ على العيال والنساء بالمدينة في وقت الخروج إلى غزوة تبوك حتى بكى رضي الله عنه قال: «يا رسول الله إن قريشاً تقول إن رسول الله قد استقله فتركه».

فقال النبي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

الخاصة الثالثة: إن النبي ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار جعل علياً أخا نفسه الكريمة، وقال له «أنت أخي وصاحبي في الدنيا والآخرة».

الخاصة الرابعة: إنه الممدوح بالسيادة لما روي: أن النبي ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «زوجك سيد في الدنيا والآخرة».

الخاصة الخامسة: إنه ولي الله، وولي رسوله، وولي المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون**

الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ [المائدة: ٥٥].

نزلت هذه الآية الكريمة في حق علي حين كان يصلي في المسجد وهو راكع، قام سائل يسأل، فمد علي يده إلى خلفه وأومأ إلى السائل بخاتمه، فأخذه من إصبعه.

وقد قال الرسولﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وهذا الحديث الشريف في مسند الإمام أحمد بن حنبل.

وفيه روايات مختلفة منها أن الرسولﷺ قال للناس يوم غدير خم (وخم اسم الغدير) قال: «اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه».

وزاد أحد رواة الحديث: «وانصر من نصره واخذل من خذله».

الخاصة السادسة: إنه أقضى الصحابة. لقول الرسولﷺ: «أقضاكم علي».

الخاصة السابعة: إنه محبوب المؤمنين ومبغوض المنافقين.

قال له النبيﷺ: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» (وهذا الحديث أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، وأخرجه كثير غيره مع اختلاف في الألفاظ».

الخاصة الثامنة: إن رسول اللهﷺ انقطع عن أصحابه لأجل علي. فنادى الناس بعضهم بعضا: «أفيكم رسول اللهﷺ؟». حتى جاء الرسول ومعه علي بن أبي طالب، فقالوا: «يا رسول الله فقدناك». فقال: «إن أبا الحسن وجد مغصاً في بطنه فتخلفنا عليه»...

الخاصة التاسعة: إنه باب مدينة العلم كما جاء في الحديث الشريف: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» (الحديث).

الخاصة العاشرة: إنه ذو الأذن الواعية.

روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ [سورة الحاقة مكية آية ١٢] قال رسول الله ﷺ: «سألت الله ـ عز وجل ـ أن يجعلها أذنك يا علي».

قال علي: «فما نسيت شيئاً بعد ذلك وما كان لي أن أنسى».

وشرح الزمخشري عبارة «أذن واعية» في تفسيره المعروف باسم «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»: «أذن واعية من شأنها أن تعي وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل. وكل ما حفظته من نفسك فقد وعيته وما حفظته من غير نفسك فقد أوعيته».

أي أن الرسول ﷺ دعا له بالتفوق في الفهم والوعي والعمل. وهذا ما لم يدع به لغيره بل اختصه به هو وحده.

ونلاحظ أن الزمخشري لم ينفرد بهذا التفسير فقد جاء في تفسير ابن كثير أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية: «سألت ربي أن يجعلها أذن علي». فكان علي يقول: «ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط فنسيته» وفي تفسير ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال لعلي: «إني أمرت أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك، وأن تعي، وحق لك أن تعي». فنزلت هذه الآية.

الخاصة الحادية عشرة: إنه جمع ثلاث مفاخر لم تُجْمَع لأحد سواه. لما رُوِي أن الرسول ﷺ قال له: «يا علي! أُعطيتَ ثلاثاً لم يُعْطَها أحد غيرك: صهراً مثلي، وزوجة مثل فاطمة، وولدين مثل الحسن والحسين».

الخاصة الثانية عشرة: إنه صعد على منكبي رسول الله ﷺ لمّا روى علي كرم الله وجهه في قصة قمع الأصنام.

قال: «انطلق رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال لي: «اجلس» فجلست، فصعد على منكبي.

فقال لي: «انهض»، فنهضت. فعرف ضعفي تحته.

قال لي «اجلس» فجلست.

ثم نهض بي رسول الله ﷺ فخيل إلي أنني لو شئت نلت أفق السماء. فصعدت إلى الكعبة.

وتَنَحّى رسول الله ﷺ وقال: «ألق صنمهم الأكبر، صنم قريش».

وكان من نحاس مُوَتَّدٍ بأوْتاد من حديد في الأرض. فقال رسول الله ﷺ: «عالجه».

فجعلت أعالجه، حتى استمكنت منه فقال: «اقذفه»، فقذفته حتى انكسر.

ونزلت من فوق الكعبة، وانطلقت أنا والنبي ﷺ نسعى، وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم».

الخاصة الثالثة عشرة: إنه حاز سهم جبريل ﷺ، من غنائمِ تبُوك.

روي أن رسول الله ﷺ لما غزا تبوك، استخلف علياً على المدينة.

فلما نصر الله رسوله وغنم المسلمون أموال المشركين ورقابهم، جلس رسول الله ﷺ، وجعل يقسم السهام على المسلمين سهماً سهماً.

ودفع إلى علي بن أبي طالب سهمين.

فقام أحد الصحابة يسأل: «يا رسول الله! أوَحْيٌ نزل من السماء أم أمر من نفسك؟».

فقال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله! هل رأيتم في رأس ميمنتكم صاحب الفرس الأغرّ المحَجَّل والعمامة الخضراء، لها ذؤابتان مرخاتان

على كتفيه، بيده حربة، قد حمل على الميمنة فأزالها، وحمل على الميسرة فأزالها، وحمل على القلب فأزاله؟».

قالوا: «نعم لقد رأينا ذلك».

قال: «هو جبريل، وإنه أمرني أن أدفع بسهمه لعلي».

الخاصة الرابعة عشرة: إن النظر إلى وجهه عبادة. لما روت عائشة - رضي الله عنها - قالت: «رأيت أبي يديم النظر إلى وجه علي - رضي الله عنهما - فسألته عن ذلك، فقال: «ما يمنعني من ذلك ورسول الله يقول: «النظر إلى وجه علي عبادة»؟

الخاصة الخامسة عشرة: إنه أحبُّ الخلق إلى الله بعد رسوله ﷺ لما روى أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه قال: «أهدي إلى رسول الله ﷺ فرخان مشويان، فقال: «اللهم سق أحبَّ خلقك إليك، ليأكل معي».

قال أنس: «وكنت على الباب فجاء رجل فرددته، رجاء أن يجيء رجل من الأنصار.

ثم جاء علي رضي الله عنه فأذنت له، فقال رسول الله ﷺ: «لتأكل يا علي، فأنت أحب خلق الله إليه، فقد دعوت الله تعالى أن يسوق أحبَّ خلقه إليه». (أخرجه عدد من أهل الثقة من رواة الأحاديث مع اختلاف في الألفاظ).

الخاصة السادسة عشرة: إن الرسول ﷺ سماه يعسوب المؤمنين.. واليعسوب أمير النحل الذي تنقاد إليه ويقوم بمصالحها، ويرجع إليه في أمورها.

وقد قال علي كرم الله وجهه في ثنائه على أبي بكر رضي الله عنه: «كنت للدين يعسوباً أولاً حين نفر الناس منه».

وفي الحديث الشريف رواية أخرى اعتمد عليها عليٌّ كرم الله وجهه فقال: «أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين والمنافقين».

الخاصة السابعة عشرة: إن النبيﷺ سماه رزأ الأرض (مهموز وغير مهموز وهي مهموزة تعني الصوت والصوت جمال الإنسان، فكأنه قال لعلي أنت جمال الأرض أو صوت الأرض. والرزا بغير همزة هو الرجل المنفرد الوحيد، فكأنهﷺ قال: أنت وتد الأرض، وهو صفة مدح).

الخاصة الثامنة عشرة: إن النبيﷺ تولى تسميته، وأمصه لسانه.

هذا هو موجز ما جمعه الزمخشري من مناقب علي كرم الله وجهه، فيما جمعه عن خصائص العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة، وهم الخلفاء الراشدون الأربعة؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم طلحة والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو عبيدة بن الجراح.

وهؤلاء الذين نزل فيهم قوله تعالى (في سورة التوبة آية ١٠٠): **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾**. صدق الله العظيم

وقصارى ما يقال في فضائل علي كرم الله وجهه، أنه تعلمها من الرسولﷺ، منذ نشأ في حجر الرسول، وترعرع في أحضان النبوة..

الرسولﷺ هو الذي أسماه..

وهو الذي كناه.

وهو الذي أطلق عليه، حين نضجت مناقبه «إمام المتقين».

الفصل الثاني

لا فتى إلا علي!

غدا على رسول الله ﷺ بعض كبار المهاجرين والأنصار يخطبون إليه ابنته فاطمة، فسكت عنهم الواحد بعد الآخر. حتى جاءه علي فوافق على مهر قليل، سأل النبي فيه علياً إن كان يطيقه، وإلا خففه عنه، فأبدى علي سروره، وانطلق يدبر المهر. دعا الرسول عدداً من المهاجرين والأنصار فقال لهم: «إن الله جعل المصاهرة سبباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً أوشج به الأرحام، وألزم الأنام، فقال عز من قائل: **﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾** فأمْرُ الله تعالى يجري إلى قضائه وقضاؤه يجري إلى قَدَرِه، ولكل قَدَرٍ أجل، ولكل أجل كتاب **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾** ثم أن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة بنت خديجة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني زوجته على أربعمائة مثقال فضة».

ثم أهداهما عليه الصلاة والسلام بساطاً من الصوف الأبيض.

وخَفَّتْ نساء الأنصار الثَّرِيَّات، فأهدين فاطمة رداءين جميلين للزفاف، وبعض حقاق من الطيب والعطور، وأقرضنها بعض الحلي من الذهب والجواهر النادرة.

وأمر رسول الله زوجتيه عائشة وأم سلمة أن تجهزا فاطمة حتى يدخلاها إلى عليٍّ، وأن يقوما منها مقام أمها خديجة رحمها الله. فعمدتا إلى البيت ففرشتاه رملاً ليناً من أعراض البطحاء، ثم إلى وسادتين

فرشتاهما ليفاً نفشتاه بأيديهما، وعمدتا إلى عود فعرضتاه في جانب البيت لتلقى عليه الثياب وتُعلَّق القربة. وقالتا بعد العرس: «ما رأينا عرساً أحسن من عرس فاطمة».

وما كان جهاز فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ إلا سريراً من الخوص مشدوداً بالحبال، ووسادتين حشوهما ليف، وبساط صوف، وجلد كبش يقلب على صوفه فيصير فراشاً، وإناء به سمن جاف يطبخ به، وقربة للماء، وجرة وكوزاً، ورملاً مبسوطاً..!!

وقال الرسول ﷺ: «يا علي. إنه لا بد للعروس من وليمة». فقال أحد أغنياء الأنصار: «عندي كبش» فأعده صاحبه، ودعا عليٌّ رهطاً من المهاجرين والأنصار، وأحضروا الطيب والزبيب والتمر، ولما طعم المدعوون وانصرفوا، ولم يبق إلا علي، ذهب رسول الله ﷺ ينادي ابنته فاطمة، وكانت النساء قد انصرفن عنها بعد انتهاء الوليمة، فوجد معها امرأة، فسألها الرسول عما يبقيها، قالت: «أنا التي أحرس ابنتك، إن الفتاة ليلة بنائها (زفافها) لا بد لها من امرأة قريبة منها إن عرضت لها حاجة أو أرادت أمراً أفضت بذلك إليها». فقال للمرأة وهي أسماء بنت عميس: «فإني أسأل إلهي أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم».

ثم جاءت العروس فاطمة، وقد طيبها النساء بما جئن به إليها من طيب، وزينها وألبسنها بما أهدينها من ثياب جديدة، وحلّينها بأغلى حليهن على أن تردها إذا كان الغد!!

فلما رأت فاطمة عريسها علياً جالساً إلى جوار أبيها ﷺ بكت!

وخشي أبوها أن يكون سبب بكائها أن زوجها فتى لا مال له، آثره بها، وفضله على خُطَّاب كثيرين ردهم من قبل من أغنياء المهاجرين

والأنصار، وإن كانوا جميعاً لفي مثل سن أبيها!! وعليٌّ وحده أقربهم إلى سنها.

سألها أبوها عما يبكيها.

فلم تجب!..

ما يبكي عروساً ليلة زفافها؟!

لعلها تذكرت أمها الراحلة السيدة الطاهرة أم المؤمنين خديجة!.. فتمنت لو أنها كانت معها بدل أسماء بنت عميس، في هذه الليلة الفريدة من العمر!!.. ولو أن خديجة أمها هي التي جهزتها بدل زوجتي أبيها!!

وحاول الرسول أن يكفكف دمع ابنته بلا جدوى، فقد ظلت دموعها تسيل في صمت، وأخذه عليها إشفاق حزين..

فأقسم لها أنه لم يأل جهداً ليختار لها أصلح الأزواج، وما اختار لها إلا خير فتيان بني هاشم.. وأضاف. «والذي نفسي بيده لقد زوجتك فتى سعيداً في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين».

وطلب الرسول ﷺ من أسماء أن تأتيه بإناء فيه ماء معطر... فرش منه على جلد فاطمة وجلده، وعلى رأسها ورأسه وقال: «اللهم إنها مني وإني منها، اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني فطهرها. اللهم إني أعيذها وذريتها بك من الشيطان الرجيم».

ثم صنع بعلي كما صنع بفاطمة، ودعا له كما دعا لها.

وقال: «اللهم هؤلاء هم أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فقال علي: «يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي؟» قال: «هي أحب إلي منك، وأنت أعز علي منها». ثم قال: «اللهم إني أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم».

ثم دعا لهما وهو يتركهما وحدهما: «جمع الله شملكما وأسعد

جدكما وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيراً طيباً».

وتعود الرسول أن يزورهما، وكان كلما وجد عليهما آثار الفقر والزهد واسى ابنته.. وبشرها أنها ستكون من خير نساء الجنة.. قال: «حسبك أن خير نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون. فأنت منهن».

كان إذا أوصى علياً بها قال: «فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها».

وفي الحق أن علياً وضعها على العين والرأس، وأحسن معاملتها.. بل لقد حمل عنها عبء كثير من أعمال البيت!

وقبل أن تعود الغزوات بالغنائم، ويأخذ منها نصيبه، كان يعمل ويؤجر نفسه ويكسب من كَدِّ يده، ويعود بما كسب، فيشتري منه ما يقيم الأود.. وعندما رزقا بالبنين ثقلت أعباء الحياة عليهما، وشق عليها عمل المنزل، وما من أحد يساعدها غير زوجها...

ولقد أجهدتها الرحى التي تطحن بها الشعير، وأجهدها عمل المنزل وتربية الأولاد، فسألت أباها بعد إحدى الغزوات التي غنموا فيها كثيراً أن يمنحها من يساعدها، ولكنه ما كان ليعطيها غير ما يستحقه زوجها!..

ولقد تأخر بلال يوماً عن الأذان، فسأله الرسول عما أخَّره، فأخبره أنه مر بدار علي فوجد فاطمة مجهدة تدير الرحى، وابنها الحسن يبكي، فآثر أن يدير الرحى ويطحن عنها الشعير، لتتفرغ هي لإرضاع الطفل!!

ومرض الحسن والحسين، وهما صبيان، فعاودهما جدهما ومعه بعض صحابته. ونبه فاطمة وهو على باب دارهما أن معه غرباء، ورمى

إليها بردته وهي خلف الباب لتغطي بها من جسمها ما لا ينبغي أن يراه الغريب!

وقال أحد الصحابة لعلي: «يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً». فقال علي: «إن برئا مما بهما صمت لله عز وجل ثلاثة أيام شكراً». وقالت فاطمة كذلك. وقال الغلامان كذلك. فلما برئا أصبح الجميع صياماً وما في الدار شيء من طعام يفطرون عليه.

فغدا علي بن أبي طالب على جار يهودي له يدعى شمعون، كان يعالج الصوف، فقال له: «هل لك أن تعطيني جزة من الصوف تغزلها لك بنت محمد بثلاث أصوع من شعير؟» قال: «نعم». فأعطاه فجاء بالصوف والشعير، فأخبر فاطمة، فقبلت وأطاعت. ثم غزلت ثلث الصوف، وأخذت صاعاً من شعير فطحنته وعجنته وخبزته... وصلى عليٌّ المغرب بالمسجد مع رسول الله ﷺ، ثم أتى منزله ليفطر، فوُضِعَ الخوان فجلسوا فأول لقمة كسرها علي، إذا مسكين واقف على الباب فقالَ: «يا أهل بيت محمد. أنا مسكين من مساكين المسلمين. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة».

فدفع علي الطعام إلى المسكين. وباتوا جياعاً، وأصبحوا صياماً!.

وفي اليوم التالي طحنت فاطمة الصاع الثاني، وخبزته، ووضعت الطعام ليفطروا، إذ وقف بالباب يتيم من أولاد المهاجرين استشهد أبوه، فأعطوه الطعام! وفي اليوم الثالث طحنت آخر صاع وخبزته، وعند المغرب وضعت الطعام، إذ وقف بالباب أسير يقول: «السلام عليكم أهل بيت النبوة، تأسروننا ولا تطعموننا. أطعموني فأنا أسير». فأعطوه الطعام..!

وأقبل علي ومعه الحسن والحسين يرتعشان كالفرخين من شدة الجوع على رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا الحسن! لشد ما يسوءني ما

أدرككم. انطلقوا بنا إلى ابنتي فاطمة». فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وهي قد غارت عيناها من شدة الجوع، فقال عليه الصلاة والسلام: «واغوثاه!».. ثم ضمها إليه.

فأنزل الله تعالى آيات من سورة الإنسان.. أولها الآية.. **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾**. إلى قوله تعالى: **﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾**. وفيها يتحدث سبحانه عن الأبرار: **﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً. ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾**.

على أن حياة الشظف لم تشغل علياً ولا فاطمة عن المتاع العقلي والروحي وما كانا يجدانه في تدارس القرآن، وتعمق معانيه، وفي تدبر السنة الشريفة وفي التفكير في خلق السموات والأرض كما أمر الله عباده أولي الألباب.

كان علي يستشير امرأته، ويبرها، ويسكن إليها، ويستقيم على طريق الهداية كما أمر الله ورسوله.

وما انفك الرسول ﷺ يوصي الرجال بحقوق النساء، وبحسن صحبتهن، ورعايتهن.

وعلي وفاطمة يتبادلان المعارف، ولا يأنف أحدهما أن يستقي من الآخر علماً لا يعلمه.

وإن هذا التقدير للنساء هو من تقاليد الفرسان ومن آداب الفتوة التي كان يحرص عليها علي كرم الله وجهه. وهو أفتى فرسان الله، وأحرص الناس على اتباع الرسول.

ويروى عنه أنه قال: «قال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: أي شيء خير للمرأة؟ فلم يكن عندنا لذلك جواب. فلما رجعت إلى فاطمة قلت: يا بنت محمد! إن رسول الله ﷺ سألنا عن مسألة فلم ندر كيف نجيبه.

فقالت: وعن أي شيء سألكم؟ فقلت قال: أي شيء خير للمرأة؟. قالت: فما تدرون ما الجواب؟ قلت لها: لا. فقالت: ليس خير للمرأة من أن لا ترى رجلاً ولا يراها! فلما كان العشيُّ جلسنا إلى رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إنك سألتنا عن مسألة فلم نجبك عليها. ليس للمرأة شيء خير من ألا ترى رجلاً ولا يراها. قال: ومن قال ذلك؟ قلت: فاطمة. قال صدقت فاطمة إنها بضعة مني».

وعن صدقها قالت عائشة: ما رأيت أحداً قط أصدق من فاطمة غير أبيها.

ولقد أهدي إلى عليٍّ وفاطمة بعض الفالوذج فأطعماه أولادهما ولم يطعما منه. وقال علي وقد وضعه أمامه: «إنك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم، لكني أكره أن أعود نفسي ما لم تعتده» (والفالوذج حلوى تصنع من الدقيق والماء والعسل).

وكان الرسول ﷺ كلما عاين زهده وورعه، أثنى عليه، ودعا الله له ولزوجه وبنيه.. قال له يوماً: «يا علي! إن الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها وهي زينة الأبرار عند الله عز وجل: الزهد في الدنيا، فجعلك لا ترزأ (أي تصيب) من الدنيا شيئاً ولا ترزأ منك الدنيا شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فجعلك ترضى عنهم أتباعاً ويرضونك إماماً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك. فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم (في الآخرة) جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين».

كان عليه الصلاة والسلام عندما يأخذ علياً وفاطمة بآداب الدين يطرح لهما السؤال فإذا وافق الجواب ما يريد أن يعلمهما إياه استحسنه، وإلا صححه.. سأله الرسول يوماً: «يا علي! كيف أنت إذا زهد الناس

في الآخرة ورغبوا في الدنيا، وأكلوا التراث أكلاً لَمًّا، وأحبوا المال حباً جَمًّا؟».

قال علي: «أتركهم وما اختاروا وأختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأصبر على مصيبات الدنيا وبلواها حتى ألْحق بك إن شاء الله تعالى». قال الرسول: «صدقت. اللهم افعل ذلك به».

وما كان زهد علي في الدنيا زهد هارب منها، ولكنه زهد المنشغل عن إسعاد نفسه بمتاعها، إلى إسعاد الآخرين، من أجل ذلك أحب من اللباس أخشنه وهو الصوف!!

وإنه في أغوار نفسه ليشعر بالرضا كلما أمكنه أن يسد حاجة لمحتاج، ولو بكل ما عنده، واثقاً في أن الله سيعوضه خيراً.. فما هو زهد العازف عن الحياة، ولكنها تقوى العارف بالله!

جلس في سوق المدينة المنورة ومعه ابنه الحسن وهو صغير، ومر سائل مسكين، فرق علي له فقال للحسن: «اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم. فهات منها درهماً». فذهب الحسن إلى أمه ثم رجع إلى أبيه فقال: «أمي تقول لك إنما تركت ستة دراهم للدقيق». فقال علي: «لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يَده، قل لها ابعثي بالدراهم الستة جميعاً». فبعثت بها إليه فدفعها كلها إلى السائل. وبعد لحظات مر به رجل معه جَمَلٌ يبيعه. فقال علي: «بكم الجمل؟» قال الرجل: «بمائة وأربعين درهماً». قال علي للرجل إنه يشتري الجمل، ولكنه سيدفع ثمنه بعد حين!. فوافق صاحب الجمل، وتركه لعلي ومضى. ثم أقبل رجل آخر فقال: «لمن هذا البعير؟». قال علي: «لي». قال الرجل: «أتبيعه». قال: «بكم؟». قال: «بمائتي درهم». فأخذ الرجل البعير وأعطى علياً المائتين، فأعطى صاحب الجمل ـ حين عاد إليه ـ حقه، وهو مائة وأربعون درهماً. وجاء بستين درهماً إلى فاطمة. فقالت: «ما هذا؟». قال: «هذا ما وعدنا الله على

لسان نبيه ﷺ من جاء بالحسنة فلها عشر أمثالها».

عربد عليه أحد حساده، فنصحه بعض أن يشكوه إلى رسول الله ﷺ فقال: «إني لأستحي من الله أن يكون هناك ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يداريها ستري، أو خلة (الحاجة والفقر) لا يسدها جودي».

وكان أحياناً لا يجد عملاً يقتات منه إلا أن يملأ الدلو في بستان أحد الأغنياء من يهود المدينة، ليروي به البستان، وكان اليهودي يعطيه في كل دلو تمرة، فيعود إلى فاطمة بتمر يطعمها هي وأولادهما، وربما أهدى منه الرسول، إذا أصابته عليه الصلاة والسلام خصاصة.. ولكم كانت تصيبه!!.. هكذا كان يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى.. وفي الحق أنه كان عند ربه مرضيا.

على أن هذا الزاهد الذي يكاد يذوي من الجوع، كانت تعتريه القوة إذا انشغل بالعلم الذي تلقاه عن رسول الله، أو بالجهاد في سبيل الله.. كانت تتلبسه الشجاعة والقدرة البدنية الخارقة، في المواقع التي شهدها مع الرسول منذ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير!

إن علياً لمن أفتى فرسان الله.. كان في نحو العشرين، يوم بدر.. وتقدم أقوى فرسان قريش يَتحدّون المسلمين، ويستفزون محمداً، ويطلبون أقوى فرسانه للمبارزة.

برز من صناديد المشركين عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد فقالوا: «من يبارز؟». فخرج من المسلمين فتية من الأنصار، فقال عتبة: «لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني أعمامنا من بني عبد المطلب». فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا علي». فبرز حمزة

لعتبة فقتله، وبرز علي للوليد بن عتبة فقتله، وقتل عبيدة بن الحارث شيبة بمساعدة حمزة وعلي، بعد أن قطع شيبة رجل عبيدة.

ونزلت في ذلك الآية الكريمة: **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾**. فالذين آمنوا هم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث. و «المفسدون في الأرض» هم عتبة وشيبة والوليد بن عتبة.

وعندما التحم الجمعان فعل حمزة وعلي في جيش المشركين الأفاعيل، كما أبلى المجاهدون في سبيل الله بلاء حسناً.

قال علي: «قاتلت يوم بدر قتالاً ثم جئت إلى النبيﷺ فإذا هو ساجد يقول: يا حي يا قيوم. ثم ذهبت فقاتلت ثم جئت فإذا النبي ساجد يقول: يا حي يا قيوم. ففتح الله عز وجل عليه».

وفي يوم بدر قتل علي أصحاب ألوية قريش جميعاً، فأبصر الرسولﷺ جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: «احمل عليهم» فحمل عليهم ففرق جمعهم، وفروا، وقتل منهم سيد بني جمح. ثم أبصر الرسولﷺ جماعة أخرى من المشركين فقال لعلي: «احمل عليهم». فحمل عليهم ففرقهم وقتل منهم سيد بني عامر بن لؤي.

وفي يوم بدر قتل علي كثيراً من زعماء قريش، أما في يوم أحد فقد أصابته ست عشرة ضربة. وظل يطعن ويتلقى الطعنات، فيعالج، ويعود للطعان، وخرج إليه طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين فقال: «يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يعجلنا بأسيافكم إلى النار ويعجلكم بأسيافنا إلى الجنة فأيكم يبرز إلي؟». فبرز إليه علي بن أبي طالب وقال: «والله لا أفارقك حتى أُعجِلك بسيفي إلى النار». فاختلفا ضربتين، فضربه علي فسقط إلى الأرض جريحاً، وبانت عورته. فتوسل إلى علي: «أنشدك الله والرحم يابن العم». فانصرف علي عنه. فقال

المسلمون: «يا علي هلا أجهزت عليه؟». فقال: «ناشدني الله! ولن يعيش»، وظل طلحة ينزف حتى مات من ساعته.

وعاد من أحد بصحبة الرسول ﷺ، وسيفاهما يقطران دماً، فصليًا بالمسجد، ثم دفعا بسيفيهما إلى فاطمة فغسلت عنهما الدماء. وعاد الرسول إلى بيته.

وفي غزوة الخندق واجه عمرو بن ود وهو مقاتل غادر فاتك من رؤوس المشركين، وفارس لم يبارز أحداً قط إلا صرعه. كان عمرو يقف على رأس خيله يتحدى المسلمين، فقال علي له: «يا عمرو قد كنت تعاهد الله لقريش ألا يدعوك رجل إلى إحدى خلتين إلا قبلت منه إحداهما». فقال عمرو: «أجل». فقال له علي: «فإني أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله وإلى الإسلام». فقال عمرو: «لا حاجة لي في ذلك». فقال علي: «فإني أدعوك إلى البراز». فقال عمرو مستخفاً بصغر سن علي: «يابن أخي لم؟ فوالله ما أحب أن أقتلك». فقال علي ساخراً في دعابة: «لكني والله أحب أن أقتلك»!! فأعرض عمرو، استخفافاً به، ثم أقبل على المسلمين مستهزئاً يقول «من يبارز؟». فقال علي للرسول: «أنا له يا نبي الله». فقال الرسول: «إنه عمرو بن ود. اجلس».

فجلس علي يكظم غيظه، ومضى عمرو بن ود يتبختر مزهواً يتَنَزَّى أمام المسلمين. ثم نادى في ازدراء على الجميع: «ألا رجل؟!» فاستأذن علي الرسول ﷺ أن يبارزه، فأذن له.

فمشى إليه علي وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

فقال عمرو ساخراً: «من أنت؟» قال علي: «أنا علي بن أبي طالب». فقال عمرو: «عندك من أعمامك من هو أسن منك يابن أخي،

فانصرف فإني أكره أن أهريق دمك». فقال علي: «ولكني والله ما أكره أن أهريق دمك». فسلَّ عمرو سيفه كأنه شعلة نار، ثم اندفع نحو علي مغضباً، واستقبله علي بدرقته فضربه في الدرقة فشقها وأثبت فيها السيف، وأصاب رأس علي فشَجَّه شَجّاً يسيراً.. وضربه علي كرم الله وجهه على حبل العاتق فسقط عمرو وثار العجاج، وبانت سوأة عمرو. وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرف أن علياً قتل عمرو بن ود. وأقبل علي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل. فعانقه الرسول ودعا له.

فقال عمر بن الخطاب لعلي: «هل استلبت درعه، فليس للعرب درع خير منها؟». فقال: «ضربته فاتقاني بسوأته فاستحييت أن أستلبه!!».

وعن غزوة خيبر يروي أبو رافع مولى الرسول قال: «خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن، فتَرَّس به نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتُني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه!».

كان على رأس هذا الحصن أحد شجعان اليهود واسمه مرحب، وهو الذي طرح الترس من يد علي، فانقض عليه كرم الله وجهه وبارزه متحصناً بباب الحصن الثقيل، وطالت المبارزة، حتى أهوى علي بسيفه على وجه مرحب، وسقط الحصن واستأسر من فيه، وغنم منه المسلمون مغانم كثيرة.

من أجل ذلك صاح نفر من المعجبين به من المسلمين: «لا فتى إلا علي»!.. وكان هذا النداء يرج الآفاق كلما اشتبك في قتال، فيلهب منه الحماسة ويثير الحمية..

وقد شهدت أم سلمة (أم المؤمنين) رضي الله عنها غزوة خيبر فقالت: «سمعت وقع سيف علي بن أبي طالب في أسنان مرحب»!.

وقال علي بن أبي طالب: «والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدية ولكن بقوة ربانية».

وفي يوم حنين كان علي بن أبي طالب من أشد الناس قتالاً بين يدي الرسول.

وعندما حاصر الرسول بني قريظة، وكان اللواء بيد علي صاح يستحث جنده: «يا كتيبة الإيمان». ثم تقدم هو والزبير بن العوام وقال: «والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم».

وقد أفاء الله من هذه الغزوات على المجاهدين وفي طليعتهم علي ولكنه كان يتصدق بكل ما يصل إليه، ولا يبقى في داره إلا ما يكفي الطعام والكساء: الطعام الذي يقيم الأود، والكساء النظيف الذي لا زخرف فيه ولا أبهة.

وبعثه الرسول أول مرة إلى اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة من الهجرة. عقد له اللواء، وعممه بيده وقال: «امض لا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك». فخرج في ثلاثمائة فارس، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا ورموا بالنبل، ثم حمل عليهم بأصحابه. فتفرقوا وانهزموا، فكف عن مطاردتهم، ودعاهم إلى الإسلام، فأسرعوا وأجابوا، بايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام، وتبعهم أهل البلاد وقدموا حللاً من الخز وأنعاماً وأموالاً كثيرة لعلي وقالوا: «هذه صدقاتنا فخذ منها حق الله».

وجمع علي كرم الله وجهه الغنائم الكثيرة وقسم على أصحابه نصيبهم منها، وعاد بالباقي إلى رسول الله ﷺ، فوافاه بمكة حين وافاها للحج.

وعجل إلى الرسول، وترك على جنده رجلاً من أصحابه. فعمد الرجل إلى الحلل التي كانت في الغنائم والتي حملها عليٌّ معه لتكون من أموال المسلمين فكسا كل رجل من الجند حلة خز، فلما دنا الجيش خرج علي ليلقاهم فإذا عليهم الحلل. قال: «ويلك! ما هذا؟». قال: «كسوت القوم ليتجملوا» قال: «انزعها ويلك قبل أن تنتهي إلى رسول الله ﷺ!» فانتزع الحلل من الناس، وأعادها إلى مكانها من الغنائم. فاشتكى الناس علياً فقام ﷺ خطيباً فقال: «أيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه ليخشوشن في سبيل الله».

الفصل الثالث

زهد العارفين

خرج أبو سفيان من مكة، حتى قدم على رسول الله ﷺ في المدينة ليسترضيه، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية الذي أبرمته مع الرسول، ففتكت بحلفائه من خزاعة، عسى أن يصرف الرسول عما قد يرد به على نقض الصلح!

فدخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة زوج الرسول، فلما ذهب يجلس على الفراش طوته عنه، فقال: «يا بُنَيَّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟» قالت: «بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ»، قال: «والله لقد أصابك يا بُنَيَّة بعدي شر».

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً.

ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه واستشفع به عند رسول الله ﷺ، فقال: «ما أنا بفاعل».

ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه، فقال: «أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ!؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به!».

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعنده فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها، وعندها ابنها الحسن بن علي، وهو غلام يدب بين يديها. فقال: «يا علي إنك أَمَسُّ القوم بي

رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله» فقال: «ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه». (يعني فتح مكة).

فالتفت إلى فاطمة فقال: «يابنة محمد، هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟». قالت «والله ما بلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ». قال: «يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني». قال: «والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس. ثم الحق بأرضك». قال: «أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟». قال: «لا والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك».

وهكذا رَقّ علي بن أبي طالب، أسد الله وسيف الإسلام، لأبي سفيان عدو الله والإسلام، ورفق به، إذ وجده يتمرغ في الذلة والاستعطاف!

ذلك أن علياً تعود في الحرب والسلام، أن يأخذ بيد من يسقط أمامه، أو بالقليل يدعه فلا يجهز عليه!.. كان شعاره: «أحسن كما تحب أن يحسن الناس إليك. ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه».

إغاثة الملهوف، والرفق بالضعيف، والنجدة، والعطف على المستعطف... ثم الاكتفاء بما يسد الحاجة مهما تقبل الدنيا... كل أولئك كانت خصائص فتوته، وأخلاقه التي لابسها ولابسته حتى أوشكت أن تكون خليقة لا تخلقاً، وطبعاً لا تطبعاً!..

كان يقول لمن حوله: «أعينوا الضعيف، وانصروا المظلوم، وتعاونوا» ويقول: «البغي والزور يزريان بالمرء» ويقول: «الفقر منقصة للدين داعية للمقت». ويقول: «من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب».

ولقد كاد بعض هذه الفضائل أن يورده موارد الحتوف، في مواطن كثيرة مما سيستقبله من الحوادث والرجال.. ولكنه ما نبا بهاتيك الفضائل، ولا نبت عنه!

حين رزق الله المسلمين غنائم كثيرة، اتسع رزق المجاهدين منهم، واتخذ بعضهم المزارع، والدور الكبيرة، وفاخر الرياش.. أما هو ونفر من كبار الصحابة رضي الله عنهم، فقد كانوا يتصدقون بما يغنمون!

وما كان علي لينتظر حتى يسأله سائل، بل كان يبحث هو نفسه عن صاحب الحاجة، والمسكين، واليتيم، والفقير والمحروم، يمضي إليهم هو ويعطيهم من ماله ما يعتقد أنه حق لهم معلوم. وكان يقول: السخاء ما كان ابتداء أما ما كان عن مسألة فحياء وتذمم (فرار من الذم).

هكذا كان يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى.. ولسوف يرضى! وقد جعله ربه رضياً.

ولشد ما كان يرضى إذ يسعد الآخرين!!.. وكان عند ربه مرضياً!..

أرضى الله ورسوله، فأرضاه الله ورسوله.. وما كان سلوكه زهد العاجز عن المتاع الحلال، ولا زهد العازف عن الحياة، بل زهد العارف بالله!..

كان يعظ الناس بقوله: «لا يرجوَنَّ أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه». وبقوله: «من أصلح سريرته أصلح الله علانيته». وبقوله: «الصبر شجاعة.. إطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين»..

وبقوله: «اعلموا أن ما نقص في الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر، إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، فذروا ما قل لما كثر، وما

أحل لكم مما حرم عليكم، وذروا ما ضاق لما اتسع. فالله قد تكفل لكم بالرزق وأمركم بالعمل. فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله.. ما فات من الرزق يرجى غداً زيادته، وما فات أمس من العمر لم يرج اليوم رجعته. الرجاء مع الجائي (ما سيجيء)، واليأس مع الماضي، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

كما كان يعظ بقوله: «اتقوا الله تَقِيَّة ذي لب شغل التفكر قلبه... اتقوه تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، ورجع فتاب واقتدى فاحتذى... أيها الناس، الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والورع عن المحارم... اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل... طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً. ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح (أي مزقوها كما يمزق المقراض الثوب على طريقة المسيح عليه السلام في الزهد).

«رب عالم قتله جهله، وعلمه لم ينفعه (لأنه لا يعمل به)... من أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وما بينهما، كلما قرب من واحد بعد عن الآخر، وهما ضرتان!... إن تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد».

ذات صباح لم يجد ما يلبسه إلا لباساً من الصوف به خروق، فرقعه ولبسه وخرج إلى الناس، فلما لامه نفر من أصدقائه من فتيان المهاجرين والأنصار لم يبسط لهم عذره: إنه لم يجد غيره، ولكنه تبسم وقال لهم: «إن لبس هذه المرقعة من الصوف تقمع في الإنسان ما قد يشعر به من كبر، وتقهره على أن يتواضع لله، وتحمله على الخشوع حملاً!».

فتنتقل هذه المقولة من جيل إلى جيل، وتعرف الأمة الإسلامية بعد

ذلك نفراً من الزهاد والأتقياء يلبسون المرقعات من الصوف، وينتسبون إلى الصوف، فيتسمون «الصوفية أو المتصوفة»!

وفي الحق أن العمل لإصلاح الدنيا وعمارتها لا العزوف عن العمل واعتزال الدنيا، كان جوهر زهد عليٍّ وتقواه.. والعمل الصالح الذي يحض عليه، ليس هو أداء العبادات المفروضة فحسب، وإنما هو العمل المنتج في المعاملات.. هو العمل الذي به عمارة الأرض، وعليه تقوم مصالح العباد..

من أجل ذلك اهتم بألوان النشاط الإنساني التي تخدم المجتمع وانشغل بها وحض عليها.. يدوية كانت أم فكرية!..

إنه ينكر الانقطاع عن الدنيا زهداً فيها كما يرفض الانقطاع لها انشغالاً بها.. من أجل ذلك عرف الزهد بقوله: «الزهد كلمة بين كلمتين في القرآن. قال سبحانه: ﴿**لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور**﴾، فمن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»..

ويقول: «للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم فيها معاشه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم».

وقد تعلم من أستاذه العظيم رسول الله ﷺ، فيما تعلم من معاني القرآن أن الله لا يكتفي من العبد المطيع التقي بالإيمان وحده، بل الله يقرن الإيمان بالعمل.. فكلما ذكر الله تعالى الإيمان في آية عطف عليه العمل الصالح: ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾.

أما الإيمان فمعروف، وفيه أداء العبادات المفروضة، وأما العمل الصالح فهو ما ينهض بأدائه وإتقانه كل إنسان في أية جماعة إنسانية من

أعمال مشروعة تكفل له معاشه، وتحقق المصلحة للأمة جميعاً..

لقد تعلم عَلِيٌّ من أستاذه العظيم رسول الله ﷺ أن من يسعى في طلب الرزق خير ممن ينقطع للعبادة، وأن طلب العلم فريضة، وأن العمل شرف واتقانه واجب شرعي، وأن الجهاد في سبيل الله والعمل لعمارة الأرض وإسعاد الناس، والجهد في تحقيق مصالح الأمة، هي أفضل ما يتقرب به العبد الصالح إلى الله، وهي الأعمال التي يحبها الله. وكان يعلم أن العبادة ليست مظهراً إنما هي ما يضيء به القلب ويخشع. وكان يقول: «ليست الصلاة قيامك وقعودك، إنما الصلاة إخلاصك».

وكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه جميعاً هذه التعاليم، ولا يكثر من الموعظة «مخافة السآمة عليهم». كما قال لهم عليه الصلاة والسلام. ولكنه كان يأخذ علياً بشيء من الإكثار في الموعظة، لا يخاف عليه الملل أو السأم، ذلك أنه تعود أن يعلمه ويربيه منذ ولد، فما من حرج أن يأخذه ببعض المشقة التي لا يأخذ بها الآخرين!

وكان الرسول ﷺ حين يعلِّم أصحابه لا يكتفي بإلقاء المواعظ والتعاليم، بل يعمد أحياناً إلى الحوار، لإيقاظ الفكر، وتنشيط العقل، وإرساء المبادىء.

بينما كان رسول الله ﷺ في مسجده في رهط من صحابته إذ قرأ بعضهم القرآن واحداً بعد واحد، وكان الرسول يطلب القراءة من أصحاب الأصوات الجميلة ومنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حتى إذا بلغ ابن مسعود قوله تعالى من سورة النساء: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾**. فاضت عينا الرسول بالدموع، فأشار إلى القارىء أن يسكت.. وعرت الرسول رعدة مما استشعر من ضخامة مسؤوليته أن يكون شهيداً على المؤمنين، وكان كلما سمع هذه الآية أخذ يبكي حتى يبلل الدمع لحيته!..

ثم أنه ﷺ طلب من قراء آخرين أن يتلوا آيات من القرآن. فقرأ أحدهم من سورة أخرى حتى الآية: ﴿**وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾. فقال رسول الله ﷺ مفسراً: «أيام الله هي نعماؤه».

ثم قرأ الثالث من سورة لقمان حتى بلغ الآية: ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾. فقال الرسول يحاور هذا النفر من صحابته: «قولوا الآن قولكم: ما أول نعمة رغبكم الله فيها وبلاكم بها؟» فذكروا نعمة الله التي أنعم عليهم بها من العافية والمال والذرية والأزواج والعلم، فقبل منهم الرسول ما قالوه، ولم يستزد واحداً منهم إلا علياً.

التفت الرسول عليه الصلاة والسلام إلى علي بن أبي طالب، وهو في هذا الرهط أولهم إسلاماً وأصغرهم سناً، وقال: «يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك». فقال: «وكيف لي بالقول فداك أبي وأمي وإنما هدانا الله بك؟!» قال: «ومع ذلك فهات، قل ما أول نعمة بلاك الله عز وجل وأنعم عليك بها؟ قال: «أن خلقني جل ثناؤه ولم أك شيئاً مذكوراً». ولم يكتف الرسول بهذا الجواب بل قال: «صدقت فما الثانية؟» قال «أن أحبني إذ خلقني فجعلني حياً لا ميتاً». قال: «صدقت فما الثالثة»؟ قال: «أن أنشأني ـ فله الحمد ـ في أحسن صورة وأعدل تركيب». قال: «صدقت فما الرابعة؟» قال: «أن جعلني متفكراً راغباً، لا ساهياً». قال: «صدقت فما الخامسة؟» قال: «أن جعل لي مشاعر أدرك بها ما ابتغيت وجعل لي سراجاً منيراً (أي عقلاً يكشف الحق والباطل والحسن والقبح)». قال: «صدقت فما السادسة؟» قال: «أن هداني لدينه ولم يضلني عن سبيله». قال: «صدقت فما السابعة؟» قال: «أن جعل لي مَرَدًّا في حياة لا انقطاع لها». قال: «صدقت فما الثامنة؟» قال: «أن جعلني ملكاً مالكاً لا مملوكاً». قال: «صدقت فما التاسعة؟» قال: «أن سخر لي سماءه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه». قال: «صدقت

فما العاشرة؟» فأطرق علي قليلاً ثم قال في دعابة: «أن خلقني ذكراً ولم يخلقني أنثى». فضحكوا حتى بدت نواجذهم. قال الرسول: «وما بعد هذا؟» قال: «كثرت نِعَمُ الله يا نبي الله فطابت، وإن تعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها». فتبسم رسول الله في رضا عنه وقال: «ليهنئك الحكمة، ليهنئك العلم يا أبا الحسن. أنت وارث علمي والمبين لأمتي ما اختلفت فيه بعدي. من أحبك لدينك وأخذ بسبيلك فهو ممن هُدِيَ إلى صراط مستقيم. ومن رغب عن هداك وأبغضك لقي الله يوم القيامة لا خلاق له».

وفي الحق أن علياً كان يبذل علمه، فإذا جلس في المسجد أو طاف بالأسواق قال للناس: «اسألوني». وما كان على الرغم من سعة علمه يحمل ذرة من الغرور..!

بل كان يبدي كثيراً من الاحترام للصحابة الذين يكبرونه سناً.. ولقد سئل عن عثمان فقال: «ذاك امرؤ يدعى في السماء ذا النورين، وهو أوصلنا للرحم». لأن عثمان قد تزوج بنت الرسول، فلما ماتت تزوج بنتاً ثانية فكنيته ذو النورين.

وقد أنزل الله قرآناً في عدد من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، كما أنزل الله في عليٍّ كرم الله وجهه بعض الآيات..

ونزلت آيات كثيرة في أهل الكتاب، وكفار مكة، وفي غيرهم ممن خالفوا الرسول وشاقوه، وفيهم المنافقون والمرجفون في المدينة..

وكان علي بحكم صلته بالرسول عليه الصلاة والسلام، يعرف أين وكيف نزلت هذه الآيات جميعاً، وفيمن نزلت، وفيم نزلت.. فهو إلى خبرته بها، قد تعلم من أستاذه العظيم أسرارها، وله أذن واعية!..

من أجل ذلك استفتاه الصحابة في أمور الدنيا والدين.. وكان هو

يبذل الفتيا قبل أن يسأل إن عرضت أمامه مشكلة.

وكان الرسول طيلة حياته يشجعه على الفتيا، ويقر آراءه، ويستحسنها.

وعندما قبض الرسولﷺ، وولي أمر المؤمنين خليفته أبو بكر رضي الله عنه، كان في نحو الثلاثين، بين رهط من الصحابة سن الواحد منهم يكاد أن يكون ضعف سنه!.. وعلى الرغم من هذا وعلى الرغم من كل شيء فقد حرص الخليفة الأول أبو بكر الصديق على أن يستشير علياً، وعلى أن يقربه.

كان أبو بكر يجمع كبار الصحابة وفي طليعتهم عمر وعثمان وعلي، كلما عرضت له حالة لا يجد لها حلاً في كتاب الله ولا في سنة رسوله.

من أجل ذلك احتفظ بهؤلاء الثلاثة إلى جواره في المدينة المنورة عاصمة الدولة الجديدة، لحاجته إلى رأيهم، وإلى حكمتهم وعلمهم وحسن بصرهم بالأمور، على الرغم من حاجة المغازي والفتوحات إلى سواعدهم وبسالتهم.

وأثناء خلافة أبي بكر انشغل عليٌّ بالعلم، والتعليم، والنظر في أمور الدين والدنيا، وبكتابة القرآن في المصحف بترتيب الآيات والسور، كما تعلم هو وغيره من الرسول.

وتحلق شداة العلم حوله عقب كل صلاة في مسجد رسول الله.

كان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم يعرفون مكانة علي من النبي، ويشعرون برضا الله ورسوله عنه، ويعون ما نزل فيه كرم الله وجهه من قرآن.

ويحدثون الناس بفضل علي، وبمكانته في قلب الرسول..

وقد أنزلت على الرسول آيات ينسحب حكم التكريم فيها على أكثر من واحد من الصحابة رضي الله عنهم، فوثق هذا الاشتراك ما يحمل الواحد منهم لصاحبه من تقدير ومودة.

ذلك كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

فقد نزلت في أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب معاً.. وذلك حين تصدق أبو بكر رضي الله عنه بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة في السر وعشرة في العلانية، كما تصدق في الوقت نفسه عليٌّ كرم الله وجهه بأربعة دراهم ما كان يملك سواها، تصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية!..

كما نزل في علي كرم الله وجهه قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿**وتعيها أذن واعية**﴾. قال رسول الله ﷺ: «يا علي إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي». فكان كرم الله وجهه يقول: «ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً فنسيته».

وشجر بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عقبة بن معيط من فتيان قريش خلاف يوم بدر، وكان علي بطل بدر في نحو العشرين.. فقال له الوليد: «اسكت فإنك صبي، أنا أشبُّ منك شباباً، وأجلد منك جلداً، وأذرب منك لساناً، وأحد منك سناناً، وأشجع منك جناناً». فنزلت الآية الكريمة: ﴿**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**﴾. (سورة السجدة).

ونزلت فيه آية من سورة مريم: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً**﴾.

كان علي يدعو الله بدعاء أوصاه به الرسول ﷺ: «اللهم اجعل لي

عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودة». ولكم قال له الرسول: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

وكان علي إذا أقبل على أحد من الصحابة قال الصحابي: «جاء خير البرية». فهو من الذين نزلت فيهم الآية الكريمة: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾**..

قال أحد الصحابة لعلي: «أنا خير منك فأنا أسقي الحجيج». وافتخر الآخر بأن له ولقومه عمارة البيت الحرام، فقال لهما علي إنه سبقهما إلى الإسلام والهجرة والجهاد في سبيل الله. ثم روى للنبي ما حدث فنزلت الآية الكريمة: **﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾**... إلى آخر الآية في سورة التوبة.

وعندما نزلت: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**. (سورة النحل)، قال علي: «نحن أهل الذكر اسألونا».

ونزلت في حمزة وعلي وأبي جهل الآية الكريمة: **﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾** (سورة القصص).

ولما نزلت الآية الكريمة: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾** سئل الرسول: من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم. قال: «علي وفاطمة وولدهما».

أما الآية الكريمة: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾** فقد اتفق الطبري وابن كثير والسيوطي على أنها نزلت في علي.

ومشى علي بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين في أحد طرقات المدينة فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: «رأينا اليوم الأصلع». وقبل أن يصل عليٌّ ومن معه من الصحابة إلى رسول الله أنزلت عليه الآية: **﴿إن الذين أجرموا كانوا**

من الذين آمنوا يضحكون﴾ (سورة المطففين).

كما أنزلت أيضاً: **﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾**.

وعندما نزلت الآية الكريمة: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** قال رسول الله ﷺ بعد أن دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين، وغطاهم بكساء: اللهم هؤلاء هم أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وقد نزلت الآية والرسول عند زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

وقال علي: «إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي. وما يعمل بها أحد بعدي. هي آية النجوى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾**. كان عندي دينار فصرفته عشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت الرسول ﷺ قدمت بين يديه درهماً (أي تصدق بدرهم) ثم نسخت الآية فلم يعمل بها أحد».

هذه الآية الكريمة التي أجمع أئمة التفسير على نزولها في علي كرم الله وجهه (مثل الطبري والسيوطي والزمخشري والرازي).. وهناك آيات أخرى انفرد بذكرها مفسر أو اتفق عليها اثنان فحسب.

وأياً ما يكون من أمر، فقد كان الصحابة يعرفون هذه الآيات جميعاً، ويعرفون لعلي قدره..

لذلك اعتبره كبار الصحابة من أهل الذكر كما أسلفنا، ولم يكونوا منفكين عن سؤاله منذ قضى الرسول.

على هذا سار أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبي وقاص وبلال وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي.

وكان لسلمان مكانة خاصة عند الصحابة، وعند علي بالذات... ذلك أنه يوم حاصر الأحزاب المدينة، اقترح على الرسول حفر الخندق،

وهي مكيدة ما كانت تكيدها العرب، وقد تعلمها سلمان الفارسي من قومه في فارس.. وقد أذهل هذا الخندق أحزاب المشركين الزاحفين على المدينة.. وامتنع المسلمون في الخندق وخلفه، فلم يجز إليهم أحد، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وعاد الأحزاب خائبين..

فتفاخر المهاجرون والأنصار بسلمان الفارسي، حتى لقد تنازعوا فيه، وتصايح بعضهم على بعض كل يدعيه لنفسه.. قال المهاجرون: «هو منا»، وقال الأنصار: «بل منا نحن الأنصار» وأوشك الأمر أن يفسد بينهم في تنافسهم على سلمان.. فقال الرسول ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

واستقرت هذه العبارة من علي بن أبي طالب في أذن واعية..

فقرب منه سلمان، وعامله إلى آخر العمر كواحد عزيز عليه من أهل البيت، وظل يوده حتى آخر عمره.. كتب إليه يعظه: «أما بعد يا سلمان، فإنما مثل الدنيا مثل الحية، لين مسها قاتل سمها، فأعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها، لما أيقنت به من فراقها وتصرف حالاتها، وكن آنس ما تكون بها أحذر ما تكون منها.. فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور، أو إلى إيناس، أزالته إلى إيحاش، والسلام».

ويعمق فهم علي كرم الله وجهه للآية الكريمة: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. وبالتزامه المبدأ الشريف: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». لم يتعصب لعربي، كما كانت العصبية القبلية تفرض عليه.. بل آثر بعض الموالي (وهم أهل البلاد الأخرى) على غيرهم من العرب!!

ويغضب منه بعض العرب الذين يعتمدون على أصولهم وأنسابهم لا على أعمالهم.. ويحبه ويتحمس له كل الموالي الذين يأتون الله بقلب

سليم.. ويقدمون أعمالهم لا أحسابهم، بين يدي الله ورسوله.

وعلى الرغم من كل حرج وعناء، يظل علي بن أبي طالب على موقفه متمسكاً بالقرآن والسنة فيما فضل الله به الناس بعضهم على بعض.

والتقوى هي أساس المفاضلة..

ويظل شعار علي: «قيمة كل امرىء ما يتقنه، فلا يأتي الناس ربهم بأعمالهم، ويأتي بعض العرب بالأحساب والأنساب»!

الفصل الرابع
مع الصديق

قال علي بن أبي طالب: «لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري».

قال الحسن البصري إن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إن رسول الله ﷺ مرض ليالي وأياماً، ينادي بالصلاة فيقول: «مروا أبا بكر يصلي بالناس» فلما قبض رسول الله ﷺ، نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين، فرضينا لدنيانا ما رضي رسول الله ﷺ لديننا فبايعنا أبا بكر».

على أن الأمر لم يكن سهلاً.. فقد زلزلت أرض الجزيرة العربية زلزالاً شديداً حين توفي الرسول عليه الصلاة والسلام.. فارتد عن الإسلام أقوام كلَّت بصائرهم، ومرضت أهواؤهم، وقامت قبائل أخرى ترفض إيتاء الزكاة، وتعترف ببقية أركان الإسلام!.. وقام رجال ونساء يدعون النبوة، ورصّوا كلاماً مسجوعاً وأسموه كتباً منزلة!.. وتصدعت الألفة، وتفرق الشمل، وانقطع نظام الناس.

وفي المدينة نفسها اضطرب الناس وذهلوا عن أنفسهم وتشعبوا وتمزقوا، وغضب عمر حين سمع أقواماً يقولون إن رسول الله قد مات، وخرج إلى الطرقات شاهراً سيفه يهدد بالقتل من يزعم أن محمداً قد مات، ويقول لهم: «إنما رفع إلى ربه كما رفع المسيح عيسى بن مريم، وسيعود بعد حين، أو كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه

أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات».

أما أبو بكر فقد وقف يخطب الناس، ويقول لهم: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» فتذكروا قوله تعالى: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**.

وثاب عمر، ثم أجهش بالبكاء وهو يقول: «لكأني لم أسمع هذه الآية من قبل قط. إنا لله وإنا إليه راجعون»!

وكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية قد نزلت حتى تلاها أبو بكر!!

أما علي فإنه انشغل بتجهيز الرسولﷺ.. ودموعه تفيض على وجهه في صمت وهو يتمتم: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله طبت حياً وطبت ميتاً. لولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع!.. بأبي أنت وأمي.. إن الصبر لجميل إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا عليك.. اذكرنا عند ربك واجعلنا من همِّك».

وإن علياً ليذكر ما قاله يوم نزلت الآية: **﴿أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾**.. لقد قال عليٌّ يومئذ حين سمع هذه الآية لأول مرة «والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت».

وكان الرسول قبل أن يقبض بأيام قد أوصى ألا يحجب عنه أحد من الأنصار. فلما جاءه نفر منهم قال لهم الغلام: «عنده نساؤه». فسمع الرسول وهو في فراشه بكاءهم فقال: «من هؤلاء؟» قيل له: «الأنصار رضي الله عنهم يبكون». فخرجﷺ متوكئاً على عمه العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فدخل المسجد من باب حجرة عائشة رضي

الله عنها حيث كان يرقد في مرضه الأخير، واجتمع رهط الأنصار ومعهم رهط من المهاجرين كانوا يتحسسون من خبر مرضه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة، وإن تركتي فيكم الأنصار رضي الله عنهم. أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم، فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر، نصروكم في النشاط والكسل فاعرفوا لهم حقهم واقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا على مسيئهم».

فلما توفي رسول الله ﷺ، وقبل أن تشيع جنازته، وهو ما يزال مُسَجًّى في بيته وقد أغلق أهله دونه الباب، اجتمع حي من الأنصار هم الخزرج، بقيادة سعد بن عبادة رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة، وخف إليهم رجال الأوس، وكان بين الأوس والخزرج عداء وتنافس قبل الإسلام، ولكن الإسلام ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً. ولما اكتمل الأنصار تحدث سعد بصوت ضعيف وكان مريضاً، فكان ابنه يحفظ ما يقول ويبلغ عنه قومه. قال سعد: «يا معشر الأنصار إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن رسول الله لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان، فما آمن به إلا قليل، وما كانوا يقدرون أن يمنعوه، ولا يعرفوا دينه حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة، وخَصَّكم بالنعمة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ، والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً، حتى أثخن الله تعالى لنبيكم بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو راض عنكم قرير العين بكم، فشدوا أيديكم بهذا الأمر، فإنكم أحق الناس وأولاهم به». فأجابوه جميعاً: «وفقت في القول، وأصبت في الرأي، ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر».

فأتى الخبر أبا بكر، ففزع أشد الفزع، فأسرع ومعه عمر إلى سقيفة

بني ساعدة، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فانطلقوا جميعاً ـ رضي الله عنهم ـ حتى دخلوا السقيفة.

فوقف أبو بكر يخطب الناس: «إن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه، فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً، والناس لنا فيه تبع، ونحن عشيرة رسول الله ﷺ، وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا.. والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه، فأنتم أحب الناس إلينا، وأكرمهم علينا، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى.. وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم، وأبعد ألا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم. وإنما أدعوكم إلى أبي عبيدة أو عمر، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر».

فقال عمر وأبو عبيدة: «ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر فأنت أحقّ الناس بهذا الأمر».

فقال الأنصار: «والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم وإنَّا لَكمَا وصفت يا أبا بكر والحمد لله، ولا أحد من خلق الله أحب إلينا منكم. ولكننا نشفق مما بعد اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا وليس منكم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلا منكم بايعنا ورضينا، كان ذلك أجدر أن يعدل في أمة محمد ﷺ. وأن يكون بعضنا يتبع بعضاً فيشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه الأنصاري، ويشفق الأنصاري أن يزيغ فيقبض عليه القرشي».

فقال أبو بكر: خَصّ الله تعالى المهاجرين الأوائل رضي الله عنهم بتصديق رسوله ﷺ، والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على الشدة من قومهم وإذلالهم وتكذيبهم إياهم، وكل الناس مخالف لهم، زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وإزراء الناس بهم، فهم أول من آمن بالله ورسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بالأمر من بعده،

لا ينازعهم فيه إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضله، ولا النعمة العظيمة لهم في الإسلام، رضيكم الله تعالى أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء».

فقام عن الأنصار الحباب بن المنذر فقال: «يا معشر الأنصار. لن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العزة والثروة، وأولو العدد والنجدة، أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتقطع أموركم. والله ما عبدوا الله علانية إلا في بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم. فأنتم أعظم الناس نصيباً في هذا الأمر، وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير».

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «هيهات! لا يجتمع سيفان في غمد! والله لا ترضى العرب أن تُؤمِّركم ونبيها من غيركم. ولكن العرب لا ينبغي أن تولِّيَ هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، ولنا بذلك على من يخالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين. من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن عشيرته وأولياؤه، إلا مُدْلٍ بباطل أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة».

واحتدم الخلاف، حتى أوشك رجال أن يسلوا فيه السيوف!

فوقف أبو عبيدة وقال: «يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى، فلا تكونوا أول من يبدّل ويغيّر».

ثم إن الأوس لما رأوا ما كان من أمر الخزرج، وما تطلبه من تأمير سعد بن عبادة ولو بحد السيف، خافوا الخزرج على أنفسهم، وقال بعضهم لبعض: «يا معشر الأوس، والله لئن ولَيتُمُوها سعد بن عبادة فاز بها الخزرج، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً».

وقام أبو بكر يدعو إلى الرفق في الجدال، وإلى مبايعة أحد من المهاجرين الأوائل خليفةً لرسول الله..

وعاد يقترح عليهم عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح.

قال: «هذا عمر وأبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا». فقالا: «والله لا نتولى هذا الأمر عليك، وأنت أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ في الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك؟ ابسط يدك نبايعك»!

فقال زعيم الأوس لقومه من الأنصار: «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة. فقوموا فبايعوا أبا بكر».

فقاموا فبايعوه، وانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا اجتمعوا له من أمرهم.

فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطؤون سعد بن عبادة.

وعلمت فاطمة الزهراء بما يحدث في السقيفة وأبوها ﷺ لم يدفن بعد، فبكت أحر بكاء!.

فلما جاءها بعض الصحابة معزّين وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة قالت: «تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم ولم تستأمرونا».

فبكى أبو بكر حتى علا نشيجه!.. وبكى من كان في الدار من المهاجرين يساعدون علياً في تجهيز الرسول وفيهم سلمان الفارسي وأبو ذر والمقداد والزبير وعمار..

أما علي بن أبي طالب فجلس في بيته أياماً، فأتاه عمر فقال له: «تَخَلّفت عن بيعة أبي بكر». فقال: «أقسمت حين قبض رسول الله ﷺ ألا أرتدي برداء إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى أجمع القرآن، فإني خشيت أن ينفلت».

عكف عليٌّ على القرآن يكتبه كما تعلمه من الرسول، وجاءه أبو سفيان فقال له: «غلبكم على هذا الأمر أرذل بيت في قريش! أما والله لأملأنها خيلاً ورجلاً»!.

واقترح عليه أن يبايعه. فقال له علي: «ما زلت عدو الإسلام وأهليه! فما ضر ذلك الإسلام وأهله شيئاً!.. إنَّا رأينا أبا بكر لها أهلاً... إنما تريد الفتنة».

ولما سمع عليّ ما حدث في السقيفة سأل: «ما قالت الأنصار؟» قالوا: «قالت منا أمير ومنكم أمير». قال: «هلا احتججتم عليهم بأن رسول الله ﷺ وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟» قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم. قال: «لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم».

وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر رضي الله عنه، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فَقَوّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

وبلغ أبا عبيدة أن علياً بن أبي طالب قال لبعض المهاجرين الذين بايعوا أبا بكر: «زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار. إن كانت الإمامة في قريش، فأنا أحق قريش بها، وإلا فالأنصار على دعواهم.. نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا إن كنتم مؤمنين».

لما نقل إلى أبي عبيدة أن علياً يقول ذلك، أرسل إليه من ينصحه بالبيعة ويقنعه أن قريشاً ما كانت لتبايع علياً، وسيفه ما زال يقطر من دماء سادتها الذين قتلهم يوم بدر، وفي المغازي الأخرى.

وأرسل إليه من ينصحه بأن يخرج من داره فيبايع..

ولكن عليَّ بن أبي طالب، كان لا يخرج إلا إلى الصلاة، وقد فرغ قلبه من كل هموم الدنيا وانشغل بكتابة المصحف.

وجاءه بعض الأنصار وابن عمته الزبير بن العوام وفتيان بني هاشم ليبايعوه فأبى، وطالبهم ألا يختلفوا بعد البيعة لأبي بكر فتفشل ريحهم..

فأتاه أبو عبيدة في منزله فقال له: «يابن عم، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم، ومعرفتهم بالأمور، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك ودينك، وعلمك وفهمك، وسابقتك ونسبك وصهرك»: فقال علي: «حلفت ألا أخرج من بيتي ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن».

فما أن فرغ كرم الله وجهه من جمع القرآن، حتى أتاه أبو بكر.

كان في الدار مع علي جمع من بني هاشم، فقال علي: «أما بعد يا أبا بكر فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً».

ثم ذكر علي قرابته من رسول الله..

فلم يزل يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر، وقال: «لَقَرابة رسول الله أحب إليَّ أن أصل من قرابتي. إني والله لا أدَعُ أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته إن شاء الله تعالى». فقال علي: «موعدك غداً في المسجد الجامع للبيعة إن شاء الله».

فلما كان الغد، قام علي في المسجد فذكر فضائل أبي بكر، وبايعه.

فأقبل الصحابة على علي بن أبي طالب، وهو حينئذ أصغرهم سناً، فهو في نحو الثلاثين من عمره، فأثنوا على حكمته، وقالوا له: «أحسنت يا أبا الحسن وأصبت».

وطاب أبو بكر نفساً، وقر عيناً.

ولكن خلافاً فقهياً انفجر بغتة بين أبي بكر من ناحية، وعلي وفاطمة من ناحية أخرى، رضي الله عنهم جميعاً، وإن مس هذا الخلاف مصالح فاطمة وعلي..!

كان الخلاف حول «فدك».

وفَدَك قرية بخيبر، وعندما فرغ رسول الله من خيبر، وكانت راية المسلمين لعلي بن أبي طالب، قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك، فقبل ذلك منهم، ولم يغزهم وكانت فدك لرسول الله خاصة فهي فيء خصه به الله، لأن المسلمين لم يأخذوها بقتال فلا تقسم قسمة الغنائم.. لأنها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.. وكان الصحابة من قبل قد طلبوا من الرسول أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم، فذكر الله الفرق بين الأمرين في (سورة الحشر).

وقد غرس ﷺ بعض النخيل في فدك، وجعلها لفاطمة الزهراء.

فكانت هي التي تتصرف فيها. وكانت تتصدق بكل خراجها بعد أن تستبقي ما يسد حاجة عام..

ورأى أبو بكر أن تكون فدك بيد ولي الأمر، أي بيده يوزع خراجها على الناس، واحتج أبو بكر لرأيه بأنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنا معاشر الأنبياء لا نُوَرث، ما تركناه فهو صدقة».

وأفتى علي بأن الأنبياءَ يورّثون. واستشهد بقوله تعالى: **﴿وورث سليمان داود﴾**. وقوله تعالى على لسان زكريا **﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾**... واحتج عليه بأن الحديث الشريف الذي يرويه أبو بكر هو من أحاديث الآحاد التي ينفرد بروايتها واحد فحسب من الصحابة، وأحاديث الآحاد لا تقيد حكماً أطلقه القرآن، ولو أن الرسول أراد أن يخصص أو يقيد هذا الحكم القرآني لأخبر ورثته أنهم لن يرثوه.

ثم إن فاطمة قالت إن أباها وهبها أرض «فدك» فهي إن لم تكن إرثاً فهي هبة.. فطلب منها شهوداً، فاستشهدت بعلي وأم أيمن، فقال: «لا بد من رجل وامرأتين أو رجلين». وأفتى علي بأن الشهادة تصح برجل وامرأة واحدة، مع حلف اليمين. بل بشاهد واحد، ويمين..

ولكن أبا بكر رَدَّ هذا الرأي..

ونزع «فدك» من تحت يدي فاطمة، واستشار في ذلك عمر فأيده.

وتحدثت المدينة عن غضب فاطمة..

فقال عمر لأبي بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإنَّا قد أغضبناها».

فانطلقا جميعاً، فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها.

فلما قعدا عندها تكلم أبو بكر فقال: «يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إلي من قرابتي، وإنك لأحب إلي من عائشة ابنتي،

ولوددت يوم مات أبوك أني مت، ولا أبقى بعده. أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله؟ إلا أني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: «نحن الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة. وما تركنا فهو صدقة».

فقالت فاطمة لأبي بكر وعمر: «أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتعملان به؟» قالا: «نعم».

فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة ابنتي فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟».

قالا: «نعم سمعناه من رسول الله ﷺ».

قالت: «فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني: ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه».

فقال أبو بكر: «أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة».

فقالت لأبي بكر: «والله لا أكلمك أبداً» قال: «والله لا أهجرك أبداً. والله ما أجد أعز علي منك فقراً، ولا أحب إلي منك غنى، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».

ثم خرج أبو بكر باكياً ومعه عمر مطرقاً، فذهبا إلى المسجد فاجتمعا بالناس فقال أبو بكر: «أيها الناس أقيلوني! يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه!.. لا حاجة لي في بيعتكم».

فقال له الناس: «إن هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك. إنه إن كان هذا لم يقم لله دين».

قال: «والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ما بتُّ ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعدما سمعت ورأيت من فاطمة».

وقال له علي: «لا نقيلك ولا نستقيلك أبداً. قد قدمك رسول الله ﷺ لتوحيد ديننا، من ذا الذي يؤخرك لتوجيه دنيانا؟».

فأما فدك فانتهى أمرها إلى أن امتلكها مروان، وورثها عنه ابنه عبد العزيز، ثم عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين، فأمر عامله على المدينة أن يعيدها إلى ورثة فاطمة، فتلكأ العامل وبعث يسأل أيّ الورثة، فهم متفرقون في الأرض؟ فرد عليه الخليفة غاضباً مؤنباً: «لو أنني قلت لك تصدق بشاة لأرسلت إلي تسألني أشاة سوداء أم بيضاء! افعل ما تؤمر!».

على أن هذا الخلاف لم يفسد ما بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، فقد قربه أبو بكر وجعله من أهل مشورته، وأبقاه هو وعمر معه في المدينة يسألهما ويحاورهما في أحكام الشريعة، حتى يطمئن قلبه إلى الرأي الصواب فيما يعرض من أقضية وأحداث.

كان أول ما فعله أبو بكر هو إنفاذ جيش يقوده أسامه، وهو جيش جهزه الرسول ومات قبل أن يبرح المدينة.

وودع أبو بكر الجيش ماشياً، وأسامة على جواده.. فطلب أسامة منه أن يركب، وإلا نزل هو، قال له: «لا تنزل ولا أركب. ما ضر لو عَفَّرْتُ قدمي ساعة في سبيل الله».

ثم جاءت وفود من العرب تطلب إعفاءها من الزكاة. وجاءت أخبار عن رجال ونساء في بعض أطراف جزيرة العرب يدَّعون النبوة، وتابعهم بعض الأعراب، والأعراب أشد كفراً..

خرجوا على الإسلام جميعاً، وما بقي على الإسلام من العرب

غير قريش في مكة، وثقيف في الطائف!!

ودعا أبو بكر بعض الصحابة وشاورهم في الأمر، فأجمعوا على أن يحاربوا الذين خرجوا من الإسلام واتبعوا أدعياء النبوة.

أما الذين امتنعوا عن الزكاة فقد اختلفت فيهم الآراء: فرأى أبو بكر أن يحاربهم لأنهم امتنعوا عما كانوا يؤدونه لرسول الله.

ورأى عليٌّ أن السكوت عنهم خروج على السنة، وأن الزكاة تقرن بالصلاة، فمن يمتنع عنها يهدر ركناً من أركان الدين؛ ولا صلاة له.

ورأى عمر أن يسكت الخليفة عنهم، فهم من أهل الشهادة والشهادة تعصم دماءهم.

ولكن أبا بكر وعلياً رأيا أن الشهادة يجب أن تؤدى بحقها، وحقها الصلاة والزكاة والصوم وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

واقتنع الصحابة جميعاً آخر الأمر بأن حرب مانعي الزكاة واجب شرعي وجهاد في سبيل الله.

وأعد أبو بكر جيشاً، وخرج شاهراً سيفه راكباً بعيره.. فقال له علي: «يا خليفة رسول الله. أقول لك كما قيل لرسول الله يوم أحد. أغمد سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدُ نظام أبداً».

ومضى الجيش.. وقاده أبو بكر في أول حملة، فانتصر على بعض أهل الردة، ثم عاد إلى المدينة، فما زال يسيّر الحملات حتى انتصر على المرتدين ومدعي النبوة جميعاً. ثم أن أبا بكر تطلع إلى نشر الإسلام خارج بلاد العرب، حيث كانت الشعوب المغلوبة تئن تحت وطأة الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وترنو إلى فجر التحرير الذي يبزغ من الدين الجديد.

وبدأت الفتوحات الإسلامية المظفرة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وتوالت الأموال على خزائن الدولة من الغنائم والجزية والخراج..

وانتعش المجتمع الإسلامي، وبانت فيه مظاهر الغنى.

وبدأ بعض الصحابة يقتنون الدور الفاخرة والضياع المثمرة والخيل المطهمة!

ولم ترق هذه المظاهر جميعاً للخليفة ولا لعمر ولا لعلي! أما أبو بكر وعمر فقد حذرا من غمرة الدنيا...

وأما علي فقد انشغل بالعلم والتعليم وتفقيه الناس في أمور الدين والدنيا، وبالفتيا كلما استفتاه أحد أو سأله خليفة رسول الله.

وشاعت فتاوى عليّ، وأصبح فقهه حجة منذ أخذ به الخليفة.

وكانت بعض هذه الآراء قد أفتى بها عليٌّ في زمن الرسول فأقرها ﷺ...

فقد جاء رجل إلى الرسول وعلي يومئذ باليمن فقال الرجل: «شهدت علياً أتى في ثلاثة نفر ادعوا ولد امرأة. فطلب علي من كل واحد منهم أن يدع الولد للآخر، فأبوا جميعاً قال: أنتم شركاء مشاكسون. وسأقرع بينكم فأيكم أصابته القرعة فهو له وعليه ثلثا الدية». فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. وقال: «ما أعلم فيها إلا ما قاله عليٌّ».

وكان رسول الله جالساً مع عليٍّ وجماعة من الصحابة فجاء خصمان فقال أحدهما: «يا رسول الله إن لي حماراً، وإن لهذا بقرة، وإن بقرته قتلت حماري». فقال رجل من الحاضرين: «لا ضمان على البهائم» فقال ﷺ: «اقض بينهما يا علي». فقال علي لهما: «أكانا

مرسلين أم مشدودين أم كان أحدهما مشدوداً والثاني مرسلاً؟» فقالا: «كان الحمار مشدوداً والبقرة مرسلة وصاحبها معها». فقال علي: «على صاحب البقرة ضمان الحمار». (أي تعويضه).

فأقر رسول الله ﷺ حكمه وأمضى قضاءه.

وكان ﷺ ينصح الصحابة باستشارة علي كرم الله وجهه ويقول لهم: «علي أقضاكم».

من أجل ذلك حرص خلفاء الرسول على استفتائه..

وحين قاد خالد بن الوليد أحد جيوش الفتح المظفرة كتب إلى الخليفة أبي بكر: «وجدت في بعض ضواحي العرب رجلاً يُنكح كما تُنكح المرأة فما عقابه؟».. ولم يجد أبو بكر نصاً في القرآن ولا في السنة عن جزاء هذه الجريمة.. فجمع نفراً من الصحابة فسألهم، وفيهم علي بن أبي طالب، وكان أشدهم يومئذ قولاً. قال: «إن هذا ذنب لم تعص به أمة من قبل إلا قوم لوط، فعُمِلَ بها ما قد علمتم فأحرقهم الله تعالى وأحرق ديارهم. أرى أن تحرقوه بالنار». فكتب أبو بكر إلى خالد «أحرقه النار».

وسئل عن فداء أسرى المسلمين الجرحى من أيدي المرتدين فقال: «نفادي من كانت جراحاته بين يديه دون من كانت من ورائه، فإنه فارّ».

وفي الحق أن اجتهاده كان دائماً في الأمور المشكلة والقضايا الصعبة.

من ذلك أن رجلاً فر من رجل يريد قتله، فأمسكه له آخر حتى أدركه فقتله، وبقربه رجل ينظر إليهما، وهو يقدر على إنقاذه. ولكنه وقف ينظر. فأفتى علي كرم الله وجهه بأن يُقْتلَ القاتل، ويُحبس الممسك حتى يموت، وتفقأ عين الناظر الذي وقف ينظر إلى الجريمة، ولم يمنع وقوعها وهو قادر على ذلك بلا حرج!..

ومن ذلك أن رجلين، احتالا على الناس، فأصابا منهم أموالاً طائلة وذلك أن كل واحد منهما كان يبيع الآخر على أنه عبد، ثم يهربان من بلد إلى بلد، يكرران الفعل نفسه، فحكم بقطع أيديهما، لأنهما سارقان لأموال الناس!..

ومن ذلك أن امرأة تزوجت، فلما كانت ليلة زفافها أدخلت صديقها مخدعها سراً، ودخل الزوج المخدع فوجد العشيق فاقتتلا، فقتل الزوج غريمه فقتلت المرأة زوجها. فقضى بقتل المرأة في زوجها الذي قتلته، وبدية العشيق على المرأة، لأنها هي التي عرضته لأن يقتله زوجها فهي المتسببة في قتله، أما الزوج فإنما قتل غريمه دفاعاً عن العرض، فهو قتل مشروع لا عقاب عليه ولا دية ولا تعويض.

ثم أنه أفتى بألا يحبس المدين في الدين وقال: «حبس الرجل بعد أن يعلم ما عليه ظلم».

واستمر علي كرم الله وجهه، يشير على أبي بكر رضي الله عنه كلما استشاره، ويقضي بين الناس كلما أحال إليه قضية صعبة أو أمراً مشكلاً..

وكان وقته بين البيت يقرأ القرآن ويتدبر، ويدرس ما لديه من الكتب المقدسة، وغيرها من الكتب المتاحة من معطيات الحضارات المعاصرة له.

ثم يخرج إلى الناس للصلاة، ويتخذ له مكاناً في المسجد ويفتي من يسأله، ويعلم فيه الناس الكتاب والحكمة، ويفسر القرآن، وهو به عليم، ويعظ الناس.. ويقول للناس: «اسألوني».

وكان مما فسر به قوله تعالى: ﴿**وصدق بالحسنى**﴾ (سورة الليل) الذي جاء بالصدق، وصدق به، والذي جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ والذي صدق به هو أبو بكر. ذلك أنه عندما أخبره بمجيء الوحي قال

له: «صدقت بأبي وأمي أنت أهل الصدق. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». وكذلك صدقه حين حكى له أنه أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. فسماه النبي: «الصِّدِّيق».

هكذا قال علي عن أبي بكر رضي الله عنهما وهو يفسر القرآن ويعظ الناس، ثم حلف بالله إن الله أنزل على رسوله اسم أبي بكر من السماء (الصِّدِّيق)، فقد أوحى إليه منذ صدقه حين كفر به سواه أن يسمِّيَهُ (الصديق).

ثم إنه قال في تفسير الآية الكريمة من سورة النور: ﴿**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى**﴾. إن أبا بكر كان ذا سعة، وكان ينفق على ابن خالة له فقير. فلما خاض في حديث الإفك في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه فلما جاء القرآن ببراءة عائشة، رَقَّ أبو بكر لابن خالته، وعاد ينفق عليه، فنزلت الآية الكريمة..

فأبو بكر رضي الله عنه كما قال علي كرم الله وجهه هو المعني بكلمة ﴿**أولو الفضل**﴾ في الآية الكريمة..

ثم روى علي لمريديه تعقيباً على هذا التفسير أنه دخل على رسول الله ﷺ وكان أبو بكر على يمينه، فتنحى أبو بكر عن مكانه وأجلس علياً رضي الله عنهما بينه وبين رسول الله ﷺ، فتهلل وجه رسول الله فرحاً وسروراً وقال: «لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا (أولو الفضل)». فأبو بكر هو أولو الفضل..

وكان مما قاله علي في تفسير قصة آدم وإبليس في قوله تعالى: ﴿**إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس...**﴾ حتى آخر الآيات. قال كرم الله وجهه: «إفتخر إبليس على آدم بأنه خلق من نار وآدم من طين، وتعصب على آدم بأصله، فإبليس إمام المتعصبين،

وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية.. فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله... فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية... فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونزعاته ونفثاته... فاتقوا الله ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق. اتخذهم إبليس جنداً، بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم».

وفسر الآية الكريمة... **﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾**. قال: «هي القناعة».

وقال وهو يعلم الناس في المسجد، شارحاً الآية الكريمة من سورة النحل: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾** العدل هو الإنصاف والإحسان هو التفضل.

«لا يقيم أمر الله سبحانه وتعالى إلا من لا يصانع ولا يتبع المطامع...».

ومما كان يعظ به من يتولى أمراً من أمور المسلمين صغر أو كبر: «لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة. ومن نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم».

ومن ذلك قوله: «من أكثر الفكر في العواقب لم يشجع (أي لم يتشجع).. إذا هبت أمراً فتقع فيه».

ومن ذلك قوله كرم الله وجهه: «يأتي على الناس زمان لا يُقَرَّبُ فيه إلا الماحل (الواشي) ولا يظرف فيه إلا الفاجر، ولا يضعف فيه إلا المنصف، يتخذون الفيء مغنماً، والصدقة مغرماً، وصلة الرحم مَنًّا، والعبادة استطالة على الناس، فعند ذلك يكون سلطان النساء، ومشاورة الإماء، وإمارة الصبيان»!

ووعظ بقوله: «هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

«القلب إذا كره عمي»..

«خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت جبانة فرقت (فزعت) من كل شيء يعرض لها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها».

وكان يشاهد أمارات الثراء الجديد الضخم، ويخشى ما قد يصنع هذا الثراء الفاحش بالنفوس، من التزاحم والتنافس على المناصب والجاه، والتفاخر بالأموال والبنين، والتحاسد والتباغض، وإثارة نعرات الجاهلية.. فكان يعظ الناس داعياً إلى العدل والتراحم ومكارم الأخلاق: «من كساه الحياء ثوبه لا يرى الناس عيبه.. أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.. من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به، فقد أصبح يشكو ربه، ومن أتى غنياً فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه...».

«ما بال ابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه»!

«يابن آدم: كن وصي نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يُعمل فيه من بعدك».

وكان مما يعظ به الناس حديثُ رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه».

«صحة الجسد من قلة الحسد... حسد الصديق من سقم المودة...».

«من أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيع الصديق...».

«لا تجعلوا علمكم جهلاً، ويقينكم شكاً.. إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فأقدموا...».

«إن تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم».

«إنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل».

«لا تظلم كما لا تحب أن تظلم».

«ظلم الضعيف أفحش الظلم».

«من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان الله حرباً عليه حتى ينزع عن ظلمه ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله يسمع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد».

وسألوه في أحد مجالسه: «أيهما أفضل العدل أم الجود». فقال: «العدل أشرف وأفضل لأنه يضع الأمور في مواضعها وخيره عام، أما الجود فعارض خاص».

كما كان يعظ بقوله: «لا تحاسدوا، فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».

«لا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود، إلى أجل محدود»... «ما افتقر فقير إلا بغنى غني».

«أفضل الزهد إخفاء الزهد».

«المال والبنون حرث الدنيا والعمل الصالح كحرث الآخرة. وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام».

«ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم بؤسه»؟!

«ما أكثر العبر وأقل الاعتبار»!..

«أصدقاؤك ثلاثة وأعداؤك ثلاثة: فأصدقاؤك صديقك وصديق صديقك وعدو عدوك، وأعداؤك عدوك وعدو صديقك وصديق عدوك...».

«الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه...».

«اتقوا ظنون المؤمنين، فإن الله تعالى جعل الحق على ألسنتهم».

وقال له بعض اليهود: «ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه». فقال: «اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فقال إنكم قوم تجهلون».

كما كان كرم الله وجهه يعظ الناس بقوله: «يوم العدل على الظلم أشد من يوم الجور على المظلومين».

وبقوله: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد».

«العفاف زينة الفقر والشكر زينة الغنى».

«من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغي قتل به... ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

«للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة».

«عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء»...

وقيل له: «لو سد على رجل باب بيته وترك فيه فمن أين يأتيه رزقه؟» قال: «من حيث يأتيه أجله».

وكان يعظ بقوله: «لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً».

«إضاعة الفرصة غصة».

عاد علي كرم الله وجهه ذات يوم إلى داره، فذكرته فاطمة بما كان من أمرها يوم دعاها النبيﷺ وهو على فراش المرض فأسر إليها شيئاً فبكت، ثم دعاها فأسر إليها شيئاً آخر فضحكت..

قالت الزهراء رضي الله عنها: «أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به فذلك حين ضحكت».

كانت قد مرت ستة أشهر بعد وفاة أبيها، وما رؤيت فاطمة سلام الله عليها ضاحكة قط خلال تلك الشهور الستة!..

ثم أصبحت فاطمة تشكو، ورقدت أياماً.

روت أم سلمة التي كانت تمرضها: «اشتكت فاطمة سلام الله عليها شكواها التي قبضت فيها فكنت أمرضها، فأصبحت يوماً كأمثل ما

رأيتها في شكواها تلك. وخرج علي عليه السلام لبعض حاجته فقالت: اسكبي لي غسلاً، فسكبت لها فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل. ثم قالت: يا أُمّه: أعطيني ثيابي الجدد. فأعطيتها فلبستها. ثم قال: يا أُمَّه قدمي لي فراشي وسط البيت. ففعلت.

واضطجعت واستقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها، ثم قالت: يا أمه. إني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد».

فجاء علي فأخبرته.

فأسرع علي وجهزها ودفنها بعد العشاء سراً كما أوصت.

وبكاها أحر بكاء ووقف على قبرها يقول:

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وإن الذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي واحداً بعد واحد ... دليل على ألا يدوم خليل

ثم ترك البقيع حيث دفنها، دون أن يترك على قبرها ما يدل عليه كما أوصته!

ومضى إلى قبر النبي، فقال: «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك وزائرتك، والمختار لها سرعة اللحاق بك. قلَّ يا رسول الله عن صفيَّتِك صبري، وقلّ عنها تجلدي، إلا أن لي التأسي بسنتك، وفي فرقتك موضع تعزٍّ. إنا لله وإنا إليه راجعون، قد اسْتُرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة واختُلِست الزهراء، فما أقبح الخضراء والغَبراء! يا رسول الله: أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، ولا يبرح ذلك من قلبي حتى يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم. كمد مبرح وهم مهيج! سرعان ما فرق بيننا يا رسول الله! فبعين الله تدفن ابنتك سراً، ويهتضم حقها قهراً، ويمنع إرثها جهراً، ولم يطل منك العهد، ولم يخلق منك الذكر.. فإلى الله المشتكى وفيك أجمل العزاء. وصلوات الله عليك وعليها ورحمة الله وبركاته».

وعاد إلى داره وحيداً، مع أحزانه، يواسي صغاره: الحسن والحسين وزينب.

ولكنه ما كان ليترك في داره وحيداً!.. فقد أقبل عليه جماعة عرفوا بموت فاطمة الزهراء فجاءوا يعزونه.. وفيهم أبو بكر وعمر.

ولما أصبح الصباح لزم داره، مع أولاده الصغار يرعى شؤونهم، وما عاد يخرج إلا إلى الصلاة.

ولكن أحداً في المدينة ما كان ليدعه، وفي المدينة مسائل تريد إجابات.

وفوجىء عليٌّ بجماعة من الصحابة فيهم عبد الله بن العباس، وفيهم الخليفة أبو بكر، ورجل يهودي يقرعون عليه باب داره.

ذلك أن اليهودي دخل المسجد فسأل الناس: كما روى مالك بن أنس: «أين وصي رسول الله؟» فأشار القوم إلى أبي بكر، فقال الرجل: «أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا وصي أو نبي». قال أبو بكر: «سل عما بدا لك». قال اليهودي: «أخبرني عما ليس لله، وعما ليس عند الله.. وعما لا يعلمه الله».

قال أبو بكر: «هذه مسائل الزنادقة يا يهودي!».

هم أبو بكر والمسلمون رضي الله عنهم باليهودي، فقال ابن عباس رضي الله عنه: «ما أنصفتم الرجل!» فقال أبو بكر: «أما سمعت ما تكلم به؟» فقال ابن عباس: «إن كان عندكم جوابه، وإلا فاذهبوا به إلى علي رضي الله عنه يجيبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ وعلى آله يقول لعلي بن أبي طالب: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه».

فقام أبو بكر رضي الله عنه، ومن حضره فأتوا عليَّ بن أبي طالب في داره، فاستأذنوا عليه.

فقال أبو بكر: يا أبا الحسن إن هذا اليهودي سألني مسائل الزندقة! فقال علي كرم الله وجهه: «ما تقول يا يهودي؟».

قال: «أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصي نبي». فقال له: «قل». فأعاد اليهودي الأسئلة.

فقال علي رضي الله عنه: «أما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم معشر اليهود إن عزيراً ابن الله، والله لا يعلم أن له ولداً (إذ لو كان له ولد لكان يعلمه)، وأما قولك: أخبرني بما ليس عند الله. فليس عنده ظلم للعباد، وأما قولك: أخبرني بما ليس لله. فليس لله شريك».

فقال اليهودي: «أشهد أن محمد رسول الله وأنك وصي رسول الله».

فارتاح أبو بكر والمسلمون من جواب علي، وقالوا: «يا مفرج الكروب!».

الفصل الخامس

لولا علي لهلك عمر

لما انهزم أهل الردة ودخلوا في دين الله سيَّر أبو بكر جيوشاً كثيفة ففتحت بعض البلاد التابعة للإمبراطورية الرومانية، وبعض أجزاء من الإمبراطورية الفارسية.

وكانت بعض هذه الانتصارات باهرة ومذهلة حقاً، فقد استطاع جيش من أربعين ألف مجاهد يقوده خالد بن الوليد أن يهزم نحو مائتين وأربعين ألف مقاتل من أقوى عسكر الروم في معركة اليرموك!..

ذلك أن المجاهدين المسلمين كانوا يندفعون إلى المعارك بحرص رائع على الموت لتوهب لهم الحياة، وليظفروا بإحدى الحسنيين. إما أن يقتلوا في سبيل الله فيصبحوا شهداء، فليسوا أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون، وإما أن ينتصروا فينشروا دين الله وينعموا بما يتيحه النصر من كرامة ونعيم.

ولقد عادت هذه الفتوحات على الفاتحين بالأموال الطائلة.. حقاً!

إذ كان أمراء جيوش الفتح يرسلون خمس ما يغنمون إلى الخليفة، فهو حق الله ورسوله، ينفقه خليفة رسول الله على مصالح الدولة كما قضى الله بذلك.

وأما ما تبقى من الغنائم وهي أربعة أخماس فتوزع على المقاتلين.

كان من بين الغنائم كنوز نادرة من الذهب والفضة، والجواهر،

وأراض شاسعة خصبة كثيرة العطاء، وآلاف من السبايا الحسان فيهن ذوات الأحساب والأنساب، من بيوتات الفرس والروم..

وعندما تدفقت هذه الأموال الطائلة، والخيرات العميمة والسبايا الجميلات، على رجال لم يألفوا الغنى بعد، وقد خاضوا الغمرات بحرص على الموت.. أصبح من بين هؤلاء الرجال أنفسهم بعد الغنى المفاجىء من هم أحرص الناس على حياة!!

واشرأبت أطماع.. وزين للناس حب الشهوات من النساء، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة!

ورأى أبو بكر ذلك كله، ونفسه تتقطع حسرات على بعض صحابة رسول الله!!

فقال حين عهد بالأمر بعده لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «احذر هذا النفر من صحابة رسول الله ﷺ الذين فتنتهم الدنيا فانكبوا عليها».

ولقد نصح عبد الرحمن بن عوف لأبي بكر ألا يستخلف عمر، وقال: «إن فيه غلظة».. ولكن أبا بكر استخلفه من أجل شدته، ليرد المشغولين بمتاع الحياة الدنيا، إلى ما يجب عليهم من القصد والاعتدال!..

ثم أن أبا بكر دافع عما يسمونه غلظة عمر بقوله: «ذلك أنه يراني رقيقاً، وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه، ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيراً مما هو عليه مما ينفركم منه. ولا أدري لعلي تاركه! فالخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً». ثم قال في ضيق بهم: «لوددت إني كنت من أموركم خلواً!!».

ولقد دخل طلحة على أبي بكر مغاضباً، فقال: «استخلفت عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم؟! أنت

ملاق ربك فسائلك عن رعيتك». فقال أبو بكر: «أجلسوني». فأجلسوه، فقال: «أبالله تخوفني؟! إذا لقيت ربي فسألني قلت له: استخلفت على أهلك خير أهلك».

ثم إنه استدعى عثمان فسأله عن رأيه في عمر فقال عثمان: «سريرته خير من علانيته. وليس فينا مثله».

فقال له اكتب: «هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا نازحاً عنها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، إنني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم، فذلك ظني ورجائي، وإن بدل وغير فالخير أردت». ثم ختم أبو بكر الكتاب بخاتمه، وأبقاه عنده.

فلما شاع في المدينة خبر عهد أبي بكر لعمر، غضب فتيان من بني هاشم، وغضب معهم بعض الأنصار، ورأوا في هذا هضماً لحق علي..

وأشفق بعض المهاجرين من شدة عمر، وخشوا أن يحرمهم المتاع الجديد الذي أتاحته لهم الفتوحات، فذهبوا جميعاً إلى أبي بكر منكرين عليه أن يعهد إلى عمر، فمنهم من تمنى أن يعهد إلى علي لأن هذا الأمر حقه، ومنهم من تمنى عثمان أو عبد الرحمن فكلاهما أرفق بهم وألين معهم من عمر..!

فلما اجتمع الناس إلى أبي بكر أمر أن يجلسوه، فأجلسوه، وقال: «أيها الناس. قد حضرني من قضاء الله ما ترون. وإنه لا بد لكم من رجل يلي أمركم، ويصلي بكم، ويقاتل عدوكم، وينهاكم ويأمركم، فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم، ثم وليتم عليكم من أردتم، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيي».

ثم بكى، فبكى الناس، وقالوا: «يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا». قال: «سأجتهد لكم رأيي، وأختار لكم إن شاء الله».

فلما مضى عنه الناس، وأصبح وحده أرسل إلى عمر فقال: «يا عمر أحبك محب، وأبغضك مبغض، وربما يحب الشر ويبغض الخير». فقال عمر: «لا حاجة لي بها». فقال أبو بكر: «لكن بها إليك حاجة. والله ما حبوتك بها، ولكن حبوتها بك. خذ هذا الكتاب، واخرج به إلى الناس، وأخبرهم أنه عهدي، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم».

فخرج عمر بالكتاب، وأعلم الناس فقالوا: «سمعاً وطاعة».

فقال له أحد الأنصار الذين كانوا يريدون استخلاف علي: «ما في الكتاب يا أبا حفص؟». قال عمر: «لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع». فقال الرجل: «والله إني لأدري ما في هذا الكتاب! أَمَّرتَهُ عام أول، وَأَمَّرَك هذا العام».

وبعد أيام ذهب بعض الصحابة من المهاجرين يعودون أبا بكر وفيهم عبد الرحمن بن عوف، وكان قد بدأ يقتنع بعمر، فقال عبد الرحمن: «كيف أصبحت يا خليفة رسول الله.. فإني أرجو أن تكون بارئاً». قال: «أترى ذلك؟» قال: «نعم».

وأخذ أبو بكر يتأمل ما عليهم جميعاً من فاخر الثياب، وقد وضعوا نفيس الجوهر، وحلوا بأساور من فضة.

وقال أبو بكر في حزن: «والله إني لشديد الوجع. ولكن الذي ألقاه منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي. إني وليت أمركم خيركم عندي، فكلكم ورم أنفه من ذلك، يريد أن يكون هذا الأمر له، وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت، أما والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد (وسائد) الديباج! والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا. وأنتم أول ضال بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالاً».

فقال له عبد الرحمن: هون عليك رحمك الله. إنما الناس في

أمرك بين رجلين: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مثير عليك. وصاحبك عمر كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيراً، ولم تزل صالحاً مصلحاً، وأنك لا تأسى على شيء من الدنيا».

ولكن الخليفة استعبر وبكى، لأنه يأسى على أكثر من شيء فعله، وعلى أشياء لم يفعلها!

وأول ما يأسى عليه مما فعل هو ترويع فاطمة!.

وأما ما لم يفعل، فهو يأسى على أنه لم يسأل الرسول ﷺ عمن يخلفه وعن حق الأنصار في الخلافة، وهن ميراث العمة وبنت الأخ!..

ولقد صحت فراسة أبي بكر في بعض المهاجرين، فقد فتنوا بالدنيا فتوناً.

الأموال تتدفق عليهم من البلاد المفتوحة.

والسبايا الفاتنات، يوزعن عليهم، أو يعرضن للبيع في أسواق الرقيق!

ولقد تفرغ فتى من أبناء الصحابة لجارية رومية من السبايا، كانت من سادات قومها، فعنفه أبوه، وأعتق الفتى جاريته وتزوجها، فغلبته على عقله، وجن بها، وأصبح لا يطيق البعد عنها، ولا يخرج إلا للصلاة!

قال له أبوه الصحابي الجليل: «يا بني إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك، فطلقها». فقال: «يا أبت، لست أقدر على ذلك». فقال: «أقسمت عليك إلا طلقتها».

فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها.

غير أنه جزع عليها جزعاً شديداً، فعاف الطعام والشراب، وأخذ يضطجع في الشمس، ويهذي باسمها!

فلما أشرف الفتى على التلف، أشفق عليه أبوه فأمره أن يرجعها إليه ويعتدل!!

كان بعض هؤلاء الرجال يعودون بعد أن قاتلوا بحرص على النصر أو الاستشهاد، فإذا هم وقد امتلأت خزائنهم بالأموال، وبيوتهم بالسبايا الفاتنات يعيشون حياة باهرة من البطالة، والفتوة، والثراء، والمتاع.

أموال، وضياع، ونساء.. والشراب أيضاً!!

ذلك أنهم تأولوا القرآن الكريم، فزعموا أن ما فيه من آيات عن الخمر لا تنهى عن الخمر، ولكنها تحضهم على أن ينتهوا.. وذهبوا إلى أن القرآن ليس فيه عقاب واضح وصريح على شرب الخمر! فهي إذن ليست حراماً!!

ورأى عمر وهو يتفقد الرعية ليلاً جماعة يشربون الخمر في أحد بساتين المدينة، فدعاهم إليه في الصباح، وعَنَّفَهم على ما فعلوه في الليل، فقال له أحدهم: «وكيف عرفت؟» قال: «أنا رأيتكم من خلف الحائط». قال: «ألم يقل الله تعالى ولا تجسسوا؟».

بل إن بعض النساء كن يغشين مجالس الرجال!! حتى لقد اتهم أحد أمراء الجيش بامرأة خلال فتح العراق، ولكن أحد الشهود الأربعة اختلف فأمر عمر بجلد الشهود!

ثم أن الولع بالغناء شاع في ذلك العصر.

وكان عمر بن الخطاب صاحب صوت جميل، وتغنى يوماً وهو راكب بحداء معروف من أراجيز العرب، فاجتمع الركب عليه يسمعون إليه، فلما انتهى من الحداء، قرأ القرآن، فتفرق عنه الركب، فعاد للحداء فاجتمعوا من جديد، ثم عاد للقرآن فانفضوا عنه، فصاح: «يا بني اللقطاء!! إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم؟!».

على أن هذا السرف في ألوان المتاع والترف، والاستغراق في اللذات بعد خوض الغمرات، كان يواجهه نداء ملح من بعض الصحابة بالزهد وبالتقوى والعفة والورع..

وفي طليعة هؤلاء الدعاة للزهد عمر، وعلي.

وكان عليٌّ شديد الإلحاح على الناس في دعوته للورع والتقوى فيما وعظ به الناس من روائع الحكمة، وهي تعبر عن موقفه من الحياة الجديدة.

من ذلك قوله: «يابن آدم، لا تحمل هم يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه... واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك وإلا كنت خازناً لغيرك فيه».

وما ادخر هو نفسه قط ما فوق قوته.. بل إنه كان يتصدق بقوته إن سأله جائع أو محروم!!

ذات يوم وهو يصلي في المسجد سأله سائل، فلم يخرج من الصلاة، ولم ينتظر حتى يفرغ منها، بل مد يده من وراء ظهره للسائل وفيها خاتمه، وما كان يملك غيره، فخلعه السائل من أصبعه.

ومضى السائل، وأكمل كرم الله وجهه صلاته راضياً مرضياً!..

ومما وعظ به الناس: «من سره الغنى بلا مال، والعز بلا سلطان، والكثرة بلا عشيرة فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته، فإنه واجد ذلك كله».

«عباد الله، زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وحاسبوها قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق (انقادوا لما يطلب منكم قبل أن تساقوا إليه بالعنف) واعلموا أنه من لم يُعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن من غيرها زاجر ولا واعظ».

«اتقوا الله تقية ذي لب شغل التفكير قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأرجف الذكر بلسانه».

«اتقوا تقية من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، ورجع فتاب، واقتدى فاحتذى».

وكان يصف لهم الدنيا بقوله: «ما أصف في دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته (ساعاها سعى في طلبها)، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته..».

وبقوله: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.. إن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل... طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة. أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح (أي مزقوها كما يمزق الثوب بالمقراض على طريقة المسيح في الزهادة).

لا ريب أن مواجهة الموت في الحرب ثم النجاة منه والانتصار على الأعداء، يثير في النفس حب الشهوات، ولكن بعض الصحابة ما كان هذا كله ليثير فيهم إلا تقوى الله، والحرج، والورع، والزهد.

ولقد نادى أبو بكر ابنته عائشة عندما استشعر دنو أجله، وقال لها: «انظري يا بنية ما زاد في مال أبيك منذ ولي الأمر فرديه على المسلمين».

وكان رضي الله عنه تاجراً موسراً، فترك التجارة وانقطع للإمارة نظير أجرة ثلاثة دراهم في كل يوم!..

فلما مات نظرت عائشة فيما تركه، فلم تجد غير قطعة بالية من

القطيفة تساوي خمسة دراهم، وحديدة تحرك بها النار!

فأرسلت إلى عمر بذلك، والناس حوله، فبكى عمر وبكى الناس وقال: «رحمك الله يا أبا بكر لقد كلفت من بعدك تعباً طويلاً».

وقال الناس: «اردده يا أمير المؤمنين إلىّ أهله».

قال عمر: «كلا لا يخرجه من عنقه في حياته وأرده إلى عنقه بعد وفاته». ثم أمر بتحويله إلى بيت المال.

كان هذا السلوك حرياً بأن يعظ طلاب المتاع، والعاكفين على الشهوات والذين يكنزون الذهب والفضة.. ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار، كما قال علي الذي ما انفك يعلم الناس ويفتيهم في المسجد ويواجه هذا الطوفان من الأطماع والنهم والحرص على الحياة الدنيا بالدعوة إلى الله.

يقول: «رحم الله رجلاً نزع عن شهوته، وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تسرع إلى معصية في هوى، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن الجنة حفت بالمكاره، وإن النار حفت بالشهوات».

«التقى من ألزم نفسه العدل، فكان أول عدته نفي الهوى عن نفسه».

«من لج قلبه بحب الدنيا التاط (التصق) قلبه بثلاثة: هم لا يبرحه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه»...

«إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة.. من هوان الدنيا على الله ألا يُعْصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها... الركون إلى الدنيا مع ما تعاني

منها جهل!.. من هوان الدنيا على الله أن رأس نبي الله يحيى ﷺ جعلت مهر بغي من بغايا أورشليم!..».

«الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر»..

«لا ينبغي لعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى. بينما تراه معافى إذ سقم، بينما تراه غنياً إذ افتقر... إن المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة... من عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه... اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ونصح أقواماً بقوله: «قال تعالى: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾. وقال تعالى: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجر كريم**﴾، فلم يستنصركم من ذل، ولم يستقرضكم من قل (قلة)، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً... فإنك ما تقدم من خير يبق لك ذخره، وما تؤخره يكن لغيرك خيره»..

وبقوله: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضا عنه».

«احذر كل عمل يعمل به في السر، ويستحيا منه في العلانية.. الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عما تحب.. من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء الظن.. ما المجاهد الشهيد في سبيل الله، بأعظم أجراً ممن قدر، فعف».

كان علي كرم الله وجهه قد فرغ من جمع القرآن في مصحف، وتفرغ للعلم والتعليم، وقال بعد أن أتم إعداد المصحف: «رحم الله أبا بكر. كان أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف».

فقد نشط أبو بكر إلى جمع القرآن وكتابته في مصاحف منذ

استشهد عدد كبير من القراء في حروب الردة، وبعد إلحاح الصحابة عليه.

لما ولي عمر بن الخطاب، أراد أن يذهب إلى قتال الروم، ولكن عليَّ بن أبي طالب أقنعه أن في الجيوش التي كان قد أعدها أبو بكر كفاية، وقد حقق قوادها نجاحاً كبيراً، وكل ما يحتاج هؤلاء القواد هو المدد من عمر.

ولكن عمر رأى أن مسيره لا مندوحة عنه ليقود المجاهدين بنفسه، فيثير فيهم الحماسة، ويحقق الله به النصر المبين. فقال له علي: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، ولا تكن للمسلمين كانفة (أي كنف) دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مجرباً، واحفز معه أهل البلاد النصيحة. فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت مثابة للمسلمين».

فولى عمر أبا عبيدة على الجيش.

وفتحت جيوش المسلمين أرض العراق والشام كلها ومصر، وهرب هرقل إلى القسطنطينية ونظر إلى آخر معاقله في سوريا فبكى وهو يقول: «سلام عليك يا سوريا، سلام لا اجتماع بعده!».

وقال أحد قواد الروم للمقوقس يصف المجاهدين العرب: «رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم من الدنيا رغبة ولا نهمة، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء. ويتخشعون في صلاتهم». فقال المقوقس: «والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد».

ولما اعتدى الفرس على المسلمين بعد ذلك، وأراد عمر أن يفتح

بلاد الفرس، استشار علياً في الخروج لقتال الفرس بنفسه، فقال علي: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعده وأمده حتى بلغ ما بلغ. ونحن على موعد مع الله والله منجز وعده، وناصر جنده. ومكان القيم بالأمر مكان النظام (أي السلك) من الخرز، يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم (تكالبهم) عليك، وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من سير القوم لقتال المسلمين، فإن الله سبحانه، هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة (من الله تعالى)».

واستطاع المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي أن يفتحوا أرض فارس «المدائن» عاصمة الفرس، واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى. وقرأ في صلاته قوله تعالى: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين**﴾.

وأرسل سعد إلى عمر بالمدينة كنوز كسرى وتيجانه، وبنات كسرى، وأسيافه... وكان الفرس من قبل قد غزوا الهند والترك، ومنهم غلبت الروم في أدنى الأرض، ونهبوا جواهر ملوك الهند والترك وأباطرة الروم، فآل كل ذلك للفاتحين.

وأرسل سعد إلى عمر إلى جوار خمس الفيء، بساطاً واحداً طوله

ستون ذراعاً وعرضه مثل ذلك، وقد نقش عليه بالذهب والجواهر، طرق وأنهار وأزهار وثمارا..

وقد نال كل جندي من جنود سعد بن أبي وقاص اثني عشر ألفاً غير الدور.. وكانوا ستين ألفاً.. وبلغ ما دخل بيت المال ثلاثين ألف ألف أي ثلاثين مليوناً..

وقال عمر وهو يتأمل الغنائم: «إن قوماً أدوا هذا لأمناء». فقال له علي: «يا أمير المؤمنين، عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعوا».

وجمع عمر الناس، وعرض عليهم الغنائم، وظل يفحص جواهر كسرى النادرة وتيجانه وكنوزه ويتأملها، فبكى!

فقال له عبد الرحمن بن عوف: «ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شكر». قال عمر: «ما أعطى الله هذه النعمة قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم».

ثم أشار إلى الغنائم النفيسة وأقسم على عبد الرحمن بن عوف أن يقسمها فهو عليم بالجواهر، لتوزع في الوقت.

وقسم ابن عوف المتاع، ووزعه عمر على الناس، بادئاً بأهل السابقة في الإسلام.

وبقي البساط المرصع بالذهب والجواهر النادرة، وكان لا ينقسم، وسألهم عمر المشورة في أمر البساط فقال بعضهم: «قد جعل الجند ذلك لك». ومنهم من قال: «إنه لأمير المؤمنين لا يشركه فيه أحد» وزاد أحدهم: «يا أمير المؤمنين لقد أشغلناك عن أهلك وضيعتك وتجارتك فهو لك».

فقال علي: «يا أمير المؤمنين لم يجعل الله علمك جهلاً، ويقينك شكاً. إنه ليس من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، وقسمت فسويت، أو

لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت. وإنك إن تبقه اليوم على هذا لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له».

قال عمر: «صدقتني ونصحتني يا أبا الحسن».

ثم قطع البساط وقسمه، فأصاب علياً منه قطعة لم تكن أجود من غيرها فباعها بعشرين ألفاً.

أما بنات ملك الفرس، فقد أراد عمر أن يبيعهن كالجواري، ويضع ثمنهن في بيت المال.. وأعطاهن للدَلَّال ينادي عليهن بالسوق، فكشف الدَلَّال عن وجه إحداهن، فلطمته لطمة شديدة، فصاح الرجل: «واعمراه!»، وشكا إليه، فدعاهن عمر، وأراد أن يضربهن بالعصا فقال علي رضي الله عنهما: «يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: (أكرموا عزيز قول ذل وغني قوم افتقر) إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوّموهن».

فقوموهن وكن ثلاثاً، فأعطاه أثمانهن ووهبهن: واحدة لمحمد بن أبي بكر، والثانية لعبد الله بن عمر، والثالثة لابنه الحسن.

فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ثم فارس، ومصر، فأفاء الله عليهم إلى جوار الأموال الطائلة والكنوز الباهرة والجواهر النادرة، أراضي واسعة شاسعة، غزيرة الثمار، غنية العطاء، كانت هي مهد الحضارات المعروفة آنذاك بكل معطياتها من الثراء المادي والمالي والفني والفكري..

ورأى بعض المسلمين أن يقسم الخليفة عمر بينهم الأرض المفتوحة، كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر، وكما صنع أبو بكر فيما غنموه من أرض فتحوها في عهده..

فقال عمر: «إذا قسمت أرض العراق وأرض الشام وغيرها، فماذا نسد به الثغور، وما يكون للذرية والأرامل؟».

فقال عبد الرحمن بن عوف: «ما الأرض بعلوجها إلا ما أفاء الله علينا». (علوجها جمع عِلْج هم رجالها من غير العرب).

قال عمر: «فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قُسّمت، وورثت عن الآباء وحيزت»؟

وأكثروا على عمر وقالوا: «أنفقت ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا؟».

وجمع عمر المهاجرين الأوائل، فأيده عثمان وعلي وطلحة، وعارضه الآخرون، واشتد عليه الزبير بن العوام وبلال بن رباح.

وشرح علي لهم أن الأرض يجب أن تبقى لمن يفلحها، وأن يوضع عليها خراج يدخل بيت المال فيوجه للمصلحة العامة، وتجري منه الرواتب على المجاهدين، وعلى من يستحقونها من المهاجرين والأنصار.

ولكن الآخرين صمموا على أن تقسم الأرض بعبيدها الذين يفلحونها، وتمسكوا، ثم إنهم أصروا على ذلك إصراراً، حتى اتهموا علياً وعثمان وطلحة بمخالفة السنة!! واتهموا عمر بالظلم.. وكان أشدهم في ذلك الزبير بن العوام..!!

فوقف عمر يخطب الناس: «قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلماً، فوالله لو كنت نطقت بأمر أريده، فما أريد به إلا الحق. لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم، لقد شقيت! ولكني رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع فيها الخراج (الضرائب) وفي الرقاب الجزية، يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين. أرأيتم هذه المدن

العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، ولا بد لها من رجال يلزمونها، وإجراء العطاء عليهم، فمن يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرض؟».

فانحاز الأنصار وعدد كبير من المهاجرين لرأيه فقالوا: «نِعْمَ ما قلت وما رأيت. فلتشحن هذه المدن وهذه الثغور بالرجال، وتجرى عليهم ما يتقون به أهل الكفر». ثم أجمعوا على رأي عمر وعلي.

ولقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم (مائة مليون) وجهها عمر كما وجه غيرها للمنفعة العامة، وأجرى منها الأعطيات، على الجميع حتى الذين كانوا يعارضونه، فأصاب كل منهم مبلغاً كبيراً وجعل على أهل مصر نصف أردب من القمح على كل فدان. فجمع من خراج (ضريبة) الأرض وحدها اثني عشر ألف ألف دينار (أي اثني عشر مليون دينار ذهباً!!).

ولما أراد عمر أن ينشىء الديوان الذي يحتفظ فيه برواتب المسلمين، آخذاً بالنظم التي كانت قائمة عند الفرس والروم، قال له عبد الرحمن بن عوف: «ابدأ بنفسك» فقال عمر: «بل ابدأ بقرابة رسول الله ﷺ».

وبدأ بالعباس عم الرسول، ونساء النبي، وعلي بن أبي طالب، والأقرب للنبي فالأقرب، ثم أهل بدر، وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلها هم الحسن بن علي والحسين بن علي وأبو ذر، وسلمان، ثم جعل الناس طبقات وفق ما لهم من فضل وسابقة في الإسلام، ووفق حاجتهم وأعلن قواعد التوزيع: «لكل وسابقته، لكل وعمله وبلاؤه، لكل وحاجته». ففضل السابقين من المهاجرين والأنصار، ثم من أسلم قبل الفتح، ثم من أسلم بعده ثم المجاهدين حتى آخر معركة.. وكان أكبر مبلغ فرضه هو ما تقاضاه العباس عم الرسول: فقد فرض له اثني عشر ألفاً، وفرض لنساء النبي لكل واحدة عشرة آلاف، ونساء أهل بدر

خمسة، وكان أدنى ما فرض مائة، ثم جمع الناس وقال لهم: «إني كنت امرءاً تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم، فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال؟» فأكثر القوم عليه يقترحون الإغداق، وعلي صامت.

فلم يحفل بما يقولون وسأل علياً: «ما تقول يا أبا الحسن؟» قال علي: «ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف. وليس لك في هذا المال غيره». فقال عمر: «الله أكبر، صدقت يا أبا الحسن. لولا علي لهلك عمر».

واستنكف جماعة من أهل الشام من اسم الجزية، وارتضوا أن يدفعوا بشرط تغيير اسمها، ولكن عمر صمم على أن يدفعوا الجزية صاغرين باسم الجزية، فاحتكموا إلى علي، فأقنع عمر أن يقبل منهم الجزية باسم صدقة تطهرهم.. فلما اقتنع عمر، دخل عدد منهم في الإسلام.

استطاع علي بحسن المشورة لعمر أن يخفف من شدته، وأن يشد أزره في وجه أصحاب المطامع الذين أغراهم الغنى المفاجىء..

واطمأن عمر، واتخذ علي بن أبي طالب صديقاً، على الرغم من أن علياً أصغر منه بنحو عشرين عاماً..

استطاع عمر بفضل حسن الصحبة وحسن المشورة أن يواجه كثيراً من المعضلات..

أما هذا التحول الجديد في مجتمع المدينة، وزحف قيم جديدة تزحم القيم التي بعث الله بها النبي، فقد كان يُعنِّى عمر بن الخطاب ويضنيه، وأنى له أن يواجهه!! ولقد روعه أن سمع امرأة قد سهدت في فراشها تغني: «هل من سبيل إلى خمر فأشربها؟».

لقد دعا الله في حياة الرسول أن ينزل حكماً قاطعاً في الخمر،

فنزل فيها حكم الله ولكن لم يلبث الرسول ﷺ أن مات، ولحق به خليفته رضي الله عنه حتى زعم أقوام أن الحدود جميعاً قد وردت في القرآن: وهي حد القتل والجرح وهو القصاص، وحد الزنى، وحد القذف، وحد السرقة. وحد قطع الطريق والإفساد في الأرض. أما الخمر فلم يرد لها حد، فلا عقاب على شربها!!..

وهكذا انهمكوا فيها، حتى لقد أرسل أمراء جيوش الفتح مثل سعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح إلى عمر يشكون مقاتلين يحتفلون بعد الانتصارات باحتساء الخمر، ويزعمون أنهم لم يجدوا في كتاب الله ولا في سنة رسوله جزاء لشارب الخمر!

وفزع عمر رضي الله عنه إلى علي كرم الله وجهه يسأله.

فكر علي ملياً ثم قال لعمر: «يا أمير المؤمنين أليس المرء إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة»؟ فكبر عمر أن وجد الحكم الذي ينشده، باجتهاد علي، وقال: «يجلد شارب الخمر ثمانين جلدة»... وظل يكبر ويقول: «لولا علي لهلك عمر»..

وهكذا جعل حد شرب الخمر هو حد القذف.

ثم استشار عمر علياً في رجل وامرأة مر بهما عمر وهو يتفقد رعيته في دجى الليل، فوجد بينهما ما بين الرجل وزوجته، وفي الصباح علم أنهما ليسا زوجين، فأمر بأن يحدا. ولكن علياً قال له: «أجئت عليهما بأربعة شهداء». فقال عمر إنه هو الذي شهدهما وحده، فأفتاه علي بأنه لا يحق له أن يحكم بعلمه هو وحده. فعسى أن يكون قد شبه له، أو أخطأ، فلا بد من الشهداء كما نص القرآن وجرت السنة.

وفي الحق أن عمر كان يشتد ليقاوم الفاحشة التي أوشكت أن تشيع في الظروف الاجتماعية الجديدة، وما كان عليٌّ أقل منه تحرجاً،

وتشددا، ولكنه أراد أن يحمي الناس من الأخذ بالظاهر، وألا يقع الجزاء إلا على من تيقن ولي الأمر عين اليقين أنه مذنب، بعد أن تتاح له كل وسائل الدفاع التي كفلتها الشريعة.

فعلي كرم الله وجهه ما كان يجد أمراً فيه فرج حتى يأخذ به.. من ذلك أن عمر استشار عدداً من الصحابة في امرأة قد زنت، وشهد عليها أربعة شهداء عدول، فأجمعوا على رجمها، فلما ذهبوا ليرجموها، مر بهم علي فقال: «ما شأن هذه؟» قالوا: «مجنونة بني فلان زنت فأمر بها أن ترجم». فانتزعها علي من أيديهم، وردهم، فرجعوا إلى عمر، فقال: «ما ردكم؟» قالوا: «ردنا علي». فقال عمر: «ما فعل أبو الحسن هذا إلا لشيء قد علمه». فجاء علي شبه غاضب، فسأله عمر: «ما بالك قد رددت هؤلاء؟» فقال علي: «أما سمعت قول رسول الله ﷺ رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستقيظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ فما بال هذه ترجم؟».

فأطلقها عمر، وجعل يكبر ويقول: «لولا علي لهلك عمر».

ووكل إلى علي أمر القضاء، ولم ينتقص عمر له رأيا، حتى وإن خالفه. كانت لرجل قضية ليس لها حكم في الكتاب والسنة فأحالها إلى علي..

سأل عمر صاحب القضية: «ما صنعت؟» قال: «قضى علي وأيده زيد بكذا». فقال عمر: «لو كنت أنا لقضيت بكذا!!» فقال الرجل: «فما يمنعك والأمر إليك». قال: «لو كنت أردك إلى كتاب الله أو إلى سنة نبيه ﷺ لفعلت، لكني أردك إلى رأيي»..

وقد نشأت أقضية اختلف عليها عمر وعلي.. من ذلك أن رجلاً تزوج امرأة في عدتها، ففرق عمر بينهما، وقضى أنها لا تحل له بعد أبداً، آخذاً مثل هذا العبث بحسم يخيف العابثين.. ولكن علياً رأى أنه

ما من سند شرعي لتحريمها عليه أبداً واكتفى بأن يفرق بينهما.. وما زال بعمر حتى أقنعه برأيه.

ومن ذلك قضاء عمر فيمن يطلق امرأته وهو في سفر، ثم يرتجعها، وتعلم بالطلاق، ولا تعلم بالرجعة، فتتزوج بعد العدة، فزوجها الثاني أولى بها..

قضى عمر بهذا تأديباً للرجال..

ورأى علي أن زوجها الأول أولى بها..

كما اختلفا في زوجة المفقود فقال علي إنه لا يحل لها الزواج من غيره إلا بالطلاق أو ثبوت الموت، ورأى عمر أن لها الحق بعد غياب أربع سنوات.. وكان لكل حجته في هذا الاجتهاد.. وكل منهما ينشد التيسير على الناس.

ورأى عمر أن الرجال قد أسرفوا في الطلاق، فكان الرجل يطلق امرأته ثلاثاً في لفظة واحدة، إرضاء لزوجة جديدة من السبايا الحسان تشترط عليه ذلك، وكان مثل هذا الطلاق لا يقع إلا طلقة واحدة في عهد الرسول وعهد أبي بكر وشطر من حكم عمر.

ولقد وافقه علي بن أبي طالب على تأديب الرجال بأن يقع مثل هذا الطلاق كأنه ثلاث طلقات متفرقة، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره: «لأن الناس استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة».

حتى إذا احترم الرجال مواثيق الزواج، وتأدبوا واعتبروا، عاد علي وهو أمير للمؤمنين إلى الأصل، واعتبرها طلقة واحدة.

وجاؤوا عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور، فأمر برجمها. فقال له علي: «هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟» فأطلقها عمر حتى تضع حملها.

وجاؤوا عمر بامرأة أجهدها العطش، فمرت على راع فاستسقته فأبى إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت فشاور الناس في رجمها فقال علي: «هذه مضطرة، فخل سبيلها». وأشار برجم الراعي وحده. وأخذ عمر بهذا الرأي.

واجتمع عند عمر مال، فقسمه، فبقي منه شيء فاستشار بعض الصحابة فيما بقي قالوا: «نرى أن تمسكه فإن احتجت إلى شيء كان عندك». فسأل علياً: «مالك لا تتكلم يا أبا الحسن؟» قال: «قد أشار عليك القوم». قال: «وأنت فأشر». قال: «أرى أن تقسمه». فقسمه عمر.

وقال: «يا أبا الحسن لا أبقاني الله لشدة لست لها، ولا لبلد لست فيه».

ورفعت إلى عمر قضية امرأة ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها فجاءت أختها إلى علي تستصرخه. فذهب إلى عمر وقال: «إن الله عز وجل يقول: ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾ وقال تعالى: ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾. فالفصال أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر. تلك ثلاثون شهراً».

فخلى عمر سبيلها. قال: «أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن».

وقد شكا يهودي علياً إلى عمر، وكان عمر شديد الحرص على المساواة بين الخصوم في القضاء. فقال لعلي: «ساو خصمك يا أبا الحسن. فوقف علي إلى جوار اليهودي أمام عمر. وعندما قضى عمر وانصرف اليهودي قال عمر: «أكرهت يا علي أن تساوي خصمك؟» قال: بل كرهت أن تميزني عنه فتناديني بكنيتي (أبو الحسن).

وكان علي يدعو لمكارم الأخلاق حباً في مكارم الأخلاق.. قال

مرة لبعض جلسائه: «عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كنا لا نرجو جنة، ولا نخاف ناراً، ولا ننتظر ثواباً، ولا نخشى عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاة». فقام رجل فقال: «فداك أبي وأمي! أسمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، لما أتينا بسبايا طيىء كان في النساء جارية حماء (بيضاء) حوراء العينين، شماء الأنف، معتدلة القامة.. فلما رأيتها أعجبت بها، فقلت: «لأطلبنها من رسول الله ﷺ ليجعلها من فيئي».

فلما تكلمت أنسيت جمالها، لما سمعت من فصاحتها. قالت: «يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب، فإنني بنت سيد قومي، كان أبي يفك العاني، ويحمي الذمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم الطائي».

فقال لها رسول الله ﷺ: «يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق».

وكان علي كرم الله وجهه يبادل عمر ـ رضي الله عنه ـ التقدير، والتبجيل.

وجاء علياً بعض رجال يشكون من شدة عمر، ولَوَّحُوا لعلي بأنه كان أولى بالخلافة من أبي بكر وعمر، وذمّ بعضهم عمر، فنهرهم علي وقال: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر».

وسكت قليلاً ثم قال تمجيداً لعمر: «ما كنا نستبعد أن السكينة (أي الإلهام) تنطق على لسان عمر».

وكان علي يملك هذا الذكاء اللماح النفاذ الذي يُمَكِّنهُ من استقراء

أعماق القلوب، وقراءة صفحات الوجوه، وتقصّي فلتات الألسنة.

وكان هذا الذكاء، مع علمه الغزير العميق، أداته في الاجتهاد، والفتيا والقضاء. من أجل ذلك كان لا يحكم بظاهر الأشياء ولا ينظر لها، وإنما يتحرى ما وراء الظاهر ويعمد إلى جوهر الحقيقة نفسها. وكم ثبت له أن الباطن يخالف الظاهر، وأن من الظواهر ما يخدع!!

ولقد كان ابن عباس أذكى أهل زمانه، ولكنه كان يشهد لذكاء علي.

ويروى أنه (بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا، فأنشده:

أمن آل نُعْمٍ أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمُهَجِّر

حتى أتى على آخرها.

فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: «الله يابن عباس! نحن نضرب إليك أكباد المطيّ من أقاصي البلاد نسألك عن الحرام والحلال فتتثاقل عنا. ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيغني وأما بالعشي فيحسر

فقال ابن عباس: ليس هكذا قال، بل قال:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشي فيخصر

(يخصر: يبرد).

ثم أنشد ابن عباس القصيدة كلها من أولها إلى آخرها فقال له بعضهم: «ما رأيت أذكى منك قط». قال: «لكنني ما رأيت أذكى من علي بن أبي طالب».

من أجل ذلك كان عمر يحيل إليه المعضلات التي تحتاج إلى الذكاء وسعة العلم. .

وروى الإمام جعفر الصادق عن جده الإمام علي: «أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار، وكانت تهواه فلما لم يساعدها احتالت عليه، فأخذت بيضة فألقت صفرتها، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيها. . ثم جاءت بالشاب إلى عمر صارخة، فقالت: «هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي وهذا أثر فعاله».

فسأل عمر النساء فقلن له: «إن ببدنها وثوبها أثر المني».

فهمّ عمر بعقوبة الشاب، فجعل الشاب يستغيث ويقول «يا أمير المؤمنين، تَثَبَّتْ في أمري، فوالله ما أتيت بفاحشة، ولا هممتُ بها، فلقد راودتني عن نفسي فاعتصمت». فقال عمر رضي الله عنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «يا أبا الحسن ما ترى في أمرهما؟».

فنظر علي كرم الله وجهه إلى المرأة يقرأ صفحة وجهها، ونظر إلى ما على الثوب، ثم دعا بماء حار شديد الغليان، فصبه على الثوب فجمد ذلك البياض، ثم أخذه واشتمه وذاقه، فعرف رائحة البيض وطعم البيض، وزجر المرأة فاعترفت!. فأطلق الشاب البريء، وأقيم عليها حد القذف.

ورفعت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد زنت. فسألها عن ذلك. فقالت في يسر: «نعم يا أمير المؤمنين». وأعادت ذلك وأيدته، كأنها لم تقترف ذنباً!. وعلي يسمع ويتأمل!. .

فقال علي كرم الله وجهه: «إنها لتستهل به استهلال من لا يعلم أنه حرام».

فأعلماها بحرمة الزنى، ودرآ عنها الحد.

وأفتى علي بأن كل من يستكره على ذنب، يعفى من العقاب، ويعاقب من أكرهه.. فإذا اضطر أجير إلى السرقة لأنه لم يجد ما يأكله، لم تقطع يده، وإنما قطعت يد الذي استأجره ولم يعطه أجره، فهو الذي أكرهه على السرقة... أو بالقليل وجب عليه التعويض مضاعفاً!..

ويروى أن علياً كان في مجلسه يعلم الناس بالمسجد، إذ سمع ضجة، فلما سأل عنها قيل له: «رجل سرق ومعه من يشهد عليه».

فشهد شاهدان عليه أنه سرق، فجعل الرجل يبكي، ويناشد علياً أن يتثبت في أمره.

فخرج علي إلى الناس بالسوق، فدعا بالشاهدين، فناشدهما الله وخوفهما، فأقاما على شهادتهما، فلما رآهما لا يرجعان دعا بالسكين وقال: «ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر». فتقدما ليقطعاه، فهاج الناس، واختلط بعضهم ببعض.

وقام علي من مكانه، فترك الشاهدان الرجل، وهربا.

وعاد علي فقال: «من يدلني على الشاهدين الكاذبين؟» فلم يعثر الناس لهما على أثر.

وقد قال علي: «يبدأ الشهود بالرجم إذا شهدوا بالزنى، فإن كانوا كاذبين، لم يستطيعوا أن يرجموا».

وجاءت إلى علي رضي الله عنه امرأة فقالت: «إن زوجي وقع على جاريتي بغير أمري». فقال للرجل: «ما تقول؟». قال: «ما وقعت عليها إلا بأمرها». فقال علي: «إن كنت صادقة رجمته، وإن كنت كاذبة جلدتك حد القذف». (ثمانين جلدة)... وأقيمت الصلاة، فقام علي كرم الله وجهه ليصلي.

وفكرت المرأة، فلم تر لها فَرَجاً في أن يُرْجَمَ زوجها، ولا في أن تجلد فولت هاربة، ولم يسأل علي عنها!..

وكان يقول: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه!» لهذا كان في قضائه يحاور ويتأمل، وهو أول من فرق بين الشهود، واستمع لكل شاهد على حدة، فاستطاع أن يتبين الحقيقة، وأمن تأثير الشهود بعضهم على بعض!

من ذلك أن امرأة أتوا بها إلى علي كرم الله وجهه، وشهدوا عليها أنها بغت..

وكانت يتيمة رباها رجل كثير الغياب عن أهله، وكان للرجل امرأة غيور.

فَشَبَّت اليتيمة وأصبحت حسناء فتانة، فخافت المرأة أن يتزوجها زوجها، فدعت نسوة من جاراتها أمسكن اليتيمة الحسناء، فافتضت بكارتها بأصبعها، فلما عاد الزوج من غيبته، رمت الزوجة الغيور تلك اليتيمة بالفاحشة، واستشهدت بالنسوة اللائي ساعدنها على أخذ عُذرتها.

فسأل علي المرأة: «ألك شهود؟». قالت: «نعم. هؤلاء جاراتي يشهدن بما أقول».

فأحضرهن علي، وأحضر السيف، ودعا امرأة الرجل، وحاورها طويلاً فأصرت على قولها. فصرفها.

ودعا امرأة أخرى من الشهود فهددها إن لم تصدقه لَيَفْعَلَنّ كذا وكذا. فقالت: «والله ما فعلت اليتيمة فاحشة، إلا أن زوجة الرجل رأت فيها جمالاً وهيبة، فخافت فساد زوجها، فدعتنا، فأمسكنا لها بالفتاة حتى افتضتها بإصبعها».

فألزم المرأة حد القذف، وألزم الرجل أن يطلقها، وزوجه اليتيمة المفترى عليها..

وجاؤوا برجل إلى عمر بن الخطاب سأله جماعة من الناس: «كيف أصبحت؟» فقال: «أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، وأصدق

اليهود والنصارى، وأومن بما لم أره، وأقر بما لم يخلق».

فأرسل عمر إلى علي رضي الله عنهما، فلما جاءه أخبره بمقالة الرجل.

فقال علي ضاحكاً: «صدق الرجل. قال الله تعالى: **﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾** فهو يحب المال والبنين. وهو يكره الحق يعني الموت. قال تعالى: **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾**. ويصدق اليهود والنصارى **﴿قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾** وهو يؤمن بما لم يره أي يؤمن بالله عز وجل، ويقر بما لم يخلق يعني الساعة».

فضحك عمر وأطلق سراح الرجل!

وبلغ عمر بن الخطاب أن امرأة بغياً يدخل عليها الرجال، فبعث إليها رسولاً فأتاها الرسول فقال لها: «أجيبي أمير المؤمنين». ففزعت المرأة فزعاً شديداً، فأجهضها الفزع، وأسقطت حملها ميتاً، فحزن عمر وأرسل إلى بعض الصحابة، فقص عليهم ما كان من أمره وأمر المرأة فقالوا: «ما نرى عليك شيئاً يا أمير المؤمنين، إنما أنت معلم ومؤدب». فسأل علياً، فقال علي: «إن كانوا قاربوك في الهوى فقد أثموا، وإن كان هذا جهد رأيهم فقد أخطأوا. وأرى عليك الدية». فقال عمر: «صدقت يا أبا الحسن».

ثم عاد يكرر: «والله لولا علي لهلك عمر. أعوذ بالله من معضلة لا علي لها».

وسأله عمر ذات يوم: «يا أبا الحسن، أسألك عن شيء هل عندك منه علم؟» قال: «ما هو؟» قال: «الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شرا». قال علي: «نعم قال رسول الله ﷺ: (إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف).

وكما كان عمر يسأل علياً ويروي عنه، كان علي يروي عن عمر.

استشهد علي بغلامه وبابنه الحسن في قضية درع سرقه منه يهودي. فقال له القاضي: «أما شهادة ابنك فلا». فقال علي: «سمعت عمر بن الخطاب يروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، أفلا تجيز شهادة أحد سيدي شباب أهل الجنة؟»».

أما القاضي فلم يأخذ بالشهادة، ـ وعلي آنذاك أمير المؤمنين ـ وحكم للخصم، وإذ رأى الخصم عظمة المساواة، اعترف بأن علياً صاحب حق، وأسلم، وحسن إسلامه.

الفصل السادس

الشورى

ما كان جميع المطالبين بتوزيع الأرض المفتوحة يصدرون عن حب للجاه أو السلطان أو عن حرص على ما يمنحه امتلاك الأرض من سطوة.

حقاً.. ما كان هو الطمع!.. بل كان فيهم من يصدر عن ورع!

ذلك أنهم تورعوا عن مخالفة السنة الشريفة. فقد شهدوا رسول الله ﷺ حين فتح الله عليه أرض خيبر، يقسم الأرض على الفاتحين، بعد أن يأخذ منها الخمس لمصارفه كما نصت الآية الكريمة في سورة الأنفال **﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾** وتبقى أربعة أخماس هي للفاتحين وحدهم.

فعلى مدى ثلاثة أيام استمر الجدل، حتى أوشك أن يتحول إلى شقاق بعيد، واختلطت الأطماع بتقوى الورعين، فلم يعد أحد يتبين النوايا التي تحرك الرجال، واصطدم هذا كله بموقف جديد اتخذه عمر متشدداً، وأيده فيه علي وعثمان، رضي الله عنهم جميعاً...

وكان أهل الورع يسألون عمر وعلياً وعثمان عن حجتهم في تغيير أحكام الكتاب والسنة!.. واعترف الثلاثة أن حق الفاتحين في أربعة أخماس الفيء مكفول لهم بالكتاب والسنة بلا مراء، ولكن الزمن تغير، فلا مناص من تغير الأحكام!..

وقال علي لمخالفيه: إنه من أجل ذلك وعظهم مراراً أن يربوا أولادهم تربية عاقلة، فلا يلزموهم اتباع آرائهم، لأن الأبناء مخلوقون لزمان غير زمان الآباء. لكم قال لهم: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»... فالآداب والأخلاق والأعراف قد تتغير بتغير الزمان والمكان.. وكذلك الأحكام! ربما تغيرت العلل التي من أجلها صدرت، فينبغي أن تتغير، دفعاً لمفسدة، أو تحقيقاً لمصلحة. فلو أن الأراضي الشاسعة في العراق والشام ومصر وبلاد الفرس وخراسان، قسمت بين الفاتحين، فامتلكوها وورثوها أبناءهم وأبناء أبنائهم، لتكونت طبقة جديدة من المالكين تداولت المال وحدها دون سائر المسلمين، ولما وجد ولي الأمر ما يلزمه من مال لحماية البلاد وتحقيق مصالح العباد!..

ثم قال لهم علي وهو يحاورهم إنه هو وعمر وعثمان حين يصرون على إبقاء الأرض في أيدي زارعيها، وفرض خراج عليها يؤديه الزارعون، لا يجتهدون رأياً يخالفون به الكتاب والسنة، ولكنهم يجدون في الكتاب آيات بينات، تخصص الأحكام التي أطلقتها آية الفيء، وتقيد مطلقها.. وقد قال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾**.. والمسلمون يعرفون منذ نزلت هذه الآية الكريمة من هم أهل الذكر!

ومن عساهم يكونون إن لم يكونوا هم النفر الذين يقودهم علي بن أبي طالب، وقد قال فيه الرسول: «أنا مدينة العلم وعلى بابها فأتوا البيوت من أبوابها»..

وإن منهم لمن يقول: إن أهل الذكر في الآية الكريمة هو علي بن أبي طالب وحده!

ثم من يكون أهل الذكر، إن لم يكونوا هم النفر الذين يقف في طليعتهم عمر بن الخطاب، الذي قال فيه الرسول ﷺ: «إن الحق على قلبه ولسانه»!؟..

وقال فيه علي: إنه لا يستبعد أن يكون عمر ملهماً..

ولقد قال عمر لمن اتهموه بالظلم لأنه لم يوزع عليهم الأرض المفتوحة وأبقاها في أيدي زارعيها وفرض عليهم الضرائب، قال: «إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم!».

على أن علياً وعمر وجدا في كتاب الله مما يحتجان به على مخالفيهم، وهم بلا مراء أقل قدرة على العلم بالأحكام، وعلى استنباطها من علي وعمر، وعلي كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أعلم الناس بالسنة».

والآيات التي احتج بها علي وعمر على مخالفيهم هي: **﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**.

فهذا حكم للقرى كلها، أي لكل البلاد المفتوحة، كيلا يختص بالمال أفراد منكم، يداولونه بينهم ويورثونه أبناءهم وأحفادهم، دون باقي المسلمين، فيتسلط بعضكم على بعض بالغنى، وهذا ما يأباه الله ورسوله.

وتنتهي الآية بقوله تعالى: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**.

أما أهل التقوى أصحاب الورع من الذين خالفوا عمر وعلياً، فقالوا: «سمعنا وأطعنا وتبنا إلى الله». وكأنهم يسمعون الآية لأول مرة!..

وانقلبوا يؤيدون إبقاء الأرض، وعدم تقسيمها.

ولكن أهل الطمع انتظروا... ولم تقنعهم هذه الآية من أول سورة الحشر.

وعلي وعمر يتلوان بقية الآيات: **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**.

وشعر بعضهم بالحياء فدعا الله: «اللهم قنا شح أنفسنا واجعلنا من المفلحين».

وانضموا إلى رأي عمر وعلي وعثمان وطلحة.. ولم يعد إلا القليل يطالبون بتقسيم الأرض، وعلي وعمر ما برحا يتلوان بقية الآيات الكريمة من أوائل سورة الحشر: **﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾**..

فإذا بالقليل الذين ظلوا يطالبون بتقسيم الأرض، يدركون أن حكم الآية ينسحب على الذين سيجيئون من بعدهم من غير أبناء المقاتلين.. فالآية عامة، وحكم الفيء فيها أنه صار للجميع، فلا يحل أن يقسم بين الفاتحين وحدهم فيتوارثه أبناؤهم، ويحرم من يأتي بعدهم.. بل هو للأمة كلها. وشرح عمر وعلي أن حكم الآيات يستوعب للناس عامة، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له في الغنائم حق، هو نصيبه وإن لم يعرق فيها جبينه.

وهكذا أجمع كل المسلمين على رأي عمر وعلي وعثمان وطلحة.

ووضع الخراج على الأرض، وامتلأ بيت المال حتى اكتظ، وأنفقت الأموال على مصالح المسلمين.

وحقق الناس قدراً كبيراً من الرفاهية وتحقق للأمة ما تريده من قوة وهيبة.

لم يكن هذا وحده هو ما امتحن به المسلمون في عهد عمر، فجعل الله لهم مخرجاً بفضل حسن التعاون بين عمر وعلي، وبفضل حرص ولي الأمر على الشورى، وحرص أهل الذكر على صدق المشورة.

فقد جدت أمور، استطاع فيه اجتهاد علي كرّم الله وجهه أن يستنبط الحكم الذي أصبح فيما بعد قانوناً للمسلمين.

من ذلك أن امرأة من أهل اليمن قتلت هي وعشيقها ابن زوجها الذي اكتشف العلاقة الآثمة بينهما، فكتب إلى عمر رضي الله عنه عامله على اليمن يسأله الرأي، فما يعرف الرجل حكماً في القصاص إلا ما ورد في الآية الكريمة من سورة المائدة: ﴿**النفس بالنفس**﴾... إلى آخر قوله تعالى: ﴿**والجروح قصاص**﴾!..

وعندما وصل الكتاب إلى عمر توقف، فما يعرف حكماً غير ما ورد في الآية الكريمة، فسأل علياً رضي الله عنهما فقال علي: «يا أمير المؤمنين. أرأيت لو أن نفراً اشتركوا في سرقة جزور (ناقة أو جمل) فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم (قاطع أيديهم)؟» قال عمر: «نعم». قال: «وذلك».

فكتب عمر إلى عامله على اليمن: «اقتلهما به، فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم!».

وكان هذا النظر في علة الحكم وصرف النص عن ظاهره، دستوراً للفقهاء من بعد، وأصلاً من أصول الفقه.

تعوّد عمر أن يستشير علياً في كل الأمور المستحدثة، ويا لله ما كان أفدح هذه الأمور!!

كان يشكو إليه تغير ظروف الحياة في المدينة، ويسأله النصيحة.. ويخشى أن يواجه الظروف الجديدة برأيه هو وحده!

من أجل ذلك كان لا يبرم أمراً حتى يستشير من يثق بحكمتهم وعلمهم من الصحابة، وفي طليعتهم علي بن أبي طالب.

رأى عمر أن رسول الله ﷺ كان قد سمح للنساء بأن يخرجن للصلاة في المساجد، ولكن الحياة تغيّرت من بعد الرسول، وتغيرت النساء، حتى أظهرت عائشة ألمها من أحوال بعض النساء في خروجهن إلى المساجد فقالت «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد»!..

وشعر عمر بالحرج من منع النساء، وقد أمر الرسول ألا يمنعوهن ولكن علي بن أبي طالب وجد الفرج في حديث شريف ينص على أنّ صلاة المرأة في بيتها خير لها، وصلاتها في مخدعها خير من صلاتها في بيتها.

فنصح ألا يصدر منع ولي الأمر، بل على وليّ المرأة من زوج أو أب أن ينصحها!

ولقد شكا عمر لعلي أنه كان يتفقد أحوال رعيته في الليل، فسمع نساء يسمرن، قالت إحداهن: «من هو أصبح أهل المدينة؟». قالت امرأة: «أبو ذؤيب». فلما كان الصباح أرسل عمر إلى أبي ذؤيب هذا، فوجده أصبح الفتيان وجهاً.

وحين رأى علي الشاب، ولاحظ عليه الرعب مما قد يفعله به أمير المؤمنين، سأله مداعباً: «فأنت يا أبا ذؤيب ذئبهن»!..

وضحك عمر وعلي، وزال الخوف عن الشاب.. فما ذنبه أن فتنت به نسوة في المدينة، وإنه لشاب صالح؟!.

وأجرى عمر على الشاب رزقاً حسناً، وسيّره إلى بلد آخر.

إن هذا الذي طرأ على الناس، كان يُعنّي عمر وعلياً، والورعين جميعاً.

ونصح علي لعمر أن يعالج بعض هذه الأمور بالحسنى، ويأخذ بعضها بالشدة، فقد تنفع الموعظة حيث لا تجدي العصا، فإن لم تتعظ النفس بالقرآن، فلا مندوحة عن ردعها بالسلطان..

وقال علي: «ما نستبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر». وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه».. فعلي مطمئن إلى حكمة عمر وحسن سياسته.

ثم عرضت مسألة في الميراث لم تعرض في زمن الرسول ﷺ.

مات ابن لابن عمر، فورث عمر منه، وحجب الإخوة، وكان هو أول جد يرث في الإسلام..

فلما ولي الأمر، شعر بالحرج، فجمع بعض أصدقائه من الصحابة فقال لهم: «إني رأيت في الجد رأياً إن رأيتم أن تتبعوه فاتبعوه». فقال عثمان: «إن نتبع رأيك فإنه رشد، وإن نتبع رأي الشيخ قبلك فنعم الرأي كان». (يعني رأي أبي بكر) وكان أبو بكر يرى أن الجد أب، فلا يرث معه الإخوة.

أما علي فرأى أن الإخوة أولى بالميراث من الجد... والجد لا يحجبهم.. وضرب لذلك مثلاً: «سيل سال فانشعبت منه شعبة ثم شعبتان.. أرأيت لو أن ماء هذه الشعبة الوسطى رجع، أليس إلى الشعبتين جميعاً؟»

فقضى عمر بهذا.. وكان يتمنى أن يطمئن قلبه إلى هذا الرأي!..

نشأت في مواجهة حب الشهوات، موجات من الزهد والتقشف والانقطاع عن الدنيا بكل ما فيها، والتعطل عن العمل، والتفرغ للعبادة في المساجد!..

فطاف عمر رضي الله عنه بالمساجد في غير أوقات الصلاة، يضرب المتماوتين، المتعطلين الذين تركوا السعي في طلب الرزق، ليتفرغوا للعبادة!!

وشكا إلى علي مما يعانيه من سوء فهم الرعية للدين، فهم بين مسرف في الانكباب على الدنيا، متعللاً بالآية الكريمة: **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**، وبين معرض عن العمل، لا يكسب عيشه، عزوفاً عن الحياة الدّنيا، متمسكاً بقوله تعالى: **﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾**.

فأخذ علي يعظ الناس بقوله: «قدر الرجل على قدر همته»..

«ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب».

«من قصر في العمل ابتلي بالهم، ولا حاجة لله فيمن ليس له في ماله ونفسه نصيب».

«مكارم الأخلاق عشر خصال: السخاء والحياء والصدق وأداء الأمانة والتواضع والغيرة والشجاعة والحلم والصبر والشكر. السعيد من وعظ بغيره والشقي من انخدع لهواه وغروره».

«عباد الله لا تركنوا إلى جهالكتم، ولا تنقادوا لأهوائكم، فإن النازل بهذا المنزل (يعني الجهل والهوى) نازل بشفا جرف هار».

«العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه».

«ثمرة العلم العمل.. إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم.. فإن العامل بغير علم كالسائر على غير طريق... فينظر ناظر: أسائر هو أم راجع».

«من آتاه الله مالاً فليصل به القرابة، وليُحسن منه الضيافة. وليفكّ به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم (المدين)، وليَصْبر نفسه

على الحقوق والنوائب، ابتغاء الثواب، فإن فوزاً بهذه الخصَال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة إن شاء الله».

«اسع في كدحك، ولا تكن خازناً لغيرك».

«حفظ ما في يديك أحب إلى الله من طلب ما في يد غيرك».

«لا تستح من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه! كن سمحاً ولا تكن مبذراً، وكن مقدراً ولا تكن مقتراً»..

«إن أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعياً، رجل أهان بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرته، وقدم على الآخرة بتبعته»..

«آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد!».

«لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله، فإن الله لا يضيع أولياءه، وإن يكونوا أعداء الله، فما همك وشغلك بأعداء الله؟!».

«لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يتعظ بالآداب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب!»..

«إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم».

«من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب آبائه».

«كل نعيم دون الجنة فهو محقور، وكل بلاء دون النار عافية».

«ما أُحْدِثَتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنة، فاتقوا البدع.. وإن السنن لنيرة لها أعلام، وإن البدع لظاهرة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به، وأمات سنة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة».

«الفقيه كل الفقيه من لم يُقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله».

كان عمر يتفقد الرعية ذات ليلة، فسمع امرأة تتوجع في فراشها مهمهمة:

لقد طال هذا الليل وازور جانبه — وليس إلى جنبي خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تُخشى عواقبه — لزلزلَ من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يُعففني — وإكرام بعلي أن تنال مراتبه

وتألم عمر مما سمع!!

فلما أصبح الصباح، حكى لعلي ما سمعه، فلم يجد علي فيما قالته المرأة ما يستوجب العقاب، وإن كان فيه ما يعاب!.

ورأى عمر أن يرسل إلى المرأة فيسألها عما سمعه البارحة.. فأشار عليّ بأن يسأل عنها، قبل أن يروعها بسؤالها عن همهمتها. وكانت لعمر هيبة تخيف الناس حتى الأبرياء!.

فسأل عنها فقالوا: «هي امرأة فلان وله في الغزاة ثمانية أشهر». فسأل بعض نساء بيته عن أقصى ما تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها من غير عنت أو تكلف، فقلن له: «أربعة أشهر».

فأمر ألا يغيب الرجل عن زوجته أكثر من أربعة أشهر..

وجاءته امرأة، ومعه علي ورجل آخر هو صاحب لهما، فقالت المرأة: «زوجي يصوم النهار ويقوم الليل». ومضت، ثم عادت فقالت الشيء نفسه فسألها عمر: «أأمنعه من الصيام والقيام؟» فولّت عنه ثم عادت، فقالت: «زوجي يصوم النهار ويقوم الليل». فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها».

فسأل عمر عليّاً، فأمهله حتى يقضي صاحبهما في أمر المرأة!..

فسأل صاحبهما المرأة أيعاشرها معاشرة الأزواج، أم يشغل عنها

بالصيام وقيام الليل؟! فما زادت عن قولها: «إنه يصوم النهار ويقوم الليل!».

فأرسل الصاحب في طلب الزوج فسأله، فعلم منه أنه لم يعاشرها منذ سنين، لأنه منقطع للتعبد من صيام وصلاة!!

فقال للزوج: «إن الله أحل له حتى أربع زوجات، فمن حق هذه المرأة عليه أن يأتيها كل أربعة أيام، فلا يصوم نهاره، ولا يقوم ليله، ولا يصلي غير الفرائض، وإلا وجب على وليّ الأمر أن يطلقها!!».

وسُرّ عليٌّ بما قضى به الرجل، فأشار على عمر أن يعينه قاضياً في إحدى المدن المفتوحة، فولّاه قاضياً على إحدى الولايات.

وكان عمر قد ألف قبل أن يصبح أميراً للمؤمنين أن يستشير علياً في أخص شؤونه.

أراد عمر أن يتزوج عاتكة بنت زيد، بعد أن قتل عنها زوجها عبد الله بن أبي بكر شهيداً في إحدى المعارك، فقالت له: «قد كان أعطاني حديقة على ألا أتزوج بعده».

قال لها عمر: «استفتي علي بن أبي طالب». فأفتاها علي: «ردي الحديقة إلى أهله، وتزوجي عمر».

وكانت عاتكة كما وصفها معاصروها: (امرأة لها جمال، وكمال، وتمام في عقلها ومنظرها، وكانت حسناء بارعة)، فأولع بها عبد الله، فأذهلته عن عقله!.. مر عليه أبوه في يوم جمعة، فرآه يداعبها، وعاد أبوه من الصلاة فوجده ما انفك يناغيها، فقال له: «يا عبد الله أشهدت الجمعة؟» قال: «أو صلى الناس؟». قال: «قد شغلتك عاتكة عن المعاش وعن تجارة رابحة كنت فيها، ثم أنستك الفرائض! فطلقها».

وما زال به حتى طلقها، فتبعتها نفسه، فاعتزل الناس يبكيها، فرقّ له أبوه فأمره بأن يرجعها.

فلما ترمّلت منه أقسمت ألا تتزين لأحد بعده!

ولكنها حين زفت إلى عمر. زفت إليه في أكمل زينة!

فأولم عمر، ودعا الصحابة وفيهم علي، فقال: «يا عمر قل لعاتكة تتستر فإن لي حاجة أريد أن أذكرها إياها». فقال لها عمر: «استتري يا عاتكة، فإن عليَّ بن أبي طالب يريد أن يكلمك». فأخذت عليها كساء مُفَوَّفاً من حرير، فقال لها: «يا عاتكة. أين قولك:

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة   عليك، ولا ينفك جلدي أغبرا

وضحك علي وعمر، ولكن عاتكة بكت! فقال لها عمر: «يا أبا الحسن؟! كل النساء يفعلن هذا؟» فقال علي: «علمها ألا تقول ما لا تفعل» ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ فقال عمر: «ما حَسَّن الله فهو حسن يا أبا الحسن».

فلما قتل عنها عمر، تزوجها الزبير بن العوام، وكان شديد الغيرة عليها، فمنعها ألا تخرج إلى الصلاة، فلما صممت على الخروج، اختفى في السقينة قبيل الفجر، ورآها مقبلة، فضربها على عجيزتها، فعادت قائلة: «فسد الزمان!» وامتنعت عن الخروج.

وقتل عنها، فكان ثالث زوج يقتل! فقال الناس عنها: «هي أجمل خلق الله وأشأم خلق الله».

وكان علي يقول: «الطيرة (أي الفأل الشؤم) ليست بحق!».

وكان يحذر الناس من التشاؤم، ويراه نقصاً في الإيمان بالله، وبقضائه وقدره، ولكن عاتكة، كانت قد أمست وأصبحت شديدة التشاؤم من نفسها!..

فخطبها علي فقالت له: «إني لأضن بك على القتل يابن عم رسول الله».

والفتوحات تتوالى، شرقاً وغرباً، والمآذن ترتفع وتضيء ما حولها في أكثر من نصف المعمورة التي عرفتها الإنسانية يومئذ، وعلى الرغم من ذلك فما زال بعض المجاهدين يحتفلون بأنفسهم وبانتصاراتهم، بالعكوف على الملذات والشراب!.

وواجهت عمر مشكلة جماعة من خيرة فرسان المسلمين، على رأسهم «أبو محجن»، الذي أبلى أحسن البلاء في فتح العراق وبلاد الفرس، وما وراء النهرين وأذربيجان..

أرسل أمير الجند سعد بن أبي وقاص هذه الجماعة إلى عمر، لأنهم شربوا الخمر، بعد أن أمر عمر بأن يحد شاربها ثمانين جلدة...

فقالوا لعمر: «ما حَرَّمَها الله ولا رسوله. إن الله تعالى يقول في سورة المائدة: ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات**﴾. بل حرّمْتهَا أنت بعد أن أفتاك علي بن أبي طالب!».

فأرسل عمر إلى عليٍّ ليجادلهم.

قال علي: «يا أمير المؤمنين إن كان معنى هذه الآية كما يقولون، فينبغي أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير!».

فبهتوا وسكتوا.

فقال عمر لعلي: «فما ترى فيهم؟». قال: «أرى إن كانوا شربوها مُسْتَحِلِّينَ لها أن يقتلوا، وإن كانوا شربوها وهم يؤمنون أنها حرام أن يُحَدُّوا ثمانين جلدة».

فسألهم عمر فقالوا: «والله ما شككنا في أنها حرام، ولكننا قدرنا أن لنا نجاة فيما قلناه!».

فأمر عمر بجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، فلما انتهى إلى أبي محجن قام من الجلد فقال شعراً جاء فيه:

وإني لذو صبر وقد مات إخوتي ولست عن الصهباء يوماً بصابر!

فقال عمر: «قد أبْدَيْتَ ما في نفسك ولأزيدنك عقوبة لإصرارك على شرب الخمر».

فقال له علي: «ما ذلك لك! ولا يجوز أن تعاقب رجلاً قال لأفعلن وهو لم يفعل، وقد قال الله تعالى في الشعراء: **﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾**...».

فقال عمر: «استثنى الله منهم أقواماً».

فقال علي: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

فقال عمر: «أفهؤلاء عندك منهم وقد قال رسول الله ﷺ: لا يشرب العبد الخمر حين يشربها وهو مؤمن؟!».

فأعيد أبو محجن إلى ميدان المعركة، فشرب الخمر مرة أخرى، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر يسأله الرأي، وكان عمر قد أمر ألا يقام الحد على من يقترف ذنباً في الحرب حتى لا يفر الجاني إلى العدو، ولكيلا يزري العدو بالمسلمين!.

فأمر سعد بأن يُحبَس أبو محجن حتى يأتيه رأي أمير المؤمنين فيه. فلما اسْتَعَرَت المعركة وسعد مريض في داره، أتاه أبو محجن في الأصفاد يستعفيه ليحارب الأعداء، فرده سعد وعنفه!.

فأبصر أبو محجن بامرأة سعد، وهو عائد إلى سجنه، فقال لها: «هل لك إلى خير؟» قالت: «وما ذاك». قال: «تُخلِّين عني وتعيرينني البلقاء فرس سعد، فَلِلّه عليَّ إن سَلَّمني اللَّهُ أن أرجع إلى حَضرتك حتى تضعي رجلي في قيدي».

فقالت: «وما أنا وذاك».

فجعل يرسف في قيوده، ويقول:

كفى حَزَناً أن تُطعنَ الخيل بالقنا   وأُترك مشدوداً على وثاقيا

واستمر ينشد حتى قال:

ولله عهد لا أخيس بعهده   إذا فرجت ألا أزور الحوانيا

(أخيس: أنقض - والحوانيا: الحانات).

فقالت له: «إني قد استخرت الله ورضيت بعهدك». فأطلقته.. وقالت: «أما الفرس فلا أعيرها».

ولما فكت قيده استولى هو على الفرس، فانطلق يحارب، حتى أذهل الجميع.

وقال المسلمون: «لو أن الملائكة تباشر قتالاً ظاهراً لقلنا هذا ملاك فينا».

وانتصر المسلمون.

وعاد أبو محجن إلى محبسه، فقال سعد: «أما والله لا أضرب اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم». فخلى سبيله. وقال أبو محجن: «فأما إذ أسقطت الحد عني فوالله لا أشربها أبداً. فقد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم!».

لما تقدم عمر بن الخطاب في السن، وأصبحت زوجاته عجائز أجهدهن التقشف فرأى أن يتزوج فتاة تقوم بأمره، فاختار أم كلثوم بنت أبي بكر، وأرسل فيها إلى عائشة. فقالت عائشة لأختها الصغيرة: «الأمر إليك».

قالت: «لا حاجة لي فيه». قالت لها عائشة: «ترغبين عن أمير المؤمنين؟!». قالت: «نعم! إنه خشن العيش شديد على النساء». فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته فقال لها: «أنا أكفيك الأمر».

وعمرو ذو حيلة ودهاء ومكرا..

فأتى عمر فقال: «يا أمير المؤمنين. بلغني خبر أعيذك بالله منه!». قال «وما هو؟». قال: «خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر!». قال: «نعم، أفرغبت بي عنها، أم رغبت بها عني؟». قال: «لا واحدة، ولكنها صغيرة حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين عائشة في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء، فسطوت بها؟! وإذن لكنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك». قال: «فكيف بعائشة وقد كلّمتُها؟» قال: «أنا لك بها. وأدلك على خير من أم كلثوم بنت أبي بكر. أنا أدلك على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وفاطمة. اخطبها وتعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ».

وذهب عمر إلى علي فخطب ابنته أم كلثوم، شقيقة الحسن والحسين وزينب، وسألها أبوها الرأي في عمر، فوافقت على الزواج، وزفت إلى عمر.

وقال علي لزوج ابنته عمر: «إن المرأة ريحانة وليست قهرمانة».

ولاحظ فرق السن بين عمر وعروسه، فخشي عليهما غائلة الغيرة. فقال كأنه يعظه: «إياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم، والبريئة إلى الريب!».

ثم شرع يقول آراء عن المرأة استخلصها من عمق التأمل، وطول الدرس والتفكر في أحوال الرجال والنساء.

«إن شدة الحجاب أبقى على النساء، وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق به عليهن. وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل».

«إن المرأة لتكتم الحب أربعين سنة، ولا تكتم البغض ساعة واحدة!».

ثم قال لعمر يوصيه بابنته: «إن الله تعالى طهرنا وعصمنا نحن آل البيت، وجعلنا شهداء على خلقه وحججاً على عباده، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا».

ثم أوصى عليٌّ ابنته أم كلثوم ألا تشغل أمير المؤمنين بهمٍّ من هموم الغيرة أو هموم الدنيا! وفي الحق أنها كانت نعم العون له، وكان بها حفياً، فولدت له زيداً ورقية.

وعندما حاصر المسلمون بيت المقدس، ودارت حوله معركة طاحنة، طلب أهله أن يتصالحوا مع العرب على الجزية، بشرط أن يقدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه ليتفق على شروط الصلح.

وجمع عمر الناس في المسجد فشاورهم، فقال عثمان: «لا تبرح المدينة فأنت إن أقمت هنا ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستعد، فلم يلبثوا إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا الجزية».

أما علي بن أبي طالب فلم ير هذا الرأي، وأشار على عمر أن يذهب، وقال: «إذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح. ولست آمن أن ييأسوا منك ومن الصلح، ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم، لا سيما وبيت المقدس مُعَظَّمٌ عندهم وإليه يحجون».

وأخذ عمر برأي علي، واستخلفه على المدينة.

ركب عمر إلى بيت المقدس فاستقبله أمراء الجند في حلل فاخرة من الديباج ولم يصدق ما رأى!... لقد صحت نبوءة أبي بكر... ها هم يلبسون الديباج!!..

وجعل يحصبهم بالحصى، ويؤنبهم، قائلاً: «سرعان ما فتنتم؟ أفي هذا الزي تستقبلون عمر؟ سرعان ما ندت بكم البطنة والترف، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عامين».

بعد أن حكم عمر عشر سنين، طعنه أبو لؤلؤة وهو يصلي الفجر بالناس، وأبو لؤلؤة مجوسي فارسي أسر في نهاوند، ثم أصبح غلام المغيرة بن شعبة.. وقد طعن الخليفة عدة طعنات بخنجر غريب الشكل له نصلان ومقبضه في وسطه.

ولقد حاول أبو لؤلؤة الفرار، فتكاثر عليه الناس وهو يطعنهم يمنة ويسرة حتى قتل ستة منهم، ولكنهم أمسكوا به، فانتحر، وذهب سره معه!!

فلما أحس عمر أنه ملاق ربه دعا إليه عبد الرحمن بن عوف وطلب منه أن يدعو النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، وبشرهم بالجنة، وهم غير عبد الرحمن: علي وعثمان والزبير وسعد وكان طلحة غائباً خارج المدينة.

فلما اجتمعوا، قال لهم عمر: «انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم»..

ما أمهلهم غير ثلاثة أيام ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد، ثم قال: «أنشدك الله يا علي إن وليت من أمور الناس شيئاً ألا تحمل بني هاشم على رقاب الناس. أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئاً ألاَّ تحمل بني أمية على رقاب الناس. أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً ألا تحمل أقاربك على رقاب الناس. قوموا فتشاوروا، ثم اقضوا أمركم. وليصلِّ بالناس صهيب (الرومي)»..

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: «قم على بابهم فلا تدع أحداً يدخل عليهم. وأَوْصِ الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوَّؤا الدار والإيمان، أن يحسن إلى محسنم، وأن يعفو عن مسيئهم، وأَوْصِ الخليفة بالعرب، فإنهم مادة الإسلام، أن تؤخذ من صدقاتهم حقها، فتوضع في فقرائهم، وأوص الخليفة بذمة رسول الله ﷺ (أهل الذمة) أن يوفي لهم بعهدهم».

وقال لعلي: «يا أبا الحسن، أعن ملأ منكم ورضا كان هذا؟».

فقال علي وهو يكتم دمعه، وقلبه يتقطع على عمر حسرات، وقد غاضَ صوته الجهير في اللوعة المكظومة: «ما كان عن ملأ منا ولا رضا! ولوددنا أن الله آخذ من أعمارنا وزاد في عمرك!».

وكان رأس عمر في حجر ابنه عبد الله، فقال له: «ضع خدي بالأرض». فلم يفعل فقال: «ضع خدي بالأرض لا أم لك!» فوضع خده بالأرض. فقا: «الويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله لعمر!».

ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويسمع منه. فقال له: «يا بن عباس، إني لأظن أن لي ذنباً، ولكن أحب أن تعلم لي أعن ملأ منهم ورضا كان هذا؟».

فخرج ابن عباس فجعل لا يرى ملأ من الناس إلا وهم يبكون، كأنما فقدوا اليوم النصير!..

فرجع عبد الله بن عباس إليه فأخبره بما رأى. فقال عمر: «فمن قتلني؟» قال: «أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة». وكان عمر قد نهى عن إدخال رجال البلاد المفتوحة إلى المدينة أو مكة، ولكنهم دخلوا المدينة على الرغم من نهيه!!

وعرف أن قاتله مجوسي، فإذا بوجهه يشرق بالراحة والسكينة. وقال «الحمد لله الذي لم يقتلني رجل يحاجّني يوم القيامة بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله!».

ثم قال لعبد الله بن عباس: «يا عبد الله، ألا لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وما غربت لافتديت به من هول المطلع!».

فقال ابن عباس: «فإن يك ذاك يا أمير المؤمنين، فجزاك الله عنا خيراً أليس قد دعا رسول الله ﷺ أن يعز بك الدين، والمسلمون مستضعفون بمكة؟ فلما أسلمت كان إسلامك عزًّا أعز الله به الإسلام؟

وظهر النبي وأصحابه. ثم هاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحاً، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله ﷺ من قتال المشركين. وقبض رسول الله وهو عنك راض، ثم ارتد الناس بعد رسول الله عن الإسلام فآزرت خليفته على منهاج رسول الله، وضربتم من أدبر بمن أقبل، حتى دخل الناس في الإسلام طوعاً أو كرهاً. ثم قبض خليفة رسول الله وهو عنك راض، ثم وليت بخير ما يلي أحد على الناس، ففتح الله بك الأمصار، وجبى بك الأموال، ونفى بك العدو، وأدخل الله بك على أهل كل بيت من المسلمين توسعة في دينهم، وتوسعة في أرزاقهم، ثم ختم الله لك بالشهادة، فهنيئاً لك! فصَبَّ الله الثناء عليك صباً!».

قال عمر: «أتشهد لي بهذا يا عبد الله عند الله يوم القيامة؟». قال: «نعم». فقال عمر: «اللهم لك الحمد».

ثم أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة وقال له: «أقرئها مني السلام، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر».

فلما كلمها عبد الله بن عمر وافقت.

ثم قالت: «يا بني أبلغ عمر سلامي وقل له لا تدع أمة محمد بلا راع. استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً».

وأخبره ابنه بمقالة عائشة فقال: «لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ووليته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: أي وربي. سمعت عبدك ورسولك يقول: لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. ولكني سأستخلف النفر الذين مات رسول الله وهو عنهم راض».

وطلب عمر أن يجتمع مرة أخرى مع هؤلاء النفر ومعهم عدد من أوائل المهاجرين. فلما اجتمعوا قال: «يا معشر المهاجرين الأولين، إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكن بعدي

شقاق أو نفاق فهو منكم. إني أستخلف عليكم من قد علمتم، فلتتشاوروا ثلاثة أيام ولا تتفرقوا في اليوم الثالث حتى تبايعوا أحدهم. ولْيُصلِّ بكم صهيب فهو من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم شيوخ الأنصار، وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس، فإن لهما قرابة برسول الله ﷺ وأرجو لكم البركة في حضورهما، وليس لهما من أمركم شيء، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً وليس له من الأمر شيء»..

ثم التفت إلى علي بن أبي طالب فقال: «لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفوك. فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا علي فيه، ولا تحمل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس». ثم التفت إلى عثمان فقال: «يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك، فيستخلفوك، فإن وليت هذا الأمر، فلا تحمل أحداً من بني أمية على رقاب الناس».. ثم قال: «اللهم أَلْهِمْهُمْ، اجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم وول أمر أمة محمد خيرهم. وإني لأوصي الخليفة منكم بتقوى الله العظيم، وأحذره مثل مضجعي هذا، وأخوفه يوماً تبيض فيه وجوه وتسوّد فيه وجوه يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية».

ثم غشي عليه حتى ظنوا أنه قد قضى، فقال قائل: «إن كان شيء ينبه فالصلاة»... فكبروا، ففتح عينيه وأفاق... وعالجه الطبيب حتى استمسك فقال للناس: «قد كنت أجمعت بعد مقالتي أن أنظر فأولي أمركم رجلاً هو أحراكم أن يحملكم على الحق، هو علي فرهقتني غشية.. فما أردت أن أتحملها حياً وميتاً. ولكن عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ إنهم من أهل الجنة وهم: علي، وعثمان، وعبد الرحمن، وسعد، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فلتختاروا

منهم رجلاً، فإذا ولوا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه. وما أظن أن يلي هذا الأمر إلا أحد هذين الرجلين، علي أو عثمان. فإن وليّ عثمان فرجل فيه لين، وإن وليّ علي فأحرّ به أن يحملهم على الحق». وطلب عمر المقداد فقال له: «إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً». وقال لصهيب: «قلت لك صلِّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً، وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة منهم وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن ارتضى اثنان رجلاً واثنان رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر، فإن لم ترضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس».

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى، وكان عثمان أكبرهم سناً إذ هو في نحو التاسعة والسبعين وعلي أصغرهم سناً إذ هو بعد الأربعين بعام أو عامين.

وتكلم عثمان، ثم الزبير بعده، ثم سعد، ثم تكلم علي بن أبي طالب فقال: «الحمد لله الذي بعث محمداً منا نبياً، وبعثه إلينا رسولاً، فنحن بيت النبوة، ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إن نُعْطَهُ نأخذه، وإن نُمنعه نركب أعجاز الإبل، ولو طال السرى. لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً، لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجالدنا عليه حتى نموت، لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، ولا قوة إلا بالله. اسمعوا كلامي، وعوا منطقي، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا المجتمع تُنْتَضيَ فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، فلا يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة».

وبعد أن انتهوا جميعاً من كلامهم قال عبد الرحمن بن عوف: «أيكم يطيب نفساً أن يُخرج نفسه من هذا الأمر ويوليه غيره؟».

فأمسكوا عنه، ولم يجبه أحدا.

فقال: «أنا أنخلع منها».

فقال عثمان: «أنا أول من رضي». قالوا: «قد رضينا».

ولم يقل علي شيئاً. وظل يفكر فيما عسى أن يصنعه عبد الرحمن! فهو صهر عثمان وابن عم سعد.. أيؤثر أحدهما..!؟

فقال عبد الرحمن: «ما تقول يا أبا الحسن؟» قال علي: «أعطني موثقاً لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم لرحمه ولا تألو الأمة نصحاً»..

قال عبد الرحمن: «أعطوني مواثقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير، وأن ترضوا من اخترت لكم. وعلى ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو الأمة نصحاً».

وأعطاهم موثقاً، وأخذ منهم ميثاقاً..

فقال لعليّ: «تقول إنك أَحَقُّ من حضر هذا الأمر لقرابتك من رسول الله ﷺ وسابقتك وحسن أثرك في الدين، ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صُرِف هذا الأمر عنك، من تراه أحق به». قال علي: «عثمان بن عفان».

وخلا ابن عوف بعثمان فقال له: «تقول إني شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ، ولي سابقة وفضل، فأين يصرف هذا الأمر عني؟ ولكن لو لم تحضر إلى هؤلاء الرهط، فأي هؤلاء أحق به؟ قال: «علي بن أبي طالب».

وقال علي لسعد بن أبي وقاص: «أسألك برحم عمي حمزة (وهو خال سعد) ألا تكون مع عبد الرحمن ظهيراً لعثمان عَلَيّ. اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام».

أما عبد الرحمن بن عوف، فقد مضى إلى رؤساء الجند وأشراف الناس يشاورهم، حتى إذا كانت الليلة التي في صبيحتها يستكمل الأجل المضروب (وهو ثلاثة أيام) أتى منزل أحد أصدقائه فقال له: «لم أذق هذه الليلة كثير غمض. انطلق فادع الزبير وسعداً».

فلما حضرا، حاول أن يقنعهما بالبيعة لعثمان فقال سعد: «إن اخترت عثمان، فعليٌّ أحب إليَّ».

وقال الزبير إنه يؤيد علياً.

ثم نادى ابن عوف علياً، فناجاه طويلاً، وانصرف علي كرم الله وجهه عنه، فدعا عثمان فناجاه حتى الصباح، فلما صلى بهم صهيب الصبح، جمع عبد الرحمن أهل الشورى الستة رضي الله عنهم، ودعا أمراء الأجناد وبعث إلى المهاجرين الموجودين بالمدينة، وأهل السابقة والفضل من الأنصار حتى امتلأ بهم المسجد، فقال عبد الرحمن: «أيها الناس. إن الناس قد أحبوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم وقد عرفوا مَنْ إمامهم، فأشيروا عَلَيّ».

فقال عمار بن ياسر: «إذا أردت ألا يختلف المسلمون فبايع علياً».

فقال المقداد: «صدق عمار. إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا».

وقال ابن أبي سرح: «إذا أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان».

فقال عمار لابن أبي سرح: «متى كنت تنصح المسلمين؟».

ذلك أن ابن أبي سرح هو أحد الذين أمر الرسول بقتلهم يوم الفتح وإن تعلقوا بأستار الكعبة، غير أن عثمان تشفع له فصفح عنه الرسول.

وتكلم بنو هاشم وبنو أمية، وأوشكت أن تحدث بينهما شحناء، فقال عمار: «أيها الناس إن الله أكرمنا بنبيه، وأعزّنا بدينه، فَأنّى تَصْرِفون

هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟». فقال رجل من بني مخزوم: «لقد عدوت طورك يابن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفُسها؟».

وأوشكت النعرات الجاهلية أن تثور بين القوم، فقال سعد بن أبي وقاص: «يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس».

فارتقى عبد الرحمن المنبر وقال: «أيها الناس، إني قد سألكتم سراً وجهراً من إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين علي وعثمان».

فدعا علياً فقال له: «عليك عهد الله وميثاقه لَتَعْملن بكتاب الله وسنّة رسوله وسيرة الخليفتين بعده».

فقال علي: «أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي».

ثم أخذ بيده وقال: «أبايعك على شرط عمر ألا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس».

فقال علي: «مالك ولهذا؟ إذا قطعتها في عنقي فإن عَلَيّ الاجتهاد لأمة محمد. وحيث علمت القوة والأمانة استعنت بهما، كان في بني هاشم أو غيرهم».

فترك عبد الرحمن يد علي، وأخذ بيد عثمان فسأله كما سأل علياً وشرط عليه ألا يضع بني أمية على رقاب الناس، فوافق عثمان على الشرط.

فأعلن عبد الرحمن أنه يبايع عثمان، ودعا الناس إلى بيعته.

فقال علي: «ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علي، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون! أما والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك! والله كل يوم هو في شأن».

فقال عبد الرحمن: «يا علي لا تجعل على نفسك سبيلاً. فإني قد

نظرت وشاورت الناس، فإذا هم لا يعدلون بعثمان».

فقال: «سيبلغ الكتاب أجله».

فقال المقداد: «ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل البيت بعد نبيهم. إني لأعجب من قريش أن تركوا رجلاً ما أحد أعلم منه، ولا أقضى منه بالعدل»!

فقال عبد الرحمن: «اتق الله يا مقداد. إني خائف عليك الفتنة».

فقال علي: «إن الناس ينظرون وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم»!

فقال عبد الرحمن: قال تعالى: **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾**.

وحدث هرج عظيم، ورأى علي أن اختلاف الناس قد يؤدي إلى الفتنة!!

فشق الناس حتى بايع وهو يقول: «خدعة أيما خدعة». ثم ارتقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عَلَيَّ خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه».

وبايع.. فبايع من بعده الذين أحسوا بأنه مظلوم سليب الحق!

وقدم طلحة إلى المدينة بعد أن بايع الناس عثمان، فسأل: «أكل قريش راض به»؟ قالوا: «نعم» فأتى عثمان فبايعه قائلاً: «قد رضيت، لا أرغب عما أجمع عليه الناس».

وارتضى علي أن يكون عثمان أميراً عليه، فهو يُجِلُّهُ، ويعرف

حسن بلائه في الإسلام.

ولقد قال عن عثمان: «ذاك امرؤ يسمى في السماء ذا النورين»..

وأخلص لعثمان، وصدقه النصح ليجمع به الشمل.

وكان علي رضي الله عنه أكثر الناس معرفة بفضل السابقين من الصحابة. قال عنهم: «قوم والله ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، متاريك للبغي، مضوا قُدُماً على الطريقة، وأوجفوا على المحَجَّة، فظفروا بالعقبى الدائمة... خُمْصُ البطون من الصيام، ذُبُلُ الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم عبرة للخاشعين... لم يَمُنُّوا على الله بالصبر، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق».

وكان يقول عن عثمان خاصة: «إنه أوصلنا للرحم».

وما كان أحد يدري ما يخطه القدر لعثمان!

وما تخيل أحد قط أن هذه الفضيلة فيه، هي التي سترديه!!



الفصل السابع

الخليفة ذو النورين

ولي عثمان بن عفان وهو شيخ رقيق كريم لين، شديد الرعاية لذوي القربى.

وكان عمر قد ضيّق على قريش، فلم يكن أحد منهم ينال شيئاً من الدنيا في عهد عمر، إعظاماً له، وتأسياً به، وإجلالاً واقتداء!

وكان عمر يحاسب عماله حساباً عسيراً، ويغلظ لهم، ويقسم ما كسبوه خلال عملهم، فيصادر نصفه لبيت المال، ويترك لهم نصفه..

صنع هذا مع أبي هريرة وعمرو بن العاص وغيرهما..

ولقد كره أقوام شدة عمر، وكانوا يتهامسون فيما بينهم بأن عمر يريد أن يحرم الطيبات من الرزق التي أحل الله لعباده!

أما علي فقد كان يسمي ما يصنعه عمر بهذا الصنف من الولاة رفقاً لا يجوز أو شدة ليست من حقه!

قال علي لعمر: «لئن كان عمالك خَوَنةً، وكان هذا المال في أيديهم خيانة، ما حل لك تركه، وكان لك أن تأخذه كله، فإنه فيء للمسلمين، فما لك تأخذ نصفه وتترك نصفه؟! ولئن كانوا غير خونة. فما حل لك أن تأخذ أموالهم، ولا شيئاً منها قليلاً أو كثيراً! وأعجب من ذلك إعادتك إياهم إلى أعمالهم!.. لئن كانوا خونة، ما حل لك أن تستعملهم! وإن كانوا غير خونة ما حقّت لك أموالهم»!

من أجل ذلك كرهوا عليًّا أكثر مما كرهوا عمر، وخافوه على أطماعهم، وخشوا إن أصبح هو أميراً للمؤمنين، أن يصرفهم عما يريدون من الدنيا بأشد مما فعل عمر. فيحملهم على الزهد، والتخلي عن زينة الحياة!

وفي الحق أن عليًّا ما كان يرى هذا الرأي، ولكنه كان يكره أن يخون الولاة المستخلفون على الأموال، فيأخذون ما ليس لهم، وكان ينهى عن كنز المال، وفي الأمة أصحاب حاجة، وكان يحبذ عمر في قوله: «كل امرىء وبلاؤه (أي وعمله)، كل امرىء وحاجته».

ولقد جاءه رجل من الصحابة فقال: «يا أبا الحسن، أشكو إليك أخي، فقد تخلى عن الدنيا، ولبس العباءة». فاستدعاه علي فلما جاءه قال: «يا عدو نفسه! أما رحمت أهلك ونفسك وولدك؟! أترى الله أحل لك الطيبات، وهو يكره أن تأخذها؟! أنت أهون على الله من ذلك! فلا يكن أهلك أشقى الخلق بك! وأكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول».

على أن هؤلاء النفر الذين كرهوا شدة عمر، وخافوا تحرج عليٍّ وحسمه وقوته، أحبوا لين عثمان، ورفقه، وحرصه على إرضاء ذوي القربى وأولي الأرحام..

ويروي الحسن البصري أنه شاهد عثمان وهو يخطب بعد أن بويع بالخلافة، وكان الحسن البصري يومئذ صغيراً، يقول: فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجهاً ولا أحسن نضرة منه. فسمعته يقول: «أيها الناس: اغدوا على أعطياتكم». فيغدون فيأخذونها وافية. ثم يقول: «أيها الناس: اغدوا على كسوتكم». فيغدون، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم. حتى والله سمعت أذناي: «يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل». فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل. ثم يقول: «يا معشر المسلمين اغدوا على الطيِّب، فيغدون فيقسم بينهم من المسك والعنبر

وغيره! والعدوان والله منفيٌ والأعطيات دَارّةٌ والخير كثير. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً، من لقي في أي البلدان فهو أخوه وأليفه، وناصره ومؤدبه، فلم يزل المال متوفراً، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها وَرِقاً، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار، وبيع البعير بألف، والنخلة الواحدة بألف».

ما كرهت الرعية الإمام عمر لشدته وزهده، ولكن الذين كرهوا عمر هم أصحاب المطامع وحدهم، أما أغلب المسلمين فقد بكوه أحر بكاء.. كانوا آمنين في حياته، وكانوا يرون فيه الإمام العادل حقاً.. أقسم بالله قبل أن يغتال أنه لو عاش إلى العام القادم لأخذ ما فاض عن حاجة الأغنياء، ومنحه الفقراء: «لو عشت إلى قابل لأخذت فضول الأغنياء، ورددتها إلى الفقراء».

ولقد وقف علي يبكي عمر وهو مسجى: «يرحمك الله يا أبا حفص! ما أحد أحب إليّ بعد النبيﷺ أن ألقى الله بصحيفته منك».

وقال آخرون وهم يبكونه: إنما نبكي على الإسلام... إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة». وقال الحسن بن علي «أي أهل بيت لم يحزنوا على قتل عمر فهم أهل بيت سوء»..

كان هذا هو حزن أهل التقوى وأصحاب الورع. أما أهل الطمع وأصحاب المصالح فاشرأبت أطماعهم وأخرجت رؤوسها، وتطلعوا إلى رقة عثمان ولينه، وحسن صلته لأولي الأرحام، وبره بذوي القربى!

ولكم كان عمر شديداً على هؤلاء، وخاصة الذين تولى منهم أمراً من أمور المسلمين، كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم «هل يعود مرضاهم؟ أمحسن هو إلى العبيد والإماء؟ أرفيق بالضيعف؟ أيغيث الملهوف؟ أيجلس على بابه فيأتيه الناس»؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله..

وفي الحق أن عثمان واجه أول ما واجه موقفاً عصيباً حقاً.. فبنو هاشم رأوا فيما صنعه عبد الرحمن بن عوف خدعة لإقصاء علي وبني هاشم عن الخلافة فكان في أنفسهم من خلافة عثمان شيء!!

أما عليٌّ نفسه، فعلى الرغم من اقتناعه بأنه أحق الناس بالخلافة، فقد بايع ودعا الناس إلى البيعة لعثمان، وإلى طاعته، حرصاً على وحدة الأمة وقوتها، وهذا ما فعله من قبل مع عمر، ومن قبله مع أبي بكر.. قال: «نظرت في أمري فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا الميثاق في عنقي لغيري.. وقد علمتم أني أحق الناس بها، ولكن والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عَلَيَّ خاصةً التماساً لأجر ذلك وفضله».

ولكن علياً كان يعرف أن عثمان غير عمر، وكان يرى أن مصلحة الأمة تحتاج إلى حزم عمر وشدته مع حرصه على العدل، لا إلى رقة عثمان ولينه وإن حرص على العدل!

ولم يكن بنو هاشم وحدهم هم الذين رأوا في اختيار عثمان والعدول عن علي ظلماً لعلي وبني هاشم، وانحيازاً لبني أمية.

فمن هؤلاء عدد من أهل الورع من أصحاب السابقة في الإسلام مثل سلمان وعمار وأبي ذر والمقدار وآخرين..

ولكن علياً لم يسمح لهم بأن يتحول هذا الشعور في أعماقهم أو في أعماق بني هاشم إلى مرارة أو نقمة على عثمان!

فقد كان عليٌّ حريصاً على أن يطيع الجميع وليّ الأمر الجديد، وأن يكون لعثمان ما كان لعمر من مكانة في قلوب هؤلاء النفر من أصحاب السبق والفضل والتقوى!

سئل علي: «من أين لك هذا العلم كله؟!»، فقال: «ليس كل أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه، وكان لا يمر بي من

ذلك شيء إلا سألته وحفظته»! فقال له أحد الجالسين معه: «لقد أعطيت علم الغيب». فضحك علي وقال: «علم الغيب لا يعلمه إلا الله، وما سوى ذلك فَعَلّم نبيه ﷺ، فعلّمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتنضم عليه جوانحي».

وتمنى عمار وأبو ذر أن يحسن عثمان السيرة، ويفيد من عليٍّ كما أفاد عمر فقال علي: «عثمان أوصلنا للرحم». فقال عمار وأبو ذر: «من أجل ذلك نخاف! فقد يقصي أصحاب السبق ويحيط نفسه بأولي الأرحام من بني أمية»! فقال علي مدافعاً عن عثمان: «عثمان؟ ذاك امرؤ اسمه في الملأ الأعلى ذو النورين»!.

ما كان أحكم علي بن أبي طالب!!

إن القوم لينظرون إليه، ويتذكرون يوم أقنع عمر بأن يدون التاريخ، وأن يجعل أول عام من تاريخ المسلمين هو عام الهجرة، وكان ذلك في العام السادس عشر.

وإن القوم لينظرون إليه، ويتذكرون يوم احتاج عمر بن الخطاب إلى مال ليجهز الجيش، ولم تكن الفتوحات قد جاءت بالثراء العريض للدولة الجديدة بعد، وما في بيت المال مال! فذكر قوم حلي الكعبة وقالوا: «ما تصنع الكعبة بالحلي يا أمير المؤمنين؟ خذ هذه الحلي فجهز بها جيوش المسلمين يكن لك أعظم الأجر». وَهَمَّ عمر بذلك إلا أنه رأى أن يسأل علياً. فقال له علي رضي الله عنهما: «إن القرآن أنزل على النبي ﷺ والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض (المواريث)، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس، فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً **﴿وما كان ربك نسياً﴾** ولم يخف عليه مكاناً، فأقرّه يا أمير المؤمنين حيث أقره الله ورسوله».

فقال له عمر: «لولاك لافتضحنا». وترك الحلي بالكعبة كما هي.

ويذكر أبو ذر وعمار وسلمان وعدد من المهاجرين الأوائل يوم سقيفة بني ساعدة حين اضطربت الأمور، وعلي مشغول بتجهيز الرسول، وقال الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير». وعلم علي كرم الله وجهه بما كان منهم ومن أبي بكر وعمر وأبي عبيدة رضي الله عنهم. ولم يعجبه ما احتج به الثلاثة على الأنصار، فأوصى بأن يحتجوا عليهم لكي يطيبوا نفساً ويتركوها للمهاجرين طوعاً، بأن رسول الله ﷺ وصى بالإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم. قالوا: «وما في هذا من الحجة؟!». قال علي: «لو كانت الإمامة منهم، لم تكن الوصية بهم!!». على أنه كرّم الله وجهه سأل: «ماذا قالت قريش في احتجاجها على الأنصار؟». قالوا: «احتجت بأنها شجرة الرسول!». فقال ساخراً: «احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة!» (أي آل البيت).

وما زال علي كرّم الله وجهه ببني هاشم وأصحاب الورع، وأهل التقوى والسبق من المهاجرين والأنصار حتى تقبلوا حكم عثمان عن طيب نفس، وأخلصوا له الطاعة. وعيونهم مع ذلك مفتوحة على ما عساه أن يصنعه مع عشيرته من بني أمية!

ومن عساه يستشير: أهم الصحابة، وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب باب مدينة العلم وأقضى الصحابة؟. أم أنه سيستغني عنهم ويكتفي برأي أصحاب الحيلة والدهاء من ذوي قرباه من بني أمية؟!

إن عليّ بن أبي طالب لو شاء لكان أدهى العرب!! وهو كما قال عن نفسه: «أنا أدهى العرب لولا العلم والدين».

وبدأ عثمان أول أعماله باستشارة الصحابة ومنهم علي. فقد جلس بعد البيعة في ركن من المسجد. وكان المسجد دار الحكم، ثم هو دست الخلافة وإيوان الإمامة!.

من المسجد حكم الرسول ﷺ، ثم خليفته الأول أبو بكر، ثم أمير المؤمنين عمر.

اختار عثمان ركناً من المسجد يحكم منه، ودعا عبيد الله بن عمر من محبسه.

وكانت قضية عبيد الله بن عمر هي أول ما واجه أمير المؤمنين الجديد من مشكلات!!

ذلك أن عبد الرحمن بن عوف حين رأى الخنجر الذي اغتيل به أمير المؤمنين عمر وهو خنجر غريب الشكل ذو نصلين ومقبضه في وسطه، قال إنه رأى أبا لؤلؤة بالأمس يقلب هذا الخنجر ومعه الهرمزان وجفينة، واتهمهما، فخرج عبيد الله بن عمر في غضب عارم شاهراً سيفه. فقتل الهرمزان، وهو فارسي أسلم، وجفينة، وهو نصراني من نصارى الحيرة، ثم ذهب إلى بيت أبي لؤلؤة، فقتل ابنته الصغيرة، وأراد أن يقتل كل من في المدينة من سبي رجالاً كانوا أو نساء، فتكاثر عليه عدد من المهاجرين الأنصار، فنزعوا منه السيف، ووضعوه في محبس!

وهكذا ضاعت أسرار المؤامرة إلى الأبد!.

فلما جاؤوا بعبيد الله بن عمر ليحاكمه عثمان سأل عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم علي: «أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق».

وسكت الجميع فما يدرون بم يشيرون!

وقال علي: «ما من العدل تركه، وأرى أن تقتله، فقد قتل رجلاً مسلماً يصلي، وقتل صبية صغيرة، وقتل رجلاً نصرانياً من ذمة رسول الله!».

فقال أحد الحاضرين من أقرباء عثمان، إن أبناء عمر كانوا ثائرين جميعاً لمقتل أبيهم، وهم الذين شجعوا عبيد الله على ما فعل.. حتى

أم المؤمنين حفصة بنت عمر ممن شجع عبيد الله على قتلهم!

وعاد علي يؤكد أن القصاص لولي الأمر، فما من حق أبناء عمر أن يقيموا الحد أو يقضوا، فهذا لأمير المؤمنين وحده، أما أولياء الدم، فليس لهم إلا أن يعفوا إذا شاؤوا.. ثم أن عبيد الله لو لم يقتل هؤلاء لأمكن أمير المؤمنين أن يعرف أسرار مؤامراتهم على المسلمين جميعاً».

ولم يرتح عثمان لهذا الرأي!

وقال بعض الحاضرين: «أيقتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟!».

ولم يعقب علي!..

وكان عمرو بن العاص حاضراً في مجلس عثمان، فقال: «يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك من هذا الحدث، فقد كان قبل البيعة لك، وليس لك على المسلمين سلطان. تلك قضية لم تكن في أيامك فدعه عنك».

ولم يرتح عثمان لهذا التبرير!

وضاق به علي، واستشعر الأسى، فإن عليه أن يجادل مثل هذه الآراء في أيامه المقبلة!!

وأخيراً قال عثمان: «أنا ولي الذين قتلهم عبيد الله بن عمر. وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي».

ولم يرق هذا للذين لم يرحبوا بخلافة عثمان، وأسفوا لأن الخلافة فاتت علياً!..

لكنهم امتثلوا، وأذعنوا مطيعين، كما أمرهم عليٌّ، حرصاً على وحدة المسلمين الذين يحكمون اليوم دولة شاسعة مترامية الأطراف، يتربص بها الأعداء، منذ قتل عمر. ولعلهم كانوا من وراء اغتيال أمير المؤمنين المقتول..

وأحس عثمان أن الموجودين من الصحابة لم يرتاحوا لتدخل عمرو بن العاص، فما هو من أهل الشورى، وليست له سابقة في المشورة للخليفتين السابقين!..

كما شعر عثمان رضي الله عنه بنظرات علي كرّم الله وجهه تقتحم هؤلاء الذين التفوا حول أمير المؤمنين الجديد منذ البيعة، وكأنهم أرادوا أن يستخلصوه لهم وحدهم من دون الصحابة وأهل الرأي..!!

وإن عثمان ليعرف أن هذا الرهط من ذوي قرباه وأصدقائهم لم يكونوا راضين عن شدة عمر، وإنهم ليخشون أن يكون لعلي عند عثمان ما كان له من رأي نافذ عند عمر، فيفسد عليهم أطماعهم وآمالهم في الثراء والسطوة والجاه..!

وكأنما أحس عثمان في ومضات العيون باضطرام آمالهم وأطماعهم في الأعماق منهم. فحركته التقوى إلى أن يقف على المنبر، وقد بان الهمّ على وجهه.. فيصمت قليلاً، وتدهمه الحيرة ماذا يقول!! ثم يحمد الله ويثني عليه، ويصلي على النبي، ويقول: «أيها الناس. إنكم في دار قُلْعَةٍ (أي دار رحلة وليست دار إقامة). فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُتيتم صُبِّحتم أو مُسِّيتم، ألا وإن الدنيا طُوِيَت على الغرور. ﴿**فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**﴾. واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإن الله لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتّعوا بها طويلاً؟!. ألم تلفظهم؟! ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله عز وجل ضرب لها مثلاً وللذي هو خير منها فقال: ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً * المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً**﴾. صدق الله العظيم».

ثم وجّه أول كتاب إلى عماله (أمراء الولايات والمدن) فقال: «أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صَدْر هذه الأمة خُلقوا رعاة، لم يُخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة لا رعاة، فإذا عاد كذلك، انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين: فيما لهم وما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمة (يعني أهل الذمة وهم اليهود والنصارى) فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذين تنتابون، فاستفتحوا عليه بالوفاء».

ثم كتب إلى أمراء الأجناد في الثغور: «أما بعد، فإنكم حماة للمسلمين وذادتُهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن مَلأٍ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه، والقيام به».

وكتب إلى عمال الخراج: «أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها. الوفاء الوفاء! لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم».

ثم طمعت الروم في الدولة بعد عمر، فأغاروا على الثغور، فسيَّر إليهم عثمان جيوشاً كبيرة، فصدتهم، ثم دخلت أرضهم ففتحتها، وركبت جيوش المسلمين البحر بقيادة معاوية ففتحت قبرص، واجتاحت جيوش أخرى أرمينية وآسيا الصغرى وفتحت بلاد الأفغان، وإفريقية، (فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي، وملؤوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا حصوناً كثيرة) وازدادت الدولة ثراء، وتكدست الأموال في بيت المال.

وأراد عثمان أن يوسع الحرم النبوي، وابتاع من قوم بيوتهم، وأبى آخرون، فانتزعها منهم بأثمانها، فاحتجوا عليه، فأمر بحبسهم وقال:

«أتدرون ما جَرَّأكُم عليّ؟ ما جرأكم إلا حلمي! قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به!».

فنصحه بعض ذوي قرباه بالشدة مع الناس..

وهكذا بدأ عثمان يشتد.. واستعمل السياط في تأديب الرعية، فكان أول من عالج المسلمين بالسياط كيلا يظنوا به الضعف، ولكيلا يحسبوا حلمه ورقته وحياءه ولينه عجزاً!!..

وكان عمر قد منع بعض كبار الصحابة من مغادرة المدينة، وأبقاهم حوله يستشيرهم، ولكن عثمان أباح لهم أن يسيحوا كما شاؤوا في البلاد..

ولم يعد يستشير من كان يستشيرهم عمر، وأحاط نفسه بنفر من بني أمية جعلهم أهل مشورته في سياسة الحكم.

فلم يستشر علياً في أمر من أمور السياسة، كما ألف عمر، ومن قبله أبو بكر.

ثم إنه عزل الولاة الذين عَيَّنهم عمر، وأقام مكانهم آخرين من بني أمية، وما عاد يسمع لأحد غيرهم، وهم ما برحوا يغرونه بالمبالغة في الشدة كيلا يظن به أحد ضعفاً، وكانوا هم أنفسهم يبطشون بالرعية، ويستبيحون ظلمها، ويَغْدُون مصالحها وهم أجراؤها..

وحج عثمان رضي الله عنه بالناس، فزين له بعض قرابته من بني أمية أن يقيم مخيماً كبيراً يليق بأمير المؤمنين، فكان أول من ضرب فسطاطاً بمنى. وأتمّ الصلاة بمنى وبعرفة، والسُنَّة قصر الصلاة بهما. فقال له علي: «ما حدث أمر، ولا قدم عهد، ولقد عهدت النبيﷺ وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين، وأنت صدراً من خلافتك» فقال: «رأي رأيته».

وجاء قوم إلى عليّ يشكون عثمان، وينكرون عليه أموراً، واشتدوا

في النكير، فطلب منهم عليٌّ أن يجهروا بالإنكار على الخليفة، كيلا يتجرأ الناس، فيشقوا عصا الطاعة على أمير المؤمنين، ويتفرق المسلمون!..

وجاءه علي فقال: «يا أمير المؤمنين ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم!؟ والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك. فارجع إلى الله. فحتى متى وإلى متى؟!».

وجيء إلى عثمان بإبل من إبل الصدقة، فوهبها لمروان بن الحكم وأهله، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، وكان أهل التقوى والورع من الصحابة قد أكثروا لوم عبد الرحمن، وشددوا عليه، لأنه هو الذي عدل بالبيعة عن عليٍّ إلى عثمان!!

فلما علم عبد الرحمن بما كان من أمر إبل الصدقة قام ومعه عدد من المهاجرين والأنصار، فأمر بتقسيمها بين الناس فقسمت، وعثمان ساكت في الدار!! فكان عبد الرحمن بن عوف هو أول من جرأ عليه الناس!!

ولم يعد للناس حديث في كل مكان إلا ما يروعهم صباح مساء من أشياء لم يألفوها في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثل ظلم الولاة للرعية في الأمصار، والظلم ظلمات يوم القيامة كما قال رسول الله ﷺ، ثم الأموال الطائلة التي يغدقها عثمان على ذوي القربى والمقربين إليه فوق ما يقطعهم من الضياع، حتى لقد بلغ ما يملكه أحدهم ألف فرس، وعدة قصور في الكوفة والإسكندرية ومصر!.. وفي الأمة، إلى جوار هؤلاء الذين يكنزون، كثير من ذوي الحاجات، وغير قليل من الجياع!!.

وعثمان ما زال يحمل ذوي قرباه من المتجبرين على رقاب الناس!!

وحاول زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه أن يكف الناس عن تناول عثمان، فاشتدوا عليه، وعيّروه بأنه يكنز الذهب والفضة. وبأنه يملك من الذهب ما يقطع بالفؤوس، ويملك عشرة آلاف من الغنم والبعير!!

وأحس علي كرّم الله وجهه بالخطر، فأتى عثمان رضي الله عنه. وقال له ناصحاً متلطفاً: «إن الناس ورائي قد كلموني في أمرك، والله ما أدري ما أقول لك! فما أعرّفك شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، وإنك لتعلم ما نعلم، وما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، لقد صحبتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ ورأيتَ مثل ما سمعنا ورأينا، وما ابن أبي قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق منك، ولأنت أقرب إلى رسول الله رحماً، ولقد نلت من صهره ما لم ينالاه، فاللَّهَ اللَّهَ في نفسك، فإنك لا تبصر من عمى، ولا تعلم من جهل!».

فقال له عثمان: «والله لو كنت مكاني ما عنفتُك ولا أسلمتُك، ولا عتبت عليك أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً! . أو لم يول عمر معاوية؟».

قال علي: «إن ابن عمك معاوية كان أشد خوفاً وطاعة لعمر من غلامه! ولكن معاوية الآن يبتز الأمور دونك، ويقطعها بغير علمك، ويقول للناس هذا أمر عثمان، ويبْلغُك فلا تغيِّر!».

وجعل علي يلحّ عليه أن يعدل عن سيرته في الناس، فاعتذر عثمان عما بدر منه بقوله: **﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء﴾**. صدق الله العظيم.

ووعد بإصلاح كل خطأ، وبالتحقيق مع عماله الذين ظلموا..

وأرسل عدداً من شيوخ المهاجرين والأنصار الساخطين على سياسته ليحققوا مع عماله المتجبرين حكام مصر والكوفة والبصرة والشام

فعادوا يقولون إنهم لم يجدوا مآخذ على هؤلاء الولاة.. إلا عمار بن ياسر فقد طاب له المقام في مصر.. أحبها وأحبه أهلها، فأقام بينهم حيناً من الدهر يفقههم في الدين، ثم عاد إلى المدينة، وفي أعماقه ذكريات جميلة عن أيامه في مصر!

الفصل الثامن

أيام الغضب والتربص

أسرف أقوام على عثمان في الملامة إسرافاً شديداً، وأعرضوا عنه إعراضاً، حتى لقد سلبوه محاسن نفسه!

من أجل ذلك اضطر عليٌّ للدفاع عن عثمان فيما يعتقد أنه أحسن فيه، على الرغم من أنه أخذ عليه أموراً، كان لا يألوه فيها نصحاً وموعظة!!

فقد وجد عثمان أهل الأمصار قد اختلفوا في قراءة القرآن، وكل يزعم أن قراءتهم خير من غيرهم، فجمع عثمان الصحابة، وشرح لهم مخاوفه أن يختلف المسلمون في القرآن، ثم لا يقوموا عليه أبداً!

وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن ترسل إليه بالصحف التي عندها، وهي التي جمعها علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت في عهد أبي بكر وآلت من بعده إلى عمر.

وجمع عثمان عدداً من الصحابة، وأمرهم أن ينسخوا هذه الصفحات في مصحف واحد، فإن اختلفوا في كتابة كلمة فليكتبوها بلغة قريش فإنما نزل القرآن بلسانها. ولقد اختلفوا في كلمة التابوت، فرأى أحدهم أن يكتبها «تابوه» ولكنهم آخر الأمر كتبوها بلسان قريش: التابوت.

وكتب الصحابة عدة نسخ من القرآن بالحرف العثماني المعروف

لدينا حتى اليوم، فاحتفظ عثمان بنسخة، ووزع الباقي على الأمصار وأمر بأن يستنسخ المصحف من هذه النسخ فحسب، وأمر بأن يحرق ما سوى ذلك!

وأعظم الصحابة رأيه، وفرحوا بأن الله تعالى حقق وعده: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**.

ولكن علياً سمع من يلوم عثمان على هذا الصنيع، فزجره ونهاه، ومدح ما فعله عثمان قائلاً: «لو وليت منه ما وليه عثمان ما سلكت إلا سبيله رضي الله عنه».

ثم أخذ يمدح مناقب عثمان، ويذكر بها الناس.

لئن كان عثمان قد أخطأ واختلف معه كبار الصحابة في سياسة الإمامة وتوزيع الثروة، إنه للرجل الذي اسمه في الملأ الأعلى ذو النورين، وهو الذي جهز جيش العسرة من حر ماله، وهو الذي اشترى بئر رومة لما وجد صاحبها اليهودي يغلي ثمن الماء، فشرب أهل المدينة ماءهم بلا ثمن، وهو الذي وزع ما تحمله قافلته الكبيرة من طعام وكساء على أهل المدينة، متصدقاً، في عام المجاعة بأكثر ماله.. وهو الذي وسع الحرم النبوي من حر ماله، وهو الذي حرر مئات العبيد من ماله الخاص، وهو بعد قانت، ساجد، قائم يكاد أن يكون صائم الدهر، يطعم الناس اللحم والسمن والعسل ويأكل خبز الشعير الجاف، مغموساً بالزيت!!

فأي شيءٍ ألمَّ بهذا الصحاب الجليل يا علي؟!

لكم هو فاجع ومعذب كل هذا الذي يجري!!..

عندما كنت في مطلع الصبا يا علي، وفتوتك تشب بك إلى الشباب، كان هذا الشيخ النوراني علماً مضيئاً بالإسلام في ظلمات الجاهلية، ولقد سمعت من رسول الله ﷺ أن نور عثمان يضيء لأهل

السماء كما تضيء الشمس لأهل الأرض!..

أو ما سمعت الرسول يقول إن جبريل قال له هذا عن عثمان؟!

وإنك لتعلم يا علي أن الله تعالى أنزل في وصفه آية من سورة الزمر: **﴿أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾**. فذلك هو عثمان..

ولقد قال عنه رسول الله ﷺ: «لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان بن عفان».

وإنه لامرؤ شديد الحياء، حتى لتستحي منه الملائكة!

ليت المتكالبين على الدنيا من ذوي قرباه ما ركبوا حياءه!!

.. وأسفاً على عثمان!!..

إن رسول الله رفض أن يصلي على واحد من صحابته، فلما سئل: «ما تركت أحداً من أصحابك لم تصل عليه غير هذا؟» قال: «إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله».

يا للرّجل في قنوته وشجاعته وبلائه في سبيل الله!!

إنه أول من مضى بأهله وفرّ بدينه، مهاجراً إلى الحبشة..

إنك لَمَثَلٌ للمؤمن الورع القانت الباذل يا عثمان، فما بالك توطىء أكنافك للطامعين، وأنت وليّ أمر المؤمنين؟!

لِمَ تعزل كبار الصحابة أهل التقوى والقدوة والقدرة وأصحاب السابقة في الإسلام، ذوي الخبرة بالحياة والناس وسياسة الحكم؟! ألتضع مكانهم ذوي قرباك من أحداث بني أمية؟!

لماذا تولي الشام كله ابن عمك معاوية، وما ولاه عمر إلا جزءاً منه؟

ثم تولي ابن عمك سعد بن العاص على البصرة، وتولي سائر الأقرباء على مصر وخراسان والكوفة وغيرها من الولايات والأمصار؟!. . . فحاكم مصر ابن أبي سرح أخوك من الرضاعة، وفي خراسان ابن خالتك عبد الله بن عامر!

إنه ما من أحد يتولى الآن أمراً من أمور المسلمين، إلا أولو قرباك أو رهطك أو شيعتك!! وماذا بعد أيها القانت الساجد القائم التقي الورع المعطاء، يا من عرفت الحياء شعبة من شعب الإيمان؟!

لِمَ تسمح لعشيرتك والطامعين فيك أن يجعلوا حياءك طريقهم المعوج إلى الدنيا وزخرفها وشهواتها، وقد جعل الله هذا الحياء فيك طريقك المستقيم إلى التقوى ومكارم الأخلاق وصلاح دنياك وآخرتك!!؟

أما من رجل في كل صحابة رسول الله يصلح وزيراً لك حتى تختار من دونهم، مروان بن الحكم، وزيراً لك؟! وأنت تعرف مثالبه وهو بعد طريد لعنة الله ورسوله!!. . أم لأنه ابن عمك؟!. . ألم تسمع قول عائشة أم المؤمنين: «سمعت رسول الله ﷺ يلعن مروان وهو في صلب أبيه الحكم، فهو فضض (قطعة) من لعنة الله ورسوله». ما أروعك يا عثمان إماماً ورعاً تقياً فتح الله به على المسلمين الأرض الواسعة، والممالك الضخمة، وأبواب الغنى والنصر، لولا قومك الذين تسلطوا على رقاب العباد، وما يريد الحاكم منهم إلا أن يكون جباراً في الأرض!!

وأنت تنظر، وتسكت!!

أفلا كففتهم عن الرعية، ورحمت المسلمين منهم، وضربت صلفهم وغرورهم، وقضيت على ما يثيرونه من نعرات قبلية، وعصبية جاهلية؟!

ما بال ابن عمك معاوية حاكم الشام كله يزجر ناصحيه، ويستثير

عصبياتهم بقوله: «إنكم لتنقمون قريشاً، وإن قريشاً لولاها لعدتم كما كنتم أذلة! إن الله بنى هذا الملك بقريش وجعل هذه الخلافة فيها، ولا يصلح ذلك إلا لها، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه».

إنه ليتحدث عن الملك، يا إمام المسلمين!!

أيحلم إذن بأبهة الملك وسطوته!.. أيريدها قيصرية أم كسروية!؟

هلّا علمته أنها الأمامة والخلافة لا الملك!

فلتذكره بموقف للعباس مع أبيه، كان ذلك يوم الفتح ورأى أبو سفيان تدفّق جيوش المسلمين الكثيفة الهائلة فقال لصديقه العبّاس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً». فقال له العباس: «إنها النبوة لا الملك!».

قل لعمالك يا عيمان: إنها الإمامة لا الملك!

ثم ما هذا الفخر بقومه وبأبيه؟!!

أكان يجرؤ معاوية أو غيره، أن يزهو بقومه أو بعشيرته، أو أبيه. أو يثير هذه النعرة القبلية، والعصبية العائلية في عهد سلفك العظيم عمر؟!..

«كان عمر إذا ولّى أحداً، فإنما يطأ على صماخيه، فإن بلغه عنه شيء جاء به، وبلغ في زجره أقصى الغاية».

أما أنت يا عثمان فلا تفعل، فقد رفقت بأقربائك ولِنْتَ لهم! وحسبك ضعفاً أمامهم أنك وَلّيتهم وأنت تعرف الفضل في غيرهم من صحابة رسول الله ﷺ».

ما كان أشد عتاب علي بن أبي طالب على نفس عثمان بن عفان!..

ولكن علياً ما برح يسأل عثمان عما صنع بحاكم البصرة ابن عمه سعيد بن العاص، حين أهان أمراء الجيش من غير القرشيين، وكانوا يسخرون منه!.. قال سعيد مشيراً إلى أرض العراق كلها: «إنما هذا السواد بستان قريش». فغضب الناس. وقال له الأشتر: «أتجعل هذا السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستاناً لك ولقومك؟».

وتلاحى أصحاب سعيد وأصحاب الأشتر، فقام الأشتر وصحبه فوثبوا على سعيد، ووطؤوه بأقدامهم، حتى غشي عليه، وكاد يهلك، فتركوه، وانصرفوا عنه!..

ماذا بقي من هيبة الإمامة وجلالها، أو حتى من سطوة الملك، إذا كان المسؤول عن أمر الناس يستثير غضبهم ونعرة العصبية فيهم حتى يصبح جسده ورأسه موطئاً لنعالهم!؟

ماذا بقي للراعي بعد أن تطؤه الرعية بنعالها يا أمير المؤمنين؟!

انظر في أمر هؤلاء العمال؟ أفلا عزلتهم، وعاقبتهم، بدلاً من أن تجعلهم على رقاب المسلمين!!

أتعفّ أنت وتتقي وهم يرتعون ويلعبون!؟ وها هو ذا وزيرك مروان ينصح لك أن تغلظ على المسلمين، لكي يهابوك!..

ولكنهم يهابونك لقنوتك، وحيائك، ولسابقتك، وصدق بلائك بالمال في سبيل الله!

لماذا كانوا يهابون عمر؟! ألشدّته، بل لعدله، فهم إلى عدلك وتقواك أحوج منهم إلى شدتك!! إنك لتروّعهم بالسوط، وترفض أن تسمع لهم، وعاقبة هذا كله الوبال.. فالسوط لا يحمي ظلماً، والاستبداد بالرأي لا يقيم دولة!

وأسفاً على عثمان الإمام القانت الساجد المتصدق الصادق صاحب الحياء العظيم!!

أهو أنت الذي يعزل كبار الصحابة أولي الفضل والسبق والحكمة ليولي بدلاً منهم أولي القربى؟!.. أهو أنت الذي يغضب على ناصحيه فيقول لهم. «وأي شيء بقي لي من الأمر إذا كنت كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عن أمير وليته؟»؟!

أهو أنت الذي يقول هذا لمن يصدقه المشورة؟!.

إنها لوسوسة مروان بن الحكم فاستعذ بالله منه، وأقصه كما تستعيذ بالله من الوسواس الخناس!..

أم تصل ذوي قرباك، ومن والاك من الأنصار وحدهم؟!

لماذا ينال زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم؟!

لماذا يعطى ابن عمك الحارث بن الحكم بن أبي العاص أخو مروان بن الحكم ثلاثمائة ألف، ولماذا ينال غيرهم من بني أمية نحو ذلك؟!

أما مروان نفسه، فهو يأخذ بلا حساب من الأموال والضياع، بل هو وحده صاحب الرأي فيما يقطع الخليفة من أمر، وفيما يهب من أعطيات!!

ومهما يكن من أمر فقد شجع الخليفة عثمان على هذا الإغداق في العطايا اتساع الفتوحات، وتدفق الأموال والثروات على نحو لم تعرفه الأمة من قبل حتى كان الفارس في جيوش الفتح يقسم له من بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب، غير السبايا الحسان!!

هكذا استغرق الغنى لبانات كثير من الرجال!.. دَرّت عليها الفتوحات الكبرى وأحسنوا استثمار الأموال، فهم أهل براعة وحذق في التجارة.. ورَبَتْ تجارتهم وبارك لهم الله فيها حتى ملكوا الآلاف المؤلفة، والقناطير المقنطرة..!

ولقد أصبح عند الزبير بن العوام ألف فرس، وألف أمة!

ويلغت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم!!

وكان عند زيد بن ثابت الأنصاري من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس غير الضياع!!

ولكنهم كانوا يتصدقون بسخاء ولا يكتفون بإيتاء الزكاة المفروضة بل كانوا يرون الصدقة لوناً من العبادة!!

وكان لآخرين من بني أمية مثل هذا أو أكثر.. ولكل واحد منهم دار ضخمة فاخرة بناها في المدينة، وقصور أخرى في البلاد المفتوحة: على شواطىء البحار، وضفاف الأنهار، وسفوح الجبال المتوجة بخضرة الغابات.. كانت لهم قصور في مصر، والإسكندرية، وثغور الشام، أو في غياض العراق وأذربيجان، أو في غابات الريحان في بلاد ما وراء النهرين في آسيا الوسطى!.

ما من أحد يجد في هذه الثروات حرجاً: لا الخليفة، ولا كبار الملاك، فهي من أموال الفيء والغنائم، إلا علي بن أبي طالب، ومعه نفر من الصحابة منهم أبو ذر وعمار وسلمان..!

فقد رأى علي أن الاستكثار في الأموال مذموم، بل إنه لحرام إن كان في الأمة محتاجون أو جياع.

وكان علي يرى أن الدولة ذات الأطراف المترامية، يعيش فيها من المسلمين وأهل الذمة من لا يجدون ما يكفيهم للحياة الكريمة، وفيهم جياع، وما آمن بالله ورسوله من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم، كما جاء في الحديث الشريف!

ثم إن الرسول ﷺ علمهم أن ما فاض عن حاجة المسلم لا يحق له وفي الأمة أصحاب حاجة، فليجد به على أخيه الذي لا يجد.. وقد ظل يوصيهم بهذا حتى حسبوا أنه لا حق لأحد منهم في الفضل..!

وقد فرض هذا على كل من له فضل من طعام أو مسكن أو دابة أو كساء أو مال أو زرع، إذا كان هناك من له حاجة إلى هذا الفضل، فإن لم ينزل عما فاض عن حاجته، فهو كانز يلعنه الله ورسوله، ويلعنه اللاعنون!!

وقال عليٌّ إنه لا بأس بالغنى والتمتع بزينة الحياة التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، التي أحلها الله، لا بأس بهذا كله.. لا بأس بالغنى لمن اتقى.. ومن حرم ما أحل الله فهو آثم، كمن أحل ما حرمه الله!! ولكن هذا المال يجب لكي يكون حلالاً: أن يتوفر له أول الأمر أن يكسبه صاحبه بعمله وبلائه وجهده، لا أن يكون منحة من ولي الأمر لقرابة أو مودة أو نحو ذلك!!

إن القرآن يفسر بعضه البعض، وحين قال الله تعالى: **﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾**. قال في الوقت نفسه: **﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة﴾**. وقال: **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾**..

وإذن فحق الملك قائم في أصله على العمل.. على ما يكسبه الإنسان بعمله.. ومن هنا يحفظه الله تعالى فيحميه من السرقة، ويكفل الميراث وينظمه..

ثم أن الإسلام حرم أن يكون المال دولة بين الأغنياء ومن هنا اجتهد عمر وعليٌّ وأيدهما عثمان، فظلت الأرض الشاسعة المفتوحة في أيدي زارعيها على أن يكون خراجها ملكاً للدولة، فيصرف على مصالح الناس، وتوزع منه الأجور: كل وعمله، وكل وحاجته.. أما الأرض التي كان يملكها الملوك والأمراء وأغنياء البلاد المفتوحة ورحلوا عنها فأصبحت بلا مالك، فقد ضمها عمر إلى بيت المال، فلماذا يعدل عثمان عن هذه القاعدة في البلاد التي فتحها؟!

لماذا جعل هذا النوع من الأراضي قطائع أقطعها لبعض المسلمين، وفرض عليهم خراجاً معلوماً، بدلاً من أن يضمها لبيت المال؟! أقاده اجتهاده الخاص إلى أن هذا الأسلوب في توزيع الأرض أنفع للأمة.

رأى علي أنه لا يحق لأحد أن يكون له ملك خاص، إلا إذا اكتفى كل فرد من الذين يعيشون في دار الإسلام تحت سلطان الخلافة من مسلمين وذميين.. أي إذا بلغ كل امرىء حد الكفاية.

واكتفاء كل فرد في الدولة يتحقق بألا تكون له حاجة: فلديه المسكن المريح، والملبس المناسب، والطعام الجيد، ولديه ما يركبه من خيل أو بغال أو حمير أو إبل أو نحو ذلك، ولديه ما يسد حاجة أولاده، ويكفل لهم العيش الكريم والصحة الموفورة، ولديه ما يؤمن به أهله وعياله عاماً كاملاً، على ألا يكون مديناً!..

حينئذ وحينئذ فقط، يحق للإنسان أن يملك ما يشاء. ولكنه إن ملك أمين على ملكه، فليس له أن يسيء استعماله، أو أن يحبس ماله أو يكنزه، بل يجب عليه أن يستثمره فيما يفيد الأمة، ثم أنه مطالب بأن ينفق ما زاد عن حاجته في سبيل الله، فهو ليس مطالباً بالزكاة فحسب، بل عليه أن ينفق لعمارة الأرض، ونشر العلم. وحماية الصحة العامة، وهو منهي عن البخل.. قال تعالى: **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾**. كما قال تعالى: **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾**.

وعثمان نفسه صنع هذا، فسقى المسلمين بماله حتى اشترى البئر الأساسية في المدينة، وأطعم الجائعين حين نزل عن تجارة كبيرة له ووزَّع ما حملته القافلة على الناس في زمن الجفاف، وفي الأيام الشداد، ووسع الحرم النبوي من ماله ليسع المصلين، وأعتق كثيراً من

الرقاب.. بل إنه جهز جيشاً بأسره بكل ما يحتاجه الجيش من عتاد وميرة وذخيرة..

وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف.. وكلاهما نزل عن نصف ماله أكثر من مرة ليعين الدولة الجديدة!

وكذلك كان يفعل طلحة وسائر أغنياء الصحابة رضي الله عنهم..

وإن علياً ليذكر عثمان بأيام عمر وبما اتفقوا عليه جميعاً بأن يعيد عمر توزيع الثروة، حين راعهم انتشار الفقر على الرغم من تكدس ثروات بعض الناس!! ما نسي أحد بعد من الصحابة اقتناع عمر وعثمان بقول علي: إنه ما من أحد يخزن فوق حاجته إلا حرم آخرين من ذوي الحاجة!

وإن علياً ليذكر عثمان بعهد عمر: «والله لئن بقيت إلى الحول لألحق أسفل الناس بأعلاهم». «لو استقبلت من امرىء ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء».

كان هؤلاء الثلاثة ومن قبلهم أبو بكر رضي الله عنهم يتصحون أغنياء المسلمين بالإنفاق في سبيل الله، ويشرحون لهم قول الله تعالى: ﴿**واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين**﴾.

فالترف ظلم، وسفه، والمترفون إذا لم يبذلوا ما فاض عن حاجتهم لتوجهه الدولة للمصلحة العامة، كانوا بحكم القرآن قوماً مجرمين!.. ولولي الأمر أن يأخذ من الأغنياء أموالاً فوق الزكاة إن اقتضت ذلك مصلحة الأمة..

ولقد سن الرسول ﷺ لمن يلي أمور المسلمين من بعده أن يعيد توزيع الثروة إذا اضطربت الأمور.. فقد وجد الأنصار أغنياء أو لديهم ما يكفيهم ووجد المهاجرين فقراء تركوا أموالهم في مكة، فقسم للمهاجرين وحدهم في بني النضير، وأعطى معهم رجلين فقيرين من

الأنصار! ورأى عليٌّ أن البدء بتوزيع العطاء على ذوي الحاجة أقرب للتقوى، وأوفى للعدل!!

لكم تحدث علي بكل هذا إلى عثمان!

وعلم الناس بما قاله علي فقال أحدهم: «علي أفضل عندي من أبي بكر وعمر». وقال آخر: «لا بأس عندي بمن يقول هذا فهذا قول أحبه وأشتهيه إذا لم ينس قائله فضل الشيخين أبي بكر وعمر، وأثنى عليهما بما هما أهله».

وبلغ ذلك علياً فقال: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقد كان عمر يضرب بالدرة من يفضل عليه أبا بكر».

وما كان علي ليفضّل نفسه، وقد نهى الناس عن المفاخرة والغرور، ودعاهم إلى تدبر أمورهم، والعمل على جمع الشمل الذي أوشك عمال عثمان أن يمزقوه، وإذن فستأتي فتَنٌ كسواد الليل!!

كان علي ينصح الناس أن يصبروا على عثمان، فهو قانت تقي ورع، ولكنه لين العريكة لبني أمية، ووزيره مروان بن الحكم مستشار سوء حقاً!

وما زال علي يعظ الناس أن يأتوا عثمان فينصحوا له في رفق كما تعلموا من الرسول ﷺ: الدين النصيحة لله ورسوله وأولي الأمر ولعامة المسلمين وخاصتهم..

أخذ عليٌّ نفسه بالصبر على عثمان، وعلى كيد مروان وغيره له عند عثمان!!..

ولقد جاء بعض الصحابة إلى عثمان ينصحونه أن يغير عماله الجبارين المتكبرين المتكالبين على الدنيا، وأن يولي غيرهم ولاة من أتقياء الصحابة.. فهمس له مروان بن الحكم أن هؤلاء الناصحين إنما

يطمعون في حلمه، ويريدون أن يستبدوا هم بالأمر دونه!

وقال له عن علي: «لو شاء ما كلّمك أحد.. هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسِلْفُهُ وابن عمه وابن عمته؛ فما ظنك بما غاب عنك»؟! وقال علي عن بطانة عثمان: «اتخذ بطانة أهل غش، ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها»..

وحاولت نائلة امرأة عثمان ـ وكانت ذات رأي وحكمة ـ أن تستخلص زوجها الخليفة من مشورة السوء، ولكنه زجرها، واشتد على الناس قائلاً: «وأي شيء لي من الأمر إذا كنت كلما كرهتم أميراً عزلته، وكلما رضيتم عن أمير ولّيته؟».

ومضى إليه علي فناشده الله أن يقصي عنه مروان بن الحكم فهو يحمل راية ضلالة!!

وناشده الله ألا يستجيب لمستشاري السوء جميعاً!!!

فليستفت ضميره يفته بالحق، فهو ضمير إمام قانت ورع من أهل التقوى، وهو بعد صاحب رسول الله ﷺ في الجنة.

وقال علي له: «إن الحق ثقيل مريء (لذيذ)، والباطل خفيف وبيء (من الوباء) وإنك متى تصدق تسخط، ومتى تكذب ترض!!».

ثم ناشده أن يسترد الضياع التي أقطعها، فما يحق لأصحابها أن يمتلكوها وفي الأمة من لا يجد المسكن الصالح، ولا الطعام الجيد أو الكساء المناسب، أو ظهراً يركبه!!

ورد عثمان بأن الخير عميم، وأن الناس جميعاً يستمتعون بالمال، حتى الأطفال عندما يولدون يوضع لهم رزق حسن من بيت المال، فلم التضييق على الناس، وقهرهم على الزهد، وحرمانهم من الطيبات والمتاع الحلال؟!

وعاد عليٌّ يلح على الخليفة عثمان ألا ينظر في أهل المدينة وحدهم، بل في أمر كل الذين يعيشون على أرض الإسلام من إفريقية إلى مداخل أوروبا إلى أواسط آسيا، من مسلمين وأهل الذمة.. أبلغوا كلهم حد الكفاية؟.. أليس فيهم صاحب حاجة؟

وذكره عليّ بالآية الكريمة من سورة التوبة: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾**.

وما زال علي يذكّر عثمان رضي الله عنهما باليوم الذي نزلت فيه هذه الآية.. يومذاك قال رسول الله ﷺ: «تباً للذهب! تباً للفضة»، قالها ثلاثاً فقالوا له: «أي مال نتخذ يا رسول الله؟» قال: «لساناً ذاكراً. وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه»..

وذكره بقول الرسول ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها».. وكان يعني من كنز وترك مالاً، وفي الأمة أصحاب حاجة مسلمين كانوا أم ذميين، فالذميون هم في ذمة الله ورسوله.

ولكن عثمان فهم الآية الكريمة على أنها تنذر مانعي الزكاة، وفي الحديث الشريف: أن من أدى زكاته فليس بكانز والله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له، ويؤدي عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه!..

فمن رأي عثمان أن الإعراض عن اقتناء المال أفضل، وأدخل في الورع، هذا حق، ولكن الاقتناء مباح لا يذم صاحبه!

وردّ علي بأن الله تحدث عن الزكاة بقوله: **﴿وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾** فالحق المعلوم هو الزكاة.. ولكنه قال مرة أخرى **﴿وفي أموالهم حق﴾** فهو الانفاق!!

ثم أن الاقتناء مباح وهو غير مذموم إن لم تكن هناك حاجات تسد، أما إن كانت هناك حاجة لأحد، فما يحق لمسلم أن يقتني فوق حاجته.

وأضاف على أنه حتى وإن لم يكن في الأمة صاحب حاجة، وكان كل أفرادها من مسلمين وذميين قد بلغوا حد الكفاية، فما يحق لأحد من المسلمين أن يكنز فوق حاجة عام أو فوق أربعة آلاف دينار ذهباً، بل عليه أن يبذل الباقي للمصلحة العامة، يسلمه لبيت المال، ليحقق به ولي الأمر حد الرفاهية للجميع.

فلا يعاني أحد من شيء يرهقه، أو نقص في معاشه، ولا يبقى في الأمة مدين.

ولا يتحسر أو يحبط أو يصاب بالخيبة شاب يريد الزواج فيعجز عن المهر، أو عن إنشاء بيت الزوجية وتأثيثه، إلى غير ذلك من احتياجات المسلمين وأهل الذمة على السواء. فإذا تحقق هذا للأمة، وهو ما تقتضيه التقوى، فليملك من شاء ما شاء!!

«وما أنذر الله تعالى الكانزين بأن ما كنزوه يحمى عليه في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، إلا لأنّ الله إنما يخص من جسم الإنسان ما يبتغون به الجاه الدنيوي: من وجاهة بين الناس، وعلو في الأرض واستعلاء على العباد، فيلقى الناس وجوههم بالإكرام، ويصعرون خدودهم مما يمنحهم الغنى من تكبر، وينفخون جنوبهم من الزهو والخيلاء، ويلبسون الثياب الناعمة يطرحونها على ظهورهم، ثم إنهم بعد ذلك إذا أبصروا الفقير عبسوا في وجهه بوجوههم، ومالوا عنه بجنوبهم، وولوه ظهورهم، فحق على هذه الأعضاء جميعاً أن تكوى بما كانوا يكنزون!!».

أرسل عثمان أبا ذر إلى الشام يعمل بها، ووجه عماراً إلى مصر،

وغيره من كبار الصحابة إلى الأمصار ليحققوا فيما يصنعه عماله، فأقام أبو ذر فترة في الشام، ثم عاد إلى الحج، واستأذن الخليفة أن يبقى في المدينة قليلاً بجوار الرسول.

فراعه أن الخليفة يغدق في كل يوم جديد رزقاً جديداً على بعض صحبه وذوي قرباه!

وإذ رأى أبو ذر الأموال تتكدس عند هذا الرهط من بني أمية وأصدقائهم، فلا ينفقونها فيما أمرهم الله، ولا يؤدون إلا الزكاة المفروضة.. إذ رأى أبو ذر كل ذلك، أنكر أن يوجه مال المسلمين كافة ليكون دولة بين الأغنياء من أقرباء عثمان وأصدقائه!!

فجعل أبو ذر يقول: «بشر الكافرين بعذاب أليم، ويتلو الآية الكريمة: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة....**﴾ فأبلغ مروان بن الحكم مقالة أبي ذر إلى عثمان فأرسل إليه الخليفة وزيره مروان فقال له في خشونة: «يا أبا ذر يقول لك أمير المؤمنين: «انته عما يبلغني عنك». فقال أبو ذر: «أينهاني عثمان قراءة كتاب الله؟! فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ من أن أسخط الله برضاه».

ونقل مروان كلام أبي ذر إلى عثمان على نحو أغضبه، وصوّر له أبا ذر متحدياً سلطانه!! ولكن عثمان صبر على أبي ذر!!

وجاء أبو ذر يوماً إلى عثمان، وعنده جماعة من المسلمين فيهم كعب الأحبار، وهو حديث العهد بالإسلام. فسألهم عثمان إن كان يجوز للخليفة أن يقترض من المال العام، فإذا أيسر قضى الدين؟..

وقبل أن يجيب أحد قال كعب الأحبار: «لا بأس بذلك». فقال أبو ذر: «يا بن اليهوديين أتعلمنا ديننا؟!» فاحتج عليه مروان، فأغلظ له أبو ذر، فغضب عثمان وقال لأبي ذر: «ما أكثر ذلك! وما أولعك بأصحابي! الحق بمكتبك بالشام».

وعاد أبو ذر إلى الشام وقد علم أنه في هذه المرة سيقيم فيه طويلاً، فالخليفة لن يسمح له بالعودة إلى المدينة قبل سنين!

ما كان أبو ذر في زيارته الأولى للحج قد درس أحواله كما ينبغي، فقد كان في عجلة من أمره ليذهب للحج، ثم يعود إلى المدينة المنورة ليجاور رسول الله.

ولكنه هذه المرة لم يكد يستقر في دمشق، حتى بدأ ينكر على معاوية وصحبه ما يفعلون!..

قال أبو ذر: «لقد حدثت أعمال لا أعرفها، والله ما هي في كتاب الله، ولا سنة نبيه، والله إني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأَثَرَةً بغير تقى»!

وأراد معاوية أن يتلطف ويتقرب إليه: فدعاه إلى قصره، وهو قصر ضخم هائل، بناه معاوية في دمشق، لينافس به قصور أباطرة الرومان، وأسماه الخضراء.

فقال له أبو ذر: «يا معاوية، إن كانت هذه الأبهة من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف».

فسكت معاوية على مضض!

وبعد لحظات صمت سأله أبو ذر: «يا معاوية! ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟».. وكان معاوية وسائر عمال عثمان من بني أمية يرون أنهم يتصرفون في المال بموجب حق إلهي بما أن المال مال الله، وهم خلفاؤه على هذا المال!!

فلما سمع معاوية سؤال أبي ذر قال: «يرحمك الله يا أبا ذر ألا إن كل شيء لله ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟!».

قال أبو ذر: «كأنك تريد أن تحجب هذا المال دون المسلمين! فلا تقل هذا!».

فقال معاوية: «لا أقول أنه ليس لله، ولكني سأقول مال المسلمين».

ثم مضى أبو ذر في ربوع الشام يتأمل مظاهر الغنى الباذخ، والفقر المدقع في آن واحد!

فجعل يفتي في كل مكان برأي علي بن أبي طالب، أنه لا يحق لأحد أن يملك ضياعاً، أو يكنز مالاً وفي الأمة فقراء وجياع.. وأخذ يردد الحديث الشريف: «ما آمن بالله ورسوله من بات شبعان وجاره طاو وهو يعلم».

ثم مضى في كل مكان يهتف بالناس: «يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم».

وتبعه الفقراء، وجعلوا يطالبون الأغنياء بما يطالب به أبو ذر!

وقال لهم أبو ذر: «إن المسلم لا ينبغي أن يكون له أكثر من قوت يومه وليلته، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لأداء دين».

ومشى في الأسواق يوماً، فوجد فيها الغنى الفاحش إلى جوار الفقر المدقع، والتخمة المفرطة إلى جوار الجوع القارص، فصاح في الناس: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه لماذا لا يخرج على الأغنياء شاهراً سيفه»!!.

وأسرع البصاصون والعيون والعسس إلى معاوية فأخبروه بما كان من أمر أبي ذر، وتحريضه الفقراء ليثبوا على الأغنياء.

وكان معاوية قد اصطنع لنفسه جهازاً للتجسس كالذي عند الرومان

قبل الفتح، بل إنه أبقى الجهاز نفسه بأفراده، وأقام على رئاسته عدداً من ذوي قرباه وحاشيته!

فنصحوا معاوية قائلين: «إن أبا ذر مفسد عليك الشام، فتدارك أهله إن كانت لك بهم حاجة».

كما شكاه الأغنياء..

أراد معاوية أن يشوه أبا ذر في عيون المعجبين به، فيفقد تأثيره على الفقراء!

فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جنح الليل.

ولم ينم أبو ذر ليلته حتى أنفقها جميعها على الفقراء!

فلما صلى معاوية الصبح، دعا رسوله الذي كان قد أرسله ليلة البارحة، وقال له: «اذهب إلى أبي ذر، فقل له أنقذ جسدي من عذاب معاوية، فإنه أرسلني إلى غيرك، وإني أخطأت بك».

فلما جاءه رسول معاوية، رد عليه أبو ذر: «يا بني، قل له: «والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار! ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها».

ولم يجد معاوية له حيلة مع أبي ذر، ورأى الفقراء قد ولعوا به، فصدقوه، وخرجوا يفرضون على الأغنياء حقوقاً في أموالهم أكثر من الزكاة، محتجين على الأغنياء بما سمعوه من أبي ذر عن علي بن أبي طالب من أن الله فرض الزكاة بنصابها المعلوم على الأغنياء بقوله: **﴿وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾**، وفرض حقاً مطلقاً للفقراء في أموال الأغنياء بقوله: **﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾**. فهو حق مطلق، وهو غير الزكاة المفروضة! وأخذوا يرددون ما نادى به أبو ذر: أن في المال حقاً آخر غير الزكاة.

وأوشك الأمر أن يفلت من يد معاوية، فبعث إلى الخليفة يشكو أبا

ذر، واتهمه أنه يحرض الفقراء ليوجبوا على الأغنياء ما لم يوجبه الله عليهم!!

فأرسل عثمان إلى معاوية يأمره بأن يبعث إليه أبا ذر.

فلما دخل عليه قال عثمان: «يا أبا ذر. ما لأهل الشام يشكون منك!» قال: «لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً! ولا ينبغي أن يقال مال الله، إنما هو مال الناس»!

فقال عثمان: «يا أبا ذر، عليّ أن أقضي ما عليّ، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد».

فقال أبو ذر: «لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف. وقد ينبغي للمؤدي الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات».

وكان كعب الأحبار عند عثمان، فقال كعب: «يا أمير المؤمنين من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه».

فقال له أبو ذر: «يا بن اليهودية، ما أنت وما ههنا؟!».

ثم ضربه فَشَجَّه!

لكأنه ألف هذه الشدة على كعب الأحبار وهو حبر يهودي حديث العهد بالإسلام!

وإذ رأى عثمان الدم يسيل من رأس كعب، أمر به فعولج، واستوهبه خطأ أبي ذر فوهبه، وقال عثمان: «يا أبا ذر، إتق الله واكفف يدك ولسانك».

ثم خرج أبو ذر من المدينة..

مضى أبو ذر إلى «الربذة» في جوف الصحراء، فبنى مسجداً، ووهبه عثمان بعض النياق والأموال، ومملوكاً يقوم بخدمته.

وأرسل معاوية أهل أبي ذر الذين خلفهم في دمشق، فلحقوا به في الربذة، فخرجوا ومعهم جراب ثقيل، فقال معاوية للناس معرضاً بأبي ذر، كأنما يريد أن يشوهه ويسقطه في عيونهم:

«انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا ما عنده؟!».

فقالت امرأة أبي ذر: «والله ما هو دينار ولا درهم! ولكنه كان إذا خرج عطاؤه ابتاع منه أشياء لحوائجنا».

وغضب عليٌّ وعدد من المهاجرين لما حل بأبي ذر.

وقالت بطانة الخليفة إن أبا ذر هو الذي اختار الخروج من المدينة، وقال آخرون، بل نفاه الخليفة قهراً إلى الربذة كما نفى غيره ممن أنكروا على بني أمية وعمال عثمان أنهم يكنزون الذهب والفضة، وفي الأمة فقراء! وممن أنكروا بطش هؤلاء العمال!!

أما أبو ذر فقال: «كنت في الشام، فاختلفت أنا ومعاوية في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله. قال معاوية إنها نزلت في أهل الكتاب. قلت: نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذلك خصام. فكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها. فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك! فذكرت ذلك لعثمان رضي الله عنه، فقال لي: إن شئت تنحيت فكنت قريباً. فذلك الذي أنزلني الربذة. ولو أمّروا علي عبداً حبشياً لسمعت وأطعت!»

امتثل أبو ذر لأمر الخليفة، فلما سار إلى الربذة، أمر الخليفة الناس ألا يخرجوا لوداعه، ولكن الناس خرجوا، فلم تر المدينة يوماً أكثر هلعاً وجزعاً من يوم خروج أبي ذر منها!..

وأمر علي بن أبي طالب أن يمتثلوا لأمر الخليفة فلا يخرج أحد منهم ليودع أبا ذر!

ووقف علي يشيع أبا ذر: «يا أبا ذر إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خفته عليهم، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وستعلم من الرابح غداً، والأكثر حسداً، لقد أرحلت عن الفناء (فناء الحرم النبوي حيث كان يحب أبو ذر أن يجلس ليعظ الناس)، وامتحنوك بالبلاء، والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً (سداً) ثم اتقى الله عز وجل، لجعل الله له منها مخرجاً، فلا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل».

وكان مع علي ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل، وصديقه عمار ابن ياسر.

وتحدث الآخرون مودعين، فرد أبو ذر عليهم قائلاً: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. بأبي وأمي هذه الوجوه، فإني إذ رأيتكم ذكرت بكم رسول الله ﷺ، وما لي بالمدينة شجن ولا سكن غيركم، وإنه ثقل على عثمان جواري بالمدينة كما ثقل على معاوية بالشام، فآلى أن يسيّرني إلى بلدة فطلبت إليه أن يكون ذلك إلى الكوفة، فزعم أنه يخاف أن أفسد الناس بالكوفة على أميرها أخيه لأمه الوليد بن عقبة، وآلى بالله أن يسيرني إلى بلدة لا أرى فيها أنيساً، ولا أسمع بها حسيساً. وإني والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما لي مع الله وحشة، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين».

ولقد أراد مروان أن يمنع علياً من توديع أبي ذر، فضرب علي كرّم الله وجهه بسوطه بين أذني راحلة مروان، فشكا إلى عثمان، فكلّم علياً. وعاتبه لأنه ودع أبا ذر. فرد على عتاب عثمان رضي الله عنه وسأله عما جعله يخرج أبا ذر من المدينة، فقال عثمان إنه يكذب، فرد علي بأنه لا يظن أن أحداً يكذب أبا ذر بعد قول رسول الله ﷺ فيه: «ما أقلت

الغبراء، ولا أظلت الخضراء، رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر»..

ثم استعبر علي وهو يقول حزيناً مشفقاً على أبي ذر: «لك الله يا أبا ذر!» إنه كما قال عنه الرسول يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده!.

فلما مات أبو ذر وحيداً في منفاه، بكاه علي والصحابة أحرّ بكاء. ولام عليٌّ فيه عثمان لوماً شديداً!

وشكا عثمان إلى بعض الصحابة من شدة عليٍّ معه، فأتوا علياً وفيهم زيد بن ثابت الأنصاري وهو من أصدقاء عثمان، ورجل يدعى المغيرة بن الأخنس وهو ابن عمة عثمان، فقال زيد بن ثابت الأنصاري لعليٍّ: «أما بعد فإن الله قد جعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ابن عمك ووالي هذه الأمة، فله عليك حقان: حق الولاية وحق القرابة، وقد شكا إلينا أنك ترد أمره عليه. وقد مشينا إليك نصيحة لك وكراهة أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما».

فقال علي: «والله ما أحب الاعتراض ولا الرد عليه، إلا أن يأبى حقاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلا الحق، والله لأكفّن عنه ما وسعني الكف».

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلاً وقاحاً: «إنك والله لتكفنّ عنه أو لنكفك عنه، فإنه أقدر عليك منك عليه، وإنما أرسل إليك هؤلاء القوم من المسلمين لتكون له الحجة عليك عندهم».

فقال علي: «أأنت تكُفّني؟ فوالله ما أعز الله أمراً أنت ناصره؟ اخرج أبعد الله نواك (دارك)، ثم اجهد جهدك، فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن بقيتم»!

لكم يحزن علي، ويسوؤه ما انتهى إليه ذو النورين من هذا الاستسلام لذوي قرباه!!

إنه لأوصل الصحابة للرحم.. هذه إحدى فضائله، ولكن أولي الأرحام ركبوا بها رقاب العباد.. واأسفاه على عثمان!!.. ولكنك مهما يكن من أمر يجب عليك يابن أبي طالب ألا تتخلى عنه!

إنك وحدك تكاد ترى خيوط مؤامرة يدبرها أعداء الإسلام، مستغلين في ذلك أخطاء ولاة الأمصار من أقرباء عثمان..!.. لكم روى لك عمار بن ياسر منذ عاد من مصر! .. كما روى لك آخرون عادوا من الكوفة والبصرة وجاؤوا من البادية ومن خراسان وبلاد ما بين النهرين..

يجب أن تبذل النصيحة له ويجب أن تنهض بما هو واجب عليك وحق لك، من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر!!..

واتخذ علي مكانه في المسجد حيث تعود أن يعلم الناس، ويفسر لهم القرآن، ويعظهم، ويدعوهم إلى الأخذ بكل ألوان المعارف، وإلى التفكر والتدبر..

فقال: «لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به»..

«إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه، وإنهما لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق».

«انهوا عن المنكر وتناهوا عنه، فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي».

«إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمَّهم الله بالعذاب، لما عمُّوا عاقر الناقة بالرضا».

«لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولَّى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم!».

وسمع علي وهو في المسجد أن عبد الرحمن بن عوف يشتكي

وجعاً، فذهب يعوده، فوجده يبكي بكاء شديداً وحوله عدد من الصحابة، وهو يقول: «إن مصعب بن عمير كان خيراً مني، توفي على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له ما يكفن به! وإن حمزة بن عبد المطلب كان خيراً مني لم نجد له كفناً! وإني أخشى أن أكون ممن عجلت له طيباته في حياته الدنيا. وأخاف أن أحبس عن أصحابي بكثرة مالي!».

وكان عبد الرحمن بن عوف قد كسب مالاً كثيراً في التجارة، وأصبح يملك الآلاف المؤلفة..

فلما رآه علي يبكي، أخذ يهون عليه، ويواسيه هو والصحابة الآخرون!..

فيم الجزع ولم البكاء خشية غضب الله، وقد أنفق الكثير من المال في سبيل الله، حتى لقد أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً من حر ماله!؟

وكم من مرة نزل للمسلمين عن نصف ماله؟.

ولقد تصدق لكل مقاتل بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار ذهباً، وكان عدتهم يومئذ مائة رجل!..

ما خوفه أن يكون كانزاً للمال، وهو الذي أنفق الكثير في سبيل الله ووسع على إخوانه المسلمين!!

لقد كان علي يضرب للناس مثلاً رجلاً غنياً ينفق في سبيل الله بأحد اثنين: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما.

والمسلمون يقارنون بين ابن عوف وأغنياء بني أمية ممن يكنزون، وبين عمال أبي بكر وعمر وبين هذا العامل أو ذاك من بني أمية، وما يريد الواحد منهم إلا أن يكون جباراً في الأرض!!

فلما اشتد النكير على عثمان لأنه يؤثر رهطه بالعطايا، ويوليهم الولايات، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن

لكل شيء آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة، قوم عيَّابون طعَّانون... أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد عبتم عليَّ أشياء، ونقمتم أموراً، قد أقررتم لابن الخطاب بمثلها، ولكنه قمعكم بلسانه، ووطأكم برجله، وضربكم بيده! ولنت لكم، وأوطأتكم كتفي فاجترأتم علي! ولم يجترىء أحد على أن يملأ بصره من عمر ولا على أن يشير بطرفه إليه! أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عدداً، وأقرب ناصراً!! لقد أخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه، ومنطقاً لم أنطق به! فكُفُّوا عني ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم! أتفقدون من حقوقكم شيئا!؟ فمالي لا أفعل في الفضل ما أريد؟! فلم كنت إماماً إذن؟!. أما والله ما أتيت الذي أتيت إلا وأنا أعرفه، ووالله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلي ولم يكونوا يختلفون فيه».

ثم قام مروان بن الحكم فقال: «إن شئتم حَكَّمنا والله بيننا وبينكم السيف!».

فقال له عثمان: «اسكت لاسكت. دعني وأصحابي! ما منطقك في هذا؟ ألم أقدم إليك ألا تنطق!؟».

فسكت مروان، ونزل عثمان عن المنبر، فاشتد قول الناس وعظم:

وتعاهد عشرة من كبار المهاجرين أن يكتبوا بمطالبهم وآرائهم كتاباً إلى عثمان، وحمل عمار الكتاب إلى عثمان وعنده مروان الذي أصبح لا يفارقه وجماعة من بني أمية.

فلما قرأ عثمان الكتاب، وفيه طلب تغيير عماله من بني أمية، وإعادة ما أقطعهم من أرض وما أعطاهم من عطايا إلى بيت المال، سأل عثمان عماراً عمن كتب معه هذا الكتاب؟».

فقال عمار: «نفر تفرقوا فَرَقاً منك!». فقال: «ولم اجترأت عليّ من دونهم؟ من هم». فقال عمار: «لا أخبرك!».

فقال مروان: «يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جَرّأ عليك الناس. وإنك إن قتلته اعتبر مَنْ وراءه».

فأمر عثمان بأن يضرب عمار.

فضربه مروان ومن معه من بني أمية حتى فتقوا بطنه.. فغشي عليه، فجروه حتى طرحوه على باب دار عثمان، وكان اليوم بارداً، والمطر ينهمر! وبقي عمار مغشياً عليه تحت المطر..

فأمرت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فأدخل منزلها.

وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر، قالوا له: «أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لنقتلن به رجلاً عظيماً من بني أمية!» يعنون عثمان نفسه!!

والتقى عثمان في المسجد بعلي، وكان معصوب الرأس يشكو وجعاً، قال له عثمان: «والله يا أبا الحسن ما أدري: أأشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟! فوالله لئن متّ ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك، لأني لا أجد منك خَلَفاً... فأنا منك كالابن العاق من أبيه: إن مات فجعه، وإن عاش عَقّه فإما سلم فنسالم، وإما حرب فنحارب! فلا تجعلني بين السماء والأرض، فإنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفاً، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً».

فقال علي: «إن فيما تكلمت به لجواباً، ولكني مشغول بوجعي. أقول كما قال العبد الصالح يعقوب: **﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾**».

ثم نصحه بأن يقصي مروان، ويعزل عماله، ويحاسبهم، ويسترد ما وهبهم بغير حق من الأموال والإقطاعات، ويعمل على إرضاء المسلمين فإن الفتنة أوشكت أن تطل بقرونها وأعداء الإسلام والدولة الفتية الجديدة يتربصون!!..

ثم قام رجل من الأنصار يسأل عثمان: «ما بال هؤلاء النفر من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون في سبيل الله؟! إنما هذا المال لمن غزا فيه، وقاتل عليه، إلا من كان من الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام».

فقال عثمان: «أستغفر الله وأتوب إليه. أيها الناس، يا أهل المدينة من كان له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرع فليلحق بضرعه! فإنا والله لا نعطي مال الله إلا لمن غزا في سبيله إلا من كان من شيوخ الصحابة».

فسأله رجل من المهاجرين: «فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم عليه الحدّ؟!».. كان يعني الوليد بن عقبة أمير الكوفة، فقد كان سكيراً، وقد صلى الصبح بالناس أربع ركعات وهو سكران، فلما نبهوه عربد عليهم بقوله: «إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم!».

فأمر عثمان به فأقيم عليه الحد، وجلد ثمانين جلدة، أخذا باجتهاد عليّ.

فلما عولج عمار من جراحاته، وخرج إلى الناس، جهر بنقد عثمان وعاب عليه أنه خصّ بني عمه وذوي قرباه من بني أمية بالإمارة على الولايات، دون الصحابة، وأنه ترك الشورى، فما يستشير أهل التقوى، ولا يستعملهم على أمر من أمور المسلمين، بل جعل ذلك كله لبني أمية وحدهم، واستغنى برأيه عن الشورى! ثم إنهُ يدرّ الأرزاق والضياع والأعطيات على أقوام بالمدينة ليسوا من الصحابة ولا من السابقين إلى الإسلام، أو أهل البلاء فيه، ولا هم من ذوي الحاجة، وفيهم الغلمان والأحداث، وكلهم من بني أمية! ثم إنه ترك مروان يبني القصور من مال المسلمين، ويغترف من بيت المال!!

واجتمع الناس حول عمار مؤيدين.

فأشار مروان على عثمان أن ينفي عماراً، فدعاه، وهدده إن تكلم بشيء من هذا بعدُ أن يخرجه من المدينة، كما خرج أبو ذر!

فشكا عمار إلى علي فذهب إلى عثمان فقال له: «يا عثمان! اتق الله فإنك سيَّرت رجلاً صالحاً من المسلمين، فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره».

فقال عثمان رضي الله عنه، وكان مروان ما انفك يوغر صدره على عليٍّ كرّم الله وجهه: «أنت أحق بالنفي منه!» فقال علي: «رم ذلك إن شئت!».

فعرف شيوخ المهاجرين والأنصار بما كان، فذهبوا إلى عثمان فقالوا: «إن كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته، فإن هذا شيء لا يسوغ، فكفّ عن عمار».

واشتد غضب الناس في الأمصار على الولاة، فجاءت وفود من مصر والكوفة والبصرة...

جاؤوا جميعاً في السلاح، واحتلوا ظاهر المدينة!

جاؤوا يشكون من أمرائهم أقارب عثمان ويطالبونه بعزلهم!

وتوجس عليٌّ خيفة مما يراه.. لئن حرك السخط الناس إن أعداء الإسلام سيندسون ليشعلوا الفتنة.. ومن يدري؟! إن الذين تآمروا على عمر فقتلوه لم يعرفهم أحد قط!!

وأتى عثمان علياً في داره يستنجد به ويستغيثه، ويطالبه أن يرد وفود الأمصار وهم من أهل التقوى، وطلاب العدل، والمساكين، ووجهاء البلاد وفقرائها.

وكان عثمان يعرف مكانة عليٍّ في قلوبهم، وتعلق المظلومين والمساكين به. ويعرف أنه كما وصفه الرسول: إمام المتقين والمساكين والزاهدين.

فقال علي: «يا أمير المؤمنين على أي شيء أردُّهم؟».

قال عثمان: «على أن أَصِيرَ إلى ما تراه لي وتشير عليّ به».

فركب إليهم علي ومعه بعض الصحابة، وكلمهم في الرجوع إلى بلادهم ووعدهم أن يروا من الخليفة ما يرضي الله ورسوله والمتقين. وأنه سيعزل الولاة الظَّلَمَةَ، ويُقصي مروان مستشار السوء، ووعدهم أن ينعموا بعدل عثمان وتقواه وقنوته!

وأسرع عليٌّ يبشر عثمان بأن وفود الأمصار وعدوا بالرجوع إلى أمصارهم بشرط أن يغير الأمراء المستبدين، ويقصي مروان، ويشرف بنفسه على إقامة العدل بين الناس.

فسُرَّ عثمان، وتعهد بأنه سيفعل كل ما يشير به عَلِيٌّ.

فقال علي: «يا أمير المؤمنين تكلم كلاماً يسمعه الناس منك، ويشهدون عليك، ويشهد على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تَمَخَّضَت عليك».

فقال: «يا علي، إن لم أفعل أكن قد قطعت رحمك، واستخففت بحقك».

فذهب عثمان إلى المسجد الجامع واعتلى المنبر وقال: «أيها الناس، أنا أول من اتعظ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا رأيهم، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأَسْتَنَّ بسنة العبد، ولأذلن ذل العبد، وما عن الله مذهب إلا إليه، فوالله لأعطينكم الرضا، ولأنحينّ مروان وذويه، ولا أحتجب عنكم».

فهاجت الأشجان، وخفقت القلوب بأشواق العدل والتراحم والأخوة وبكل ما يعلقون من آمال على هذا الشيخ الجليل، القانت، الورع، الذي يسمى في الملأ الأعلى ذا النورين!

ورق عليٌّ، ورق الناس، فبكوا جميعاً.. وبكى الشيخ حتى اخضلت لحيته!

ولكنه عاد إلى منزله، فوجد فيه مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، ونفراً من بني أمية، فقال مروان: «يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟» فقالت امرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة (وهي من أسرة نصرانية كبيرة في الشام دخلت في الإسلام حديثاً): «بل اسكت يا مروان! إنهم أثموه، فقال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها».

وكانت في الحق قد فرحت بما انتهت إليه خطة عليّ من تصالح بين أمير المؤمنين ووفود الأمصار..

فقال لها مروان: «ما أنت وذاك؟ فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ».

فقالت: «مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء. إنك لتكذب على أبي، ولكن والله لولا أن أباك عم أمير المؤمنين، وأنه يناله غمه، لأخبرتك عنه بما لم أكذب فيه». وكانت تعرف أن رسول الله قد طرد الحكم أبا مروان من المدينة ولعنه، فأعرض عنها مروان وقال: «يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟». قال: «تكلم».

قال: «بأبي وأمي يا أمير المؤمنين! والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع، فكنتُ أول من رضي بها، وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ السيل الزبى. والله لإقامة على خطيئةٍ يستغفر منها. أحسن من توبةٍ تخوّف عليها، وإن شئت تقر بالتوبة، ولا تقر بالخطيئة وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس فاخرج إليهم». فقال عثمان: «فاخرج إليهم وكلمهم، فإني أستحي أن أكلمهم!».

فخرج مروان إلى الباب، والناس يركب بعضهم بعضاً، وهم في فرح مما وعدهم به أمير المؤمنين أن يرضيهم وأن ينحي عنه مروان، ولا يحتجب عنهم.

يا لعثمان القانت التقي ذي النورين من مروان وعصبته، وكيدهم وطموحهم وأطماعهم!!

قال مروان للناس: «ما شأنكم به؟ قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه إلا من أريد. ارجعوا إلى منازلكم، فإن يكن لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه، وإلا قَرَّ في بيته، أم إنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟! اخرجوا عنا. والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غبّ رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا»!.

فرجع الناس.. مذهولين من الصدمة، مجانين من الغيظ..

وذهبوا إلى عليٍّ فأخبروه بما قاله مروان!

فسأل عليٌّ بعض الثقات من المهاجرين والأنصار.. سألهم واحداً بعد واحد عن مقالة مروان بعد خطبة عثمان!.

فلم يختلفوا على ما قاله مروان، وجعلوا يقولون: «قَبَّح الله مروان! خرج عثمان إلى الناس فأعطاهم الرضا، وبكى على المنبر وبكى الناس حتى نظرنا إلى لحية عثمان مخضلة من الدموع. ووعدنا ألا يحتجب منا وأن يعطينا الرضا، فلما عاد إلى بيته لم يزل مروان به حتى فتله عن رأيه وأزاله عما كان يريد!».

فوقف عليٌّ مغضباً حائراً يقول للناس: «أي عباد الله. يا للمسلمين! إني إن قعدت في بيتي قال لي أمير المؤمنين تركتني وقربتي وحقي، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد، يلعب به مروان. فصار سيِّقة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن، وصحبة رسول الله!».

ومكث عثمان في داره ثلاثة أيام ما خرج استحياء من الناس.

مضى إليه علي، فقال له: «أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك، وبخدعك عن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد

حيث يشاء ربه، ويسار به!! والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه! وأيم الله إني لأراه يوردك ثم لا يصدرك! وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك: أذهبت شرفك وغُلبت على أمرك ورأيك!».

وخرج محزوناً يكاد يبكي أسفاً على عثمان، وما جره إليه مروان!!

فلما خرج من عند عثمان دخلت عليه امرأته نائلة فقالت: «قد سمعت قول علي لك.. وليس يعاودك! وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء».

قال: «فما أصنع؟». قالت: «تتقي الله، وتتبع سنة صاحبيك، فإنك متى أطعت مروان قَتَلَكَ. ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكانة منك، فأرسلْ إلى عليٍّ فاستصلحه، فإن له قرابة، وهو لا يعصى».

فأرسل عثمان إلى علي فقال لرسول عثمان: «قد أعلمته أني غير عائد».

فلما بلغ مروان قول نائلة فيه قال لها: «يا بنة الفرافصة!» فقال عثمان: «لا تسؤها بحرف فأسوي وجهك! فهي والله أنصح لي منك».

فانصرف مروان، وذهب عثمان إلى منزل عليٍّ يسأله النصح!

فقال علي: «أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ﷺ، وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك، يخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم!؟ والله ما أنا عائد إليك».

فقال عثمان: «قطعت رحمي، خذلتني وجَرَّأت الناس عليّ!».

قال علي: «والله إني لأذبُّ عنك، بل أنا لأكثر الناس ذبًّا عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضاً، جاء مروان بأخرى، فسمعت قوله وتركت قولي واستدخلت مروان».

واضطرم السخط على عثمان رضي الله عنه..

وأخذ مروان ورهط بني أمية وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت يجادلون الناس عن عثمان.

فقالوا إن علياً يعيب على عثمان أنه ترك أهل التقوى من الصحابة وولى أقاربه، وعمر صنع هذا، فولى أهل الذكاء لا أهل التقوى فالدولات لا تقوم على التقوى والورع، بل على الدهاء وحسن السياسة!..

ورد عليهم الناس بأن عمر كان يقمع الولاة ولا يسلطهم على الرقاب.. وأن من عزلهم عثمان من الصحابة هم أهل تقوى ومقدرة، وهم قدوة!

وأن عمر كان يقول لعماله على الأمصار: «لست أدع أحدكم يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خَدّه على الأرض، وأضع قدمي على الخدِّ الآخر، حتى يذعن بالحق، وإني بعد شدتي تلك لأضع خدي على الأرض لأهل العفاف». ولهذا هابه عماله!. أما عثمان فقد استخف به عماله، ولم يرعوا له وقاراً، وكلهم من ذوي قرباه، فظلموا الرعية، وظلموا عثمان، واستفزوا السخط على الخليفة المظلوم، وجعلوا لأعداء الإسلام سبيلاً على أمير المؤمنين!

قال بنو أمية: إن علياً وأصحابه يعيبون عليهم الترف، وما من شيء في الإسلام يلزمهم الزهد الذي ينتهجه علي، والذي انتهجه عمر، والذي ينادي به أبو ذر وسلمان وعمار. وابن مسعود، فقد تغير الزمان. وحسبهم أن الخليفة نفسه زاهد، يأكل الطعام الخشن، وإن أطعمنا خير الطعام!

والذين يدعون إلى الزهد والمال موفور إنما ينسون قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا**

وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقوله تعالى: **﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا من الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**.

أما الغضب لأبي ذر، واتهام عثمان بأنه هو المسؤول عن موته، فقد قال أبو ذر نفسه: «والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ذلك ورأيت ذلك خيراً لي، ولو أنه سَيَّرني ما بين الأفق إلى الأفق، أو لو أنه ردني إلى منزلي، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيراً لي»..

ورد عليهم معارضوهم بقولهم: إنه لا حق لأحد في أن يملك ملكاً أو يعيش مترفاً مستمتعاً، إذا كان في الأمة من يعانون من الحاجة مسلمين كانوا أم ذميين، وحينئذ يجب على من يملك أن يبذل ماله لإصلاح حال الناس... وهو إنفاق واجب في سبيل الله!

وقال بنو أمية إنه لا حق لعليٍّ فيما يعيبه هو وصحبه على عثمان من قطعه عطاء ابن مسعود من بيت المال، لأنه رأى في توزيع المال رأي علي... إن لوم الخليفة على هذا لا حق لهم فيه، ذلك أن الخليفة قد ندم على فعلته، بل لقد ذهب يعود ابن مسعود وهو مريض، واستشفع عنده امرأته ليعفو عنه، فلما مات بكاه عثمان وقال: «دفنتم والله خير من بقي من صحابة رسول الله».

ثم أن ابن مسعود نفسه عفا عن عثمان، حتى أنه طرد بعض أهل العراق من مجلسه، لما جاؤوه يحدثونه عن الثورة على عثمان فذكروا القتل، وقال لهم: «أما إنكم إن قتلتموه، لن تصيبوا مثله!».

أما عن إيثار عثمان لمروان بن الحكم، بعد أن لعنه الرسول وهو في صلب أبيه، فإن عثمان كان قد تشفع للحكم عند الرسول ﷺ ووعده بالعفو عنه، وعلى أيِّ حال، فقد زالت أسباب الغضب عليه، فأعاد عثمان ابنه مروان إلى المدينة!..

وسخر الناس من هذا الكلام!!

وزاد بنو أمية قولهم إن عثمان ما ضرب عمار بن ياسر وهو من خير الصحابة، إلا لأنه خالفه في الرأي، وأوشك أن يفتن الناس!!.

فما أراد به الأذى بل ضربه ضرب التأديب، غير أن الضاربين اشتدوا وبالغوا حتى فتقوا بطنه فلا تثريب على الخليفة نفسه!

وعمار على الرغم من ذلك فقد عفا عن عثمان، كما عفا من قبل أبو ذر، حتى أن الرجلين كليهما، عنفا كل من كان يكلمهم في الثورة على عثمان!

واستمرت المدينة تتجادل حول عثمان، وعثمان لا يكاد يرى إلا خائفاً..

وعليٌّ ما زال معتزلاً الناس أسفاً، ولا يشترك فيما يدور من جدال حول عثمان!

ومر يومان، اضطرمت فيهما المدينة بالصخب والخلاف.

فرأى عثمان أن يدعو إليه زعماء الأمصار الساخطين على أمرائهم، وهؤلاء الأمراء، وأرسل إلى علي، فقال علي للرسول إنه لن يعود فيرى عثمان، حتى يقصي عنه مروان، فقد غلبه على حكمته ورأيه، فأصبح الناس طراً لا يأمنون أن يعدهم الخليفة موعدة فيها رضاهم، حتى يأتي ابن الحكم، فيوسوس في صدره، ويظل به حتى يحمله على تغيير رأيه، ثم يرد عنه محبيه وعارفي فضله، وأصحاب الرجاء في قنوته وتقواه، رداً قبيحاً منكراً!

الفصل التاسع

واثارات عثمان...!

كتب عثمان إلى أهل الأمصار رسائل قال فيها: «أما بعد، فقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً منكم يشتمون، وآخرون يضربون، فيا من ضرب سراً، ويا من ادعى شيئاً من ذلك، وافوني في موسم الحج، فليأخذ كل بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين».

فلما علم علي بهذه الرسائل جاشت محبته لعثمان وللحق، فبكى، ودعا الله أن يحمي عثمان، وأن يقصي عنه حاشية السوء!

ولما قرىء هذا الكلام في الأمصار، أبكى الناس... وتعاهدوا على أن يتوافوا إلى المدينة في الموسم!

وبعث عثمان إلى عماله ليشاورهم في الأمر، فقدموا عليه، وأدخل معهم في المشورة مروان بن الحكم، وعمرو بن العاص.. فقال لعماله: «ويحكم! ما هذه الشكاية؟ وما هذه الإذاعة؟ والله إني لأخاف أن يصدق ما يقال عنكم، وما يعصب (يلحق) هذا إلا بي، وما يتحمله غيري»!

فسألوه مستنكرين ألم يبعث إليهم من قبل من يحقق في هذه الأقاويل فهل وجدوا مؤاخذة واحدة؟!

ثم قالوا عن أصحاب الشكاوى واللائمين: «لا والله ما صدقوا، ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً»!.

وصدق عثمان أن الشاكين يتقولون على عماله الأقاويل! فقال لهم: «أشيروا عليّ، إن لكل أمير وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونصحائي، وأهل ثقتي، وقد قال لي أقوام: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ارتكبت أموراً عظاماً. فاتق الله! لقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم».

قال مروان: «أرى يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك، ولا تكون همة أحدهم إلا في نفسه، وما هو فيه من دَبَر (مرض) دابته، وقمل فروته».

وقال سعيد بن العاص: «احسم عنك الداء فاقطع عنك الذي تخاف، فإن لكل قوم قادة، متى يهلك قادتهم تفرق الناس، ولا يجتمع لهم أمر».

فقال عثمان: «هذا هو الرأي لولا ما فيه!».

وقال معاوية: «أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد، فيكفيك كل رجل منهم ما قِبَلَه وأكفيك أنا أهل الشام».

وقال رابع المستشارين: «إن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال، تعطف عليك قلوبهم».

وقال عمرو بن العاص: «أرى أنك قد لنت للناس، وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريق صاحبيك أبي بكر وعمر فتشتد في مواضع الشدة وتلين في مواضع اللين».

وعاد سعيد بن العاص يقول: «بل اقتل هؤلاء الذين تخرج هذه الأقاويل من عندهم»!

وأيده معاوية..

ولكن عثمان رضي الله عنه قال: «لا والله، لا أكون أول من يخلف الرسول في مدينته بسفك الدماء».

وشعر عمرو بن العاص أن رجالاً على باب عثمان يتسمعون ويتنصتون، فقام عمرو خطيباً بصوت جهير: «يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فوليت عليهم عمال سوء، فزاغوا وزغت، فاعتدل أو اعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً».

فغضب عثمان وقال له: «قَمُلَتْ واللَّهُ جبَّتُك منذ عزلتك عن العمل».

فسكت عمرو حتى تفرقوا، فقال: «والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم عليّ من ذلك، ولكني علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي، فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً، وأدفع عنك شراً»!..

وكان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولّى مكانه أخاه من الرضاعة ابن أبي سرح، وظل عثمان يجزل العطاء لعمرو، وظل عمرو يحلم بأن يعود حاكماً لمصر!..

تعاهدت الوفود ألا تبرح المدينة حتى يعطيهم الخليفة موثقاً من الله أن يغيّر سياسته!

وشعر علي بالنار المضطرمة توشك أن تلتهم كل شيء، والخليفة مطمئن إلى البطانة، والبطانة بسوء عملها تؤجج النار!!. لم يعد الوقت صالحاً للصمت بعد، ومهما يكن غضبه من الخليفة فليعاود التحذير.

فقام عليٌّ إلى عثمان، عسى أن يستطيع أن يرده إلى سياسة تجمع شمل الناس، ويستخلص حكمته ورأيه وتقواه من سيطرة مروان الذي أصبح لا يبرح الخليفة ساعة من ليل أو نهار، حتى لقد جهرت بالشكوى منه زوجته نائلة بنت الفرافصة!

ومضى علي فنصح عثمان أن يقصي عنه مروان كما وعد الناس من قبل وأن يعزل عماله الذين اشتكاهم أهل الأمصار كما وعدهم، فما يصلح هؤلاء العمال لولاية أمر المسلمين، وما تولوا الأمر إلا لأنهم أقرباؤه!..

فقال عثمان: «وهم أقرباؤك أيضاً»!

قال علي: «نعم. إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم».

وظل علي يحاور عثمان، ويناشده أن يجيب مطالب المظلومين من أهل الأمصار، ويبعد عنه حاشية السوء، وشرح له الخطر الذي يوشك أن ينطحهم بقرنيه، والبلاء الذي سينقضُّ ويعمُّ الجميع إن لم يغير عثمان سياسته!!

ولكن عثمان لم يستجب له. فقال علي، وقلبه يكاد يتمزق من الأسف والإشفاق على عثمان: «إني أحذرك الله وسطواته ونقماته، فإن عذابه شديد أليم! وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها وتتركهم شيعاً، لا يبصرون الحق لِعُلُوِّ الباطل، يموجون فيه موجاً، ويمرجون فيه مرجاً»!

وخرج علي كرّم الله وجهه من عند عثمان رضي الله عنه، وكلاهما دامع العينين!! فلا علي كرّم الله وجهه بالقادر على إقناع عثمان رضي الله عنه، فيستنقذه بمشورته، ولا عثمان بمستطيع أن يتخلى عن ذوي قرباه من بني أمية الذين يتخيلون أن عثمان يحابيهم، ولا يدركون أنه إنما يبرهم امتثالاً لأوامر الله ورسوله بالبر بذوي القربى!! وهكذا اقتنصوه من فضيلته، وكان عثمان كما وصفه علي أوصل الناس للرحم.. وما زال بنو أمية بعثمان حتى أقنعوه أن الناس يستخفون به لحيائه ورقته، وإذن فيجب أن يشتد ليسترد هيبة الملك!!.. وما كان عثمان ملكاً بل إماماً!!

عثمان إمام يريد أن يحكم بورع الخلافة، وبالقوة الحازمة التي تنبع من التقوى وحسن الأسوة، لا بالبطش والسطوة والغلبة التي أتت بنيان الفرس والروم من القواعد، فانهارت الدولتان أمام أول زحف يدعو إلى العدل والحرية!!

ولكن إلحاح بني أمية على عثمان دفعه إلى اتخاذ شرطة، وعين رئيساً لها من بني أمية، وأبقى صاحبُ الشرطة على النُّظم التي خلفها الرومان في مصر والشام، وتركها الفرس في العراق وبلاد ما وراء النهرين..

فكان صاحب الشرطة غولاً مخيفاً يرهب الناس، وجعل همه حماية النظام السياسي، فضرب بعض الصحابة، وسجن آخرين حتى ماتوا، وأرهب المعارضين، ونفاهم من الأرض، فألهب هذا كله مشاعر السخط على عثمان المظلوم، وعجّل بانفجار الكارثة!!

ولكن علياً كرّم الله وجهه استطاع على الرغم من سلطان مروان على عثمان رضي الله عنه، أن يقنعه بلقاء وفد مصر، فهو أكثر وفود الأمصار سماحة واستعداداً لتبادل الرأي، وكان عثمان يخشى هؤلاء المصريين، فقد وسوس في صدره مستشارو السوء، أن هذا الوفد ممن فَتَنَهم عمار خلال إقامته في مصر فملأ قلوبهم ضغناً على عثمان!

وخرج عثمان مع عليٍّ رضي الله عنهما إلى وفد مصر، وقد جاء معهم نفر من الصحابة الذين يعيشون في مصر ونزلوا خارج المدينة، امتثالاً لرأي عليٍّ فقد رآهم في عدة الحرب، وهم عدة مئات، فخشي أن يروعوا المدينة، وخاف الغليان!

ودعاهم عثمان إلى المدينة ليلقوه في المسجد الجامع، فوجدوا في المسجد بعض الصحابة فشكوا إليهم ما صنعه ابن أبي سرح عامل عثمان على مصر. كانوا قد شكوه إلى عثمان في زيارتهم السابقة، فوعدهم

بعزله، وأرسل إليه كتاباً مع نفر منهم، فضرب ابن أبي سرح من شكوه إلى عثمان ضرباً أليماً، وعذبهم، أما صاحبهم الذي قدم إليه كتاب عثمان بالعزل، فقد قتله أبشع قتلة!!

ورأى كبار الصحابة فيما فعله ابن أبي سرح استهانة بأحكام الإسلام وبالخلافة، وإزراء على مقام الإمامة، فقام طلحة، فتكلم عن عثمان كلاماً شديداً، واتهمه بأنه حط من هيبة الخلافة والإمامة، في لينه لذوي قرباه، وعلمت أم المؤمنين عائشة بما حدث فأرسلت إلى عثمان: «لقد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل، وهو قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عامِلِك».

ثم إن علياً كرّم الله وجهه انتحى بعثمان رضي الله عنه ينصحه، فقال «إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً، فاعزله عنهم واقضِ بينهم، فإن وجب لهم عليه حق فأنصفهم منه».

وأثّم عليٌّ حاكم مصر، لأنه يبطش بالقبط وهم في ذمة الله ورسوله، وقد أوصى الرسول بهم خيراً!!..

فأعلن عثمان أنه يعزل أخاه من الرضاعة ابن أبي سرح عن ولاية مصر، أما القصاص منه، وقتله بالرجل الذي قتله من أهل مصر، فهو يسألهم العفو ويطالب أولياء الدم أن يرضوا بالدية.

وفرض من ماله دية كبيرة. فوعدوه أن يحدثوا أولياء دم القتيل حين يعودون إلى مصر.

وما زال عثمان بالمصريين حتى طابوا نفساً..

كل هذا ومروان يرى ويسمع، وقد دبر أمراً: فهؤلاء المصريون أصحاب قلوب طيبة، وإذن فمن السهل خداعهم!!

وصارح المصريون عثمان بما يعيبون عليه، من إيثار لذوي قرباه من بني أمية، وإغداقه عليهم، وهو القانت الورع، حتى لقد عزل كبار

الصحابة وأهل الرأي، وولى مكانهم أحداثاً من بني أمية!

ثم أنه خصص كثيراً من الأرض للمراعي، وما ترعى فيها غير دوابه هو، ودواب بني أمية!

فقال لهم إنه لا يملك إلا راحلتين، وأن عمر قد خصص هذه المراعي لإبل الصدقة، فلما زادت الإبل، زاد هو في مساحة المراعي.

ثم قالوا له تذكر الآية الكريمة من السورة التاسعة (يونس): **﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾**. وقالوا: «نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ».

وكانوا يعنون منع بني أمية من أعطيات لا يستحقونها، فوافق عثمان، استرد مبالغ كبيرة كان قد منحها منذ لحظات لبعض بني أمية، ومنهم مروان!

وقال لهم عثمان: «**﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾**. أستغفر الله وأتوب إليه». ثم قال: «اختاروا رجلاً أوليه عليكم». فقالوا: «محمد بن أبي بكر».

ووافق عثمان عن طيب خاطر.

وفاضت دموع أهل مصر من التأثر لرقة عثمان، ودهمه الشجن وبكى الجميع!..

وأعطاه وفد مصر موثقاً من الله ألا يشقوا عليه عصا الطاعة، وألا يفارقوا الجماعة، وأعطاهم موثقاً من الله أن يعمل ما يرضيهم. وقال: «إني ما رأيت والله وفداً في الأرض هم خير من هذا الوفد من أهل مصر»!

ورضي أهل مصر، ودعوا الله أن يوفق عثمان، وأن يبعد عنه بطانة السوء.

وعلمت وفود الأمصار بما كان بين الخليفة ووفد مصر، وخرج محمد بن أبي بكر مع وفد مصر، ومعه عهد عثمان بتوليته وعزل ابن أبي سرح، وأرسل عثمان معهم نفراً من كبار المهاجرين والأنصار ليحققوا فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر وليسترضوا أهل الذمة الذين ظلمهم من قبل، ولينظروا إن كان أولياء دم الرجل الذي قتله يعفون ويكتفون بالدية، أم يتمسكون بالقصاص، فإن تمسكوا وجب على محمد بن أبي بكر أن يقيم حد الله: النفس بالنفس!.. ولكم في القصاص حياة..

حتى إذا بعدوا مسيرة ثلاث ليال عن المدينة، إذا هم بغلام أسود على بعير يتعرض لهم ثم يتركهم، ثم يرجع إليهم، قالوا للغلام: «مالك؟ إن لك لأمراً فما شأنك؟ كأنك طالب أو هارب!» قال لهم: «أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر» فأشاروا إلى محمد بن أبي بكر وقالوا: «هذا عامل مصر معنا». قال: «ليس هذا أريد». فأخبروا أميرهم الجديد محمد بن أبي بكر بأمر الغلام. فطلبه، فجاؤوه به، فقال له محمد: «من أنت؟». فاضطرب الفتى وتخبط فمرة يقول: «أنا غلام مروان» ومرة يقول: «أنا غلام أمير المؤمنين». وعرفه بعض الصحابة فقالوا: «إنه غلام عثمان». فسأله محمد: «إلى من أرسلك؟» قال: «إلى عامل مصر» قال: «بماذا؟» قال: «برسالة». قال: «أما معك كتاب؟» قال «لا» ففتشوه، فلم يجدوا معه كتاباً، ووجدوا معه قصبة فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا القصبة فإذا فيها كتاب ملفوف إلى عبد الله بن أبي سرح!!

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فقرأه فإذا فيه: «إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه، فاقتل محمد بن أبي بكر، واصلب من معه، أو قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف، حتى يهلكوا وابق على عملك، وقر فيه حتى يأتيك رأيي».

وعلى الكتاب خاتم عثمان.. وكان نقش خاتمه: «آمنت بالله مخلصاً»، و «لتصبرن أو لتذمن».

فلما رأوا الكتاب، وقرؤوه ملياً، روعوا به، وعرفوا فيه خط مروان ابن الحكم كاتب عثمان أمير المؤمنين.

قدموا المدينة جميعاً، مذهولين كأنما سلبت عقولهم، لا يدرون ما يستقبلون من أمرهم، وجاؤوا علياً مع الصباح، فرآهم يتطاير الشرر من عيونهم، وعلى صفحات الوجوه شر مستطير، فقال لهم: «ما ردكم بعد ذهابكم؟ ارجعوا إلى بلادكم صبحكم الله».

فقالوا: «ألم تر عدو الله ماذا كتب فينا؟». فنهرهم عليٌّ، وقال لهم: «إن عثمان ما كان عدو الله، وما بقي على الأرض اليوم من هو أتقى من عثمان!».

فأخبروه بقصة غلام عثمان، وقدموا له كتاب عثمان إلى ابن أبي سرح.

وعادوا يلحون على عليٍّ أن يقوم معهم إلى عثمان فقال: «لا والله لا أقوم معكم».

وعندما كان وفد مصر يكلم علياً، أقبل وفد الكوفة ووفد البصرة.. وجاءت الأعراب من البوادي..

رجعوا جميعاً إلى المدينة كأنما كانوا على ميعاد!

فقال علي: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهلَ البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل حتى رجعتم؟! هذا أمر والله بُيِّتَ بليل»! فقالوا: «ضع الأمر كيف شئت. لا حاجة لنا في هذا الرجل، فليعتزلنا».

وذكروا القتل أمام علي، ففزع، وزجرهم زجراً عنيفاً، وأقسم لهم أنه سيقاتلهم دفاعاً عن حياة عثمان.

وأحس علي بأن ثمة مؤامرة كاملة، وأن هناك خيوطاً تربط الساخطين في كل الأمصار.. لعله ليس السخط وحده، فلا ريب أن هناك من يستثمر هذا السخط ليشعل الفتنة!.. وشعر بأن الصحابة الذين جهروا بلوم عثمان قد جرأوا عليه الثائرين!!

وفكر علي كرم الله وجهه في عمرو بن العاص.!

ذلك أن عمرو بن العاص لم ينس لعثمان أنه عزله، وكان له ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحته!

فكان يأتي علياً مرة يحرضه على عثمان، فينهره علي، فيأتي الزبير، ويأتي طلحة فيؤلبهما على عثمان، ويعترض حجاج بيت الله والمعتمرين فيكلمهم بما أحدث عثمان!. فقال له عثمان: «أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر؟» فقال عمرو: «إن كثيراً مما ينقله الناس إليك باطل! فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك». قال عثمان: «والله لقد استعملتك على ظَلَعِك وكثرة القالة فيك». فقال عمرو: «قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب، ففارقني وهو عني راض». قال عثمان: «أنا والله لو أخذتك بما أخذك به عمر من شدة لاستقمت لي، ولكني لنت لك فاجترأت علي!».

وكان عمر قد رد إلى بيت المال نصف مال عمرو..!

فخرج من عند عثمان إلى فلسطين، فأقام في قصر له في إحدى ضياعه مما أقطعه عثمان!

وانتظر في قصره يقول: «العجب ما يأتينا عن ابن عفان!».

ذهب وفد مصر إلى عثمان فقالوا له: «خرجنا من مصر نريد قتلك فردنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، وضمن لنا

النزوع عما تكلمنا فيه، قابلتنا وأجبتنا إلى ما أردنا، واستعملت علينا محمد بن أبي بكر الذي اخترناه، فرجعنا إلى بلادنا راضين ندعو لك، وبعد مسيرة ثلاثة أيام رأينا في الطريق غلامك وكتابك بخط كاتبك وعليه خاتمك تأمر فيه ابن أبي سرح بقتلنا!!». فقال: «ما كتبت هذا ولا أرسلت أحداً». قالوا: «بل فعلت، وهذا هو غلامك وجَمَلُك، وخاتمك». قال: «قد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد ينقش الخاتم على الخاتم وغلامى انطلق بغير علمي، وجملي أخذه من الدار بغير أمري». فقالوا: «بل نقضت العهد والميثاق فأحل الله دمك». فقال: «إنما هما اثنتان، أن تُقيموا عليَّ رجلين من المسلمين يشهدان أنى كتبت هذا الكتاب، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت».

فطلبوا منه أن يسلمهم الذي زوّر عليه الكتاب: مروان بن الحكم.

فاستمهلهم حتى يشاور علياً، وذهبوا إلى خيامهم خارج المدينة!

وفزع عثمان إلى علي فدخل عليه بيته وقال: «يابن عم، إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة، لي حق عظيم عليك، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً، وإنهم يسمعون منك، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عني». فقال علي: «علام أردهم؟» قال: «على أن أصير إلى ما أشرت به علي ورأيته لي. ولست أخرج من يديك». فقال علي: «إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة! ثم أخرج فيكلمك سواي! إن ذلك كله فعل مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومعاوية وعامر بن عقبة أطعتهم وعصيتني». قال عثمان: «فإني أعصيهم وأطيعك».

وروى أهل مصر ما كان من أمرهم وأمر عثمان لأهل المدينة، فانضم أهل المدينة إلى وفود الأمصار، وشددوا التكير على عثمان.

وأقبل معاوية على بعض الصحابة فقال لهم: «يا معشر الصحابة، أوصيكم بشيخي فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجلاً». والتفت إلى عمار فقال: «يا عمار بن ياسر، إن بالشام مائة ألف فارس، يأخذون العطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون غير العطاء، لا يعرفون علياً ولا قرابته، ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون سعداً ولا دعوته، فإياك يا عمار أن تقعد غداً في فتنة لا تنجلي، فيقال هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي!».

فعنف علي كرم الله وجهه معاوية على ما قال، وتشادًا.

وذهب معاوية إلى عثمان فسأله: «ما ترى يا معاوية فإن هؤلاء المهاجرين قد طال فيهم مقامي؟ استعجلوا القدر». فقال معاوية: «معي ثلة من جند الشام فالرأي أن تأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم!» فقال عثمان: «سبحان الله، أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه، ولا ذنب ركبوه!؟». قال معاوية: «فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك!». قال عثمان: «لا أكونن أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بإهراق الدماء». قال معاوية: «فاقبل مني أن أرسل لك أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام يكونون لك ردءاً، وبين يديك يداً». قال عثمان: «أرزقهم من أين؟». قال: «من بيت مال المسلمين». قال عثمان: «وأروع بهم جيران الرسول؟ لا فعلت هذا». قال: «ففرق عنك المهاجرين فلا يجتمع اثنان منهم ببلد واحد، واضرب عليهم البعوث والعيون حتى يكون دَبَر (أي مرض) بعير أحدهم أهم عليه من صلاته». فقال عثمان: «سبحان الله! شيوخ الصحابة وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم، وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟! لا أفعل هذا». فقال معاوية: «فاجعل لي الطلب بدمك إن قُتِلْت». قال عثمان: «نعم هذه لك، إن قتلت».

ومضى معاوية إلى الشام، والمدينة كلها تغلي بالسخط!

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة النصوح، ويحتجون، ويقسمون عليه بالله أن يعطيهم حق الله فإن لم يفعل قتلوه!

هان عليهم الخليفة المظلوم، فما من أحد يخاطبه إلا قدم بين يدي طلبه، تهديداً بالقتل!!

وأرسل إليه وفد مصر من يقولون له: «ما أنت إلا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققت القتل لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقاً فقد استحققت الخلع لضعفك عن هذا الأمر، وغفلتك، وخبث بطانتك، ولا نترك هذا الأمر بيد من يُقْطَع الأمر دونه!».

فقال: «لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله، ولكني أتوب». قالوا: «قد رأيناك تتوب، ثم تعود، ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك، أو تلحق أرواحنا بالله، وإن منعك أهلك وأصحابك قاتلناهم». فقال لهم: أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلي من ذلك، وأما قتالكم من يدافع عني فإني لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتلكم فبغير أمري».

وكان عليٌّ حاضراً، فلما رأى أصواتهم ترتفع في وجه عثمان وهم يشغبون عليه بالتهديد ولا يرعون وقاراً لمكانة عثمان وقنوته وشيخوخته، قال لهم: «عثمان بن عفان لا يكذب، إنه ذو النورين! والله إنه لصادق».

ثم قام علي مغضباً فأخرج الناس، وخرج عائداً هو إلى داره فلزمها.. وعادوا هم إلى خيامهم في ظاهر المدينة.

أصبح أهل المدينة وقد لزموا بيوتهم، فما يخرج أحد منهم إلا حاملاً سيفه. ويتداعى الكل على دار عثمان يطالبونه بأن يخلع نفسه.

واستشار عثمان بطانته، فإشار عليه مروان أن يستنجد بعماله على الأمصار ليرسلوا إليه مدداً؛ وخاصة معاوية، واقترح مروان على الخليفة

أن يرسل إلى علي بن أبي طالب فلا يدعه حتى يرد عنه الناس، ويعدهم بأن الخليفة سيعطيهم ما يريدون، ثم يطاولهم الخليفة ويماطلهم، إلى أن يأتي المدد من خَيل الشام وسائر الأمصار!

فقال عثمان: «إنهم لا يقبلون التعلل، قد كان مني في المرة الأولى ما كان».

فقال مروان: «أعطهم ما سألوك، وطاولهم ما طاولوك. فإنهم قوم بغوا عليك، ولا عهد لهم».

فدعا عثمان علياً وفي عزمه أن يرضي الناس، لا أن يطاولهم ويماطلهم كما أشار مروان!.. وأتى عليٌّ دار عثمان، فوجد الناس على بابها، فشق الناس إلى داخل الدار، وسط الغليان!!

فقال عثمان: «يا أبا الحسن، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت، وكان مني ما قد علمت، ولست آمنهم على قتلي، فارددهم عني، فإني أعطيهم ما يريدون من الحق مني ومن غيري، وإن كان في ذلك سفك دمي». فقال له علي: «الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك!.. وإني لأرى قوماً لا يرضون إلا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم في قَدْمتهم الأولى عهداً من الله: لترجعن عن جميع ما نقموا، فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشيء من ذلك! فلا تغرني هذه المرة من شيء فإني معطيهم عليك الحق». قال عثمان: «نعم، فأعطهم، فوالله لأفِيَنَّ لهم». فقال علي: «تكلم كلاماً يسمعه الناس، فيشهدون ويشهد الله على ما في قلبك من الإنابة والتوبة فإن البلاد قد تمخضت عليك، ولا آمن أن يجيء ركب آخر من الكوفة أو البصرة، فتقول يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل تراني قد قطعت رحمك، واستخففت بحقك!».

ولكن عثمان لم يخرج إلى الناس، حياء من الناس، وفَوّضَ علياً عنه، فخرج علي إلى الناس فقال: «أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق.

فقد أعطيتموه: إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون. فاقبلوا منه». فقالوا: «قد قبلنا فاستوثق منه لنا، فانا والله لا نرضى بقول دون فعل!». فقال لهم علي: «ذلك لكم». ثم دخل فأخبر عثمان بما يقول الناس. فقال عثمان لعلي: «اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة. فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد!».

فقال علي: «ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرك». فقال عثمان: «نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام». واشترط عليٌّ كرم الله وجهه على عثمان رضي الله عنه ألا يطاول الناس أكثر من ثلاثة أيام.. فينبغي قبل مرور أيام ثلاثة أن يصدر الخليفة أوامره، بما وعد به من تغيير وإصلاح.

وكتب عليٌّ كتاباً شرط فيه على الخليفة رد كل مظلمة، وعزل كل عامل كرهته الرعية، وعقاب مروان بن الحكم.

وأشهد عليٌّ بعض كبار الصحابة على هذا الميثاق.

وخرج عليٌّ فأعلم الناس بما جرى، ودعاهم أن يكفوا عن الخليفة ويمهلوه ثلاثة أيام.

وانصرف الناس راضين.. أما مروان بن الحكم فاتخذ جنداً، واستعد!!

ومر يوم بعد يوم، وجاء اليوم الثالث فأتوا عليًا يستنجزونه وعد الخليفة!

وشعر علي بحرج شديد، فما عساه يقول للناس! إنه ليواجه موقفاً ضنكاً ما واجه مثله من قبل، حتى لأصبح يخجل من مواجهة الناس، فكلما ضمن أمامهم عهداً لعثمان، خذله عثمان.. وعليٌّ بعد لا يرضى بأن ينال الناس من عثمان!!..

ولكنهم ينالونه بالذم، وها هم أولاء يذكرون القتل!! واأسفاه على عثمان!

ها هو ذا اليوم وهو خير البرية صلاحاً وتقوى وقنوتاً، يسلم رأيه وعقله وورعه وحكمته لشر البرية كيداً وطمعاً، ليجعلوه مطية ذلولاً إلى ما يشتهون! وارحمتا للقانت المظلوم!!

ووارحمتا لعلي!..

يرى المنكر كله أمامه، فلا هو قادر على تغييره كله، كما يأمره دينه، ولا هو بمستطيع الصبر عن بعضه، فتقواه تأبى عليه أن يرضى بالدنيَّة في دينه أو دنياه، وأن يسكت عن منكر نهى عنه الله!!

وها هو ذا يجد نفسه مسؤولاً أمام الله عن تغيير هذا المنكر!

وهو يرى أنه إن نال عثمان بكلامه، أجج الثورة عليه، فانتهت إلى شر نهاية! إنه ليحمل نفسه على الصمت، وما يملك إلا نصح عثمان.. ولكن هيهات!!

وعثمان يُحَمّله مسؤولية الثورة عليه، ويطالبه بصرف الثائرين عنه؛ فهو وحده القادر عليهم!!.. وهم لا يعصون له أمراً..!

ثم أن هؤلاء الثائرين يحملون علياً مسؤولية ما يصنعه عثمان، فهو وحده من بين صحابة الرسول أقدر الناس عليه!!

وفي الحق أن أقدر الناس على عثمان كان مروان ومن يليه من بني أمية أقرباء عثمان!

وأمر مروان صاحب الشرطة أن يتأهب للقتال!

وبعد صلاة عصر اليوم الثالث، وقبل أن يؤذن بصلاة المغرب، فينتهي اليوم الأخير من الأجل المضروب، تنادي الثوار بأن الخليفة ليس أمامه إلا بضعة أمور يختار أحدها: إما أن يعتزل ويترك الأمر لمن هو

أقدر عليه وأنهض، وما ذاك إلا علي كرم الله وجهه! وإما أن يسلمهم مروان، ويعزل الولاة الأمويين ويسترجع منهم الآلاف المؤلفة والأراضي التي وزعت عليهم ويرد المظالم، ويطلق السجناء الذين سجنهم صاحب الشرطة لأنهم نقدوا الخليفة، ويقتص من نفسه ومن صاحب الشرطة لمن ضربهم وآذاهم من كبار الصحابة، فإن لم يجبهم إلى كل أولئك قتلوه..

وحاول عليٌّ أن يثنيهم عن هذا كله، وأن يقنعهم بإعطاء الخليفة مهلة ساعة حتى يكلمه بعد صلاة المغرب، ولكنهم أبوا!..

فأرسلوا إليه نفراً منهم يطلبون منه عزل عماله الفساق، ورد المظالم كما وعد، فردهم قائلاً: «إن كنت أستعمل من أردتم، وأعزل من كرهتم فلست في شيء من الأمر». وعادوا إلى أصحابهم يتنادون بقتل عثمان!

وإذ كان علي يجادلهم ويجادلونه، أتى عبد الله بن عباس عليًّا يحمل إليه أمراً بأن يبرح المدينة، وأن يلزم ماء له بينبع.

وشعر علي بالأسى على ما آل إليه أمر عثمان! ولمح في ثنايا الأمر كيد مروان... وقال: «يا بن عباس، ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملاً أقبل وأدبر. بعث إلى أن أخرج ثم بعث إلى أن أقدم، ثم ها هو ذا الآن يبعث إلي أن أخرج. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً».

يا له من أسى يخالجه الإشفاق على الشيخ الجليل، وتغشاه راحة حزينة! ذلك أن عليًّا آخر الأمر سيجنب نفسه الحرج بين أمل الناس فيه، وما تقترفه بطانة عثمان!

وإذ تلقى علي كرم الله وجهه أمر عثمان رضي الله عنه بأن يبرح المدينة إلى ينبع، دعا للأمة باجتماع الشمل، وخرج إلى حيث أبعده الخليفة!

وقبل أن يبرح المدينة رجا كبار الصحابة أن يكفوا الناس عن الخليفة، وأن يميلوا إليه القلوب ما استطاعوا!

أما الزبير فغادر المدينة إلى مكان أبعد من أن يحرجه فيه عثمان أو الناس، وأدنى من أن يجهل فيه ما يجري في المدينة من أحداث.

وأغلق طلحة عليه داره.

ورفض باقي الصحابة أن يصرفوا الثوار عن عثمان، أو يميلوا إليه قلوب الناس، ولكنهم التزموا ألا يؤلبوا عليه أحداً!..

فلما خرج علي من المدينة منفياً إلى ينبع، اشتد الحصار والطعن على عثمان.. فحصبوه في المسجد وهو على المنبر يخطب الجمعة حتى غُشي عَليه، ثم منعوه من الخروج حتى للصلاة، فأشرف عليهم عثمان وقَال لهم: «يا أهل المدينة! أستودعكم الله، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي.. وأنشدكم بالله أتعلمون أن لي سابقة خير أوجب الله على كل من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها!؟ لا تقتلوني فإنه لا يحل لكم إلا قتل ثلاثة. رجل زنى بعد إحصانه ووالله ما فعلتها في جاهلية ولا في إسلام، أو كفر بعد إيمانه، أو قتل نفساً بغير حق. فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً!،،». فقالوا: «إنا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة: من بغى، ومن سعى في الأرض فساداً، ومن حال دون شيء من الحق ومنعه. وأنت بغيت، ومنعت الحق وحلت دونه، وكابرت عليه ولم تقتص من نفسك لمن ظلمته، وتمسكت بالإمارة علينا».

فدخل عثمان إلى داره وهم على أبوابه يشددون الحصار.. وخرج طلحة من عزلته..

كان المحاصرون ألفاً من أهل الكوفة، وعدة مئات من أهل مصر، ومئات من أهل البصرة، وأهل المدينة، وطلحة يروح ويجيء بينهم.

وقال طلحة لقواد الحصار: «إن عثمان لا يبالي ما حصرتموه، وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوا الماء أن يدخل إليه». فمنعوا الماء، فأرسل عثمان إلى عبد الله بن عباس، الذي نصبه أميراً على الناس في الحج، وإلى حجاج بيت الله الحرام جميعاً رسائل قال فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى من حضر الحج من المسلمين. أما بعد فأني كتبت إليكم كتابي هذا وأنا محصور وأشرب من بئر القصر، ولا آكل من الطعام ما يكفيني، خشية أن تنفد ذخيرتي، فأموت جوعاً أنا ومن معي، لا أدعى إلى توبة فأقبلها، ولا تسمع مني حجة أقولها، ولقد ازدادوا على الله عز وجل جرأة، حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله، وثابت إليهم الأعراب، فهم كالأحزاب يوم الأحزاب أو كمن غزانا بأحد، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق، فأنشد الله رجلاً من المسلمين بلغه كتابي إلا قدم علي، فأخذ الحق في، ومنعني من الظلم والباطل».

وبعث إلى معاوية وأهل الشام خاصة كتاباً آخر، وله بأهل الشام أوثق صلة، فامرأته نائلة من أكبر قبائل الشام، وعشيرته بنو أمية هاجر منهم في الجاهلية رهط كبير فأقاموا في الشام، وأصهروا إلى أهلها، وأصبحوا أهل منعة فيها، ثم أن معاوية ابن عمه وأحد كبار مستشاريه يحكم الشام كله، ويغدق على أهله أكثر مما يتمنون، وقد أصبح له هناك جيش من مائة ألف فارس، لا يعرفون غيره، ولا يدينون لغير ما يعتقده، ويجهلون كما قال معاوية لعمار شأن الصحابة الأوائل من كبار المهاجرين والأنصار، إنهم لمائة ألف مقاتل وما يحركهم كما وصفهم معاوية إلا الدينار، كلما أضاء لهم مشوا فيه!!

كتب عثمان إلى ابن عمه معاوية: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإني في قوم طال فيهم مقامي، واستعجلوا القدر فيّ، إن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة، ونكثوا البيعة وانضم إليهم الأعراب ووفود الأمصار فخيروني بين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني، وبين

أن أقيدهم ممن قتلت ومن كان له سلطان يخطىء ويصيب فابعث إلي مِنْ قبَلك من مقاتلة أهل الشام فياغوثاه!.. يَاغوثاه!.. ولا أمير عليكم دوني، فالعجل العجل يا معاوية! وأدرك ثم أدرك ولا أراك تدرك!».

فلما ورد كتاب عثمان إلى معاوية، آثر أن ينتظر عقبى الصراع، إذ علم أن صحابة الرسول قد تخلوا عن عثمان إلا قليلاً، منهم زيد بن ثابت وحسان بن ثابت وأبو هريرة، وهو يعلم أن هؤلاء ليس لهم على قلوب الناس في المدينة والأمصار والأعراب، مثل سلطان الصحابة الذين خالفوا عثمان. وخذلوه..

واستبطأ عثمان رد معاوية، ولكنه علم أنه يتربص ليرى نتيجة الحصار وأنه لا يريد أن يجهر بمخالفة أكثر الصحابة، وكان عثمان ـ على ورعه وتقواه ـ عليماً بدهاء ذوي قرباه من رؤوس بني أمية، بصيراً بمكرهم، فطناً إلى ذكاء احتيالهم على الأمور!..

فعدل عن مخاطبة معاوية، وبعث برسائل إلى ذوي قرباه من بني أمية الذين استوطنوا الشام منذ أجيال، وإلى أصهاره أهل زوجته نائلة، وإلى أمراء جند الشام يستنفرهم، ويذكرهم بوجوب طاعته، ونجدته، وإغاثته، وأشار إلى ما أغرقهم فيه من مال، فما أصابوا المال والأعطيات والضياع وبنوا القصور، إلا بأمره إلى عامله معاوية، أن يغدق عليهم!!

فقاموا إلى نصرته على الرغم من تثاقل معاوية!..

وكتب عثمان إلى أجناد البصرة، فركبوا في العدة والعديد إلى المدينة لينجدوه.

أما الذين يحاصرونه فكتبوا إليه: «اعلم أنا والله لله نغضب، وفي الله نرضى، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة، أو ضلالة مجلجلة، وإنك لتعلم قضيتنا إليك، والله عذيرنا منك».

أما أهل المدينة ومن والاهم من الأعراب فقد بعثوا إليه مرة أخرى يدعونه إلى التوبة، ويطالبونه أن يعطيهم ما يلزمهم من حق الله وإلا قتلوه!

قالوا له جميعاً: «إنك لا تريد أن تعاقب مروان على ما اقترفه من غدر وخيانة وفساد في الأرض باسمك، وما تريد أن تسلمنا إياه». فقال: «لا والله ما أسلمكم مروان لتقتلوه!» قالوا: «ألا تريد أن تعاقب مروان بجرمه وغدره وتحريضه على القتل، وأنت ضربت من قبل رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم بغير ذنب إلا أنهم يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحق، ويستنكرون من أعمالك! فاقتص من نفسك لمن ضربته وأنت له ظالم». قال: «الإمام يخطىء ويصيب، فلا أقتص من نفسي لأني لو اقتصصت لكل من أصبته بخطأ أهلك نفسي!» قالوا: «إنك قد أحدثت أحداثاً عظاماً فاستحققت بها الخلع، وإذا كُلِّمْت فيها أعطيت التوبة، ثم عدت إليها». فقال: «إني والله الفقير إلى الله الخائف منه، وأنا أتوب ولا أعود إلى شيء كرهه المسلمون». قالوا: «كيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أنك لا تعطي من نفسك من ذنب إلا عدت إليه».

وكان عثمان رضي الله عنه تواباً أوّاباً. دامع الاستغفار..

وأدركت نائلة بنت الفرافصة أن زوجها سيقتل عطشاً وجوعاً وصبراً، وأن أهل الدار هالكون معه جميعاً. فنصحته أن يرسل إلى علي بن أبي طالب ليأتيه من حيث نفاه في ينبع. وقالت له: «أتقرب منك مروان بن الحكم وتقصي ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب؟!» فقال مروان محتجاً: «أقول يا أمير المؤمنين؟» فزجره عثمان، وكأنه أدرك آخر الأمر أن نصائح مروان تكاد توردة موارد التلف.. وقال له: «لا تقل شيئاً ولا تفتح فاك فض الله فاك.. واتركني الساعة»..

وأقبل عثمان على زوجته نائلة يسألها النصيحة، وهزيم الثائرين ووعيدهم يقتحم عليهما أسوار القصر!!

ونائلة الآن أحب زوجاته إليه، وهي امرأة ذات جمال وعقل وكمال وحكمة، وقد تزوجها عثمان وهو شيخ كبير... وأحبت هي عثمان في شيخوخته، وآزرته في محنته.

أما كيف تزوجها وهو أمير للمؤمنين، يعيش في المدينة، وهي تعيش مع أهلها في ضياع وقصور بالشام، فقصتهما أن ابن عمه سعيد بن العاص حين كان أميراً للكوفة تزوج هنداً بنت الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة، فتحدث الناس بطاعتها، وحفظها لزوجها، وتفانيها في خدمته. إلى حسن فائق كان حرياً أن يجعلها تدل عليه!

فبلغ ذلك عثمان فكتب إليه: «قد بلغني أنك تزوجت امرأة يثني الجميع عليها، فاكتب إلي نسبها وجمالها». فكتب إليه سعيد: «أما بعد فإن نسبها أنها بنت الفرافصة بن الأحوص، وجمالها أنها بيضاء مديدة». فكتب إليه عثمان: «إن كان لها أخت فزوجنيها». فبعث سعيد إلى الفرافصة يخطب إحدى بناته لعثمان رضي الله عنه، فأمر الفرافصة ابنه ضَبًّا فزوجه نائلة، وكان ضبٌّ أخوها مسلماً، والفرافصة أبوها نصرانياً. وأسلمت نائلة. وزفت إلى أمير المؤمنين.

ونصحها أبوها وهو يودعها لتزف إلى عثمان: «يا بنتي إنك تقدمين على نساء من نساء قريش، هن أقدر على الطيب منك، فاحفظي عني خصلتين: تكحلي، وتطيبي بالماء حتى تكون ريحك ريح من أصابه مطر».

وقد جمعت إلى الجمال الرائع كمال العقل.. ولقد نازعها مروان التأثير على رأي عثمان، ولكنه عندما ضاقت عليه الأمور وادلهمت، بما أخذ به من مشورة مروان، عاد إلى رأيها.

قالت له ومحاصروه يخيرونه بين الاستجابة لمطالبهم أو القتل: «عمرك الله كم نصحت لك أن تقصي عنك مروان! وقلت لك إنك متى

أطعته قتلوك! فاتق الله فأرسل إلى علي بن أبي طالب فاستصلحه لنفسك واسترضه فإن له قرابة منك، والناس يطيعونه، وما من أحد من العرب أو أهل الأمصار يعصيه وأنت تعرف».

وأبدى عثمان بعض التردد فقد لا يجيبه علي، وقد لا يتصدى للناس، بعد ما كان من تعهده للناس أن الخليفة سيعمل ما يرضيهم. ويقصي عنه بطانة السوء!!

قالت نائلة: «أف لهم يا أمير المؤمنين! أقصهم عنك هوناً فما غلبوك على عقلك وقلبك إلا لأمر لهم فيه مصلحة، وللمسلمين فيه مضرة، أرسل إلى علي فاستعتبه، فخلقه يأبى عليه أن يخذلك، وتقواه ستدفعه إلى غوثك. ألم يقل فيه الرسول ﷺ: علي إمام المتقين؟ فناشد فيه تقواه! وقد علمت العرب أنه فارسها فناشد فيه أخلاق الفروسية. فإنك منذ علمتني مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام ما أرى أحداً بعد الرسول ﷺ أحرص عليها من ابن عمه علي بن أبي طالب. أليس هو القائل: «من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنه شكاها إلى الله. فلا تشك إلا لعلي، وأقص مروان».

قال عثمان: «أأغدر بابن عمي وكاتبي ووزيري مروان بن الحكم؟!». قالت نائلة: «إنك لن تغدر به! فما ضرك إن صنعت هذا؟ الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله»! قال: «هذا قول علي يا نائلة». قالت نائلة: «أرسل إليه يغثك يا أمير المؤمنين وينفس عنك فهو القائل: كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب. لقد وضعت نفسك مواضع التهمة باتباع مشورة مروان. وكما قال علي: من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن إلا نفسه، وإنه ليصدق عليك قوله: رب ملوم لا ذنب له!» قال: «وهو القائل يا نائلة: إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أَفَن وعزمهن إلى وهن». قالت: «وهو القائل. من استقبل وجوه الآراء، عرف مواقع الخطأ. فلا والله لا أدعك منذ اليوم لرأي

مروان وحده ليغلبك على حكمتك، ويضعك مواضع التهم، فتلام بل تقتل بلا ذنب إلا ذنبه! أرسل إلى علي ينجدك فهو لا يقول غير ما يعمل وهو القائل: أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويد الله بيده ترفعه».

فقال عثمان: «سأبعث إليه، ونرى ما سيكون إن شاء الله. وما شاء الله كان». فقالت نائلة: «لا تسأل عما يكون، ففي الذي قد كان لك شغل! نعمت النصيحة ما وعظ بها على المؤمنين!».

قام عثمان فكتب إلى علي في ينبع مستصرخاً مستغيثاً: «أقبل فقد بلغ السيل الزبى، وارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره، وزعموا أنهم لا يرضون بشيء مني دون دمي! وطمع في حتى العاجز الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثلُ مغَلَّب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل عَلَيّ أو لي!

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولم يكد علي كرم الله وجهه يقرأ هذه الرسالة حتى هرع إلى عثمان رضي الله عنه، واخترق إليه مثل السد المنيع من المحاصرين، فتنحى له الناس، بما له في قلوبهم من هيبة ومكانة، وسأل الناس: «ويحكم أتريدون قتل عثمان؟» فقالوا: «ما أردنا إلا مروان، فأما قتل عثمان فلا».

وعاد إلى داره وهو يخشى على عثمان القتل، فقال لولديه الحسن والحسين: «اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، ولا تدعا أحداً يصل إليه».

وتكلم إلى كبار الصحابة وحثهم على إغاثة أمير المؤمنين ونجدته، فخف إليه بعضهم، أما شيوخهم فبعثوا أولادهم بالسيوف ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان. واجتمع حول دار عثمان نحو مائة في سلاحهم ليحموه.

وسمع عثمان بما يجري خارج الدار فقال: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل عليّ هؤلاء وألبهم. والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه، إنه انتهك مني ما لا يحل له.

وعاد الناس في اليوم التالي يسألون عثمان أن يعاقب مروان أو يخرجه إليهم.. كانوا أكثر من ألف شاهري السيوف، ومعهم النبال. فسألهم عليٌّ لماذا يمنعون عنه الماء، وكان قد جاء بعدة قرب، أدخلها إلى عثمان، وكلمه في أمر مروان، فرفض عثمان أن يسلمه أو يعاقبه أو يمسّه، وخرج علي مهموماً، فعلم الناس أنه فشل، وشكا المحاصرون لطلحة أن علياً جاء بالماء والطعام على باب الدار لعثمان، فما استطاعوا رده لهيبته، فقال طلحة لعلي «ما أنت وهذا»؟ وجرى بينهما كلام شديد.

وقف علي يخطب الناس: «أيها الناس، إن الذي تفعلون لايشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل بالماء ولا المادة، فإن الروم والفرس لتأسر فتطعم وتسقي».

وجاء بعض الصحابة في عيونهم الدمع يسألون الناس أن ينصرفوا عن عثمان.. ولمح الأشتر دموعاً في عيون بعض الصحابة، فقال لهم: «تبعثون إلينا فإذا حضرنا أقبلتم تعصرون عيونكم؟ أليس هذا كتابكم؟».

ومضى الأشتر يقرأ «من المهاجرين الأولين وبقية الشورى. إلى من بمصر والكوفة والبصرة من الصحابة والتابعين. أما بعد، أن تعالوا إلينا، وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها، فإن كتاب الله قد بُدّل، وسنة رسول الله قد غُيّرت، وأحكام الخليفتين قد بدلت. فننشد الله من

قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان، إلا أقبل إلينا، وأخذ الحق لنا، وأعطاناه، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح، الذي فارقتم عليه نبيكم، وفارقكم عليه الخلفاء، غُلبنا على حقنا، واستُولي على فيئنا، وحيل بيننا وبين أمرنا، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة، وهي اليوم ملك عضوض، من غلب على شيء أكله». فأقسم الصحابة أنهم ما بعثوا هذه الكتب.. من إذن الذي أرسل يحرض على عثمان ويستثير الناس، ويستغل سخطهم على مظالم عمال عثمان؟!

واستمر الحصار أياماً، وعليٌّ لا يستطيع أن يقنع عثمان بإرضاء الناس، ولا يستطيع صرف الناس عنه، فاعتزل..

وبعد أيام من الحصار أطل عثمان على الناس فقال: «ما تنقمون علي وما من يوم إلا وأنتم تقسمون فيه خيراً!؟ هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة من مالي ليشرب منها المسلمون، فلم تمنعوني أن أشرب منها؟ هل تعلمون أني اشتريت أرضاً فزدتها في المسجد، فهل علمتم أن أحداً منع أن يصلي في المسجد غيري؟!».

وجاءت الأنباء إلى المدينة أن جيش الشام وأجناد البصرة أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة، فاشتعل غضب الناس، وأصروا على أن ينتهوا من أمر عثمان قبل أن يأتيه مدد الشام والبصرة، فزحفوا على باب الدار. فأغلقها المدافعون دونهم، وحمل واحد منهم على أحد المحاصرين فقتله، واحتمى بالدار، وجن جنون المحاصرين وطالبوا بتسليم القاتل، وإلا اقتحموا الدار، فقال عثمان: «لا أسلم رجلاً نصرني إلى رجال يريدون قتلي!»..

فرمى المحاصرون بالسهام من كل جانب، فأصيب الحسن بن علي بسهم فخضبه الدم، وأصاب مروان سهم وهو في الدار، وخضب محمد ابن طلحة، وشج قنبر مولى علي، فخشي محمد بن أبي بكر ـ وكان من

قواد الحصار ـ أن يغضب بنو هاشم للحسن فيشعلوها فتنة، فأمر رماة السهام أن يكفوا.

وحاول عمار بن ياسر أن يكف الناس عن الحصار وقال لهم: «أتمنعون عثمان ماء بئر رومة وهو الذي اشتراها بماله وسقاكم منها بلا ثمن؟».

ولكن المحاصرين أبعدوه، وكان شيخاً في نحو التسعين، وشددوا ضغطهم على الدار ليقتحموها، وتهيأ من في الدار للقتال، فقال لهم عثمان: «ما أحب أن ألقى الله وفي عنقي قطرة من دم مسلم». وطلب من حماته أن ينصرفوا جميعاً، فانصرف بعضهم ودخل عليه الحسن بعد أن عولج فقال لعثمان: «مرني بما شئت يا أمير المؤمنين فأني طوع يديك». قال عثمان: «ارجع يابن أخي، اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره! إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أمرك فأقسمت عليك لما خرجت إليه» ولكن الحسن خرج يدافع أمام الدار مع القلائل الذين بقوا!.. وأحرق المحاصرون باب الدار، واستبسل المدافعون عن عثمان.

فلما عجز المحاصرون عن اقتحام الدار تسلقوا داراً مجاورة، ودخلوا على الخليفة مخدعه، وما معه غير امرأته، فضربه رجل على مفصله فقال عثمان: «إنها أول يد كتبت القرآن».

وكان محمد بن أبي بكر قد دخل عليه، وقال له: «ما أغنى عنك بنو أمية!».

فقال له عثمان: «يابن أخي لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكاني، ولساءه مكانك مني!» فخجل محمد، وخرج كسيفا، منكس الرأس من الحياء، مثقل القلب من الندم، وحاول أن يصرف المحاصرين عن أمير المؤمنين ولكن الوقت قد فات. فقد ضربه رجل آخر وهو يقول: «سجنت أبي حتى مات في السجن».

ودعا عثمان بوضوء فتوضأ، ووضع المصحف في حجره وشرع يقرأ حتى وصل إلى الآية: **﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾**. فتكاثروا عليه وامرأته تدافع عنه، حتى أجهزوا عليه.

وتعالى صراخ النساء، وخرجت امرأته إلى الذين يحرسون الدار فقالت: «إن أمير المؤمنين قد قتل». وكانت يداها تقطران دماً فقد قطعوا أصابعها وهي تدافع عنه، ونهبوا كل ما في الدار قائلين: «أيحل دمه ويحرم متاعه!». ثم نزعوا الحلي عن أجساد النساء!.. في طرقات المدينة.. وفروا هاربين.

وبلغ الخبر علياً وهو في المسجد بين القبر والمنبر فقال: «تباً لكم آخر الدهر!».

واندفع إلى دار عثمان، وأكب عليه يبكي.

وأقبل المهاجرون الذين عارضوا عثمان من قبل، وعلا نشيجهم أسفاً على عثمان! وغشي على عليّ من شدة الحزن والبكاء.

وأتى على داره فأغلقها عليه.

وكتبت نائلة إلى معاوية وأهل الشام تصف ما حدث لعثمان، وبعثت مع الرسول قميص عثمان مخضباً بالدم، وأناملها المقطوعة!!

ودخل أهل مصر الدار فوجدوا عثمان مقتولاً، فندموا وبكوا.. وأقسموا أنهم ما كانوا يريدون قتله حقاً، وإنما كانوا يهددونه ليغير سياسته.

أما القتلة فقد انطلقوا في المدينة شاهري السلاح، ومضوا إلى بيت المال، وهو مكتظ بالآلاف المؤلفة من دنانير الذهب، فهرب حراس بيت المال، وانتهبه القتلة!!..

ولقد بكى الناس عثمان إلا قليلاً. منهم عمرو بن العاص.

علم وهو في ضيعته بفلسطين أن عثمان قد قتل فقال: «أنا أبو عبد الله! إذا حككت قرحة نكأتها! إن كنت لأحرِّض عليه، حتى إني لأحرض عليه الراعي على رأس الجبل!».

وكانت عائشة وهي في الحج قد قالت لابن عباس: «يابن عباس أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً إزعيلاً (فصيحاً ذَلِقاً) أن تخذل عن هذا الرجل وأن تشكك فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر». فقال: «يا أُمَّه (يا أم المؤمنين) لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا» (يعني علياً). فقالت: «إيها عنك، إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك».

واجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وفيهم طلحة، والزبير الذي عاد إلى المدينة بعد مقتل عثمان، فأتوا علياً وهو في داره قد أغلق عليه بابه. فقالوا: «إنه لا بد للناس من إمام». قال: «لا حاجة لي بأمركم، فمن اخترتم رضيته». قالوا: «لا نختار غيرك». قال: «أن أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً». قالوا: «إنا لا نعلم أحداً أحق بالأمر منك! ولا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ».

وذهب إليه مثل أمواج من الناس من أهل المدينة وأهل الأمصار والأعراب فقالوا: «نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من بين القرى!» فقال علي: «دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم به القلوب، ولا تثبت عليه العقول»! فقالوا: «ننشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه! ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة!؟ ألا تخاف الله؟» فقال: «إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا أحدكم إلا أني من أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه».

وانصرف عنه الناس ليأتوه في الغد، فتزاحموا على بابه، منذ الصباح التالي. وهو يمتنع عليهم، فقالوا: «والله ما نحن بتاركيك حتى

نبايعك». قال: «ففي المسجد ولا تكون البيعة إلا عن رضا المسلمين جميعاً».

وخرج إلى المسجد، فكان أول من بايعه طلحة فقال: «إنا لله! أول من بدأ البيعة يد شلاء. لا يتم هذا الأمر». (وكان طلحة قد اتقى النبل بيده عن النبي في أحد، فشلت أصابعه) وبايعه الزبير بعد طلحة. فقال لهما علي: «إن أحببتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتكما». قالا: «بل نبايعك».

وانطلقت الأصوات ترجُّ المدينة في فرح بالبيعة لعلي، والناس يكبرون ويهللون..

من خلال هذا الضجيج المستبشر انطلق صوت حزين باك في نبرته نذير موحش!! كان هو حسان بن ثابت يختم قصيدته في رثاء عثمان بقوله:

لتسمعنَّ وشيكاً في ديارهمُ   الله أكبر واثارات عثمانا!

الفصل العاشر

بعد البيعة

بعد مقتل عثمان، حكم الثائرون المدينة وأرهبوا أهلها، وظل المسلمون خمسة أيام بلا إمام!

فلا علي بن أبي طالب يقبل البيعة، ولا الناس يعدلون عنه إلى غيره!

واضطربت الأمور في المدينة وفي الدولة كلها، حتى طمع الروم في استرداد ما فتحه العرب من بلادهم، فقاد قسطنطين بن هرقل ملك الروم أسطولاً من ألف سفينة، يريد بلاد المسلمين، فداهمهم في البحر الأبيض ريح عاصف وإعصار، فغرق الأسطول! ونجا قسطنطين فأتى صقلية، فصنع له الذين كانوا بها من الروم حماماً، فقتلوه فيه، وقالوا: «قتلتَ رجالنا».

وخشي علي كرم الله وجهه أن يثب الأعداء على الثغور، فيحتلوا أرض المسلمين، كما خشي أن يعود الناس من موسم الحج إلى أمصارهم، وهم بلا خليفة، فيستقل كل أمير بالولاية التي يحكمها فتتمزق الدولة، وتتفرق جماعة المسلمين!.. كما خشي أن يفتك الثوار بالوادعين من أهل المدينة..

من أجل ذلك قبل البيعة لأنه لا بد للناس من إمام يحكم بالعدل، ويحمي الذمار، ويوزع الأموال بالقسط، ويقيم حدود الله، ويأخذ الكتاب بقوة ويمسك بقبضة قادرة موازين الأمور، ويقيم الحساب، ويفرض هيبة الأحكام..

ولم يكد علي يصبح إماماً وأميراً للمؤمنين حتى قال: «أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب». وقال للأعراب: «عودوا إلى مياهكم». وطالب أهل الأمصار أن يعودوا إلى ديارهم.. وبدأ بعضهم يخرج من المدينة ولكن المدينة ما برحت تحت وطأتهم.. وإن كان الإمام ليجد في استخلاصها منهم يوماً بعد يوم..

وخطب الإمام علي أمير المؤمنين في الناس: «إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر. أدوا الفرائض إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حُرَماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحُرَمِ كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين. والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة... اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده. إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون**﴾».

وما كان لدى أمير المؤمنين إلا خيار بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يكون إماماً بكل ما في الإمامة من ورع الخلافة، وجلال القدوة، والأمانة والقوة، وإما أن يكون ملكاً بكل ما في الملك من زخرف وسطوة!..

أما الجمع في دولته بين ورع الإمامة وأبهة الملكية، فمن هنا جاءت مأساة عثمان رضي الله عنه، وهو القانت ذو النورين!!.. يصوم الدهر، وما يكاد يشبع من طعام، ثم يمنح أبا سفيان مائتي ألف دينار، ويسمح لأعوانه أن يتخذوا القصور والضياع، وأن يلبسوا الديباج! وهو بعد يبيحهم من ألوان الترف والمتاع كل ما حرمه عليهم أبو بكر وعمر واستهجنه علي!

ثم أنه ليتصدق بماله، ويغيث به المسلمين المرة بعد المرة، ولكنه يوم قتل وجدوا عند خازن ماله نحو ألف ألف درهم وخمسين ألف دينار..!.. غير ما خلفه رضي الله عنه من ضياع في حنين ووادي القرى وغيرها، وما خلف أبو بكر أو عمر من قبله إلا دراهم معدودات!!..

وعلى الرغم من أنه أعطى بعض الناس ما أوخذ به، فلم يحفظ له هؤلاء فضله عليهم..

منح طلحة ضياعاً في العراق، كانت تدر عليه ألف دينار كل يوم، حتى إذا حاصره الثوار، ورأى طلحة يحرضهم عليه، أخذ يبكي ويتوجع لما يفعله به طلحة ولكم دعا عليه الله!! وكان يقول: «ويلي من طلحة!؛ أعطيته كذا وكذا ذهبا وهو يروم دمي. اللهم لا تمتّعه! ولقه عواقب بغيه!».

ورأى الإمام علي أن عثمان كان حرياً بأن ينجو، على الرغم من كل شيء، لو أنه أقصى مروان وعاقبه، وعزل بعض عماله وحاسبهم، ورد إلى بيت المال بعض ما أخذه أقاربه!!

في اللحظات المتوترة من الحصار، أصبح عثمان صائماً فقال لامرأته نائلة إن أبا بكر وعمر جاءاه في الرؤيا فبشراه أنه سيفطر معهما الليلة!!

وفي تلك اللحظات العصيبة، كان المحاصرون يهددونه بالقتل، ولا يريدون إلا العزل! وصرف عثمان من يحرسونه من المهاجرين والأنصار وقال لهم: «أنتم في حِلٍّ من نصرتي». وكان بين المحاصرين عدد من الصحابة..

فلم يبق أمام باب داره إلا القليل من أنصاره، فيهم الحسن بن علي وبعض أبناء الصحابة!

كان في وسع المحاصرين أن يقتحموا الباب إن أرادوا، ولكنهم لم يفعلوا!..

وتقدم صحابي منهم يناشد عثمان أن يعتزل، فيجنب الناس الفتنة، فإذ برجل من أنصار عثمان يرميه بسهم فيقتله! فيحتدم غضَب المحاصرين ويطالبون عثمان بأن يسلمهم القاتل أو يقتص هو منه، فهو ما زال ولي الأمر!..

ولكنه أبى، وقال: «لم أكن لأقتل رجلاً نصرني، وأنتم تريدون قتلي»!..

وهكذا تسور بعضهم عليه الدار من الدور المجاورة! ما كان هؤلاء الذين قتلوه من الصحابة ولا من أبنائهم ولا من أهل التقوى.. بل كانوا من أعداء الإسلام!

على أن عثمان رضي الله عنه هو الذي صنع مأساته ونهايته الفاجعة بنفسه.

ذلك أنه أخذ نفسه بورع الإمامة والخلافة والسنة الشريفة، ولكنه جعل أقاربه وعماله الجبارين على رقاب الناس، فأخذوا الرعية لا بسياسة الإمامة الورعة، بل بسياسة الملك العضوض!! ورأى الخليفة أن مْن البر بذوي القربى ألا يسوءهم، فتركهم يحبسون مخالفيهم ويضربونهم بالسياط، وهم من خيرة الصحابة البررة.. فأثارت مظالمهم ثائرة الناس على الخليفة، ووجد أعداء الإسلام في تفرق الشمل ثغرة تسللوا منها..!

وعلى الرغم من كل شيء، فإن علياً كرم الله وجهه، ليذكِّر الناس أنه جاء عثمان رضي الله عنه في اللحظات المعذبة، معتماً بعمامة رسول الله ﷺ، في نفر من الصحابة من المهاجرين والأنصار، وأمامه ولداه الحسن والحسين ومعهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين، فحمل علي ومن معه على الناس حتى فرقوهم عن دار الخليفة.

وقال له علي: «لا أرى القوم إلا قاتليك، فمرنا فلنقاتل».

فقال عثمان: «أنشد الله رجلاً رأى الله حقاً، وأقر أن لي عليه حقاً ألا يريق بسببي قطرة من دمه»!..

فخرج علي إلى المسجد، وترك ولديه مع أبناء الصحابة يحرسون دار عثمان، فلما حضرت الصلاة ناداه الناس: «يا أبا الحسن! تقدم وصل بالناس». فقال: «لا والله لا أصلي بكم والإمام محصور!» فصلى وحده..

علي يذكُرُ الناس بهذا، والناس يذكرون أنها لم تكن غير ساعات حتى جاء علياً نعي عثمان، فبكى قائلاً: «تباً لكم آخر الدهر»!

وأسرع إلى دار عثمان، وكان منه ما كان!..

ما برح علي يتذكر كل هذه الأحداث الملحة المخيفة، والناس يذكرون! حتى إذا بايعوه وتولى الأمر. قرر أن يبدأ بالتحقيق في مقتل عثمان، ويقتص من القتلة.

وقرر أن يعيدها إمامة وخلافة متأسياً بمعلمه العظيم رسول الله ﷺ..

وإنه ليتذكر الخليفتين أبا بكر وعمر، ويعاهد نفسه أن يعود بالأمر إلى خير ما كانا عليه!.

لو أن عثمان أخذ بسياسة عمر، كما أخذ عمر بنصيحة أبي بكر: «احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرىء لنفسه! فلتشتد عليهم عند زلة واحد منهم، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله»!!..

ليت الخليفة المقتول كان قد تأسى بعمر مع عماله.. ولكنه كان رفيقاً بهم، فرتعوا حتى سخطت الرعية.

يجب أن يعيد الإمام الجديد إذن إلى إمارة المؤمنين وضاءة الإمامة

وتقواها وعزمها وعدلها الصارم، وحزم الخلافة وورعها وحسمها في مواجهة المتكالبين على الدنيا، الذين وصفهم أبو بكر بقوله: «انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرىء منهم لنفسه». . هؤلاء الراغبون في أن تكون الولاية على الناس سطوة مُلْكٍ عضوض!.

من أجل ذلك كان أول ما يشغل بال علي عزل الولاة الظلمة، ورد ما أخذوه بغير حق إلى بيت المال، وإعادة توزيع الثروة على الأمة بالعدل والقسطاس: كل وبلاؤه.. كل وعمله.. كل وحاجته.. وليفعلن ما وعد به عمر ولم يمهله القدر ليفعله: «أن يرد فضول الأغنياء على الفقراء». إعمالاً للحديث الشريف الذي يعني أن من كان له فضل مال فليتصدق به على من لا مال له!..

لقد اشتد عمر، فوقف حائلاً بين قريش، وبين نزعاتها ومطامعها في دنياها الجديدة، ولو فعل عثمان مثله، ما اضطربت الدنيا، ولما استبد المترفون!.. فلا بد لهم من قارعة!!

في أول جمعة بعد البيعة لعلي. اجتمع الناس في المسجد، فأبدوا الندم والتأسف على عثمان رحمه الله!

وأكثر الناس على طلحة والزبير.

قال الناس لهما: «أيها الرجلان! قد وقعتما في أمر عثمان! فخلّيا عن أنفسكما». فقام طلحة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس: إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته، وكرهنا أن نقتله، وسَرَّنا أنْ نُكْفَاه، وقد كثر فيه اللجاج، وأمره إلى الله!».

ثم قال الزبير: «أيها الناس، إن الله قد رضي لكم الشورى، فأذهب بها الهوى، وقد تشاورنا نحن أهل الشورى وأهل بدر، فرضينا علياً فبايعناه، ومن رضي به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة، فمن

لم يبايعه منكم فليبايع! وأما قتل عثمان فإنا نقول فيه أمره إلى الله، وقد أحدث أحداثاً والله وَلِيُّهُ فيما كان!».

فلما بايع من بقي من عامة الناس لم يجد الإمام علي أحداً من بني أمية في المسجد.

وأبدى الإمام عجبه من بني أمية! ذلك أن شيخهم أبا سفيان، جاءه بعد أن بايع الناس أبا بكر، ورضي به الأنصار، فصاح مستنفراً مستفزاً، مستنكراً أن تخرج الخلافة من بني هاشم!!

في الحق أن العباس كان يرى خلافة رسول الله حقاً لعلي بن أبي طالب.. ولقد شجعه على ذلك تشيع عدد كبير من الأنصار وكل شيوخ بني أمية لعلي.. وما شايع بنو أمية علياً إلا تعصباً للقبيلة.. فالعهد بالجاهلية ونعراتها قريب، وبنو هاشم رهط علي والعباس أبناء عم بني أمية وكلهم بنو عبد مناف.. وبنو عبد مناف هم سادة قريش. فكيف يصبح لغيرهم الملك؟!.. من أجل ذلك رأى أبو سفيان أنه من إذلال بني عبد مناف أن يخرج الأمر إلى بني تميم قبيلة أبي بكر، ثم إلى بني عدي قبيلة عمر، وهما ما هما بالقياس إلى بني عبد مناف، أكثر قبائل قريش مالاً، وأعزها نفراً!..

فلما أوصى عمر بعد مقتله بالشورى بين الستة وفيهم عثمان بن عفان جهد بنو أمية حتى تمت له البيعة، فهو من رؤسائهم، وزعموا أنهم لا يرضون بعلي ـ على الرغم من فضله وقرابته ومكانته من الرسول ـ لأن النبوة والخلافة ينبغي ألا يجتمعا في بني هاشم!.. لقد ظفروا بالنبوة، فليظفر بنو أمية بالخلافة!!.

ولقد أدرك علي كرم الله وجهه خطر هذه النعرة الجاهلية عندما قال له أبو سفيان عميد بني أمية بعد البيعة لأبي بكر: «أبسط يدك أبايعك». فردها علي قائلاً: «إن تريد إلا الفتنة!» ثم قال مناهضاً حمية الجاهلية

وتعصبها القبلي: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعوجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة».

بعد أن بويع علي إماماً، هرب مروان ومن معه من رؤساء بني أمية وكانت هناك عائشة أم المؤمنين.. بعد أن فرغت من الحج والعمرة قالت حين علمت بمقتل عثمان: «إيه صاحب الإصبع (تعني طلحة)! لله أبوك. أما أنهم وجدوا طلحة كفؤاً لها. إيه أبا شبل! إيه يابن عم!».

ولكنها علمت وهي في الطريق إلى المدينة أنهم بايعوا علياً.

فأمرت أم المؤمنين برد ركائبها إلى مكة، وراحت تخاطب نفسها وتقول بصوت مرتفع: «قتلوا عثمان بن عفان مظلوماً! رحمه الله». فقال لها بعض من سمعوها: «بالأمس كنت تحرضين عليه واليوم تبكينه! ألم نسمعك تقولين أبعده الله؟! لقد رأيناك من أشد الناس عليه حتى قتل، فلما لم يبايع الناس ابن عمك طلحة ولا زوج أختك الزبير، بكيت عثمان يا أم المؤمنين؟!» فقالت: «والله كنت من أشد الناس عليه، ولكنني نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه!، حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء، أتوه صائماً فقتلوه!..».

أما ما كان من أمر الناس بالمسجد، فقد بايعوا جميعاً إلا سبعة نفر من الأنصار، فيهم زيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، فقد أقروا أن يعتزلوا وألا يحضروا البيعة.. وأصبح علي إماماً وأميراً للمؤمنين، بإجماع أهل الشورى وأهل بدر وهم أصحاب الحق الأول في اختيار ولي الأمر، فمن رضوا به كان هو الخليفة، وأجمعت الكثرة الكاثرة من المهاجرين والأنصار على البيعة.. ورد طلحة إليه مفاتيح بيت المال، وما كان أخذه من دار عثمان من خيل وإبل.

أما الذين هربوا من بني أمية، والأنصار السبعة، فقد فر بعضهم إلى معاوية فلاذوا به وأجزل لهم العطاء، فوق ما كان عثمان رضي الله

عنه قد أعطاهم، ودفع النعمان بن بشير إلى معاوية قميص عثمان مضرجاً بالدم وفيه أنامل نائلة بنت الفرافصة التي قطعها القتلة وهي تدافع عن زوجها . .

كان معاوية والذين هربوا إليه فراراً من بيعة علي يعرفون أن علياً إذا أصبح خليفة، فسيحملهم على الزهد، ويسترد منهم ما نالوه أيام عثمان، وسيحرمهم من كل متاع، وكل مآربهم في حياتهم الجديدة الرغدة، وسينصر عليهم المساكين، ويظل بهم حتى يفقدوا أبهة الملك، وزخرف الغنى، وسطوة الجاه!! . . سيكون أشد عليهم من عمر . . وإن بعضهم ليكنز الذهب المكدس، ويملك الضياع الشاسعة، ولديه القصور والضياع والإماء الحسان . . وسيسترد علي هذا منهم، حتى الإماء!! لأنه يرى ما في أيديهم حقاً لبيت مال المسلمين!!

وما كان معاوية ولا مروان، ولا سواهما من بني أمية على خطأ في تقدير ما عسى أن يصنعه علي إن استقرت له الخلافة والإمامة وإمارة المؤمنين .

فقد وقف يخطب الناس من على منبر الرسول، فقال: «أيها الناس الدنيا دار حق وباطل، ولكل أهل، ألا ولئن غلب الباطل فقديماً كان وفعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل!! ولقلما أدبر شيء وأقبل! ولئن رد عليكم أمركم إنكم لسعداء. إن الله عز وجل أدب هذه الأمة بالسيف والسوط فاستتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، فإن التوبة من ورائكم، وما عليّ إلا الجهد، ألا وإن الخطايا خيل شُمُس حُمل عليها أهلها وخُلعت لُجُمها، فتقحمت بهم إلى النار. ألا وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمِلَ عليها أهلها وأُعْطُوا أزِمّتها، فأوردتهم الجنة، وفتحوا لهم أبواباً، ووجدوا ريحها وطيبها وقيل لهم: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة عليها يأتي الكتاب وآثار النبوة، إن على الإمام الاستقامة، وعلى الرعية التسليم. ليس أمري

وأمركم واحداً، وإني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم! وأيم الله لأنصحن للخصم، ولأنصفن للمظلوم... ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات».

ثم قال: «ألا وإن كل ما أقطعه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ولو وجدتُه تفرق في البلدان لرددته! فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

فلما سمع أصحاب الإقطاعات والولاة ذلك، خافوه على ما في أيديهم..

وعلق معاوية قميص عثمان على منبر جامع دمشق؛ وجمع الناس حوله يبكون ويصيحون، وصاح معاوية بعجز بيت من قصيدة حسان: «الله أكبر! واثارات عثمان» وزاد عليها:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ... ما كان شأن عليٍّ وابن عفانا

وأعلن معاوية العصيان، وزعم أنه يطالب علياً بثأر عثمان، وأنه لن يبايع حتى يسلمه القتلة! وتحدى معاوية علياً فأرسل إليه كتاباً مفتوحاً ليس فيه إلا بيت واحد من الشعر القديم:

ليس بيني وبين قيس عتاب ... غير طعن الكلى وضرب الرقاب

ودارت حروب هلك فيها كثير من أئمة الدين من المهاجرين والأنصار حتى إذا آل الملك لمعاوية، زار المدينة، ودخل بيت عثمان فما راعه إلا صيحة عائشة بنت عثمان من خلال دموعها الفاجعة: «واأبتاه!».

لقد أصبح معاوية ملكاً، فلِمَ لَمْ يأخذ بثأر عثمان، ولِمَ لَمْ يقتص من القتلة، وهو يعرفهم؟!!.. بل إنه الآن ليصطنعهم، ويغدق عليهم من

مال المسلمين، ويقطعهم الضياع!! فقال لها: «يابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا! ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خيراً من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين».

إن الإمام ليواجه موقفاً صعباً حقاً، فالثوار يستولون على المدينة.. وما قبل الخلافة، إلا لأنه خشي أن ينتشر نبأ مقتل عثمان في الآفاق، ويعود الناس من موسم الحج إلى بلادهم بنبأ مقتل عثمان ودون بيعة لأمير عَلَى المؤمنين فيثور كل والٍ في ولايته ويستقل بها، فتتمزق الأمة، وتتفرقَ الجماعة، وتتحول الدولة الكبرى التي أسسها الإسلام في عهد أسلافه الخلفاء الراشدين الثلاثة إلى دويلات متفرقة متناحرة، فيفشل المسلمون وتذهب ريحهم!!.

من أجل ذلك قبل عليٌّ البيعة. فلما أصبح أميراً للمؤمنين ذهب إلى نائلة امرأة عثمان فَعَزّاها وقال لها: «من قتل عثمان؟». قالت: «لا أدري! دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم، وكان معهم محمد بن أبي بكر».

فدعاه أمير المؤمنين، وقد نَشَّأه في حجره فقد تزوج أم محمد عندما مات عنها أبوه، وكان في المهد صبياً.

وسأله الإمام عليٌّ فيما ذكرته نائلة فقال محمد: «صَدَقَتْ، قد والله دخلت عليه، فذكر لي أبي فقمت عنه، وأنا تائب إلى الله تعالى، والله ما قتلته!. ولا أمسكته ليقتلوه!».

فقالت نائلة: «صدق، ولكنه هو أدخلهم فقتلوه».

وظل محمد يقسم لأمير المؤمنين، أنه خرج نادماً، وحاول أن

يصَدَّهم عنه، وأنه بريء من دم عثمان. . فما دخل إلى عثمان وهو ينوي القتل. بل لحمله على اعتزال الأمر!

وَصدَّقَتْ نائلة قول محمد، وَصدّقت توبته النصوح، كما صَدّقه الإمام علي.

أما الذين قتلوا عثمان، فلا أحد يستطيع أن يعرف من هم على التحقيق. وما زالت المدينة تضطرب بالثوار من الأعراب وأهل الأمصار والغرباء!!

إنها لمشكلة كبرى حقاً. . لا يستطيع أن يحلها حتى يستقر له الأمر، وتستمسك السلطة، ويسترد هيبة الدولة.

وبقيت المعضلة الثانية. . وهي عزل الولاة الذين ركبوا رقاب الناس، وأججوا باستبدادهم السخط على عثمان، ثم رد ما أخذوه بغير حق من أموال وضياع!.

وخرج إلى المسجد الشريف، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «اعلموا أن لسانَ صدقٍ يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال. فلا يزدادنّ أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه. . . واعلموا أن الدنيا قد أدبرت، والآخرة قد أقبلت. . . . فافزعوا إلى قوام دينكم، وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم، والنصيحة لإمامكم، وتعلموا كتاب الله، واصدقوا الحديث عن رسول الله ﷺ، أوفوا بالعهد إذا عاهدتم، وأدوا الأمانات وارهبوا عذابه، واعملوا الخير تجزوا خيراً. يفوز بالخير من قدم الخير».

وشرح لهم الإمام معنى الحديث الشريف: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وعن علمه ماذا عمل به».

كان الإمام علي يرغبهم في البذل ويذكرهم بما تعلموه من الكتاب

والحكمة، ويهيئهم لرد ما أخذوه من قطائع إلى بيت المال.

فبدت البغضاء في وجوه البعض، وبان عليهم القلق مما عسى أن يأخذهم به من شدة تذكرهم بشدة عمر!

ثم أتى طلحة والزبير أمير المؤمنين فقالا: «هل تدري علام بايعناك يا أمير المؤمنين؟». قال: «نعم. على السمع والطاعة. وعلى ما بايعتم عليه الخلفاء من قبلي أبا بكر وعمر وعثمان». فقالا: «ولكنا بايعناك على أنا شريكاك في الأمر». قال: «لا. ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون». فقال طلحة: «استعملني على البصرة فأكون لك عُدَّةً وقوة». وقال الزبير: «وَلِّني الكوفة فأكون على الخيل معك وعلى عدوك». فقال الإمام علي: «حتى أنظر ذلك». وكان ابن عباس حاضراً، فلما خرجا قال: «يا أمير المؤمنين أعط طلحة والزبير ما يطلبان». فذكَّره أمير المؤمنين بما تعلمه من رسول الله ﷺ: «أن الولاية لا تُعْطَى لمن يطلبها ولا لمن يحرص عليها!».

ولكن عبد الله بن عباس - وكان الإمام قد استوزره - عاد يلح في أمر طلحة والزبير «أرى أنهما أحبا الولاية، فإن كنت عازلاً عاملي عثمان على البصرة والكوفة، فاستعمل بدلاً منهما الزبير والياً على البصرة، وطلحة على الكوفة».

فضحك الإمام علي، وقال لوزيره: «ويحك يا عبد الله بن عباس: إن العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع؛ ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان! ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية، لكان لي فيهما رأي ولو كنت مستعملاً أحداً لضرّه أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام». فقال ابن عباس: «يا أمير المؤمنين. إن معاوية وأصحابه وعصبته وأقرباءه من بني أمية أهل دنيا! إن أبقيتهم في مناصبهم وأبقيت في أيديهم أموالهم وضياعهم، فلن يبالوا من وَلِيَ هذا الأمر! وإن تعزلهم، وتسترد منهم ما

تحت أيديهم ليقولُنّ: أخذها بغير شورى، وهو الذي قتل صاحبنا، ولا آمن طلحة والزبير أن ينضما إليهم».

وجاء ثلاثة نفر من قريش، هم وجوه بني أمية، وهم: مروان، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، فقال الوليد بن عقبة: «إنك وترتنا جميعاً: أما أنا فقتلت أبي صبرا يوم بدر، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر، وأما مروان فقد شتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه. ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف فنبايعك على أن تترك لنا ما أصبنا من إمارة وما في أيدينا من أموال وضياع، وتقتل قتلة صاحبنا».

فغضب الإمام علي من هذه المساومة، وأبى أن يعدهم بشيء، ورفض بيعتهم وشروطها، وقال: «أما ما ذكرت يا وليد من وتري إياكم فالحق وتركم! وأما أن أضع عنكم ما في أيديكم فليس لي أن أضع حق الله عنكم أو عن غيركم، وأما إعفائي عما في أيديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم وأما قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم بالأمس، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه، فمن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم». فقال مروان: «بل نبايعك ونقيم معك فترى ونرى»!.. ولكنهم فروا إلى مكة جميعاً..

فخرج الإمام إلى الناس يقول عن بني أمية: «والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرماً إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلوه! وحتى لا يبقى بيت مَدَر ولا وَبَرَ إلا دخله ظلمهم (بيت مدر أي مبني من الطوب أو الحجر أو نحوه، وبيت الوَبرَ هو الخيمة)، وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه. وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه، وحتى يكون أعظمكم فيها عناء أحسنكم بالله ظناً، فإن أتاكم الله بعافية فاقبلوا وإن ابتليتم فاصبروا، فإن العاقبة للمتقين».

عمل الإمام عليٌّ جهد طاقته ليعيد الوحدة إلى المسلمين.. إنه ما قَبِل البيعة إلا من أجل هذه الوحدة، ولكن ها هم أولاء بنو أمية ينشقون وها هو ذا معاوية يوشك أن يمزق الدولة، فينسلخ بالشام! ولئن تمزقت الدولة لأصابها الوهن!! إنه ما من أحد ينسى يوم أجدب الحجاز في عهد عمر، وكاد الناس أن يهلكوا، لولا شعور المسلمين بأن أمتهم أمة واحدة وأن كل قطر من الأقطار هو مدد لأخيه، وقوة للأمة كلها!

ورحم الله زماناً أرسل فيه عمرو بن العاص، عامل عمر بن الخطاب على مصر، قوافل تغيث أهل الحجاز بالطعام والماء والثياب: كان أولها في المدينة، وآخرها في الفسطاط!!

أرسل أمير المؤمنين يطلب البيعة من معاوية للمرة الثالثة، ويحذر أهل الشام من الشقاق! ولكنه لم يتلق رداً..!

وخلال هذا الاضطراب، أغار أحد أصحاب معاوية ـ واسمه الضحاك ـ برجاله على الحيرة واليمامة، فنهبوا بيت المال، وهربوا إلى الشام. فأرسل إليه أخوه عقيل بن أبي طالب كتاباً ينبئه فيه بأمر هذه الغارة، ويعرض عليه أن يخرج إليه ليؤيده. فرد عليه الإمام علي كرم الله وجهه برسالة جاء فيها: «... إن قريشاً قد اجتمعت على حرب أخيك، اجتماعها على رسول الله ﷺ قبل اليوم. وجهلوا حقي، وجحدوا فضلي، ونصبوا لي الحرب وجدّوا في إطفاء نور الله، اللهم فاجز قريشاً عني بفعالها، فقد قطعت رحمي وظاهرت علي، أما ما ذكرت من غارة الضحاك على الحيرة واليمامة، فهو أذل والأم من أن يكون مر بها، فضلاً عن الغارة، ولكنه جاء في خيل، فسرحت إليه جند المسلمين، فلما بلغه ذلك ولّى هارباً، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق حين همت الشمس للإياب، فاقتتلوا، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً ونجا هارباً بعد أن أخذوا منه بالمخنق، ولولا الليل ما نجا! وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه، فإن رأيي الجهاد حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة، لأني محق، والله مع

المحق.. وما أكره الموت على الحق، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق. وأما ما عرضت به من مسيرك إلي ببنيك وبني أبيك، فلا حاجة إلى ذلك، فذرهم راشداً مهدياً، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت».

وتنادى الناس، واحتشد الأقوام لنصرة علي، وأرسلوا إليه بذلك وقالوا: «إن في أمرك وأمر قريش عجباً إذ أخّروك وقدموا غيرك!».

واحتشد الآلاف من الذين استبشروا بمشرق النور الجديد من العدل والتقوى والمساواة، وكل ما يمثله الإمام علي كرم الله وجهه. ولكنه لم يأذن بالخروج بعد حتى يعذر الذين شقوا عصا الطاعة وخالفوا الجماعة، وأشعلوا الفتنة، فأرسل إلى معاوية مرة أخرى وانتظر الرد، وأرسل إلى طلحة والزبير، وقعد في المدينة، يقيم العدل، ويضع دستور الحكم الجديد على أساس من فهمه العميق لأحكام القرآن والسنة، وإدراكه الواسع لحاجات الناس..

وجاءه مال كثير من الخراج، فقال الإمام علي: «اعدلوا فيه بين المسلمين جميعاً، ولا تفضلوا أحداً على أحد لقرابة أو لسابقة». وكان قد جعل عمار بن ياسر على بيت المال.

فدفع عمار ومساعدوه إلى كل واحد ثلاثة دنانير، لم يفرقوا بين عربي ولا أعجمي، فجاء طلحة والزبير، فسألا عماراً ومساعديه: «ليس هكذا كان يعطينا عمر! فهذا منكم أم أمر صاحبكم؟». قال عمار: «هكذا أمرنا أمير المؤمنين». فمضيا إليه، فوجداه قائماً في الشمس، ومعه أجيره، وقد أمسك كل منهما بأدوات الزراعة، وهو يغرس نخلاً. فقالا له: «يا أمير المؤمنين ألا ترى أن ترتفع بنا إلى الظل؟». فجاءهما حيث أويا إلى الظل، فقالا: «إنا أتينا إلى عمالك على قسمة هذا الفيء فأعطوا كل واحد منا مثل ما أعطوا سائر الناس». قال: «وما تريدان؟». قالا: «ليس كذلك كان يعطينا عمر».

قال الإمام علي: «فما كان رسول الله ﷺ يعطيكما؟». فسكتا.. فقال: «أليس كان رسول الله ﷺ يقسم بالسوية بين المسلمين من غير زيادة؟». فسكتا. قال: «أسنة رسول الله أولى بالاتباع أم سنة عمر؟». قالا: «بل سنة رسول الله. ولكن يا أمير المؤمنين لنا سابقة وغناء (نفع) وقرابة فإن رأيت ألا تسوينا بالناس فافعل». قال: «سابقتكما أسبق أم سابقتي؟ وقرابتكما أم قرابتي؟ وغناؤكما أعظم أم غَنائي؟». قالا: «بل أنت يا أمير المؤمنين أعظم غناء وقرابتك أقرب وسابقتك أسبق». قال: «فوالله ما أنا وأجيري هذا في هذا المال إلا بمنزلة واحدة».

قالا: «جئنا لهذا ولغيره فأنت تحرمنا حقوقنا!». فقال لهما: «ألا تخبراني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته، أم أخطأت بابه، والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة (حاجة)، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتوني عليها، فلما أَفْضَتْ إلي نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استسن النبي، ﷺ فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما، ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته، فأستشيركما وإخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة (التسوية بين المسلمين في قسمة الأموال) فإن ذلك أمر لم أحكم فيه برأيي، ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قَسْمِه، وأمضى فيه حكمه، فلَيس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبيَ(*)، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. رحم الله من رأى حقاً فأعان عليه أو رأى جوراً فرَدّه، وكان عوناً بالحق على صاحبه». وانصرفا عنه مغضبين، وتوجس في نفسه خيفة

(*) أعتبه سره بعد ما ساءه، والاسم منه عُتْبَى.

منهما، وهجس في نفسه خاطر أفزعه أيمكن أن ينقضا البيعة؟ ويلحقا بمعاوية؟!

وأمر بأن يحتشد الناس في مسجد الرسول، ثم خطب الناس فقال: «أيها الناس إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي، وإنما الخيار للناس قبل أن يبايعوا، فإن بايعوا فلا خيار لهم، وإن على الإمام الاستقامة وعلى الرعية التسليم، وهذه بيعة عامة من رغب عنها رغب عن دين الإسلام واتبع غير سبيل أهل هذا الدين!!».

وفرح المساكين والفقراء وعامة الناس فرحاً عظيماً بالتسوية في القسمة، وبما أحياه أمير المؤمنين من سنة الرسول في هذا الأمر.. وفرح الموالي خاصة، ولكن بعض العرب داخل نفوسهم شيء من هذا الأسلوب في توزيع المال!

جاءته امرأتان فقالتا: «يا أمير المؤمنين، نحن امرأتان مسكينتان». فقال لهما: «قد وجب حقكما علينا وعلى كل ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين». فلما تبين له صدقهما قال لأحد أصحابه: «انطلق بهما إلى السوق فاشتر لكل واحدة منهما طعاماً وثلاثة أثواب، وأعط كل واحدة منهما من عطائي مائة درهم». فلما وَلَّتا عادت إحداهما فقالت: «يا أمير المؤمنين بما فضلك الله به وشرفك». فقاطعها وقال: «وبماذا فضلني الله وشرفني؟». قالت: «برسول الله ﷺ». قال: «صدقت، وما أنت؟» قالت: «امرأة من العرب وهذه من الموالي أفلا فضلتني عنها؟». فقال: «قرأت ما بين الدفتين فلم أجد لولد إسماعيل (العرب) على ولد إسحاق فضلاً ولا جناح بعوضة».

وبعد أيام جاءه خراج جديد. فقال: «أيها الناس إن آدم لم يلد عبداً ولم يلدْ أمةً، وإن الناس كلهم أحرار. فمن كان له بلاء فصبر في الخير فلا يمن به على الله عز وجل، ألا وقد حضر شيء ونحن مُسَوُّون فيه بين الأسود والأحمر».

وعاتبه عدد من المهاجرين والأنصار لأنه يسوي بين الجميع، وقد

كان عمر على الرغم من شدته.. يفضل المهاجرين وأهل بدر وأهل السابقة في الإسلام. فقال لهم: «ألا إنه من استقبل قبلتنا وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (يعني المسلمين)، ومن أكل ذبيحتنا (يعني أهل الذمة) أجرينا عليه أحكام القرآن، وأقسام الإسلام، ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله وطاعته، جعلنا الله وإياكم من المتقين، وأوليائه وأحبائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها، وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خُلِقْتُم له، ولا الذي دُعِيتُم إليه، ألا وإنها ليست بباقية لكم، ولا تبقون عليها.. ..فانظروا يا معشر المهاجرين والأنصار ما وُصفتم به في كتاب الله ونزلتم به عند رسول الله ﷺ وجاهدتم عليه، فيم فُضِّلتم ؟ أبالحسب والنسب؟ أم بعمل وطاعة، فاستَتِمُّوا نعمة الله عليكم ـ رحمكم الله ـ بالصبر لأنفسكم، والمحافظة على ما استحفظكم الله من كتابه.. ألا وإنه لا يضركم تواضع شيء من دنياكم بعد حفظكم وصية الله والتقوى، ولا ينفعكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم بعد تضييع ما أمرتم به من التقوى، فعليكم عباد الله بالتسليم لأمره، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه».

«فأما الفيء فليس لأحد فيه على أحد أثرة، قد فرغ الله عز وجل من قسمه، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله، به أقررنا وعليه شهدنا، وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فسلموا ـ رحمكم الله ـ فمن لم يرض بهذا، فليتول كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأولئك هم المفلحون.. فلا يقولنّ رجال قد كانت الدنيا غرتهم، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار، وركبوا أفره الدواب، ولبسوا ألين الثياب، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً إن لم يغفر لهم الغفار فلا يقولن إذا منعتهم ما كانوا فيه يخوضون، وصيَّرتُهم إلى ما يستوجبون، فينقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون ظلمنا ابن أبي طالب، وحرمنا ومنعنا

حقوقنا، فالله عليهم المستعان!!.. ألا وإن للمتقين عند الله أفضل الثواب، وأحسن الجزاء والمآب، لم يجعل الله تبارك وتعالى الدنيا للمتقين ثوباً، وما عند الله خير للأبرار».

ثم قال: «لو كان المال مالي لسَوّيت بينهم، فكيف والمال مال الله وهؤلاء عباده؟!».

وبدأ خلافته بتحديد وظيفة المال وتنفيذ مبدئه الذي أوجزه في قوله: «إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بتخمة غني».

دخلت عليه أخته أم هانىء بنت أبي طالب، فدفع إليها عشرين درهماً، سألت أم هانىء مولاتها الفارسية: «كم دفع إليك أمير المؤمنين». فقالت: «عشرين درهماً». فطلبت من أخيها أن ينصفها فيميزها فقال لها: «يا أختاه انصرفي رحمك الله. ما وجدنا في كتاب الله فضلاً لآل إسماعيل على آل إسحاق!».

ولذلك عندما عاد بعض المهاجرين والأنصار فألحوا عليه أن يفضلهم في العطاء لأنهم أصحاب سابقة في الإسلام ـ كما كان يفعل عمر ـ قال لهم مؤنباً: «إني لا أرزؤكم من فيئكم شيئاً! أفترونني مانعاً نفسي وولدي ومعطيكم؟! لأسَوينَّ بين الأسود والأحمر.. والله لقد أدركت أقواماً كانوا يبيتون لله سُجَّدًا وقياماً كأن صرير النار في آذانهم، وإذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في اليوم العاصف... إن لله حدوداً فلا تتعدوها، ولقد فرض فروضاً فلا تنقصوها، وأمسك عن أشياء لم يمسك عنها نسياناً بل رحمة من الله لكم فاقبلوها ولا تكلفوها. الحلال بيِّن والحرام بيّن والشبهات بَيْنَ ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه فهو لما استبان له أترك، والمعاصي حمى الله، فمن رتع حولها يوشك أن يقع فيها.. ومن حام حول الحمى وقع فيه!».

وتعود أن يوزع كل مال يجيئه ولا يبقي منه شيئا في بيت المال..

وبعد أن يفرغ من توزيع المال يذهب إلى بيت المال فيكنسه، ويصلي فيه.

تولّى علي أمر الناس بعد مقتل عثمان بأيام في أواخر ذي الحجة عام ٣٥ هجرية. وبعد البيعة وقف يخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر. الفرائض أدُّوها إلى الله سبحانه يُؤَدِّكمْ إلى الجنة. إن الله حرم حُرَماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحُرَمِ كلها، وشَدَّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة. . . . اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده. إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه، **﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾**. صدق الله العظيم».

ورجع أمير المؤمنين إلى بيته فأتاه طلحة والزبير في عدد من الصحابة فقالوا: «إنَّا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء قوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل». فقال: «يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم (جمع عبد)، وثابت (رجعت واجتمعت) إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟». قالوا: «لا». قال: «فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً إلا أن يشاء الله. إن هذا الأمر أمر جاهلية. وإن لهؤلاء القوم مادّة[1] وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها

(١) ما يعانون به، وكان كرم الله وجهه يشعر بوجود مؤامرة ويحاول أن يكشف عنها، ويشعر أن هناك من أعداء الإسلام من يعين المتآمرين. . وكان هذا رأيه منذ قتل عمر رضي الله عنه.

أبداً. إن الناس من هذا الأمر - إن حُرِّكَ - على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق. فاهدأوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا».

كان المهاجرون كلهم قد بايعوا علياً إلا قليلاً، منهم سعد بن أبي وقاص الذي اعتزل الأمر ولزم بيته في آخر عهد عثمان لما اختلف معه، فقال علي لسعد حين أصر على الاعتزال وعدم البيعة: «والله ما عليك مني بأس».

ومن المهاجرين الذين لم يبايعوا عبد الله بن عمر الذي ثار به بعض أنصار علي فصرفهم عنه الإمام وقال: «أنا ضَامِنُهْ».

وبايع الأنصار إلا نفراً يسيراً منهم حسان بن ثابت، وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة.. ذلك أن محمد بن مسلمة قال إن الرسول أمره باعتزال الناس إذا انفجرت الفتنة... كما رفض البيعة بنو أمية كما ذكرنا آنفاً، وفروا جميعاً إلى مكة..

فاشتد أمير المؤمنين على قريش، وحال بينهم وبين الخروج من المدينة. فقال رجال في المدينة: «والله إن علياً لَمُسْتَغْنٍ برأيه وأمره عنا، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره[١]».. وقال آخرون: «لَتَرْكُ هذا الأمر إلى عليٍّ أمثل». فلما سمع عليٌّ ذلك طلبهم فذكر حاجته إليهم جميعاً وأشاد بفضلهم، وحسن بلائهم.

ودخل عليه المغيرة بن شعبة فقال له: «يا أمير المؤمنين إن لك عندي نصيحة. قال: «وما هي؟» فقال: «إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة على الكوفة، والزبير على البصرة، وابعث لمعاوية بعهده على الشام حتى تلزمه طاعتك، فإذا استقرت لك الخلافة فادْرَأْهُمْ[٢]

(١) يقصدون عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) إدفعهم.

كيف شئت برأيك» فقال علي: «أما طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما، وأما معاوية فلا يراني الله مستعملاً له ولا مستعيناً به ما دام على حاله، ولكني أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون[1]. فإن أبى حاكمته إلى الله تعالى».

فانصرف المغيرة عن الإمام مغضباً لما لم يقبل منه النصيحة. ثم أصبح فجاءه قائلاً: «أمير المؤمنين، نظرتُ فيما قلت بالأمس وما جاوبتني به، فوجدتُ أنك قد وُفِّقتْ للخير وطلبت الحق».

وانصرف فلقيه الحسن بن علي وهو خارج، فسأل أباه عما قال المغيرة، قال علي: «أتاني أمس بكذا، وأتاني اليوم بكذا». قال الحسن: «نصحك والله أمس، وخدعك اليوم». فقال له علي: «إن أقررتُ معاوية على ما في يده كنت متخذ المضلين عضداً، ولا يراني الله كذلك أبداً».

وقال المغيرة في ذلك:

نصحتُ عليًّا في ابن هند نصيحة	فردت فلا يسمع لها الدهر ثانِيه
وقلت له: أرسل إليه بعهده	على الشام حتى يستقيم معاويهْ
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته	فأم ابنِ هند بعد ذلك هاويهْ
وتحكم فيه ما تريد فإنه	لَدَاهِيَةٌ ـ فارفق به ـ وابن داهيهْ
فلم يقبل النصح الذي جئته به	وكانت له تلك النصيحة كافيه

وقال له عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: «يا أمير المؤمنين أنا أشير عليك أن تثبت معاوية وحده فإن فيه جرأة، فإن بايع لك فَعَلَيّ أن أقلعه من منزله» فقال علي: «والله لا أعطيه إلا السيف» ثم تمثل بقول الأعشى:

---

(١) البيعة.

وما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها[1]

فقال عبد الله بن عباس: «يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، لست بصاحب رأي[2] في الحرب، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحرب خدعة؟» قال علي: «بلى» فقال ابن عباس: «أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد وِرْدٍ[3]، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها، في غير نقصان عليك ولا إثم لك».

ولكن الإمام رفض أن يكيد كما يكيد معاوية.

كان يقول: «أنا أدهى من معاوية، ولولا التقى لكنت أدهى العرب».

فلما رآه ابن عباس سيعالج المكر بشجاعة الصراحة ونبالتها، ولن يرد على الكيد بالكيد قال له: «أطعني، والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة تضطرب ولا تجد غيرك. فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً!» قال علي: «تشير علي وأرى. فإذا عصيتك فأطعني» قال: «أفعل، إن أيسر ما لك عندي الطاعة» فقال علي: «تسير إلى الشام فقد وُلِّيتهَا». فقال ابن عباس: «ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية، وهو ابن عم عثمان وعامله، ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان. وإن أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك. إن كل ما حُمِلَ عليك حُمِل عَلَيَّ. ولكن اكتب إلى معاوية فَمَنِّهِ وعِدْهُ» فقال الإمام: «لا والله لا كان هذا أبداً».

وعزل أمير المؤمنين عمال عثمان... لم يُثَبِّتْ منهم غير أبي

---

(١) ما اغتال النفس وأهلكها.

(٢) يعني المكر والحيلة.

(٣) أي يكون حالي معهم كمن يرجع قوماً من الماء بعد أن وردوه.

موسى الأشعري على الكوفة.. فوَلّى على البصرة عثمان بن حُنَيْف الأنصاري، وأخاه سهل بن حنيف الأنصاري على الشام. وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على مصر.. وفرح الأنصار بهذا الاختيار...

وبعث ابن عمه عبيد الله بن العباس أخا عبد الله بن العباس إلى اليمن..

فأما عامل عثمان على البصرة وهو ابن خاله عبد الله بن عامر فقد أخذ ما في بيت المال وفر به إلى مكة حيث كان بنو أمية الذين فروا من المدينه ينتظرون!

ووافاهم عامل عثمان على اليمن أبو يعلى بن أمية ومعه ما نهبه من بيت المال وهو مال كثير ونحو ستمائة بعير، وتوافى عليهم في مكة مَنْ خلعهم عليٌّ من عمال عثمان. كلٌ منهم بما نهبه من بيت مال ولايته!!

وأرسل أبو موسى الأشعري بيعة أهل الكوفة، كما أرسل قيس بن سعد بن عبادة بيعة أهل مصر، إلا قليلاً لزموا قرية في إقليم البحيرة اسمها خِرْبِتًا واعتزلوا فيها.. فتركهم قيس آمنين..

أما سهل بن حنيف الذي ولاه الإمام على الشام فقد لقيه جماعة من فرسان الشام بتَبُوك بين وادي القرى والشام، فهددوه بالقتل إن هو دخل الشام، وردوه إلى المدينة.

فلما عاد إلى المدينة دعا عليٌّ كبار الصحابة وفيهم طلحة والزبير - رضي الله عنهم - فقال: «إن الأمر الذي كنت أحذركم منه قد وقع... وإنها فتنة كالنار، كلما سُعِّرت ازدادت اضطراماً واستثارت» فقال طلحة والزبير: «ائذن لنا نخرج من المدينة، فإما أن نكاثر وإما أن تدعنا». فقال: «سأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بُدّاً فآخر الدواء الكي».

وعاد الإمام يرسل إلى معاوية فيطالبه بالبيعة والدخول فيما دخل فيه الناس ولزوم الجماعة، فلا يرد معاوية!! والإمام يستحثه ليبايع، حتى

إذا مرت ثلاثة أشهر أرسل معاوية رجلاً من بني عبس ومعه كتاب، فلما فضه عليٌّ وجده خالياً من الكتابة! فقال للرسول: «ما وراءك؟!» قال: «وأنا آمن؟». قال الإمام: «إن الرسل لا تقتل» قال: «تركت قوماً لا يرضون إلا بالقَودَ»[1]. قال الإمام: «ممن». قال العبسي: «من خيط رقبتك! وتركت ستين ألف شيخ كلهم يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق» قال الإمام: «أمني يطلبون دم عثمان؟ ألست موتوراً بترة[2] عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً أصابه. اخرج، قال العبسي: «وأنا آمن؟» قال الإمام: «وأنت آمن» وحاول بعض أصحاب الإمام أن يفتكوا بالعبسي، فأنقذه الإمام وحماه... ثم أمر بعض أصحابه أن يحسنوا إليه، فما زالوا به حتى انضم إليهم وهجر معاوية، وكشف لهم خطة معاوية للقتال، وللزحف على المدينة، وما يدور بين معاوية وبين خصوم الإمام من مراسلات...

ورأى علي أن يتجهز لقتال معاوية، وألا ينتظر حتى يزحف على المدينة معاوية بجيش الشام، بل فليخرج إليه الإمام بجيشه ليلزمه الطاعة واتباع الجماعة.

وأرسل الإمام إلى قيس بن سعد واليه على مصر وإلى سائر الولاة ليتجهزوا، ويتوافوا إلى الشام لصد جيش معاوية الذي يتهيأ للزحف على دار الهجرة ومثوى النبي وعاصمة الإسلام.

وجاء طلحة والزبير يريدان الخروج من المدينة فقال لهما علي مترفقاً ملاطفاً: «أحب أن تكونا معي، فاني أستوحش لفراقكما».

وفي الحق أنه كان يحبهما، ويأنس إليهما، فالزبير ابن عمته، وهو

---

(١) القصاص.

(٢) الترة: الثأر والظلم فيه، والموتور من لم يدرك ثأره.

وطلحة رفيقا جهاده، وزميلاه في الأيام الشداد الباهرة الرائعة الزاخرة بالبطولات والخطر والانتصارات: أيام الجهاد في سبيل الله. تحت راية الرسول ﷺ..! وكلهم من العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة.. وكم من غزوة شهدها طلحة والزبير تحت قيادة عليٍّ حامل لواء الرسول..!!

ثم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كانت بمكة بعد أن فرغت من الحج، ومعها بعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بعد أن فرغن من الحج وكن ينتظرن جميعاً أن يعتمرن في أول المحرم.

ولكن أنباء مشوشة وصلت إلى عائشة رضي الله عنها عن مصرع عثمان والبيعة لطلحة رضي الله عنهما، فأسرعت إلى المدينة.

ولم يكد ركبها يقطع ستة أميال من مكة في الطريق إلى المدينة، حتى جاءها الخبر اليقين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل حقاً، وأن علياً كرم الله وجهه هو الذي بويع بالخلافة.. جاءها بهذه الأنباء ابن أختها عبد الله بن الزبير فأمرت الركب أن يعود إلى مكة. فلما بلغت مكة سألها عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة عما أعادها، فقالت: «قتل عثمان ـ والله ـ مظلوماً. والله لأطلبن بدمه». فقال ابن عامر: «وأنا أول طالب».

وذهبت إلى البيت الحرام فتسترت بالحِجْرِ، وشاع الخبر في الناس، وكان بنو أمية يتوافدون خفية على مكة يثيرون الذعر مما حدث في المدينة، ومما عسى أن يصنع علي بالناس منذ أعلن أنه سيرد القطائع إلى بيت المال، ويعيد إليه كل ما أخذ منه بغير حق، ولو كانوا قد تزوجوا به النساء، واشتروا به الإماء!! ومنذ أعلن أن الله جعل للفقراء حقوقاً في أموال الأغنياء غير الزكاة، وأنه ما أتْخِم غني إلا بجوع فقير!!

وفي الحِجْر أمام الكعبة اجتمع الناس إلى أم المؤمنين فوصفت لهم ما بلغها عن مقتل عثمان. قالت: «إن الغوغاء من أهل الأمصار

وأهل المياه البدو أو الأعراب وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام والله لإصبع من عثمان خير من طِبَاق الأرض أمثالهم! والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خَبَثِهِ والثوب من دَرَنِهِ..».

وإذن فقد اجتمع في مكة يطالب بدم عثمان كل من: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبنو أمية الذين هربوا من المدينة وعلى رأسهم أولاد عثمان ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، ثم عامل عثمان السابق على البصرة عبد الله بن عامر ويعلى بن أمية عامل عثمان السابق على اليمن، وسائر الذين عزلهم الخليفة الجديد، والذين طالبهم برد ما تحت أيديهم من قطائع، ومَنْ خافوه على ثرواتهم!!

وعلم الإمام بما يجري في مكة، فأصابه الحزن، والاشفاق على وحدة الأمة!

ودعا الله أن يعصم الأمة من الفرقة لتعود كما كانت من قبل صفاً واحداً كالبنيان المرصوص.

الإمام في المدينة يدعو الله أن يُوَحِّدَ الأمة.. وأنباء استعداد معاوية للزحف على المدينة تترى!

فرأى الإمام أن يخرج للقاء معاوية الخارج عليه وعلى الجماعة، قبل أن يزحف على المدينة بجيش الشام، ويمزق شمل الأمة!

ودعا الإمام عليٌّ ابنه محمد بن الحنفية فدفع إليه اللواء، ليقضي على الفتنة في مهدها.

ثم نودي: الصلاة جامعة.

فلما اجتمع الناس في المسجد، وقف الإمام خطيباً فقال: «إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح، لا

يهلك عنه إلا هالك، وإن المبتدعات والشبهات من المهلكات إلا من حفظ الله. وإن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير مَلْوِيَّةٍ ولا مُسْتَكْرَهٍ بها، والله لَتَفْعَلُنَّ أو لينقلَنَّ الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبداً.. انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق».

واثَّاقل إلى الأرض بعض الناس، ونشط آخرون فتجهزوا للقتال.

وجاء طلحة والزبير رضي الله عنهما إلى أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله وجهه، فطلبا منه أن يأذن لهما بالخروج إلى مكة لأداء العمرة.

فقال لهما: «ما العمرة تريدان، إنما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما، امضيا» فمضيا.

وأتبعهما بصوته المرتفع يتلو قول الله تعالى: **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه اللَّه فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾**...

فلما أقبل طلحة والزبير على أم المؤمنين عائشة ومن معها قالت لهما: «ما وراءكما؟» فقالا لها إنهما هربا من غوغاء المدينة وأعرابها.. ثم أضافا: «وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعُون أنفسهم!» قالت: «انهضا إلى هذه الغوغاء» قالا: «بل نأتي الشام» فقال عبد الله بن عامر والي البصرة السابق: «قد كفاكم معاوية الشام فَأْتُوا البصرة فإن لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوى» قالوا: قَبَّحَكَ الله، فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب، فَهَلاَّ أقمت كما أقام معاوية فنكتفي بك، ثم نأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم مذاهبهم؟».

ورأت أم المؤمنين أن يذهبوا إلى المدينة، فيطالبوا بدم عثمان، ويظفروا بقَتَلَتِهِ، فقال طلحة والزبير: «يا أم المؤمنين، دعي المدينة، فإن من معنا لا يطيق من بها من الغوغاء، واشخصي معنا إلى البصرة، فإنا

نأتي بلداً قد أُضِيعت وصارت إلى عليٍّ، وقد أُجْبرنا على بيعته، وهم محتجّون علينا بذلك وتاركوا أمرنا إلا أن تخرجي فتأمري ما أمرت بمكة، فإن أصلح الله الأمر كان الذي أردنا، وإلا دفعنا بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد» فقالت لهما: «أتأمرانيَ بالقتال؟» قالا: «لا. ولكن تعظين الناس وتحرضينهم على الطلب بدم عثمان». فَقَبِلَتْ، وشَرَعَتْ تَهيأ للسفر إلى البصرة.

فلما علم الإمام بما يجري في مكة حزن حزناً شديداً، ورأى أن يخرج إلى مكة، فيدعو إلى وحدة الكلمة.. ويناقش طلحة والزبير رضي الله عنهما فيما دفعهما إلى الخروج عليه، وفي استنفارهما أم المؤمنين رضي الله عنها..؟!

أَبَدَّل شيئاً فيما بينهم وبين الله من ميثاق؟!

ورأى أن يحاور أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عسى أن يقنعها بأنه لا قدرة لأحد على أن يقبض على قتلة عثمان الآن، وهم ما زالوا على أعناق الناس في المدينة، وأنه لا بد من إمام تبايعه الأمة جميعاً، ليرسي العدل، ويقيم الحدود، ويقود المسلمين ويحمي الثغور.. فالخير للإسلام أن يتفق الجميع، وأن يحملوا معاوية ـ الذي شذ عنهم بجند الشام ـ على البيعة، ولزوم الجماعة، وعندما يستقر الأمر لولي الأمر سيصبح له إذن سبيل على القتلة، وسلطان على مثيري الفتنة! إنه لا بد من إمام يجتمعون عليه ليقوم عمود هذا الدين وإلا تمزق المسلمون!

وأصبح عليٌّ ذات صباح فسمع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قد هرب إلى الشام لينضم إلى معاوية ويعلن مثله العصيان، ويفارق الجماعة ويشق عصا الطاعة!!

ولم يصدِّق الإمام.. ولكن الناس أكثروا عليه في هذا الزعم،

حتى جاءت ابنته أم كلثوم التي مات عنها عمر، فقالت إن عبد الله ما سافر إلى الشام، بل سافر إلى مكة معتمراً.. وقالت: «أنا ضامنة له». فقال علي: «والله ما كذبت يا بنتي ولا كذب، وإنه عندي ثقة».

وفي مكة نادى منادي أم المؤمنين: «إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المُحِلِّين[1] والطلب بثأر عثمان وليس له مركب ولا جهاز فليأت».

فلحق بهم نحو ثلاثة آلاف رجل أعان على جهازهم أبو يعلى وابن عامر، وتقدمهم طلحة والزبير فسبقا في الطريق إلى البصرة، ومعهما أبناء عثمان.

وخرجت عائشة من مكة فتبعتها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق على مقربة من مكة يودعنها، وخرج خلق كثير يودعونها، ويتوجعون لما حدث!

وبكى الناس أحر بكاء على الإسلام! فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم، حتى لقد سمي «يوم النحيب»..!

وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على جمل ضخم اشتراه أبو يعلى، وقد جعل لها هودج من حديد ودروع، وجعل فيه موضع لعينيها..

وكانت قد حاولت من قبل أن تقنع أمهات المؤمنين أن يخرجن معها، فاعتذرن عن عدم الخروج في صمت. أما أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما فوافقت، وتهيأت للخروج معها إلى البصرة، ولكن شقيقها عبد الله بن عمر ـ الذي أتى مكة ـ منعها قائلاً: «والله ما أحب أن لي الدنيا وما عليها وأني أظهرت أو أضمرت عداوة عَلِيٍّ. لقد أمر

(١) الذين استحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام كما قالت أم المؤمنين من قبل.

الله أمهات المؤمنين بغير هذا فقال: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ وأنت من أمهات المؤمنين، فلا تخالفي الله ورسوله يا بنت عمر» فلزمت حفصة رضي الله عنها دارها بالمدينة، ولم تدخل في الأمر. وحين سمعت عائشة ما قاله عبد الله لشقيقته حفصة قالت: «غفر الله لعبد الله بن عمر» رضي الله عن الجميع.

أما أم المؤمنين أم سَلَمَةَ فجاءتها عائشة رضي الله عنهما فقالت: «أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله ﷺ، وأنت كبيرة أمهات المؤمنين.. وأنت...»، فقاطعتها أم سلمة: «لأمر ما قلت هذا!» قالت عائشة: «إن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحة، فاخرجي معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا». فقالت أم سلمة: «يا عائشة إنك تعرفين منزلة علي عند رسول الله ﷺ. فأي خروج تخرجين بعد هذا؟» فقالت عائشة: «إنما أخرج للإصلاح بين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله» قالت أم سلمة: «أي أجر يا عائشة؟! قال تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ عودي فقرّي في بيتك».

ثم أن أم سلمة أرسلت إلى علي رضي الله عنهما: «يا أمير المؤمنين لولا أن أعصي الله تعالى عَزَّ وجَلَّ ـ وأنت لا تقبل مني هذا ـ لخرجت معك. وهذا ابني عمر يشهد معك مشاهدك» وأرسلت ابنها عمر بن سَلَمَة بهذا الكتاب، وجَهَّزَته للحرب!

وكان بعض أصحاب عائشة رضي الله عنها، قد جاؤوا عبد الله بن عمر في مكة فقالوا له: «إن عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس، فاشخص معنا، فأنت أحقُّ بها (أي بالخلافة) وإن علياً يرى إنفاذ بيعته، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له، فإن سِرْتَ معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور، وإلا فهي الهلكة». فقال: «إن بيت عائشة خير لها من هودجها، وإن المدينة خير لكم من البصرة، والذل خير لكم من السيف.

ولن يقاتل علياً إلا من كان خيراً منه، وإن الشورى والله قد كانت».

وجاءت الأنباء إلى الإمام بخروج عائشة وأصحابها من مكة، ثم علم بزحف معاوية بجيش الشام إلى المدينة..!..

وجمع الإمام كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وقال لهم: «وأيم الله ما زلت مبغياً عليَّ منذ قضى رسول الله ﷺ، وأيم الله لأقاتِلنّ بمن أطاعني من عصاني».

لقد رفض الإمام علي أن يصدِّق أن عائشة وطلحة والزبير سيحاربونه.. ورأى أن يخرج إليهم قبل أن يتجه إلى معاوية ليوحد الصف، ويلزموا هم معه معاويةَ الطاعةَ.. ولكنه علم أنهم كانوا قد اجتمعوا مع آخرين في بيت عائشة فقال بعضهم: «نسير إلى علي فنقاتله في المدينة». فقال آخرون: «ليس لكم طاقة بأهل المدينة، ولكنا نسير حتى ندخل البصرة والكوفة، ولطلحة بالكوفة شيعة وهوى، وللزبير بالبصرة هوى ومعونة».

مهما يكن ما بلغه فلا بد له من أن يسير إليهم، فيدعوهم إلى جمع الشمل، ويثنيهم عن الخروج إلى البصرة.

ولكنهم كانوا قد خرجوا من مكة..

وحين علم الإمام عليٌّ بخروجهم من مكة قال: «إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل. ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد مَالؤوا على سُخْط إمارتي، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفُّوا، وأقتصر على ما بلغني عنهم».

وأقام في المدينة يدعو الله في ضراعة وإشفاق أن يردهم إلى وحدة الصف..

فلما تيقن أنهم يريدون البصرة، قال: «إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه».

وخرج من المدينة حزيناً، عساه يلحق بهم قبل أن يدخلوا البصرة!

وعلى باب المدينة أمسك عبد الله بن سلام بعنان جواده، وسأله ألا يبرح من المدينة لأنه إن خرج منها فلن يعود إليها أبداً..!!

ولكن الإمام مضى موجع القلب دامع العين وهو يدعو الله أن ينقذ الإسلام، ويجنب المسلمين الفتنة، وينقذهم من الشقاق، ويهديهم إلى الوفاق!!

أكان عليه أن يأخذ بنصيحة ابن عمه عبد الله بن العباس، ويثبت معاوية على الشام؟!

ولكن الإمام ما كان يستطيع إلا أن يتبع سياسة الإمامة مهما تجر عليه.. وها هو ذا معاوية يجرىء عليه الناس كما أنذر ابن عباس من قبل!! ولكن الإمام كان قد استيقن من قبل أنه لا يستطيع استعمال معاوية، وهو يعيب عليه سياسته في الناس!!

فما كان من خلق الإمام أن يهادن في الحق أو أن يتنازل أو يساوم فيه أو يمكر!!

وما انْفَكّ يعلن بكل صراحة الإمامة وورعها وتقواها: «لا آتي أمراً أجد فيه فساداً لديني طلباً لصلاح دنياي. وما كنت متخذ المضلين عضداً».

لما سارت عائشة وطلحة والزبير يريدون البصرة بمن شايعهم، أقبل عليهم المغيرة بن شعبة في بعض الطريق، فقال: «أيها الناس. إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم[1] فارجعوا بها خير لكم.. وإن كنتم غضبتم

(١) يعني أم المؤمنين.

لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان. وإن كنتم نقمتم على عليٍّ شيئاً فبينوا ما نقمتم عليه. أنشدكم الله. فتنتان في عام واحد!!».

ومضى عنهم.. وتقدم القوم في الطريق إلى البصرة.

وفي بعض الطريق وقف سعيد بن العاص يخطب أقاربه من بني أمية، وقد خلفوا وراءهم غير بعيد عائشة وطلحة والزبير وأشياعهم. فقال: «إنكم إنما تخرجون تطلبون بدم عثمان، فإن كنتم تريدون ذلك فإن قتلة عثمان على أعجاز هذه المطي وراءكم فميلوا عليهم بأسيافكم. وإلا فانصرفوا إلى منازلكم ولا تقتلوا في رضا المخلوقين أنفسكم فلن يغنوا عنكم يوم القيامة شيئاً». فقال مروان وهو أشد القوم دهاء ومكراً: «لا بل نضرب بعضهم ببعض، فمن قتل كان الظفر فيه، ومن بقي طلبناه وهو واهن ضعيف».

ولكن أحد الملأ من بني أمية قال لسعيد: «بل نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً».

فخلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فسألهما: «إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟ أصدقاني». قالا: «لأحدنا أينا اختاره الناس». قال: «بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه» قالا: «ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم». قال: «أفلا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف» فرجع ببعض بني أمية، وقال مروان: «أما أنا فهواي الشام» ورحل إلى معاوية... ولحق بقية بني أمية بعائشة والزبير وطلحة.

حتى إذا انتهوا إلى ماء سمعوا نباح كلاب.. فسألت عائشة مُتَوجِّسةً: «أي ماء هذا؟» قالوا: «ماء الحوْأب» فرصخت في ذعر: «ما أراني إلا راجعة!».

وبهت الجميع!

ثم سألوها: «ولِمَ يا أم المؤمنين». قالت: «سمعت رسول الله

يقول لنسائه: كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب. ثم اتجه إلي وقال: إياك أن تكوني أنت يا حُمَيْراء».

ولكن ابن أختها عبد الله بن الزبير حلف لها: «بالله لقد خلفت ماء الحوأب أول الليل». وجاء لها بشهود زور خمسين من الأعراب فحلفوا على ذلك!

ومضى الركب في طريقه إلى البصرة.

وحين اقتربوا من البصرة.. وجدوا طلحة يحب الانفراد بنفسه.. فقال له رجل: «أرى أحب المجالس إليك أخلاها، وأنت ضارب بلحيتك على زورك!».

قال طلحة رضي الله عنه في حسرة: «بينا نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً، إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه»!

وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى بعض القرشيين المقاتلين المرابطين بالبصرة تأمرهم بأن يخرجوا لنصرتها، أو فليقروا في بيوتهم، فقالوا:

رحم الله أم المؤمنين! أُمرَتْ أن تَلزم بيتها وأُمِرْنا أن نقاتل، فتركت ما أُمَرَتْ به وأمرتنا به، وصنعت ما أمرنا به ونهينَا عنه.

وخرج شاب من بني سعد إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما فقال: «أما أنت يا زبير فحوارِيُّ رسول الله ﷺ، وأما أنت يا طلحة فَوَقَيْتَ رسول الله ﷺ بيدك، وأرى أمكما معكما، فهل جئتما بنسائكما؟» قالا: «لا».. قال: «فما أنا منكما في شيء» واعتزل.

وشرع رجال القبائل الذين جاؤوا مع عائشة وأصحابها يتصلون برجال قبائلهم في البصرة.

فاستعر غضب رجال القبائل الأخرى، وانتظروا جيش علي لينضموا إلى من جاء معه من قبائلهم.. واضطرمت العصبية كما كانت

في الجاهلية!! وهذا كله هو ما كان يحاربه علي وطلحة والزبير تحت راية الرسول، ولقد شهدت عائشة العرب يتطهرون منه منذ عهد الرسول.. حين ألف الإسلام بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً..

وأقامت عائشة وأصحابها خارج البصرة في انتظار الفرصة السانحة لدخولها.. ولكن البصرة كانت قد بايعت علياً من قبل، ودانت لعامل عليٍّ عليها عثمان بن حنيف الأنصاري.

أما عليٌّ فإنه لما خرج من المدينة توافى عليه آلاف المساكين والأتقياء وعشاق العدل والمحبون.. وخرج معه أولاده وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار في طليعتهم عمار بن ياسر الذي قال عليٌّ عنه إن الرسول كان إذا استقبله قال: «مرحباً بالطيب المطيّب» والذي قال عنه الرسول ﷺ: إن عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه (رؤوس العظام كالمرفقين والمنكبين والركبتين)..» وقال عنه: «إنما تقتله الفئة الباغية».

وقد جاء عمار إلى الكوفة يطلب نصرة أبي موسى الأشعري، والي الكوفة. فطلب أبو موسى من الناس أن يعتزلوا فهي الفتنة.. فقال عمار للناس في المسجد: «أيها الناس إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين، ولعمري ما صدق فيما قال. وما رضي الله من عباده بما ذكر. قال الله عز وجل: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى**﴾. وقال: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾. فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا في بيوتهم ويخلوا بين الناس، فيسفك بعضهم دماء بعض! فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين، واسمعوا منهم، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه فإن أصلح الله أمرهم رجعتم مأجورين وقد قضيتم حق الله، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية، فقاتلتموها حتى تفيء إلى أمر الله كما أمركم الله، وافترض عليكم».

وعاد عمار إلى الإمام عليٍّ فأخبره بأمر أبي موسى، فأوفده ومعه ابنه الحسن، وابن عباس، وقيس بن سعد بن عبادة، إلى أبي موسى وأهل الكوفة بكتاب جاء فيه: «أما بعد فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه كمن عاينه. إن الناس طعنوا على عثمان، فكنت رجلاً من المهاجرين أقل عيبه، وأكثر استعتابه[1]. وكان هذان الرجلان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه اللهجة والوجيف[2]، وكان من عائشة فيه قول عَلَى غضب، فانتحى له القوم فقتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين، وهما أول من بايعني على ما بويع عليه من كان قبلي، ثم استأذَنَا في العمرة، فأذنت لهما، فنقضا العهد، ونَصَبَا الحرب، وأخرجا أم المؤمنين من بيتها ليتخذاها فتنة، وقد سارا إلى البصرة اختياراً لأهلها، ولعمري ما إياي تجيبون، ما تجيبون إلا الله». ثم أمر بعزل أبي موسى الأشعري، وولى مكانه الأشتر.

فبايع أبو موسى الأشعري لعليٍّ، وبايع معه أهل الكوفة جميعاً لم يتخلف منهم رجل!.. وكان عثمان بن عفان قبل حصاره الذي قتل فيه بأيام قد ولى أبا موسى الأشعري على الكوفة!

ونزل طلحة والزبير ومعهم عائشة البصرة، فتكاثر عليها الناس يسألونها: «لماذا خرجْت؟! ما الذي أخرجك من بيتك؟» ويسألون طلحة والزبير «أتحافظون على نسائكم في البيوت وتخرجون امرأة من نساء النبي من اللاتي أمرهن الله أن يَقَرْنَ في بيوتهن»؟!

فلما أكثر الناس قالت لهم: «أيها الناس والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يُسْتَحَلّ دمه، ولقد قُتِلَ مظلوماً! غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب لعثمان من القتل؟ وإن من الرأي أن تنظروا إلى

---

(١) استرضاءه.

(٢) الإسراع.

قَتَلَةِ عثمان فَيُقْتَلُوا به، ثم يُرَدّ هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب».

واضطرب الناس وماجوا، واختلفوا فيما قالته، حتى ضرب بعضهم وجوه بعض، فأقبل رجل من أشراف البصرة، فأخرج كتاباً، فقال لطلحة: «هل تعرف هذا الكتاب؟ ألم تكتبه لنا بالأمس تؤلبنا على قتل عثمان، فما ردك عما كنت عليه؟» وارتفعت الأصوات وساد الصخب. فصاح ابن قدامة أحد أشراف البصرة: «يا أم المؤمنين، لَقَتْلُ عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون! إنه كانت من الله تعالى حرمة وستر فهتكت سترك. وأبحت حرمتك! إنه من رأى قتالك فقد رأى قَتْلَك، فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتِنا مُستَكرهَة فاستعتبي الله». وتلاحى الناس، ثم تفرقوا..

وجاء مروان بن الحكم من الشام، فأنبأ عائشة وطلحة والزبير أن معاوية يرجو أن يملكوا العراق، فإذا ملكوه سيدعو إلى بيعة طلحة خليفة، ومن بعده الزبير!.. ثم قال لطلحة والزبير: «على من منكما أسلم بالامرة»؟! فقال ابن طلحة: «على أبي». وقال ابن الزبير: «بل على أبي». فقالت عائشة: «أتريد أن تفرق أمرنا يا مروان؟ فليصل بالناس ابن أختي عبد الله بن الزبير».

وفي الحق أن مروان ومعاوية يريدان أن يضربا علياً بعائشة وطلحة والزبير جميعاً، ثم يضربا كل واحد منهم بالآخر، وإنهم جميعاً ليطالبون علياً بدم عثمان!

أتحتمل الأمة هذا الشقاق؟

أخذ الإمام ينظر في أمر معاوية وطلحة والزبير، كيف يجمع شمل الأمة بعد ما خرج الثلاثة عليهم، وتبعتهم قريش إلا قليلاً، لكم لقيت منه قريش أيام الجهاد في سبيل الله، وهو يحمل راية الرسول، ومن

خلفه طلحة والزبير والمجاهدون من الصحابة..!!.. ولكم يلقى هو من قريش الآن!!

وصعد الإمام على المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «..أتيتموني فقلتم بايعنا فقلت: لا أفعل، وقبضتُ يدي فبسطتموها، ونازعتكم فجذبتموها.. وأكثرتم عليّ حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعضاً لدي، فبسطت يدي فبايعتموني مختارين، وبايعني في أولكم طلحة والزبير طائعين غير مُكْرَهين.. ثم لم يلبثا أن استأذنا في العمرة، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة، فجددت عليهما العهد في الطاعة، وأن لا يبغيا الأمة الغوائل فعاهداني ثم لم يفيا لي، ونكثا بيعتي ونقضا عهدي... .اللهم احكم عليهما بما صنعا في حقي، وصغّرا من أمري.. إنما صبرتُ من قبل هذا على غصب حقي، وتحملت ما نالني من القوم تحفظاً (محافظة) على اجتماع شمل المسلمين وبقاء الدين، فمن يعذرني من طلحة والزبير؟! إنهما بايعاني طائعين غير مكرهين، ثم نكثا بيعتي من غير حَدَث أحدثتهُ! اللهم فخذهما بفتنتهما للمسلمين».

فلما جاءت عائشة وطلحة والزبير البصرة قام عثمان بن حنيف عامل البصرة للإمام علي، فصعد منبر المسجد وقال: «يا أيها الناس، إنما بايعتم يد الله فوق أيديكم **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾**. والله لو علم عليٌّ بأن أحداً أحق منه بهذا الأمر ما قبله، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا، وأطاع من ولوا، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة، وما لأحد عنه غنى، ولقد شاركهم في محاسنهم، وما شاركوه في محاسنه، ولقد بايعه هذان الرجلان (طلحة والزبير) وما يريدان الله، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب الله من العباد، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين!.. ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة، والعامة على بيعة علي»

ولقيَ أبو الأسود الدؤلي طلحة والزبير فقال لهما: «إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله، وبايعتم علياً مؤامرين لنا في بيعته، فلم نغضب لعثمان إذ قتل، ولم نغضب لعلي إذ بويع، ثم بدا لكم فأردتم خلع علي ونحن على الأمر الأول، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه».

ثم تكلم عمران بن الحصين صاحب رسول الله إلى طلحة والزبير بمثل ما تكلم به أبو الأسود الدؤلي، ثم دخل أبو الأسود الدؤلي وعمران عَلىَ عائشة فقالا: «يا أم المؤمنين، ما هذا المسير؟ أمعك من رسول الله به عهد؟» قالت: «قتل عثمان مظلوماً، غضبنا لكم من السوط والعصا، ولا نغضب لعثمان من القتل؟!» فقال أبو الأسود. «وما أنت من عصانا وسوطنا؟» فقالت: «يا أبا الأسود بلغني أن عثمان بن حنيف عامل عليٌ على البصرة يريد قتالي». قال: «نعم. قتالاً أهونه قطع الرؤوس»!

ووقفت عائشة تخطب الناس فقالت: «كان الناس يَتَجنّون على عثمان رضي الله عنه، ويُزرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة يستشيروننا فيما يخبرون عنهم، فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقياً وفياً، ونجدهم غَدَرةً كَذَبَةً. وهم يحاولون ما يظهرون، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام بلا ترة ولا عذر، ألا إن ما ينبغي لكم ولا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه، وإقامة كتاب الله ليحكم فيهم».

فاختلف الناس فرقتين: فرقة أيدتها، وفرقة أيدت عثمان بن حنيف.. وقال رجل من البصرة: «يا أم المؤمنين إن كنت خرجت مكرهة فاستعيني بنا نعيدك إلى منزلك، وإن كنت خرجت طائعة فعودي».

وقال شاب من أهل البصرة لطلحة والزبير، «خرجتما بأم المؤمنين، فهل جئتما بنسائكما»؟ فقالا، «لا» قال: «فما أنا منكما في شيء».

فتقاتل الفريقان، وفشت الجراحات في الفريقين..

فرأى طلحة والزبير أنه لا بد من الخلاص من عثمان بن حنيف، فجمعا كل ما استطاعا جمعه من الفرسان واقتحموا دار عثمان في ليلة باردة مظلمة والريح ترعد، فقتلوا أربعين من حراسه واستولوا على بيت المال وجلدوا عثمان، ونتفوا شعر لحيته ورأسه وشعر عينيه تنكيلاً به ثم حبسوه، وأرادوا أن يقتلوه، فارتفعت أصوات تحذرهم من أخيه عامل عليّ على المدينة، الذي سيثأر له من أهليهم في المدينة بلا مراء فأمرت عائشة أن يطلقوا سراحه ويتركوه هائماً في التيه!! ثم أعملوا القتل في أنصار علي بالبصرة وزعموا أنهم قتلة عثمان، حتى قتلوا ستمائة رجل!! فثار لهم ستة آلاف فارس!!.. كما قتلوا عدداً من الموالي حراس بيت المال، فأثاروا عليهم كل الموالي!

وذهب عثمان بن حنيف إلى أمير المؤمنين وهو يستريح في موضع على طريقه إلى البصرة، فلما رآه يبكي أراد الإمام أن يهون عليه فقال له مداعباً: «ويحك يا عثمان بن حنيف، أرسلناك وأنت شيخ كثيف الشعر، فعدت إلينا بلا شعر كغلام أمرد!».

الفصل الحادي عشر

هموم أمير المؤمنين

كان هم الإمام علي أن يوحد الأمة، ويوطد أركان الدولة الجديدة، ويحمي حدودها، وينشر مبادىء الإسلام في الآفاق.

وكان يعرف أن قوة الأمة تنبع من وحدة الكلمة، وجمع ما تشتت من شملها..

وكان همه كرم الله وجهه أن يقيم مبادىء العدل، وأن يشيع مكارم الأخلاق، وأن يجعل المسلمين جديرين بأن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة، ومحمد رسول الله والذين معه من صحابته رحماء بينهم أشداء على الكفار.

وكان هَمّ أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يختار وُلاةً يُعلِّمون الناس الدين، ويدافعون عن الحقوق والحرمات، ويستأدون الناس ما عليهم من واجبات، وأن يكونوا من أولي العزم، حاسمين ورعين ينفعون بتقواهم سواد الناس، لا من أولي القربى أو ذوي الحظوة، ولا جلادين يضربون الناس، ويتسلطون على رقاب العباد!..

وكان هم الإمام أن يحفظ لأهل الذمة حقوقهم، ويقتضي منهم ما عليهم من واجبات، وأن يعاملهم بالقسط والرحمة، فلا يبخسهم أشياءهم.

وكان همه أن يعلم المسلمين أن أهل الذمة إخوانهم، وقد أوصى

بهم الله ورسوله، وحسب المسلم أن يعرف ما قاله الرسول عن الذميين عامة، «أنهم في ذمة الله ورسوله». فمن واجب المسلم الحق أن يتقي الله فيهم، وألا نخفر ذمة الله ورسوله!

وكان هم الإمام أن يعود بالناس إلى شجاعة الرأي، وصدق النصيحة، كما كانوا أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي عهد أبي بكر وعمر، فالشورى واجبة شرعاً، ولا خيار لولي الأمر فيها، بل أنها لتُلْزِمه، وإلا استبد برأيه على الناس، وهذا الاستبداد هو ما يأباه الله ورسوله، هو الذي لعنا مقترفيه!!

إلا أن المستشار مؤتمن كما نص الحديث الشريف، فمن واجب من يستشار أن يحسن المشورة، ويخلص فيها ويصدق، ولا يبتغي بها إلا وجه الله ومصلحة الأمة فحسب.

وفي الحق أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه استشار حتى أسرف عليه المشيرون، وتطوع آخرون بالمشورة والرأي دون سؤال.. وعودهم الإمام على الرغم من هيبته أن يبدوا له حتى هواجس النفوس، ورأى أن هذا أجدى من القمع ومن كبت الرأي!

وكان من هَمّ الإمام أن يحض الناس على التفكير والتدبر، وعلى ألا يطيعوا بلا فهم كالأنعام، وألا يخروا على آيات الله إذا ذُكِّروا بها صماً وعمياناً وإلا كانوا شر الدواب!.

إن الله خلق لهم الحواس والمشاعر والعقل ليروا ويسمعوا ويتدبروا.. فيعرفوا الحسن والقبيح بذاته، وبالعقل، وهو هكذا يُعْرَف قبل أن يحدده الشرع!

فالإمام هَمُّه أن يرتفع بمستوى العقل والإرادة في الإنسان.

وأمير المؤمنين هَمُّه أن تقوم الإمرة على العدل، والورع والتقوى،

وأن يتساوى الناس: كل وعمله. والله يبلوهم ليعرف أيهم أحسن عملاً، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وقد قال تعالى: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**.

والإمام كما قال مراراً وكرر تكراراً لم يجد في القرآن ولا في السنة ولا فيما يقرأ من كتب الأولين، ولا فيما علّمه الرسول من علم، أن للعرب من أولاد إسماعيل فضلاً على غيرهم من أولاد أخيه إسحاق، وكلاهما كان رسولاً نبياً، وكلاهما ولد إبراهيم.

من أجل ذلك أحب الموالي وأهل الذمة الإمام كرم الله وجهه، كما أحبه أهل الورع وأهل التقوى من العرب، وإن كانت قريش على الرغم من مرور جيل بأسره، لم تنس له ما صنعه سيفه البتار ذو الفقار بمُهَج سادتها إذ هم مشركون كفار!..

ويَا للَّهِ ما كان أكثر هموم الإمام أمير المؤمنين!!

فهؤلاء هم المنافقون أيضاً، أظهروا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، وهم يبطنون لأمة محمد شر العداء.. وإنهم ليؤججون الخلافات، وكلما أشعلوا ناراً للحرب أطفأها الله، ولكنهم عادوا فأضرموها، حتى لتمس ألسنتها قلب الإمام، فيستعبر ويبكي، وينذر لله ألا يهدأ حتى يقضي على حزب الشيطان، مهما يجلب على الناس بخيله ورجله!!

وكان حزب الشيطان من شُعَبٍ عديدة: من هؤلاء الذين ما زالوا ينقمون عليه أنه قتل ذوي قرباهم من رؤوس الكفر في المغازي الإسلامية أيام الرسول ﷺ، ومن الحاسدين، ثم الذين يخافونه على دنياهم، إلى هؤلاء المنافقين الذين يشعرون أمام بصيرته أن خراب نفوسهم قد تكشف فجأة، إلى المغالين في حبه، الذين ينتحلون آراءه ويعملون نقيضها!..

وكان جيش أمير المؤمنين مؤلفاً في أغلبه من أهل الورع والتقوى، ومِمّنْ عوَّدهم الإمام حرية التفكير، وأخذهم بالصراحة في التعبير عن

الرأي فكان كل مقاتل في هذا الجيش يجد لنفسه حق مجادلة القائد.. لكل منهم رأيه المستقل، وكأنه أمة وحده!.. وما من أحد منهم يذعن للأمر أو النهي إلا إذا عرف عِلّتهُ وحكمته، واقتنع بجدواه، على خلاف ما هو مألوف في الجيوش في ذلك الزمان، وفي كل زمان ومكان!..

من الحق أنهم اجتمعوا في حب الله ورسوله، دفاعاً عن العدل، وعن حق الإنسان في المساواة والكرامة والحياة الكريمة، تحت راية الإمام علي.. ولكنهم على الرغم من ذلك تعودوا ألا يمضوا خطوة، وألا يأخذوا شيئاً أو يدعوا شيئاً، إلا إذا اقتنعوا وفقهت عقولهم ما يفعلون!.. هم يفعلون ما يُؤْمرون على أن يفهموا سبب الأمر ومغزاه!!

سأله رجل وهم في الطريق إلى البصرة: «يا أمير المؤمنين أي شيء نريد؟» قال: «أما الذي نريد وننوي فإصلاحٌ إن قبلوا منا». قال: «فإن لم يقبلوا؟» قال الإمام: «ندعوهم ونعطيهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به». قال: «فإن لم يرضوا؟» قال أمير المؤمنين: «نَدَعهمُ ما تركونا». قال الرجل: «فإن لم يتركونا؟» قال: «نمتنع عنهم».. قال: «نعم».

واقتنع الرجل بكلام أمير المؤمنين، فتابع السير..

وكان هَمُّ أمير المؤمنين أن يضمن حياة الناس، والإنفاق عليهم وعلى مصالح الأمة بعد أن نهب عمال عثمان المعزولون ما ائْتُمنوا عليه من أموال الدولة جميعاً، حتى والي أذربيجان! كل واحد جاء بما نهبه من بيت مال ولايته!!

جاء عليًا أحد رجاله فقال: «يا أمير المؤمنين، ما أرى عائشة وطلحة والزبير اجتمعوا إلا على حق». فقال: «إن الحق والباطل لا يُعْرَفان بالناس ولكن إعرف الحق تعرف أهله، وأعرف الباطل تعرف من أتاه» فقال: «فهلا أكون كعبد الله بن عمر وسعد يعرفان فأعتزلكم

جميعاً؟ فقال الإمام: «إنهما خذلا الحق، ولم ينصرا الباطل. متى كانا إمامين في الخير يتبعهما الناس»!! فأقسم الرجل أن يتبع أمير المؤمنين وحده!

وأرسل الإمام إلى طلحة والزبير، ابنَ عمه ووزيرَه عبد الله بن عباس وقال له: «قل لهما إن أخاكما يقرئكما السلام ويقول لكما: هل وجدتما علي حَيْفاً في حكم أو استئثاراً في فيء؟ فلما أتاهما وسألهما قالا له: «لا ولا واحدة منهما».. وأضاف الزبير: «قل له إننا مع الخوف الشديد، والتقوى، لنطمع في الملك»!

وعجب الإمام لهذا الرد!.. كيف يمكنه أن ينقذ الأمة من الشقاق.. وهؤلاء النفر ينهضون ضده؟!

قال الإمام يبث بعض أصحابه همومه: «بُليتُ بأطوع الناس في الناس: عائشة، وبأدهى الناس: طلحة، وبأشجع الناس: الزبير، وأكثر الناس مالاً يعلى بن أمية، وبأجود قريش عبد الله بن عامر». فقام إليه رجل من الأنصار، فقال: «والله يا أمير المؤمنين لأنت أشجع من الزبير، وأدهى من طلحة، وأطوع فينا من عائشة، وأجود من ابن عامر، ولمال الله أكثر من مال يعلى بن أمية. ولَتكونَنَّ كما قال الله عز وجل: ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾».

وما برح عليٌّ يرسل إلى طلحة والزبير، يحاول أن يثنيهما عن القتال، وهما مصران على قتاله لأمر ما!..

حتى علم الإمام علي أن معاوية أرسل إلى كل من طلحة والزبير كتاباً حمله مروان بن الحكم، ودعا كلَّ واحد منهما أمير المؤمنين!.. قال معاوية في كتابه إلى الزبير: «إلى الزبير بن العوام أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإني قد بايعتُ لك أهلَ الشام فأجابوا، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد

هذين المِصْرَين[1] وقد بايعت لطلحة بن عُبَيْدِ الله من بَعْدِك، فأظهرا الطَّلبَ بدم عثمان، وادعُوَا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجِدّ، أظفركم الله وخذل مناوئكما».

وتلقى طلحة الكتاب نفسه إلا أنه قال له فيه أنه أخذ البيعة من بعده للزبير!!

فلما تيقن الإمام عليٌّ أن كتاب معاوية أنتج آثاره، وأشعل الأطماع في أعماق الرجلين، وقف يخطب الناس فقال: «قد علم الله أني كنت كارهاً للحكومة بين أمة محمدﷺ، ولقد سمعته يقول: (ما من وال يلي شيئاً من أمر أمتي إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثم ينشر كتابه فإن كان عادلاً نجا، وإن كان جائراً هوى). حتى اجتمع عليَّ مَلَؤكُم، وبايعني طلحة والزبير وأنا أعرف الغدر في وجهيهما والنكث في أعينهما، ثم استأذناني في العمرة، فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان، فسارا إلى مكة واسْتَخَفَّا عائشة وخدعاها، وشخص معهم أبناء الطلقاء (وهم الكفار الذين دخلوا في الإسلام يوم فتح مكة حين قال لهم الرسول اذهبوا فأنتم الطلقاء كأبي سفيان وابنه معاوية وأكثر بني أمية) فقدموا البصرة، فقتلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر. فيا عجبا لاستقامتهما لأبي بكر وعمر، وبَغْيِهِمَا عَليَّ! وهما يعلمان أني لست دون أحدهما، ولو شئت أن أقول لقلت! ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه، فكتماه عني وخرجا يوهمان الطغام أنهما يطلبان دم عثمان، والله ما أنكرا علي منكرا، ولا جعلا بيني وبينهما نَصَفا (إنصافاً)، وإن دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوب منهما! يا خيبة الداعي إلى ما دعا! وبماذا أجيب؟! والله إنهما لَعَلي ضلالة صَمَّاء، وجهالة عمياء، وإن الشيطان قد ذمر (حشد) لهما

---

(١) المصر: هو المكان أو الدولة أو الولاية.

حزبه، واستجلب لهما خيله ورجله، ليعيد الزور إلى أوطانه، ويرد الباطل إلى نصابه! اللهم إن طلحة والزبير قطعاني وظلماني، وألبّا عَلَيّ، ونكثا بيعتي، فاحلل ما عقدا وانكث ما أبرما، وأرهما المساءة فيما عملاً وأملا . .! وإنهم ليطلبون حقاً تركوه، ودماً سفكوه. . وإن أعظم حجتهم لَعَلى أنفسهم، وإني لعلى بصيرتي ما التبست علي. وإنها للفئة الباغية! . . وإني لراض بحجة الله عليهم، وعذره فيهم، إذ أنا راعيهم فمُعْذِرٌ إليهم فإن تابوا وأقبلوا فالتوبة مبذولة والحق مقبول، إن الله لا يظلم الناس وإن الله لا يُضيع عمل عامل. . وإن أبوا أعطيتهم السيف، وكفى بالله شافياً من الباطل، وناصراً للحق».

وأرسل إلى الزبير وطلحة: «أعرفتماني بالمدينة، وأنكرتماني بالبصرة؟! فما تريدان»؟!

فلم يسفرا عما يريدان، فقال: «واعجبا لطلحة! أَلَّبَ الناس على ابن عفان، حتى إذا قتل أعطاني بيعته بيمينه طائعاً، ثم نكث! اللهم لا تمهله! وإن الزبير نَكث بيعتي، وقَطَعَ رَحِمي، وظَاهر عليّ عَدُوِّي، فاللهم اكفنيه بما شئت»!

ولما استيأس أمير المؤمنين عليٌّ من أن عائشة وطلحة والزبير، سيجيبونه إلى السلام، أو إلى حقن الدماء، ورأى ما صنعوا آنفاً بعامله على البصرة عثمان بن حنيف، وقتلهم أنصاره، ولما رجعت رسله من عند عائشة وطلحة والزبير يؤذنونه بالحرب لا محالة! قال: «إني قد راقبت هؤلاء القوم كي يَرْعَوُوا، أو يرجعوا، وَوبَّختهمُ بنكثهم، فلم يستحيوا، وأخرجوا ابن حنيف عاملي على البصرة بعد الضرب المبرح، والعقوبة الشديدة، وقتلوا رجالاً صالحين، ثم تتبعوا منهم من نجا، وقتلوهم صبراً! ما لهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون؟! وقد بعثوا إلي أن أبرز للطعان، واصبر للجلاد، وإنما تمنيك نفسك أماني الباطل، وتعدك الغرور! لقد كنت ما أُهَدَّد بالحرب ولا أُرهب بالضرب. فليرعووا فقد

رأوني قديماً، وعرفوا نكايتي، فكيف رأوني؟!.. أنا أبو الحسن الذي فللت حد المشركين، وفرقت جماعتهم! وبذلك القلب ألقى اليوم عدوي، وإني لعلى ما وعدني ربي من النصر والتأييد وعلى يقين من أمري، وفي غير شبهة من ديني. أيها الناس إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص. من لم يقتل مات، والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة على الفراش»!

فلما أخذ الجنود أماكنهم، واستعدوا للقتال، قام الإمام علي فلبس الدرع، وقلنسوته المصرية البيضاء وقال لرجاله: «يا أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تفرقوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع (كغراب أي الدواب) أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم. ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

وعزم الإمام علي أن يبدأ القتال.

ورأى عائشة تتقدم الصفوف داخل هودجها المدرع على جمل ضخم، وقد ألبسوه جلود النمور، وفوقها الزَّرَد!

وقد أمرت الزبير بن العوام، أن يتولى هو قيادة الجيش، وسمته أمير الجيش، وجعلت تصدر الأوامر، وإذ برجل من أصحابها يخرج من الصفوف وينحاز إلى عسكر الإمام قائلاً: «تقلدت سيفي أريد نصر الزبير وطلحة، فإذا عائشة هي التي تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرها، فأيقنت أن هؤلاء قوم لعنهم الرسولﷺ حين قال: (لعن الله قوماً ولوا أمرهم امرأة!)».

وتحفز الجيشان ولكن أمير المؤمنين أمر أصحابه: «لا تبدأوهم بقتال».

وأخذ يدعو الله في أغوار نفسه أن ينقذ الأمة من هذا البلاء، وأن ينقذ مُهَجَ المسلمين من أسياف المسلمين، وأن يلهم عائشة وطلحة والزبير أن يثوبوا إلى الصلح!

ورأى أن الأمر يحتاج إلى محاولة أخيرة، وإنه ليثق في تقوى ابن عمته الزبير، إذا هو ذكره بما عظه!..

ولا بد لما هو كائن أن يكون!

فقد تراءى الجمعان واقتربا.. فقال الأحنف بن قيس وكان قد بايع علياً بالمدينة: «إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظفرت عليهم قتلت رجالهم وسبيت نساءهم»! قال: «ما مثلي يُخاف هذا منه! وهل يَحلُّ هذا إلا لمن تولى وكفر؟ وهم قوم مسلمون؟!». الإمام يسمي من بايعوه وخرجوا عليه: الناكثين!.. ولم يتهمهم بالكفر. فقال المغيرة: «اختر مني واحدة من اثنتين: إما أن أقاتل معك بأربعة آلاف رجل، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف». قال الإمام: «اكفف عنا عشرة آلاف سيف».

فنادى المغيرة حلفاءه من معسكر عائشة، وقومه من جيش علي، فلم يبق أحد إلا أجابه، واعتزل بهم، فلما انتهى القتال، بايعوا كلهم عَلِيًّا..

وخرج الزبير على فرسه في عدة الحرب، فقال الإمام علي: «أما إنه لأحرى الرجلين إن ذُكِّر بالله أن يذّكر!».

وخرج طلحة، فخرج إليهما علي، فدنا منهما فقال: «لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً!! لا تكونا **﴿كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾**! ألم أكن أخاكما في دينكما تحرّمان دمي وأحرِّم دماءكما: فهل مِنْ حدَثٍ أحل دمي!؟» فقال طلحة. «الانتظار على دم عثمان».

فدهمت المرارة قلب الإمام.. أهو طلحة الذي يقول هذا أمام

الناس، وما من أحد يجهل أنه قد حَرَّض على قتل عثمان؟!..

قال الإمام ووجهه تغشاه ابتسامة ساخرة مشفقة: «يا طلحة! أهو أنت من يطلب دم عثمان؟! فلعن الله قتلة عثمان! يا طلحة، أتيت بامرأة رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبَّأت امرأتك في البيت! أما بايعتني؟! قال: «بايعتك والسيف على عنقي»!

قال لطلحة والزبير: «استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله على خصال أن تصدق فيها: هل تعلم رجلاً من قريش أولى مني بالله ورسوله، وإسلامي قبل كافة الناس أجمعين، وكفايتي رسول الله كفار العرب بسيفي ورمحي، وعلى براءتي من دم عثمان، وعلى أني لم أستكره أحداً على بيعة، وعلى أني لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكما؟».

فرق قلب الزبير، وأشرقت عيناه بالدمع، ولم يقل شيئاً!

أما طلحة فصاح: «كرهناك! نحن ثلاثة أنت واحد ونحن اثنان!».

فقال علي: «ألم تعلم أني ما أكرهت أحداً على البيعة؟ الآن ليس لكما غير ما رضيتما به! كان لكما أن تكرهاني، وألا ترضيا بي قبل الرضا، وقبل البيعة، إلا أن تخرجاني مما بويعت عليه بحدَثٍ، فإن كنت أحدثت حدثاً فسموه لي!. وأخرجتم أمكم وأم المؤمنين عائشة من بيتها. وتركتم نساءكم!! فهذا أعظم الحَدَث منكم! أرضيتم لرسول الله أن تهتكوا ستراً ضربه عليها، وتخرجوها منه؟!».

قال طلحة: «إنما جاءت للإصلاح». قال الإمام: «هي لعمر الله إلى من يُصلح لها أمرها أحوج! أيها الشيخ إقبل النصح، وارض بالتوبة».

فأشاح عنه طلحة..

وعاد الإمام إلى أصحابه فقال: «إن شأنهما مختلف، فأما الزبير

فما أحسبه يقاتلنا وإن قاده اللجاج! وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل ولقيته باليقين، فلقيني بالشك، فوالله ما نفعه حقي، ولا ضَرّني باطله، وهو مقاتل غداً فمقتول في الرعيل الأول»!

وانتظر الإمام ساعات، ورأى أن يعاود الحوار فخرج هذه المرة إليهما وهو حاسر، فقال أصحابه: «ألا نحرسك؟» فقال: «حرس امْرءاً أَجَلُه». فقالوا: «لا تخرج وأنت بقميص واحد وحاسر!» فقال: «لقد قاتلت مع النبي وأنا حاسر، أكثر مما قاتلت وأنا دارع. إنما أنا ذاهب إلى الزبير حواري رسول الله، وابن عمته»!!

وتقدم الإمام وصاح: «أين الزبير»؟

فخرج إليه، ووقف كل واحد منهما ينظر إلى صاحبه: الزفرات تتصاعد حرى، وفي الأعماق جيشان مضطرم من الحب.

وهاجت في قلبيهما الأشجان، وجاش في أعماق كل منهما إشفاق مشوب بالحنين والأسى.. فبكيا.. ثم تعانقا..

قال الإمام علي من خلال الدمع: «ما أخرجك أنت يا زبير؟» قال الزبير: «أنت»! ولم يجد ما يرد به فقد اختنق صوته في غصة، وشرق حلقه بالدموع!..

قال الإمام: «أتذكر يابن العمة يوم مررت مع رسول الله ﷺ، فنظر إلي، فضحك وضحكتُ، فقلتَ أنت: لا يدع ابن أبي طالب غروره. فقال رسول الله ﷺ: إنك لتقاتله وأنت له ظالم؟! فعلام تقاتلني؟!».

شرد الزبير برهة ووجم، ثم تنبه فقال: «اللهم نعم، وقد كنت أنسيتها ولو ذكرتها ما خرجت إليك».

وتأمل الزبير حاله هنيهة، وكفكف دمعه ثم قال: «ولكن كيف أرجع الآن؟ هذا والله هو العار الذي لا يغسله الدهر»! قال: «يا زبير ارجع بالعار، خير من أن ترجع بالعار والنار».

وعاد الإمام عليٌّ إلى أصحابه فقالوا معاتبين: «يا أمير المؤمنين، مررت إلى رجل في سلاحه وأنت حاسر!» قال: «أتدرون من الرجل؟» قالوا: «لا! فما يبين من الدروع إلا عيناه». قال: «ذلك الزبير ابن صفية عمة رسول الله ﷺ، أما أنه أعطى لله عهداً ألا يقاتلكم. إني ذكرت له حديثاً قاله رسول الله فقال: «لو ذكرته ما أتيت».

فقال رجل من أصحاب الإمام: «رب يوم خرج فيه الزبير بسيفه يريد أن يبايع لعليٍّ بدلاً من أبي بكر.. فما غَيّره؟!» وقال سواه من أصحاب الإمام: «الحمد لله، ما كنا نخشى في هذه الحرب غيره، ولا نتقي سواه» وقال ثالث: «إنه لفارس رسول الله ﷺ وحواريُّه، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب، فإذ قد كفاناه الله. فلا نعدّ سواه إلا صرعى حول الهودج».

أخرج الزبير من طيات ثيابه، كتاباً كان الإمام علي قد أرسله إليه هو وطلحة منذ أيام، ولم يردا عليه! كتب فيه الإمام: «أما بعد فقد علمتما أني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني، وإنكما لممن أراد وبايع، وأن العامة لم تبايعني لسلطان خاص. فإن كنتما بايعتماني كارِهَيْن فقد جعلتما لي عليكما السبيل، بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية، وإن كنتما بايعتماني طائعين فارجعا إلى الله، إنك يا زبير لفارس رسول الله ﷺ وحواريه، وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه، كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به، وقد زعمتما للناس هنا أني قتلت عثمان، فبيني وبينكما فيه بعض من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة. بل أنت يا طلحة من ألّب عليه، وأنت يا زبير خذلت عنه!..
وزعمتما للناس هنا أني أويت قتلة عثمان، فهؤلاء بنو عثمان معكم، فليدخلوا في طاعتي ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم وما أنتما وعثمان إن كان قُتل ظالماً أو مظلوماً؟! وقد بايعتماني، وأنتما بين خصلتين

قبيحتَين: نكث بيعتكما، وإخراج أمكما عائشة أم المؤمنين»!

وشعر الزبير في أغوار نفسه أن الحق مع علي وحده، وأنه هو وصاحبه طلحة على باطل!.. ما حَرَّض أحد على قتل عثمان كما حرض طلحة وعائشة!!.. إن طلحة ليحلم بالملك! فما أنت وهذا يا زبير وأنت حواريّ رسول الله؟! إنه ما قال لأحد غيرك: «فداك أبي وأمي»!! قالها يوم أحد وأنت تصد عنه الرماة! أهذا هو وفاؤك للرسول، وإنك لتعلم حبّه لعَلِي، ومكان عَلِيٍّ منه؟!

إن علياً لأعلمنا بكتاب الله وسنة رسوله، ولقد بايعناه طائعين، هذا حق! إنما ينكث طلحة للملك، وهو لا يُخفي هذا؟ فلم تنكث أنت يا حواري رسول الله؟! أيعبث بك معاوية بعد كل نضالك وتقواك وورعك!؟ لكن أيترك معاوية الخلافة لغيره؟! ولكن معاوية من الطلقاء، الذين ظلوا على الشرك والكفر حتى فتح مكة، فجاؤوا أذلاء إلى رسول الله ﷺ يسألونه عما هو صانع بهم فقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهؤلاء لا حق لهم في الخلافة، فكيف يطمع فيها معاوية وهو طليق وابن طليق.. لك الحق يا علي يابن الخال! لك حق فليبايعك أولاد عثمان، ثم يطلبوا منك أن تقيم الحد على قاتلي أبيهم!! فيم تقود هذه الآلاف من الرجال المسلحين يا زبير، لِمَ يراق هذا الدم كله؟!.. إنه للخوف على ما في يدك من متاع الدنيا يابن العوام!؟.. أما هو كذلك!؟ أفي سبيل هذا تعرض الآلاف للقتل والأمة للفتنة؟! وما أنت بمخلد بعد في هذا المتاع والمال؟! أما قال علي كرم الله وجهه لك وللناس: «لا بأس بالغنى لمن اتقى!!» فأين تقواك يا حواريّ النبي؟!».

لقد قلت أمس للناس يا زبير: «وطنوا أنفسكم على الصبر، فإنه يلقاكم غداً رجل لا مثل له في الحرب ولا شبيه، ومعه شجعان الناس».

أترفع سيفك يا زبير على هذا الرجل الذي لا شبيه له؟ أو بعد أن

حاربتما معاً، وجاهدتما أعداء الله معاً، ورفعتما ذكر الإسلام معاً، تحت راية رسول الله ﷺ؟!.. أبعد هذا ترفع سيفك في وجه علي وقد كرم الله وجهه؟!!

لقد ذكرك علي بقول للرسول كنت قد نسيته. وهأنتذا يابن العوام تذكر أنه ﷺ رآك وعلياً تعتنقان عند مقدم علي من اليمن، فسألك: «أتحبُّه؟» فقلت: «لم لا وهو ابن خالي؟». فقال: «ستقاتله وأنت ظالم له».

هكذا تنبأ النبي!! لا.. يا رسول الله ﷺ: «لن أقاتل عَلِيًّا أبداً!!.

ولكن من هذا الفارس الشيخ يقود خيل علي بن أبي طالب؟!.. أما هو عمار بن ياسر؟! يا رسول الله!! أتراني قد كتب علي ألا أبرح هذه الدنيا حتى أبوأ بغضبك!!؟ أما قلت يا رسول الله ذات يوم لعمار أول عهدنا بالمدينة ونحن نبني أول مسجد: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية!» أأكون من هذه الفئة الباغية!! لا يا رسول الله ﷺ!!! أيها النبي.. حواريك يستغيث الله والرسول!!

ومضى الزبير منكسراً إلى عائشة، فقال لها: «يا أماه، ما شهدت موطناً قط في جاهلية ولا إسلام إلا ولي فيه رأي وبصيرة إلا موطني هذا.. إنا يا أم المؤمنين لَعَلَى باطل!». قالت عائشة: «يا أبا عبد الله خفت سُيوف بني هاشم!». وقال ابنه عبد الله: «أتترك الحرب؟ والله إنها لسُبَّة لن نغسل رؤوسنا منها..». قال: «يا بني. لا تعد هذا مني جبناً، فوالله ما فارقت أحداً في جاهلية ولا إسلام!». قال ابنه: «فما يردك؟». قال: «يردني ما إن عَلِمْتَهُ كسرك».

فأمرت عائشة أن يقوم بأمر الناس مقامه ابنه عبد الله بن الزبير، وهو ابن أختها أسماء ذات النطاقين، وعينته أميراً على الجيش. وكانت قد عينته من قبل إماماً للصلاة...

وانصرف الزبير ليعود إلى المدينة.

فأتاه رجل اسمه ابن جرموز في بعض الطريق، فَضَيَّفَه وقال له: «يا أبا عبد الله حدثني عن خمس خصال أسألك عنها». قال الزبير: «هات». قال ابن جرموز: «خذلك عثمان، وبيعتك علياً، وإخراجك أم المؤمنين وصلاتك خلف ابنك، ورجوعك عن الحرب». قال الزبير: «نعم أخبرك: أما خذلي عثمان فأمرٌ قدَّر الله فيه الخطيئة وأَخَّرَ التوبة.. وأما بيعتي علياً فوالله ما وجدت من ذلك بدًّا حيث بايعه المهاجرون والأنصار. وأما إخراجنا أمنا عائشة، فأردنا أمراً وأراد الله غيره. وأما صلاتي خلف ابني عبد الله فإنما قَدَّمتْه خالته عائشة أم المؤمنين، ويقول بنو هاشم إني كنت أعد نفسي مع أخوالي من بني عبد المطلب، حتى بلغ ابني عبد الله، فمال بي إلى الجانب الآخر، جانب أمه أسماء وخالته عائشة بنتيْ أبي بكر! وأما رجوعي عن هذه الحرب فظن بي ما شئت غير الجبن!».

وتحدث الأحنف بن قيس لقومه الذين اعتزل بهم الصراع فقال، «عجبت للزبير بن العوام حامل راية الرسول ﷺ يوم فتح مكة، والذي شهر سيفه يوم بويع أبو بكر مطالباً بالخلافة لعلي ابن خاله لولا أن عَلِيًّا أغمد سيفه حذر الخلاف، أيؤلب الناس على عَلِي وهو يعلم فضله؟. عجباً للزبير اليوم! عجباً له هذا الذي فَرَّق بين المسلمين حتى ضرب بعضهم رقاب بعض، ثم تركهم ليلحق ببيته! فمن يأتيني بخبره؟». وكان المغيرة سيد قومه، مطاعاً فيهم، يتسابق الناس على إرضائه، فوثب ابن جرموز فقال: «والهفي على ابن صفية!.. أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله! قتلني الله إن لم أقتله!». وأسرع ابن جرموز إلى ضيفه الزبير بن العوام، فوثب عليه وهو نائم فقتله!.. فلما أقبل متباهياً برأس الزبير وقوسه وسيفه، قال له بعض قومه: «فضحت والله اليمن آخر الدهر بقتلك الزبير! والله لو قتلته في حرب لعز علينا ذلك ولمسَّنا عاره، فكيف وهو في جوارك وحرمك؟!».

فلما علم الإمام علي بما كان قال: «بشروا ابن جرموز بالنار، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشروا قاتل ابن صفية بالنار!» وكان الزبير وحيد أمه..

وجيء بسيفه إلى الإمام علي، فأمسك بالسيف وهزه وهو يتحسر، وفاضت عيناه، وغص حلقه بالدمع، وقال وهو ما زال يهز سيف الزبير: «سيف بطل طالما كشف الكروب عن وجه رسول الله!». فقال أحد أصحاب الإمام: «صدقت يا أمير المؤمنين! ألا إنه لأول سيف سُلَّ في سبيل الله» وصدق حسان حين وصفه:

وكم كربةٍ ذبَّ الزبير بسيفه عن المصطفى والله يعطي ويجزل
ثناؤك خير من فعال معاشر وفعلك يا بن الهاشمية أفضل

واشتد بكاء الإمام، وبكى الحاضرون حتى اخضلت لحاهم..

وخرج الإمام يناشد عائشة وطلحة أن يحقنا الدماء، فكفى ما خسره الإسلام بفقد فارسه الصنديد الزبير بن العوام!.

وكفى ما أهرق من دماء المؤمنين يا أم المؤمنين عائشة، ويا أيها الصحابي الجليل طلحة!!.

لِمَ كُل هذا، ومن أجل أي هدف؟!

أما عائشة فقالت: «جل الأمر عن العتاب». وصممت على القتال.. وأما طلحة فقد أعاد ما قاله لعلي آنفاً «قد كرهناك!».

ما العمل بعدُ يا عليّ، وأم المؤمنين مصرة على القتال، ويصر معها طلحة إصراراً؟!.. ما هو ثأر عثمان ما يطلبون، وإلا فقد قتل كثيرون من قتلة عثمان، ومن بقي منهم فإنما هم في جيش طلحة وعلى رأسهم طلحة نفسه!!.

أصحيح إذن أن أم المؤمنين عائشة تفضل أن ترى السماء تنطبق

على الأرض ولا تراك يا علي أميراً للمؤمنين!!! أتريد أم المؤمنين أن تنزع الأمر منك، وتعطيه طلحة ابن عم أبيها، وزوج أختها الصغرى أم كلثوم التي رفضت الزواج من عمر قديماً..؟! أمن أجل هذا تراق دماء المؤمنين يا أم المؤمنين! يا لطلحة!! ويا لأم المؤمنين!!

وما كان الإمام ليذر دعوته إلى حقن الدماء، حتى لقد أوشك أصحابه أن يسأموا، وحتى خشوا أن يظن عدوه به الضعف!!

وعاد يكرر: «لا تبدأوا أنتم بالقتال! لا ترموا بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، وأعذروا». وامتثل أصحابه لما يسمعون.

لكم يشق على الإمام أن يرى مسلماً يرفع السيف في وجه أخيه، أو عربياً يقتل عربياً!!.. كل هذا بشع وآثم وزري!! وسيفتح باب الخلاف بين المسلمين، وبين العرب، وتأتي عصور كقطع الليل المظلمة.. ظلمات من فوقها ظلمات، فإذا الواحد منهم يشرب دم أخيه، ويقتات بأشلائه، وإذا الإنسان الذي شَرَّفه الله، وخلقه على صورته، وجعله خليفته في الأرض، قد أصبح إما وحشاً مفترساً، أو فريسة ممزقة!!

لا يا أم المؤمنين!! لا يا طلحة!! لا يا أيها الذين ما زالوا يريدون سفك دماء إخوانهم. «إنكم إن أنتم بايعتمونا، فعلى خير، وتباشير رحمة، ودرك ثأر! وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كان علامة شر، وذهاب هذا الثأر!».

يا أم المؤمنين ويا طلحة.. ويا من تبعهما من المؤمنين.. «كونوا مفاتيح خير كما كنتم! آثروا العافية تُعَافوا. لا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له، وتتعرض له الأمة جميعاً، فلا يبقى منها أحد إلا صرعه البلاء».

وأوشك بعض أصحاب عائشة أن يلقوا السلاح، وإذ بسهم يقتل أحد أصحاب علي.. فيقول الإمام: «اللهم فاشهد!.. لا ترموا بسهم

ولا تطعنوا برمح ولا تضربوا بسيف. وأعذروا[1]».

ويُقَتل من أصحاب الإمام رجل ثان وثالث، والإمام يصبر ويصابر ويحتسب ويقول لأصحابه: «**أعذروا إلى القوم**».

ويكلف أحد فتيانه بأن يرفع القرآن الكريم ويدعو أصحاب عائشة إلى كتاب الله، فتنهال السهام على الفتى، ويسقط صريعاً يخضب دمه كتاب الله.

وتتوالى السهام، فيقول محمد بن أبي بكر: «إلى متَى نُعذر يا أمير المؤمنين؟! لقد والله أعذرنا وأعذرت، وإنهم ليرموننا بالسهام، ويقتلوننا رجلاً رجلاً، والله لتأذنن لنا في لقاء القوم أو لتنصرفن قبل أن تقتلنا سهامهم ونحن ننظر!».

ونظر الإمام فوجد السهام تنهمر على أصحابه، فأعطى الراية ابنه محمد بن الحنفية، وأذن بالقتال، واندفع إلى الأعداء صائحاً في رجاله: «تقدموا»... وإنه في أعماق نفسه ليذكر ما حذر به طلحة والزبير ورجالهما من قبل: «ثم إن الأمر الذي كنت أحذركم منه قد وقع، وإن الذي وقع لا يدرك! وإنها لفتنة كالنار كلما سعرت ازدادت اضطراماً. وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي».

وها هو ذا اليوم لا يجد بداً من الكي.. إنها الحرب.. والحرب كلما استعرت تزداد اضطراماً!..

وتساقط القتلى على الجانبين. عشرات وعشرات. ثم مئات ومئات. وأحيط بطلحة، ولكن الإمام حذر أنصاره أن يقتلوه، فمالوا عنه!..

---

(١) أعذر أصبح ذا عذر.

وكلما سكت القتال ذكر الإمام خصمه طلحة بأيامهما معاً تحت راية الرسول، دفاعاً عن العقيدة، وحق الإنسان في الحرية والعدل!

ذكّره يوم أحد، ويوم حنين، وأياماً أخرى مجيدة!؟ أين هذا كله يا طلحة من يومك هذا؟! رب يوم سماك فيه الرسولﷺ طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض!!

في يوم ما يا طلحة الخير أنفقت أربعمائة ألف درهم دفعة واحدة على فقراء المهاجرين والأنصار!.. وهأنتذا اليوم تكسب ألفاً كل يوم من خراج ضياعك، فكم تنفق منها يا طلحة الجود؟! أين أيامك الباهرات تلك، من يومك هذا التعس الحزين، يوم تُخرج فيه أم المؤمنين من بيتها الذي أمرها الله ورسوله أن تقر فيه!.. يوم تسوق كثيراً من المؤمنين إلى المذبحة؟!

أي ملك تريده يا طلحة الخير!؟.. إن هو إلا مقام صعب معذِّب للإمامة الورعة، والخلافة الراشدة!!

أين تقواك يا رجل!؟.. أتمشي في ركب الطلقاء. وخلف مروان ابن طريد رسول الله؟.. لماذا تحارب علياً يا طلحة الخير؟!

أتذكر يوم انحنيت لرسول الله، ليصعد على ظهرك صخرة يلوذ بها من الرماة؟!.. أجاء الزمن الذي يصعد فيه على ظهرك هذا بدلاً من رسول الله معاوية أو مروان أو غيرهما من الطلقاء، فتكون مطيتهم إلى الفتنة.

لن يملكوك شيئاً يا طلحة، فلماذا يؤثرك معاوية على نفسه؟!

إن يريد إلا أن يجعلك مطيته أيها الصحابي الجليل!!

أتذكر يوم تلقيت النبل عن وجه رسول اللهﷺ في أحد؟!.. أين يومك ذاك من يومك هذا؟! أين موقفك الأول من موقفك الأخير؟!

وأوشك طلحة أن يُقتل، فصاح عليٌّ في أصحابه: «إياكم وصاحب البُرْنس. إياكم وطلحة إياكم أن تقتلوه!».

وزلزل طلحة زلزالاً عنيفاً مما يسمع!!

لقد خرج يقاتل علياً، فإذا بعلي هو الذي يحميه!!

وجعل طلحة يفكر في كل أمره!..

لماذا خرج؟! لماذا استنهض الناس؟!.. وماذا يريد حقاً!!

وبدأت مشاعر الندم والتوبة تزحف على عزيمته، وتراخت يداه.. وتَرَدَّد في أغوار نفسه تحذير عليّ: إنه سيبوء باللعنة لأنه يفتح باباً للفتنة سيتسع جيلاً بعد جيل، وسيكون أول من يشرع للمسلم أن يقتل أخاه المسلم!! وأول من يفتح على العرب بعد أن تخلصوا من غشاوة الجاهلية باب الفتك والحرب، فيعربد العربي على أخيه العربي، بحثاً عن مغنم شخصي!

وهمس طلحة لعائشة: «ما عدت أعرف أمخطىء أنا أم مصيب يا أم المؤمنين!!».

ورأى الإمام تراخي طلحة عن القتال، فأمر أصحابه بأن ينتظروا. فرح الإمام، فربما حدثت المعجزة، فحقنت الدماء، وسدت ذرائع الفتنة، واستقر في أحلام الناس أنه لا يحق لعربي أن يحارب أخاه، ولا لمسلم أن يطعن أخاه!

وأعاد الإمام التحذير بألا يقتل أحد طلحة الخير أو يمسه بسوء!

وشعر طلحة إلى أغوار نفسه بندامة.. فأعلن أنه يندم على خروجه لقتال عليٍّ أمير المؤمنين!!

وبينما الجميع يتنادون بالسلام إذ بسهم يصيب طلحة في حلقه بغتة، فيسقط من فوره!!

وهمس مروان بن الحكم لنفسه إذ رأى طلحة يسقط: «لا أطلب بثأري بعد اليوم! فهذا هو الذي حاصر عثمان واشتد عليه حتى قتله!»..
ثم قال لأحد أبناء عثمان: «لقد كفيتك ثأر أبيك من طلحة».

وفي الحق أنه ما من أجل هذا وحده غدر مروان بحليفه طلحة.. ولكن مروان نظر في الأمر بدهائه ومكره الخبيث، فوجد الزبير قد أعلن من قبل أنه لن يحارب علياً، وها هو ذا طلحة يعلن الشيء نفسه، ولربما بايع علياً!! فلئن حدث هذا، لاستقر الملك لعلي ولبني هاشم، ولفقده معاوية وبنو أمية!.. فإن كانت الأخرى، وانتصر طلحة، فسيؤول إليه الأمر، وستؤيده عائشة! وكلاهما يرى أن معاوية لا حق له في الخلافة لأنه من الطلقاء: طليق وابن طليق، وإذن، فسيفقدها بنو أمية على الحالتين!!.

وإذن فليصرع هو طلحة في المعركة وليبوأ عليٌّ بدمه!!

ونظر طلحة إلى دمه الذي ينزف، وندم هائل يضغط على صدره، وقال متطهراً مما فرط منه في أمر عثمان: «اللهم خذ لعثمان مني حتى يرضى».

واستعرت المعركة من جديد، وخاضت الخيل في دماء الرجال، ورأى الإمام أنه ما من سبيل لحقن الدماء بعد.. فالجنون والغيظ والاحتدام والانفعالات المدمرة هي التي تحرك سواعد الرجال!! ورآهم يتساقطون صرعى حول الجمل، فصاح: «اعقروا الجمل، فإنه إن عقر تفرقوا».

وحمل بعض أصحاب الإمام على الجمل، فعقروه فسقط، فانهزم أصحاب عائشة، وفروا عنها، ووقعت هي في الأسر!

وجيء بمروان بن الحكم وعمرو بن عثمان ونفر من رؤساء بني أمية أسرى يرتعدون بعد أن كانوا قد فروا واختبؤوا. فقال مروان وهو

يرتعد للإمام: «امدد يدك نبايعك ويبايِعك قومي». قال الإمام: «لا حاجة لي فيها. إنها كف يهودية لو بايعتني بها عشرين مرة لنكثت! هيه يا مروان! خفتَ على رأسك أن تقع في هذه المعمعة!».

فقال بعض أصحابه: «يا أمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى». فقال رضي الله عنه: «لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع».

وفر مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان، وعدد من سادات بني أمية، واختفوا في دار بالبصرة.. ورأى الإمام جماعة من أصحابه يطاردون الفارين فأرسل وراءهم منادياً يكرر أوامره: «لا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، لا تدخلوا داراً، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تهتكوا ستراً، ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله. من ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن».

ودعا الإمام إليه محمد بن أبي بكر فقال: «انظر هل وصل إلى أم المؤمنين شيء من مكروه». فجاءها فضرب الهودج بيده فقالت: «من أنت!» قال: أقرب الناس منك قرابة، وأبغضهم إليك! أنا محمد أخوك! يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء؟». قالت: «ما أصابني إلا سهم لم يضرني». فقال لها: «أما سمعت الرسول يقول: عليٌّ مع الحق، والحق مع علي؟ ثم خرجت تقاتلينه» قالت: «فليغفر الله لي!». وقال لها عمار بن ياسر: «أين أنت اليوم يا أم المؤمنين والعهد الذي عهد إليك». فقالت: «إنك والله قوال بالحق!».

وقال لها الإمام: «يا أم المؤمنين. أرسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمرك بأن تقري في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك!».

ثم نظر إلى جنودها وقال: «يا جند المرأة، يا أصحاب البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فانهزمتم! دينكم نفاق، وأخلاقكم رقاق! يا أهل البصر والبصيرة. آلله أمركم بجهادي أم على الله تفترون؟ أمَا إني لا أقول لكم رغبة ولا رهبة منكم. غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، وعالمها أعلم الناس، ومتصدقها أعظم الناس صدقة، وتاجرها أعظم الناس تجارة، يستشهد عند مسجد جمعها الآلاف، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر».

ثم توجه إلى عائشة فقال: «كيف أنت الآن يا أم المؤمنين؟». قالت: «بخير». قال: «يغفر الله لك». قالت: «ولك».

ورأى أن يرسل عائشة إلى أعظم بيت في البصرة تقيم فيه ريثما يجهزها للرحيل إن أرادت.. وسار بها أخوها محمد إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وهو زوج صفية بنت الحارث، وكان عبد الله مع عائشة فقتل في المعركة، وكان أخوه عثمان مع علي، وتسلل إليها عدد من الجرحى فأقاموا في الدار نفسها، فأمر علي بألا يعرض أحد لهم..

ومشت عائشة إلى حيث سيرها الإمام، فرأت أشلاء القتلى طافية على وجه الدماء.. وأغمضت عينيها، وعضها الندم، وقالت وهي تصرخ: «ليت أمي لم تلدني!».

وتناهت إليها أصوات فاجعة غاضبة. وجاءها القعقاع معاتباً، فقالت من خلال دموعها في ندم عظيم: «ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما».

ووقف علي على جثمان طلحة فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كارهاً لهذا، أنت والله كما قال القائل:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا هو ما استغنى ويبعده الفقر

كأن الثريا علقت في يمينه   وفي خده الشِّعرى[1]، وفي الآخر البدر

ووجد الإمام جثمان محمد بن طلحة المعروف بمحمد السَّجّاد لكثرة صلاته، فقال: «أما والله لقد قتلك بِرُّك بأبيك! رحمك الله يا محمد.. لقد كنت في العبادة مجتهداً».

وصلى على القتلى من الجانبين، ودعا لهم بالرحمة. وبدأ بالصلاة على صرعاه.

ثم ذهب إلى عائشة حيث كانت ما برحت تمر بالقتلى، ويتعثر جملها بالأشلاء، فوجدها تبكي أحر بكاء، حتى لقد بلل الدمع خمارها..

وأدرك الإمام أنه الندم!..

قالت: «ليته كان لي من رسول الله بنون عشرة كلهم ثكلتهم ولم يكن يوم الجمل!!».

فواساها الإمام وقال: «يغفر الله لك يا أم المؤمنين!». فقالت: «ليتني مت قبل يوم الجمل!».

فلما استقرت عائشة في المنزل الذي أنزلها فيه الإمام، ذهب إليها ومعه عدد من أصحابه، وكان المنزل قصراً كبيراً، له حديقة، وفناء واسع، وله طوابق. وبه عدد كبير من الحجرات، فوجد الإمام في بهو القصر نسوة يبكين، فلما رأينه صحن صيحة واحدة: «هذا قاتل الأحبة». وقالت صفية صاحبة المنزل وهي امرأة قتل ولداها أحدهما من أصحاب عائشة، والثاني من أصحاب الإمام، كما قتل زوجها: «أيتم الله منك بنيك!».

ولم يقل الإمام شيئاً، إلا أنه دعا الله لهن بالصبر، وحسن العوض، وعظم الأجر..

---

(١) نجمة.

وسأل عن غرفة عائشة فأومأن إلى حجرة بالدار، فدخل عليها، فقال لها: جبهتنا[1] صفية. أما إني لم أرها منذ كانت جارية (فتاة)».. ثم خفت صوته فلم يسمع من قوله شيء، إلا أن عائشة ارتفع صوتها بقولها معتذرة: «لم أفعل كذا».

فلما خرج أمير المؤمنين صاحت النسوة في وجهه مرة أخرى: «قاتل الأحبة». فقال لعائشة: «ألا تكفين عني النسوة اللائي يزعمن أني قاتل الأحبة؟ لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في الدار».

وأومأ بيده إلى ثلاث غرف، ففتحت فإذا بواحدة فيها مروان بن الحكم ومعه جرحى من بعض شباب قريش، وفي الثانية عبد الله بن الزبير، معه آل الزبير جرحى، وفي الثالثة رئيس أهل البصرة الذي كان يدور مع عائشة أينما دارت ومعه جرحى من أهله!

فسكتت بعض النساء، وكفت عنه عائشة الأخريات، وحمدت له أنه قال لجنوده: «لا تجهزوا على جريح، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ولا تتبعوا مدبراً، سنة يستن بها بعد يومكم هذا».

فلما ابتعد عائداً إلى داره لحق به أحد أصحابه، فقال له: إن رجلين وقفا على باب عائشة يغلظان لها القول، فأمر الإمام بهما فجلد كل منهما ثمانين جلدة!! وطابت نفس عائشة..

وجهزها الإمام بخير جهاز من مركب وزاد ومتاع، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها، إلا من آثر البقاء في البصرة وانضم إلى الإمام.

واختار لها أربعين سيدة من شريفات نساء البصرة ومقاتلاتها، ألبسهن ملابس الرجال وسلحهن بالسيوف والدروع، وأمرهن أن يلزمنها،

---

(١) جبهه: استقبله بالمكروه.

وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما رأت ما أعده الإمام لها قالت: «جزى الله علياً كل خير، جزاه الله الجنة».

وخرجت فودعت الناس وقالت: «يا بَنِيّ لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها، وإن علياً لمن المصطفين الأخيار».

فقال الإمام: «صدقت والله وَبرَّت. ما كان بيني وبينها إلا ذاك. وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة».

وشيعها الإمام عليٌّ أميالاً، وسَرَّح أبناءه معها يوماً.. كل ذلك تكريماً لها وإعزازاً، فطفقت تدعو للإمام: «جزى الله علياً الجنة».

وكان بعض أصحابه قد حاول أن ينال من النسوة اللائي سببنه فقال: «لا تؤذوا النساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فالنساء ضعيفات، ولقد كنا ننهى عنهن وهن مشركات، وكان الرجل ليضرب المرأة بالهراوة، فيُعيَّر بها هو وولده من بعده، كان هذا وهن مشركات، فكيف وهن مؤمنات؟! لقد حاربنا الرجال فحاربناهم، وأما النساء والذراري فلا سبيل لنا عليهم، لأنهن مسلمات، وفي دار هجرة. فليس لكم عليهن سبيل، فأما ما أجلبوا عليكم به واستعانوا به على حربكم، وضمه عسكرهم وحواه فهو لكم، وما كان في دورهم فهو ميراث على فرائض الله لذراريهم فليكن هذا سُنَّة لمن يأتي من بعدنا».

فكانت هذه هي أحكام قتال أهل البغي، التي شرحها بعد أجيال وأجيال الإمام الشافعي، واتبعه الإمام أحمد.. وتوافق عليها أئمة الدين جميعاً.

ولقد أذعن أصحاب الإمام علي كرم الله وجهه لأوامره، واستمعوا نصحه، فجعلوا يمرون بالذهب والفضة في معسكرهم والمتاع، فلا

يعرض أحد إلا لما كان من السلاح الذي قاتلوا به، والدواب التي حاربوا عليها. ما لم تكن ملكاً لبيت المال، كما أمرهم الإمام.

ولكن أصحاب الإمام علي كانوا ممن ألفوا السؤال عن كل شيء، وقد عودهم أن يحاوروا، وألا يأتوا أمراً حتى يقتنعوا به. حتى لقد أسأموه بإلحاحهم في السؤال، وكثرة الجدال، قبل أن يفعلوا ما يؤمرون!

قال له بعضهم: «يا أمير المؤمنين! كيف حل لنا قتالهم ودمهم، ولم يحل لنا مالهم وسبي نسائهم!؟». فقال الإمام علي: «ليس على الموجودين سبي ولا يغنم من أموال إلا ما قاتلوا به أو عليه، فدعوا ما لا تعرفون. وألزموا ما تؤمرون!». فراجعوه، وأكثروا عليه فقال ضيِّقاً بهم: «هاتوا أسهمكم واضربوا أيها المؤمنون على أمكم عائشة، أيكم يأخذها؟!». فنزعوا قائلين: «نستغفر الله». فتنفس الصعداء قائلاً: «وأنا أستغفر الله».

وبعد أيام اجتمع نفر من أهل قريش فيهم مروان بن الحكم، وكانوا كلهم أسرى أطلقهم الإمام علي، فقال بعضهم لبعض: «والله لقد ظلمنا علياً، لقد بايعناه ونكثنا بيعته من غير حَدَث، ولقد أظهره الله علينا. فما رأينا أكرم سيرة منه، ولا أحسن عفواً بعد رسول الله ﷺ. تعالوا حتى ندخل ونعتذر إليه فيما صنعناه».

وشَفَّعوا عنده ابن عمه عبد الله بن عباس، فلما استقبلهم أمير المؤمنين. جعل متكلمهم يتكلم فيتعثر من الحرج، فقال الإمام لهم: «أنصتوا أكفكم!.. إنما أنا بشر مثلكم. فإن قلت حقاً فصدقوني، وإن قلت باطلاً فردوا علي. أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله قبض وأنا أولى الناس به، وبالناس من بعده؟». قالوا: «اللهم نعم». قال: «فعدلتم عني وبايعتم أبا بكر، فأمسكت ولم أحب أن أشق عصا المسلمين، وأفرق بين جماعاتهم، ثم أن أبا بكر جعلها لعمر من بعده فَكَفَفْتُ، ولم أهج الناس، وقد علمت أني كنت أولى الناس بالله ورسوله ومقامه،

فصبرتُ. فلما قتل عمر وجعلني سادس ستة، لم أحب أن أفرق بين المسلمين، ثم بايعتم عثمان، فطغيتم عليه، وقُتل عثمان وأنا جالس في بيتي، فأتيتموني وبايعتموني كما بايعتم أبا بكر وعمر، ولكنكم وفيتم لهما ولم تفوا لي! فما الذي منعكم من نكث بيعتهما ودعاكم إلى نكث بيعتي؟».

قالوا: «يا أمير المؤمنين كن كالعبد الصالح يوسف إذ قال: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾.

فقال الإمام علي ضاحكاً وهو يشير إلى مروان بن الحكم: لا تثريب عليكم اليوم، وإن فيكم رجلاً لو بايعني بيده لنكث بأسته!.. ولكن لا بأس بهؤلاء إذا تابوا إلى الله توبة نصوحاً، وأخلصوا واستقاموا وأصلحوا».

قبل أمير المؤمنين منهم البيعة، وتعاهدوا أن يكونوا رسل خير إلى معاوية، ليدخل معهم في الجماعة، فما أحوج هذه الأمة إلى وحدة الكلمة، إلا أنه لم يثق في بيعة مروان فردها!

وفكر الإمام في معاوية: همه الأكبر اليوم... ليته ينيب، بعد أن أناب هذا النفر من قريش، فيجنب الأمة الشقاق!!.. ما طمع معاوية في الخلافة وهو من الطلقاء الذين لا حق لهم في الخلافة؟! فما من أحد من صحابة رسول الله يمكن أن يبايعه؟!!

وحدَّث الإمام بعض أصحابه عما يرجوه من إنابة معاوية، فنصحوه أن يقودهم فيصدم بهم معاوية وجند الشام..

وتحدث رجل منهم عن عمر بن الخطاب فلامه لأنه استعمل معاوية على دمشق، وأبقاه بدلاً من عزله واكتفى بأن قاسمه أموالاً كسبها بغير حق!! واشتد صاحب الإمام في نقد عمر رضي الله عنه حتى ناله بكلمات تَأذَّى لها الإمام فقال: «لله دَرّ عمر بن الخطاب، فقد قَوَّمَ

الأود[1]، وأقام السنة، ذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، وسبق شرها، أدّى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه».

ثم جعل يدعو الله: «اللهم اجعل الحياة أول كريمة تنتزعها من كرائمي وأول وديعة ترتجعها من ودائعك عندي. اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك أو نتابع أهواءنا دون الهدى الذي جاء من عندك».

وبدأ ينظر في أمر معاوية ويعد كتاباً جديداً له..

لكم أرسل إليه من قبل!! مهما يكن من شيء فسيظل يرسل إليه حتى ينيب.

وأخذ يتذكر كتبه إلى معاوية، وردوده الجافية عليه. في أول كتاب قال: «من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فقد علمت إعذاري فيكم وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه، ولا دفع له (يعني أمره مع عثمان)، والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ما أدبر، وأقبل ما أقبل، فبايع من قبلك، وأقبل إلي في وفد من أصحابك».

فلما رد معاوية متحدياً ببيت من الشعر القديم معلناً عليه الحرب، أرسل إليه الإمام ناصحاً. فرد معاوية متحدياً!

حتى كتب إليه الإمام رسالة طويلة جاء فيها: «عندي السيف الذي أعضضته بجدك (عتبة والد هند أم معاوية) وخالك وأخيك في مقام واحد.

وإنك والله ما علمت الأغلف القلب، المقارب العقل (ضعيف) والأولى أن يقال لك: إنك رقيت سلماً أطلعك مطلع سوء عليك لا لك، لأنك نشدت غير ضالتك، ورعيت غير سائمتك، وطلبتَ أمراً

---

(١) الإعوجاج.

لست من أهله ولا من معدنه، فما أبعد قولك من فعلك!...».

وكان قد أرسل إليه مرة أخرى: «فمن الآن فتدارك نفسك وانظر لها، فإنك إن فرطت حتى ينهض إليك عباد الله، أُرْتجتْ عليك الأمور ومنعت أمراً هو خير لك»..

وكان قد كتب له: «أما إكثار اللجاج في عثمان وقتله، فإنك إنما نصرته حيث كان النصر لك (باتخاذه ذريعة لما تريد)، وخذلتهُ حيث كان النصر له!».

ولقد علم معاوية بما كان من أمر طلحة والزبير، وكثرة القتلى، وقول الناس: «ما رأينا صرعى مثل يوم الجمل قط». فانكسر واغتم!

وأرسل إلى الإمام يسأله أن يقره على الشام، فيبايعه.. وإلا اضطر إلى أن يحاربه، ويقود إليه جيشاً من مائة ألف، لا يعرفون أحداً من أهل الفضل أو السابقة في الإسلام، ولا يطيعون غير معاوية الذي أغدق عليهم الأموال!.

وهدد معاوية بأن جيشه يفوق جيش علي، وأنه وعلي بعد متساويان فكلاهما من بني عبد مناف، فكتب الإمام إليه: «فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما قولك إن الحرب يوم الجمل قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار، وأما استواؤنا في الحرب والرجال، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك إنّا بنو عبد مناف، فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا المهاجر كالطليق، ولا المحق كالمبطل، ولبئس الخلف خلفاً يتبع سلفاً هوى في نار جهنم!..
ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً أو

كرهاً كنتم ممن دخلتم في دين الله إما رغبة أو رهبة على حين فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم، فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً، ولا على نفسك سبيلاً».

وانتظر الإمام جواب معاوية.. فلم يعد للإمام هم أخطر منه! وإنه لَهَمُّ الهموم!!.

الفصل الثاني عشر

الصبر والمصابرة

لبث الإمام علي كرم الله وجهه في البصرة أياماً يتفقد أمورها، وينصح أهلها، وينظر في أمور الكيل والميزان والتجارة وأحوال الناس، ليصلح شؤونهم.

روى الحسن البصري: «كنت جالساً بالبصرة ـ وأنا حينئذ غلام ـ أتطَهّرُ للصلاة، إذ مر بي رجل راكبٌ بغلةً شهباء مُعْتَمٌّ بعمامة سوداء، فقال لي: «يا حسن! أحسن وضوءك يحسن الله إليك في الدنيا والآخرة. يا حسن! أما علمت أن الصلاة مكيال وميزان؟». فرفعت رأسي فتأملتُ فإذا هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه، فأسرعت في طُهوري، وجعلت أقفو أثره إذ حانت منه التفاتة. فقال لي: «يا غلام ألك حاجة؟». قلت: «نعم يا أمير المؤمنين. تفيدني كلاماً ينفعني في الدنيا والآخرة». قال: «يا غلام إنه من صدق الله نجا، ومن أشفق من ذنبه أَمِنَ الردى، ومن زهد في هذه الدنيا قَرّتْ عيناه بما يرى من ثواب الله غداً». ثم قال: «يا غلام ألا أزيدك؟». قلت: «بلى يا أمير المؤمنين». قال: «إن سَرَّكَ أن تلقى الله غداً وهو عنك راض فكن في هذه الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً، وعليك بالصدق في جميع أمورك تَنْجُ مع الناجين غداً، يا غلام إنْ تَضَعْ هذا الكلام نصب عينيك، ينفعك الله به». ثم أطلق عنان البغلة من يده، فجعلت أقفو أثره، إذ دخل سوقاً من أسواق البصرة، فسمعته يقول: «يا أهل البصرة يا أهل تدمر، يا عبيد

الدنيا وعُمَّال أهلها، إذا كنتم بالنهار تخدمون الدنيا، وفي الليل تنامون، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون، فمتى تُحْرِزُون الزاد، وتفكرون في المعاد؟».

فقام إليه رجل من السوق فقال: «يا أمير المؤمنين إنه لا بد من طلب المعاش فكيف نصنع؟». فقال: «أيها الرجل إن طلب المعاش من وجهه الحلال لا يشغلك عن الآخرة، فإن قلت لا بد لنا من الاحتكار، لم تكن معذوراً». فتولى الرجل وهو يبكي. فقال أمير المؤمنين: «أَقْبِل عَلَيَّ يا ذا الرجل أزدك تبياناً، إنه لا بد لكل عامل من أن يوفى يومَ القيامَة أجر عمله، فمن كان عمله للدنيا وحدها، فأجره النار».

ثم خرج من السوق والناس في رنة بكاء، إذ مر بواعظ يعظ الناس، فلما بصر أمير المؤمنين سكت ولم يتكلم بشيء، فقال كرم الله وجهه. «فكم وإلى كم توعظون فلا تتعظون؟! قد وعظكم وزجركم الزاجرون. وحذركم المحذرون، ويبلغكم المبلغون، ودلت الرسل على سبيل النجاة، وقامت الحجة وظهرت المحجة، وقرب الأمر والأمد، **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾**. أيها الناس إنه لم يكن لله تعالى في أرضه حجة ولا حكمة أبلغ من كتابه، ولا مدح الله أحداً منكم إلا من اعتصم بحبله، وإنما هلك من هلك عنده من خالفه واتبع هواه! واعلموا أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، والله ما هو شيء قلته من تلقاء نفسي، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد جاهد نفسه فردها عن معصية الله، إلا باهى الله به كرام الملائكة، ومن باهى به كرام الملائكة فلن تمسه النار. فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم»». انتهى كلام الحسن البصري.

قدم الإمام علي من البصرة إلى الكوفة في رجب سنة ست وثلاثين، ومعه أشراف البصرة، فخرج الناس إليه قبل أن يدخلها يتلقونه فرحين، يهنئونه بالنصر، ويدعون له بالبركة.

وإنه ليمسح عرقه عن جبهته، إذ قال له أحد أشراف الكوفة: «الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي أعز وليك، وأذل عدوك، ونصرك على القوم الباغين الطاغين الظالمين». فشكره الإمام.

فوثب رجل آخر، فقال متقرباً للإمام متودداً إليه: «أي والله يا أمير المؤمنين الحمد لله الذي نصرك على الباغين الظالمين الكافرين المشركين». فقال له الإمام غاضباً: «ثكلتك أمك! ما أقواك بالباطل، وأجرأك على أن تقول ما لا تعلم! ليس القوم كما تقول!.. لو كانوا كافرين مشركين، لسبينا نساءهم، وغنمنا أموالهم، ولما صاهرناهم ولا وارثناهم».

وقادوا الإمام إلى قصر الإمارة لينزل فيه، ولكنه قال لهم: «لا أنزل القصر، ولكني أنزل الرحبة». وهي ساحة المسجد الجامع، فنزلها وأقبل حتى دخلَ المسجد فصلى ركعتين، وانشغل بعض أهل الكوفة بأن يقيموا في الرحبة منزلاً صغيراً لأمير المؤمنين، يؤدي بابه إلى المسجد، وكان قد أوصاهم أن يكون منزله كأفقر بيت في الكوفة!..

وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على رسوله، وقال: «أما بعد يا أهل الكوفة فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تُبدِّلُوا وتُغيِّروا، دعوتكم إلى الحق فأجبتم، وبدأتم بالمنكر فغيرتم.. ألا إن أخوف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأملَ فيُنْسي الآخرة. ألا إن الدنيا قد تَرَحَّلتْ مدبرة، والآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا. اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب بلا عمل. الحمد لله الذي نصر وَليَّه، وخذل عدوه، وأعز الصادق المحق، وأذل الناكث المبطل. عليكم بتقوى الله، وطاعة الله، وأطيعوا أهل بيت نبيكم الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه، من المنتحلين المدعين المغالين الذين يتفضلون بفضلنا، ويجاحدوننا

أمرنا، وينازعوننا حقنا، ويدافعوننا عنه، فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا، فسوف يلقون غياً. ألا إنه قد قعد عن نصرتي رجال منكم أنا عليهم عاتب، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يُعتبوا[1] أو نرى منهم ما نرضى».

فقام إليه صاحب الشرطة فقال: «يا أمير المؤمنين، إني والله لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلاً. والله لئن أمرتنا لنقتلنهم».

فعجب الإمام وقال لصاحب شرطته: «سبحان الله! جُزْتَ المدى، وعَدَوْتَ الحد، وأغرقت في النزع!!» فقال صاحب الشرطة: «يا أمير المؤمنين بعض الغَشْم (الظلم) أبلغ في أمور تصيبك من مهادنة الأعادي». فقال: «ليس هكذا قضى الله. قال تعالى: **﴿النفس بالنفس﴾**. فما بال الغشم؟! وقال تعالى: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾** والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك. وذلك هو الغشم، وقد نهى الله عنه»!

فقام إليه رجل من الأزْد ممن تخلف عنه فقال: «يا أمير المؤمنين. أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بِمَ قتلوا»؟ قال: «بما قتلوا من شيعتي وعمالي، وقتلوا أخا ربيعة رحمهُ الله في عصابة المسلمين لأنهم قالوا لهم: لا ننكث كما نكثتم ولا نغدر كما غدرتم! فوثبوا عليهم فقتلوهم. فسألتهم أن يدفعوا إليّ قتلة إخواني أقتلهم بهم، ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم، فأبوا عَلَيّ، فقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي ودماء ألف رجل من إخواني، فقاتلتهم بهم. أفي شك أنت من ذلك؟» قال: «قد كنت في شك فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم، وإنك أنت المهديّ المصيب».

---

(١) أعتبه: سره بعد ما ساءه، والاسم منه العتبى.

فسأله رجل عن مصير من قتل في هذه الحرب، أشهيد هو؟ فقال كرم الله وجهه: «رجوت الله ألا يقتل في هذه الحرب منا أو منهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة». وتصايح الناس معجبين بهذه السماحة الرائعة الخارقة: «لله درك يا إمام!».

ودخل عليه وهو في المسجد في زحام مستقبليه جماعة من أشراف الفرس الذين أسلموا، وكانوا يقيمون بالكوفة والمدائن وما حولهما، فرحب بهم الإمام، وشرعوا يتكلمون جميعاً معاً في ذات الوقت، في تحية حارة صادقة للإمام، فابتسم لهم الإمام وقال: «إني لا أفقه عنكم، فأسندوا أمركم إلى أرضاكم في أنفسكم». فقدموا رجلاً منهم فقال: «والله يا أمير المؤمنين لقد زنت الخلافة وما زانتك، ورفعتها وما رفعتك، وهي كانت أحوج إليك منك إليها». فشكره الإمام ثم سأله: «أي ملوككم كان أحمد عندكم؟» قال: «أحمدهم سيرةً كسرى أنو شروان». قال الإمام: «أي أخلاقه كان أغلب عليه؟». فأجاب: «الحلم والأناة». قال الإمام: «هما توأمان ينتجهما عُلُوُّ الهمة». ثم سأله «أخبرني عن سيرة ملوك فارس». قال: «ما زالت سيرتهم في عظم أمورهم واحدة حتى ملكنا كسرى ابن هرمز، فاستأثر بالمال والأعمال وخالفَ أوائلنا وخرب الذي للناس، وعمّر الذي له واسْتَخَفّ بالرعية، فأوغر نفوس فارس، حتى ثاروا عليه فقتلوه، فأرملت نساؤه، ويتم أولاده»! فقال الإمام: «إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق، ولا يرضى من أحد إلا بالحق، وفي سلطان الله تذكرة مما خول الله. وإنه لا تقوم مملكة إلا بتدبير، ولا بد من إمارة، ولا يزال أمرنا متماسكاً ما لم يشتم آخرنا أولنا، فإذا خالف آخرنا أولنا وأفسدوا، هلكوا وأهلكوا».

ولم يغادر الإمام مجلسه هذا حتى أمر بعزل بعض الولاة، واستعمال آخرين.

اتخذ الإمام علي المسجد الأعظم بالكوفة مقراً للخلافة.. فمن

ركن هادىء من هذا المسجد الجامع، كان أمير المؤمنين يدير شؤون الدولة، وينظر في أمور الرعية.

من هذا الركن الهادىء كان الإمام يعلم الناس ويعظهم، كما تعود أن يصنع من قبل في ركن هادىء من المسجد النبوي الشريف، أيام كان لا تثقل كاهله أعباء الحكم، ولا يُعَنّيه إلا أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُفقّه الناس في أمور الدين والدنيا، ويعلمهم ما جاء به الإسلام متمماً لمكارم الأخلاق.

من هذا الركن الهادىء من بيت الله الذي أسس على التقوى في الكوفة كانت الكتب تجري بين الإمام بكل زهده وخشونة ملبسه وورعه، وبين قصر الخضراء في دمشق، حيث يعيش معاوية بن أبي سفيان، كما يعيش أباطرة الرومان!

وفي أول جُمعة، صلى الإمام بالناس، وجعل خطبة الجمعة قصيرة، سُنَّة عن رسول الله ﷺ، فقد كان الرسول يكره الإطالة في خطبة الجمعة وقد علّم الصحابة أن يوجزوا فيها، وهكذا تعود الخلفاء الراشدون والصحابة جميعاً الخطب القصار التي لا تشق على المصلين ولا تسئمهم، كما علمهم أن يصلوا بالناس صلاة أضعفهم، فلا يطيلوا.

قال الإمام علي في خطبة أول جمعة صلاها بالناس في الكوفة: «الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستهديه وأومن به وأتوكل عليه. وأعوذ بالله من الضلالة، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، انتخبه لأمره واختصه بنبوته، أكرم خلقه، وأحبهم إليه، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وأدى الذي عليه. أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، وأقربه إلى رضوان الله، وخيره في عواقب الأمور عند الله، وبتقوى الله أمرتم، وللإحسان والطاعة خلقتم، فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه، فإنه حذر بأساً شديداً، واخشوا

الله، واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإن من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له، ومن عمل مخلصاً تولى الله ثوابه. وأشفقوا من عذاب الله، فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدى، قال رسول الله ﷺ: (ما من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه). إن الله تعالى قد علم أعمالكم، وكتب آجالكم، فلا تغتروا بالدنيا فإنها غَرّارة لأهلها، مغرور من اغتر بها، وهي إلى فناء. **﴿وإن الآخرة لهي دار الحيوان لو كانوا يعلمون﴾**. أسأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، فإنما نحن به وله». لم تستغرق خطبة الإمام دقائق.

ثم صلى بالناس فلم يطل، ذلك أنه كان بالقول والفعل يعلم الناس السنة الشريفة؛ وهي تحتم على الذي يؤم المصلين أن يراعي قدرة أضعفهم على الاحتمال، فلا يشق عليهم بالإطالة..

وبعد الصلاة التف نفر من المصلين حول الإمام كرم الله وجهه، عسى أن يسمعوا موعظة من مواعظه، ولكنه قال لهم: «أنتم وجوه العرب عندي ورؤساء أصحابي، فأشيروا علي في أمر هذا الغلام المترف!». يعني معاوية.

كان الإمام معذباً من أمر معاوية، وما أحدثه من شقاق، وما جهر به من عصيان، وما يفتح من أبواب للفتنة تراق فيها دماء المسلمين بسيوف المسلمين!!

فقال أحد كبار المهاجرين: «إن معاوية أترفه الهوى، وحببت إليه الدنيا فهانت عليه مصارع الرجال، واشتهى آخرتهم بدنياه. والرأي أن ترسل إليه ثقة من ثقاتك بكتاب تدعوه إلى بيعتك مرة أخيرة، فإن أجاب كان له ما لك وعليه ما عليك، وإلا جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين».

وتململ بعض من بالمجلس، فكم ذا أرسل الإمام إلى معاوية، وهو مصر على الشقاق!! الكتب وردودها تكرر المعاني، وأحياناً الكلمات. . ولا جدوى!!

فنظر الإمام حوله، فوجد جرير بن عبد الله يهم بالكلام وجرير هو عامل عثمان على همدان.

لقد عزل عليٌّ كثيراً من عمال عثمان، ولكنه أبقى جرير بن عبد الله لما يعرف من أمانته وورعه، مع حسن نهوضه للأمر، فكتب إليه حينئذ. «أما بعد، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم دونه من وال» ثم أني أخبرك عنا وعمن سرنا إليهم، من جمع طلحة والزبير بعد نكثهما ببيعتهما، وما صنعا بعاملي عثمان بن حنيف، إني هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت ببعض الطريق، بعثت إلى الكوفة الحسن ابني، وعبد الله بن العباس ابن عمي، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، فاستنفرتهم بحق الله ورسوله، فأجابوا، وسرت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء، وأقلت في العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم، فأبوا إلا قتالى، فاستعنت الله عليهم، فقُتل من قُتل، وولوا مدبرين إلى مصرهم، فسألوني ما كنت دعوت إليه قبل اللقاء، فقبلت العافية، ورفعت عنهم السيف، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس». .
فقام جرير حينئذ فقرأ كتاب الإمام على أهل ولايته ثم قال: «أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو المأمون على الدين والدنيا، وكان من أمره وأمر عدوه ما قد سمعتم، ولقد بايعه السابقون الأوائل من المهاجرين والأنصار، وبايعه التابعون بإحسان، ألا وإن البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وعلي بن أبي طالب حاملكم على الحق ما استقمتم له، فإن مِلْتُم أقام مَيْلكم». فقال الناس: «سمعاً وطاعة».

جريرٌ في مجلس الإمام يريد الآن أن يتحدث..

ولكن الإمام أشار إليه أن ينتظر حتى يتحدث شيخ المهاجرين عمار ابن ياسر. فقال عمار: «يا أمير المؤمنين. لقد قاتلك بعض من بايعك فأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله جل وعز: ﴿ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾ وقوله: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾. وقوله: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ وقد كانت لنا الكوفة، والبصرة علينا، فأصبحنا على ما تحب، بين ماض مأجور، وراجع معذور، وإن بالشام الداء العضال، رجلاً لا يسلمها أبداً إلا مقتولاً أو مغلوباً، فعاجله قبل أن يعاجلك».

وقبل أن يتحدث جرير قام الأشتر، وكان الإمام قد استعمله على الكوفة بدل أبي موسى الأشعري، فقال: «يا أمير المؤمنين، إنما لنا أن نقول قبل أن تقول، فإذا عزمت فلم نقل. فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الجمع لم يلقوك بمثله، فإن القلوب اليوم سليمة، والأبصار صحيحة».

ولكن الإمام كان لا يريد أن يبدأ بالحرب، وكان حريصاً على إنقاذ مهج المسلمين من سيوف المسلمين!

من أجل ذلك عزم على أن يعاود الكتابة إلى معاوية، وفكر فيمن يحمل رسالته، وإذ بجرير بن عبد الله ينظر مرة أخرى إلى الإمام في انتظار أن يفرغ من الكلام من هم أكبر منه سناً، أو أسبق منه في الإسلام.

فلما جاء دوره قال: «يا أمير المؤمنين، أرسلني إلى معاوية فإن أكثر من معه من قومي، فلعلي أجمعهم على طاعتك». فقال الأشتر «يا أمير المؤمنين لا تبعثه فإن هواه هواهم». قال الإمام: «دعه يتوجه، فإن نصح كان ممن أدى أمانته، وإن داهن كان عليه وزر من أؤتمن، ولم يؤد الأمانة»!

وسكت كرم الله وجهه ملياً وهو يتأمل وجوه من كانوا في مجلسه.. وشرد فكره في مناوئيه من بني أمية، وهو يتأمل موقف أهل الشام ثم قال: «يا ويحهم مع من يميلون ويدعونني؟! فوالله ما أردتهم إلا على إقامة حق، ولا يريدهم غيري إلا على باطل».

ثم التفت إلى جرير وقال: «يا جرير ما من عبد أنعم الله عليه بنعمة إلا كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام فيها بما يحب الله عز وجل، عرض نعمته للبقاء، ومن قصر فيما يحب الله فقد عرض نعمته للزوال». ثم أخبره أنه أرسل من قبل إلى معاوية يدعوه إلى البيعة فرد المرة بعد المرة بقوله: «أقرني على عملي، وادفع إلي قتلة ابن عمي أبايعك».

وأضاف الإمام: «أيشرط علي معاوية الشروط في البيعة؟! ويسألني أن أدفع إليه قتلة عثمان؟! فما معاوية والطلب بدم عثمان؟! إنما هو رجل من بني أمية، وبنو عثمان أحق بالطلب بدم أبيهم، فإن زعم أنه أقوى على ذلك منهم، فليبايعني وليحاكم لي».

إن الإمام ليصبر على معاوية وأهل الشام، حتى ليحسبه الجاهل خائفاً!! ولكنه الحرص على دماء المسلمين ووحدتهم، والخشية من انتصار الباطل!.. قال كرم الله وجهه: «ما شككت في الحق منذ أُريتهُ، لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهال ودول الضلال... من وثق بماء لم يظمأ».

فقال له بعض من سمعه: «يا أمير المؤمنين ما سمعنا قبل اليوم مثل هذا!! إنه أفضل تفسير لقوله تعالى: **﴿وأوجس في نفسه خيفة موسى﴾** وأفضل تبرئة لنبي الله من الشك في أمره»!

قبل أن يبرح جرير الكوفة إلى دمشق، دعا معاوية أهل الشام بغتة إلى بيعته أميراً للمؤمنين!.. وأغرى الناس بالأموال الطائلة!

فلما بايعه أهل الشام، ثار عليه بعض من به من المهاجرين والأنصار والتابعين وقالوا: «ليس من قتل عثمان بأعظم جرماً ممن بايع معاوية أميراً للمؤمنين»! . . وأفتوا بأن معاوية طليق فلا يحق له أن يكون خليفة!!

وأغرق معاوية بعضهم بالأموال والعبيد والإماء، فسكتوا عنه. لم يبايعوه ولم يلوموه!

ثم أرسل إلى الإمام خطاباً متحدياً: «أما بعد، فإنا كنا نحن وإياكم يداً جامعة، وألفة أليفة، حتى طمعت يابن أبي طالب فتغيرت، وأصبحت تظن نفسك قوياً على من عاداك بطغام أهل الحجاز، وأوباش أهل العراق، وحمقى الفسطاط، وغوغاء أهل مصر، وأيم الله لينجلين عنك حمقاها، ولينقشعن غوغاؤها انقشاع السحاب. قتلت عثمان بن عفان، ورقيت سلماً أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك، وقتلت الزبير وطلحة، وشردت أم المؤمنين عائشة، وخيل إليك أن الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورَجلها، وإنما تعرف أمنيتك لو قد زرتك في المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام، فيحيطون بك من ورائك، ثم يقضي الله علمه فيك، والسلام على أولياء الله».

ها هو ذا معاوية يتحداه مرة أخرى، ويستفزه للقتال!!

ولكن الإمام لا يريد أن يضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض مرة أخرى، وكفى ما سال من دماء يوم الجمل، وكفى شقاقاً والروم يتربصون الدوائر بالمسلمين والعرب! . .

وكظم الإمام غيظه من هذا الوالي المتمرد الذي يجهر بمخالفة الجماعة، ويعلن الثورة، ويصر على البغي إصراراً! . .

آلى الإمام على نفسه أن يصبر، ويدعو إلى الوفاق ما وسعه الصبر.

إن معاوية ليعتز بما عنده من مال ورجال، وإنه ليدعو إلى العصبية الجاهلية التي قضى عليها الإسلام.

إن معاوية ليخشى أن يسترد الإمام منه ومن عصبته ما أخذوه من بيت المال بغير حق، فيرده إلى المسلمين لينفق في وجوه المصالح العامة، ويسد به حاجات المحرومين!!

مهما يكن من أمر معاوية يا ولي الله فليكن في الرد عليه ما يدحض مزاعمه، ويلزمه حجة الطاعة!

وكتب الإمام علي إلى معاوية: «أما بعد، فقدر الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون جنده، ولا يشغل بالهزل من قوله، فناج نفسك مناجاة من يستغني بالجد دون الهزل، فإن في القول سعة!. وأما ما ذكرت من أنا كنا وإياكم يدا جامعة، فلقد كنا كما ذكرت، ففرق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله منا فآمنا به وكفرتم! ثم زعمت أني قتلت طلحة والزبير، فذلك أمر غبت عنه ولم تحضره، ولو حضرته لعلمته، فلا عليك، ولا العذر فيه إليك، وزعمت أنك زائري في المهاجرين، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك في بدر، وإن أزرك فجدير أن يكون الله بعثني إليك، للنقمة منك والسلام».

ولم يرد معاوية!..

لقد حسب أنه سيرهب الإمام علياً، أو يستفزه لقتاله، ولكنه بهت إذ وجده يرد على التحدي والاستفزاز، بالكلمات، لا بالطعنات!..

ولم يمهل الإمام عصابة البغي..

كل المهاجرين والأنصار معه، إلا نفراً قليلاً اصطنعهم معاوية، أو اعتزلوا إيثاراً للعافية! وكان ممن اعتزلوا سعد بن أبي وقاص، وهو أحد المبشرين بالجنة.

أرسل معاوية إلى سعد بن أبي وقاص، يغريه بعلي، وقدر معاوية

أن انضمام سعد إليه سيجذب إلى معسكره عدداً من المهاجرين والأنصار يحتج بهم على أهل الورع والتقوى من أصحاب علي!

كان ابن سعد قد حاول أن يقنع أباه أن يدعو إلى نفسه لما رأى موقف معاوية من الإمام علي، فقال سعد: «لا أفعل. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن تكن فتنة، فخير الناس فيها الخفي التقي، والله لا أشهد هذا الأمر أبداً». وأمر أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتى تجتمع الأمة على إمام لا يخرج عليه أحد، كما اجتمعت من قبل على الخلفاء الثلاثة. غير أن معاوية طمع في تأييد سعد فأرسل إليه يدعوه إلى الطلب بدم عثمان، فلم يقبل سعد منه الدعوة، ولم يخرج من بيته وقال: «ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام: يوم قبض رسول الله ﷺ، ويوم قتل عثمان، واليوم أبكي على الحق».

ثم كتب إلى معاوية ينصح له أن يدع دم عثمان، وأن يعدل عما هو آخذ فيه، ويقرعه لأنه يصاول علياً، ويقارن نفسه به، ويقول في آخر كتابه: «ليوم من علي بن أبي طالب خير منك حياً وميتاً».

عاد الإمام يكتب إلى معاوية: «أما بعد، فإن القضاء السابق، والقضاء النافذ، ينزل من السماء كقطر المطر، فتمضي أحكامه عز وجل، وتنفذ مشيئته بغير تحاب المخلوقين، ولا رضا الآدميين، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله، وبيعة الناس إياي، ومصارع الناكثين لي، ولقد أتاني أبوك حين قبض رسول الله ﷺ وبايع الناس أبا بكر، فقال: أنت أحق بهذا الأمر، فابسط يدك أبايعك. فأبيت ذلك مخافة الفرقة لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية. فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تُصب رشدك، وإلا تفعل فسيغني الله عنك. فادخل فيما دخل فيه الناس، وإلا فأنا الذي عرفت، وحولي من تعلمه والسلام».

وأرسل الكتاب مع أحد الذين دافعوا عن عثمان يوم الدار.

فلما قرأ معاوية الكتاب اغتم، وأخفاه عن أهل الشام. فقام رسول علي في الناس خطيباً ومعاوية حاضر بالمسجد الجامع في دمشق فقال: «يا أهل الشام. إن أمر عثمان أُشْكِلَ عَلَى من حضره: عابه قوم فقتلوه، وغدر به قوم فلم ينصروه!.. وقد بايع الناس علياً من على منبر رسول الله ﷺ بيعة عامة، من رغب عنها رُدّ إليها صاغراً داحراً، فانظروا في ثلاث وثلاث ثم اقضوا على أنفسكم: أين الشام من الحجاز؟ وأين معاوية من علي؟ وأين أنتم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان»؟

فغضب معاوية، وخشي ما قد يفعله هذا الكلام ببعض الناس، فنادى رسول عليّ، فصرفه من فوره، وقال: «أعلم علياً أن رسولي إليه على إثرك»!

وأرسل معاوية رسولاً إلى علي في الكوفة، فأخبر الناس أن معاوية قد أعد مائة ألف من الفرسان يريدون رقبة علي، ووصف لهم بكاء أهل الشام على قميص عثمان!

فوثب إليه رجل من أنصار الإمام فقال: «إنا والله ما نخاف رجالك ولا خيلك، أما بكاء أهل الشام على قميص عثمان، فوالله ما هو بقميص يوسف، ولا حزن يعقوب، فأما قتالهم أمير المؤمنين، فإن الله يصنع من ذلك ما أحب».

وأحسن الإمام إلى رسول معاوية كما أحسن إليه أصحاب الإمام، وأخذوا يحاورونه في أمر معاوية وبغيه، حتى شك الرجل في أمر معاوية، وترك الشام وأقام بالعراق نصيراً للإمام.

وعاد إلى معاوية جواسيسه الذين بثهم في العراق فحكوا له ما شهدوه من إجماع الناس على أن علياً أبرأ الناس من دم عثمان، وأن طلحة والزبير هما اللذان حرضا عليه!!

ثم وصفوا له مقدم الإمام إلى الكوفة فقالوا: «فرح الناس بمقدمه، فحملوا إليه الصبي الصغير، ودبت إليه العجوز، وخرجت إليه العروس، سروراً به وشوقاً إليه»..

كل من جاء من العراق إلى الشام كان يقول لمعاوية عن الإمام علي: «احذر، فقد تركته ولا هم له إلا أنت والشام»!

وكلما سمع معاوية هذا القول عن الإمام من رجل قال لشرطته: «اخرجوه لا يفسد علينا أهل الشام».

أقام الإمام علي بالكوفة وأرسل إلى عمال الولايات يطلب منهم حساباً عن الأموال التي تحت أيديهم.. وفزع من ذلك الأشعث بن قيس والي أذربيجان، وقال لخاصته: «جاءني كتاب علي، وهو آخِذِي بمال أذربيجان وأنا لاحِقٌ بمعاوية».

فقال أصحاب الأشعث له: «أتدع مصرك وجماعة قومك، وتكون ذنباً لأهل الشام؟ الموت خير لك من ذلك». ولكنه نهب ما في بيت المال ولحق بمعاوية!

قال الإمام لجرير بن عبد الله: «يا جرير، انطلق إلى معاوية بكتابي هذا وكن عند ظني فيك، واعلم يا جرير أنك ترى مَنْ حولي من أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم أهل بدر، وإني اخترتك عليهم، لقول رسول الله ﷺ: (خير ذي يمن جرير بن عبد الله). فاذهب إلى معاوية بكتابي هذا ورسالتي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فانبذ إليه بالحرب! وأعلمه أني لا أرضى به أميراً، والعامة لا ترضى به والياً». وما كان كتاب الإمام إلا مثل الذي سبقه من كتب.

وحمل جرير ما كتبه الإمام إلى معاوية: «أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام. لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن

يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً كان ذلك لله رضا، فإذا خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وأولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً! وإن طلحة والزبير بايعاني بالمدينة ثم نقضا بيعتهما، فكان نقضهما كردتهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله وهم كارهون. فأدخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب أمورك إليّ العافية، إلا أن تتعرض للبلاء، فإن تتعرض للبلاء قاتلتك، واستغثت بالله عليك. وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان، فأدخل في الطاعة، ثم حاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان. واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء، الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تُعقد معهم الإمامة، ولا تعرض فيهم الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قِبَلَك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة فبايعَ، لا قوة إلا بالله».

لما قدم جرير على معاوية، وجده على سرير الملك في قصره الضخم، ووجد دون معاوية حجاباً، ومن حوله الأتباع.

وعجب جرير مما يرى!!

أين هذا كله مما خلفته يا جرير وراءك في الكوفة، حيث دست الملك هو ركن هادىء من المسجد الجامع، اتخذه الإمام مقراً للخلافة، ومنبراً للوعظ، وشرعة للعلم في آن واحد؟! هذا يا جرير هو فرق ما بين المُلْك العضوض في دمشق، والخلافة الورعة والإمامة التقية المستبصرة في الكوفة!.. هنا ملك يجذب إليه أهل الدنيا بالرشوة، وهناك إمام يخيف أهل الدنيا بعدله، ويرضي أهل التقوى بورعه وفضائله!

ولاحظ جرير أن معاوية قرأ كتاب الإمام لنفسه، ولم يخبر أحداً

بما فيه، ولم يعقّب عليه، بل بان على وجهه الكدر، والتفكير!

حتى إذا نودي للصلاة، خرج معاوية في موكب فخيم وحرس كبير إلى جامع دمشق، فلما صلى بالناس، صعد جرير المنبر، حيث كان قميص عثمان المخضب بدمه ما زال منصوباً، ومعاوية في كل صلاة يشير إليه، ويحرض الناس على الانتقام لعثمان من علي بن أبي طالب..!!

وكان لجرير عند الذين يحيطون بمعاوية منزلة خاصة وأكثرهم من قوم جرير.. وجرير سيد قومه.

وأوجس معاوية خيفة مما عسى أن يقوله جرير، على حين أمسك الناس أنفاسهم، وتطلعوا إلى ما سيقوله سيد قومه. فحمد الله وأثنى عليه، وصلى وسلم على محمد وآله، ثم قال: «أيها الناس، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده فما ظنكم بمن غاب عنه. وإن الناس بايعوا علياً، وإن طلحة والزبير كانا ممن بايع، ثم نقضا بيعته، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل السيف. وقد كان في البصرة أمس روعة ملمة، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس! وقد بايعْتُ وقد بايعَتْ الأمة علياً، فأدخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس، فإن قلت: إن عثمان ولاّني ولم يعزلني فإن هذا لو كان لم يقم لله دين، وكان لكل امرىء ما هو فيه».

وشعر معاوية بما صنعه كلام جرير في قلوب الناس، فقال: «يا جرير. مهلاً. أبلعني ريقي».

ثم أن معاوية استشار حاشيته، فأشاروا عليه بأن يستعين بعمرو بن العاص، ونصحوا معاوية أن يرضيه كيلا يعتزله كما اعتزل عثمان في آخر حياته. فكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين على مسيرة أيام من دمشق: «أما بعد، فقد كان من أمر عليٍّ وطلحة والزبير ما قد بلغك،

وقدم جرير بن عبد الله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقدم على بركة الله والسلام».

وأبطأ عمرو بن العاص في الرد على معاوية..

كان يعرف أنه في حاجة لدهائه، فرأى أن يدعه ينتظر بعض الوقت، لينال منه ما يريد!

وضاق معاوية بالانتظار فدعا إليه جرير بن عبد الله وقال له: «إني قد رأيت رأياً. اكتب إلى عليّ أن يجعل لي الشام ومصر، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده في عنقه بيعة، فإن رضي بهذا الشرط أسلمت إليه الأمر، وكتبت إليه بالخلافة».

فلما وصل كتاب جرير إلى الإمام كتب إليه: «إن معاوية إنما أراد ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأن يختار من أمره ما أحب. لقد أشاروا عليّ وأنا في المدينة أن أستعمله على الشام وحده، فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل»!

وانتظر الإمام رداً، فلما أبطأ الرد، طالبه أصحابه بأن يقودهم إلى الشام، ولكنه قال لهم: «إن زحفي على أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام، وصرف لأهله عن خير أرادوه، ولكني قد وَقَّتُّ له وقتاً لا يقيم بعده إلا أن يكون مخدوعاً أو عاصياً! ولا أكره لكم الإعداد. والرأي عندي مع الأناة».

أما عمرو بن العاص، فإنه لما جاءه كتاب معاوية استشار ولديه في الأمر، فقال له أكبرهما وهو الصحابي عبد الله بن عمرو: «أرى والله أن نبي الله قبض وهو عنك راض، وكذلك الخليفتان من بعده، فأقم في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة». وقال ابنه الأصغر محمد: «أرى أنك شيخ قريش

وصاحب أمرها بالحق، فالحق بجماعة أهل الشام وٱطلب بدم عثمان تستمل إليك بني أمية جميعاً». فقال عمرو لولديه: «أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لدنياي». وسأل غلامه وردان فقال: «اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: مع عليٍّ الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة. فأنت واقف بينهما وأرى أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك».

ولكن عمرو بن العاص لحق بمعاوية في دمشق، فقابله هناك ابن أخيه فقال له: «يا عم! ألا تخبرني بأي رأي تعيش في قريش وقد أعطيت دينك لغيرك!» فقال عمرو: «يابن أخي! إنه لأمر الله دون معاوية وعليٍّ.. لو كنت مع علي وسعني بيتي، ولكني مع معاوية». فقال الفتى: «إنك تريد دنياه، وهو يريد دينك يا عماه!».

وعلم معاوية بقول الفتى، فطلبه ليوقع به، ولكن الفتى فرّ إلى الإمام علي، وأخبره بما كان، فضحك كرم الله وجهه، وحمد للفتى شجاعة رأيه وأصبح الفتى من أشياعه.

وأدرك الإمام علي أن عمرو بن العاص سيطلب إلى معاوية ولاية مصر، فما بارحتْ فكر عمرو قط منذ عزله عنها عثمان، ولقد غاظه هذا العزل، حتى مضى يحرض الناس على قتل عثمان!

وما من شك لدى الإمام في أن معاوية قد أبرم الصفقة مع عمرو، فأرسل الإمام إلى عمرو: «أما بعد، فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرىء ظاهر غيه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره، وطلبت فضله اتباع الكلب للضرغام، يلوذ إلى مخالبه، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته، فأذهب دنياك وآخرتك! ولو بالحق أخذتَ، أدركتَ ما طلبتَ، فإن يمكنني الله منك ومن ابن أبي

سفيان أُجزكما بما قدمتما، وإن تعجزاني وتبقيا في الدنيا بعدي، فما أمامكما شر لكما!

قال الذين شهدوا مقدم عمرو بن العاص على معاوية في قصره بدمشق: إن ابن العاص قدم وهو يبكي كما تبكي المرأة ويقول: «واعثماناه! أنعي الحياء والدين! يا أهل الشام اطلبوا بدم الخليفة المقتول».

ومعاوية لا يلتفت إليه!

فقال له ابناه: «يا أبتاه، ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إليك؟. انصرف إلى غيره!».

فوثب عمرو إلى معاوية قائلاً: «والله لعجب لك! تطلبني فأرفدك بما أرفدك، وأنت معرض عني! والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس ما فيها، حيث تقاتل من نعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكن إنما أردنا هذه الدنيا!».

وكان معاوية قد أعرض عنه، ولم يبد اللهفة إلى لقائه، لكيلا يغلو عمرو فيما يطلبه!

على أنهما بعد أن تكايدا بعض يوم تصافيا، وأغدق عليه معاوية مالاً كثيراً، وإماءً حساناً، وجعل له المكانة الأولى في حاشيته، واسترضاه حتى رضي!

ثم أقبل عليه معاوية ذات صباح فقال له: «يا أبا عبد الله، طرقتني في ليلتي هذه أخبار ليس لي فيها حيلة، فأشر علي: منها أن قيصر زحف بجماعة من الروم ليغلب على الشام ويسترده، ومنها أن علياً قد استعمل على مصر قيس بن سعد بن عبادة وهو يعدل عندي مائة ألف فارس، وإنه في موقعه هذا لأثقل خلق الله علينا مخافة أن يقبل علي بن أبي طالب في أهل العراق ويقبل قيس في أهل مصر، فأقع بينهما ولات

حين مناص! ومنها أن علياً يتهيأ ليجيء إلينا فما عندك؟». فقال عمرو في ثقة بالغة بدهائه: «ليس كل ما ذكرتَ عظيماً يا معاوية».

وصُدِم معاوية، فقد تمنى أن يخاطبه عمرو كما يخاطبه أهل الشام بلقب الخلاَفة «أمير المؤمنين!».

وأدرك عمرو ما يدور بخلد معاوية، فسكت وعيناه تلتمعان، وضحكة ساخرة مطمئنة تغمر أساريره!

قال معاوية: «هيه يا عمرو بن العاص! هات ما عندك». قال عمرو: «فأما قيصر فأهد إليه من وصائف الروم ومن الذهب والفضة، والرقائق من نسيج قبط مصر واطلب إليه الموادعة، تجده إليها سريعاً، وأما قيس بن سعد بن عبادة فالرأي أن تكتب إليه فتمنّيه بما يشاء، وانظر بما يجيب، ولي بعد ذلك رأي في أمره وأمر مصر. وأما عليٌّ، فوالله إن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من الناس. وإنه لصاحب الأمر!».

فقال معاوية: «صدقت ولكني أقاتله على ما بأيدينا ونلزمه دم عثمان». فقال عمرو: «واسوأتاه! إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لأنا وأنت!» قال معاوية: «ولم؟!». قال عمرو: «أما أنت فخذلتَه ومعك أهل الشام، واستغاثك فأبطأت عليه، وأما أنا فتركتهُ عياناً وهربت إلى فلسطين، وحرضت عليه!». قال معاوية: «دعك من هذا!».

وصمت معاوية ملياً..

وبغتة وثب إلى عمرو فقال له: «هلم وبايعني!».

فضحك عمرو ضحكة عريضة ماكرة، والتمعت عيناه، وأحس بانتصار الذي سنحت له الفرصة النادرة فجأة فانتهزها!

وقال: «لا والله لا أعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك!». قال معاوية: «سل تُعْطَ». قال عمرو: «مصر»..!

وبهت معاوية!! إنه هو نفسه يحلم بمصر، ولو أن علياً أعطاه مصر لسكت عنه، واعترف بخلافته!!

وقال معاوية: «ألم تعلم أن مصر كالشام؟!». قال: «بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك. وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق، وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى علي! فانظر في أمرك». وخرج!

ودخل عتبة بن أبي سفيان على أخيه معاوية فحدثه معاوية بما يريده عمرو فقال: «أما ترضى يا أمير المؤمنين أن تشتري عمرو بن العاص بمصر إذا هي صفت لك؟! ليتك لا تغْلَب على الشام؟!».

فبعث معاوية إلى عمرو، فكتب له عهداً بأن يوليَهُ مصر.. وكتب في أسفل العهد: «لا ينقض شرطٌ طاعة». فكتب عمرو: «ولا تنقض طاعة شرطاً»!.

وبدأ عمرو يمارس عمله: فاقترح على معاوية أن يكتب إلى قيس ابن سعد بن عبادة.

إنه رأس الأنصار اليوم.. وإنه لكذلك منذ حمل راية الأنصار يوم فتح مكة، وكان النبي يحبه، ويكبره. وقد أرسل علياً ينزع راية الأنصار من أبيه سعد حين سمعه يتوعد أهل مكة باستباحة الحرمات.

كتب معاوية إلى قيس: «إن كنتم نقمتم على عثمان رضي الله عنه في أَثَرَةٍ رأيتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو شتيمة رجل، أو في تسيير آخر، أو في استعماله الفتى (الفتيان)، فإنكم قد علمتم ـ إن كنتم تعلمون ـ أن دمه لم يكن يحل لكم، فقد ركبتم عظيماً من الأمر، وجئتم إدًّا. فتب إلى الله يا قيس بن سعد! فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل. تابعنا على أمرنا، ولك سلطان العراقين إذا ظهرت أنا ما بقيت أنت. ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني غير هذا مما تحب. فإنك لا تسألني أمراً إلا أوتيتَه!

واكتب إلي برأيك فيما كتبت به إليك. والسلام».

فأحب قيس ألا يتعجل حرب معاوية كما أوصى بذلك الإمام! ثم إن قيساً لا يقل دهاء عن معاوية وعمرو، فآثر ملاينتهما ليرى ما يكون من خطتهما! فكتب إلى معاوية: «أما ما سألتني عن متابعتك، وعرضت علي من الجزاء، فقد فهمته، وهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يُسرع إليه، وأنا كاف عنك. ولن يأتيك من قَبلِي شيء تكرهه».

فرد عليه معاوية مغاضباً: «أما بعد، فقد قرأت كتابك، فلم أرك تدنو فأعدك سلماً، ولم أرك تباعد فأعدك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادع، ومعه عدد الرجال، وبيده أعنة الخيل، فلأملأنها عليك خيلاً ورجلاً!».

فرد عليه قيس: «أما بعد، فإن العجب من اغترارك بي، وطمعك في، واستسقاطك رأيي! أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمْرَة، وأقولهم للحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم إلى رسول الله ﷺ وسيلة؟!. وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وَأقوَلِهم للزور، وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلةً؟! ولد ضالين مضلين، طاغوت من طواغيت إبليس!! وأما قولك إني مالىء عليك مصر خيلاً ورجلاً، فوالله لئن لم أشغلك بنفسك، حتى تكون نفسك أهمّ إليك، إنك لذو جد (حظ)».

فلما وصل كتاب قيس إلى معاوية صدمته حدَّتُه، فتشاور هو وعمرو فيما يصنعان، ليستخلصا مصر من بين يدي قيس، وليوقعا به عند عَلِيّ.

وانتهيا إلى مكيدة قال عنها معاوية: «ما ابْتُدعَتْ مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدة كِذْت بها قيس بن سعد عند عَلِيّ! حين امتنع مني قيس قلت لأهل الشام: لا تسبوا قيس بن سعد، ولا تدْعُوا إلى

غزوه، فإنه لنا شيعة تأتينا كتبه ونصائحه. ألا ترون ما يفعل بأهل خِرْبِتا، يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمن سربهم».

وخرْبتَّا قرية في البحيرة في شمال غَربي دلتا النيل. اعتصم بها عشرة آلاف مقاتل من القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح. وقد رفضوا البيعة للإمام، وأرسلوا إلى عامله على مصر قيس بن سعد: «إنّا لا نقاتلك، فابعث عمالك، فالأرض أرضك، ولكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس». فوافقهم قيس، ولم يقهرهم على البيعة. غير أن رئيسهم مسلمة بن مخلد الأنصاري، نهض فدعا إلى الطلب بدم عثمان. فأرسل إليه قيس بن سعد: «ويحك! أعَلَيَّ تثب؟! فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر، وأني قاتلك». فبعث إليه مسلمة: «إني كاف عنك ما دمت أنت والي مصر».

ثم بعث قيس إلى أهل خرْبتَّا بالمهادنة، على أن يؤدوا إليه ما على الأرض من خراج، فهادنوه، وَلم يَنازعه أحد.

وكان قيس رجلاً شجاعاً، حصيف الرأي، عظيم الثقة والاعتداد بنفسه، حتى لقد رفض أن يدخل مصر بجند.. ذلك أن الإمام علياً دعاه فقال له: «سر إلى مصر فقد وليتكها، واخرج إلى رحلك، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرغب لعدوك وأعز لوليك، فإن أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن، واشتد على المريب، وارفق بالعامة والخاصة». فقال سعد: «رحمك الله يا أمير المؤمنين! قد فهمت ما قلت. أما قولك: اخرج إليها بجند، فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند لا أدخلها أبداً، فأنا أدع ذلك الجند لك، فإن أنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً. وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدة لك. وأنا أصير إليها بنفسي وأهل بيتي، فأما ما أوصيتني به من الرفق والإحسان، فإن الله عز وجل هو المستعان على ذلك».

فخرج بأهله في سبعة نفر من أصحابه..

فلما دخل مصر، صعد منبر المسجد الجامع بالفسطاط (مسجد عمرو)، فأمر بأن يُقرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الإسلام ديناً، وبعث به الرسل ﷺ إلى عباده، وخص به من انتخب من خلقه، فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة، وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة، لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا، وزكّاهم لكيما يتطهروا، ورفههم لكيما لا يجوروا فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته، ثم أن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين، عملا بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة، ولم يعدوا السنة، ثم توفاهما الله عز وجل، رضي الله عنهما. ثم ولى بعدهما وال. فأحدث أحداثاً، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثم نقموا عليه فغيّروا. ثم جاؤوني فبايعوني، فأَسْتَهْدِي اللَّهَ عز وجل بالهدى، وأستعينه على التقوى. ألا وإن لكم عَلَيَّ العَملَ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان. وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً، فآزوره وكاتفوه، وأعينوه على الحق، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم. والشدة على مريبكم، والرفق بعوامكم وخواصكم، وهو ممن أرضى هَدْيَه، وأرجو صلاحه ونصيحته.. أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً، ورحمة واسعة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وبعد أن تلي كتاب أمير المؤمنين قام قيس خطيباً، فحمد الله وأثنى

عليه وصلى وسلَّم على محمد وآله، وقال: «الحمد لله الذي جاء بالحق، وأمات الباطل، وكبت الظالمين. أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبيناﷺ، فقوموا أيها الناس فبايعوه على كتاب الله عز وجل وسنة رسولهﷺ، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم».

فقام الناس وبايعوا، واستقامت له مصر، إلا أهل تلك القرية من أعمال البحيرة، فلما توادعوا وتهادنوا، أحسن معاوية وعمرو استغلال سياسة قيس للإيقاع به عند عَلِيّ، عسى أن يعزله عن مصر، فيسهل عليهما امتلاكها، ويتولاها عمرو كما وعد معاوية، ويُفْلِت معاوية من وقوعه بين جند مصر وجند العراق! فاختلقا كتاباً من قيس إلى معاوية أذاعاه على الناس!

جاء في هذا الكتاب المختلق «بسم الله الرحمن الرحيم، للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد.. سلام عليك، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإنني لما نظرت رأيت أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرماً براً تقياً. فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا، ونسأله العصمة لديننا. ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسلم، وإني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى المظلوم. فعول علي فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل إليك».

فشاع بين أهل الشام أن قيس بن سعد بايع معاوية أميراً للمؤمنين!

فلما بلغ ذلك الإمام علياً عجب له، وقال «إني والله ما أصدق بهذا على قيس».

فقال له عبد الله بن جعفر: «يا أمير المؤمنين، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. اعزل قيساً عن مصر. فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك إن عزلته!».

فإنهم لكذلك، إذ جاء كتاب من قيس بن سعد: «بسم الله الرحمن

الرحيم. أما بعد. فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله إن قبَلِي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم، وأن أدعهم على حالهم حَتى يستقيم أمر الناس، فترى ويروا رأيهم، فقد رأيت أن أكُفّ عنهم وألا أتعجل حربهم، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله عز وجل أن يقبل بقلوبهم، ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله».

فقال عبد الله بن جعفر: «يا أمير المؤمنين، ما أخوفني أن يكون هذا ممالأة لهم منه، فمره يا أمير المؤمنين بقتالهم».

فكتب أمير المؤمنين إلى قيس: «أما بعد، فسر إلى القوم الذين ذكرت، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فناجزهم إن شاء الله».

فرد قيس بن سعد أمير مصر: «أما بعد، يا أمير المؤمنين، فقد عجبت لأمرك!. أتأمرني بقتال قوم كافِّين عنك، مُفْرِغيك لعدوك؟ إنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك، فأطعني يا أمير المؤمنين، واكفف عنهم، فإن الرأي تركهم، والسلام».

فلما قرأ أمير المؤمنين هذا الكتاب على بنيه وخاصة أهل مشورته، لم يتمالك عبد الله بن جعفر أن قال: «يا أمير المؤمنين. ابعث محمد بن أبي بكر على مصر يكفك أمرها، واعزل قيساً، والله لقد بلغني أن قيساً يقول: والله إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء، والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وإني قتلت مسلمة. فاعزله يا أمير المؤمنين، وول مكانه محمد بن أبي بكر».

وكان عبد الله أخا محمد بن أبي بكر لأمه وأقرب الناس إليه، فلاحظ أن شيئاً دخل نفسه من أمير المؤمنين الإمام علي منذ استعمل قيس بن سعد وكان محمد بن أبي بكر في آخر حكم عثمان قد وُلِّي أمر مصر، لما طلبه المصريون وسيره إليها عثمان، لولا مكر مروان السيء،

ومكيدته التي أدت إلى حصار عثمان رضي الله عنه، كما ذكرنا آنفاً، عند الحديث عن مقتل ذي النورين!

استجاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لمشورة عبد الله بن جعفر فعزل قيساً!

بعث أمير المؤمنين محمد بن أبي بكر إلى مصر وأرسل معه كتاباً بولايته فلما قدم به غضب قيس لعزله، وقال: «ما بال أمير المؤمنين!؟ ما غَيَّره؟! أدخل أحد بيني وبينه؟ أصَدّق في ما أذاعه معاوية وحزبه؟». قال له محمد: «لا والله ولقد أقسم لنا إنه لا يصدق بهذا عنك. أقم وهذا السلطان سلطانك!». قال قيس: «لا والله، لا أقيم ساعة واحدة».

وخرج قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري من مصر عائداً إلى موطنه: المدينة. . ولكنه خرج مغاضباً، وذاع خبره في المدينة، فجاءه حسان بن ثابت فقال: «نزعك علي بن أبي طالب، وقد قتلت عثمان فبقي عليك الإثم ولم يحسن ابن أبي طالب لك الشكر». فوثب إليه قيس قائلاً: «اخرج عني فوالله لولا أن ألقى بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك».

وفي المدينة شعر قيس أن مروان بن الحكم والأسود بن أبي البختري ونفراً من بني أمية يأتمرون به ليقتلوه. وجاءه من أقصى المدينة رجل يسعى بخبر كيدهم، فخرج قيس إلى الكوفة، وبث حديثه إلى أمير المؤمنين، وما كان من كيد معاوية وعمرو، فصدقه، وعلم أنه كان يقاسي أموراً عظاماً، فأبقاه بالقرب منه، وأشركه معه في الأمر كله.

ولم يكد معاوية وعمرو يفرحان أن أوقعا بين علي وقيس، حتى اغتما حين علما أن قيساً لحق بعلي، وأنه الآن لمن أقرب شيعته وأصحابه إليه.

وهو الآن أحد قواد الجيش الذي يجهزه علي للزحف على الشام!

وأرسل معاوية إلى مروان والأسود يؤنبهما، فقد بعثهما إلى المدينة ليخذلا الناس عن عليٍّ لا ليُمِدَّاه بمثل قيس! كتب معاوية لهما: «أمددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكانه، فوالله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لي من إخراجكما قيس بن سعد إلى عَلِيّ».

وكان قيس من أرجح الناس عقلاً، ومن أحكم أهل زمانه، ومن أدهى العرب وأحسنهم رأياً ومكراً، وأصوبهم نظراً، وكان مهيباً طويل القامة، حتى لتكاد قدماه تمسان الأرض وهو على صهوة جواده!!

وكان الأنصار لا يخالفون له حكماً ولا يعصون له أمراً.. وكذلك الأعراب الذين كانوا في حِلْفِ رهطه قبل الإسلام!

وظل معاوية يتغيظ على مروان والأسود، لأنهما تركا قيساً يعود إلى علي!!..

فلما رأى عمرو حال معاوية، أبطأ عليه بالمشورة، ولكنه جعل يشكك في ولاء مروان، وذَكّر معاوية بغضب مروان لما علم بأن معاوية كتب عهداً بأن يولي مصر ابن العاص، إذ عجب مروان من أن يشتري معاوية رجلاً مهما يكن خطره، بمصر، فقال: «ما بالي لا أُشترى!». وطمع في أن يكتب له معاوية عهداً بالإمارة على بلد كمصر! فما هو بأقل شأناً من عمرو بن العاص!! فلما أبى معاوية ذلك عليه، وقال له: «اسكت يابن العم فإنما يُشتري لك الرجال» فخرج إلى المدينة. زاعماً أنه سيُخَذِّل أهل الحجاز عن علي!! ولكنه خرج منكراً ما بين عمرو ومعاوية!!

ورأى عمرو لمعاوية ألا يُعوّل في الحجاز على مروان بعد، وأن يبعث الكتب والرسائل إلى أهل المدينَة وأهل مكة، وأصحاب السطوة والهيبة والنفوذ من المهاجرين والأنصار يستنصرهم، ويُخذِّلهم عن علي..

وفكر عمرو بن العاص في أم المؤمنين عائشة وقال: «ليتها قتلت يوم الجمل! لكانت قد ماتتْ بأجَلِها. وكنا جمعنا الناس كلهم حولنا للأخذ بثأرها!». .

فلما سمعت أم المؤمنين بهذا بعد أن قَرَّت في بيتها بالمدينة، جهرت بسخطها على أهل الشام ومعاوية وعمرو، وتمنت لو أنهم أغمدوا السيوف، فلا تشهد الأمة يوماً آخر كيوم الجمل!

لقد ظلت عائشة رضي الله عنها لا تتمالك نفسها من البكاء ندماً، كلما ذكرها أحد بيوم الجمل. . ثم تكفكف دمعها وتقول «يغفر الله لي! إن علياً عندي لمن الأخيار». وكانت توجه الناس ليستفتوه، وتقول عنه «هو أعلم الناس بالسنة».

كتب معاوية إلى أهل مكة والمدينة: «إنما نطلب بدم عثمان حتى يدفع إلينا عَلِيٌّ قَتَلَتَه فنقتلهم بكتاب الله، فإن دفعهم إلينا كففنا عنه، فأما الخلافة فلسنا نطلبها».

فغضب أهل مكة والمدينة وأجمعوا على رجل من القريتين عظيم ليرد عنهم فأرسل إلى معاوية رداً غليظاً جاء فيه: «أخطأت مواضع النصرة، وتناولتها من مكان بعيد! وما أنت والخلافة يا معاوية، وأنت طليق، وأبوك من الأحزاب؟!. فكف عنا يا معاوية، فليس لك فينا وليٌّ ولا نصير».

ولكن عمرو بن العاص لم ييأس، ونصح معاوية بأن يكتب إلى الذين اعتزلوا الصراع، فكتب لهم. فذكر لهم ثأر عثمان، واستنهضهم ضد قتلته وأنهى الكتاب إلى كل واحد منهم بقوله: «أنا لست أريد الإمارة عليك ولكني أريدها لك!».

أما عبد الله بن عمر فكتب إلى معاوية: «لعمري ما أنا كعلي في الإسلام والهجرة، ومكانه من رسول الله ﷺ. ولكن حدث أمر لم يكن

إلينا فيه من رسول الله ﷺ عهد، ففزعت إلى التوقف والاعتزال، وقلت، إن كان هذا فضلاً تركته. وإن كان ضلالة فشر نجوت منه!.. فأغن عني نفسك!».

وكان قد جاء في كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص: «أما بعد، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى، الذين اختاروه على غيره. وقد نصره منهم طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر والشورى ونظيراك في الإسلام، وخَفَّتْ لذلك أم المؤمنين، واستشهد في ذلك طلحة والزبير، فلا تكرهن ما رضوا ولا تردن ما قبلوا، فإنما نريدها شورى بين المسلمين».

وشعر سعد أن هذا الكتاب يختلف عن أول كتاب بعثه إليه معاوية، ففي الكتاب الأخير كيد مثل الفخ! فغضب سعد وكتب إلى معاوية: «أما بعد. فإن أهل الشورى ليس فيهم واحد أحق بها من صاحبه. غير أن علياً لم يكن فينا ما فيه، فشاركَنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة، ولكن مقادير الله تعالى صرفتها عنه. وقد علمنا أنه أحق بها منا، ولكن لم يكن بد من الكلام والتشاجر!! فدع ذا! وأما أمرك يا معاوية، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره. وأما طلحة والزبير رحمهما الله، فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما. والله تعالى يغفر لعائشة أمّ المؤمنين».

وعاد سعد بن أبي وقاص يغلق عليه بابه، ويأمر أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتى تجتمع الأمة على إمام!!

وأما محمد بن مسلمة الأنصاري فقد ساءه كتاب معاوية الذي جاء فيه: «لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ولكني أذكرك النعمة التي خرجت منها، إنك كنت فارس الأنصار، وعدة المهاجرين.. إنك ادعيت أن رسول الله نهى عن قتال أهل الصلاة، فهل نهيت أهل الصلاة عن قتال بعضهم بعضاً؟! أم ترى عثمان وأهل الدار ليسوا مسلمين من

أهل الصلاة!! أما قومك الأنصار فقد عصوا الله تعالى، وخذلوا عثمان!».

فكتب إليه محمد بن مسلمة: «أما بعد، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله ﷺ مثل الذي في يدي! وقد أخبرت الناس بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كسرت سيفي، ولزمت بيتي، لم يصح لي معروف آمر به، ولا منكر أنهى عنه. ولعمر الله يا معاوية إنك ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى، ولئن كنت نصرت عثمان ميتاً، لقد خذلته حياً! ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب منك وممن معك».

وانكسر معاوية للردود الثلاثة، وتمنى لو أنه فعل كما فعل عَلِيٌّ فترك هؤلاء الرجال الذين اعتزلوا، ذلك أنهم بإعلانهم خذلان معاوية، وبإزرائهم عليه، ولومه وتقريعه، قد أفقدوه الكثير مما كان يرجو!..

وتلاحى معاوية وعمرو كل منهما يتهم صاحبه إنه هو صاحب الرأي في الكتابة إلى المعتزلين الثلاثة.

واقترح عمرو عليه أن يكتب إلى عَلِيٍّ مُلايِناً، ومُهدِّداً، ومعترفاً له بفضله، وطالباً بقتلة عثمان، فيضعه في حرج أمام الأمة جميعاً!!

فكتب معاوية إلى الإمام علي: «أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخَذّلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفي أيديهم الحق، فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجتك عَلَي كحجتك على

طلحة والزبير رحمهما الله، لأن أهل البصرة بايعوك، ولم يبايعك أحد من أهل الشام، وإن طلحة والزبير بايعاك وأنا لم أبايعك، وأما فضلك في الإسلام، وقرابتك من النبي عليه الصلاة والسلام، فلعمري ما أدفعه ولا أنكره. ونحن وأنتم لكما قال شاعر الشام كعب بن جميل:

أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق له كارهونا

فقالوا علي إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا

وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن ندينا!

وإني لأذكرك بقول الشاعر:

ليس بيني وبين قيس عتاب ... غير طعن الكلى وضرب الرقاب

والسلام..

فكتب إليه أمير المؤمنين زاجراً، وناصحاً، وواعظاً، ومنذراً، ومعذراً: «أما بعد، فقد جاءني منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاستقاده. زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على الضلال، ولا ليضربهم بالعمى، وما أَمَرْتُ فيلزمني خطيئة عثمان، ولا قتلت فيلزمني قصاص القاتل! وأما قولك إن أهل الشام هم الحكام على الناس فهات رجلاً من قريش الشام يُقبل في الشورى أو تحل له الخلافة، فإن سميت كَذّبك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز. فأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان، فما أنت وعثمان؟ إنما أنت رجل من بني أمية، وبنو عثمان أولى بعثمان منك. فإن زعمت أنك أقوى على ذلك، فادخل في الطاعة، ثم حاكم القوم إليّ.. وأينا كان أعدى له، أفمن بذل له نصرته فاستقعده، أم من استنصره فتراخى عنه، وبث المنون إليه، حتى أتى قدره عليه؟! وما كنت لأعتذر من أني

أنقم عليه أحداثاً، فإن كان الذنب إليه لرشادي وهدايتي له، فرب ملوم لا ذنب له. وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله».

«يا معاوية إن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها، ولن يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، ونقض ما أبرم! ولو اعتبرت بما مضى، حفظت ما بقي. وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير رحمهما الله، فلعمري ما الأمر إلا واحد! وأما ولوعك بي في أمر عثمان فوالله ما قلت ذلك عن حق العيان، ولا عن يقين الخبر. وأما فضلي في الإسلام، وقرابتي من رسول الله ﷺ، وشرفي في قريش، فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته! وأقسم بالله أنه لولا بعض الاستبقاء، لوصلت إليك مني قوارع تقرع العظم وتهلس اللحم (أي تذيبه). واعلم أن الشيطان قد ثبطك عن أن تراجع أحسن أمورك، وتأذن لمقال نصيحتك. فكيف أنت صانع إذا انكشفت عنك جلاليب ما أنت فيه من دنيا قد تبهجت بزينتها، وخدعت بلذتها، وقادتك فاتبعتها، وأمرتك فأطعتها؟. خذ أهبة الحساب، وشمر لما نزل بك، ولا تمكن الغواة من سمعك، فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم!.. ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق، ولا شرف باسق. ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء!؟ أحذرك أن تكون متمادياً في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة. وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً، واخرج إلي، واعف الفريقين من القتال، ليعلم أينا المرين عن قلبه، المغطى على بصره، فأنا أبو حسن قاتل جدك عتبة وخالك الوليد وأخيك حنظلة شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي! ما استبدلت دنيا، ولا استحدثت نجياً، وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه كارهين! يا معاوية كان رسول الله ﷺ إذا احمر البأس، وأحجم الناس، قدم أهل بيته، فوقى بهم أصحابه حر

الأسنة والسيوف فقتل ابن عمه عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر بن أبي طالب يوم مُؤتة، وأراد من شئت ذكرت اسمه مثل الذين أرادوا من الشهادة، (يعني نفسه) ولكن آجالهم عجلت، ومنيتهم أجلت فيا عجباً للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي، ولم تكن له كسابقتي! لقد خبأ الدهر لنا منك عجباً! فارجع إلى معرفة ما لا تُعذر بجهالته، لقد ابتلاني الله بك، وابتلاك الله بي، وأرى نفسك قد أولجتك شراً، وأقحمتك غياً، وأوردتك المهالك، وأوعرت عليك المسالك، فاتق الله في نفسك، ونازع الشيطان قيادك، واصرف إلى الآخرة وجهك فهي طريقنا وطريقك، فانزع عن غيك وشقاقك».

«أما إصرارك على أنه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف، فلقد أضحكت بعد استعبار! ومتى ألفَيْتَ بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين، وبالسيف مُخَوَّفين!؟.. فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تستبعد، وأنا مُرْقِلٌ (مسرع) نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساطع قتالهم، متسربلين سربال الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، قد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك وأهلك (وما هي من الظالمين ببعيد).. والسلام لأهله. السلام على من اتبع الهدى».

وهكذا أقام الإمام بالكوفة نحو سبعة عشر شهراً تتردد فيها الرسائل بينه وبين معاوية، وتتكرر المعاني والعبارات.

وقد انفصل معاوية بالشام، وأقام فيه دولة داخل الدولة!!

وشرع معاوية يعبىء أهل الشام للزحف على العراق. واستشار بعض رؤسائهم، فقال أحدهم: «إن أبغض الناس إلى الله من يقاتل علي بن أبي طالب لقدمه في الإسلام، وعلمه بالحرب».

ففض معاوية مجلس المشورة وأغدق على رؤساء الشام من جديد أموالاً طائلة، ودعاهم من غده ليحشدوا الناس للحرب، فقال قائلهم: «والله ما ننصر إلا الله، ولا نغضب إلا للخليفة، ولا نحامي إلا عن الشام. وقد دعونا قومنا إلى ما دعوتنا إليه بالأمس، وأمرناهم بما أمرتنا به، فمرنا بما تحب وانهنا عما تكره».

وأدرك معاوية أن إغداقه على رؤساء الشام يُمَلِّكُه آراءهم واتباعهم فأغرقهم في الأموال والهبات.

ثم جمع الناس في المسجد، فخطب فيهم: «يا أهل الشام، إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق. ولعمري ما للشام رجال العراق، وأموالها، وما لأهل العراق بصر أهل الشام وبصائرهم.. والقوم ملاقوكم ببصائر أهل الحجاز، ورقة أهل اليمن، وقسوة أهل مصر، وكيد أهل العراق، وإنما يبصر غداً من أبصر اليوم، فاستعينوا بالصبر والصلاة».

وما زال معاوية بهم حتى أقسموا أنهم: «لن يأتوا النساء، ولا يمسهم الماء إلا من احتلام، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء، أو تفنى أرواحهم».

وأقبل عبيد الله بن عمر على معاوية، ففرح به، وسأل معاوية عمرو بن العاص: «ما منع عبد الله بن عمر أن يكون كأخيه عبيد الله؟» فقال عمرو ضاحكاً: «شبهت غير شبيه! إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتله علي بقتله الهرمزان. أما عبد الله فرأى ألا يكون معك ولا لك، ولو كان معك لنفعك، أو عليك لضرك».

وعاد جرير بن عبد الله فأخبر الإمام بما رآه من أهل الشام، وبكائهم وحلفهم أمام قميص عثمان.. قال: «يا أمير المؤمنين إنهم ما زالوا يبكون على عثمان ويقولون إن علياً قتله وآوى قتلته، وإنهم لا

ينتهون عن عليٍّ حتى يقتلوه أو يقتلهم». فقال الأشتر: «يا أمير المؤمنين، قد كنت نهيتك أن تبعث جريراً، أخبرتك بعداوته وغشه. ولو كنت بعثتني كان خيراً من هذا الذي أقام عند معاوية حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلا فتحه، ولا باباً يخافه إلا أغلقه!». فقال جرير: «لو كنت هناك لقتلوك! لقد ذكروا إنك من قتلة عثمان رضي الله عنه!». فقال الأشتر: «لو أتيتهم والله يا جرير لم يعيني جوابهم، ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الكفر! ولو أطاعني أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم الأمور».

فخرج جرير، فكتب إلى معاوية بما كان، فطلبه معاوية وأحسن إليه، وأغدق عليه!

وقام أمير المؤمنين خطيباً فقال: «أيها الناس، إنما بايع معاوية أهل الشام، وليس له غيرهم وليٌّ ولا نصير. وإنكم أهل الحجاز، وأهل العراق وأهل اليمن، وأهل مصر. وقد وادع معاوية الروم!!.. فإن غلبتموه استعان بهم، ولحق هو وعصبته بأرضهم! إن غلبكم هؤلاء القوم فالغاية الموت، والمفر إلى الله العزيز الحكيم. وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر. ولعمري لأنتم أولى بذلك منهم، لأنكم المهاجرون والأنصار، والتابعون بإحسان، وإنما الصبر اليوم والنصر غداً».

لقد أخذ أمير المؤمنين نفسه وأصحابه بالصبر والمصابرة، حتى ظن به الخصوم الضعف، وسئم الأنصار، ولم يعد في قوس الصبر منزع..

فلا بد مما ليس منه بدا!..

لا بد من قارعة!..

وإذن فما عاد للإمام حيلة إلا الحرب. لكي يحمي الإسلام وينقذ السلام!!

لله أنت يا أمير المؤمنين! الحرب مرة أخرى؟!

لك الله يا ولي الله!

لك الله يا إمام المتقين!!

وبهذا ينتهي الجزء الأول من كتاب «علي إمام المتقين» ويليه الجزء الثاني والأخير.



الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثاني

في مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب وعدت أن أضع في نهاية ذلك الجزء الأول التعقيبات والمحاورات التي أثيرت حوله حينما كان ينشر على صفحات جريدة الأهرام صباح كل أربعاء.

ولكني خشيت أن أقطع على القارىء استرساله من الجزء الأول إلى الجزء الثاني، فرأيت أن أجعلها في نهاية الجزء الثاني.. ثم إني أشفقت من أن أفسد على القارىء انفعالاته وتأملاته بعد أن يفرغ من الجزء الثاني، فاخترت أن تستقل المحاورات وما يدخل في بابها بكتاب خاص عنوانه «**محاورات**» أرجو أن يصدر قريباً إن شاء الله.

وكنت قد أشرت في نهاية الطبعة الأولى من الجزء الأول إلى أن الجزء الثاني سيكون عنوانه «**علي إمام المساكين**».. ولكني تلقيت نصائح صادقة بأن أعدل عن هذا، لأن هناك من سيؤولون العنوان تأويلاً قبيحاً منكراً، إما عن جهل بمعنى المساكين، وإما عن سوء قصد، أو عن غفلة الكريم.

فلما نظرت في الأمر، استمعت للنصح عسى أن أستنقذ هذا الكتاب مما قد يثار عليه من غبار ينبغي أن تتنزه عنه حياتنا الفكرية والثقافية.. وأبقيت في الجزء الثاني على عنوان: «**علي إمام المتقين**»، داعياً الله تعالى أن ينفع به من يلتمس النفع فيما يقرأ، وأن يشفي الذين

في قلوبهم مرض، وأن يضيء بالمعرفة من تغشى عقولهم الظلمات.

ثم اني في هذا الجزء الثاني من كتاب «**علي إمام المتقين**» قد خرجت عما ألفته من قبل كلما رسمت صورة قلمية فنية من تراثنا الجليل معتمدة على الحقائق الثابتة في التاريخ.. خرجت في هذا الكتاب عما ألفته وعما تعوده القراء مني، ذلك أني أوردت من الوقائع والأقوال ما قد يصدم بعض العقول، فأثبت أوثق المراجع من كتب أئمة أهل السنَّة... وعذري في ذلك أن من الناس من تحداني أن أذكر المراجع التي تثبت ما لم يقبله لأنه في الحق يناقض مصالحه!! ثم لأن من الناس من يتهم بدلاً من أن يفكر ويبحث ويتعلم، ومن الناس من يجادل بغير علم ولا هدى ولا سراج منير!!..

وهؤلاء جميعاً هم في الحق قلة ضئيلة لا وزن لها ولا خطر إلا أنها قلة احترفت الغوغائية، فانطلقت في عماية تطرفها تحاول أن تصرف كل الأبصار والبصائر عن نصاعة تراثنا، وعما في تاريخنا العظيم مما يعتبر به أولو الألباب، ومن ذكرى... والذكرى تنفع المؤمنين!!..

إن المصالح الفاسدة هي التي تصرخ وتعوي وتتهم.. هي التي تحرك ذلك الصنف من الرجال... المصالح، لا العقول ولا الأفهام ولا البصائر!!... وتعساً لهذه المصالح الفاسدة التي جعلت وما زالت تجعل من بعض الرجال أنصاف الرجال!!..

ولقد أود في هذا المجال أن أذكر القارىء بما كتبته في مقدمة الجزء الأول تعليلاً لذكري المراجع في نهاية الكتاب، على خلاف الكتب المماثلة السابقة، فليرجع إليه مشكوراً...

وبعد... فحسبي جزاء لما بذلت من جهد، وعزاء عما لقيت وألقى من عنت وعما كابدت وأكابد من حماقات ومن عربدة ضجيج أصحاب المصالح الفاسدة وشغبهم علي. عزائي عن كل هذا العناء هو:

أن يجد الصادقون في هذا الكتاب ما يدفعهم إلى مقاومة الباطل والدفاع عن الحق!!..

عزائي وجزائي ومكافأتي الصحيحة أن يكشف هذا الكتاب عن وضاءة مبادىء الإسلام، وعما يملكه الإسلام من قدرات هائلة ومتجددة على العطاء في مواجهة الجذب الروحي والمادي مهما يختلف الزمان والمكان!!..

حسبي جزاء ومكافأة وعزاء عن كل ما قاسيت وما أقاسي، أن يهدي الله تعالى بما كتبته ولو عقلاً واحداً، وأن يفتح لحب الحقيقة التي دافع عنها ولو قلباً واحداً!!..

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

عبد الرحمن الشرقاوي

١٤٠٥ هجرية

١٩٨٥ ميلادية

الفصل الأول

الطريق إلى صفين

أقبل الحجاج بن الصُّمة على معاوية في قصره بدمشق فقال له: «يا أمير المؤمنين!».

وكان معاوية يجلس مسترخياً على كرسي فاخر في قاعة ضخمة من قصره، وحوله بعض أتباعه من أهل الشام، فالتفت معاوية لمن حوله يرى أثر النداء على وجوههم، وحين لم ير على وجوههم الرفض، اطمأنت نفسه، وابتسم..!

وابتهج معاوية إلى أغوار قلبه.. لقد أحسن عندما رفض البيعة لعلي، وطالب بدم عثمان، وجعل نفسه وليّ الدم، وتأوّل الآية الكريمة: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾**.

وأحسن حين أعلن العصيان، ورد أمر علي بعزله وحرض الناس على خلع عليٍّ وقتاله.. وها هو ذا يرى أحد المسلمين يعدل عن عليٍّ، ويناديه هو معاوية: «يا أمير المؤمنين». فيرضى عن ذلك من يشهد من رؤساء المسلمين بالشام!!..

ونظر معاوية إلى رجل يستزيده، فعاد الرجل يقول: «يا أمير المؤمنين.. إني أخبرك يا أمير المؤمنين أنك تقوى على عليٍّ بدون ما يقوى به عليك، لأن معك قوماً لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت. وإن مع عليٍّ قوماً يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه»!

لقد بايع أهل الشام معاوية من قبل على الطلب بدم عثمان رضي الله عنه.. بايعوه لما عزله أمير المؤمنين عليٌّ كرَّم الله وجهه.. بايعوا معاوية أميراً على الشام، ووليّاً لدم عثمان، لا يطمع في الخلافة، وإنما يطالب علياً بالاعتزال ليكون الأمر شورى بين المسلمين!!

فلما قتل طلحة والزبير رضي الله عنهما في معركة الجمل، بدأ معاوية يشرئب إلى الخلافة، حتى نجح في إقناع الناس بأن يبايعوه خليفة، وبأن ينادوه بلقب الخلافة: «أمير المؤمنين».

ثم أخذ يحشد الجنود ليزحف إلى الكوفة، ويثب على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي بايعه من قبل أهل بدر، والمهاجرون والأنصار، وفي طليعتهم الزبير وطلحة!!

وكان قد اعتزل الناس نفر قليل من المهاجرين والأنصار، فأرسل إليهم معاوية يستنصرهم فخذلوه، وردوا طلبه رداً عنيفاً.. فكتب إليه محمد بن مسلمة الأنصاري: «... وأما أنت فلعمري ما طلبت إلا الدنيا، ولا اتبعت إلا الهوى، فإن تنصر عثمان ميتاً فقد خذلته حياً...».

كما رد سعد بن أبي وقاص على كتاب معاوية إليه: «أما بعد فإن عمر بن الخطاب لم يدخل في الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش (وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.. وهم بقية العشرة الكرام البررة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة). فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه، غير أن علياً كان فيه ما فينا وليس فينا ما فيه. وهذا أمر قد كرهنا أوله، وكرهنا آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما. والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت».

أما عبد الله بن عمر بن الخطاب فقد أسخطه كتاب معاوية إليه..

وكان معاوية قد كتب إليه: «أما بعد، فلم يكن أحد من قريش أحب إلى أن يجتمع عليه الناس بعد قتل عثمان منك. ثم ذكرت خذلك إياه وطعنك على أنصاره فتغيرت عليك. وقد هون ذلك عليَّ خلافك على عليّ، ومحا عنك بعض ما كان منك. فأعنا رحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدها لك. فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين»

فأجابه عبد الله بن عمر: «أما بعد فإن الرأي الذي أطمعك فيَّ هو الذي صيرك إلى ما صرت إليه: إني تركت علياً في المهاجرين والأنصار، وطلحة والزبير، وعائشة أم المؤمنين، واتبعتك!. أما زعمك أني طعنت على عليّ فلعمري ما أنا كعلي في الإيمان والهجرة، ولكن حدث أمر لم يكن من رسول الله ﷺ إليَّ فيه عهد. ففزعت إلى الوقوف (يعني الصمت) وقلت: «إن كان هدى ففضل تركته، وإن كان ضلالة فشر نجوت منه. فأغن عنا نفسك».

ولكن معاوية كان قد أعد العدة ليكون هو الخليفة، وإنه ليجهز جند الشام للزحف على الكوفة لقتال علي... ثم ها هوذا ينصب نفسه خليفة!

قال لرؤساء أهل الشام الذي اصطنعهم لنفسه: «يا أهل الشام. قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان وقد قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه، والله يقول في كتابه: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾**». وأنا أحب أن تعلموني ما في أنفسكم من قتل عثمان».

فبايعوه على الطلب بدم عثمان...

ثم ظل بهم يصطنعهم لنفسه، ويغدق عليهم، ويسترضيهم، حتى بايعوه خليفة، ولكنهم لم يجسروا على أن ينادوه: «يا أمير المؤمنين»،

حتى خاطبه بها الحجاج بن الصمة الذي كان عيناً له على الإمام عليّ أمير المؤمنين.

ولم يلبث معاوية حتى قدم عليه عبيد الله بن عمر، وهو الذي خرج بسيفه مغاضباً لما اغتيل أبوه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقتل ابنة القاتل أبو لؤلؤة، وقتل الهرمزان ورجلاً آخر، كانا مع أبي لؤلؤة يفحصان الخنجر الذي اغتيل به عمر، قبل الجريمة بيوم.

وتكاثر الناس على عبيد الله وحبسوه، حتى إذا تمت البيعة لعثمان طالبه علي رضي الله عنهما بأن يقتل عبيد الله بمن قتلهم.. ولكن عثمان أبى، ودفع من ماله دية القتلى.. فلما تمت البيعة لعلي، خشي عبيد الله أن يقتص منه الخليفة الجديد فترك المدينة ناجياً بنفسه من القصاص، وطوّف في الأرض ثم انتهى به المطاف إلى معاوية!...

وفرح به معاوية، وأكرمه وأغدق عليه.

قال معاوية لعمرو بن العاص: «يا عمرو، إن الله أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر. وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على عليّ بقتل عثمان وينال منه».

فقال عمرو: «الرأي ما رأيت».

فأرسل معاوية إلى عبيد الله، فلما أتاه قال معاوية: «يا بن أخي. إن لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك. وتكلم بملء فيك، فأنت المأمون المصدق فاصعد المنبر واشتم علياً واشهد عليه أنه قتل عثمان».

فقال عبيد الله: «يا أمير المؤمنين!».

وطرب معاوية إذ ناداه بلقب الخلافة، فابتسم، وأكمل عبيد الله: «أما شتمي علياً فإنه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. فما عسى أن أقول في حسبه. وأما بأسه فهو الشجاع كما قد علمت، وأما أيامه فما قد عرفت! ولكني ملزمه دم عثمان». فقال عمرو: «قد وأبيك إذن نكأت القرحة».

ولكن معاوية لم يعقب. وبانت على وجهه خيبة الأمل في عبيد الله.. وغشى المجلس صمت كئيب متوترا.

وانصرف عبيد الله فقال معاوية: «أما والله لولا قتله الهرمزان، ومخافته علياً على نفسه، ما أتاني أبداً. ألم تر إلى تقريظه علياً؟!».

فقال عمرو: «يا معاوية إن لم تغلب فاخلب».

ثم أن عبيد الله قام في الناس خطيباً، فأمسك عن عليٍّ، ولم يتهمه بقتل عثمان!.

فلما فرغ من خطابه بعث إليه معاوية وعاتبه في حدة: «ابن أخي! إنك بين غي أو خيانة» فقال عبيد الله: «كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان».

فهجره معاوية ملياً، واتهمه بالفسق!...

فلما انتهى إلى عبيد الله بن عمر ما قاله فيه معاوية أغلظ عليه في العتاب، واستعد للرحيل...

وأحس معاوية أنه من الخير له أن يترضى عبيد الله بن عمر، وأن يكسبه إلى صفه، فيفيد من اسم أبيه عمر بن الخطاب.. فما من أنصار لمعاوية من المهاجرين والأنصار وأبنائهم إلا نفر قليل، إذ جيش عليٍّ يضم منهم آلافاً، تنكر على معاوية أنه أعلن العصيان، وخالف الإمام، وشق عصا الطاعة، وفرق الجماعة، وإنهم ليشحذون سيوفهم ليلقوه تحت راية أمير المؤمنين الإمام عليٍّ فيلزموا العصاة الطاعة!!

ثم أن القراء من أهل الشام كانوا ينكرون على معاوية عصيانه للإمام، والقراء هم الذين يحفظون القرآن الكريم ويعلمونه.

فأقبل نفر منهم على معاوية ومعهم أبو مسلم الخولاني وهو زاهد من أهل الشام، كان قد رحل إلى النبي ﷺ فلم يدركه، فتلقى علوم

الدين وتفقه فيه على عليٍّ وعاد إلى موطنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأمر الناس بأن يعملوا في دنياهم لآخرتهم.

وكان زهد أبي مسلم على غرار زهد الإمام علي.. وقد منح هذا الزهد أبا مسلم جرأة في الحق، وجسارة على الباطل، وشجاعة القلب، فأصبح في غنى الله عن الناس، يتهم من بايعوا معاوية بالخلافة أنهم دعاة فتنة، وأنهم باعوا دينهم بدنياهم، وأن طاعة أمير المؤمنين عليٍّ تجب عليهم...

أقبل أبو مسلم مع القراء الشاميين من أهل التقوى فتكلم باسمهم. قال: «يا معاوية!».

ودهش معاوية.. فما من أحد من الرعية يناديه باسمه اليوم إلا عمرو بن العاص، أما بقية الرعية فلا تخاطبه إلا بأمير المؤمنين!.

وعاد الرجل الصالح يقول: «يا معاوية» ونظر معاوية إلى القراء الذين أقبل فيهم أبو مسلم، فوجدهم جميعاً ينادونه: «يا معاوية». ثم أنهم قالوا له في حدة حاسمة: «علام تقاتل عليّاً وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟! إنك لتعلم أنك من الطلقاء ولا حق لك في الخلافة.. إنك لمن المؤلفة قلوبهم وما أسلمت إلا يوم فتح مكة أنت وأبوك ومن معه من مشركي قريش، فقال لكم الرسولﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء... إنا لنذكرك إن كنت نسيت.. فما أنت وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب؟! قد والله يا معاوية عدوت...».

فقاطعهم معاوية: «حسبكم!...».

ثم ألان لهم صوته، ووطأ أكنافه قائلاً: «ما أقاتل علياً وأنا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته. ولكن خبروني ألستم تعرفون أن عثمان قتل مظلوماً» قالوا: «بلى» قال: «فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به» قالوا: «فاكتب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا».

فكتب معاوية كتاباً لعليٍّ يطالبه فيه بتسليم قتلة عثمان!

وحمل أبو مسلم كتاب معاوية إلى عليٍّ، حتى إذا جاءه وهو في المسجد الجامع بالكوفة يعظ الناس، قال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك قد قمت بأمر وتوليته. والله ما أحب أنه لغيرك إن أعطيت الحق من نفسك. إن عثمان قتل مسلماً محرماً صائماً مظلوماً، فادفع إلينا قتلته وأنت أميرنا وأمير المؤمنين، فإن خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، وألسنتنا لك شاهدة، وكنت ذا عذر وحجة» ثم سلمه كتاب معاوية.

وعندما فرغ عليٌّ من قراءة كتاب معاوية، ألفاه مثل كتبه السابقة.. فهو يطالبه بقتلة عثمان، ويعده إن هو فعل أن يبايعه!!..

ومعاوية يعرف أن الآلاف قتلوا في يوم الجمل، وفيهم قتلة عثمان، منهم من كان في جيش عليٍّ، ومنهم من كان في جيش طلحة والزبير..!

ومعاوية يدرك أنه ليس من حقه أن يقيم نفسه ولياً له سلطان على القتلة فذلك لولي الأمر، وما على معاوية إلا أن يدخل في الجماعة ويبايع، ثم يطالب ولي الأمر بأن يجري القصاص!!

والأمة كلها تعلم أن علياً نصح عثمان حتى اعتزله، فلما اعتزله عاتبه عثمان واشتد عليه فلم يجبه، فلما سأله: «مالك لا تجيبني؟» قال الإمام: «لأني لا أريد أن أسمعك ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب!».

والأمة كلها تعرف أن معاوية يتعلل بالطلب بدم عثمان، وتسليم قتلته لتكون له حجة في قتال علي.

قال عليٌّ لرسول معاوية: «إغد عليّ غدا فخذ جواب كتابك».

فلما كان الغد جاء الناس في السلاح فامتلأ بهم المسجد والرحبة أمامه وهم يتنادون: «كلنا قتلة عثمان!».

ودخل أبو مسلم على الإمام في داره، فوجدها دار ضيقة خشنة واضحة الفقر.. أهذا هو مقر الخلافة؟ أين هذه الدار التي هي أدنى من دار أفقر رجل من المسلمين، من قصر معاوية الضخم الشامخ بفخامته وأبهته؟!

قال أبو مسلم: «يا أمير المؤمنين.. قد رأيت قوماً ما لك معهم أمر!» قال علي: «وما ذاك؟» قال: «بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فضجوا واجتمعوا ولبسوا السلاح وزعموا أنهم كلهم قتلة عثمان».

فدفع إليه عليّ بردّه على معاوية، قائلاً: «والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين. لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينيه ما رأيته ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك!».

وانصرف أبو مسلم في سلام عائداً إلى دمشق.

وخرج الإمام علي إلى الناس فوجدهم يشتمون ويلعنون معاوية ومن تبعه، فزجرهم الإمام، فقال الأشتر: «ألسنا محقين؟» قال: «بلى». قال عدي بن حجر: «أليسوا مبطلين؟» قال: «بلى» قال الناس: «فلم تمنعنا عن شتمهم؟» قال: «كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم كان أصوب في القول. فإن قلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وذات بينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج له، كان هذا أحب إليّ وخيراً لكم».

فقال الأشتر وحجر بن عدي: «يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدب بأدبك».

وحجر صحابي من رواة الحديث، وعبد الله بن عمر يتخيّر منه.

ومرت أيام والناس يلحون على أمير المؤمنين أن يخرج بهم إلى الشام، قبل أن يقود معاوية وعمرو بن العاص إليهم جند الشام، ويغزوهم في ديارهم.

وجمع الإمام من كان معه من المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإنكم ميامين الرأي، مقاويل بالحق، أهل الحلم، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم».

فقام عمار بن ياسر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا أمير المؤمنين إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل. اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على العدوان والفرقة، وادعهم إلى رشدهم، فإن قبلوا سعدوا، فإن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم، والجد في جهادهم لقربة عند الله».

فقال الإمام: «لله درك يا عمار. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن عماراً مليء إيماناً إلى مُشاشه (رؤوس العظام كالمرفقين والمنكبين والركبتين). وكان عمار إذا استأذن على النبي ﷺ يقول: ائذنوا له. فإذا دخل استقبله عليه الصلاة والسلام بقوله: مرحباً بالطيب المطيب.

فلما فرغ الإمام من الثناء على عمار، قام سعد بن قيس بن عبادة فقال: «يا أمير المؤمنين عجل بنا إلى عدونا، فوالله لجهادهم أحب إليَّ من جهاد الترك والروم لإدهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان! إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيَّروه (نفوه)، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قطين (أي رقيق وعبيد)».

ثم قام سهل بن حنيف فقال: «يا أمير المؤمنين. نحن سلم لمن

سالمت وحرب لمن حاربت. ورأينا رأيك. ونحن كف يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس. فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب. وأما نحن صحابة رسول الله ﷺ، فليس عليك منا خلاف، متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك».

وقام عدي بن حاتم الطائي فقال: «يا أمير المؤمنين، ما قلت إلا بعلم، ولا دعوت إلا إلى حق، ولا أمرت إلا برشد، فإن رأيت أن تستأني القوم حتى تأتيهم كتبك، ويقدم عليهم رسلك، فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا، والعافية أوسع لنا ولهم، وإن يتماروا ولا ينزعوا عن الغي فسر لهم وقدمنا إليهم بالعذر، ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق، فوالله لهم من الله أبعد، وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم بناحية البصرة أمس».

وقال أبو زبيب بن عوف: «يا أمير المؤمنين، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلا، وأعظمنا في الخير نصيبا، ولئن كنا في ضلالة إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمنا وزراً! أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية، وأظهرنا لهم العداوة نريد بذلك ما يعلم الله من طاعتك وفي أنفسنا من ذلك ما فيها. أليس الذي نحن عليه هو الحق المبين والذي عليه عدونا هو الغي والحُوب الكبير (الحوب: الإثم)».

فقال له الإمام: «بلى. شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا صحيح النية في نصرتنا، قد قطعت منهم الولاية، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت، فإنك ولي الله تسبح في رضوانه، وتركض في طاعته، فأبشر أبا زبيب!».

وقال له عمار: «أثبت أبا زبيب ولا تشك في الأحزاب عدو الله ورسوله».

وقال يزيد بن قيس: «يا أمير المؤمنين. إنا على جهاز وعدة (الجهاز: ما يحتاج إليه المقاتل والمسافر)، فمر مناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم (من السأم والنوم)، ولا من إذا جاءته الفرصة أجَّلها واستشار فيها، ولا من يؤخر الحرب في اليوم إلى غد وبعد غد».

فقال زياد بن النضر: «لقد نصح لك يا أمير المؤمنين وقال ما يعرف فتوكل على الله وثق به، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً».

ثم قام عبد الله بن بديل فقال: «يا أمير المؤمنين، إن القوم لو كانوا يريدون الله أو يعملون لله ما خالفونا، ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من التسوية (التسوية بين المسلمين في قسمة المال)، وحباً للأثرة، وضناً بسلطانهم، وكرها لفراق دنياهم في أيديهم، وعلى إحن (أحقاد) في أنفسهم، وعداوة يجدونها في صدورهم، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم. كيف يبايع معاوية علياً وقد قتل أخاه حنظلة وعمه الوليد وجده عتبة في موقف واحد يوم بدر؟! والله ما أظنهم يفعلون، والله لن يستقيموا لكم دون أن تقطع على هامهم السيوف».

ثم وقف أحد الأنصار فقال: «اذكروا قول رسول الله ﷺ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً (أي: طريقاً) وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. ونحن الأنصار نؤيدك يا أمير المؤمنين لم ينحز منا إلى خصمك غير ثلاثة نفر فراراً من التسوية في القسمة. ولله درك يا أمير المؤمنين يوم جاءك طلحة والزبير مغاضبين فقالا: «أنت تقسم القسم، وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا». لله درك إذ أجبتهما: «لقد نقمتما يسيراً، فاستغفرا الله يغفر لكما. ألا تخبراني أدفعتكما عن حق وجب لكما وظلمتكما إياه؟» قالا:

«معاذ الله!» فسألت: «هل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟» قالا: «معاذ الله!» قلت: «أفوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟» قالا: «معاذ الله!» قلت: «فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟»قالا: «إنك جعلت حقنا في القسم (القسمة) كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا». فقلت لهما: «فأما ما ذكرتما من الاستشارة، فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردكم، فتختلف الأمة، فلما أفضت إليَّ نظرت في كتاب الله وسنة رسوله، فأمضيت ما دلاني عليه، واتبعته، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ولا أرى غيركما. ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه، ولا في السنة، واحتيج إلى المشاورة فيه الشاورتكما فيه. وأما القسم والأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء، فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله ﷺ وآله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتنزيل من حكيم حميد. وأما قولكما جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديماً سبق إلى الإسلام قوم، ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضلهم رسول الله ﷺ في القسم (قسمة المال)، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه موفٌ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق»، كان هذا من طلحة والزبير يا أمير المؤمنين، فما بال معاوية وعمرو وأين همامن طلحة والزبير؟».

وحين سمع الإمام اسمي طلحة والزبير جاشت نفسه، وفاضت عيناه بالدمع، ودعا لهما بالرحمة..

ثم قام عمرو بن الحَمِقِ فقال: «إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا

التماس سلطان يرفع ذكري، ولكني أجبتك لخصال خمس: إنك ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله، وأعظم رجل من المهاجرين سهما في الجهاد. فلو أني كُلِّفتُ نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطّوامي في أمر أقوي به وَلِيَّكَ، وأوهن به عدوك، ما رأيت أني قد أديت فيه كل الذي يحق عليَّ من حقك».

فدعا له الإمام: «اللهم نوّر قلبه بالتقى، وآهده إلى صراطك المستقيم ليت أن في جندي مائة مثلك!».

فقال حجر بن عدي: «إذن والله يا أمير المؤمنين صَحّ جندك وقَلّ فيهم من يغشك! يا أمير المؤمنين، نحن بنو الحرب وأهلها، ولنا أعوان ذوو سلاح، وعشيرة ذات عدد، ورأي مجرب وبأس محمود، وزمامنا منقاد لك بالسمع والطاعة، فإن شرّقت شرّقنا، وإن غرّبت غرّبنا، وما أمرتنا به من أمر فعلناه» فسأله الإمام: «أكل قومك يرى مثل رأيك؟» أجاب: «ما رأيت منهم إلا خيراً. وهذي يدي عنهم بالسمع والطاعة».

وامتدت أيدي المهاجرين والأنصار والتابعين بالبيعة على السمع والطاعة، ودوّت جنبات الكوفة وآفاقها بصيحات المتقين: «الله أكبر»، تجاوبها آمال المساكين في عصر مطمئن من الأمن والرخاء تخفق على النداء العذب الجسور المقتحم: «الله أكبر الله أكبر».

ثم رأى الإمام أن يأخذ بمشورة سهل بن حنيف الأنصاري، فيتجه إلى أهل الكوفة فيأمرهم بالخروج إلى معاوية وجنده قبل أن يغزوهم في ديارهم.. أما المهاجرون والأنصار فمتى دعاهم أجابوا، ومتى أمرهم أطاعوا، كما قال سهيل... ليت أن أهل العراق وسائر الناس يسلكون خلفه شعب الأنصار!!!!

ودعا عليٌّ أهل الكوفة إلى لقائه بالمسجد الجامع إذا كان الغد، ثم

أرسل إلى عماله على الأمصار.. وكتب إلى كل واحد منهم: «سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فإن جهاد من صدف عن الحق رغبة عنه، وهبَّ في نعاس الضلال اختياراً له، لفريضة على العارفين بالله. إن الله ليرضى عَمَّنْ أرضاه، ويسخط على من عصاه. وإنا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء، وعطلوا الحدود، وأماتوا الحق، وأظهروا في الأرض الفساد، واتخذوا الفاسقينَ وَليجةً (بطانة). من دون المؤمنين. فإذا وليٌّ لله أعظَم أحداثهم (أي شجب أعمالهم) أبغضوه وأقصوه وحرموه، وإذا أحدٌ ساعدهم على ظلمهم أحبوه وأدنوه وبَرُّوه، فقد أصَرُّوا على الظلم وأجمعوا على الخلاف، وقديماً ما صَدُّوا عن الحق، وتعاونوا على الإثم، وكانوا ظالمين، فإذا جاءك كتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك، وأقبل إلينا لعلك تلقى هذا العدو المُحلّ (المحل: الخارج من ميثاق كان عليه، يعني البيعة، فهي واجبة على من لم يشهدها من المسلمين بعد أن بايعه أهل بدر والمهاجرون والأنصار بالمدينة)، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإنه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ثم كتب إلى أمراء الجند الذين دعاهم للحاق به: «... خذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا، فيردّ علينا وعليكم دعاءنا، فإن الله تعالى يقول: ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً**﴾ فإن الله إذا مقت قوماً من السماء، هلكوا في الأرض، فلا تألوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم، فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا. ولا قوة إلا بالله».

وكتب إلى الجنود: «من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين. أما بعد. فإن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء أسودكم وأحمركم (أي العرب وغير العرب) وجعلكم من الوالي بمنزلة الولد من الوالد، وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد. وإن حقكم على الوالي إنصافكم والعدل بينكم، والكف عن فيئكم، فإذا فعل ذلك معكم وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق، ونصرته في سيرته، والدفع عن سلطان الله، فإنكم وَزَعَةُ الله في الأرض (المدافعون عما أمر به) فكونوا له أعواناً، ولدينه أنصاراً، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها».

ثم مضى أمير المؤمنين يعبىء رؤساءالكوفة وأهل الرأي إلى لقائه في المسجد ليشاورهم في أمر الحرب، فإن استقاموا له كما استقام من معه من المهاجرين والأنصار، نهض بهم إلى الشام قبل أن يزحف معاوية على العراق.

وتوافى عليه عماله الذين كتب إليهم، وفيهم ابن عباس، وحشدوا ما استطاعوا من جند، وحملوا إليه ما بقي من مال ليجهز به الجيش بعد أن أنفقوا على ولاياتهم ما اقتضته مصالحها. .

وأسرع أهل الرأي من رؤساء الكوفة إلى المسجد ليلقوا الإمام، ومعهم القراء (الذين يحفظون القرآن ويعلمونه) ورهط كبير من محبي الإمام.

وجلسوا ينتظرونه مع بعض المهاجرين والأنصار، وأهل بدر، وخلال الانتظار وقف عمار بن ياسر يحدثهم عن مناقب الإمام.

وأضاءت لحيته البيضاء وجهه الأسمر، وهو يحدث الناس في صوت يجلجل بالإصرار على الرغم من الشيخوخة، وتخفق كلماته بنبض إيمان عميق. . هذا الإيمان الذي يمنح المؤمن القدرة على خوض الغمرات حتى الاستشهاد وهو يبتسم!

قال عمار: «إننا نحن صحابة رسول الله ﷺ نرى لأمير المؤمنين عليٍّ كرَّم الله وجهه من السوابق ما لو أن سابقة واحدة منها بين الخلائق لوسعتهم خيراً. وما ظنكم برجل يقول عن الدنيا: إنما الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئاً، فليصبر على مخالطة الكلاب، يقول هذا إذ عدوه يصطنع الناس بحبهم الدنيا وزينتها..؟!».

وهز المستمعون رؤوسهم طرباً وعجباً، ونظروا إلى عمار بن ياسر في جلال شيخوخته يمسك بلحيته الشيباء ثم يطلقها، عيناه تنظران إلى بعيد وكأن نظراته الثاقبة تقتحم الستار الذي أسدله الزمن على الذكريات!

ثم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: «إن الله عزّ وجلّ قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً، ولا تنال الدنيا منك شيئاً. ووهب لك حب المساكين، ورضوا بك إماماً، ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب عليك، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك: فهم جيرانك في دارك، ورفقاؤك في قصرك في الجنة، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك، فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة».

فضج الحاضرون: «صدق رسول الله ﷺ.. ينصرك الله يا أمير المؤمنين، يا إمام المساكين».. وقال أحد الحاضرين: «عزاؤنا نحن المساكين أن يكون إمامنا هو أعلم الناس بكتاب الله وسنَّة رسوله. أم يعرف أحدكم من هو أعلم منه؟».

فقال أحد المهاجرين: «إن علياً له ما شئت من ضرس قاطع في العلم والبسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله ﷺ، والفقه في السنَّة، والنجدة في الحرب، والجود بالماعون».

فقال رجل من أهل الكوفة: «متى يقودنا أمير المؤمنين لنغزو الشام قبل أن يغزونا معاوية؟».

وقال آخر: «تعلمنا من الإمام أنه ما غزي قوم في دارهم قط إلا ذَلّوا. . .؟».

فأجابه شيخ: «دع الأمر للإمام فهو أدرى بالأمر منا».

فارتفع صوت: «لا والله لا يصنع بنا كما يصنع معاوية بأصحابه: يأمرهم فيطيعون، دون أن يفقهوا! إن لنا في الأمر رأياً، وقد علّمنا أمير المؤمنين أنه ما خاب من استشار، وأن من استشار الرجال شاركهم في عقولهم. لا والله لا يبرم أمراً دوننا أبدا».

فقال رجل آخر من أهل الكوفة: «لسنا أعلم بالأمر من أمير المؤمنين فلا تحملوه على ما يكره، وقد سمعناه يروي عن رسول الله أنه قال له: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم. فعسى أن يكون في نية أمير المؤمنين أن ينصح معاوية كما نصحه آنفاً ليحقن دماء المسلمين».

وتنادى الناس: «أمير المؤمنين قادم». فاشرأبت إليه الأعناق، وهو يقبل مسرعاً مهيباً جليلاً. . فقال لهم ابن عباس: «سلوه. . . فوالله لقد أُعطِيَ عليٌّ تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر».

وصعد الإمام المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما تعود أن يقوله كلما صعد المنبر: «سلوني قبل ألا تسألوني. لن تسألوا بعدي مثلي». فقال ابن الكواء: «ما الذاريات؟» قال الإمام: «الريح» قال «فما الحاملات وقرا؟» أجابه: «السحب» فسأل ابن الكواء: «فما الجاريات يسرا» قال: «السفن». فسأل: «فما المقسمات أمرا» قال: «الملائكة».

وتعالت الصيحات: «الله أكبر. . . صدق الرسول إذ قال أنا مدينة الحكمة وعلي بابها».

ثم ساد صمت، قطعه قول الإمام: «اسألوني. فوالله ما نزلت آية

في كتاب الله عزّ وجلّ إلا وقد علمت متى أنزلت، وفيم أنزلت. وما من رجل في قريش إلا نزلت فيه آية تسوقه إلى جنة أو نار». فسأله أحد القراء: فما نزل فيك؟ قال: «لولا أنك سألتني على رؤوس الملأ ما حدثتك! أما تقرأ قوله تعالى في سورة هود: ﴿**أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه**﴾. فرسول الله ﷺ على بينة من ربه وأنا الشاهد منه أتلوه وأتبعه».

ثم أمسك الإمام كرَّم الله وجهه عن الحديث عن نفسه حياء وتحرجاً.

فقام ابن عباس فقال: «وقول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿**إنما وليكم الله رسوله والذين آمنوا**﴾ نزلت في المؤمنين وعلي بن أبي طالب أولهم.. وبقية الآية: ﴿**الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾. نزلت في علي بن أبي طالب خاصة، كان يصلي فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه».

قال عمار «قال رسول الله ﷺ: أنا مدينة العلم وعلي بابها، فأتوا البيوت من أبوابها».

فقال أحد الأنصار: «اسألوا أمير المؤمنين، فما أحد اليوم يقول اسألوني غيره. وقد كان يفتي ويقضي على عهد رسول الله ﷺ فيرضى. وقد كنا في ذلك الزمان ولا أحد منا يحفظ القرآن كله إلا علي كرَّم الله وجهه. وقد كنا نعرف المنافقين ببغضهم لعلي! ولقد كنا مع رسول الله فانقطع شسع نعله، فأخذها عليٌّ ليصلحها فمضى رسول الله ﷺ فقال إن منكم رجلاً يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم، فقال رسول الله ﷺ: لكنه خاصف النعل. فجاء فبشرناه بذلك فلم يرفع به رأساً، كأنه شيء قد سمعه من النبي ﷺ».

فقال أحد قراءالكوفة: «وها هو ذا معاوية يؤول الآية

الكريمة: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا!﴾.

فقال أحد الأنصار: «أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فقلنا: (يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟) قال: (مع علي بن أبي طالب. معه يقتل عمار بن ياسر) فهتف عمار: الله أكبر! إذن أقتل شهيداً.. قال لي رسول الله ﷺ أبشر يا عمار: تقتلك الفئة الباغية. أما والله لأقاتلنها مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول عنه: من أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني. ومن أبغض علياً فقد أبغض الله عزّ وجلّ، وقال ﷺ لعلي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. وقال له: أوحي إلي أنك سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين».

فقام رجل فقال: «سئل رسول الله ﷺ من يؤمر بعدك؟ قال: إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أميناً زاهداً في الدنيا. راغباً في الآخرة، وإن تؤمروا عمر تجدوه قوياً أميناً. لا يخاف في الله لومة لائم، وإن تؤمروا علياً ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الصراط المستقيم».

وتكلم الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه من على المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه، وتنجزوا موعوده، واعلموا أن الله جعل أمراس (حبال) الإسلام ميتنة، وعراه وثيقة. ثم جعل الطاعة حظ الأنفس برضا الرب، وغنيمة الأكياس (الحكماء) عند تفريط الفَجَرة، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها (يعني العرب وغيرهم)، ولا قوة إلا بالله. ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه، وتناول ما ليس له وما لا يدركه: معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية... وأنتم أعلم الناس بحلاله وحرامه، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان، وارغبوا فيما أنالكم من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سُلِبَ

دينه وأمانته والمغرور من آثر الضلالة على الهدى. فلا أعرف أحداً منكم تقاعس عني وقال: في غيري كفاية. ومن لم يَذُدْ عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وألا تغتابوا مسلماً، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله».

وتصايح أهل الكوفة مكبرين، وأجابوا الإماء، ووافقوه على الخروج لصد معاوية وجنده إلا جماعة من أتباع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. جاءته فقال قائلهم: «يا أمير المؤمنين إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغي كنا عليه».

فتبسم الإمام قائلاً: «مرحباً وأهلاً هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنَّة، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن.. رحم الله عبد الله بن مسعود ورضي عنه».

وجاءته جماعة أخرى في نحو أربعمائة رجل فقال كبيرهم: «يا أمير المؤمنين إنا شككنا في هذا القتال على معرفتنا بفضلك، ولا غناء بنا وبك ولا المسلمين عمن يقاتل العدو، فَوَلِّنا بعض الثغور نكمن به، ثم نقاتل عن أهله».

فوجههم إلى الرَّيّ.

ثم شعر الإمام أن جماعة أخرى لا تحب الخروج معه، ولكنها لم تفصح عما في أعماقها تحرجاً وحياءً منه، فذهب إليهم وقال لهم: «خذوا عطاءكم واخرجوا إلى الدَّيْلَم». فحمدوا الله إليه.

وهكذا أرسل الجماعات التي لا تريد أن تنغمس في القتال، إلى حدود البلاد ليحموا الثغور مع حماتها مما عسى أن يتهددها من الأعداء. ولم يغاضب أحداً لأنه أبى الخروج معه...

وأمر الإمام مناديه أن ينادي الناس والمقاتلين إلى أن يخرجوا من

ساعتهم إلى النخيلة خارج الكوفة فيعسكروا فيها في انتظار أن يوافيهم بقية الجند من أقطار البلاد..

وأمر الإمام صاحبه زياد بن خالد أن يعد ثمانية آلاف مقاتل طليعة للجيش، وأمر صاحبه شريح بن هانىء أن يعد أربعة آلاف، وأوصى كلاً منهما: «اتَّق الله، وخَف على نفسك الغرور. وكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجند، فلا تستطيلنّ عليهم وأن خيركم عند الله أتقاكم، وتعلم من عالمهم، وعلِّم جاهلهم، واحلم عن سفيههم، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم، وكف الأذى والجهل (الحماقة)».

وانطلقت طليعة الجيش في طريقها إلى الشام في ثمانية آلاف مقاتل بقيادة زياد ومعه شريح بن هانىء في أربعة آلاف.

لبث الإمام عليٌّ في النخيلة عدة أيام وجنوده يتوافدون عليه مع أمرائهم وعماله من كل الأمصار.

وكان معاوية قد أعد العدة ليرسل جيشه تحت قيادة أحد رجاله ويبقى هو في دمشق، ولكن عمرو بن العاص قال له: «أما إذا سار علي بن أبي طالب فسر إليه بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك».

ودخل جند الشام شيء من التهيب والإشفاق مذ عرفوا أن علياً يقود جيشه بنفسه، فقد علموا أنه ما قاد جيشاً قط إلا نصره الله.

وقام عمرو بن العاص يشجع الناس ويهوّن عليهم أمر عليٍّ قائلاً: «إن أهل العراق قد تفرقوا عنه.. إن أهل البصرة مخالفون لعليٍّ بمن قتل منهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار علي بن أبي طالب في شرذمة قليلة، وقد قتل خليفتكم عثمان، والله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلُّوه (تهدرونه ولا تثأرون له)».

فتشجع أهل الشام.

وعقد معاوية لواءً لعمرو، ولواء لابنيه عبد الله ومحمد، وسار معاوية بجيشه متجهاً إلى العراق.

وقضى الإمام عليٌّ أياماً في النخيلة يدرب الجند، ويعلمهم ويعظهم بروائع الحكمة، من ذلك قوله:

«من خاف الله خافه كل شيء.. إذا تناهت إليكم أطراف النعم، فلا تنفروها بقلة الشكر.. إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضَرّت ونَفَقَتْ الرذائل ونفعت، وكان خوف الموسر أشد من خوف المعسر... إذا رغبت في المكارم فاجتنب المحارم.. إذا أيسرت فكل الرجال رجالك، إذا أعسرت أنكرك أهلك.. إذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفزع، فإذا ظهرت ولدت الألم، وإذا تحركت صورة الخير ولم تظهر ولدت الفرح، فإذا ظهرت ولدت اللذة.. إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك.. إذا أعجبك ما يتواصفه الناس من محاسنك، فانظر فيما بَطن من مساوئك، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك... إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحمد..من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه... لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال... لا تفرح بسقطة غيرك فإنك لا تدري ما تتصرف الأيام بك».

فلما اكتمل جيشه ترك النخيلة، وضم إليه عسكر المدائن، وسار بهم فلما وصل إلى الرقة أمر أهلها أن يصنعوا له جسراً من سفنهم ليعبر عليه الفرات إلى الشام، فأبوا، لصلاتهم بمعاوية، فأقسم الأشتر: إن لم يعملوا جسراً لأمير المؤمنين أن يحاربهم ويستولي على أموالهم التي رشاهم بها معاوية فخافوه على أنفسهم وأموالهم، وأقاموا من السفن جسراً عبر عليه أمير المؤمنين..

وفي طريقه إلى الشام فوجىء بزياد بن النضر وشريح بمقدمة جيشه يسيران خلفه فقال الإمام ضاحكاً: «ما هذا. مقدمتي تسير من ورائي؟».

فأخبره زياد وشريح أنهما سبقاه في الطريق إلى الشام، فلما بلغا مدينة بالقرب من دمشق علما أن معاوية قادم في جيش من مائة وعشرين ألف مقاتل، فقالا: «لا خير في أن نلقى جنود الشام بمن معنا» وكانوا نحو اثني عشر ألفاً فحسب، فعادا وعبرا الفرات إلى أمير المؤمنين.

فاستحسن رأيهما، فسيرهما أمامه، حتى إذا أشرفا على موضع يقال له سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام، فأرسلا إلى أمير المؤمنين، فبعث إليهما الأشتر في عدة آلاف أميراً على مقدمة الجيش وقال له: «إياك أن تبدأ بقتال إلا أن يبدؤك، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً، ولا تَدْنُ منهم دُنُو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب البأس. حتى أقدم إليك حثيث المسير في إثرك إن شاء الله تعالى».

وكتب إلى زياد وشريح يأمرهما بطاعة الأشتر، فهو أمير طليعة الجيش الآن...

وهكذا خرج الإمام من الكوفة بعد أن أقام بها سبعة عشر شهراً تجري خلالها الكتب بينه وبين معاوية، وهو ينصح معاوية وأهل الشام، بأن يلزموا الجماعة، وأن يتقوا الله في مهج المسلمين فيحقنوا الدماء ويدخلوا في السلم كافة... ولكن بلا جدوى.

فكان لا بد مما ليس منه بدا!

وخلال إقامته في الكوفة منذ رجب سنة ست وثلاثين للهجرة، حتى تركها زاحفاً بجنده إلى الشام، تعود أن يفقه الناس في الدين، وأن يجلس إليهم بعد كل صلاة يعلم ويفتي، ويقول لهم «اسألوني» وما قالها أحد غيره..

كما تعود أن يذهب إلى سوق المدينة فيشتري حاجته وحاجة أهل بيته من طعام ونحوه، فيأمر أهل السوق بتقوى الله، وصدق الحديث والعدل في الميزان.

اشترى ذات يوم قميصين، فقال لغلامه: اختر واحداً منهما».

ولقد تحدث إليه بعض الذين لحقوا به من أتقياء أهل الشام وقرّائهم عن بذخ معاوية، وعن إغداقه على من يصطنعهم.. فزعموا أن على مائدة معاوية عشرة أصناف من الحلوى وحدها، وأنه يرتدي كل يوم حُلَّتين، وقد اتخذ لسيفه مقبضاً من ذهب، وما هو إلا أحد الولاة، فما بال أمير المؤمنين لا يملك غير إزار قصير، من غزل أهل بيته، لا يغطي إلا نصف ساقه؟! وما بال طعامه أخشن طعام، وما باله يحمل سيفه على حبل من ليف، وقد اتخذ من حصير المسجد سرير ملكه؟!

يا له من إمام للمتقين وإمام للمساكين!..

وضحك الإمام وقال لهم: «أما والله ما أحب الفقر، ولو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته. ولكني والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً».

ولاحظ أحد الحاضرين أن أمير المؤمنين يرتعد من البرد، وليس عليه ما يكفي من الثياب فسأله: «يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً، فلم تفعل بنفسك هذا؟!».

فتبسم قائلاً: «إن مس الحصير كان يوجع جنب رسول الله ﷺ، وما شبع هو وأهله من طعام قط وقد حِيزَتْ له الدنيا وما فيها، وأنا على سنته.. لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل للخليفة من بعدي من مال الله إلا قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يتصدق بها وحلة للصيف وحلة للشتاء! على أني أعيش على ما يأتيني من ينبع، وأستغني به عن بيت المال».

وسكت قليلاً ثم تنهد وقال: «كم من جامع ما سوف يتركه، ولعله

من باطل جمعه، ومن حق منعه، أصاب به حراماً، واحتمل به آثاماً، فناء بوزره وقدم على ربه آسفاً لاهثاً ﴿خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾ صدق الله العظيم. ألا إنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عز أعز من التقوى، ولا معقل أحسن من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا كنز أغنى من القناعة، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت، والرغبة مفتاح النصَّب، ومطية التعب، الحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحم في الذنوب... ألا فاعلموا أن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك».

ولكم عجب الذين سمعوه وسمعوا معاوية. إن معاوية يقرب الناس إليه بما يغدق من مناصب أو مال، وبما يبذل من وعود، أما علي فيصارح الناس بمنهجه ولا يطمعهم في عطاء لا يستحقونه، أو في منصب لا يستأهلونه.. فالمال مال الله وهو أمين عليه، فهو يستنفر في الرجل تقواه، ويزهده في دنياه، ليستغني عن الناس بالله!

إنه ليتصدق بكل ماله الخاص، ولا يبقي لنفسه أو لأهله إلا ما يكفيهم لما هو ضروري لاستمرار الحياة من الطعام والكساء.. وحين خوطب في هذا قال كرَّم الله وجهه ورضي الله عنه: «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك! فإن تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهم؟! فإن الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهَم لما ليس لك؟! لن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن يبطيء عنك ما قد قدر لك.. ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب، ألا وإن من النِّعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب.. ومن طلب الدنيا طلبه

الموت حتى يخرجه منها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها».

وألح عليه بعض أصحابه أن يأكل ما طاب ليقوى على القتال فهو لا يأكل إلا رغيفين من خبز الشعير كل يوم، وأن يكون أحسن الناس مظهراً فهو أمير المؤمنين وإمامهم!

فقال: «إنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة!! ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا يجد القرص (الرغيف) ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مِبْطاناً (ممتلىء البطن) وحولي بطون غرثى (خالية) وأكباد حرى!؟.. أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في خشونة العيش؟! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها.. وما خلقت لأترك سدى، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة!! وكأني بقائلكم يقول: «إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان»!! ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والرواتع الخَضرة أرق جلوداً، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأقل خموداً. وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد، وقد كان رسول الله يأكل أخشن مما آكل ويلبس أخشن مما ألبس، وأنا على سنَّته حتى ألحق به.

ألا وإن لكل إمام مأموماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بِطِمْرَيه (إزار ورداء)، ومن طعامه بقرصيه (رغيفيه). ألا إنكم لا تقدرون على ذلك ولا أطالبكم به، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تِبْراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا حزت من أرضها شبراً... بلى كانت في

أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله! وما أصنع بفَدَك وغير فدك؟! إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك... اغربي عني، فوالله لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقوديني، وأيم الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً (أي تفرح بالرغيف من شدة الحرمان) وتقنع بالملح مأدوماً.. أيأكل علي من زاده فيهجع. فلا قَرَّت إذن عينه!.. إذن أصبح بعد السنين المتطاولة كالبهيمة والسائمة!! طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم، **﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾**».

ثم مضى يعظهم: «فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم.. وتزودوا من الدنيا في الدنيا ما تحفظون به أنفسكم غداً، فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن تؤديه أيامه إلى شقوة! نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية».

ويكي.. ويبكي معه بعض أصحابه مما يسمعون، فنظر إليهم الإمام، وما زالت في عينيه الدموع، فرأى من خلال الدمع صاحباً له قد بنى داراً كبيرة فقال له: «لقد اتخذت داراً واسعة، فما تصنع بهذه الدار في الدنيا أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج». فأجابه صاحبه في حياء وندم: «بلى يا أمير المؤمنين». قال الإمام: «إن شئت بلغت بها الآخرة تقري بها الضيف، وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها».

وقد حسب بعض المستمعين أنه كرَّم الله وجهه، يدعوهم إلى

الخروج عما أحل الله من متاع الدنيا، فترك أحدهم أهله وبنيه، ولبس مرقعة واعتكف للعبادة، فدعاه الإمام وقال له: «أما استحييت من أهلك؟! أما رحمت ولدك؟! أترى أن الله أحل الطيبات وهو يكره أخذك منها. لقد علمتكم أن للمؤمن ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرُمُّ معاشه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل».

فدع التواضع في الثياب تخوفاً ... فالله يعلم ما تُجِن وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفة ... عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرك بعد أن ... تخشى الإله وتتقي ما يحرم

فاعلم رحمك الله أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى، واعلم أن الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل (زيادة) على عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك... فلا تعتزل الناس، فلا رهبانية في الإسلام... وتدبر قول الرسولﷺ: رهبانية أمتي الجهاد. وتعلَّم وعلِّم غيرك، فما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا. وكفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه لغيرك. فخذ من الدنيا ما أتاك، وتول عما تولى عنك. أوليس الله تعالى يقول: **﴿والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾**؟ أوليس الله يقول: **﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾**. إلى قوله تعالى: **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾**. وقد قال تعالى: **﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾**». فظل الرجل صامتاً لا يرد على الإمام. فقال: «تكلم يا رجل ليعرف الناس من أنت، فإن المرء مخبوء تحت لسانه». فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين تنهاني عن العزوف عن زينة الحياة التي أحل الله لعباده والطيبات من الرزق، فعلام اقتصرت في مطعمك على الطعام الغليظ وفي ملبسك على الخشونة؟ وتركت قصر الإمارة ونزلت منزل أفقر أهل الكوفة؟!

فضحك عليٌّ كرَّم الله وجهه، وقال: «إن الله الذي جعلني إماماً لخلقه فرض عليَّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي ومسكني كضعفاء الناس، لأن الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني، ولا يزري بالفقير فقره. فوالله ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر، ولو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته، فالفقر هو الموت الأكبر، وإني لأعرف أن الفقر غربة في الوطن، والغنى وطن في الغربة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها. والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: «ألا تنبذها عنك؟» فقلت له: «اغرب عني. فعند الصباح يحمد القوم السرى. والله لأن أبيت على حسك السعدان (الشوك الحاد) مُسَهّداً، أو أُجَرُّ في الأغلال مصفداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة، ظالماً لبعض العباد أو غاصباً لشيء من الحكام. وإن لي في رسول الله ﷺ الأسوة، إذ قبِضَت عنه أطراف الدنيا، وفُطِم عن رضاعها، وزُوي عن زخارفها، وكان يلبس ويطعم أخشن مما ألبس وأطعم. وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الطعام الغليظ، وكان سراجه بالليل القمر... ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه».

وجاءه بعض الموالي من أهل الكوفة يشكون الولاة وأعوانهم، فقال لهم: «وأين علماؤكم؟! لقد أخذ الله على العلماء ألا يقروا ظالماً ولا يسكتوا عن مظلوم».

ثم سألهم عن أعوان الولاة، فعلم أن الولاة لا يحاسبونهم فقال: «يجب على الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء، ثم لا يترك أحدهما بغير جزاء، فإنه إذا ترك أعوانه تهاون المحسن واجترأ المسيء، وفسد الأمر».

فقال أحد الموالي: «سأل الاسكندر حكماء بابل أيها أبلغ عندكم الشجاعة أم العدل؟» فقالوا: «إذا استعملنا العدل لم نحتج للشجاعة».

فقال الإمام: «يجب على السلطان أن يلزم العدل في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه، فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان، ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، فلا يقوم سلطان لأهل الإيمان والكفر إلا بهما. والإمام العادل كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده».

فقال رجل آخر من الموالي: «قال سقراط: ينبوع فرح العالم الملك العادل، وينبوع حزنهم الملك الجائر».

فقال الإمام ضاحكاً: «حسبكم دلالة على فضيلة العدل أن الجور الذي هو ضده لا يقوم إلا به، وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأموال واقتسموها بينهم، احتاجوا إلى استعمال العدل في اقتسامهم، وإلا أضر ذلك بهم!».

فقال رجل ثالث من الموالي: «جاء في كتب الهند: رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه، وإنزالهم منازلهم، واتهام بعضهم على بعض».

وقال رجل رابع من الموالي: «قال أحد حكمائنا ينصح كسرى أنوشروان: «كلمة منك تسفك دماً وأخرى تحقن دماً، وسيفك مسلول على من سخطت عليه، ورضاك بركة مستفادة على من رضيت. وما نقول لك إلا هذا يا أمير المؤمنين، فاختر لولايتك أحد رجلين إما أن يكون وضيعاً فرفعته، أو صاحب شرف مهمل فاصطنعته».

وعجب بعض العرب من أصحاب الإمام فصاح: «ويلكم! أتعلمون أمير المؤمنين وهو باب مدينة العلم».

فنصح الإمام أصحابه بالحلم، وطلب منهم أن يجعلوا الحكمة ضالتهم، فقد علمهم الرسول أن الحكمة ضالة المؤمن وأن عليه أن

ينشدها.. وقال لمن أنكر على الموالي أن يشيروا على أمير المؤمنين..
«لا يقذفنّ في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فتنقطع بذلك عن المشورة، فإنك لا تريد الفخر، ولكن الانتفاع».

ثم التفت الإمام إلى أصحابه قائلاً: «ما هلك امرؤ عن مشورة، ونعم المؤازرة المشاورة، ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواضع الخطأ: وقد قال رسول الله ﷺ (ما ندم من استشار). فاعلموا أن الخطأ مع الاستشارة خير من الصواب مع الاستبداد. فتعوّذوا من سكرات الاستبداد بصحوات الاستشارة، واعلموا أن الرأي يسد ثلم السيف، والسيف لا يسد ثلم الرأي. فلا يرفع أحدكم صوته بغير حجة على أحد من الموالي، واعلموا أن الظفر لمن احتج، لا لمن لج».

ثم التفت إلى أحد الذين صاحوا في وجه الموالي الأربعة وقال: «العقل حسام قاطع، والحلم غطاء ساتر، فقابل هواك بعقلك، واستر خلل خلقك بحلمك. ولا يتعصب أحدكم لقبيلته أو لقومه من العرب، فقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة من عقول السفهاء».

وشرع الإمام يكتب إلى عماله الذي اشتكاهم الموالي، فكتب لأحدهم:

«اتق الله ولا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة، فإن الله لا يحب المتكبرين، واعلم أن من آذى إنجيلياً فقد آذاني».

وكتب لوالٍ آخر: «أما بعد، فإن دهاقين بلدك شكوا منك غلظة وقسوة، واحتقاراً وجفوة... ولهم في ذمتنا عهد، فامزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله».

وكتب لثالث: «بلغني أنك تعمر دنياك بآخرتك، وتصل عشيرتك

بقطيعة دينك، لئن كان الذي بلغني عنك حقاً، لجمل أهلك وشعث نعلك خير منك، ومن كان بصفاتك فليس بأهل أن يُسَدّ به ثغر، أو ينفذ به أمر، أو يُعلى له قدر، أو يُشرك في أمانة، أو يُؤمن على جباية، فأقبل إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله».

وكتب لرابع: «بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك، إنك تقسم في المسلمين الذي حازته ماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن أعتامك (اختارك) من أعراب قومك.. لئن كان ذلك حقاً، لتجدن بك عليّ هواناً، ولتخفن عندي ميزاناً. فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق آخرتك، فتكون من الأخسرين أعمالاً».

وكتب لعامل غيره: «بلغني أنك جردت الأرض، فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ حسابك».

وكتب لجميع عماله على أهل البلاد المفتوحة (أهل البلاد المفتوحة هم الموالي): «انظروا في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الملوك والأكاسرة والأباطرة أرباباً لهم فتركوهم عالة مساكين!».

وكتب إلى أحد عماله: «أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت من المتكبرين؟!، أتطمع وأنت متمرغ في النعيم، تستأثر فيه على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين؟ فماذا لو أكلت طعامك مرة وأطعمت الفقير الجائع مرة؟! إنما المرء يجزي بما أسلف، والسلام».

وكتب لآخر: «انظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله، فاصرفه إلى من قبلَك (عندك) من ذوي العيال والمجاعة، مصيباً به مواضع الفاقة والخلات (الحاجات) وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسه فيمن قِبَلَنا».

وكتب لغيره: «إن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة،

وأنت مسترعي لمن فوقك، ليس لك أن تفتات في رعية، وفي يديك مال من مال الله عزّ وجلّ، وأنت من خزانه حتى تسلمه إليّ».

وقال لأصحابه: «اعلموا أن الولاة هم خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة» وقال: «إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جُنّة أوقى منه، وما يعذر من علم كيف المرجع! ولقد أصبحت في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كَيْساً (عقلاً)، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم - قاتلهم الله - قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا ورع له!».

فقال الذين جاؤوا من الشام أن معاوية قد اصطنع أهل الشام جميعاً، وكلهم حديث عهد بالإسلام، وكلهم لا يعرف إلا معاوية، وما يغدقه معاوية، ثم أنه ليصطنع رؤساء القبائل العربية، فيجزل لهم في العطاء أضعافاً مضاعفة، من أجل ذلك نكث الولاة الذين خافوا الإمام على ما كسبوه بغير حق وفروا إلى معاوية!.

فقال أصحاب الإمام له: «يا أمير المؤمنين أعطِ هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب ومن قريش على الموالي والعجم، واستمِلْ من تخاف خلافه من الناس».

فقال لهم متعجباً منكراً: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟!.. لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟!.. ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس، ويهينه عند الله ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم، فإن زَلَّت به النعل يوماً فاحتاج إلى خدمتهم فشر خدين وألأم خليل!.. إنه لا يسعنا أن نعطي أحداً أكثر من حقه.. إن هذا المال ليس لي وليس لكم. ولكنه مال الله يقسم بين الناس بالسوية فلا فضل لأحد على أحد».

فقال أحدهم: «يا أمير المؤمنين أنت تنصف الوضيع من الشريف فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاوية من أهل الغنى فباعوا أنفسهم وأكثرهم يشتري الباطل. فإن تبذل المال يمل إليك أعناق الرجال ويستخلص ودهم».

فرد الإمام: «أما ما ذكرت من عملنا ومسيرتنا بالعدل فإن الله عزّ وجلّ يقول: **﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾**. وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف. وأما ما ذكرت أن الحق ثقل عليهم ففارقونا، فعلم الله أنهم لم يفارقونا عن جور، ولا لجأوا إذا فارقونا إلى عدل! وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال فإنه لا يسعنا أن نؤتي أحداً من المال فوق حقه»

وقدم عليه أخوه عقيل بن أبي طالب من المدينة فقال له: «ما أقدمك يا أخي؟» قال: «تأخر العطاء عنا، وغلاء السعر ببلدنا، وركبني دين عظيم، فجئت لتصلني».

فقال عليٌّ: «والله ما لي مما ترى شيئاً إلا عطائي، فإذا خرج فهو لك».

قال عقيل: «أشخوصي من الحجاز إليك من أجل عطائك؟! وماذا يبلغ مني عطاؤك؟! وما ينفع من حاجتي؟».

فقال الإمام: «هل تعلم لي مالاً غيره؟ أم تريد أن يحرقني الله في نار جهنم في صلتك بأموال المسلمين؟ وما بقي من نفقتنا في ينبع غير دراهم مصرورة. والله يا أخي إني لأستحي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يواريها ستري، أو خلة لا يسدها جودي».

فلما ألح عقيل عليه، قال لرجل: «خذ بيد أخي عقيل وانطلق به

إلى حوانيت أهل السوق، فقل له: دق هذه الأقفال، وخذ ما في هذه الحوانيت».

فقال عقيل: «أتريد أن تتخذني سارقاً!؟».

قال الإمام: «وأنت تريد أن تتخذني سارقاً!؟ أن آخذ من أموال المسلمين، فأعطيكها دونهم».

فقال: «والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لي منك. لآتين معاوية».

فقال الإمام: «أنت وذاك. راشداً مهدياً!».

فلما قدم على معاوية، رحب به وقال: «مرحباً وأهلاً بك يا عقيل بن أبي طالب. ما أقدمك عليَّ!؟».

قال: «قدمت عليك لدين عظيم ركبني، فخرجت إلى أخي ليصلني فزعم أنه ليس له مما يلي إلا عطاؤه، فلم يقع ذلك مني موقعاً، ولم يسد مني مسداً، فأخبرته أني سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لي، فجئتك».

فازداد معاوية فيه رغبة، وقال للناس: «يا أهل الشام هذا سيد قريش وابن سيدها، عرف الذي فيه أخوه من الغواية والضلالة، فجاءني، ولكني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي، فما أعطيت فقربة إلى الله، وما أمسكت فلا جناح لي عليه».

ثم قال لعقيل: «يا عقيل بن أبي طالب: هذه مائة ألف تقضي بها ديونك، ومائة ألف تصل بها رحمك، ومائة ألف توسع بها على نفسك».

فوقف عقيل فقال: «صدقت، لقد خرجت من عند أخي على هذا القول، وقد عرفت من في عسكره، لم أفقد والله رجلاً من أهل بدر ولا

المهاجرين والأنصار، ولا والله ما رأيت في معسكر معاوية رجلاً من أصحاب النبيﷺ».

فقال معاوية: «يا أهل الشام. أعظم الناس من قريش عليكم حقاً ابن عم رسول اللهﷺ وسيد قريش وها هو ذا تبرأ مما عمله أخوه!».

وضج أهل الشام استحساناً لما يقوله معاوية!

وعجب عقيل، كيف يفقهون وكيف يسومهم معاوية!؟

إنهم ليلغون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولا يعون أو يفقهون أو يسمعون أو يبصرون إلا ما يريده معاوية!

فوقف عقيل يقول: «أيها الناس، إني أردت أخي علياً على دينه فاختار دينه، وإني أردت معاوية على دينه، فاختارني على دينه».

وشعر معاوية أن بعض رؤساء العرب قد فهموا عن عقيل، وأنهم قد يشرحون لسواهم من غير العرب من أهل الشام، ففض الناس، وأمرهم أن يتجهزوا للزحف إلى العراق، ليغنموا أرضه الشاسعة الخصبة وأمواله الطائلة ونساءه الحسان!!..

ووجد معاوية أحد رؤساء العرب يسخر من كل هذا، وينظر إلى معاوية وعمرو شزراً فسأله: «لم أحببت علياً علينا؟» فقال: «الثلاث خصال: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، وعدله إذا حكم».

وكانﷺ قد تعود أن يأخذ الجزية والخراج (الضرائب) من أهل كل صنعة وعمل، حتى ليأخذ من أهل الإبر والمال والخيوط والحبال ثم يقسمه بين الناس. وكان لا يدع في بيت المال ما لا يبيت فيه، بل يقسمه إلا أن يغلبه مشغل فيصبح إليه. كان يكنس بيت المال بعد أن يفرغ من توزيع ما فيه، ويتخذه مسجداً يصلي فيه.

وقد كانت له بالكوفة امرأتان، فإذا كان يوم هذه اشترى لحماً

بنصف درهم، وإذا كان يوم هذه اشترى لحماً بنصف درهم. وكان ينفق هذه النفقة من شيء يأتيه من الحجاز.

وكان يوصي كل عامل يوليه على الخراج: «لا تضربن رجلاً سوطاً في جباية درهم، ولا تتبعن لهم رزقاً، ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها، ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم» فقال له أحد عماله: «يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك؟».

قال الإمام: «أمرنا نأخذ منهم الفضل (ما زاد عن الحاجة)».

الفصل الثاني

الغمرات ثم ينجلين

مضى الإمام بجيشه في طريقه إلى الشام، حتى بلغوا مدينة بها آثار كسرى، فتمثل أحد أصحاب الإمام بقول الشاعر القديم:

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

فقال له الإمام: «أفلا تمثلت بقول الله عزّ وجلّ: **﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾** إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين. إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية. إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم»

ثم أمر رجاله أن ينزلوا ليستريحوا على ربوة تكسوها الخضرة، وتظللها الأشجار الباسقة الوارفة.

وبعد أن استراحوا، استأنفوا السير حتى مروا بمدينة الأنبار، فخف وجهاء المدينة وأعيانها إلى استقبال الإمام، يسوقون دواباً مطهمة حمّلوها أشهى الطعام هدية للإمام وجنوده.

فسألهم الإمام: «ما أردتم بهذا الذي صنعتم؟» قالوا: «أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء: فالمطايا هدية لك، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً، وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً». قال: «أما هذا الذي زعمتم أنه منكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع هذا

الأمراء! وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإننا نكره أن نأكل من طعامكم شيئاً إلا بثمن». قالوا: «يا أمير المؤمنين نحن نُقَوّمه فنقبل ثمنه». قال: «وإن غصبكم أحد فأعلمونا».

ثم مضى عنهم وهم يقسمون أنهم ما شعروا بالأمن قط في عهد ملوكهم الغابرين، كما يشعرون به الآن في ظل ظليل من حكم الإسلام، وحكمة الإمام...

وسار الإمام بجيشه حتى جهدوا، فأمر بأن يستريحوا، ويعلفوا الخيل والدواب ويسقوها...

وأفضى الإمام إلى أهل الرأي بأنه يتمنى على الله أن يثوب أهل الشام إلى الحق، فتحقن الدماء!

فقال بعض أصحابه: «يا أمير المؤمنين اكتب إلى معاوية ومن معه من قومك كتاباً تدعوهم فيه إليك، وتأمرهم بترك ما هم فيه من الخطأ، فإن الحجة لن تزداد عليهم بذلك إلا عظماً».

فكتب إلى معاوية كتاباً جاء فيه: «... لا ينبغي لمن كان له عقل ألا يجهل قدره، ولا أن يعدو طوره، ولا أن يشقي نفسه بالتماس ما ليس له. ثم أن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً، أقربها من رسول الله ﷺ وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً وأفضلها جهاداً، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعاً، فاتقوا الله الذي إليه ترجعون **﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون﴾**. واعلموا أن خيار عباد الله هم الذين يعملون بما يعلمون، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم، فإن للعالم بعلمه فضلاً، وإن الجاهل لن يزداد بمنازعة العالم إلا جهلاً!.

ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وحقن دماء هذه الأمة، فإن قبلتم أصبتم رشدكم، واهتديتم لحظكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة فلن تزدادوا من الله إلا بعداً، ولن يزداد الرب عليكم إلا سخطاً».

فرد عليه معاوية كما رد من قبل متحدياً: «أما بعد فإنه:

ليس بيني وبين قيس عتاب   غير طعن الكلى وضرب الهام»

فقال الإمام: «﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ صدق الله العظيم».

وأذن للصلاة، فأمَّ الناس وصلى ركعتين. وأمرهم أن يقصروا في الصلاة فهم على سفر. فلما فرغ من الصلاة قال: «سبحان ذي الطول والنعم. سبحان ذي القدرة والأفضال، أسأله الرضا بقضائه والعمل بطاعته، والإنابة إلى أمره، فإنه سميع الدعاء».

واستوى على ظهر جواده، وقرأ الآية الكريمة التي تعود أن يقرأها كلما ركب: ﴿**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾.

ومضى بجنده في طريقه إلى الشام حتى إذا غابت الشمس، ودخل الليل، صلى بالناس المغرب والعشاء جمعاً وقصراً.

وعندما انتهى من صلاته قال: «الحمد لله الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل. الحمد لله كلما وقب ليل وغسق».

ثم دعا الله تعالى بدعاء رسول الله ﷺ في السفر: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحيرة بعد اليقين، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل».

وأضاف الإمام: «ولا يجمعها غيرك، لأن المستخلف لا يكون

مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً، وقضى وجنده الليل حتى إذا تنفس الصبح صلى بهم...

وراعه جمال المنظر من حوله.. الماء، والخضرة، وغابات النخيل.. فقال: **﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾** صدق الله العظيم.

وتابع السير فاستقبله أهل قرية فضيَّفوه، فتأبى، فقال له يزيد بن قيس: «يا أمير المؤمنين. هؤلاء قومك. من طعامهم فاطعم، ومن شرابهم فاشرب».

وسأله رجل من أهل القرية عن وضوء رسول الله ﷺ فطلب منهم إناء كالإبريق.. وملأ نصفه بالماء، فتوضأ الإمام ثلاثاً ثلاثاً، ومسح برأسه واحدة وقال: «هكذا رأيت رسول الله يتوضأ».

وتوافى إليه جند كثير حتى بلغت عدة جيش الإمام نحو تسعين ألفاً، أغلبهم من أهل بدر، والمهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، والمساكين.

أما جيش معاوية فقد بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل، سبق بهم علياً إلى صفين، نزلوا في أرض رحيبة واسعة فيحاء على شاطىء الفرات، فملكوا شريعة الماء حيث يستطيعون أن يشربوا ويسقوا الدواب.

وجاء علي بجيشه فأنزلهم تجاه جيش معاوية...

فلما استراحوا قام فيهم خطيباً، فقال: «إنه سيأتي عليكم بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق (أروج) منه إذا حُرِّف عن مواضعه، ولا شيء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملتهُ، وتناساه حفظته. فالكتاب يومئذٍ وأهله طريدان منفيان. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا

معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، والكتاب ليس إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة... فلا تستعجلوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما أن أدركه وَدَّ أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد!».

فقال له بعض أصحابه: «لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب». فضحك وقال: «ليس هو بعلم الغيب، وإنما هو علم من ذي علم. علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وما سوى ذلك فعلم علَّمه الله نبيه، فعلمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري، وتنضم عليه جوانحي».

كانت شريعة الماء التي ملكها معاوية هي المورد الوحيد على النهر للماء. ولقد جعل معاوية عليها حرساً كبيراً بقيادة أبي الأعور، وأمرهم أن يمنعوا الماء علياً وجنوده. وجاء جنود علي يشربون فصدهم جيش معاوية، وشرعوا في وجوههم الرماح والسيوف، ورشقوهم بالنبال!!

فقال له عمرو بن العاص: «يا معاوية خَلِّ بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان. ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم».

فأبى معاوية...

فقال عمرو: «يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء غداً كما منعتهم اليوم؟». قال: «إن علياً لا يستحل منا ما نستحل منه».

ولما أحس جند الإمام حر العطش شكوا إليه، وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتال جند معاوية على الماء.

فأرسل الإمام إلى معاوية من يقول له: «إنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، فقدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل

أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال! ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها، منعتم الناس من الماء والناس غير منتهين أو يشربوا، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس والماء، وليكفوا لننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له. فإن أردت أن نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا».

فقام رجل من أهل الشام فقال: «أما والله لو سبقكم عليٌّ إلى الماء لسقاكم منه. أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له؟ فهذا أول الجور! يا معاوية لقد شجعت الجبان، وبَصَّرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك».

وكان الرجل صديقاً لعمرو فقال له معاوية: «يا عمرو اكفني صديقك!».

وأمر الإمام جنوده أن يحاربوا على الماء.. فاندفع بهم الأشتر والإمام يدعو:

«اللهم إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصم بقية أصحابي من الفتنة».

وحمل جند الإمام حملة ضارية فانهزم جند الشام عن الماء، وصار الماء في أيدي جند الإمام، فقال رجل منهم: «والله لا نسقيهم».

فلما بلغ ذلك الإمام أرسل إلى رجاله أمره: «خذوا حاجتكم من الماء وارجعوا إلى عسكركم، وخلّوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم».

وأرسل إلى معاوية: «إنا لا نجازيك بصنعك! هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء».

وشعر معاوية بالخجل. وتغيظ عمرو على معاوية، فقال له معاوية: «يا عمرو. كان فلتة من رأيي أعقبتني بخطئها» ثم التفت إلى بطانته

وقال: «لله در عمرو! ما عصيته في أمر قط إلا أخطأت فيه!».

وأخذ الإمام يعظ أصحابه فقال:

«إن هذه القلوب أوعية، وخيرها أوعاها، فاحفظوا عني ما أقول لكم: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

وبعث معاوية إلى الإمام رجالاً ثلاثة ممن عرفوا بسلاطة اللسان وانعدام الحياء، وأمرهم أن يغلظوا للإمام.

قال قائلهم للإمام: «أما بعد فإن عثمان كان خليفة مهدياً، يعمل بكتاب الله، وينيب إلى أمره، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله. ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم يولونه من أجمعوا عليه».

وعجب الإمام من جسارة الرجل على الحق، وسفاهته!!...

وأدرك أن معاوية اصطفاه سفيراً عنه لخصال فيه يريدها معاوية في هذا الموطن!!

لقد أحسن معاوية اختيار من يناسب المهمة حقاً..!

وتبسم الإمام ضاحكاً من قول الرجل، وقال له مستخفاً به: «ما أنت لا أُمّ لك والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر؟! اسكت! لست هنالك ولا بأهل له».

فقال الرجل: «والله لتريَنّي بحيث تكره!» فقال الإمام ساخراً: «وما أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت علينا؟ اذهب فَصَوِّب وصعِّد ما بدا لك».

فقال الرجل الثاني من وفد معاوية: «ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير هذا؟».

قال الإمام: «نعم عندي جواب غيره».

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: «أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق، فأنقذ به من الضلالة والهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه، فاستخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة... وولى الناس عثمان، فعمل بأشياء عابها الناس، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم، فقالوا لي: بايع، فأبيت فقالوا: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يتفرق الناس.

فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني! وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام!!. فهو طليق ابن طليق. وحزب من الأحزاب، لم يزل حرباً لله ولرسوله هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين، ولا عجب إلا انقيادكم له! أتتركون آل بيت نبيكم الذي لاينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم؟! ألا إني لأدعوكم إلى كتاب الله. وسنة نبيه، وإماتة الباطل، وإحياء الحق، ومعالم الدين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين».

فانصرفوا فشيعهم الإمام بنظرات مشفقة وهو يتلو الآية الكريمة: **﴿إنك لا تسمع الموتى، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم. إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾** صدق الله العظيم.

ثم قال لأصحابه: «لا يكن هؤلاء في الجدّ في ضلالهم أجد منكم في الجد في حقكم».

في جيش علي وجيش معاوية كثير من القراء أكثرهم من أهل التزمت والتطرف في أمور الدين...

وذات صباح خرج القراء من جيش علي، والقراء من معسكر

معاوية فتنادوا.. فالتقوا يتشاورون في أمر الحرب، فبلغ عددهم من المعسكرين نحو ثلاثين ألفاً.

وخلص رؤساء القراء نجيا، فرأوا أن يسعوا في الصلح بين علي ومعاوية ونصبوا عليهم أربعة رؤساء يتحدثون عنهم...

واغتم معاوية غماً شديداً حين رأى قراء الشام يخرجون ليلتقوا بالقراء في جيش علي، وخشي أن يميلوا إلى عليّ، وما من أحد في جيش معاوية غيرهم يعتمد عليه في دعواه أنه بحكم القرآن ولي دم عثمان، فله سلطان بحكم الشرع!!

وذهب رؤساء القراء إلى معاوية فقالوا له: «يا معاوية» فدهش معاوية وامتعض لأنهم لم ينادوه بلقب الخلافة: أمير المؤمنين. كما تعود معظم أهل الشام منذ حين.

قالوا في حسم: «يا معاوية ما الذي تطلب؟» قال: «أطلب بدم عثمان» قالوا: «ممن تطلب بدم عثمان؟» قال: «من عليّ» قالوا: «وعليٌّ عليه السلام قتله؟» قال: «نعم هو الذي قتله وآوى قاتليه».

فأتوا علياً فقالوا: «يا أمير المؤمنين إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان» قال: «كذب. لم أقتله» فعادوا إلى معاوية يقولون: «عليٌّ عليه السلام لم يقتله». فقال معاوية: «إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ» فانصرفوا عنه إلى الإمام عليّ فقالوا: «إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان» قال: «اللهم كذب» فذهبوا إلى معاوية يقولون: «إن علياً يزعم أنه لم يفعل» قال معاوية: «إن كان صادقاً فليمكنَّا من قتلة عثمان، فإنهم في عسكره وجنده، وأصحابه وعضده» فقالوا للإمام: «إن معاوية يقول لك إن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان أو أمكنَّا منهم» قال علي: «تأول القوم على عثمان القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه في سلطانه فليس عليهم قَوَد (قصاص)».

فانحاز القراء إلى رأي علي، وأخبروا معاوية بذلك، فقال لهم: «إن كان الأمر كما تزعمون فما باله ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن هٰهنا معنا؟» وعادوا بكلامه للإمام فقال: «إن الناس تبع المهاجرين والأنصار، وهم شهود المسلمين في البلاد على ولايتهم وأمر دينهم، فرضوا بي فبايعوني، ولست أستحل أن أدع شبه معاوية يحكم على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم» فعادوا إلى معاوية برد الإمام، فقال معاوية: «ليس الأمر كما يقول. فما بال من هٰهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر فيؤامروه (يشاوروه)».

فلما حملوا رد معاوية إلى الإمام قال: «ويحكم، هذا للبدريين (أهل بدر الذين حاربوا المشركين في أول معركة قادها الرسول) وليس في الأرض بدري إلا قد بايعني وهو معي، أو قد أقام ورضي، فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم».

فعادوا يعلنون نصرتهم لعلي! وأقاموا لهم معسكراً بين المعسكرين، فكلما حاولت جماعة من أحد المعسكرين أن تقاتل جماعة من المعسكر الآخر حجز القراء بين المقاتلين.. وأصبح قراء الشام وقراء العراق جيشاً واحداً يرى أن طاعة معاوية ومن معه لأمير المؤمنين واجبة، وإلا كانوا بغاة!

فأراد معاوية أن يفرقهم، ويصرفهم عن عليّ.. فكتب لهم كتاباً رشقه بسهم وأطلقه على معسكرهم، فلما التقطوا السهم قرأ كبيرهم ما في الكتاب على الناس. وإذ فيه: «من عبد الله الناصح، فإني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات».

فقالوا: «هذا أخ ناصح كتب يخبرنا بما يريد بنا معاوية».

ونظروا إلى شاطىء الفرات، فوجدوا نحو مائتي رجل من رجال معاوية يحفرون الشاطىء فاضطربوا وتنادوا بالفرار!

وعلم الإمام بما كان، فقال: «إن الذي يريده معاوية لا يستقيم له

ولايقوى عليه. إنها خدعة. أثبتوا. إنما يريد أن يزيلكم عن مواقعكم، فلا تهنوا ولا تضعفوا» فقالوا: «يا أمير المؤمنين لا تدعهم والله يحفرون الساعة» قال: «ويحكم لا تغلبوني على أمري» قالوا: «والله لنرحلن».

ورحلوا.. واختاروا مكاناً مرتفعاً ألقوا فيه رحالهم، وشاع الذعر من الغرق في جيش الإمام، فصعدوا جميعاً بلا إذنه! اضطر هو آخر الأمر إلى الصعود معهم!!

ودخل أبو الدرداء وأبو أمامة على معاوية، وكانا في جيشه، ولكنهما رأيا أن يسعيا في حقن الدماء قبل أن تستعر الحرب.

قالا لمعاوية: «علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله لهو أقدم منك إسلاماً، وأحق بهذا الأمر منك، وأقرب إلى النبيﷺ، فعلام تقاتله؟». قال: «أقاتله على دم عثمان، وأنه آوى قتلته، فقولوا له فَلْيُقِدْنا (يمكننا من القصاص) فأنا أول من بايعه من أهل الشام».

فأتيا علياً فقالا: «يا أمير المؤمنين ادفع إلينا بقتلة عثمان نسلمهم معاوية يبايعك وتحقن الدماء كما تريد» فأشارعليٌّ إلى جيشه، ورد ساخراً: «هم الذين تريان» فإذا بآلاف مؤلفة من الدارعين، لا شيء يبين منهم غير العيون يصيحون في صوت واحد: «كلنا. فإن شاؤوا فليروموا ذلك منا».

فانصرف عنهم أبو أمامة وأبو الدرداء، فاعتزلا القتال.

وأخذ الإمام يفكر في مكر معاوية وعمرو.. ما زالا قادرين على أن يقنعا بعض الناس أن معاوية يطالب بثأر عثمان، وأن علياً يأوي قتلة عثمان!

وتذكر الإمام ما جرى لعمرو ومعاوية، ورؤساء أهل الشام، فضحك!

وروى الإمام لأصحابه ما كان سمعه: أراد عمرو أن يكايد معاوية

ويغيظه، فطلب رؤساء أهل الشام، وزعم لهم أن معاوية يغضب ممن يخاطبه قائلاً: «يا أمير المؤمنين». وكان الناس منذ بايعوه لا ينادونه إلا بهذا اللقب! فلما دخل رؤساء أهل الشام على معاوية، وعنده عمرو، جعلوا يقولون لمعاوية: «السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك!».

ودهش معاوية! فانفجر عمرو ضاحكاً وهو يقول: «لعنكم الله من حمير! نهيتكم أن تنادوه أمير المؤمنين فجعلتموه رسول الله!!».

ودعا عليٌّ ثلاثة من أصحابه وقال لهم: «القوا معاوية فأتُوه، واحتجوا عليه، وانظروا ما رأيه» فجاؤوه فقال أحدهم: «يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله عزّ وجلّ محاسبك بعملك، وجازيك عما قدمت يداك، فلا تفرق جماعة هذه الأمة، ولا تسفك دماءها بينها».

فقاطعه معاوية قائلاً: «هلا أوصيت بذلك صاحبك».

فقال الرجل الثاني: «يا معاوية إن صاحبنا ليس مثلك! صاحبنا أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل، والدين، والسابقة في الإسلام، والقرابة من رسول الله ﷺ».

قال معاوية: «فيقول ماذا؟».

قال الرجل الثالث: «يأمرك بتقوى الله عزّ وجلّ، وإجابته إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في عاقبة أمرك».

قال معاوية: «ونترك دم عثمان!؟ لا، لا، والله لا أفعل ذلك أبداً؟» فقال: «يا معاوية، إني قد فهمت ردك، إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب! إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس، وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك: (قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لقولك سفهاء طغام. وقد علمنا أنك أبطأت عن عثمان

بالنصر، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب! ورب متمني أمر وطالبه، الله عزّ وجلّ يحول دونه بقدرته، وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته! ووالله مالك في واحد منهما خير. لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صِلِيَّ النار! فاتق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله».

فغضب معاوية وقال: «قد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت. انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف» فخرجوا وهم يقولون: «أفعلينا تهول بالسيف؟! أقسم بالله لنعجلنها إليك».

فأخبروا الإمام بما كان وطالبوه أن يأمر بالقتال بين الجمعين، ولكن الإمام رأى أن يجنب المسلمين لقاء الجيشين الكبيرين حذر الاستئصال وهلاك الآلاف!

فكان يأمر جماعة صغيرة من أصحابه أن يخرجوا للقاء جماعة صغيرة من جيش معاوية. ولربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين! وكان الأكثر خروجاً الأشتر وعدي بن حجر، وقيس بن سعد بن عبادة.

واستبطأ أصحابه إذنه للجيش كله بالقتال، وكانوا يريدون أن يلتقي جمع أهل العراق بجمع أهل الشام.

والإمام ينتظر، ويرسل إلى معاوية ورؤساء جيشه من يعظهم لعلهم يدخلون في الطاعة فتحقن الدماء، حتى ضاق بذلك أصحاب الإمام، فتقوَّل نفر منهم عليه الأقاويل. وحسبوه لا يريد الحرب حذر الموت وخشية من أهل الشام!

فقال: «أما قولكم أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي: دخلت إلى الموت أو خرج الموت إليَّ. وأما قولكم شكا في أهل

الشام! فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا طامع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي. وذلك أحب إليَّ من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها».

حتى إذا جاء المحرم عام سبع وثلاثين، توادع الفريقان على ترك الحرب بينهما حتى ينقضي الشهر الحرام.

وبعث الإمام إلى معاوية وأهل الشام عدي بن حاتم الطائي على رأس وفد من ثلاثة رجال، داعين إلى حقن الدماء.

فقال عدي: «أما بعد. فقد جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا، ويحقن به الدماء، ويصلح به ذات البين، إن ابن عمك سيد المسلمين (يقصد الإمام)، وأحسنهم في الإسلام أثراً، وأفضلهم سابقة، وقد استجمع له الناس، ولم يبق أحد غيرك وغير من معك، فاحذر يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل!».

فغضب معاوية وقال: «كأنك جئت مهدداً، ولم تأت مصلحاً، هيهات يا عدي! كلا. والله إني لابن حرب (اسم جده) والله إني ما يقعقع لي بالشِّنان (القربة البالية، تقعقع أي تحرك فتحدث صوتاً فتتحرك الإبل، وهذا هو أصل المثل)، وإنك والله يا عدي لمن المحلبين على عثمان، وإنك من قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به».

فقال له بقية النفر: «أتيناك فيما يصلحنا وإياك، فأقبلت تضرب لنا الأمثال! دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه. إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك، ونؤدي عنك ما سمعنا منك، وننصح لك، وأن نذكر ما تكون به الحجة عليك، ويرجع إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله، وهو لا يخفى عليك، فاتق الله يا معاوية ولا تخالفه، فوالله ما رأينا في الناس رجلاً قط أعمل بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه».

ولكن معاوية لم يجبهم إلى دعوتهم، فانصرفوا عنه، وأخذ هو

يغري نفراً من أصحاب الإمام بالمال ويعدهم بإمارة الولايات!

فردٌ كل منهم بجواب واحد: «إني على بينة من أمري **﴿ربِّ بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾**.

فقال معاوية لعمرو بن العاص: «لست تكلم رجلاً منهم فيجيب إلى خير، ما قلوبهم إلا كقلب واحد».

وهذا حق.. كانت قلوب أصحاب الإمام كقلب واحد تعمره التقوى وعزة الاستعلاء فوق أطماع الدنيا ولبانات الجاه، ولكن آراءهم كانت شتى!

أما هؤلاء الذين انحازوا لمعاوية وأصبحوا هم جيش الشام، فقد وصفهم معاوية آنفاً لعمار بن ياسر وهو يهدده قبل مقتل عثمان: «يا عمار، إن بالشام مائة ألف فارس، كلٌّ يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته، ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته، هم لا يعرفون الإسلام ولا أصحاب الفضل، ولا يعرفون إلا العطاء».

أما العرب الذين تركوا علياً ولحقوا بمعاوية، وهم قليل من الذين تولوا أمراً من أمور المسلمين، فهم الذين يخافون عدل عليٍّ وحسمه وتقواه على ما في أيديهم، والذين يرفضون التسوية في القسمة، والذين خانوا أماناتهم، فلما أراد الإمام أن يحاسبهم، فروا منه بما نهبوه، فأقرهم معاوية على ما نهبوه وأغدق عليهم المزيد.. أما هؤلاء جميعاً فقد قال عنهم الإمام: «إنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، مهطعون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ورعوه، وعلموا أن الناس عندنا أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً!!».

وقال عن معاوية الذي اصطنعهم: «طبيب دوار بطبه، قد أحكم

مراهمه، وأحمى مواسمه (جمع ميسم: المكواة) يضع ذلك حيث الحاجة إليه: من قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم، يتبع بدوائه مواضع الغفلة، ومواطن الحيرة».

شعر الإمام بما اعتور نفوس بعض عماله وبعض رجاله وأصحابه، وهم يقارنون بين ما يأخذهم به من حرمان وشدة في الحق، وبين ما يغرق به معاوية أتباعه، وما يصطنع به الناس من إغداق الضياع والمال والمتاع بغير الحق، فقال: «إني أعرف ما يصلحكم لي، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي».

وما كان الإمام في الحق داعية إلى الفقر، ولكنه كان هادياً إلى التقوى. قال يعظ ابنه محمد بن الحنيفة: «يا بني إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت».

وكان من دعائه كرَّم الله وجهه: «اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلي بحمد من أعطاني، وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله وليُّ الإعطاء والمنح، إنك على كل شيء قدير. اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك، أو أضل في هداك، أو أضام في سلطانك، أو اضطهد لأمر لك».

وكان يعلم الناس أن يدعوا بدعاء علَّمه الرسول ﷺ لصفيته فاطمة الزهراء رضي الله عنها. قال لها: «يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله».

كما كان يعظهم أن يدعوا بدعاء لنبي الله عيسى عليه السلام: «اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي، فلا فقير أفقر مني. اللهم لا تشمت

بي عدوي، ولا تسوء بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا تسلط علي من لا يرحمني.. يا حي يا قيوم».

وانقضى الشهر المحرم، ولم تفىء عصبة معاوية إلى أمر الله، ولم تقبل الصلح أو تلزم الجماعة، فأرسل إليهم الإمام منادياً، فنادى: «يا أهل الشام، يقول لكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، فلم تنتهوا عن البغي والطغيان، ولم تجيبوا إلى الحق، وإني قد نبذت إليكم على سواء (أي أعلمهم بنبذ الموادعة أي أنذرهم بالحرب) إن الله لا يحب الخائنين. قال تعالى: **﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾** صدق الله العظيم.

ووزع الإمام رايات القتال، وعيَّن القواد، واتخذ كل مقاتل وقائد مكانه.

ثم قال: «لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم. وأنتم ـ بحمد الله ـ على حجة، وترككم قتالهم حتى يبدؤكم حجة أخرى، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم من عدة الحرب وأدواتها، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم».

ولكنه سمع بعض أصحابه يتحاورون فيما أمرهم به، كما حاوروه بعد معركة الجمل، فما زال بهم حتى اقتنعوا.

ثم قال يحرض على القتال: «عباد الله اتقوا الله، وغضوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقلوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على

المنازلة... فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأنزل عليهم الأجر».

وفي المعسكر الذي اجتمع فيه قراء الشام وقراء العراق، ارتفعت الأصوات في حدة، وهم يتجادلون في أوامر عليٍّ. فقال أحدهم: «عليٌّ مصيب فقد جاء في الحديث الشريف عليٌّ مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان».

فوقف عليٌّ خطيباً ليلة أول صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض، وما أبرم لم ينقضه الناقضون، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه، ولا اختلفت الأمة في شيء، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله. وقد ساقنا وهؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرأى من ربنا ومسمع، فلو شاء عجل النقمة، وكان منه التغيير. حتى يكذب الظالم، ويعلم المحق أين مصيره، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال وجعل الآخرة دار القرار **﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾**، ألا وإنكم لاقوا القوم غداً، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا قراءة القرآن، واسألوا الله النصر والصبر، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين».

حتى إذا كان صباح الأربعاء غرة صفر، زحف الإمام بالناس، وخرج إليه معاوية في أهل الشام، وكان الإمام في القلب على أهل المدينة وأكثر من معه من أهل بدر والمهاجرين والأنصار، بين أهل الكوفة وعليهم الأشتر، وأهل البصرة، وعليهم عبد الله بن عباس.

ورفع معاوية قبة عظيمة، وبايعه بعض أهل الشام على الموت دفاعاً عنه...

وسأل الإمام عن القبائل في جيش الشام، وأمر كل قبيلة في جيشه أن تكفيه أختها من أهل الشام.

واقتتل الناس يوم الأربعاء قتالاً شديداً، ثم انصرفوا عند المساء وليس منهم مغلوب ولا غالب!

فلما كان الخميس وقف عبد الله بن بديل يحرض على القتال فقال: «ألا إن معاوية ادعى ما ليس له، ونازع الحق أهله، وعاند من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب الذين زين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبَّس عليهم الأمر، وزادهم رجساً إلى رجسهم، وأنتم والله على الحق، على نور من ربكم وبرهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾**. قاتلوا الفئة الباغية الذين نازعوا الأمر أهله، وقد قاتلتموهم مع رسول الله ﷺ، فوالله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر».

وقام يزيد بن قيس فقال: «إن المسلم من سلم في دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله ما يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ليكونوا جبارين فيها وملوكاً فلو ظهروا عليكم لا أراهم الله ظهوراً ـ لرموكم بالسفهاء الضالين، وممن يأخذ حقكم ويقول: هذا لي ولا إثم عليَّ كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه، وإنما هو مال الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا. فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين، فإنهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم، وهم من قد عرفتم وخبرتم، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلا شراً».

نظّم الإمام علي أمير المؤمنين صفوف جيشه وقال: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدّموا الدارع، وأخروا الحاسر، وعضوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف. وغضوا الأبصار، فإنه أربط للجأش، وأسكن للقلوب. وأميتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوقار. راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم.

واستعينوا بالصدق والصبر، فإنه بعد الصبر ينزل النصر».

وبدأت المعركة، واستعر القتال.. وما يسمع غير وقع الحديد على الحديد.

وكان الحسن والحسين ومحمد بنو الإمام معه، والنبل يمر بين عاتقه ومنكبه، فلما دنا منه أهل الشام وأطلقوا عليه السهام والنبال يريدون قتله، قال له الحسن أكبر بنيه: «ما ضرك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء القوم من صحبك فتلقوا بجمعكم أهل الشام؟ فقال: «يا بني إن لأبيك يوماً لا يعدوه ولا يبطىء به عنه السعي، ولا يعجل به إليه المشي، إن أباك والله لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه!».

واقتتل الفريقان حتى العصر، وانهزم أصحاب أمير المؤمنين، وفر بعضهم، فقال للأشتر: «إيت هؤلاء القوم الفارين فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم».

فقال الأشتر لهم ما قاله الإمام، وأضاف: «أنا الأشتر إليَّ أنا الأشر، إليَّ يا مذحج (وهي قبيلته)».

فلما خلصوا إليه قال: «ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم. ما أرضيتم ربكم، ولا نصحتم له في عدوكم، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات وفتيان الصيال، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران؟! ما تفعلون هذا اليوم فإنه مأثور عنكم بعد اليوم. فاصدقوا عدوكم اللقاء، فإن الله مع الصادقين، والذي نفسي بيده، ما من أهل الشام رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله» فقالوا: «خذ بنا حيث أحببت».

وزحف بهم الأشتر، وثاب إليه الفارون، فقاتل بهم قتالاً شديداً، وقاتل غيرهم من أصحاب الإمام بقيادة عبد الله بن بديل، حى أحاطوا بقبة معاوية. وانتهوا إلى الرجل القائم على رأس معاوية ومعه ترس مذهب يستر به معاوية من الشمس، فقتلوه، فدعا معاوية بفرسه فركبه،

فهم بالفرار فنظر إليه عمرو وقال: «اليوم صبر، وغداً فخر» فقال معاوية: «صدقت» وأخذ يردد قول الشاعر الجاهلي:

أبت لي همتي، وأبى بلائي   وإقدامي على البطل المشيح
وإقدامي على المكروه نفسي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت لنفسي   مكانك تحمدي أو تستريحي

وعاد إلى المعركة يستثير جنده أن يضربوا ويصبروا وسيغلبون.. فجُندُ عليّ يفرون!

ووقفت أم الخير، وهي امرأة من الكوفة، على جملها تخطب الفارين: «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل فأين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين؟ أم فراراً من الزحف؟ أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: **﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾**».

ثم رفعت رأسها ويديها إلى السماء، وقالت: «اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله.. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضيّ التقي، والصدِّيق الأكبر. إنها إحَن (ضغائن)، وأحقاد جاهلية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات عبد شمس... صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم.. الله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون. فإلى أين تريدون رحمكم الله، عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأبي سبطيه؟ خلق من طينته، وتفرع من نبعته، وجعله باب مدينته، وأبان ببغضه المنافقين. صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون، فلم يزل حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر.. فيا

لها من وقائع زرعت في القلوب نفاقاً، وردة وشقاقاً، وزادت المؤمنين إيماناً. . قد اجتهدتُ في القول، وبالغتُ في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة».

وشعر الرجال الفارون بالخزي والمهانة إذ يولون الأدبار، وامرأة تستنفر رجولتهم وشجاعتهم، وتزري على جبنهم، وتدعوهم للثبات، فعادوا مستثارين في حماسة عارمة، فحملوا على جند معاوية، يطردون من أعماقهم حب الدنيا والحرص عليها، بالرغبة الجليلة في الاستشهاد دفاعاً عما يؤمنون به، حتى في الجاهلية ما كان آباؤهم يفرون عند الروع، فما بال الذين استقووا بالإسلام والإيمان يفرون؟!

وها هو ذا صوت الأشتر الجهير يختلط بقراع الأسنة ووقع الحديد على الحديد، ويردد جند عليٍّ كلمات الأشتر: «الغمرات ثم ينجلين».

وتتعالى الصيحات من كل الأرجاء من صفوف عليّ كلٌّ يشد أزر صاحبه: «شدوا شدوا يا رهبان الليل وفرسان النهار!».

تدافعت صفوف الورعين والمساكين والقراء تنقض على جند معاوية بكل الطاقة الخارقة التي يمنحها حب العدل، والغنى عن الناس بالله، والأشواق النبيلة إلى المساواة، والكبرياء التي يفجرها شرف الجهاد في سبيل الله، والعزة التي تصب قوة لا تقهر في سواعد الذين يدافعون عن الحق، ويذودون عن الحقيقة باسم الله!

واندفع عبد الله بن بديل على رأس ثلاثمائة من القراء قاصدين الترس الذهبي الذي يستظل به معاوية أمام قبته الفخيمة، وأمامه خمسة صفوف من جنده بايعوه على الموت دفاعاً عنه. . . وربط كل واحد منهم نفسه إلى أخيه بعمامته ليحاربوا جميعاً، فيظفروا أو يهلكوا جميعاً، ولا يتمكن أحد من الفرار!

واستطاع عبد الله بن بديل بمن معه من القراء أن يهزم أول صف،

ثم هزم الصف الذي يليه، وأزاح الصف الثالث والرابع، ولم يبق دون معاوية إلا صف واحد!

والمعركة تحتدم، والصفوف تضطرب وتتموج، فما يبقى من الجانبين أحد في مكانه.. وكل شيء يضطرم!

ونظر عبد الله بن بديل في الصفوف يبحث عن الإمام في موقعه من قلب الجيش، غير أن الإمام لم يكن في مكانه!!

ووجد عبد الله بن بديل مكان الإمام صاحبه الأشتر، فسأله: «ما فعل أمير المؤمنين؟» قال الأشتر: «حي صالح يقاتل في الميسرة». فقال وقال القراء معه»: الحمد لله. كنا ظننا أنه هلك وهلكتم معه».

وصاح عبد الله في رجاله: «استقدموا بنا» فقال له الأشتر: «لا تفعل واثبت مع الناس هنا فقاتل، فإنه خير وأبقى لك ولأصحابك».

ولكن عبد الله اندفع يقود أصحابه من القراء، وأوشك أن يهزم آخر صف فينكشف له معاوية، فصاح معاوية: «إقذفوه بالحجارة». فقذفوه، فسال دمه. وسقط على الأرض، فأجهزوا عليه، وحملوا على القراء.

ولكن الأشتر وجنده حملوا على جند الشام فأتاح للقراء أن ينسحبوا سالمين، ليحاربوا في موقع آخر من وادي صفين.

وجاء معاوية ومعه صاحبه عبد الله بن عامر، فغطى ابن عامر بعمامته وجه صديقه عبد الله بن بديل وكانت بينهما مودة قبل الحرب.. وقال: «رحمك الله يا عبد الله» واغرورقت عيناه بالدموع. فقال معاوية: «اكشفوا وجهه».

وأدرك ابن عامر أن معاوية يريد أن يمثل بجسد ابن بديل.. فقال ابن عامر ينذر معاوية: «والله لا تمثل به وفيَّ روح». قال معاوية: «اكشفوا وجهه فقد وهبناه لك. هذا كبش القوم. اللهم أظفرني بالأشتر».

وعاد معاوية إلى قبته الفخيمة، وحامل الترس المذهب يتحرى أشعة الشمس ليحمي منها رأس معاوية.

وصاح أحد النساك الزاهدين من أصحاب الإمام: «ألا إن مرعى الدنيا أصبح هشيماً، وشجرها حصيداً (مقطوعاً)، وإني لأتمنى الشهادة وأتعرض لها في كل جيش وغارة، فأبى الله إلا أن يبلغني هذا اليوم. وإني متعرض لها من ساعتي هذه، وقد طمعت ألا أحرمها، فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله؟ أهو خوف من الموت القادم عليكم الذاهب بأنفسكم لا محالة؟ استبدلوا الدنيا بالنظر في وجه الله، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء في دار القرار».

واندفع يقاتل وهو يقول لإخوة له ثلاثة كانوا معه: «يا إخوتي قد بعت هذه الدنيا بالتي وراءها».

وقاتل حتى قتل، فشد إخوته على جند معاوية قائلين لأخيهم الشهيد: «لا نطلب رزق الدنيا بعدك».

وقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً. وتبارز رجلان، فصرع أحدهما الآخر فسقطت خوذة المغلوب، فإذا هو شقيق الغالب، فتوقف حتى استأذن الإمام في أمره، فأمره الإمام أن يدع أخاه ويعفو عنه!!

ورأى الإمام جميع الفارين من جنده قد عادوا يكرون فحياهم بقول: «أنتم عمّار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون، فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكركم بعد فراركم، وجب عليكم ما وجب على المُوَلِّي يوم الزحف دبره، وكنتم من الهالكين. ولكن هَوَّن وجدي أني رأيتكم أزلتموهم عن مصافِّهم (صفوفهم)، كما أزالوكم، تحسونهم بالسيوف، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة (الطريدة) الهيم (العطاش) فالآن اصبروا، نزلت عليكم السكينة، وثبتكم الله عزّ وجلّ باليقين، ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه، وموبق (مهلك)

نفسه، إن الفرار موجدة (غضب) لله عزّ وجلّ عليه، والذل اللازم والعار الباقي، وفساد العيش عليه. إن الفار لا يزيد في عمره، ولا يرضي ربه، فموت المرء محقاً قبل إتيان هذه الخصال خير من التلبس بها، والإقرار عليها».

وقتل رجل من جند عليٍّ يوم صفين فمر به صديق فقال له: «عزّ عليَّ والله مصرعك. أما والله إن كنت لمن الذاكرين الله كثيراً. أوصني رحمك الله». فقال: «أوصيك بتقوى الله، وأن تناصح أمير المؤمنين، وتقاتل معه المحلين حتى يظهر أو تلحق بالله. وأبلغه عني السلام، وقل له: «قاتل عن المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنه من أصبح غدا والمعركة خلف ظهره كان العالي»، ثم لفظ أنفاسه.

فلما حمل صديقه رسالته إلى الإمام قال: «رحمه الله! جاهد فينا عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة».

وغابت الشمس فكفوا عن القتال، وعادوا إليه في اليوم التالي.. لقد لبثوا أياماً يقتتلون ثم يكفون، ويتزاورون في ساعات الهدنة.

ولما رأى الإمام عليٌّ كثرة الضحايا من الجانبين، وجد معاوية مصمماً على القتال، خشي فناء العسكرين فنادى: «يا معاوية. علام يُقتل الناس ويذهبون على ملك إن نلتَه كان لك دونهم وإن نلته أنا كان لي دونهم؟ إبرز إليَّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب» قال عمرو بن العاص: «أنصف الرجل يا معاوية» فضحك معاوية وقال: «طمعت فيها يا عمرو» فقال عمرو: «والله ما أراه يجمل بك ألا تبارزه» فقال معاوية: «ما أراك إلا مازحاً نلقاه بجمعنا». فقال عمرو: «والله ما أدري أشجاع أنت أم جبان؟» قال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة ... فإن لم تكن لي فرصة فجبان

ورفض معاوية أن يبارز علياً.. وتوقفت الحرب عندما جاء الليل...

ومضى الإمام إلى معسكر القراء، فلما رأوه بلا خوذة ولا دروع قالوا مشفقين: «يا أمير المؤمنين أتقتل أهل الشام بالغداة وتخرج في العشي بإزار ورداء؟!» فقال: «أبالموت أُخَوَّف؟ والله ما أبالي أسقط عليَّ الموت أم سقطت عليه!».

فقال له القراء: «عظنا وانصحنا يا أمير المؤمنين» فقال: «يا حملة القرآن اعملوا به، فإن العالم من عمل بلا علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتى أن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله.. لا تدعوا القرآن رغبة منه إلى غيره. أما والله لقد قصم ظهري عالم متهتك. وجاهل متنسك. هذا يفتي وينفر الناس بتهتكه، وهذا يضل بتنسكه... كونوا بقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل. فإنه لن يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل مُتقَبَل؟!.. الفقيه منكم كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم معه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، وما أبردها على كبدي إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول: الله أعلم... إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكر القدرة عليه».

وسأله أحد القراء: «أما نحن فيه قدر كتب علينا يا أمير المؤمنين؟» وسأل آخر: «ما القدر؟» فقال الإمام: «القدر طريق مظلم لا تسلكه، وبحر عميق لا تلجه. سر الله قد خفي عليك فلا تفشه أيها السائل، إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟» قال الرجل: «بل كما شاء» قال الإمام: «فليستعملك كما شاء».

فسأله أحد القراء: «ألست أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟». فدهم الإمام الحرج، وشعر بحياء شديد، وقال للرجل: «ما أنا إلا رجل

من المسلمين». وهتف القراء إعجاباً بحياء الإمام وتواضعه. . هذا التواضع الذي يرفع صاحبه.

واستمر الإمام: «خير هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعمر».

قال رجل: «لله درك يا أمير المؤمنين إذ تمجد أبا بكر وعمر!».

وقال آخر: «أمن أجل ذلك سميت أولادك أبا بكر وعمر وعثمان؟» فقال الإمام: «أما والله لا يفضّلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري».

وعندما انصرف الإمام قالوا: «أما والله ما أنزل الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ إلا وعليٌّ أميرها وشريفها».

قال رجل منهم: «سمعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «قال رسول الله ﷺ «خير إخوتي علي، وخير أعمامي حمزة».

وقالت رضي الله عنها: «كانت فاطمة أحب الناس إلى الرسول وزوجها عليٌّ أحب الرجال».

وقال رجل آخر: «أما أنا فسمعت أن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سبَّ علياً فقد سبَّني».

قال آخر: «وحدثونا أن رسول الله ﷺ قال: ذرية كل نبي في صلبه، وجعل الله ذريتي في صلب علي».

وأنه قال: «الجنة تشتاق إلى ثلاثة، عليٌّ وعمار وسلمان».

وأنه قال لعليٍّ: «إن فيك مثلاً من عيسى بن مريم، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه (اتهموها زوراً وبهتاناً)، وأحبه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس له».

فقال أحد القراء: «لله در أمير المؤمنين إذ يقول: خير هذه الأمة

النمط الأوسط يرجع إليهم الغالي (المغالي)، ويلحق بهم التالي (المتأخر).

فقال رجل: «إن الإمام لم يشف صدورنا حين حدثنا عن القدر.. سأسأله في خيمته».

وذهب نفر من القراء إلى الإمام فوجدوه في جماعة من أصحابه يقول لهم عن فضل العشيرة: «عشيرة الرجل خير للرجل من الرجل للعشيرة، إن كفَّ عنهم يداً واحدة كفوا عنه أيدياً كثيرة مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم، إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه، وسأتلو عليكم في ذلك آيات من كتاب الله تعالى. قال عزّ وجلّ فيما حكاه عن لوط: **﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾** (يعني العشيرة) ولم يكن للوط عليه السلام عشيرة.

فوالذي نفسي بيده ما بعث الله نبياً من بعده إلا في ثروة من قومه، ومنعة من عشيرته. ثم ذكر شعيباً إذ قال له قومه: **﴿إنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك﴾**، وكان مكفوفاً، والله ما هابوا الله ولا هابوا إلا عشيرته».

وعندما انتهى الإمام من كلامه وجد أمامه جماعة القراء، الذين سألوه من قبل عن القدر، وخمن الإمام أنهم سيعاودون السؤال، وما لبث رجل منهم أن سأل: «يا أمير المؤمنين، ما تقول في القدر؟» وابتسم علي، وقال: «ويحك! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟» قال: «نعم» قال: «أسلم صاحبكم وقد كان كافراً؟» فقال الرجل: «أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأني بها وقوم خلقي، أقوم وأقعد، وأقبض وأبسط؟» قال له علي: «إنك بعد في المشيئة. أما إني أسألك عن ثلاث، فإن قلت في واحدة منهن: لا، كفرت، وإن قلت نعم، فأنت أنت. أخبرني عنك، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟» قال الرجل: «بل كما شاء» قال: «فهل خلقك الله لما شئت أو لما شاء؟» قال: «بل

لما شاء» قال الإمام: «فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟» قال: «بل بما شاء» قال الإمام: «قم فلا مشيئة لك».

فقال الناس: «ألا تزيدنا موعظة يا أمير المؤمنين؟ عظنا».

قال: «من حلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة، ومن أبصر نفسه عمي عن عيب غيره، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن نسي زلته استعظم زلة غيره، ومن هتك حجاب غيره انهتكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن تعمق في العمل مل، ومن صاحب الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه، ومن حسن كلامه، كانت الهيبة أمامه، ومن خشي الله فاز، ومن استعار الجهل ترك طريق العدل، ومن عرف أجله قصر أمله».

الفصل الثالث

كلمة حق يراد بها باطل!

كان أبو الكلاع من أقوى أصحاب معاوية، وأشدهم تحرجاً، وأكثرهم سطوة وتأثيراً على أهل الشام.

كان يحب علياً، ولكنه خرج يقاتله، لأن معاوية أقنعه بأن علياً مسؤول عن قتل عثمان، فقد حشد معاوية عدداً ممن ينتسبون إلى العلم، فجعلهم أئمة على المساجد، وأجزل لهم العطاء وأغدق عليهم وأقطع لهم الإقطاعات. وملأ خزائنهم بالذهب والفضة، وربط مصيرهم بمصيره، وأقنعهم بأنه هو ولي دم عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، فلمعاوية سلطان، وله الحق في أن يطالب بدمه!!

وإذ هذا النفر يقنعون الآخرين برأي معاوية، ويتأولون تفسير الآية الكريمة: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾**.

هذا النفر من علماء الشام، كانوا كما قال الإمام عليٌّ عنهم إنهم علماء مرتشون باعوا علمهم ودينهم بزخرف الدنيا. فهم يعلمون أن ولي الأمر ـ وهو الإمام ـ وهو وحده المسؤول عن القصاص، ومع ذلك فقد قالوا وعملوا بغير ما تعلموا وبغير ما علموا...

وكان أبو الكلاع في شك من أمرهم جميعاً!!

لقد سمع أن عمار بن ياسر من أمراء جيش علي، وهو يعلم كما يعلم كل المسلمين أن الرسولﷺ قال لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة

الباغية». . فهذا الحديث الشريف لا يجهله أحد، ولا ينكره أحد في كل بلاد المسلمين. . .

وفي كل بلاد المسلمين تتواتر أحاديث شريفة فيها ثناء على عمار بن ياسر. . وفيها أن عمار بن ياسر ما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أرشدهما! . . .

ومضى أبو الكلاع يسأل عمرو بن العاص عن عمار. وسكت عمرو. . فصاح أبو الكلاع: «ويحك! ما هذا يا عمرو؟ ألم يقل الرسولﷺ: يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى، ومعه عمار بن ياسر».

قال عمرو في ضيق: «عمار بن ياسر سيرجع إلينا!».

ومضى أبو الكلاع يحدث أهل الشام عن علي، ويقسم لهم أنه يعرف فضله وسابقته وحقه، ولكنه يحاربه ليسلم معاوية قتلة عثمان، كما أفتى بعض العلماء من حاشية معاوية لرؤساء أهل الشام. . .

وخشي عمرو أن يفت كلام أبي الكلاع من عضد جيش الشام، فحاول أن يقنعه بأن عمار بن ياسر هو أحد المسؤولين عن قتل عثمان الخليفة المظلوم، ولكن أبا الكلاع أغلظ لعمرو، ومضى يحدث أصحابه من أهل الشام عن مناقب عمار، فقال: «إنه كان أحد سبعة هم أول من أظهروا إسلامهم، منهم أمه سمية أول شهيدة في الإسلام، كما كان أبوه ياسر أول شهيد في الإسلام، عذبا حتى هلكا. .».

ومضى أبو الكلاع إلى ابن خالد بن الوليد، وكان من أصحاب معاوية فسأله عما كان بين خالد وعمار أمام الرسولﷺ. فقال: «قال لي أبي: كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له في القول، فانطلق عمار يشكوني إلى رسول اللهﷺ، فجئت وعمار يشكوني، فجعلت أغلظ له، ولا أزيده إلا غلظة، والنبيﷺ ساكت لا يتكلم، فبكى عمار وقال: يا

رسول الله، ألا تراه؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: من عادى عماراً عاداه الله، من أبغض عماراً أبغضه الله. فخرجت من عند الرسول فما كان شيء أحب إلي من رضا عمار، فأرضيته حتى رضي».

ومضى أبو الكلاع يسأل العلماء الذين اصطنعهم معاوية، أسمعوا عن الحديث الشريف: «اهتدوا بهدي عمار»؟! فسكتوا.. خرجوا بالصمت عن لا ونعم!

وأبو الكلاع يبحث عن قراء الشام الذين انضموا إلى قراء العراق.. فإذا هم جميعاً تحت إمرة عمار...

وإنه ليقودهم متجهاً إلى صفوف معاوية. والناس تقول ما يسلك عمار وادياً من أودية صفين إلا التف حوله أصحاب رسول الله...

كان قراء الكوفة هم وآباؤهم يرون فيه رائداً عظيماً.. ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عماراً إلى الكوفة بكتاب إلى أهلها: «أما بعد فإني أرسلت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود وزيراً ومعلماً، وهما من نجباء أصحاب محمد، فاقتدوا بهما».

واتصلت المودة بين أهل الكوفة وبين ابن مسعود وعمار كليهما رضي الله عنهما، فلما مات ابن مسعود لم يعد لأهل الكوفة شيخ إلا عمار...

وكان عمار حيثما مضى من أرض الإسلام أحبه الناس، وتمثلوا بصلابته في الحق، وحسن بلائه في سبيل الله.. هكذا أحبه المصريون حين جاء إلى مصر، وأحبه أهل العراق.

سألوا عنه ابن عباس فقال: «كان رسول الله ﷺ في أول الدعوة يمر بعمار وأمه (سمية) وأبيه ياسر وهم يعذبون في رمضاء مكة فيقول: (صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة!) وكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذرون به على ترك دينهم! إن كانوا ليضربون أحدهم

ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً، من شدة الضر الذي به حتى أنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة، وحتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله! فيقول: نعم».

ولقد عذبوا سمية أم عمار على الإسلام، وهي تأبى ما يريدون، حتى قتلوها. فكانت أول من استشهد في الإسلام.

وأخذ المشركون عماراً فعذبوه، فلم يتركوه حتى سب النبيﷺ، وذكر آلهتهم بخير. ثم تركوه فأتى الرسول باكياً. فقال الرسول: «ما وراءك؟» قال: «شر يا رسول الله ما تركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال الرسول: «كيف تجد قلبك» قال: «مطمئناً بالإيمان» قال: «فإن عادوا لك، فعد لهم» فنزلت فيه الآية الكريمة من سورة النحل: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾**.

وعمار الآن في نحو التسعين، وما زال قادراً على القتال والجهاد في سبيل الله.

أسمر، طويل القامة، أبيض اللحية، سريع الخطوات على الرغم من شيخوخته، نشط، جليل، مهيب.

وإنه لمطاع الكلمة عند الصحابة، يتبعه القراء فيما يقول.. ولقد يراهم يسرفون في العبادة، فيعلمهم القصد، ويحملهم على الاعتدال، وإنهم لفي طاعته لا يردون له أمراً.

عمار مثلهم من المساكين، يعاني ما يعانون، ولقد تعلم من الإمام علي لوناً من الزهد جعله لا يرضى الدنية في دينه.. هذا اللون من الزهد الذي يملأ قلوب المؤمنين حباً للحقيقة، ويجعل المتقين أقوى من الإغراء، ويجعل المساكين فقراء إلى الله حقاً، أغنياء عن الناس!.

وقد علّم عمار تلاميذه من القراء كل ما تعلمه من الرسولﷺ،

ومن علي كرَّم الله وجهه.. فلما وجدهم يغالون في الزهد، علمهم ما تعلمه من الرسول: «لا رهبانية في الإسلام، ورهبانية أمتي الجهاد».

الدفاع عن قيم الإسلام الفاضلة: عن الحق والعدل والإحسان.. الدفاع عن كل أولئك جهاد في سبيل الله.. هكذا علم عمار أتباعه القراء.

وما زال ثناء الرسول عليه في كل ما شهده مع الرسول من مواقع... ما زال هذا الثناء يمنحه القدرة على القتال.. وأنه اليوم ليجاهد تحت راية علي، هؤلاء الذين جاهدهم هم وآباءهم من قبل تحت الراية نفسها في زمن الرسول في مواقع كثيرة.. ما واحدة منها بأزكى من الأخرى ولا بأزكى من هذه كما قال.. وهاهم أولاء أصحاب عليٍّ من حوله يحملون حملة صدق، فيزيلون جند معاوية عن مواقعهم، وتضطرب صفوفهم.. وها هو ذا معاوية في آخر صف يحميه فرسان الشام الدارعون... ولكن خالد بن معمر أمير هذا الرهط من فرسان علي يزحف على فرسان معاوية وهم يتقهقرون فرقاً. وها هو ذا يكاد يفضي إلى سرادق معاوية ويزيل قبته العالية فإذ بمعاوية يهرب منهزماً ويختفي.. ليرسل إلى خالد يسأله ألا يتقدم بعد، وألا يغامر بحياته، فما عساه يكسب من علي؟!

إن معاوية ليعده بأن يوليه خراسان إن هو توقف عن الزحف!! وإن معاوية ليهدي خالداً من التبر ما لا يستطيع أن يحصل على ذرة منه من أبي تراب!!

ويتوقف خالد عن الزحف!!

يا لقدرة معاوية على أن يطيش أحلام الرجال بوعود الجاه والثراء والسلطان!! وأن لديه من المال ما يمكنه من شراء من يلين: فله خراج الشام كله ملكاً خالصاً لا يؤدي منه لبيت المال درهماً واحداً!!

أما الإمام عليٌّ فما عساه يملك!!

إنه لا يملك غير العدل في القسمة بين الناس!!

ما يملك إلا التقوى، وما عساها تجدي مع الرجال الذين يصطنعهم معاوية، من الذين قال عنهم هو نفسه: «إنهم لا يعرفون غير المال».

ما عسى أن تجدي التقوى إذا أصبحت ضمائر بعض الرجال تشترى وتباع، وتستخدم، وتزيف باسم المقدسات؟!

ولكن سقوط هذا الرجل أو ذاك، لم يكن ليزيد الآخرين إلا ارتفاعاً على الدنايا!!

في الحق أن سقوط رجل ما أو قبيلة ما تحت إغراء ما يعرضه معاوية من مال ومناصب وجاه كان يوجع قلب الإمام.. ولكن الإمام كان على الرغم من كل شيء يؤمن بأنه من الخير له أن يتخفف من الذين تعربد رؤوسهم الأطماع وأحلام الغنى والأباطيل!

إنه لمع الحق، وإن أوحشت طرقه، وقل نصيره، وكفى بالله نصيرا!.

وكان المتأمل في جند الإمام وجند معاوية يرى عجباً!!

فأغلب جند الإمام صفر الوجوه من القيام، وعلى الجباه علامات من أثر السجود، ثيابهم خشنة، ولكن وجوههم على الرغم من كل شيء تضيء بالثقة، يسعى نورهم بين أيديهم إلا قليلاً...

فإذا وقف الإمام ينظمهم في صفوف، ويأمرهم أن يصطفوا كالبنيان المرصوص، حاوروه حتى يقتنعوا، وحتى يفقهوا معنى ما يتلوه عليهم: **﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾**.

وحينئذٍ يغرسون أقدامهم في الأرض بثبات...

أما جند معاوية، فكانت ملابسهم فاخرة، جاؤوا إلى القتال في أحسن زينة، وما كان معاوية في حاجة إلى أن يكلمهم فالإشارة تغنيه عن العبارة. . !

وقف عمرو بن العاص ينظر إلى جند معاوية وجند علي ويقارن بين الحالين. . وشعر معاوية بما في أعماق عمرو فقال مزهواً: «يا بن العاص كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟. قال عمرو: «لقد رأيت من يسوس رعيته بالدين والدنيا، فما رأيت أحداً تأتى له من طاعة رعيته ما تأتى لك من هؤلاء». قال معاوية: «أفتدري متى يفسد هذا، وفي كم ينتقض؟» قال: «لا» قال: «في يوم واحد! وأي والله أو في بعض يوم!» قال عمرو: «وكيف ذلك؟» قال معاوية: «متى كُذِبوا في الوعد والوعيد، وأعطوا على الهوى لا على الغناء!».

القبائل العربية موزعة بين جيش الإمام وجيش معاوية. . كل قبيلة تكفي أختها. . حتى قريش الشام تعرضت للقرشيين الذين جاؤوا من العراق أو من الحجاز.

ومعاوية ما برح يغري رؤساء القبائل في جيش علي. . ولقد راسل الأشعث بن قيس رئيس اليمانية فلم يحفل به، ولم يرد عليه، وأرسل عبد الله بن عباس لعله يكفكف من حماسته!

ورد عليه ابن عباس أكثر من مرة ينصحه بأن يحقن الدماء، ويدخل في الجماعة، فيعود معاوية إلى مخاطبته مصراً على أن يسلمه عليٌّ قتلة عثمان ليدخل في الطاعة. . !!

وقد حاول معاوية أن يخاطب من جيش علي رؤساء ربيعة وهمدان، ولكنهم ردوا عليه رداً منكراً قبيحاً، فكسروه!

وارتفع صوت الإمام يقول في جنده: «سيروا على بركة الله. . الله أكبر الله أكبر. يا ألله يا أحد يا صمد. يا رب محمد. ربنا افتح بيننا

وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اللهم اكفنا واكف عنا بأس الظالمين».

وبرز للإمام أربعة من أبطال الشام فصرعهم الواحد بعد الآخر.. واشتبك الجيشان، وتساقط الناس صرعى، وعز ذلك على الإمام، فنادى بأعلى صوته: «ويحك يا معاوية! أبرز إليَّ ولا تفن العرب بيني وبينك!» فقال له عمرو بن العاص: «اغتنمه وهو مجهد فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة!» فقال له معاوية: «والله لقد علمت أن علياً لم يُقهَر قط. إنما أردت قتلي لتصيب الخلافة بعدي!».

اشتد القتال من جديد، والإمام يدعو الله: «اللهم إليك رُفِعَتْ الأبصار وبُسِطَت الأيدي، ونُقِلَتْ الأقدام، ودَعَت الألسن، وأفْضَتْ القلوب.. فاحكم بيننا وبينهم بالحق وأنت خير الفاتحين. اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا وقلة عددنا، وكثرة عدونا، وتشتت أهوائنا، وشدة الزمان، وظهور الفتن، أعنَّا عليهم بفتح تعجله، ونصر تعز به سلطان الحق وتظهره».

ثم قال لأصحابه: «قال الله تعالى لقوم: **﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا﴾**، وأيم الله لئن فررتم من سيف الدنيا لا تسلمون من سيف الأخرى».

وتضرجت السيوف والحراب من مهج المسلمين، وتطايرت الرؤوس وسقط القتلى.. فصاح الإمام مرة أخرى: «يا معاوية» فقال معاوية: «اسألوه ما شأنه» قال الإمام: «أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة» فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فقال: يا معاوية ويحك! علام تقتيل الناس بيني وبينك؟ إبرز إليَّ فأينا يقتل صاحبه فالأمر له» فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: «ما ترى أبا عبد الله؟ أأبارزه؟» قال

عمرو: «اعلم أنه إن نكلت مرة أخرى لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي» قال معاوية: «يا عمرو بن العاص، ليس مثلي يخدع عن نفسه. والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه. والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي».

ثم انصرف معاوية راجعاً ومعه عمرو، فاختبآ في آخر الصفوف.

فضحك الإمام...

ووقف عبد الله بن عباس يخطب المقاتلين فكان مما قاله: «لقد قاتل علي بن أبي طالب مع رسول الله ﷺ وعلي يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله. فما معاوية في هذه بأبرّ ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب في قتالكم. فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر، وأنكم لعلى الحق وأن القوم لعلى الباطل، فلا يكونن أولى بالجد في باطلهم منكم في حقكم.. اللهم ربنا أعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا».

ووقف عمار يخطب فقال: «اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك في أن أضع ظبة (طرف) سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلته! والله إني لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين.. من يبتغ رضوان الله فلا يرجع إلى مال ولا ولد! اقصد بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان. والله ما أرادوا الطلب بدمه، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها، ولم تكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم. فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك ملوكاً جبابرة، فبلغوا ما ترون. ولولا هذه ما تبعهم من الناس رجلان، ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين.. فسيروا إليهم سيراً جميلاً. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، فإن جعلت لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم.

اذكروا الله ذكراً كثيراً.. الجنة تحت ظلال السيوف، الشهادة في أطراف الأسنة، وقد فتحت أبواب السماء، وتزينت الحور العين. اليوم ألقى الأحبة، محمداً وصحبه».

وتقدم حتى دنا من عمرو بن العاص، فقال: «يا عمرو بعت دينك بمصر. تباً لك! تباً لك!».

فقال عمرو: «لا، ولكني أطلب دم عثمان» قال: «أشهد أنك لا تطلب بشيء من فعلك هذا وجه الله، وإنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً. فانظر إذا أعطي الناس على نياتهم ما نيتك؟ لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ. وهذه الرابعة ما هي بأبرّ ولا أتقى».

ثم قاتل عمار. وعطش فطلب أن يشرب، فجاؤوه بلبن ممزوج بماء فهمهم: بشرني حبيبي رسول الله أن آخر زادي اللبن الممزوج بالماء.. واندفع يحارب وهو يدعو الله أن يرزقه النصر أو الشهادة.

وطعنه رجل من بني السكسك، ولهم ثروة عظيمة بالشام.

ظل الرجل الثري يتحرى عمار بن ياسر حتى طعنه بحربة، وأقبل ثري آخر من أثرياء الشام فاحتز رأسه.

وجاء من يبشر عمرو بن العاص ومعاوية بقتل عمار، ومن ينعى إليهما ذا الكلاع.

قال عمرو لمعاوية: «ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى علي ولأفسد علينا جندنا».

وجاء الرجلان الثريان إلى معاوية الذي طعن عماراً، والذي حز رأسه، كل منهما يدعي أنه صاحب الفضل في قتل عمار!

فقال لهما عبد الله بن عمرو: «ليطلب كل واحد منكما نفساً

لصاحبه بقتل عمار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قاتله وسالبه في النار، إنما تقتله الفئة الباغية».

فغضب معاوية وقال لعمرو محتداً: «ألا تنهى عنا مجنونك هذا؟» ثم قال لعبد الله: «فلم تقاتل معنا؟» فقال عبد الله: «إن رسول الله أمرني بطاعة والدي ما كان حياً، وأنا معكم ولست أقاتل» فقال معاوية: «أونحن نقتل عماراً، إنما قتل عماراً من جاء به».

وشاع في جند معاوية أن رسول الله ﷺ قال عن عمار: «إنما تقتله الفئة الباغية» فخرج معاوية إليهم فقال: «صدق رسول الله ﷺ. إنما قتل عماراً من جاء به. قتله علي بن أبي طالب».. وبارك العلماء المرتشون من صنائع معاوية هذا التخريج.

فأخذ جند معاوية يرددون دون أن يفكروا: «إنما قتل عماراً من جاء به! قتله علي بن أبي طالب».

وحمل أهل العراق على أهل الشام. فتقهقروا ثم توقفوا، فوقف الأحنف بن قيس يخطب أهل العراق: «يا أهل العراق، والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقاً منه اليوم، وقد كشف القوم لكم قناع الحياء، وما يقاتلون على دين، وما يصبرون إلا حمية وحباً في الدنيا، فتقدموا» قالوا: «إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس، فما تقول يا أمير المؤمنين؟» قال الإمام علي لهم: «تقدموا في موضع التقدم، وتأخروا في موضع التأخر. تقدموا من قبل أن يتقدموا إليكم».

فانقض أهل الشام يقودهم عمرو بن العاص، وتقدم أهل العراق يقودهم أمير المؤمنين الإمام علي، وكان في الدروع والزرد لا تبين منه إلا عيناه، وكذلك كان عمرو، فلم يعرف عمرو أن الذي يقود أهل العراق هو علي الذي ما صارع أحداً إلا صرعه.. وتصدى لعمرو فلما تلقى عمرو أول ضربة في الصراع أدرك من ثقل الضربة أنها لعلي!! ثم

ضربه علي بحربته فأوقعه من على ظهر حصانه، فأدرك عمرو أنه هالك، فبادر فكشف عورته وهو يتخبط على الأرض، فنحّى الإمام علي كرَّم الله وجهه عن عمرو وتركه يسرع هارباً، فقال أصحاب علي: «أفلت الرجل يا أمير المؤمنين» قال: «فهل تدرون من هو؟ إنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه».

وتقدم بسر بن أرطأة، وهو أقوى فرسان معاوية ليصارع علياً، فضربه فأسقطه، فلما أدرك بسر أنه يبارز علياً، كشف عورته كما صنع عمرو، فصرف الإمام وجهه عنه، وتركه يفلت هارباً.. وروى عمرو ما كان من علي. فقال معاوية: «أحمد الله وعورتك، أما والله أن لو عرفته يا عمرو ما أقحمت نفسك عليه» ثم قال شعراً يزري فيه بعمرو، فقال عمرو: «ما أشد تعظيمك علياً في أمري هذا! وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه؟ أفترى السماء قاطرة لذلك دماً؟!» قال معاوية: «لا. ولكنها معقبة لك خزياً».

وهدأ القتال، فقدر معاوية أن علياً سيقهره إن استمر القتال...

ورأى معاوية أن يحاول استمالة بعض أصحاب علي، ممن كانت له بهم مودة من قبل فأرسل أخاه عتبة إلى الأشعث بن قيس فنادى الأشعث فقال: «سلوا هذا المنادي من جيش معاوية من هو؟» قال عتبة: «أنا عتبة بن أبي سفيان» قال الأشعث: «غلام مترف ولا بد من لقائه».

فلما خرج إليه سأله: «ما عندك يا عتبة؟» قال عتبة: «أيها الرجل إن معاوية لو كان لاقياً رجلاً غير علي للقيك. إنك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل، ولست كأصحابك. أما الأشتر فقتل عثمان، وأما عدي فحرض عليه، وأما شريح وابن قيس فلا يعرفان غير الهوى، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرماً، ثم حاربت أهل الشام حمية. وقد بلغنا والله منك ما بلغت، وبلغت منا ما أردت، وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ونصر معاوية

ولكننا ندعوك إلى البقية (أن تبقوا علينا ولا تستأصلونا) التي فيها صلاحك وصلاحنا».

فقال الأشعث: «يا عتبة، أما قولك أن معاوية لا يلقى إلا علياً فإن لقيني والله ما عظم مني ولا صغرت عنه، فإن أحب أن أجمع بينه وبين علي فعلت. وأما قولك إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن، فإن الرأس المتبع والسيد المطاع هو علي بن أبي طالب عليه السلام. وأما ما سلف من عثمان إليَّ فوالله ما زادني صهره شرفاً، ولا عمله عزاً، وما عيبك أصحابي فإن هذا لا يقربك مني ولا يباعدني عنهم. وأما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بيتاً حماه. وأما البقية (الإبقاء على المقاتلين وعدم استئصالهم) فلستم بأحوج إليها منا».

فلما روى عتبة لأخيه معاوية ما قاله الأشعث قال: «يا عتبة لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه، وإن كان قد جنح للسلم».

على أن معاوية رأى أن يحاول مع غير الأشعث.. مع رجل له عند علي حظوة ومكان، وله على أصحابه سلطان، فلم يجد غير عبد الله بن عباس. فقال معاوية لمستشاره عمرو بن العاص: «إن رأس الناس بعد علي هو عبد الله بن عباس. فلو ألقيت إليك كتاباً ترفقه به، فإنه إن قال شيئاً لم يخرج عليٌّ منه، وقد أكلتنا الحرب».

فقال عمرو: «ابن عباس لا يخدع، ولو طمعت فيه لطمعت في علي». قال معاوية: «علي ذلك، فاكتب إليه».

فكتب عمرو إلى عبد الله بن عباس: «أما بعد، وأنت رأس هذا الجمع بعد علي، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبراً. واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق، وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا؟! ولسنا نقول ليت

الحرب غارت (انتهت) ولكنا نقول ليتها لم تكن، وإن فينا من يكره القتال، كما أن فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع، أو مؤتمن مشاور، وهو أنت. وأما الأشتر الغليظ الطبع، القاسي القلب، فليس بأهل أن يدعى في الشورى، ولا في خواص أهل النجوى.

طال البلاء وما يرجى له آس بعد الإله سوى رفق ابن عباس
قولا له قول من يرجو مودته لا تنس حظك إن الخاسر الناسي»

فلما قرأ عبد الله بن عباس الكتاب، أطلع عليه الإمام، فقال ضاحكاً: «قاتل الله ابن العاص ما أغراه بك يا بن عباس؟ أجبه».

فأجابه ابن عباس: «أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك! إنه مال بك معاوية إلى الهوى، وبعته دينك بالثمن اليسير، ثم خبطت بالناس في عشوة طمعاً في الدنيا، فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الدنيا، ثم تزعم أنك تتنزه عنها تنزه أهل الورع..! فإن كنت ترضى الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك. وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلي، ابتدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف. وليس أهل العراق فيها كأهل الشام، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه، ولست أنت وأنا فيها بسواء، أردتُ الله وأردتَ أنت مصر، وقد عرفت الشيء الذي باعدك مني ولا أعرف الذي قربك من معاوية، فإن ترد شراً لا نسبقك به، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه».

فجاء عمرو بكتاب ابن عباس إلى معاوية وقال له في غضب: «أنت دعوتني إلى هذا، ما كان أغناني وإياك عن بني عبد المطلب». فقال معاوية: «إن قلب ابن عباس وقلب عليٍّ قلب واحد، كلاهما ولد عبد المطلب، وإن كان ابن عباس قد خشن فقد لان، وإن كان قد تعظم أو عظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم، وأن ابن عباس رجل من

قريش وأنا كاتب إليه أخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا».

وأرسل معاوية إلى ابن عباس: «أما بعد، فإنكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان، فإن كان ذلك لسلطان بني أمية، فقد وليها عدي (قبيلة أبي بكر) وتيم (قبيلة عمر) فلم تنافسوهم، وأظهرتم لهم الطاعة. وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها. فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم وما يسيئكم منا يسيئنا منكم، وقد رجونا غير الذي كان، وخشينا دون ما وقع.. وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام، فأقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وأبقوا على قريش، فإنما بقي من رجالها ستة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق، ورجلان بالحجاز. فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو وأما اللذان بالعراق فأنت وعلي، وأما اللذان بالحجاز فسعد (ابن أبي وقاص) وابن عمر. وأنت رأس هذا الجمع اليوم، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى علي».

فلما قرأ ابن عباس الكتاب غضب وقال: «حتى متى يخطب ابن هند إلى عقلي وحتى متى أجمجم على ما نفسي؟» وأسرع يرد عليه: «أما بعد، فقد أتاني كتابك وقرأته، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة في أنصار ابن عفان، وكراهيتنا لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة (أخو عثمان لأمه)، وأما قولك إنه لم يبق من قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها! وقد قاتلك من خيارها من قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خذلك. وأما إغراؤك إيانا بعديٍّ وتيم، فأبو بكر وعمر خير من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقي لنَا منك يوم ينسيك ما قبله، وتخاف ما بعده. أما قولك: إنه لو بايع الناس لي لاستقمتم لي، فقد بايع الناس

علياً وهو خير مني فلم تستقيموا له، وإنما الخلافة لمن كانت له المشورة. وما أنت يا معاوية والخلافة وأنت طليق وابن طليق؟ والخلافة للمهاجرين، وليست للطلقاء (الذين أسلموا يوم فتح مكة)».

فلما قرأ معاوية الكتاب، نظر إليه عمرو شامتاً وضحك، فقال معاوية: «هذا عملي بنفسي. والله لا أكتب إليه أبداً».

ثم قال: «والله لأستميلن بالأموال ثقات علي، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته».

وأغدق معاوية على بعض أهل العراق أموالاً طائلة ووعدهم بإقطاعات ومناصب كبرى، فمالوا إليه، وانتشر الخبر في الناس، فأحزن ذلك علياً، واستنفر آخرين آثروا دين علي على دنيا معاوية، فانقضوا على من انضموا إلى جيش الشام، وأعملوا فيهم القتل وفي أهل الشام، فجزع معاوية جزعاً شديداً، وقال لأهل الشام: «هذا يوم تمحيص، وإن لهذا اليوم ما بعده، اصبروا وكونوا كراماً».

استشهد عمار بن ياسر رضي الله عنه، فجزع أتباعه القراء وزلزلوا زلزالاً شديداً؛ فقد كانوا لا يتخيلون أن يقتل عمار على هذا النحو البشع: يعمد إليه أحد أثرياء الشام فيقتله، وينقض ثري آخر فيفصل رأسه عن جسده، كأنه يريد أن يطمئن أنه لن يعود إلى الحياة مرة أخرى، فيطالب الأغنياء بأن يقوموا بأمر الفقراء، وينادي بأن للفقراء والمساكين وأهل الحاجة حقوقاً في أموال الأغنياء غير الزكاة!!

وما حيلة عمار، وما ذنبه وهو قد تعلم هذا من رسول الله ﷺ، وفقهه فيه علي بن أبي طالب.

وتساءل بعض القراء.. كيف نصر الله الأغنياء بافترائهم وطغواهم، على المساكين بزهدهم وتقواهم؟! الحكمة ما أراد الله تعالى، وما أراد! لا راد لقضائه.

وتساءل آخرون منهم لماذا يبتلى إمامهم عليٌّ بكل هذه المحن؟.!

وقال آخر: إن علياً من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد شرى عليٌ نفسه ابتغاء مرضاة الله.

فقال أحد القراء: «رأيت في بعض الكتب أن رسول الله ﷺ لما أراد الهجرة، خلَّف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده، وأمره ليلة خرج إلى الغار، وقد أحاط المشركون بالدار، أن ينام في فراشه، وقال له: (اتَّشح ببُردي الحضرميِّ الأخضر، فإنه لا يخلص إليك منه مكروه إن شاء الله تعالى)، ففعل ذلك، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام أني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب؟ آخيت بينه وبين نبيي محمد، فبات على فراشه، يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه. فنزلا، فكان جبريل عند رأس علي، وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بَخٍ بَخٍ مَنْ مِثْلُكَ يا ابنَ أبي طالب يباهي الله عزّ وجلّ به الملائكة؟! فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله وهو يتوجه إلى المدينة في شأن علي: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾[1]

فقال أحد القراء: «سينصر الله إمامنا فقد علمنا من شيخنا ابن مسعود وعمار أن رسول الله ﷺ قال: علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان».

وأخذ القراء يبكون عماراً ويدعون الله، ويرتلون القرآن، ويطيلون الركوع والسجود، حتى رآهم الأشتر، فأشفق عليهم، وضمهم إلى رجاله وقادهم جميعاً فشقوا طريقاً في صفوف جند معاوية. وتزايلت صفوف معاوية صفاً بعد صف.. فحرض معاوية أصحابه على أن يبارزوا الأشتر

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير.

ويقتلوه، فخافه أصحاب معاوية، ولم يتقدم أحد بعدُ إلى الأشتر، وحاول معاوية أن يغري مروان بن الحكم بذلك. فأبى مروان، وقال لمعاوية: «ادع للأشتر عمرو بن العاص فهو وزيرك!» قال معاوية: «وأنت نفسي!». فقال مروان: «لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء، وألحقته بي في الحرمان».

وسمع عمرو بذلك فقال لمعاوية: «قد غمَّك القوم في مصر، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها، فخذها إن ابن عمك مروان يباعدك منا ويباعدنا منك ويأبى الله إلا أن يقربنا إليك».

عندما علم الإمام باستشهاد عمار، بكاه وصلى عليه، وأمر بدفنه حيث استشهد. ثم اتجه الإمام إلى ربيعة وهمدان فقال لهم: أنتم درعي ورمحي.. فقال لهم شيوخهم: «يا معشر ربيعة لا عذر لرجل في العرب إن وصل أحد بأذى إلى أمير المؤمنين وهو بينكم وفيكم رجل حي، إنه لعاركم آخر الدهر فإن منعتموه، مجد الحياة اكتسبتموه».

وتقدم الإمام يقود نحو اثني عشر ألفاً من ربيعة وهمدان، منهم ألفان وثمانمائة من المهاجرين والأنصار، ومن بقي من أهل بدر إلا ثلاثة نفر، وتسعمائة ممن شهدوا بيعة الرسول تحت الشجرة، ونزل فيهم قرآن كريم يبشرهم برضوان الله.

بايعته ربيعة وهمدان على الموت، وحملوا على جند الشام، فنقضوا صفوفهم، ومعاوية يحرض جنده على قتل عليٍّ، ورجال عليٍّ يحرسونه، وهو يلاقي الفرسان واحداً بعد الآخر فما يبارز أحداً إلا قتله.. ويطلب منه رؤساء القبيلتين أن يأخذ حذره، وسيبارزون هم عنه، فيقول:

من أي يوميَّ من الموت أفِر؟ أيوم لا قدر أم يوم قدر؟

وحرض معاوية عمرو بن العاص على مبارزة علي، فقال له عمرو:

«بارزه أنت فتكون على إحدى الحسنيين، إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفاً إلى شرفك، وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» فقال معاوية: «يا عمرو! الثانية شر من الأولى».

وكان معاوية واقفاً على تل يشاهد المعركة وعليٌّ يفلق الهامات، وما من أحد يقوى عليه، والصفوف تنهزم أمامه وهو وفرسان ربيعة وهمدان، وجيش الشام ينهار، وصناديده يفرون يلتمسون النجاة من عليّ وأصحابه!!

فقال معاوية وهو يتأمل كلَّ ذلك: «تباً لهؤلاء الرجال وقبحاً! أما فيهم من يقتل علياً مبارزة أو غيلة؟ فقال له الوليد بن عقبة: «أبرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته» فقال معاوية: «والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش! إني والله لا أبرز إليه. وما جُعِلَ العسْكَرُ بين يَدَي الرئيس إلا وقاية له».

وجمع معاوية من معه من رجالات قريش وقال لهم: «العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعل حسن يطول به لسانه ما عدا عمرو بن العاص! فما بالكم؟ أين حمية قريش» فرد عليه الوليد بن عقبة في غضب: «وأي فعل تريد؟؟ والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق من يغني غناءنا باللسان ولا باليد» فقال معاوية: «بل إن أولئك قد وَقَوْا علياً بأنفسهم» قال الوليد متحدياً معرضاً بمعاوية: «كلا. بل وقاهم عليٌّ بنفسه!» فقال معاوية: «أما منكم من يقوم لِقَرْنٍ منهم مبارزة أو مفاخرة؟» قال مروان: «أما البراز فإن علياً لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمد بنيه فيه ولا لابن عباس وإخوته، ويصلى علي بالحرب دونهم. فلأيهم نبارز؟ أما المفاخرة فبماذا نفاخرهم؟ أبالإسلام أم بالجاهلية؟ فإن كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة...».

وقاطعه معاوية فسفهه!

وتنابزوا جميعاً، فأغلظ الوليد لمعاوية.

وقال مروان: «أما والله لولا ما كان مني يوم الدار مع عثمان، ومشهدي بالبصرة، لكان مني في عليٍّ رأي يكفي امرءاً ذا حسب ودين!».

ثم انصرفوا جميعاً عن معاوية غاضبين، ولكنه لم يدعهم يبيتون في غيظهم!! فصالحهم (وأرضاهم من نفسه، ووصلهم بأموال جليلة).

وإذ رأى معاوية أن الدائرة توشك أن تدور عليه، وأن علياً يوشك أن يكسب الحرب، قال لعمرو: «قد رأيت أن أكتب لعليٍّ كتاباً أسأله الشام وهو الشيء الأول الذي ردني عنه وألقي في نفسه الشك والريبة». فضحك عمرو قائلاً: «أين أنت يا معاوية من خدعة علي؟». فقال: «ألسنا بني عبد مناف» قال عمرو: «بلى؛ ولكن لهم النبوة دونك! وإن شئت أن تكتب فاكتب».

فكتب معاوية لعليٍّ: «أما بعد، فإني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا، لم يجنها بعضنا على بعض. وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة، فأبيت ذلك عليَّ. فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يُستذل به عزيز، ولا يُسترق به حرّ، والسلام».

فلما قرأ الإمام كتاب معاوية قال: «العجب لمعاوية وكتابه!».

ثم كتب إلى معاوية: «أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على

بعض. فإنا وإياك منها في غاية لم نبلغها. وإني لو قتلت في ذات الله وحييت، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله. وأما قولك: إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإني ما نقصت عقلي، ولا ندمت على فعلي. فأما طلبك الشام، فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فإنك لست أمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل، فلعمري إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا المحق كالمبطل، وفي أيدينا بعدُ فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز، وأعززنا بها الذليل».

فلما قرأ معاوية كتاب الإمام، أخفاه.

ثم أن عمرو بن العاص ألح على معاوية حتى أطلعه على كتاب الإمام، فأثنى عمرو عليه، وأغضب ذلك معاوية.. فقال لعمرو عاتباً: «أردت تسفيه رأيي وإعظام عليٍّ! وقد فضحك» وكان عمرو يعظم علياً لأنه بعد أن صرعه لم يجهز عليه بل أشاح عنه بوجهه وتركه ينجو. فقال عمرو: «أما إعظامي علياً فإنك بعظمته أشد معرفة مني، ولكنك تطوي ما تعرفه وأنا أنشره، وأما أنه فضحني يوم صارعته، فلم يفتضح امرؤ لقي أبا الحسن».

خرج علي، ومعاوية، كل واحد منهما على رأس جنده، وبرز من جند معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب يقود أربعة آلاف بعمائم خضراء يطالبون بدم عثمان، فنادى الإمام: «ويحك يا بن عمر، علام تقاتلني، والله لو كان أبوك حياً ما قاتلني» قال عبيد الله: «أطالب بدم عثمان» فقال الإمام: «أنت تطلب بدم عثمان والله يطلبك بدم الهرمزان!».

وأمر الإمام صاحبه الأشتر وفرسانه أن يتصدوا لعبيد الله بن عمر وفرسانه. . وكان عبيد الله بن عمر قد تعود حين يخرج إلى القتال أن يأمر نساءه فيشددن عليه السلاح، ويأخذ إحداهن على راحلتها من خلفه لترى بلاءه في القتال. فلما خرج ذلك اليوم طلب من امرأته بنت هانيء أن تخرج خلفه وقال لها: «إني عبأت اليوم لقومك وإني لأرجو أن أربط في كل وتد من أوتاد خيمتي سيداً منهم!» وكان قومها في جند الإمام. فقالت: «ما أبغض إلا أن تقاتلهم» قال: «ولم؟» قالت: «لأنه لم يتوجه إليهم صنديد في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه صعَرٌ (غرور) إلا أبادوه، وأخاف أن يقتلوك! وكأني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك» فرماها بقوس فشج رأسها وقال: «ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك».

وخرج إلى القتال، وخلفه امرأتان له على راحلتين أخرجهما معه لتشهدا بطولته.

ولكنه لم يلبث أن بارز الأشتر، فصرعه الأشتر، فلما وجدته امرأتاه مجندلاً أكثرتا العويل عليه.

ثم أن نساءه ذهبن إلى معاوية ليرسل في طلب جيفته، فأرسل يعرض فيها عشرة آلاف على قوم أم عبيد الله، وسألوا الإمام علياً، فقال لهم: «لا يحل بيعها».

وجاءتهم امرأته بنت هانيء فقالت: «أنا بنت هانيء وهذا زوجي القاطع الظالم وقد حذرته ما صار إليه فهبوا لي جيفته» فدفعوا إليها جيفته. وكانت مربوطة في وتد خيمته!!

ورأى معاوية تفوق أهل العراق على أهل الشام، فأنب أصحاب رايات الشام، وأغلظ لهم. . وهددهم وتوعدهم وقال لأكبرهم: «لقد هممت أن أولي قومك من هو خير منك مقدماً وأنصح منك دنيا» فقال له

الرجل مغضباً: «والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه، وحدت عن الحق وأنا أبصره، وما وفقت لرشد حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله ﷺ وأول مؤمن به! ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية، ولكن قد بذلنا لك الأمر، ولا بد من إتمامه غياً كان أو رشداً، وحاشا أن يكون رشداً. وسنقاتل عن تين الغوطة (موضع بالشام) وزيتونها، إذ حُرِمنا ثمار الجنة وأنهارها».

واندفع الرجل براية قومه يقاتل جيش علي.. وأخذته الحمية، فأحسن البلاء وحمى وطيس المعركة من جديد...

وخلال المعركة رأى الإمام ولديه الحسن والحسين يخوضان غمراتها، فدعا الله أن يحفظهما.. وقال لأحد أصحابه: «إني أضن بهذين على الموت، لئلا ينقطع بعدهما نسل رسول الله ﷺ».

ولاحظ الإمام أن معاوية يقف على التل تحت الترس الذهبي، يتفقد طريق مؤخرته إلى الشام، لينسحب إذا ما لم يجد حيلة إلا الانسحاب..

وشاهد الإمام تدفق الإمدادات والميرة من الشام إلى مؤخرة جيش معاوية، فنظر الإمام في الأمر، فوجد أن معاوية كلما حوصر ونفدت منه الميرة جاءه مدد ضخم من الشام، فالطريق إليها مفتوح.. وإذن فلا سبيل إلى الانتصار الحاسم على جيش الشام ومعاوية ما بقي طريق الميرة والإمداد مفتوحاً ومؤمَّناً.

وأصدر الإمام عليٌّ أمره إلى أحد أصحابه: «سر في بعض هذه الخيل فاقطع الميرة عن معاوية، ولا تقتل إلا من يحل لك قتله، وضع السيف موضعه».

وبلغ ذلك معاوية، فدعا أقوى أمراء جيشه وأمره أن يخرج بفرسانه

لتأمين الطريق، ولكنه عاد منهزماً بعد حين، وقطع الإمام الميرة عن جيش الشام.

فجمع معاوية رؤوس جند الشام وأصحابه وقال لهم: «أتاني خبر من ناحية من نواحيَّ فيه أمر شديد» فقالوا جميعاً: «يا أمير المؤمنين ليس لنا رأي في شيء مما أتاك، إنما علينا السمع والطاعة».

وأراد الإمام عليٌّ أن يعرف رأي أصحابه من أهل العراق، فقال: «أيها الناس، إنه أتاني خبر من ناحية من نواحيّ» فقال بعضهم: «الرأي لك» وقال آخرون: «يا أمير المؤمنين، إن لنا في كل أمر رأياً، فما أتاك فأطلعنا عليه حتى نشير عليك» فقال علي: «ظفر والله ابن هند باجتماع أهل الشام له واختلافكم عليَّ، والله ليغلبن باطله حقكم، إنما أتاني أن بعض خيلنا قطعت الميرة عن معاوية، وظفرت بفرسانه، وأتى معاوية نبأ هزيمة أصحابه فقال: يا أهل الشام إني أتاني أمر شديد» فقلدوه أمرهم، واختلفتم عَليَّ!».

فقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري فقال: «أما والله يا أمير المؤمنين لنحن كنا أولى بالتسليم لك من أهل الشام لمعاوية..».

وشعر معاوية أن سيحاط به وبجند الشام بعد أن قطع الإمام طريق الميرة فبعث أبا هريرة، والنعمان بن بشير الأنصاري إلى عليٍّ فقالا له: «يا أبا الحسن إن الله قد جعل لك في الإسلام فضلاً وشرفاً، وقد بعثنا معاوية يسألك أمراً تسكن به هذه الحرب، ويصلح له به ذات البين: أن تدفع إليه قتلة عثمان، فيقتلهم به، ويجمع الله تعالى أمرك وأمره، ويصلح بينكم، وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة».

فعجب الإمام لهذا الكلام!

أما يزال معاوية يطالب بقتلة عثمان، ويرى نفسه وليَّ الدم وله الحق في القصاص دون الإمام وليّ أمر الأمة؟ وعجب أن يحمل إليه أبو

هريرة والنعمان بن بشير الأنصاري مثل هذا الكلام..!!

فقال الإمام لهما: «دعا هذا الكلام».

ثم اتجه إلى النعمان قائلاً: «حدِّثني عنك يا نعمان، هل أنت أهدى قومك سبيلاً؟ قال: «لا». قال الإمام: «فكل قومك الأنصار قد اتبعني إلا شذاذاً منهم ثلاثة أو أربعة، أتكون أنت من الشذاذ؟!» قال النعمان: «إنما جئت لأكون معك وألزمك. وكان معاوية قد سألني أن أؤدي هذا الكلام، ورجوت أن يكون لي موقف أجتمع فيه معك، وطمعت أن يجري الله تعالى بينكما صلحاً، فإذا كان رأيك غير ذلك فأنا ملازمك وكائن معك».

وكان بعض الناس في صفِّين يسعى بين المعسكرين، وكانت الحرب إذا هدأت عشاء يتسامر أهل المعسكرين معاً، فيتعاتبون، ولقد يرق الواحد منهم للآخر، حتى إذا أصبحوا واستعر القتال بينهم كره بعضهم بعضاً...

وكان ممن يترددون بين المعسكرين في صفِّين، نفر اعتزلوا القتال، وسعوا في الصلح، فكانوا إذا نودي للصلاة يصلون خلف عليٍّ، فإذا جاء وقت الطعام أو النوم، ذهبوا إلى معاوية حيث الطعام ألذ والفراش ألين، وكانوا إذا سئلوا في ذلك قالوا: «الصلاة وراء علي كرَّم الله وجهه أتقى وأزكى، ولكن طعام معاوية أشهى».

ولقد أقام النعمان عند عليٍّ، ولكنه سئم المقام إذ لم يطق تقشف الإمام، ولا خشونة العيش مع أتباعه المساكين، ففر إلى معاوية!

وسمع عبد الرحمن بن عثمان وهو معتزل في حمص، أن معاوية أرسل إلى عليٍّ رجلين آخرين، فقال لرسولي معاوية لما لقيهما: «العجب منكما! أتأتيان علياً وتطلبان منه قتلة عثمان؟! وأعجب من ذلك قولكما لعلي اجعلها شورى واخلعها من عنقك!! وإنكما لتعلمان أن من رضي

بعلي خير ممن كرهه، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه، ثم صرتما رسولي رجل من الطلقاء، لا تحل له الخلافة!».

فلما علم معاوية بما قاله عبد الرحمن بن عثمان، أوشك أن يرسل إليه من يقتله، ولكنه خاف غضب قومه!

وسمع فتى من همدان عمرو بن العاص يحرض على الإمام، فقال: «يا عمرو إن أشياخنا سمعوا رسول الله ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه. فحق ذلك أم باطل؟» فقال عمرو: «حق، وأنا أزيدك أنه ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ له مناقب مثل علي، ولكنه أفسدها بأمره في عثمان» قال الفتى منكراً: «هل أمر بالقتل أو قتل؟» قال عمرو: «لا. ولكنه نوى ومنع» قال الفتى: «فهل بايعه الناس؟» قال عمرو: «نعم» قال: «فما أخرجك عن بيعته» قال: «اتهامي إياه في عثمان» قال الفتى: «فأنت أيضاً قد اتهمت!» قال: «صدقت. إني خرجت إلى فلسطين».

فعاد الفتى إلى قومه همدان، يقول: «إن أتينا أقواماً أخذنا الحجة عليهم من أفواههم».

وزحف علي بجيشه، واشتجرت القنا، واشتبكت الرماح، وتقارعت السيوف والحراب، فما أحد يسمع شيئاً إلا وقع الحديد على الحديد، وما ترى إلا أشعة الشمس تسطع على الأسنة، ودماء المسلمين تختلط بالنقع المثار...

ورأى علي ابنه الحسن في حومة الوغى فقال: «ابعدوا عني هذا الغلام لا يهدني».

كان الإمام قد نهى بنيه، وبني عمه عن الدعوة إلى المبارزة، فكان إذا دعي أحد منهم بارز الإمام عنه.. هكذا بارز عن ابن عمه عبد الله بن عباس وصرع متحديه، وعرض أن يبارز عن ابنه محمد بن الحنفية، ولكن متحديه ولى..

إنه كرَّم الله وجهه يحمي العشيرة ولا يدع العشيرة تحميه.. كما ضن بعدد من كبار الصحابة من غير المقاتلين من أهل الزهادة والنسك فمنعهم من القتال، وقاتل هو عنهم، واكتفى بصحبتهم يعظون المقاتلين، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمجدون الجهاد في سبيل الله.

ومعاوية بن أبي سفيان يرقب المعركة من التل، والترس المذهب يحميه من الشمس..

معاوية لا يخوض الحرب بنفسه بعد أن انهزم المرة بعد المرة أمام عبد الله بن بديل، ثم أمام الأشتر، واكتفى بأن يوجه المقاتلين، وترك عمرو بن العاص يقود المعارك.

ولكن رجال معاوية ضاقوا بالأمر، وطالبوه أن يقودهم. وأن يحارب بنفسه كعليٍّ..

ورأى معاوية بطش جيش العراق بجيش الشام فقال لرجاله: «لا مرد لأمر الله. إنما لقيتم كباش أهل العراق، وقتلتم وقتل منكم! وما لكم عَليَّ من حجة فقد عبأت نفسي لقتال سعيد بن قيس».

وخرج معاوية يقود رجاله ليلقى سعيد بن قيس في همدان، ففر الرجال عن معاوية، وهزمهم سعيد بن قيس، وفر معاوية..

نادى الرجال الفارين، وفيهم عمرو، فوبخهم.. وقال لعمرو: «إنك لجبان»، فقال له عمرو: «فهلا برزت إلى عليٍّ إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم؟!».

ولكنهما كانا لا يصبران على خصومة، وإلا نقضا غزلهما أنكاثاً.

فسرعان ما تصالحا، فطلب معاوية من عمرو أن يقدم أقوى قبائل الشام واسمها (عكّ) لتقابل همدان، فخاطبهم عمرو: «يا معشر عك إن علياً قد عرف أنكم خير أهل الشام فعبأ لكم خير أهل العراق همدان، فاصبروا وهبوا لي جماجمكم ساعة من نهار، وقد بلغ الحق مقطعه»

فقال زعيم عك: «أمهلوني حتى آتي معاوية» فأتى العَكّي معاوية فقال له: «اجعل لنا فريضة ألفي رجل في ألفين، ومن هلك فابن عمه مكانه» قال معاوية: «ذلك لك».

فتقاتلوا حتى انصرفت عك، فانصرفت همدان، فقال عمرو لمعاوية: «لقد لقيت أسد أسدا، ولم أر كاليوم قط، لو أن معك حياً كعك، أو مع علي حيا كهمدان، لكان الفناء!».

وشاع في القبائل أن قبيلة عك لم تحارب بهذه البسالة إلا بعد أن نالت ما اشترطته على معاوية من العطاء الوفير..

وعجب معاوية وهو يتابع شجاعة رجال عليٍّ!. ما الذي يثير فيهم هذه الشجاعة كلها، وعطاؤهم قليل؟!

كيف استطاع هؤلاء المساكين من أتباع علي بأثوابهم الخشنة ووجوههم الذابلة أن يقهروا أثرياء الشام في جاههم وترفهم؟!

ورأى معاوية أنه ما من سبيل على جيش العراق إلا بإغراء مساكينهم بالمال.. إلى أي مدى يستطيع هؤلاء المساكين القتال تحت راية علي متحملين شظف العيش.. ألا يغبطون جند الشام على طلاوة منظرهم، وطراوة حياتهم، وترفهم؟! كم منهم يستطيع أن يتحمل آلام الزهد والنسك، وكم من الأيام يحتملون؟!

وذاع في جند العراق أن معاوية يعد من ينضم إليه منهم بالغنى والجاه..

وجاء إلى عليٍّ فارس من همدان فقال له: «يا أمير المؤمنين إن أقواماً طلبوا من معاوية العطاء فأغدق عليهم، فباعوا الدين بالدنيا. وإنا رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبك من معاوية. يا أمير المؤمنين.. والله لآخرتنا خير من دنياهم، ولعراقنا خير من شامهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم، فاستفتحنا بالحرب، وثق منا بالنصر، واحملنا على الموت».

وساء علياً ما بلغه عن معاوية وأهل العراق، ولكنه أثنى أطيب الثناء على فارس همدان.. فلما بلغ معاوية ذلك، عاد يقول: «والله لأستميلن بالأموال ثقات علي، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته».

ويالله ما كان أمرَّ الصراع بين دنيا معاوية وآخرة علي!!

اشرأبت أطماع الذين مع معاوية إلى ما يغنمون، وشرعوا يحاربون دفاعاً عن أحلامهم بالثراء، وكل ما يمكن أن يمنحه المال من سطوة وهيبة وتشبث بمتاع الحياة الدنيا!

وانفض المتقون والورعون والمساكين من أصحاب علي وأتباعه، بأشواقهم الجليلة إلى العدل، وحرصهم النبيل على أن تنتصر الحقيقة!

اندفعوا جميعاً بالطاقة الخارقة التي يمنحها صدق الإيمان، وهم يرون على الأفق الجنة التي وعدها الله عباده المتقين الذين يقاتلون في سبيله ويستشهدون، وإذ هم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون!

انقضوا بكل ما يصبه عشق الحقيقة في أجلاد أهل الورع من بأس، وما يثيره في عروقهم من جسارة واستهانة بالموت.

وحملوا على الحريصين على الحياة من رجال معاوية.. واستعر القتال، واستَحَرّ القتل في أهل الشام، فتقهقروا حتى ألحقتهم همدان بقبة معاوية!

جزع معاوية جزعاً شديداً، وقال: «ما لقيت من همدان!».

وقال علي: «يا معشر همدان أنتم درعي ورمحي، يا همدان ما أجبتم إلا الله ولا أجبتم غيره» فقال زعيمهم سعيد بن قيس: «أجبنا الله وأجبناك، ونصرنا نبي الله ﷺ في قبره، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارم بنا حيث أحببت».

فقال الإمام يثني على همدان:

ولو كنت بواباً على باب جنة   لقلت لهمدان أدخلي بسلام

اضطربت صفوف أهل الشام فإذا الأنصار قد فعلوا بهم الأفاعيل فأرسل معاوية إلى النعمان بن بشير الأنصاري فقال له: «قد والله غمني ما لقيت من الأنصار، صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال، حتى والله جبنوا أصحابي، الشجاع والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا قتلته الأنصار، أما والله لألقينهم بحدي وحديدي، ولأعبئن لكل فارس منهم فارساً ينشب في حلقه، ثم لأرمينهم بأعدادهم من قريش!.. يقولون نحن الأنصار!؟ قد والله آووا ونصروا، ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم».

وأنتهى كلام معاوية إلى الأنصار، وكانوا جميعاً في جيش علي لم يشذ عنهم إلا النعمان وصاحبان له.. فوقف قائدهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري يخطبهم: «لعمري لئن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه بالأمس، وإن وترتموه في الإسلام فقد وترتموه في الشرك، وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه.. فجدوا اليوم جداً تنسونه به ما كان أمس، وجدوا غداً جداً تنسونه به ما كان اليوم، وأنتم اليوم مع اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل، والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب».

ثم حمل قيس بن سعد بفرسانه على جماعة من أهل الشام، رأى عليهم رجلاً يشبه معاوية، فعمد إليه سعد فصرعه بسيفه، فإذا هو رجل غير معاوية!

ورأى ابن الصباح وهو من رؤساء أهل الشام فداحة الخسائر في الرجال، فوقف يخطب أصحابه: «والله إني يا أهل الشام لأظن أن الله قد آذن بفنائكم، ويحكم! خلوا بين علي ومعاوية فليقتتلا، فأيهما قتل صاحبه ملنا معه».

فلما علم عليٌّ بذلك قال: «والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام أنا بها أشد سروراً من هذه».

أما معاوية فإنه لما سمع ابن الصباح، اندس في آخر الصفوف، واختبأ، وقال لمن حوله: «إني لأظن ابن الصباح قد أصيب في عقله!» فقالوا له: «والله إنه لأفضلنا ديناً ورأياً وبأساً، ولكنك تكره مبارزة علي».

حتى إذا كان اليوم العاشر من صفر سنة سبع وثلاثين أعلن الإمام أنه زاحف اليوم بجميع من معه على معاوية وجميع من معه..

وكان اليوم حاراً يتلظى وهجه.. وسطعت الشمس على الخوذ والدروع تخطف الأبصار، وتقارعت الأسنة، وغاصت الحراب في مهج المسلمين.

.... وخرج رجل من أهل الشام ينادي بين الصفين: «يا أبا الحسن. يا علي، أبرز إليَّ» فبرز إليه علي فقال: «يا علي! إن لك قدماً في الإسلام والهجرة. فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء؟» قال له علي: «وما ذاك؟» قال: «ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق، ونرجع نحن إلى شامنا فتخلي بيننا وبين شامنا». فقال له علي: «لقد عرفت. إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة. ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينيه، فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ. إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يُعْصَى في الأرض وهم سكوت مذعنون، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون على نفسي من معالجة الأغلال في جهنم».

فرجع الشامي إلى الصف وهو يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وأسر معاوية بعض أصحاب الإمام، فقال عمرو لمعاوية:

«اقتلهم»، فقال له أحد الأسرى، وهو من قبيلة أود: «لا تقتلني فإنك خالي».

قال معاوية: «من أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أود مصاهرة؟» قال الأودي: «إن أخبرتك فهو أماني عندك؟» قال معاوية: «نعم» قال: «أليست أختك أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي؟» قال: «بلى» قال: «أليست هي أم المؤمنين؟ فأنا ابنها، وأنت أخوها، فأنت خالي» فأعجب معاوية بدهاء الأودي، وسر بحسن حيلته، وصفق طرباً، وقال: «ماله لله أبوه!؟ أما كان في هؤلاء الأسرى من يفطن لها غيره؟» وأطلقه.

فأشار عمرو عليه أن يقتل الأسرى الآخرين.

وإن معاوية ليوشك أن يقتل الأسرى من أصحاب علي، إذ بأصحاب معاوية الذين كان قد أسرهم علي يعودون، فيشيدون بحسن المعاملة التي لقوها، ويحملون إلى معاوية ومن معه فتوى الإمام: «إن أسير أهل القبلة لا يفادى، ولا يقتل».

فأطلق معاوية الأسرى من أصحاب علي، وهو يقول لعمرو مؤنباً: «يا عمرو، لو أطعناك في هؤلاء الأسرى لوقعنا في قبيح من الأمر».

وخلال احتدام المعركة حمل هشام ين عتبة في عدد من القراء على أهل الشام، ولكنهم صبروا واستبسلوا استبسال من يحرص على الموت لتوهب له الحياة، لا من يقاتل عن زخرف الدنيا وزينتها!

ورأى هشام القراء قد فتنوا بصمود أهل الشام، فقال لهم: «لا يهولنكم ما ترون من صبر هذا الحي من الشام، فوالله ما هي إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها. وهو صبر عرفته العرب في جاهليتها! والله إنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق».

ثم اندفع بمن معه من القراء، وهم في دروعهم لا يبين منهم غير العيون، فأثخنوا أهل الشام، وتقهقروا، إلا فتى منهم وقف مغيظاً يشتم ويلعن علياً وأصحاب علي، فقال له هشام: «يا هذا اتق الله فإنه سائلك

عن هذا الموقف وما أردت به» فقال الشاب وهو يرتعد من الحنق: «فإني قاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي وأنتم لا تصلون، وصاحبكم قتل خليفتنا!» فقال هشام في تؤدة حانية على الفتى: «يا بني! ما أنت وعثمان؟ إن الذين اختلفوا معه كانوا من الصحابة وأبنائهم وقراء الناس وهم أهل العلم والدين، فدع هذا فما أهمل هذا الدين طرفة عين، وأما قولك أن صاحبنا لا يصلي، فإنه أول من صلى، وأفقه خلق الله في دين الله وأولى بالرسول ﷺ وأما كل من ترى معي فكلهم قارىء كتاب الله لا ينام الليل تهجداً، فلا يغرنك هؤلاء الأشقياء ولا يضلوك!».

وسكت الفتى برهة يتفكر في كلام هشام، وهزته نبرته الأبوية الحانية الصادقة التي تنبعث من قلبه كأنها نداء هداية!.. أهكذا هم أصحاب علي!؟.. وأخذ الفتى يلوم نفسه، كيف صدق ما أفرغوه في روعة، أعلي يقتل عثمان؟! أعلي لا يصلي؟! فمن يصلي إذن!!

وأغمد الفتى سيفه، وتقدم إلى هشام كابن ضال يريد أن يعود إلى أحضان أهله، وقال ودموع الندم تبلل صوته: «فهل لي من توبة؟!» قال: «نعم.. تب إلى الله يتب عليك، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات».

فلما عاد الفتى يجادل إخوانه ويدعوهم إلى علي، قال شيخ منهم: «خدعك العراقي». ولكن الفتى انضم إلى علي وضم إليه بعض إخوانه.

وحمى وطيس المعركة، وكاد الناس يفني بعضهم بعضاً.

قال أحد الذين شهدوا ذلك اليوم: «زحف الناس بعضهم إلى بعض، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت، ثم مشى الناس بعضهم إلى بعض، بالسيف وعمد الحديد، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض، لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً، وثار القتام، وضلت

الألوية والرايات، فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنيت، والأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها. فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل لم يصلوا لله صلاة إلا إيماء، فلم يزل الأشتر يفعل ذلك بالناس حتى أصبح والمعركة خلف ظهره، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة، وهي ليلة (الهرير). وكان الأشتر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وأمير المؤمنين في المقدمة على القلب.

ثم استمر القتال من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضحى، والأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام: «ازحفوا قيد رمحي هذا» فإذا فعلوا قال: «ازحفوا قاب هذا القوس». فإذا فعلوا سألهم الإقدام مثل ذلك، فتقدموا وتقدموا حتى مل الناس الإقدام.. فقال: «أعيذكم بالله»...

ثم خرج يسير في الكتائب ويقول: «ألا من يشري نفسه لله، ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله؟ فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه...

ثم أنه صاح في أصحابه: «شدوا شدة ترضون بها الله وتعزون بها الدين» وشدَّ معه أصحابه يضربون أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم. ثم أنهم قاتلوا عند العسكر قتالاً شديداً فقتل صاحب راية الأشتر.

وأخذ عليٌّ - لما رأى الظفر قد جاء من قبل الأشتر - يمده بالرجال...

هدأ القتال قبيل منتصف الليل المترع بالدم، ولا صوت في الليل إلا حشرجة الموتى، وأنات الجرحى!

ووقف الإمام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم، ولم يبق منه إلا آخر نفس. وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا غاد إليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عزّ وجلّ بسيفي هذا.

وأصاب أهل الشام فزع شديد من وعيد الإمام.

أما معاوية فقد روعه انتصار علي، وخشي الهلاك، وهم بالفرار فلاذ بعمرو يستشيره، ويستنفر مكره ودهاءه، ويستغيث حيلته، فنصحه عمرو بالصبر، وكان معاوية يضع رجله في ركاب فرسه ليفر وينجو بنفسه.. فنزل وقال: «يا عمرو. إنما هي الليلة حتى يغدو علينا بالفيصل! فما ترى؟».

قال عمرو وقد برحت به الهزيمة: «ن رجالك لا يقومون لرجاله. ولست مثله! هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره. أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم».

فقال معاوية وجسده البدين المترهل يرتعد في هلع: «فما ترى؟ فما ترى؟ فما ترى يا عمرو؟».

قال عمرو في أناة، وقد استمسك بدنه النحيل القصير، والتمعت عيناه: «ألق إلى عليّ وأصحابه أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا!».

فنزل معاوية من على ظهر فرسه وقال، قد فرغ صبره: «أي أمر؟ عجل» قال عمرو في هدوء وثبات وهو يبتسم، إذ معاوية يتزايل في أغوار نفسه: «يا معاوية، هون عليك! ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم. فإني لم أزل أؤخر هذا

الأمر لوقت حاجتك إليه. فإن وجدت فيهم من يقبل حكم القرآن، وجدت فيهم من لا يقبل، فيكون خلاف بينهم فيفشلوا وتذهب ريحهم، فإن قبلوا جميعاً منعنا عناء هذه الحرب إلى حين».

فأمر معاوية المنادين أن يدعوا إلى الاحتكام لكتاب الله.

وارتفعت من أهل الشام صرخات شقت الليل الدامي حزينة فاجعة مروعة تنادي: «يا أبا الحسن، من لذرارينا من الروم إن فنينا. الله الله؟ البقيا! كتاب الله بيننا وبينكم».

حتى إذا أصبح الصباح كانت المصاحف قد عقدت إلى الرماح، ورفعت على السيوف، ووديان صفين تدوي بالنداء: «يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم. يا أبا الحسن لا ترد كتاب الله، فإنك أولى به منا، وأحق من أخذ به».

وتقدم رجال من أهل الشام تحت الرماح التي ربطت إليها المصاحف فقال خطيبهم: «يا أهل العراق. يا معشر العرب. الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إن فنيتم؟! الله الله في دينكم، هذا كتاب الله بيننا وبينكم».

فصاح الإمام في رجاله: «اللهم إنك تعلم أنهم ما كتاب الله يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكم الحق المبين».

فقام أحد القراء المتزمتين المتطرفين من أصحاب علي، فقال: «يا أمير المؤمنين. إنهم يدعونك إلى كتاب الله وأنت أولى به منهم!».

غير أن أصواتاً ارتفعت من معسكر علي تطالب بالاستمرار في الحرب حتى يتمم الله لهم النصر على أهل الشام.

فوقف الأشعث بن قيس من أصحاب علي، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «قد رأيتم يا معشر المسلمين ما كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء

الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن نحن تواقفنا غداً أنه لفناء العرب وضيعة الحرمات. أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف. ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا».

فقام رجال من أصحاب علي يطالبون الإمام بالاستمرار في القتال وقالوا: «يا أمير المؤمنين إنا والله ما أجبناك ولا نصرناك عصبية على الباطل، ولا أجبنا إلا الله عزّ وجلّ، ولا طلبنا إلا الحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لاستشرى فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي».

كانوا قد ذاقوا حلاوة النصر، فتحاضُّوا على الاستمرار في القتال حتى يتم الله عليهم نعمة النصر.

فوقف الأشعث مغضباً فقال: «يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني، فأجب القوم لكتاب الله، فإنك أحق به منهم، وقد أحب القوم البقاء، وكرهوا القتال».

فقال علي: «إن هذا أمر فينظر فيه».

واشتجر الخلاف بين أصحاب الإمام، فتقدم واحد منهم فقال: «أيها الناس، إن قتلانا لشهداء وإن أحياءنا لأبرار. وإن علياً لعلى بينة من ربه. ما أحدث إلا الإنصاف وكل محق منصف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هلك».

وقام آخر من أصحاب الإمام فقال: «أيها الناس. إنا كنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم. ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله. وإن علياً ليس بالراجع الناكص، ولا الشاك الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد

أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلا في الموادعة».

وارتفع صوت من معسكر الشام: «بيننا وبينكم كتاب الله. قال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾** فصاح القراء من أصحاب علي: «لا نعرض عن كتاب الله».

فقام علي كرَّم الله وجهه، فقال: «عباد الله إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي سرح وغيرهم ليسوا بأصحاب قرآن، وأنا أعرف بهم منكم. صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال. إنها كلمة حق يراد بها باطل. إنهم والله ما رفعوا المصاحف لأنهم يعرفونها ويعملون بها! ولكنها الخديعة والدهاء والمكيدة! أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا».

ولكن أصحابه عادوا للجدال، وأغلظ بعضهم لبعض، وإنه لفي آلامه يعتصره الحزن على هذا الشقاق، ويعذبه انخداع بعض رجاله بمكيدة معاوية وعمرو، وإنه يبحث بعينيه عن شيوخ القراء من رجاله، عسى شيوخهم أن يردوا من سئم الجهاد من أصحابه إلى الهدى، إذ بعدة آلاف من شباب القراء قد أقبلوا: السيوف على العواتق، والدروع على الصدور، جباههم المسودة فيها النتوء من كثرة السجود ومس الحصير، فنادوا الإمام باسمه، ولم ينادوه: «يا أمير المؤمنين»..

قالوا في جفاء وغلظة ونبرة متحدية متمردة: «يا علي أجب القوم إلى كتاب الله» فقال لهم: «ويحكم! أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون».

فتنحت عصابة من رؤساء القراء عنه، وأخذوا يتحسسون رؤوسهم الحليقة وجباههم السوداء، والإمام علي يتأمل وجوههم المتوترة المتجهمة. ما بالهم!؟ وأين رؤساؤهم الذين كان نورهم يضيء في وجوههم ويسعى بين أيديهم!؟

واأسفا عليهم!!! استشهدوا جميعاً... ولم يعد إلا هؤلاء بنظراتهم الزائغة الكابية!!

عاد رؤساء القراء فقالوا للإمام: «يا علي أجب إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم (أي سلمناك لمعاوية وأهل الشام)، أو نفعل بك كما صنع بابن عفان، إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عزّ وجلّ إذا دعينا إليه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها».

وجاشت نفس الإمام، لقد تناهت الأمور، وجرت إلى أقصى المدى!

إنه اليوم ليقود المساكين والمتقين ليجاهد بهم أهل الدنيا الحريصين عليها، ويجاهد معهم هؤلاء الغلاة المتطرفين الذين أغلقوا عقولهم عن الحق فهم لا يهتدون!

لقد خولوا لأنفسهم حق فهم القرآن كما يشاؤون، وما يملكون أدوات الفهم الحق، وما يتقنون غير العكوف على ظاهر النصوص!!..

ذهب علمهم بموت أشياخهم، وما عاد لهم إلا الشطط، وما يغرهم به الجهل عن أنفسهم، حتى ليبيحوا لأنفسهم أن يحكموا بالكفر على أئمة الهدى..

أيكون هؤلاء هم الذين أنبأ الرسولﷺ بهم، وحذر منهم.. قال عليه الصلاة والسلام: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة، فبيناهم كذلك تمرق منهم مارقة، تقتلهم أولى الفئتين بالحق!».. أيكون هؤلاء القراء المتبجحون هم أولئك المارقون!!

أهم الذين قالﷺ فيهم: (يخرج منكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)... وقال: يخرجون على حين فرقة من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله!..

أيكون هؤلاء المتمردون المارقون هم الخوارج الذين تنبأ بهم النبيﷺ ووصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. وآيتهم أن رؤوسهم محلقة!

وروع أصحاب الإمام إذ رأوا المتشددين قد أحاطوا بالإمام، يعربدون عليه، وحاولوا أن يكفوهم عنه، ولكنهم عادوا في توتر وتحد يلحون على الإمام ـ مهددين ـ أن يجيب دعوة معاوية إلى كتاب الله!!

قال الإمام: «فاحفظوا عني نهيي إياكم، واحفظوا مقالتكم لي، فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم».

فقام رجل من القراء فصاح: «يا أمير المؤمنين اتق الله، فإنك قد أعطيت العهد، وأخذته منا لنفنين أنفسنا أو لنفنين عدونا، أو يفيء إلى أمر الله، وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله، والذل في الدنيا، فانهض إلى عدونا، فلنحاكمه إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين، لا حكومة للناس».

ها هم أولاء القراء يختلفون، غلاتهم يهددون علياً إن لم يستجب لما يطلبه معاوية من تحكيم كتاب الله، وآخرون منهم يأبون إلا الحرب، وكله يستطيل على الإمام ويصول!!

أما أصحاب الإمام الآخرون، فقد اختلفوا على التحكيم أيقبلون أم يرفضون!!

وسر معاوية بما حدث بين أصحاب علي، وأثنى على عمرو...

ولكن أغلب أصحاب الإمام مالوا إلى الموادعة...

وسأله أحد أصحابه: «ما رأي أمير المؤمنين؟ قال: «لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب. قد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم فلم تترك وأنها فيكم أنكى وأنهك. ألا إني كنت أمس أميراً للمؤمنين، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون».

وسكت وأخذ يتأمل هؤلاء القراء ذوي الجباه السوداء...

ويحهم ما بالهم لا يهتمون إلا بظواهر الأمور؟ ظاهر النص في القرآن، وظاهر أبدانهم.. ما هذه الثياب الرثة؟! ما هذه المرقعات؟.. أحسبوا أن هذه المظاهر هي النسك والزهادة.. لكم علمت أشياخهم وخيارهم أن الزهد ينبع من القلب، وليس هو ما يعبر عنه الثوب! لقد علمتهم أن الدين متين وأن المساكين والفقراء ليسوا هم الذين يلبسون المرقعات، أو يهملون نظافة أبدانهم، بل هم من تطهرت قلوبهم وأبدانهم، وأحسوا أنهم فقراء إلى الله أغنياء عما عداه!! هم الذين جعلوا مكارم الأخلاق قوام الحياة، وطريقهم الوضيء إلى محبة الله!

وقطعوا تأملات الإمام ونادوه: «يا علي ابعث إلى الأشتر ليأتيك».

وكان مصعب بن الزبير مع الإمام حينئذٍ فروى:

«كنت عنده حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه علي يزيد بن هانىء: أن ائتني. فأتاه فبلغه فقال الأشتر: «ائت أمير المؤمنين فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي. إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني» فرجع يزيد بن هانىء إلى علي فأخبره. فما هو أن انتهى

إلينا حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام. فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم. قال: «أرأيتموني ساررت رسولي إليه؟! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟ قالوا: «فابعث إليه فليأتك، وإلا فوالله اعتزلناك». قال: «ويحك يا يزيد بن هانيء. قل للأشتر أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت. فأتاه فأخبره، فقال الأشتر: ألرفع المصاحف؟! قال: نعم. قال: أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة! إنها مشورة ابن النابغة ـ يعني ابن العاص ـ ثم قال ليزيد: ويحك! ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟! فقال له يزيد: أتحب أنك ظفرت ههنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله! لا والله ما أحب ذلك. قال: فإنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كعثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك. فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح فقال: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم على القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟! قد والله تركوا ما أمر الله به فيها وتركوا سنة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم أمهلوني فُواقا (ما بين الحلبتين للناقة) فإني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: فأمهلوني عدوة الفرس فإني قد طمعت في النصر. قالوا: لا، إذن ندخل معك في خطيئتك. قال: فحدثوني عنكم ـ وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم ـ متى كنتم محقين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون؟ أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقون؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيراً منكم في النار! قالوا: دعنا منك يا أشتر. قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله. إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا. قال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم. يا أصحاب الجباه

السود، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحاً لكم، ما أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون. فسبوه وسبهم، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم، فصاح بهم علي فكفوا. وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين أحمل الصف على الصف يصرع القوم فتصايحوا: إن علياً أمير المؤمنين قد قبل الحكومة وقد رضي بحكم القرآن، ولم يسعه إلا ذلك. قال الأشتر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي، فقد رضيت بما رضي أمير المؤمنين. فأقبل الناس يقولون قد رضي أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين ساكن لا يبض (لا ينبس) بكلمة، مطرق إلى الأرض.

فقطع الأشعث الصمت بقوله: «يا أمير المؤمنين إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد» قال الإمام في انكسار وسأم: «ذلك إليك، فافعل إن شئت».

فلما جاء الأشعث إلى معاوية رحب به! رب يوم أراد فيه أن يصطنعه وأرسل إليه أخاه عتبة بن أبي سفيان، فتعالى عليه، واستطال!! وها هو ذا الآن عندك يا معاوية! قال معاوية: «نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله وإلى ما أمر به في كتابه، تبعثون رجلاً منكم ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد أن يعملا بما في كتاب الله، وننقاد جميعاً لما اتفقا عليه من حكم الله».

واستبقى معاوية ضيفه الأشعث، وأدخله إلى سرادقه، وأكرمه ولم يدعه ينصرف إلى علي، حتى كان قد استماله، وقد عادت نفسه تهجس بأنه سيجذب ثقات علي إليه، وسيغلب بدنياه دين علي!!

ثم أرسل معاوية إلى علي كتاباً قال فيه: كل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه، وقد قتل بيننا خلق كثير، ولن يعطي أحد منا طاعة للآخر، وإني أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى،

فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة، أن يحكم بيننا حكمان رضيان، أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك، فيحكمان بما في كتاب الله بيننا، فإنه خير لي ولك وأقطع لهذه الفتن، وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله.

فكتب إليه الإمام: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه اتباع ما يحسن به فعله، ويستوجب فضله، ويسلم من عيبه، وإن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه.. فاحذر الدنيا! لا فرح في شيء وصلت إليه منها، وقد علمت أنك غير مدرك ما مضى فواته. وقد رام قوم أمراً بغير الحق فتأولوا على الله تعالى، فأكذبهم، ومتعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ، فاحذر يوماً يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاده، فغرته الدنيا واطمأن إليها. ثم أنك دعوتني إلى حكم القرآن، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن، ولست حكمه تريد، والله المستعان. وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا. ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً».

فلما عاد الأشعث بكلام معاوية إلى الإمام، قال أكثر أصحابه: «رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا».

وأشار الأشعث على الإمام بأن يبعث عنه أبا موسى الأشعري.

فقال الإمام: «قد عصيتموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري».

فقال الأشعث ومن خرج على الإمام من القراء المتطرفين: لا نرضى إلا بأبي موسى!

قال الإمام: «ويحكم! هو ليس لي بثقة! لقد فارقني وخذل الناس عني، ثم أنه هرب شهوراً إلى مكة حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك».

قال الأشعث والخوارج على الإمام: «والله لا يحكم فيها مضريان» فابن العاص وابن عباس من قريش فهما مضريان، أما الأشعث وأغلب الخوارج فمن قحطان، وبين مضر وقحطان عداء قديم وتنافس منذ الجاهلية!!

وعجب الإمام أن يعود ما كان في الجاهلية مرة أخرى ليحكم في مصائر الناس بعد الإسلام!!

فقال: «إن أبيتم ابن عباس، فالأشتر (وهو قحطاني مثلهم).

قالوا: «وهل سعر الأرض، وهاج هذا الأمر، وأشعل ما نحن فيه إلا الأشتر؟ لا نرضى بغير أبي موسى الأشعري.. فإنه حذرنا ما وقعنا فيه». قال علي: «إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه في نظره من عمرو بن العاص، وإنه لا يصح للقرشي إلا مثله. فعليكم بعبد الله بن عباس فارموا به، فإن عمرو بن العاص لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله، ولا يحل عقدة إلا عقدها» فقال الأشعث: «اجعله رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر» قال الإمام ساخرا: «أخاف أن يخدع يَمَنِيُّكم فإن عمرو بن العاص ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هوى» قال الأشعث: «والله لإن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان».

فقال الأحنف بن قيس: «يا أمير المؤمنين، إنك قد رميت بحجر الأرض (الداهية من الرجال)، ومن حارب الله ورسوله في أول الإسلام وإني عجمت أبا موسى وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشفرة وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم، ويتباعد عنهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم».

فقال الناس: «لا يكون إلا أبا موسى».

وتذكر الإمام عليٌّ ما كان من أبي موسى الأشعري، عندما أرسل إليه ليخرج معه إلى معركة الجمل، وكان أبو موسى إذ ذاك أميراً على الكوفة فأبى ومنع الناس من الانضمام لعلي، وقال للناس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب»، فقال لهم عمار بن ياسر مغاضباً: «أيها الناس إنما قال الرسول ﷺ له وحده: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً».

فظل أبو موسى ينصح الناس ألا يخرجوا مع الإمام، حتى جاءه الأشتر أميراً على الكوفة فاحتل قصر الإمارة وطرده، فهرب أبو موسى إلى الحجاز، وخرج الناس مع عمار والأشتر والحسن بن علي فوافوا الإمام قبل معركة الجمل!

لم يمر من الأعوام ما يكفي للنسيان!! ما مر إلا عامان فحسب. وها هو ذا الإمام يضطر إلى أن ينيب عنه أبا موسى الأشعري.

أمضَّ الإمام أنهم أسرفوا عليه في العصيان والتمرد واشتطوا، فأرمضه هذا كله، وأخذ يعض يديه ويقول:

«أُعصى ويُطاع معاوية!!»

وارحمتا لك يا ولي الله!!

أيشعر القوم بما تعانية منهم!؟.. هيهات فقد كلت البصائر، ومرضت الأهواء وسقمت الضمائر، وفسدت السرائر!!

إن الإمام ليشعر بفداحة ما هم مقبلون عليه، ويستوبل عاقبة الأمر، فلن يعقب هذا كله إلا ندماً، وما ينتج إلا شراً!!

وحاول أن يبصرهم بما هم صائرون إليه، ولكن هيهات!!...

قال: «اصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه!».

فأرسلوا إلى أبي موسى الأشعري في مكة، فقالوا له: «إن الناس قد اصطلحوا» فقال: «الحمد لله» قالوا له: «وقد جعلوك حكماً» قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

الفصل الرابع

اغتيال النصر..!

أي امتحان هذا الذي كتبه الله عليك يا بن أبي طالب؟! ولكنه بلاء في الله شديد، فالحمد لله على كل حال!

لقد نهضت بمن أطاعك تجاهد من عصاك، وهو جهاد في سبيل الله، لم ترد به إلا حماية الأمة من الفرقة، والذود عن حوض الشريعة، والمحاماة عن العدل في الناس، والمساواة بين الناس، وإرساء قيم الدين الحنيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد خاطبت في الرجال والنساء ما أضاءت به الجوانح من ورع، واستنفر سواك من أعماقهم نوازع الطمع!

وفي صراع الورع والطمع، أصبح الباطل صولة، وغلب حب الدنيا بعض الناس، فحرك سواعدهم للبطش بمن يدعون إلى التنزه عن الدنايا.

ولكن المتقين الذين قدتهم لتنقذوا العالم من الفوضى، وتستخلصوا الإسلام من الغاشية، استطاعوا بإذن الله أن يهزموا أهل الأهواء!

تمكن الورع والتقوى وصدق الإيمان من صد طوفان الأهواء الذي أوشك في اندفاعه العارم أن يجتاح العفة، لتتحكم الشهوة، فيتحول الإنسان إلى فريسة وصياد، ويصبح الرجل شركاً للرجل، بدلاً من أن

يكون الإنسان أخاً للإنسان، كما أمر الإسلام..!..

كاد أهل الورع الذين تقودهم يا بن أبي طالب أن ينقذوا الأمة من التفرق، والقلب من التمزق، وإذ بالقراء الذين كانوا أحرص الناس على طاعة الله ورسوله وطاعتك، وأشدهم تفانياً في الدفاع عن عقيدتك، إذ بهم ينقلبون عصاة بغاة متمردين!!

ها هم أولاء الورعون من أهل التقوى ينتصرون على الطامعين ممن يحركهم الهوى.. فما بال هؤلاء الورعين يرفضون هذا النصر الذي ساقه الله إليهم بما جاهدوا في الله حق جهاده؟!

ويحهم هؤلاء القراء!!

ما بالهم ينخدعون بمكر المنهزمين، الذين رفضوا أن يأخذوا ما آتاهم الرسول في كتاب الله، حتى إذا أيقنوا بالهزيمة، وتجرعوا غصة الفشل، رفعوا كتاب الله على أسنة الرماح، ودعوا إلى الاحتكام إليه، كيداً من عند أنفسهم، ومكراً بالمنتصرين عليهم وفراراً من الهزيمة.. يا للمكيدة!...

إنها لمصيدة، لا دعوة حق وصدق إلى كتاب الله..!

فلو أن الذين رفعوا المصاحف كانوا يؤمنون بما فيها، لما قاتلوكم أصلاً، ولما فرقوا جماعة المسلمين، ولما سفكوا الدماء، ليصعدوا على الأشلاء إلى العروش المشتهاة!

ولكن جندك يا إمام المتقين، خذلوك وأنت تقدم لهم النصر..!

لقد وقفت دونهم، تبارز عنهم، وتحمي صلحاءهم، وتضن بهم على الموت وتقتحم أنت إليه الصفوف، متخذاً الأسوة من أستاذك العظيمﷺ الذي كان إذا حمي الوطيس واحمر البأس، قدم أهل بيته، فوقى بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف!... وإنك لتستقدم لتقي أصحابك بنفسك يا بن أبي طالب، وعلى الجانب الآخر، يقف معاوية

تحت ترس مذهب ليقيه حر الشمس، وأمامه كل أصحابه يقاتلون عنه ليكفوه القتال، ويقوه وقع النصال!!

ما كان الظن أن يقدر الطمع من الرجال على ما يعجز عنه الورع!!

من أين اكتسب جند معاوية كل هذه القدرة على القتال وهم لا يملكون من الإيمان بعض ما يملكه جندك يا بن أبي طالب؟!
كيف ظفر معاوية بهذه الطاعة، ورجاله، كما وصفهم هو نفسه، لا يؤمنون بشيء ولا يعرفون غير العطاء..؟!

وكيف ابتليت أنت يا بن أبي طالب برجال يعرفون الله حقاً ويجاهدون في سبيل الله جهاد صدق، ويستشهدون دفاعاً عما يؤمنون به، وهم على الرغم من ذلك لا يطيعونك بقدر ما يجادلونك؟!

لقد غرست تعاليمك في قلوبهم... وعلمتهم ألا يخروا صماً وعمياناً إذا تليت عليهم آيات ربهم، بل عليهم أن يتدبروا فيها، ليفقهوها، ليعبدوا الله عن فهم. وعودتهم أن يتفكروا في كل أمر تصدره، حتى في اللحظات الحاسمة من الحرب، عندما يجب على الجند أن يسمعوا، ويطيعوا ما يؤمرون!!

عود معاوية رجاله الطاعة فأطاعوه في كل أموره.. وعودت رجالك يا بن أبي طالب التفكر، فخالفوك فيما لا يحق لهم خلافه من أوامرك!

وجندك مع ذلك يحبونك، ومنهم من يفرط في حبك وتمجيدك حتى ليجاوز الحدود!

وهأنتذا آخر الأمر تواجه النقيضين معاً، فتواجه المتطرفين في العبادة من جنودك، وهم القراء العازفون عن الدنيا، الذين اسودَّت جباههم من كثرة السجود، واصفرت وجوههم من كثرة القيام وطول الصيام والحرص على الزهادة.. وأنت في الوقت نفسه تواجه من الذين

أتخموا من المتاع، وملكهم حب الدنيا واسودت قلوبهم بما سكن فيها من أطماع!!

أنت تواجه الذين ذبلت أجسامهم من الزهد وشدة التعبد، والذين ذبلت ضمائرهم من الحرص، وحدة التطلع...

وها هم أولاء المتطرفون من جندك الذين غالوا في التشبه بك حتى نحلوا وذبلوا، يغالون في التنكر لك والتمرد عليك حتى ليوشكوا أن يضلوا..!

وإنهم ليحملونك الآن على أن تقبل خديعة معاوية وتسقط بهم في المصيدة، وإلا أعملوا السيف فيك، وفيمن ينتصر لك، واضطروك إلى أن تشهر عليهم السيف!!

هكذا أخذ الإمام يفكر ويتململ، منذ أغلظ له القراء، وحملوه حملاً على أن يقبل التحكيم، وأيدهم في ذلك وجرأهم عليه الأشعث قائد اليمانية الذين يشكلون جانباً ضخماً من جيش الإمام...

ولقد مضوا في قهرهم الإمام إلى آخر مدى، فاختاروا أبا موسى الأشعري، وحملوا الإمام على أن يقبله، على الرغم من أنه لا يثق به، ويعرف أن عمرو بن العاص، يستطيع أن يمكر به كما يشاء!

ووارحمتا لإمام تأتيه الخلافة بعد فوات الوقت، وقد نضجت الظروف لظهور ملك لا إمام!!

ووارحمتا لقائد جسور يتجاسر أتباعه على عصيانه، ويقهروه على ما فيه خسرانه وخسرانهم!!

ووارحمتا لخلافة كانت تنتظر فارساً في شجاعة علي، وتلتمس حكيماً ورعاً له مثل بصره بشؤون الدين والدنيا، وله مثل حكمته وقدرته، ومثل حرصه على العدل والمساواة.. حتى إذا وجدت الخلافة من تشتاق إليه، نضجت في الأمة ظروف تجعل الحاجة إلى ملك يتعامل مع الدنيا، أنسب من خليفة يتمسك بالدين!

وما كان علي رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه يصلح لأن يكون ملكاً يرسم له الدهاء أسلوب عمله... فقد كانت تقواه تعصمه، فما يصلح هو إلا للخلافة الراشدة، والإمامة الورعة.. على هذا الخلق صاغه مربيه العظيم عليه الصلاة والسلام.

وفي الحق أن الإمام علياً كابد ما لم يكابده أحد من أئمة الدين أو حكام الدنيا...

فحين انتظر الخلافة انصرفت عنه، وحين انصرف عنها سعت إليه، فقبلها مرغماً كارهاً مغلوباً على أمره.. غلبه على أمره إشفاقه على مصير الأمة.. ذلك أنه اكتوى بلهب الفتنة آخر عهد عثمان بالخلافة، ولقد حاول الإمام جاهداً أن يجنب الأمة شر الفتنة، ولكن الشر كان قد استطار، وكأنما توافقت جميع الأطراف على أن تترك الفتنة تنفجر، كلما وفر أحد الأطراف سبباً، تحداه طرف آخر، ثم أتبع سبباً..

ولعله من العجيب حقاً أن معاوية بن أبي سفيان، زار ابن عمه عثمان رضي الله عنه، عند بدء الفتنة فاقترح عليه أن يمده ببعض جند الشام، ولكن الخليفة أبى لأنه لم يشأ أن يردع أهل مدينة رسول الله بجند الشام، ولم يشأ أن ينفق عليهم من بيت المال، فلم يحاول معاوية أن يتحمل نفقتهم من خراج الشام.. على الرغم من أن عثمان رضي الله عنه قد ترك لمعاوية أمر الشام كله، بما يدر من أموال طائلة، وكان معاوية يصطنع بهذا المال أنصاراً له.

ومن الغريب حقاً أن معاوية انصرف من عند ابن عمه عثمان راجعاً إلى ملكه بالشام، وما اهتم إلا بأن يطلب من عثمان أن يجعل حق طلب القصاص من قتلته ـ بعد أن يقتل ـ لمعاوية!!!

لماذا لم يقم معاوية مع ابن عمه ليقيه من القتل؟! لماذا لم يرسل إليه جنداً يتحمل هو من بيت مال الشام نفقته.

ثم لماذا لم يبادر إلى نجدة عثمان عندما استصرخه المرة بعد المرة، لما حاصره الثوار، ومنعوا عنه الماء والطعام، فلم يمده أحد بالماء والطعام إلا علي، الذي أرسل ولديه الحسن والحسين ليقوما مع بعض أبناء الصحابة على حراسة عثمان؟!.. لماذا تربص معاوية بعثمان الدوائر، وانتظر حتى يقتل ليطالب بدمه بدلاً من أن يخف إلى نصرته وهو قادر عليها؟!

ثم لماذا ضم معاوية إليه عمرو بن العاص، ليستفيد بدهائه وشجاعته، في مواجهة ورع علي، وهو يعلم أن عمرو بن العاص، كان من أشد المحرضين على عثمان، وقد اعترف هو بذلك لكل الناس؟!

إذا كان معاوية يريد القصاص لعثمان حقاً، أما كان يجب عليه أن يقتص من عمرو الذي اعترف بأنه حرض على قتل عثمان، منذ عزله عن مصر، ورفض أن يعيده إليها..؟!

ولكن معاوية لا يجهل أنه لا يحق له أن يطالب بدم عثمان، فالقصاص حق لولي الأمر الشرعي وهو الإمام علي، ولا يحق لأحد سواه.. وإلا كانت جاهلية مرة أخرى!!

كان يجب على معاوية أن يبايع لعلي، كما بايع الناس، ويترك له بعد ذلك أن يقيم الحد..

ولكن معاوية انتزع لنفسه حقاً ليس له، وهو يعلم أنه ليس له، واستصدر بذلك فتوى من بعض المنتسبين إلى الدين، أغرقهم بالمال، فأفتوه بما يريد!!

وهؤلاء هم آفة الدين في كل زمان ومكان.. ولقد كان الرجل منهم يستمتع بما يغدقه عليه معاوية، فيصدر الفتوى كما يشاء معاوية، بلا وازع من دين، ولا خجل من الناس.. بل أن الواحد منهم ليزهو بغناه ويتباهى بما يملك وينفق، ويستمتع بالطيبات، ويصم أذنيه عن أنين

المساكين، ويطمئن ضميره الديني إلى هذا الترف كله، وفي الأمة جياع..

وما كان الواحد من هؤلاء المرتشين بصاحب دين، ماكان لأحد منهم سابقة في الإسلام، فكل أهل السابقة والمهاجرين والأنصار أجمعوا على لوم معاوية، ووصفوه بالبغي على الإمام الشرعي، ووصموه بأنه يمزق الأمة، ويحدث خرقاً في الإسلام، واعتزل الأمر منهم أربعة نفر!

أما صنائعه المرتشون فما كانوا يستطيعون أن يخالفوا آراء المهاجرين والأنصار، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يسكتوا عن اتهام سيدهم وولي نعمتهم بالبغي.. فلما رأوا إجماع الصحابة المهاجرين والأنصار على نبذ معاوية، وعلى اتهامه بأنه وجنده الذين حاربوا علياً في حطين، هم الفئة الباغية، لما رأى صنائع معاوية المرتشون هذا الإجماع من المهاجرين والأنصار صحابة الرسول ﷺ على اتهام معاوية بالبغي، وعلى وصمه هو وعصبته بأنهم الفئة الباغية، لجأالمرتشون إلى حيلة يضللون بها الجهلاء والطغام.. فزعموا أن معاوية في حربه لعلي، مجتهد أخطأ فله أجر من الله..!.. فالمجتهد مأجور: إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد!!

رأوا أن معاوية مأجور من الله لأنه خالف الله، إذ بغى على الإمام الشرعي، ومزق الأمة، وخرج على الجماعة.

رأوا أن معاوية مأجور من الله لأنه بالخروج على الإمام طالباً الملك لنفسه، وقتاله علياً قد أهدر الدماء الزكية وتسبب في قتل عدد من الضحايا على رأسهم عمار بن ياسر، وتسبب في قتل سبعين ألفاً من خيرة المقاتلين المسلمين!!

ولكن الذي رأى منهم أن معاوية مأجور من الله، هو ما سخا به

معاوية أجراً للفتيا، وأجراً للضميرا.. هي المصالح لا الرجال!!

وفي الحق أن علياً كرَّم الله وجهه، كان قد وجد نفسه بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه،في موقف صعب شائك: فقد اتجه إليه الناس يبايعونه، وفي طليعتهم الثوار الذين حاصروا عثمان.. ولكنه ردهم، فهددوه، فأفهمهم أنه لا يريد الخلافة، وأنه مهما يكن الأمر لا يقبل بيعتهم فليس لهم حق البيعة. إنما البيعة للمهاجرين والأنصار.. فلما ألح عليه المهاجرون والأنصار قبل البيعة لأنه إن رفضها، دفع بالأمة إلى الفوضى، إذ سيتركها بلا إمام، وسيترك الثوار يحكمون ويتحكمون، ويبطشون، وسيترك الذين استفادوا من الجريمة يظلمون وينكلون وينهبون، وسيترك الأمة الإسلامية نهباً للمتربصين والطامعين الأعداء المحيطين بها من كل أقطارها، ومن يدري فربما وثبوا عليها.

قال الإمام علي كرَّم الله وجهه مشيراً إلى اتهام معاوية وعصبته: «إن شاؤوا أن أحلف لهم عند مقام إبراهيم بالله ما قتلت عثمان، ولا أمرت بقتله، ولقد نهيتهم فعصوني! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجاؤوني للبيعة فقلت: «والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ: إني لأستحي ممن تستحي منه الملائكة. وإني لأستحي من الله من أن أبايع وعثمان قتيل في الأرض لم يدفن بعد. فانصرفوا. فلما دفن بعد ثلاثة أيام رجع الناس يسألونني البيعة. فقلت: اللهم إني أشفق مما أقدم عليه.. ثم جاءت عزمة فبايعت، فلما قالوا لي: (أمير المؤمنين) كان صدع قلبي!

وإني لأرجو أن أكون أنا وعثمان من قال الله تعالى: فيهم ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ إن عثمان ﴿كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا﴾ وهو أحد الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة. وكان عثمان رضي الله عنه

خيرنا، وأوصلنا للرحم، وأشدنا حياء، وأحسننا طهوراً، وأتقانا للرب عزّ وجلّ».

فقد كان الإمام دائماً يفضل على نفسه من سبقه من الخلفاء الراشدين!

وكانت أول خطوة للإمام بعد البيعة خطواته إلى دار عثمان، فسأل امرأته نائلة عمن قتله، فلم تتعرف على أحد ممن دخلوا عليه وقتلوه غير أنها رأت محمد بن أبي بكر دخل عليه.. وكان عليٌّ زوج أمه، وهو الذي ربى محمداً، فناداه، فسأله عما قالته امرأة عثمان فقال: «صدقت، قد والله دخلت عليه فذكر لي أبي، فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى. والله ما قتلته، ولا أمسكته» قالت: «صدق».

وأقسم علي: وأيم الله لو أمرني بالقتال لقاتلت دونه، أو أموت بين يديه! ولقد رددت الناس عنه مراراً، وأرسلت إليه الحسن والحسين بسيفيهما لينصراه ويموتا دونه، فنهاهما عن القتال، ونهى أهل الدار».

على أن علياً لم يكد يبدأ ممارسة الحكم حتى استهل حكمه بعزل الولاة الغاشمين.

ثم طالب الذين ثارت حولهم الشبهات أن يرفعوا إليه حسابهم، ورد إلى بيت المال كل ما أخذ من أموال بغير حق، ونزع الإقطاعات من الذين لا يستحقونها.

لقد شن حرباً ضارية على أصحاب الأهواء، وعلى الذين أثروا بغير حق، وعلى الذين ظلموا الرعية، فألفوا حلفاً عليه.. ثم أقسم أنه سيرد إلى بيت المال كل مال دفع بغير حق، ولو كانوا قد تزوجوا به النساء، واشتروا الإماء!

فأما الولاة الذين عزلهم أو طلب منهم أن يرفعوا إليه حسابهم، فقد نهبوا ما في بيت المال، وفروا عنه بما سرقوه، وانتهى بهم

المطاف، إلى معاوية، فأقرهم على ما سرقوه، وأفتى صنائعه، بأن هذا المال المسروق حلال لسارقه!! .. وأغدق معاوية على مقترفي الحرام من الولاة المعزولين والهاربين إليه، وعلى الذين حللوا الحرام، ممن ارتضوا بعد ذلك أن يكونوا ـ وهم حملة القرآن ـ كلاب صيد لمعاوية يسلطها لتنبح أو تنهش علياً وبنيه وآل البيت.. !!

كان هؤلاء هم أخطر أصحاب معاوية شأناً، وانضم إليهم كل الذين خشوا الإمام كرَّم الله وجهه على ما في أيديهم، والذين خافوه على أطماعهم.. !

وهكذا استنفر الإمام ضده كل الأثرياء، وكل الحالمين بالثراء، ولكنه استنفر إليه كل الذين يحبون الله ورسوله، وكل الذين يدافعون عن العدل ويأتمرون بالإحسان، وكل الذين يرضون بالمساوة ويناضلون في سبيلها، وكل المتقين والمساكين.

رفض معاوية البيعة لعلي، ورفض الامتثال للأمر بعزله، وجمع حوله كل الذين وصفهم من قبل بأنهم لا يعرفون الإسلام، ولا يعرفون إلا العطاء، وجعل راياتهم للولاة الظالمين السارقين الذين عزلهم علي، وللذين نهبوا خزائن الدولة، وللذين انتهكوا الرعية، وعدوا مصلحيها وهم أجراؤها، وسجنوا وعذبوا معارضيهم، وللذين حللوا له الحرام!.

وهاشم جد علي وأمية جد معاوية أخوان!

ومن عجب أن هاشم وأمية من بني عبد مناف، قد اختار كل منهما طريقه منذ الجاهلية فما حاد عنه، وسار عليه بعد الإسلام.

فقد اختلف الأخوان هاشم وأمية في الجاهلية فقُضي لهاشم، وقُضي على أمية أن يترك مكة عشر سنين، فأقام في الشام؛ وهناك أثرى ثراءً واسعاً، وكون له أسرة كبيرة فأصبح بنو أمية ملوك التجارة في مكة والشام، وكانوا أكثر قريش مالاً ونفراً..

أما هاشم فقد اهتم بأمور بيت الله الحرام وسقاية الحاج أكثر من الاهتمام بالتجارة.. واهتم بنو هاشم من بعده بأمور الدين بقدر ما اهتم بنو أمية بأمور الدنيا..

حتى إذا جاء الإسلام واختار الله تعالى من بني هاشم رسوله ليرسله بالهدى ودين الحق، وليظهره على الدين كله، اضطرم بنو أمية حسداً على بني هاشم، وفزعوا من الدين الجديد، وخافوا على تجارتهم، ورأوا محمداً يبشر المعذبين والمستضعفين بأن الناس سواسية كأسنان المشط، ويواجههم بما أوحى إليه الله تعالى: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**. فعربد عليه بنو أمية مع كبار المشركين من أهل مكة، ممن يهدد الدين الجديد مصالحهم، وسؤددهم ومكاسبهم ومكانتهم.. وإذ بهم يعذبون محمداً وأتباعه عذاباً أيسره يذهل المرء عن نفسه.. وإذ بأئمة الكفر من بني أمية وحلفائهم يضطرون بني هاشم إلى جبل وعر، ويمنعونهم الطعام والماء، ويحرمون على أهل مكة التعامل معهم، أو مصاهرتهم أو إطعامهم إلا أن يسلموا محمداً، فإن لم يسلموه فلا أمن لهم، ولا حق لهم في الطعام أو الماء، فليظلوا منبوذين بالعراء!.

وكتبوا بهذه المقاطعة صحيفة علقوها على الكعبة، حتى إذا أكلتها الأرضة إلا كلمة «باسمك اللهم» وتراخت قبضة الحصار عن بني هاشم، عاد رؤوس الكفر من بني أمية وحلفائهم يؤذون محمداً والمسلمين، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى يثرب.

وبعد حين **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾**.

فقتل حمزة بن عبد المطلب وابن أخيه علي بن أبي طالب من رؤوس الكفر مقتلة عظيمة، وكان معظم صرعاهم يوم بدر من بني أمية.. فتأججت في صدورهم نيران البغضاء..!

وما زال أبو سفيان يحرض على محمد ويجمع الأحزاب ويستنفر الكفار من الأرض ليقتلوا النبي، ويجتاحوا بني هاشم، ويستأصلوا المسلمين.. وكان أبو سفيان هو رئيس الأحزاب، ولكن الله لم يخذل نبيه، فقد نصر عبده، وأيد جنده، وهزم الأحزاب وحده، فارتدت الأحزاب عن المدينة فاشلين..

وكانت راية المسلمين في معظم غزوات الرسول لعلي بن أبي طالب.. حتى جاءت البشارة: ﴿**نصر من الله وفتح قريب**﴾ فقاد الرسول ﷺ جيش الفتح إلى مكة..

ويوم الفتح دخل الناس في دين الله أفواجا؛ وأسلم أبو سفيان ومعاوية وسائر بني أمية، وخافوا أن ينتقم منهم الرسول بما سلف من جرائمهم، ولكنه صفح عنهم، وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فسموا «الطلقاء».

وقد علم كل مسلم أن الطليق لا حق له في الخلافة؛ وأن الخلافة لا تحق إلا للسابقين من صحابة رسول الله ﷺ؛ واتفقوا على أنها للمهاجرين دون الأنصار، لأن رسول الله أوصى المهاجرين بالأنصار خيراً، فكأنه استخلف المهاجرين..

كم من الأعوام قد مرت على هذه الأحداث؟! ولكن بني أمية لا ينسون!!

ما كمن في نفوسهم من بني هاشم ظل كامناً.. وما حملوا من موجدة واضطغان على علي بن أبي طالب ظل كما هو منذ قتل يوم بدر أئمة الكفر منهم، لم تطفىء نار العداء ما شربته هند أم معاوية، من دم حمزة، ولا كبده التي مضغتها!!.. ومنذ لاكت أم معاوية كبد حمزة سيد الشهداء غلب عليها اسم آكلة الأكباد!

ولقد جهد الإمام أن ينزع من النفوس هذه الضغائن الجاهلية، فالإسلام يجُبُّ ما قبله، ويجب أن يعمر الجميع قلوبهم بما جاء به الدين

الحنيف من قيم فاضلة، فيحب الواحد منهم، لأخيه ما يحب لنفسه، ويعبد الله كأنه يراه، ويستقيموا كما أمروا، ويذكروا نعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً.. ولكن هيهات!!

لم يكد المسلمون يبايعون لعثمان حتى أتاه أبو سفيان كبير بني أمية فقال: «إنه الملك فاحرص عليه؛ فما أعرف غيره، ما أعرف ما الجنة ولا النار».

فزجره عثمان رضي الله عنه..

لكنه لم يزدجر، بل مضى بنو أمية جميعاً؛ يعاملون الناس كما لو كانوا رعاياهم..!

وعثمان كما وصفه علي «أوصلنا للرحم». من أجل ذلك فقد استغل ذوو قرباه من بني أمية هذه الفضيلة فيه.. استغلوا عطفه عليهم، وبره بذوي القربى، كما أمر الله عباده، فإذا بهم يستثيرون الناس عليه، ويزداد الخليفة الورع برا بذوي قرباه، ويزداد أولو قرباه استغلالاً لهذا البر، واستفزازاً للرعية، حتى اشتعلت الثورة على عثمان، وتركه معاوية لقتلته يقتلونه، ليستفيد هو من الموقف الجديد، وليكون له سبيل على بني هاشم، وليستطيع أن يتعلل أمام المسلمين، حين يرفض البيعة، ويعلن العصيان ويبغي على إمامه! تعلل بأنه يطالب بدم عثمان، وهو في الحق يطالب بالملك!!

وقد واجه ابن عباس معاوية بهذا فأرسل إليه: «أما أنت يا معاوية، فزينت له (لعثمان) ما صنع، حتى إذا حوصر طلب نصرك، فأبطأت عنه وتثاقلت وأحببت قتله وتربصت لتنال ما نلت!»

واعتزل الفتنة ثلاثة أو أربعة نفر من المهاجرين والأنصار، أما بقية الصحابة، فقد عملوا بقوله تعالى: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا**

فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ وقوله تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾** فانضموا جميعاً للإمام..

أما المهاجرون والأنصار الذين اعتزلوا الفتنة، فقد صفع كل منهم معاوية بهذه الحقيقة نفسها، عندما استنصرهم معاوية ضد علي، وقالوا له جميعاً أنه بغى على الإمام، وأنه خذل عثمان حين استنجد به، ليستفيد من قتله.. وقالوا له جميعاً إنه طليق لا حق له في أن يطمع في الخلافة، وإن يوماً واحداً من عليٍّ بمعاوية حياً وميتاً.. وكلهم أزرى على معاوية ونصحه ألا يفرق جماعة المسلمين وألا يبغي على إمام الأمة، وأن يتقي الله في الدماء الزكية..

هكذا أرسل إليه سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة وعبد الله ابن عمر..

ولقد أعلن عبد الله بن عمر قبل موته ندمه الشديد على اعتزاله، فقد قاده اجتهاده إلى أنه كان يجب ألا يخذل ولي الأمر، وألا يعتزل القتال الذي أمر الله تعالى به حين شرع للمسلمين ما يعملون **﴿إن فئتان من المسلمين اقتتلوا...﴾**.

وقد بكى ابن عمر في آخر عهده بالدنيا وقال: ما أندم على شيء في دنياي إلا لأني لم أقاتل الفئة الباغية التي قاتلها أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرَّم الله وجهه.

ولقد دخل أبو الطفيل على معاوية فقال له معاوية: «يا أبا الطفيل. أنت من قتلة عثمان» قال: «لا، ولكني ممن لم ينصره» قال: «وما منعك من نصره؟» قال: «منعني أن المهاجرين والأنصار لم ينصروه، ولا رأيت أحداً نصره» قال معاوية: «يا أبا الطفيل. أما طلبي بدمه نصرة له؟» فقال أبو الطفيل ضاحكاً: «يا معاوية، أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتك ما زودتني زادي

إن الإمام ليتأمل كل الذي مر به ويعجب من تناوح الأيام والليالي على الأمة بكل هذه الغرائب! وإنه ليبتسم من كل ذلك.. فهكذا قدر له.. ولقد عرف الظلم منذ كان صغيراً.. وقال وهو يسخر من عبث الأيام: كنا ونحن صغار يخطىء أخي جعفر، فيضربني أخي عقيل على خطأ جعفر..!

وها هو ذا قد قدر له أن يعيش ليجد معاوية بن أبي سفيان ينازعه، ويثير الناس عليه، ويسفح بينهما بحراً من دماء المسلمين!

أشرف علي وجيشه على النصر، فاستشرف معاوية وعمرو إلى فتنة أصحاب علي!

ونجحت حيلة رفع المصاحف في تمزيق شملهم، وفض اجتماعهم، وحملوا علياً على ما يكره.

ثم جد معاوية في أن يجذب إليه ثقات علي، والذين اعتزلوا القتال من رؤساء الناس.. لن يكتب مرة أخرى لأولئك الثلاثة من كبار الصحابة: سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الأنصاري، فقد أرسل إليهم من قبل، فعيروه بأنه من الطلقاء، وأنكروا دعوته، وازدروا به، ووصموه بأنه خرج على الجماعة، واختفى وراء قميص عثمان طمعاً في الخلافة، وهي لا تحق لأحد الطلقاء!

ها هو ذا قد استمال الأشعث، ولكن لا بد له من رجال آخرين... واستشار عمرو بن العاص فقال له: «إن بأرضك رجلاً له شرف واسم، والله إن قام معك استهويت به قلوب الرجال، وهو عبادة ابن الصامت».

فبعث إليه معاوية، فلما قدم عليه وكان عمرو بن العاص يجلس إلى جواره، أجلسه معاوية بينه وبين عمرو، وأخذ معاوية يثني على

عباده، ويعده بأن يغدق عليه الأموال والقطائع والجواري الحسان.. ثم حدثه عن عثمان المظلوم، وحض أبا عبادة على أن يكون معه في الطلب بقتلة عثمان، ثم أمن سرب عبادة، فهو لا يريد منه أن يحارب علياً معه، فقد انتهت الحرب إلى التحكيم، ولكنه يريد تأييده.

ولوح له معاوية بأنه حين ينتصر سيوليه على ماشاء من الأمصار، ويضاعف عطاءه، ويغدق عليه الأموال والقطائع!

وابتسم عبادة ساخراً.. إن معاوية لا يتغير، وهو منذ جعله عمر أميراً على دمشق يحسب أنه يستطيع أن يرشو من يشاء!!.

ولكنني أنا عبادة بن الصامت يا معاوية!! أحد خمسة من الأنصار جمعوا القرآن في زمن الرسولﷺ.. أنا عبادة الذي حذره الرسول من الرشوة حين جعله أميراً على الصدقات في بعض الأمصار.. قال ليﷺ: «اتق الله لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء، أو ببقرة لها خوار، أو شاة لها ثؤاج (صوت الشاة)».

صدق رسول الله.. إذا كان المرتشي ببقرة أو بعير أو شاة سيحمل ما ارتشى به على رأسه يوم القيامة، فكيف بمن يرتشي بضيعة أو أكداس الذهب والفضة؟!.. لك الله يا معاوية!! وأنت أيضاً يا عمرو!

أتراودان مثلي على دينه!؟.. أما تعلمان أني من أوائل الذين بايعوا الرسولﷺ؟! والله لقد بايعته على ألا أخاف في الله لومة لائم!..

رب يوم تخاصمنا فيه يا معاوية لما أرسلني عمر أعلِّم أهلَ الشام القرآن وأنكرت عليك أموراً، فلما أغلظت لي قلت لك: «لا أساكنك في أرض أبداً».

وعدت إلى المدينة، فلما سألني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أقدمك؟» حكيت له عما كان منك، فقال عمر على

ملأ من المهاجرين، وقومي الأنصار: «ارجع إلى مكانك فقبح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك»..

أتذكر يا معاوية؟! أتذكر يا عمرو؟! كنت والياً على مصر حينئذٍ، وكان عمر قد استقدمك لأن ابنك ضرب ابن أحد الأقباط، فأعطى المضروب سوطاً وقال له: «اضرب ابن الأكرمين!..» أتذكر يا عمرو؟! ثم قال لك عمر: «متى استعبدتم الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!..» كان عمر يهدد من يظلم الرعية من عماله، بأنه سيلقيه على الأرض، ويضع قدم المظلوم على خده..!!.. وبالله كم كان عماله يخشونه!! هكذا شاع العدل. ألم يكتب لك عمر يا معاوية يؤنبك على غلظتك معي، ويرسم حدود العلاقة بيننا: «لا إمرة لك عليه»؟! ما زلت أذكر يوم وقفت أخطب الناس وأنت حاضر يا أمير الشام.. أتذكر كلماتي؟! كلمات مؤمن بايع الرسول على ألا يخاف في الله لومة لائم.. وكنت أنا مروعاً من أشكال في البيع ظاهرها البيع وباطنها الربا، فقلت «أيها الناس إنكم قد أحدثتم بيوعاً لا أدري ما هي..! ألا إن الفضة بالفضة وزناً بوزن، والذهب بالذهب. ألا ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يداً بيد والفضة أكثرهما، ولا يصلح نسيئة. ولا بأس ببيع الحنطة بالشعير والشعير أكثرهما يداً بيد، ولا يصلح نسيئة، ولا بأس ببيع الحنطة بالحنطة مُداً بمد (مكيال أهل الشام)، والملح بالملح مداً بمد، فمن زاد أو ازداد فقد أربى (اقترف الربا).

أتذكر فزع المرابين من أثرياء الشام إليك لتنهاني؟! ولكنك صرفتهم عنك، حتى إذا قتل عمر وتولى عثمان رضي الله عنهما وانفجرت الفتنة، اعتزلت أمر الناس.. أتجيء اليوم وتدعوني أنت وعمرو، وتلوحان لي بالرشوة، لأغمس نفسي في الفتنة بعد أن سالت دماء المسلين!؟ يا للرجلين معاوية وعمرو حين يلتقيان!!

لم يا معاوية خرجت على الإمام ورفضت البيعة!؟

لقد تسترت خلف قميص عثمان، لتطلب الملك، فأحدثت في الأمة أمراً لا يلتئم صدعه، ولا تسد ثلمته!!

وأنت يا عمرو بن العاص لم تتردى في الجهالة، وتتسكع في باطل معاوية؟!

ما من أحد يجهل أن معاوية أرسل إليك حين أمر عليٌّ أمير المؤمنين بإعادة الإقطاعات التي أقطعها عثمان الخليفة المقتول، ورد ما منحه من أموال طائلة إلى بيت المال فاستفزك معاوية من أرض فلسطين إليه في دمشق، لتقاوم معه علياً قبل أن يأخذ منك أموالك وضياعك!! ليتكما اجتمعتما على حق!!.. ولكن رحم الله رسول الله ﷺ، فما علمنا إلا صدقاً وما كان قوله إلا حقاً!!

وانتظر معاوية وعمرو أن يجيب عبادة بن الصامت.. ولكنه ظل صامتاً، يتأمل أمره مع معاوية منذ عرف معاوية... ولاحظ معاوية وعمرو شروده واستبطآ رده.. فألحا عليه أن يقول.

فقال: «قد سمعت ما قلتما..! أتدريان لم جلست بينكما في مكانكما؟» قالا: «نعم، لفضلك وسابقتك وشرفك» قال: «لا والله، ما جلست بينكما لذلك، وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما، ولكن بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك إذ نظر إليكما تسيران، وأنتما تتحدثان، فالتفت إلينا فقال: «إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما، فإنهما لا يجتمعان على خير أبداً!».

ثم صاح عبادة فيهما: «تفرقا»!

فوجم معاوية ونظر إلى عمرو بن العاص يؤنبه على اقتراحه دعوة عبادة وإذ هما يتبادلان النظرات، انصرف عبادة، ثم أرسل معاوية إلى أيمن بن خريم ليضمه إليه. وأيمن سيد قومه، راجح العقل، عابد مجتهد، يأنس الناس إلى حكمته، وكان معاوية قد أرسل له من قبل

يغريه بالانضمام إليه، ويعده بأن يوليه فلسطين، إن قاتل معه علياً، فأرسل أيمن إلى معاوية يعنفه ويتهمه بأنه يحارب أهل القبلة، طمعاً في الملك. قال:

ولست بقاتل رجلاً يصلي على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلي إثمي معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً في غير جرم فليس بنافعي ما عشت عيشي

ولكن معاوية لا يدعو أيمن اليوم ليقاتل معه، فقد انتهى القتال، ولكن ليدفىء به ظهره!..

ولم يتلق معاوية رداً من أيمن. فقد اعتزل الأمر كله..

ورأى الإمام أن يكتب إلى عمرو بن العاص، يناشده أن يتقي الله، فكتب إليه.. «أما بعد، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها، ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يزيده فيها رغبة، ولن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغه، ومن وراء ذلك فراق ما جمع، والسعيد من وعظ بغيره، فلا تحبط أبا عبد الله أجرك، ولا تجار معاوية في باطله».

فأجابه عمرو: أما بعد، فإن ما فيه صلاحنا وألفتنا الإنابة إلى الحق، وقد جعلنا القرآن حكماً بيننا فليصبر الرجل منا نفسه على ما حكم عليه القرآن والسلام».

فكتب إليه الإمام: «أما بعد، فإن الذي أعجبك من الدينا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها لمنقلب عنك، ومفارق لك، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة. ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقي، وانتفعت بما وعظت به والسلام».

فرد عليه عمرو: أما بعد. فقد أنصف من جعل القرآن إماماً ودعا الناس إلى أحكامه. فاصبر أبا الحسن، وأنا غير منيلك إلا ما أنالك القرآن».

جاء عمرو إلى معاوية في وفد من أصحاب معاوية لكتابة وثيقة التحكيم وكان الإمام يجلس مع بعض أصحابه، فأملى الإمام: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين..» فقال عمر للكاتب: «بل اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وليس أميرنا» فقال الأحنف للإمام: «لا تمح اسم أمير المؤمنين فإني أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً» فقال الإمام: «الله أكبر! سنة بسنة! والله أني لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية، فكتبت: محمد رسول الله. فقال سهيل بن عمر مبعوث كفار قريش إلى رسول الله ﷺ: لو كنت رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك». فأمرني رسول الله عليه الصلاة والسلام بمحوه، فقلت: لا أستطيع! فقال: يا علي إني لرسول الله، وإني لمحمد بن عبد الله، ولن يمحو عني الرسالة كتابي إليهم من محمد بن عبد الله. وإنك ستدعى إلى مثلها فتجيب! فقلت لسهيل بن عمرو مبعوث كفار قريش: إنه لرسول الله وإن رغم أنفك. فقال رسول الله ﷺ: يا علي اكتب محمد بن عبد الله. إن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد!.

وسكت علي ثم أضاف: «فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله ﷺ إلى آبائهم سنة ومثلاً» فقال عمرو: «سبحان الله، تشبهنا بالكفار ونحن مؤمنون!؟».

وما كان الإمام منشرح الصدر للحديث مع عمرو أو غيره، وما كان يتهم معاوية ومن معه بالكفر، وقد سمع القراء يتهمون معاوية وأصحابه بالكفر فقال: «إنما نقاتلهم على البغي ولا نقاتلهم على الكفر».

إنهم في رأيه لبغاة.

ولقد أجمع أهل السنة على أن معاوية مخطىء، وأنه ومن معه هم الفئة الباغية!

ولقد وضع الإمام أصول التعامل مع الفئة الباغية: فلا يقتل منهم أسير ولا يفادى، ولا يغنم منهم إلا ما يستعمل في الحرب، ولا يطارد من فر منهم فعسى أن يعود إلى الصواب.

نظر الإمام إلى عمرو، ولم يجبه ثم أمر بأن تكتب صحيفة التحكيم.. فكتبوا: «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب عن أهل العراق وشيعته ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين، ومعاوية بن أبي سفيان عن أهل الشام وشيعته ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين، أن ننزل عند حكم الله وكتابه، وألا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، والحكمان هما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، فما وجد الحكمان في كتاب الله عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله تعالى فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي رضي الله عنه ومن معاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما وأموالهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعليهما عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة، وألا يألوا اجتهاداً، ولا يتعمدا جوراً، ولا يدخلا في شبهة، ولا يعدوا حكم الكتاب والسنة، فإن يفعلا برئت الأمة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذمة. وأجلا القضاء إلى رمضان، ومكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

وشهد جماعة من الطائفتين.

ودعي الشهود ليوقعوا على الصحيفة: من كل جانب عشرة، فلما دعوا الأشتر قال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة. أو لست على بينة من ربي، ويقيني من ضلالة عدوي؟ أولستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور؟!

فوثب الأشعث بن قيس، فقال محتداً: «إنك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً، هلم فاشهد على نفسك، وأقرر بما كتب في هذه الصحيفة، فإنه لا رغبة بك عن الناس».

قال الأشتر: «بلى والله إن لي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة. ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي، ولا أحرم دماً» فقال الأشعث: «ولكن قد رضيت بما صنع علي أمير المؤمنين، ودخلت فيما دخل فيه، وخرجت مما خرج منه، فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب».

والأشتر فارس اشتهر بأنه عظيم الصولة، صارم القلب، شديد الإقدام وهو خواض غمرات.

فآثر الأشعث ألا يجادله أو يخاصمه، وذهب ومعه عصابة من القراء إلى علي، فقال الأشعث: «يا أمير المؤمنين، الأشتر لا يقر بما في الصحيفة، ولا يرى إلا القتال».

وحاولوا أن يصوروا الأشتر مخالفاً للإمام كارهاً لما رضيه القوم. فقال الإمام: «وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا، فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت، وإذ رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله ويتعدى كتابه، فتقاتلوا من ترك أمر الله. وأما الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك ولست أخافه على ذلك. يا ليت فيكم مثله اثنين! يا ليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوي ما أرى! إذن لخفت على مؤونتكم، ورجوت أن يستقيم لي بعض أوَدِكم (الأود: العوج). وقد نهيتكم فعصيتموني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (دريد بن الصمة الشاعر الجاهلي):

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت منّة (قوة)، وأورثت

وهناً وذلة، ولما كنتم الأعلين، وخاف عدوكم الاجتياح، واستحرّ بهم القتل، ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف فدعوكم إلى ما فيها ليفتنوكم عنهم، ويقطعوا الحرب، ويتربصوا بكم ريب المنون، خديعة ومكيدة، فأعطيتموهم ما سألوا وأبيتم إلا أن تهنوا وتغيروا وأيم الله، ما أظنكم بعدها توفقون لرشد، ولا تصيبون باب حزم».

وخرج الأشعث بن قيس منتشياً بكتابة الصحيفة، فقرأها على جند الشام فأقروها فرحين، ثم قرأها على جند العراق، فأقرها أقوام، حتى إذا قرأها على جند من قبيلة عنزة هب منها شابان شقيقان من القراء فشهرا سيفيهما قائلين: «لا حكم إلا لله» ثم قاتلا جند الشام، واخترقا الصفوف المنهكة حتى بلغا سرادق معاوية، وهناك قتلهما حرسه على باب سرادقه.

ثم مر الأشعث على رايات بني راسب فقال قراؤهم: «لا حكم إلا لله، لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله».

ووقف الأشعث عند بني تميم وقرأ الصحيفة فاندفع أحد قرائهم يصيح في وجهه: «أتحكمون الرجال في أمر الله، لا حكم إلا الله. فأين قتلانا يا أشعث؟» ثم حمل بسيفه على الأشعث، غير أنه كان قد انطلق بحصانه فوقعت الضربة خفيفة فمست مؤخرة الحصان. وثارت اليمانية لما وقع لرئيسهم الأشعث، فأسرع إليه الأحنف بن قيس في جماعة من رؤساء جند علي ومعهم شيوخ تميم، فاعتذروا جميعاً للأشعث، قبل أن يتحرك اليمانية للفتك بتميم ومن ينصرهم من أصحاب الإمام.

وأسرع الأشعث فقال للإمام: «يا أمير المؤمنين. مررت بالصحيفة على أهل العراق فقالوا جميعاً قد رضينا، حتى مررت برايات بني راسب وبني تميم ونَبْذ (جماعة قليلة) من الناس سواهم فقالوا: لا نرضى، لا حكم إلا الله. فلنحمل بأهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم» فقال علي: «هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من الناس؟» قال: «بلى» قال: «دعهم».

كان الإمام يحسب أن الذين رفضوا التحكيم جماعات قليلة من جنده لا خطر لهم.

وإنه ليفكر أن يخرج إليهم ليكلمهم، إذ بنداءات الناس «لا حكم إلا لله» ترج الآفاق، وإذ هم يتدفقون عليه من كل ناحية!

وعرف فيهم القراء الذين أرغموه منذ حين على قبول التحكيم، وقهروه على قبول أبي موسى الأشعري نائباً عنه.. ما بالهم اليوم يرفضون ما فرضوه عليه بالأمس..؟!

وخرج إليهم وعقله يكذب ما تسمعه أذناه، وقلبه ينكر ما تراه عيناه.. إنهم لهم القراء الذين هددوه بالقتل آنفاً إن لم يقبل التحكيم فما بالهم يتصايحون عليه: «الحكم لله يا علي لا لك! لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم»..!!

ونظر علي إليهم مؤنباً متعجباً.. ما خطبهم؟ ما غيَّرهم من أقصى هذا الطرف إلى أقصى ذلك الطرف.. وفهموا ما يريد أن يقوله وهو يقلب يديه، ويدير عينيه ممتعضاً منكراً ما يسمع ويرى. فقالوا له: «قد كانت زلة منا حين رضينا بالحكمين، فرجعنا وتبنا، فارجع أنت يا علي كما رجعنا، وتب إلى الله كما تبنا وإلا برئنا منك». فقال الإمام: «ويحكم! أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع؟ أوليس الله تعالى قال: ﴿**أوفوا بالعقود**﴾؟ وقال: ﴿**أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون**﴾؟! فقالوا: إذن نبرأ منك.

وانصرفوا عنه وبرئوا منه فبرىء منهم، فجاءه سعيد بن قيس شيخ همدان في جماعة من رؤساء قومه، فقال سعيد: «هأنذا وقومي يا أمير المؤمنين لا نرد أمرك، فمرنا بما شئت».

فقال لهم: «أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم. ولكن انصرفوا راشدين، فلعمري ما كنت لأعرض قبيلة واحدة لهم».

لقد كتبوا وثيقة التحكيم في صفر، وكان موعد التقاء الحكمين بعد ثمانية أشهر في رمضان في دومة الجندل.

فعاد معاوية بجيشه إلى دمشق. وكان كل واحد في جيشه له تابع يخدمه، وفيهم من كان له نحو عشرة غير النساء والإماء!!

وعاد علي إلى الكوفة، فسلك طريقاً غير الطريق الذي قدم منه وقال: «آئبون عائدون، لربنا عابدون، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في المال والأهل».

وظل رجال من جيشه على طول الطريق يتسابون، فئة تؤيد التحكيم وأخرى ترفضه، وتلعنه!

حتى إذا لاحت له بيوت الكوفة، لقي شيخاً شاحب الوجه فأقبل عليه الإمام حانياً وقال: «ما لي أرى وجهك منكفئاً (متغيراً) أمن مرض؟» قال: «نعم» قال: «فلعلك كرهته» قال: «ما أحب أنه بغيري» قال: «أليس احتساباً للخير فيما أصابك منه؟» قال: «بلى» قال: «أبشر برحمة ربك وغفران ذنبك! من أنت يا عبد الله؟» قال: «أنا صالح بن سليم» قال: «ممن أنت؟» قال: «أما الأصل فمن سلامان ابن طيىء، وأما الجوار والدعوة (النسب) فمن بني سليم بن منصور» قال الإمام: «سبحان الله، ما أحسن اسمك واسم أبيك واسم أدعيائك (يعني: حلفائك) واسم من اعتزيت إليه. هل شهدت معنا غزاتنا هذه؟» قال: «والله ما شهدتها، ولقد أردتها، ولكن ما ترى بي من لحب الحمى (أضعافها الجسم) عذلني عنها» قال علي: «قال الله عزّ وجلّ: **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون**

حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ أخبرني ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟» قال: «منهم المسرور فيما كان بينك وبينهم، وأولئك أغشاء الناس، ومنهم المكبوت الآسف لما كان من ذلك، فأولئك نصحاء الناس لك» قال علي: «صدقت. جعل الله ما كان من شكواك حطاً لسيئاتك، فإن المرض لا أجر فيه، ولكن لا يدع للمرء ذنباً إلا حطه. إنما الأجر في القول باللسان، والعمل باليد والرجل، وإن الله عزّ وجلّ يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة. . . عالماً جماً من عباده الجنة».

والتفت علي يتأمل جنده فوجدهم أقل بكثير من عدتهم يوم خرج بهم، فقد استشهد الكثير، وخرج عليه اثنا عشر ألفاً لأنه قبل التحكيم بعد أن اضطروه إلى قبوله. . فاعتزلوا بحروراء غير بعيد من الكوفة. . وما انفك بعض القراء ينسحبون، وينضمون إلى أولئك الخوارج عليه. . ! وإنه ليهز رأسه أسفاً على موقف هؤلاء القراء منه إذ برجال من أصحابه يخفون إليه قائلين: «يا أمير المؤمنين، في أعناقنا بيعة ثانية، نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت».

فوثب بعض القراء قائلين: «استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان. . ! بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم أنتم علياً على أنكم أولياء من والاه وأعداء من عاداه».

فاعترضهم نفر من أصحاب الإمام ينكرون عليهم أنهم يكفرون من خالفوهم!. هذا التكفير منكر لا يقبله العقل، ويغضب الله عزّ وجلّ. . إنهم ليتهمون علياً نفسه بالكفر، وهل عرف منهم أحد كيف يقرأ القرآن إلا بفضل علي؟! ولكنهم يتلون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وما يتدبرون ولا يعقلون!

فتشاتم الفريقان. . وأوشكوا أن يتشابكوا. . واختلطت أصواتهم، جماعة تقول: «يا أعداء الله، أرهتم في أمر الله عزّ وجلّ وحكمتم».

فترد الأخرى.. «فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا».

فقال زياد بن النضر: والله ما بسط علي يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيهﷺ. ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: «نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت. ونحن كذلك. وهو على الحق والهدى، ومن خالفه ضال مضل».

فلم يجيبوه، وتسللوا إلى حروراء فلحقوا بالخوارج!

ومضى الإمام بمن معه، فقابله في بعض الطريق على مشارف الكوفة أحد الذين ولاّهم بعض الأمر من الأنصار، فسأله الإمام علي: «ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟» قال: «منهم المعجب به، ومنهم الكاره له، كما قال عزّ وجلّ: ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك**﴾ قال: ««فما قول ذوي الرأي؟» قال: «يقولون إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه وكان له حصن حصين فهدمه، فحتى متى يبني ما هدم، وحتى متى يجمع ما فرق؟! فلو أنه كان مضى بمن أطاعه ـ إذ عصاه من عصاه ـ فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذن كان ذلك هو الحزم» فقال الإمام: «أنا هدمت أم هم هدموا!؟ أنا فرقت أم هم فرقوا!؟ أما قولهم إنه لو كان مضى بمن أطاعه ـ إذ عصاه من عصاه ـ فقاتل حتى يظفر أو يهلك، إذن كان من الحزم، فوالله ما خفي عني ذلك، وإن كنت لسخياً بنفسي عن الدنيا، طيب النفس بالموت، ولقد هممت بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هذين (الحسن والحسين)، قد ابتدراني أي سارعا إلى السلاح قبلي) فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل محمدﷺ من هذه الأمة، فكرهت ذلك، وأشفقت على هذين أن يهلكا. ونظرت إلى هذين قد استقدماني «ابنه محمد المعروف بابن الحنفية وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (أي تقدماني) وقد علمت أن لولا مكاني لم يستقدما. وأيم الله لئن لقيتهم بعد يومي هذا لألقينهم وليسوا معي في عسكر ولا دار».

ومضى في طريقه. وإنه ليقترب من باب الكوفة، إذ صكت أذنيه

صرخات منتحبة، وأنات فاجعة فوقف وسأل أحد كبراء الكوفة: «ما هذا؟» قال: «هذا البكاء على قتلى صفين» قال: «أيغلبكم نساؤكم!؟ ألا تنهوهن عن هذا الرنين؟!» قال الرجل: «يا أمير المؤمنين لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدرنا على ذلك، ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل. فليس دار إلا وفيها بكاء، فأما نحن معشر الرجال فإنا لا نبكي، ولكن نفرح لهم، ألا نفرح بالشهادة؟!» قال الإمام: «رحم الله قتلاكم وموتاكم».

ومشى الرجال إلى جوار الإمام والإمام يحث دابته، فتوقف الإمام وقال لذلك الكبير من رجال الكوفة: «ارجع. فإن مَشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي، ومذلة للمؤمن».

وحانت التفاتة من عليّ فبصر بقبور لم تكن حين غادر الكوفة منذ أربعة أشهر. فسأل: «ما هذه القبور؟» قال له رجل من أهل الكوفة: «إن خباب بن الأرت توفي بعد مخرجك، فأوصى بأن يدفن هنا وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم. فدفن هنا رحمه الله، ودفن الناس إلى جنبه».

وشعر الإمام بالأسى لوفاة خباب بن الأرت رضي الله عنه.. وكما تلخص القوقعة الصغيرة هدير البحر العريض الزاخر المتلاطم ورائحته، مرت في خاطر الإمام صورة خاطفة استجمع فيها حياة خباب كلها، منذ أعتقته إحدى ثريات قريش، فتحول إلى صناعة السيوف، حتى أسلم، فاستولى أئمة الكفر في قريش على الحديد الذي يصنع منه السيوف، وعذبوا فيه، كنت صبياً ما تزال يا علي تجلس إلى جوار رسول الله ﷺ وهو متوسد ببرد له في الكعبة، فجاء خباب يطلب من الرسول أن يسأل الله أن ينصره هو وسائر المعذبين مثله، فجلس الرسول ﷺ وقد احمر وجهه وقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل، فيحفر له في الأرض، ثم يجاء بمنشار فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه.

ويمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه. وليُتَمِنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عزّ وجلّ، والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون!».

وانصرف خباب متأسياً يواجه التعذيب بصمود غريب.. وأقبلت عليه القرشية الثرية التي أعتقته من قبل، فاشتركت في تعذيبه، وجعلت تكوي رأسه وظهره بالحديد المحمى حتى تهرأ جلده، فمر به الرسول وهي تعذبه فقال: «اللهم انصر خباباً»..

لقد شاهدت يا علي تلك المرأة وقد عضها كلب فأصابها السعار بعد أيام، فكانت تنبح كالكلاب وتعوي، ولم يجدوا لها طباً إلا كي رأسها بالنار!!..

وارحمتا لك يا خباب!! لكم تحملت، ولكنك صبرت، وعكفت على القرآن تعلم المسلمين الجدد ما نزل من آياته.. وإنك لتذكر يا علي يوم قدم على الرسول ﷺ بعض المسلمين الجدد من سادة قريش وأثريائها، فسألوا أن يخصص لهم يوماً يلقاهم فيه وحدهم، غير اليوم الذي يلقى فيه المستضعفين والفقراء.. أمثال خباب وعمار وبلال وصهيب.. فأنزل الله على رسوله: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين.. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين.. وإذ جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾**.

فما كان الرسول بعد ذلك يلقى خباباً حتى يرحب به ويقول: «أهلاً بمن أوصاني به ربي».

وهاجر خباب، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله مجاهداً في

سبيل الله. ولما أفاء الله على المسلمين الأموال الطائلة في عهد عمر بعد الفتوحات الكبرى، كان خباب أحد الذين ميزهم عمر لأنه من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر، فاشترى خباب داراً في الكوفة من عطائه، ووضع أمواله في مكان بارز بالدار، دل عليه أصحابه ليأخذ منه أهل الحاجة إن لم يكن خباب في الدار!!

وارحمتا لك يا خباب!! لقد تركته يا علي قبل أن تخرج إلى الكوفة ـ منذ نحو أربعة أشهر ـ وهو يشعر بدنو أجله، وعندما زرته قبل الخروج إلى صفين بكى وأشار إلى المكان الذي يضع فيه أمواله وقال: «والله يا أمير المؤمنين ما شددت عليها من خيط ولا منعتها من سائل!».

فدعا له أمير المؤمنين، وخرج بالجند إلى صفين، ثم عاد، وفي عزمه أن يكون أول من يلقى داخل الكوفة خباب بن الأرت، فإذا به يلقى أول ما يلقى قبر خباب خارج الكوفة!!

واستعبر أمير المؤمنين وقال: «رحم الله خباباً، فقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه. إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

ثم اتجه إلى سائر القبور المجاورة لخباب وقال: «السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبع، بكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم. الحمد لله الذي جعل منها خلقكم، وفيها معادكم، منها يبعثكم، وعليها يحشركم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي عن الله عزّ وجلّ».

ولم يكد علي يستقر في داره بالكوفة، حتى جاءه كريم قوم ذل، فقال: «يا أمير المؤمنين، بي إليك حاجة فرفعتها إلى الله قبل أن أرفعها

إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك» قال علي: «اكتب حاجتك فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك» فكتب الرجل: إني محتاج» فأمر الإمام صاحب بيت المال بإحضار حلة، فأخذها الرجل ولبسها. ثم أمر له بمائة دينار. فقال أحد الذين في مجلس الإمام: «يا أمير المؤمنين حلة ومائة دينار؟» قال: «نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنزلوا الناس منازلهم. وهذه منزلة هذا الرجل عندي».

ثم جاء عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة، يطلبون عطاءهم وكانوا جميعاً قد اعتزلوا، فلم يشهدوا الجمل ولا صفين، وإن كانوا قد أغلظوا لمعاوية حين طلب منهم أن ينصروه على عليٍّ، ووضحوا له فضل عليٍّ عليهم، وعليه!

وكان علي قد تركهم وشأنهم منذ اعتزلوا ولم يبايعوه، ولكن عطاءهم كان يصلهم في منازلهم.

سألهم معاتباً: «ما أخركم عني؟ ألستم تعلمون أن الله عزّ وجلّ قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر. فقال: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾»؟

فقال سعد بن أبي وقاص: «إنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين ولكن أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن..!.. أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار».

قال الإمام: «إن عثمان كان إماماً بايعتموه على السمع والطاعة، فعلام خذلتموه إن كان محسناً، وكيف لم تقاتلوه إن كان مسيئاً؟! فإن كان عثمان أصاب بما صنع فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، قد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم

الله، فإنه قال: ﴿قاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾».

فلم يرد أحد منهم.. وطال الصمت.. ثم انصرف الثلاثة راشدين.

وأقبل رجلان من شيوخ القبائل يهنئان أمير المؤمنين بالعودة وبالنصر، فأراد أن يكرمهما، فألقى إليهما بوسادتين فقعد أحد الرجلين على الوسادة، ولم يقعد الآخر، بل قعد على الحصير كما يقعد أمير المؤمنين، فقال له الإمام مداعباً: «اقعد على الوسادة يا رجل، فلا يأبى الكرامة إلا حمار!» وضحكوا جميعاً، وقعد الرجل، وذهبت مثلاً!

الفصل الخامس

الخديعة و.. والتطرف!

اقترب رمضان، سنة سبع وثلاثين للهجرة، الموعد المضروب لالتقاء الحكمين، فأرسل علي كرَّم الله وجهه وفداً من أربعمائة رجل على رأسهم عبد الله بن عباس وشريح بن هانيء، ومعهم أبو موسى الأشعري. وأرسل معاوية وفداً من أربعمائة رجل ومعهم عمرو بن العاص.

والتقوا جميعاً في (دومة الجندل) بين العراق والشام.

وكانت الرسائل تتردد بين معاوية في دمشق وعمرو في دومة الجندل، فلا يعرف أحد من وفد الشام ما بعث به معاوية ولا ما رد به عمرو، ولا يحاول أحد أن يسأل، فقد ألفوا أن يتركوا الأمر جميعاً لمعاوية منذ بايعوه على السمع والطاعة.

أما وفد العراق فكانوا إذا علموا أن كتاباً وصل من علي وثبوا على ابن عباس يسألونه: «ما الذي كتب به إليك أمير المؤمنين؟» فإذا كتم عنهم شغبوا عليه وصاحوا غاضبين: «لماذا كتمتنا ما كتب به أمير المؤمنين؟ أتراه كتب في كذا أو في كذا؟». وضاق ابن عباس بإلحاحهم وأخذ يؤنبهم: «أما تعقلون؟! إذا جاء رسول أمير المؤمنين قلتم بأي شيء جاء؟ فإذا كتمتكم قلتم لم تكتمنا. أجاء بكذا وكذا؟ وما تزالون تظنون حتى تصيبوا، فليس لكم سر..! ألا ترون رسول معاوية يجيء ويرجع لا يعلم أحد بما جاء ورجع، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط، وأنتم عندي كل يوم تظنون!؟ أما تعقلون؟».

وكان رؤساء وفد العراق من أصحاب الإمام يشفقون من لقاء عمرو بأبي موسى، فلم يألوه نصحاً ورجاء أن يتحسب من مكر عمرو...

أخذ شريح بيده وقال له: «يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه، ومهما تقل شيئاً لك أو عليك يثبت حقه، وإن كان باطلاً، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية، ولا بأس على أهل الشام إن ملكها علي. وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً، والرجاء منك يأساً!».

فغضب أبو موسى من كلام شريح وقال: «ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجر إليهم حقاً!».

فقام شريح في الناس فعظم أمر أبي موسى، واسترضاه حتى رضي.

وكان الأحنف بن قيس يتوقع ما عساه يحدث بين أبي موسى وعمرو. والأحنف من أعرف الرجال بالرجال. ولكم شكا إلى الله ما شكاه عمر بن الخطاب: ضعف بعض أهل التقوى، وقوة أهل الهوى.

وكان الأحنف قد خرج يودع أبا موسى قبل أن يرحل فظل يترفق به، وأمسك بيده وقال ناصحاً في إشفاق على مصير الإمام من عمرو: «يا أبا موسى، اعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وإنك إن أضعت العراق فلا عراق! فاتق الله. وإذا لقيت عمرو بن العاص غداً فلا تبدأ بالسلام، فإنها وإن كانت سنة إلا أنه ليس أهلها، ولا تعطه يدك فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة، ولا تلقه وحده، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود. فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيِّره أن يختار أهل العراق من قريش والشام من شاؤوا، فإنهم يولونا الخيار فنختار من نريد، وإن أبوا، اختار أهل الشام من قريش العراق من شاؤوا، فإن فعلوا كان الأمر فينا».

ولم يحفل أبو موسى بما قاله الأحنف، ورد عليه بفتور: «قد سمعت ما قلت».

وعاد الأحنف إلى علي فقال له: «يا أمير المؤمنين. لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك» قال الإمام ممتثلاً: «يا أحنف، إن الله غالب على أمره» قال الأحنف: «فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين».

وكان شرحبيل بن السمط قد سار مع عمرو بن العاص ووفد الشام في خيل عظيمة حتى استقر عمرو بدومة الجندل، فقال وهو يودعه: «يا عمرو إنك رجل قريش، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك، وإنك لن تؤتى من عجز أو مكيدة، وقد عرفت أني وطأت هذا الأمر لك ولصاحبك، فكن عند ظننا بك».

فلما انصرف عنه عمرو، جاءه شريح فقال: «يا عمرو، إن أمير المؤمنين علياً يقول لك: إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه، وإن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده. والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق، فلم تتجاهل؟ أبأن أوتيت طعماً يسيراً فكنت لله وأوليائه عدواً؟! فكأن والله ما أوتيت قد زال عنك، فلا تكن للظالمين ظهيرا. أما إني لأعلم أن يومك الذي أنت فيه نادم هو يوم وفاتك، وسوف تتمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة، ولم تأخذ على حكم رشوة».

ولم يكد شريح يفرغ من أداء رسالة علي حتى احتقن وجه عمرو، واضطرم غضبه وقال: «ومتى كنت أقبل مشورة علي أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه؟» قال شريح محتداً: «وما يمنعك يا بن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم ﷺ مشورته؟ لقد كان من هو خير منك، أبو بكر وعمر، يستشيرانه ويعملان برأيه» قال عمرو: «إن مثلي لا يكلم مثلك» قال شريح: «بأي أبويك ترغب عن كلامي؟ بأبيك الوشيظ (الدخيل والتابع) أم بأمك النابغة؟!».

فانصرفا متغاضبين...

وكان عمرو ربما عيّره الناس بأمه، فيأبى عليه حلمه ودهاؤه أن يغضب!

سأله رجل عن أمه فقال: «هي سلمى بنت حرملة، تلقب بالنابغة من بني عنزة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت له، فأنجبت، فإن كان جعل لك شيء فخذه». (أسد الغابة).

كان أصحاب علي يخافون كيد عمرو على طيبة أبي موسى.. ذلك أن دهاء عمرو لا يعرف الحرج ولا حدوداً يقف عندها، ولا يتورع عن شيء وهو قادر على التأويل والتعلل، فهو في حرب مع علي، وبما أن الحرب خدعة فقد تجيز عنده ما لا يجوز لمسلم!

أما أبو موسى فهو رجل ورع متحرج، وطيبته تضع لأقواله وأعماله حدوداً لا يتجاوزها، بل لا يقع فيها، لينأى بنفسه عن الشبهات.

من أجل ذلك كان أصحاب علي يلحون في تحذير أبي موسى من مكر عمرو به، ويتمثلون ما عسى أن يبلغ دهاء عمرو منه، فيقترحون عليه ما ينبغي له أن يرد به على عمرو!

وما كان أصحاب علي وحدهم هم الذين يشفقون من مكر عمرو ودهائه هذا الدهاء الذي لا تردعه التقوى!.. ولقد كان علي يقول: «لولا التقوى لكنت أدهى العرب».

ولكن معاوية نفسه كان أيضاً يهاب دهاء عمرو ويحسب له...

إنهم جميعاً ليعلمون أن عمرو بن العاص ما تولى ما تولاه من أمور المسلمين في عهد الرسول والشيخين إلا لأنه الأصلح لا الأتقى.. فالسياسة الشرعية أسست قواعد الولاية على أنها للأصلح فالأصلح، لا للأتقى فالأتقى...

هكذا قاد خالد بن الوليد جيوشاً فيها من هم أتقى منه وأعلم بالدين، وهكذا تولى الإمرة عمرو! ونصح الرسول أبا ذر ألا يتولى إمرة المسلمين لأنه لا يصلح، وإن كان أصدقهم لساناً وأكثرهم تقوى!

وقد علم معاوية أن سبب انضمام عمرو إليه، هو الخوف على ضياعه أو أمواله، والنزوع إلى الملك!!

ونزوعه إلى الإمرة جعله يجاوز كل حد، ولا يخجل من أي أحد! لا من أبي بكر ولا من عمر، ولا حتى الرسول نفسهﷺ!!

فقد تحدث الذين شهدوا غزوة ذات السلاسل: أن عمرو بن العاص حين بعثه الرسولﷺ يدعو أخوال أبيه العاص إلى الإسلام، وقف على ماء يقال له السلاسل (ولهذا سميت الغزوة باسم ذات السلاسل)، فلما كان عليه خاف، فبعث إلى رسول اللهﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، وفيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة: «لا تختلفا». فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: «إنما جئت مدداً لي» فقال أبو عبيدة: «لا، ولكني أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه» ـ وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً ليناً هيناً عليه أمر الدنيا ـ فقال له عمرو: «بل أنت مدد لي» فقال أبو عبيدة: «يا عمرو إن رسول اللهﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك!» فقال له عمرو: «فإني أمير عليك» قال: «فدونك» فصلى عمرو بالناس، وجعل نفسه أميراً على أبي عبيدة وأبي بكر وعمر[1].

فإذا كان قد صنع هذا بأبي عبيدة وهو أمين الأمة، وأحد المبشرين بالجنة، وأحد الذين عرض عليهم أبو بكر البيعة قبله، فما باله إذن لا يصنع ما يشاء مع معاوية!

(١) انظر: سيرة ابن هشام وأسد الغابة لابن الأثير والطبقات الكبرى لابن سعد.

ولكم عذب هذا الخاطر معاوية!! رأى أن يذهب إلى مكان قريب من الحكمين، ولكنه انتظر.

وجاء عبد الله بن عباس إلى أبي موسى يحذره مكر عمرو قبل أن يجتمع به، قال: «يا أبا موسى أنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ، وصاحب مغانم أبي بكر، وعامل عمر بن الخطاب. واعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة وليس فيه خصلة تقربه من الخلافة، فإن صدقك فقد حل خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه، وإن ادعى أن عمر وعثمان استعملاه، فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب من المريض، يحميه مما يشتهي، ويوجب عليه ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة! واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبراً يسوءك، وإن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدى، وأنه لم يقاتل إلا عاصياً أو ناكثاً» فقال أبو موسى: «رحمك الله، أما والله ما لي إمام غير علي، وإني لواقف عندما رأى، ولرضاء الله تعالى أحب إليَّ من رضا الناس، وما أنا وأنت إلا بالله تعالى».

وكان معاوية قد أوصى عمرو بن العاص، فقال له قبل أن يرحل عنه ليلتقي بأبي موسى: «يا عمرو، إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وأرجو في دفع هذه الحرب خصالاً: قوة لأهل الشام، وفرقة لأهل العراق، وأمداداً لأهل اليمن، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان، قصير الرأي، وله على ذلك دين وفضل، فدعه يقل، فإذا هو قال فاصمت، واعلم أن حسن الرأي زيادة في العقل. إن خوفك العراق فخوفه الشام، وإن خوفك مصر فخوفه اليمن وإن خوفك علياً فخوفه بمعاوية، ولا تلقه برأيك كله، وإن أتاك بالجميل فأته بالجميل».

فقال عمرو بغيظ: «أقلل الاهتمام بما قبلي، وارج الله تعالى فيما وجهتني له، إنك من أمرك على مثل حد السيف، لم تنل في حربك ما رجوت. ولم تأمن ما خفت، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً. وقد ذكرت لأبي موسى ديناً، وإن الدين منصور. أرأيت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه، ما أقول؟» قال معاوية مستسلماً عاجزاً منهزماً أمام سؤال عمرو: «قل ما تريد وترى!».

وكان معاوية وعمرو منذ التقيا بعد قتل عثمان قد ألفا أن يغيظ أحدهما الآخر... كل واحد منهما في حاجة إلى صاحبه: لا هو يستغني عنه، ولا هو يبدو مفتقراً إليه...!

وعندما خرج عمرو وصحبه من عند معاوية قال لهم عمرو: «هل ترون ما أراد معاوية من تصغير أبي موسى؟» قالوا: «لا» قال: «تصغيري أنا، فقد عرف أني خادعه فغالبه!».

في أول لقاء ضم عمراً وأبا موسى، قال عمرو: «يا أخي، قبح الله أمراً فرق بيننا».

ثم أقعد أبا موسى على صدر الفراش، وتواضع له، وكان في أبي موسى حياء، فكلما أراد أن يتساوى في مجلسه مع عمرو قال له: «إنك قد سبقتني إلى الإسلام، وصحبت رسول الله ﷺ قبلي، وأنت أكبر مني وأنت ضيف».

ثم يتناجيان وحدهما.

والأيام تمضي ثقيلة على الناس جميعاً، وما اتفق الحكمان بعد... حتى ضاق الناس بالانتظار.

فأقبل الأشعث بن قيس عليهما فقال: «يا هذان. إنا كرهنا هذه الحرب، فلا ترداها إلينا، فإنها مرة الرضاع والفطام، فكفّاها بما شئتما».

ثم قال لهما سعيد بن قيس: «أيها الرجلان، إني أراكما قد أبطأتما بهذا الأمر، حتى أيس القوم منكما، فإن كنتما اجتمعتما على خير فأظهراه، نسمعه ونشهد عليه، وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب!».

ثم أتاهما عدي بن حاتم فقال: «أما والله يا عمرو إنك لغير مأمون الغناء، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا: «والله مالكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر!».

فقال أبو موسى مغضباً: «كفوا عنا، ولا تتعجلونا، فإننا إنما نقول فيما بقي، ولسنا نقول فيما مضى».

وقال جماعة من قريش الشام لمعاوية: «إن عمرو بن العاص قد أبطأ بهذه الحكومة، وهو يريدها لنفسه!».

وما كان هذا الظن قد غاب عن ذهن معاوية، فلم يشأ أن ينتظر قرار الحكمين في قصره بدمشق، وسار في موكب عظيم، فعسكر على مقربة منهما، أدنى من أن يسمح لعمرو بخداعه، وأبعد من أن يتهمه أحد بأنه يحرج الحكمين أو يضغط عليهما!

فلما لم يفصل الحكمان، ضاق معاوية بهما، وألح عليه الشك في عمرو بن العاص.. فأرسل إلى جماعة من قريش يستميلهم إليه، وكتب إليهم: «إن الحرب قد وضعت أوزارها، والتقى هذان الرجلان بدومة الجندل، فأقدموا علي».

فأتاه جماعة من قريش فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وجاءه المغيرة بن شعبة الذي كان قد اعتزل بالطائف. فقال: «يا مغيرة ما ترى؟» قال: «يا معاوية، لو وسعني أن أنصرك لنصرتك. ولكن عليَّ أن آتيك بأمر الرجلين».

فذهب إلى دومة الجندل، فزار أبا موسى الأشعري وقال له: «يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء؟» قال: «أولئك

خيار الناس» ثم ذهب إلى عمرو بن العاص يزوره فقال له: «يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر، وكره هذه الدماء؟» قال: «يا مغيرة أولئك شرار الناس، لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلاً، فهم خلف الأبرار وأمام الفجار!».

فعاد المغيرة إلى معاوية فقال: «قد ذقت الرجلين: أما أبو موسى فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه في زوج ابنته عبد الله بن عمر. وأما عمرو فهو صاحبك الذي تعرف. وإن ظن الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه!».

وانتظر معاوية مقدم سعد بن أبي وقاص... لو أنه قبل دعوته!!.. لم يبق على ظهر الأرض من العشرة المبشرين بالجنة غير سعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب، وما بقي من أهل الشورى الستة الذي زكاهم عمر للخلافة من بعده غير سعد وعلي!!!

لو أن سعداً انحاز إليك يا معاوية، أو حتى قبل دعوتك وقدم عليك، لعرفت كيف تفيد من وجوده معك، ولمال مقدمه ببعض أنصار عليٍّ إليك!!

ولكن سعد بن أبي وقاص لم يجب! فأتاه ابنه عمر بن سعد، فقال له: «يا أبي، التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك، حتى تفانوا، ثم حكموا الحكمين أبا موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص. وقد حضر ناس من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل الشورى. ولم تدخل في شيء تكرهه هذه الأمة، فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غداً» قال سعد: «مهلاً يا عمر! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون بعدي فتنة خير الناس فيها الخفي التقي. وهذا أمر لم أشهد أوله، فلا أشهد آخره. ولو كنت غامساً يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي» فرجع عمر بن سعد خائباً..!

حين كان معاوية بالقرب من دومة الجندل يحكم خططه، كان علي بعيداً في الكوفة يعالج أموراً مضطربة.. وكان لديه من أمور الدولة ما يجب أن ينهض به. فقد انتهز أقوام فرصة الانشغال بالحرب التي أشعلها معاوية، وانقضوا على بعض أطراف الدولة!! ثم أن هناك أمصاراً في الدولة أهمها مصر بلا أمير، منذ تركها قيس بن سعد بن عبادة.

وهناك أيضاً عصابة من أتباعه توشك أن تشعل الفتنة في العراق، وهم هؤلاء القراء المتعصبون المتطرفون الذين يتحاورون مع الناس بتكفيرهم، فقد اضطروه آنفاً إلى القبول لما رفع معاوية وعمرو المصاحف حين تأكدت لهم الهزيمة، فلما حاول أن يقنعهم بأنها ليست الدعوة إلى حكم القرآن ما يريد معاوية وعمرو بل هي المكيدة والخديعة، هددوه بالقتل، وهو إمامهم وأستاذهم.. فلما أذعن لهم، وقبل التحكيم، اتهموه بالكفر!! واعتزل منهم نحو اثني عشر ألف مقاتل، يضللون الناس.. وجاءه منهم فتيان فقالا: «لا حكم إلا لله يا علي». فقال علي: «لا حكم إلا لله» قال أحدهما واسمه حرقوص: «تب من خطيئتك، وارجع عن قضيتك وارجع بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا» قال الإمام: «قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً، وشرطنا شروطاً، وأعطينا عليها عهوداً» وقد قال الله تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم**﴾» فقال الفتى الثاني واسمه زرعة بن برج: «ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه يا علي» قال: «ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي، وقد نهيتكم». قال الفتى لأمير المؤمنين كرَّم الله وجهه: «يا علي، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله» قال الإمام: «بؤساً لك! ما أشقاك! كأني بك قتيلاً تسفي عليك الرياح!» قال الفتى: «وددت لو كان ذلك!».

وخرجا من عند الإمام يتهمانه بالكفر، ويكفرون من لم يخرج عليه!!

وصعد على منبر مسجد الكوفة ليخطب الناس، فارتجت جوانب المسجد بصيحات المتطرفين الخوارج عليه: «لا حكم إلا لله يا علي» قال الإمام: «الله أكبر! كلمة حق يراد بها باطل» فقال له أحد القراء: «نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين نختار» وقال رجل آخر من القراء: «جزعت من البلية، ورضيت بالقضية (بالتحكيم)، وقبلت الدنية».

فصفق الإمام إحدى يديه على الأخرى أسفاً وندماً وقال: «هذا جزاء من ترك العقدة (التعاقد على حرب الذين رفضوا بيعته وهم معاوية وعمرو وأهل الشام). أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى، ولكن بمن؟! وإلى من؟! أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي!... أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا له، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً وصفاً صفاً؟! بعض هلك وبعض نجا... حمر العيون من البكاء ذُبلُ الشفاه من الدعاء (ذبل جمع ذابل)، خُمص (ضوامر) البطون من الصيام، صفر الألوان من السهر... أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم. إن الشيطان يسهل لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة، فاصدفوا عن نزعاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم، واعقلوها في أنفسكم».

فانصرفوا يتفكرون فيما قاله الإمام.

حتى إذا كان اليوم التالي، أراد الإمام أن يخطب فشغبوا عليه.. لقد اضطربت الأمور، وها هي ذي عصابة من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه تتحداه، وتكاد تمنعه من مخاطبة الرعية، وتسيء الأدب في محادثته، وتتهمه بالكفر..!

دوت آفاق الكوفة بالهتافات: «لا حكم إلا لله» قال الإمام مرة أخرى: «كلمة حق يراد بها باطل».

وغضب أصحاب الإمام، وطالبوه أن يأذن لهم فيؤدبوا هؤلاء الخوارج ويلزموهم الطريق الصواب، فرفض الإمام أن يبدأهم بقتال، وقال لأصحابه: «إن سكتوا غممناهم (سترناهم)، وإن تكلموا حججناهم (غلبناهم بالحجة)، وإن خرجوا علينا قتلناهم» فوثب فتى طويل اللحية مهترىء الجبهة، متجهم الوجه، متوتر القسمات، فصاح بصوت أجش منكر: «يا علي! أبالقتل تخوفنا؟» أما إني لأرجو أن نضربكم بها عما قليل، ثم لتعلم أينا أولى بها صليا. اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في ديننا، فإن إعطاء الدنية في الدين إرهات في أمر الله، وذل راجع بأهله إلى سخط الله»...

هكذا كان يخاطبه المتطرفون من تلاميذه، وقد علموا أنه باب مدينة العلم، وإنه إمام المتقين!

وفي يوم آخر حاول أن يخطب ويعظ الناس، فعادت أصوات نتيان القراء وأهل التطرف منهم تهدر: «لا حكم إلا لله!» فقال الإمام: «الله أكبر. كلمة حق أريد بها باطل! أما إن لكم عندي ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا، وإنما ننتظر فيكم أمر الله».

وتسلل عدد من هؤلاء إلى حروراء من ضواحي الكوفة، فانضموا إلى من سبقوهم، حتى بلغت عدتهم ستة عشر ألفاً..!

فرأى الإمام أن يرسل إليهم عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس أفقه أصحاب علي وتلاميذه، وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له، وكانوا يسمونه البحر لسعة علمه، وكان على صغر سنه أعلم الناس بالتفسير والحديث وقضاء أبي بكر وعمر وعثمان، حتى لقد جلس إليه

طاووس، وترك كبار الصحابة فقيل له: «لزمت هذا الغلام وتركت الأكابر من صحابة رسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارؤوا (اختلفوا) في أمر صاروا إلى قول ابن عباس».

وقد حفظ ابن عباس وصية عن رسول الله ﷺ كان يعلمها للناس قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ في سفر فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

وكان ابن عباس وسيماً مهيباً طويل القامة ممتلىء الجسم صبيح الوجه.. قوي الحجة، ذلق اللسان، فكان من يجادله يحسب له ألف حساب.

قبل أن يمضي إليهم أوصاه الإمام: «لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك» فلما أقبل إليهم ابن عباس في حلة جميلة، أنكروا عليه أن يلبسها، ورأوها فتنة وكفراً. فلم يستطع أن يسكت عنهم فقال لهم: «يا حملة القرآن. تفكروا في قوله عزّ وجلّ: **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾** ثم سألهم: «ما نقمتم من الحكمين؟ أما فقهتم قوله تعالى: **﴿إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾**؟ قال هذا في رجل وامرأة فكيف بأمة محمد؟ وقوله تعالى: **﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾**؟

فقال رجل: «أعدل عندك عمرو بن العاص؟!» ثم قالوا: «إذا كان عليٌّ على حق، فما باله حيث ظفر لم يسب؟!» فقال لهم ابن عباس: «أفكنتم تسبون أمكم عائشة؟!» فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا:

«أمسك عنا يا بن عباس حرب لسانك فإنه طلق ذلق غواص على مواضع الحجة».

وأقام ابن عباس معهم في حروراء ثلاثة أيام يجادلهم حتى أقنع منهم أربعة آلاف، فعاد بهم إلى الإمام بالكوفة، فأرسل الإمام إلى من تبقى منهم بحروراء: «فقد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد. وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دماً حراماً أو تقطعوا سبيلاً أو تظلموا ذمة (أحد أهل الذمة) فإن فعلتم، فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء **﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾**.

وأذن مؤذن علي ألا يدخل على أمير المؤمنين رجل إلا رجلاً حمل القرآن. فجاءه القراء الخوارج الذين عاد بهم ابن عباس، فلما امتلأ بهم الجامع والرحبة أمامه دعا أمير المؤمنين بمصحف ضخم، فلما وضعوه أمامه قال: «أيها المصحف حدث الناس». فقالوا له: «يا أمير المؤمنين! إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد؟» قال: «أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا علي، بيني وبينهم كتاب الله. يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: **﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾**. فأمة محمد أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل! ونقموا عليَّ أني كتبت في صحيفة التحكيم علي بن أبي طالب، بدلاً من أمير المؤمنين، وقالوا انسلخت من قميص ألبسكه الله، واسم سماك الله به، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ في الحديبية حين صالح قريشاً فقال لي رسول الله: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا تكتب هذا بل اكتب باسمك اللهم ثم قال لي رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لا، لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك، بل اكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً.. فأمرني رسول الله أن أمحو بسم الله الرحمن الرحيم وأكتب باسمك اللهم، وأن

أمحو (محمد رسول الله) واكتب محمد بن عبد الله. يقول الله في كتابه: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾**.

فانصرفوا راضين بما سمعوه من الإمام...

ثم خرج الإمام إلى من بقي منهم بحروراء وكانوا نحو اثني عشر ألفاً.. وكان قد عرف أن من رؤسائهم يزيد بن قيس، فأتاه في سرادقه، وصلى ركعتين ثم قال: «اللهم هذا مقام من يفلج فيه كان أولى بالفلج (الفوز).. ثم سألهم: «من زعيمكم؟» قالوا: «ابن الكواء» قال: «ما أخرجكم علينا؟!» قالوا: «حكومتك يوم صفين» قال: «أنشدكم الله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف وقلتم نجيبهم قلت لكم إنهم ليسوا بأصحاب دين؟وظل يذكرهم بما نصحهم به آنفاً، وهم يهددونه إن لم يقبل التحكيم أن يصنعوا به كما صنع بعثمان... فوجموا!

فقال لهم الإمام: «قد اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بالقرآن فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء».

قالوا: «أتراه عدلاً تحيكم الرجال في الدماء؟».

قال: «إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال» قالوا: «فخبرنا عن الأجل لم جعلته بينكم؟» قال: «ليعلم الجاهل ويتثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخلوا مصركم رحمكم الله».

وشعر أن بعضهم هدأت حدته، وأن الآخرين ما زالوا في توترهم، فسألهم: «أكلكم شهد معنا صفين؟» قالوا: «منا من شهد ومنا لم يشهد» قال: «فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد صفين فرقة، ومن لم يشهدها فرقة، حتى أكلم كلاً بكلامه».

وحدث هرج، واختلطت أصوات، فنادى الإمام الناس: «أمسكوا عن الكلام، وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن ناشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها».

واتجه إلى الفرقة التي شهدت صفين فقال: «ألم تقولوا عن رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكراً وخديعة: إنهم إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأي القبول منهم والتنفيس عنهم!؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان، وأوله رحمة وآخره ندامة، ولا تلتفتواإلى ناعق نعق، إن أجيب أضل، وإن ترك ذل. . . وإن الكتاب لمعي، ما فارقته منذ صحبته. فلقد كنا مع رسول الله ﷺ وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً، ومضياً على الحق، وتسليماً للأمر، وصبراً على مضض الجراح. ولكنا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل. . فإذا طمعنا في خصلة يلم الله به شعثنا ونتدانى إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها».

وسكتوا. . . فقال لهم: «ادخلوا مصركم رحمكم الله» وركب. . فركبوا. . وعاد بهم إلى مصرهم: الكوفة، فدخلوا الكوفة آمنين. . وبايعوه على السمع والطاعة. .

وعذب معاوية الشك في عمرو بن العاص!. . إن وراء هذا الإبطاء لأمراً، فهو يعرف عمراً. . !

وأرسل معاوية إليه شعراً جاء فيه:

وقال رجال إن عمراً يريدها ... فقلت لهم عمرو لي اليوم تابع
فإن تك قد أبطأت عني تبادرت ... إليكم بتحقيق الظنون الأصابع

ثم أنه أمر بسرادق فخيم فضرب له على مشارف (دومة الجندل) أقرب من أن يعتبر غائباً فينتهز عمرو غيابه، وأبعد من أن يكون شاهداً، فيتهم بالتأثير على الحكمين!

أما الإمام فقد آثر أن يظل بالكوفة بعيداً، لينظر فيما أفسدته الحرب من أمور الدولة: فها هم أقوام من أهل خراسان قد امتنعوا عن أداء الزكاة والخراج، وتناجوا فيما بينهم: «إذا كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضاً وفيهم من يعلنون العصيان على إمامهم ويحاربونه، وإذا كان أتباع محمد قد أذاقهم ربهم بأس بعضهم بعضاً، فمن الخير أن نعود إلى ملتنا التي وجدنا عليها آباءنا».. وهكذا خرجوا من الطاعة، ومن الإسلام جميعاً..

وهذا هو بعض ما غرسته الفئة الباغية، خروج من خرج على الإسلام وارتدادهم إلى ما كانوا عليه، ثم خروج بعض أطراف الدولة على إمام المسلمين، ثم خروج القراء المتطرفين على معلمهم واتهامه بالكفر لأنه في رأيهم قبل التحكيم في أمر الله، وأجاب دعوة كفار!!

والإمام يحاول بكل ما وهبه الله من صبر وشجاعة وحكمة وتقوى أن يؤمن ما اضطرب من سرب الأمة، ويجهد في رأب الصدع وجمع الشتات، عسى أن يعتدل الميل...

أما المتطرفون من القراء الذين أصبحوا خوارج عليه، فقد تجافى عن عصيانهم، وأقنعهم بالحكمة والموعظة الحسنة أن يعودوا من حروراء - حيث كانوا قد اعتزلوا - إلى أهلهم بالكوفة، فعادوا، ودخلوا في الجماعة...

ثم أنه أرسل جنداً إلى خراسان حيث ارتد أهل نيسابور وامتنعوا عن إيتاء الزكاة وأداء الخراج، فهزموا جند الإمام، فسير إليهم جنداً كثيفاً على رأسهم خليد بن قرة وهو من أشجع قواده، فحاصر أهل نيسابور حتى اضطرهم إلى التسليم، وعادوا إلى الإسلام ودفع ما عليهم هم وكل من خرج من أهل خراسان، فدخلوا في الجماعة ولزموا الطاعة..

ونظر في أمر سائر الأمصار، فوجد أن مصر وهي أكبرها وأخطرها

وأغناها، وأهمها لخصومه، قد أصبحت بلا وال. منذ قتل محمد بن أبي حذيفة...

وكان محمد بن أبي حذيفة أثناء الثورة على عثمان، قد وثب على حكم مصر، فلما قتل عثمان وبويع لعلي، خف معاوية إلى مصر ليستولي عليها، وبلغ عين شمس، ولكن محمد بن أبي حذيفة قام في وجهه ومعه المصريون وكانوا من أشياع علي، فاضطروا معاوية إلى الانسحاب..

واحتال معاوية على محمد بن أبي حذيفة ورؤساء مصر، فاستدرجهم إلى فلسطين.. حيث سجنوا.. ثم قتلوا، وعاد إلى دمشق ليغلبه على الاهتمام بمصر، أمر حرب صفين...

فرأى الإمام أن يستعمل محمد بن أبي بكر على مصر، وكان الإمام من قبل قد ولى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ثم عزله، فلما لحق به قيس في صفين أكرمه، وقدمه، وكان من أشجع قواده.

وللأنصار عند الرسول وعلي وفاطمة مكانة خاصة، فقد أوصى بهم الرسول، وقالت فاطمة لهم: أنتم حضنة الإسلام وأعضاد الملة...

ولقي الوالي المعزول قيس بن سعد الأنصاري الوالي الجديد محمد بن أبي بكر فنصحه: «إنه لا يمنعني نصحي لك ولأمير المؤمنين عزله إياي، فقد عزلني من غير وهن ولا عجز. فاحفظ مما أوصيك به. فأنا من أمرك هذا على بصيرة، فدع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد ومن انضم إليهما على ما هم عليه. وأنزل الناس على قدر منازلهم. وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل، فإن هذا لا ينقصك، وإذا لم تفعل فإنك لتظهر الخيلاء، وتحب الرياسة، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك، والله موفقك».

وقد عزل قيس بن سعد لأنه وجد بمصر رجالاً أعلنوا أن هواهم مع قرية خربتا بالبحيرة! فآثر قيس أن يسالمهم ما سالموه، وأجرى عليهم ما يستحقونه من أرزاق..

وثقل على معاوية وجود قيس بن سعد في مصر، وهو من هو شجاعة وإقداماً وحسن رأي وعظم مكانة، ووجد نفسه محاصراً بين علي في العراق وقيس في مصر، فحاول أن يستميل قيساً بكل المغريات، ولكن قيساً رده رداً منكراً.. فلجأ معاوية إلى الخديعة ونجح!

فكان يفخر بذلك ويقول: «ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إليَّ من مكايدة كدت بها قيس بن سعد. قلت لأهل الشام: لا تسبوا قيساً ولا تدعوا إلى غزوه، فإن قيساً لنا شيعة، تأتينا كتبه ونصيحته! ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بخربتا؟ يجري عليهم أرزاقهم! وطفقت أكتب بذلك إلى شيعتي بالعراق، فسمع بذلك جواسيس علي بالعراق، فأنهاه إليه محمد بن أبي بكر، فبعث عليٌّ إلى سعد يأمره بقتال أهل خربتا! فأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى علي: «إنهم قد رضوا مني بأن أؤمن سربهم، وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذي أفعل بهم. فإن كنت تتهمني فاعزلني وابعث غيري».

ثم أن معاوية أذاع أن قيساً بايعه، فعزله علي.. ولكن قيساً سار إلى علي وكشف له كيد معاوية.. فكان من قواد صفين..

وسار محمد بن أبي بكر إلى مصر فبلغها في منتصف رمضان سنة سبع وثلاثين، والحكمان ما زالا يتداولان في دومة الجندل، لم يعلنا قرارهما بعد!

كان محمد بن أبي بكر في السادسة والعشرين من عمره، فلما قدم مصر قرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين بتوليته: «هذا ما عهد عبد الله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، أمره بتقوى الله في السر والعلانية، وخوف الله تعالى في المغيب والمشهد، وأمره باللين على المسلم، والغلظ على الكافر، وبالعدل على أهل الذمة، وبالإنصاف للمظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس،

وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين. وأمره أن يدعو مَن قبله إلى الطاعة والجماعة، فإن لهم في ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه، وأمره أن يجبي خراج الأرض على ما كانت تجبى عليه من قبل، ولا ينتقص ولا يبتدع، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه من قبل، وإن تكن لهم حاجة، يواسي بينهم في مجلسه ووجهه، ليكون القريب والبعيد عنده على سواء. وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتبع الهوى، ولا يخاف في الله لومة لائم، فإن الله مع من اتقاه وآثر طاعته على من سواه».

ثم قرأ محمد ما كتبه أمير المؤمنين إلى أهل مصر ومنه نصح له: «أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله في سر أمركم وعلانيته، وعلى أي حال كنتم عليها، وليعلم المرء منكم أن الدنيا دار بلاء وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء، فمن استطاع أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى فليفعل، فإن الآخرة تبقى، والدنيا تفنى. رزقنا الله وإياكم بصراً لما بصرنا، وفهماً لما فهمنا، حتى لا نقصر عما أمرنا، ولا نتعدى إلى ما نهانا. واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران: أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة، ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحسن فيه نيتك، فإن الله عزّ وجلّ يعطي العبد على قدر نيته، وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمله، كان إن شاء الله كمن عمله، فإن رسول الله ﷺ قال حين رجع من تبوك: إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا هبطتم من واد إلا كانوا معكم، ما حبسهم إلا المرض - يقول كانت لهم نية - ثم اعلم يا محمد أني قد وليتك أعظم أجنادي أهل مصر، ووليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك، وتحذر فيه على دينك، ولو كان ساعة من نهار. فإن استطعت ألا تسخط ربك لرضا أحد من خلقه فافعل، فإن في الله خلفا من غيره، وليس في شيء خلف منه، فاشتد على الظالم، ولن لأهل

الخير، وقربهم إليك، واجعلهم بطانتك وإخوانك. والسلام».

وبعد أن فرغ محمد من قراءة كتابي أمير المؤمنين قال: «الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمي عنه الجاهلون. ألا إن أمير المؤمنين ولأني أمركم وعهد إليَّ ما سمعتم وأوصاني بكثير منه مشافهة، ولن آلوكم خيراً، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، فإن يكن ما ترون من أعمالي طاعة لله وتقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك. فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم عملاً بغير الحق فارفعوه إليَّ وعاتبوني فيه، فإني بذلك أسعد وأنتم جديرون. وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال».

ولكن محمداً لم ينتصح بنصيحة قيس بن سعد، فما كاد يستقر في مصر حتى أرسل إلى أهل خربتا الذين وادعهم سعد، فأنذرهم: «إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا!» فردوا عليه: «إنا لا نفعل، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس».

كانت مصر غنية، ليس في الأمة الإسلامية من له مثل غناها: كانت جنة خضراء وارفة الظلال، تجري تحتها الأنهار، تؤتي أحسن الثمرات، حتى لقد كانت قبل الفتح الإسلامي تطعم وتغذي الإمبراطورية الرومانية بأسرها فأسموها سلة فاكهة العالم، ومخزن غلال أهل الأرض!

وكانت متقدمة في صناعاتها وبصفة خاصة صناعة النسيج حتى لقد كانت كل بلاد الدنيا تحرص على استيراد الفاخر من منسوجات مصر، وخاصة تلك التي تسمى القباطي..

وكان أغلب أهل مصر لعليٍّ شيعة ينصرونه، أما معاوية، فلم يكن له إلا الذين اعتزلوا في خربتا، وما شايعوا معاوية إلا لأن فيهم بعض ذوي قرباه، وإلا لأنهم انخدعوا بأن معاوية يحارب علياً مطالباً بقتلة عثمان حقاً..!

فلما أرسل إليهم محمد بن أبي بكر يطلب منهم البيعة أو الخروج من مصر ليلحقوا بمعاوية، آثروا أن يتريثوا ليروا ما يكون من أمر الحكمين، في دومة الجندل. . !

كانت الأمة الإسلامية كلها تنتظر الحكمين بدومة الجندل، ذلك المكان الهادىء من الدنيا الذي يتوسط الطريق بين الكوفة ودمشق.

فلما علم الإمام أن محمداً يشتد على أهل خربتا في طلب البيعة وهم يماطلونه، رأى أن يوجه كتاباً إلى أهل مصر وأغلبهم شيعته، وإلى محمد وهو ربيبه الذي تربى في حجره. إذ تزوج أمه أسماء بعد أن مات عنها أبو بكر ومحمد طفل، فما عرف له أباً غير علي. . .

في تلك الأيام المضطربة التي تشرئب فيها الأطماع إلى دنيا معاوية، ويختلط فيها الفجور بالتقوى، وتميل الموازين، كتب الإمام إلى أهل مصر وأميرهم محمد بن أبي بكر يعظهم ويعلمهم: «أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون، فأنتم به رهن، وإليه صائرون، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ وقال: ﴿**ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير**﴾، وقال: ﴿**فوربك لنسألهن أجمعين، عما كانوا يعملون**﴾ فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير، فإن يعذب فنحن الظالمون، وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين، واعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التوبة، فعليكم بتقوى الله عزّ وجلّ، فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها، خير الدنيا وخير الآخرة، يقول سبحانه: ﴿**وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين**﴾. واعلموا عباد الله أن المؤمنين المتقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله، أشركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم. يقول الله عزّ

وجلّ: ﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾ سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا من أفضل ما يأكلون، وشربوا من أفضل ما يشربون، ويلبسون من أفضل ما يلبسون، ويسكنون من أفضل ما يسكنون، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا، مع أنهم غدا من جيران الله عزّ وجلّ، يتمنون عليه، لا يرد لهم دعوة، ولا ينقص لهم لذة. أما في هذه ما يشتاق إليه كل من له عقل؟!

واعلموا عباد الله أنكم إذا اتقيتم ربكم، وحفظتم نبيكم في أهل بيته، فقد عبدتم الله بأفضل ما عبد، وذكرتموه بأفضل ماذكر، وشكرتموه بأفضل ما شكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضل الجهاد، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم، وأكثر صياماً، إذا كنتم أتقى لله وأنصح لأولياء الله من آل محمدﷺ وأخشع... أما أنَّا لو لم نخوف إلا ببعض ما خوفنا به لكنا محقوقين (حقيق بنا) أن يشتد خوفنا مما لا طاقة لنا به، ولا صبر لنا عليه، وأن يشتد شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولا بد لنا منه، فإن استطعتم عباد الله أن يشتد خوفكم من ربكم فافعلوا، فإن العبد إنما تكون طاعته على قدر خوفه، وإن أحسن الناس لله طاعة، أشدهم خوفاً.

وانظر يا محمد صلاتك كيف كنت تصليها، فإنما أنت إمام ينبغي لك أن تتمها وأن تخففها وأن تصليها لوقتها، فإنه ليس من إمام يصلي بقوم فيكون في صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثم ذلك عليه، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً.

واعلم أن كل شيء من عملك يتبع صلاتك، فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أشد تضييعاً، ووضوؤك من تمام الصلاة، فأت به على وجهه، فالوضوء نصف الإيمان. أسأل الله الذي يَرَى ولا يُرَى وهو

بالمنظر الأعلى أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم فافعلوا، عصمنا الله وإياكم بالهدى، وسلك بنا وبكم المحجة الوسطى، وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند! وتأملوا واعلموا أنه لا يستوي إمام الهدى وإمام الرأي، ووصي النبي وعدو النبي، جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيجزيه الله بشركه، ولكني أخاف عليهم كل منافق اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون.

واعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع في دين الله، والعقل بطاعته، فعليك بالتقوى في سر أمرك وعلانيته، أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام: اخش الله ولا تخش الناس، وخير القول ما صدقه العقل، ولا تقض في أمر بقضاءين مختلفين فيتناقض أمرك وتزيغ عن الحق، وأحب لعامة الرعية ما تحبه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك. وأصلح أحوال رعيتك، وخض الغمرات إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم، وانصح لمن استشارك، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله خلتنا ودنا خلة المتقين، وود المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان، إخواناً على سرر متقابلين. إن شاء الله».

وكان محمد قد تعود أن يتأدب بكل ما يعظه به علي، فأخذ يقرأ هذا الخطاب لنفسه وعلى الناس...

واستبطأ محمد بن أبي بكر رد الذين في خربتا، فبعثوا إليه يسألونه مهلة أخرى، وسيردون عليه بعد أن يتشاوروا فيما يدعوهم إليه من البيعة لعلي أو الخروج إلى معاوية!

وفي الحق أنهم كانوا ينتظرون قضاء الحكمين، كما كانت الأمة كلها تنتظر...

وجاء يوم إعلان رأي الحكمين بعد أن طال انتظار الناس.

اجتمع أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، فعظم عمرو أبا موسى وأثنى على سابقته في الإسلام، وحسن رأيه وورعه وتقواه ـ ثم قال: «يا أبا موسى، ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً؟» قال: «بلى». قال: «فما يمنعك يا أبا موسى من معاوية ولي دم عثمان، وبيته في قريش ما قد علمت؟ فإن خشيت أن يقول الناس ولّى معاوية وليست له سابقة في الإسلام فإن لك بذلك حجة، تقول: إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم، والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة».

وسكت أبو موسى يفكر.

فاستمر عمرو يقول، وقد التمعت عيناه: «فإن ولي معاوية الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها يا أبا موسى».

فقال أبو موسى مغضباً: «اتق الله يا عمرو! أما ذكرك شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله. إنما هو لأهل الدين والفضل. مع أني لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك إن معاوية ولي عثمان فولّه هذا الأمر فإني لم أكن أوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين. أما تعريضك بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته. ولا كنت لأرتشي في الله، ولكن والله لو استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب..».

وطرب عمرو، فها هو ذا أبو موسى، لا يتشبث بعلي بن أبي طالب.

وانقض عمرو على هدفه: «إذا كنت تعدل عن علي بن أبي طالب وتريد أن تبايع ابن عمر، فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال أبو موسى: «إن ابنك رجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة. إن شئت ولينا الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر بن الخطاب».

فقال عمرو: «إن هذا أمر لا يصلح له إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم وإن عبد الله ابن عمر ليس هناك» فافترقا.

وعلم خاصة الناس بما دار بين أبي موسى وعمرو، فذهب عبد الله بن الزبير - وكان قد حارب علياً يوم الجمل - إلى ابن عمر. فقال: «اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه» قال ابن عمر: «لا والله ما أرشو عليها أبداً..».

وكان عمر بن الخطاب في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة قد أوصى المسلمين ألا يفكروا في بيعة ابنه عبد الله، وأوصى عبد الله ألا يفكر في الخلافة، فما فكر فيها قط!

ومضى ابن عمر إلى عمرو بن العاص يؤنبه: «ويلك يا بن العاص! إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف وتشاجرت بالرماح، فلا تردهم في فتنة واتق الله».

وفي ذلك اليوم صمم الحكمان على أن ينتهيا إلى اتفاق، فقد سئم الناس أمرهما، وها هو ذا ابن عمر يتهم أحد الحكمين أنه يوشك أن يرد الناس إلى فتنة!

فأجلس عمرو أبا موسى في صدر المكان، وقال له: «يا أبا موسى ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام، لغضبك لعثمان وبغضك للفرقة وقد عرفت حال معاوية في قريش وشرفه في بني عبد مناف. فما ترى؟» قال أبو موسى: «أرى خيراً. أما غضبي لعثمان فلو شهدته

لنصرته، وأما بغضي للفتن فقبح الله الفتن. وأما معاوية فليس بأشرف من علي في قريش أو في بني عبد مناف» وأبو موسى يريد زوج ابنته عبد الله بن عمر، وعمرو قد أطمعه تخلي أبي موسى عن علي في أن يوليها ابنه عبد الله. ولكن أبا موسى يأبى إلا ابن عمر لا لأنه زوج ابنته فحسب، ولكن لمزايا فيه.

فلما التقيا مرة أخرى قال أبو موسى وقد عز عليه أنهما لم يتفقا: «يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويلم الشعث، ويصلح ذات البين». فقال عمرو: «جزاك الله خيراً يا أبا موسى، غير أن للكلام أولاً وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان بيننا من كلام في كتاب يصير إليه أمرنا» قال أبو موسى: «فاكتب» فأمر عمرو بصحيفة ودعا غلامه ليكتب.. فقال عمرو: «اكتب يا غلام: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان» فكتب الغلام: «هذا ما تقاضى عليه عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس» فزجر عمرو غلامه قائلاً: «لا أم لك! أتقدمني قبل أبي موسى كأنك جاهل بحقه؟!» وأملى فبدأ بأسم أبي موسى ثم استمر يملي على غلامه: «تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله إليه، قد أدى الحق الذي عليه، وكذلك خليفته عمر. وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم، وإنه كان مؤمناً».

فقال أبو موسى: «ليس هذا مما قعدنا له» قال عمرو: «والله لا بد أن يكون مؤمناً أو كافراً» فقال أبو موسى: «كان مؤمناً» فقال عمرو: «فظالماً قتل أم مظلوماً؟» قال أبو موسى: «بل مظلوماً» قال عمرو: «أفليس قد جعل الله لوليه سلطاناً يطلب دمه؟» قال أبو موسى: «بلى» قال عمرو: «فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟» قال: «لا» قال:

«أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟» قال أبو موسى مستسلماً: «بلى».

فوثب عمرو قائلاً: «إذن قل أنت للكاتب فليكتب هذا، فإنا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان» قال أبو موسى: «إنما اجتمعنا لغير هذا»..

فأمر عمرو غلامه فكتب ما قاله أبو موسى، ثم أخذ عمرو الصحيفة بعد أن وقعا عليها وختماها ووضعها في جيبه. ثم قال: «يا أبا موسى، إنك شيخ أصحاب رسول الله ﷺ وذو فضلها وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها، فهل لك أن تكون ميمون هذه الأمة فيحقن الله بك دماءها، فإنه يقول في نفس واحدة: ﴿**ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**﴾، فكيف بمن أحيا أنفس هذا الخلق كله؟!».

قال له أبو موسى: «وكيف ذلك؟» قال: «تخلع أنت علي بن أبي طالب، وأخلع أنا معاوية، ونختار لهذه الأمة رجلاً لم يحضر في شيء من الفتنة، ولم يغمس يده فيها وهو عبد الله بن عمر الذي تريده».

وعجب أبو موسى لتحول عمرو إلى الموافقة على عبد الله بن عمر، ولكن كل الذي كان يريده عمرو هو أن يعلن أبو موسى أنه يتخلى عن علي.

قال أبو موسى: «ولكن يا عمرو كيف لي بالوثيقة منك على أن تجعلها لعبد الله بن عمر» قال: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب. خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى» وأعطاه عمرو من المواثيق ما أذهله.

وخرجا إلى الناس الذين كانوا ينتظرون في قلق.. وقدم عمرو بن العاص أبا موسى، وعظمه، وتأخر هو، ثم قال له: يا أبا موسى أعلم الناس أن رأينا قد اتفق» فقال أبو موسى: «أيها الناس إن رأينا قد اتفق

على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة» فقال عمرو: «صدق وبر تقدم يا أبا موسى» وابتسم عمرو والتمعت عيناه! ولاحظه ابن عباس فوثب يحاول منع أبي موسى من الكلام، وكأنه استشعر الخديعة فقال: «يا أبا موسى. ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فليتكلم به قبلك، فإنه رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما، فإذا قمت في الناس خالفك».

فأسرع عمرو قبل أن يجيب أبو موسى فقال: «يا أبا موسى تقدم أنت، فأنت أسبق مني في الإسلام، وأنت شيخ أصحاب رسول الله ﷺ وأسن مني، فتكلم» فصاح ابن عباس مرة أخرى: «ويحك يا أبا موسى!» فقال أبو موسى مغضباً: «إيها عنك يا بن عباس، إنا قد اتفقنا».

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال: «يا أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها، من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه: أن نخلع علياً ومعاوية، ونجعلها لعبد الله بن عمر».

ثم قعد، ووقف عمرو فقال: «إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه علياً كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة. فإنه ولي عثمان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه».

وتصايح الناس واختلطت الأصوات: دهش أصحاب علي، وصفق أصحاب معاوية.

وانقض أبو موسى على عمرو فقال له: «مالك لا وفقك الله، قد غدرت وفجرت».. فضحك عمرو، وعيناه تلمعان بنظرات ظافرة...

فقال سعد بن عبادة: «ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده!» فقال أبو موسى: «فما أصنع؟ وافقني على أمر ثم نزع عنه» قال ابن عباس منكسر القلب: «لا ذنب لك يا أبا موسى! الذنب ذنب

من قدمك في هذا المقام!».. وقال لمن حوله: «لقد حذرته وهديته إلى الرأي فما عقل».

وصاح أبو موسى في ندم: «لقد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة».

وصاح عبد الله بن عمر يؤنب الحكمين.. فما الزج باسمه فيما لا شأن له به؟!

ووقف عمرو وسط وفد أهل الشام يضحكون ويتصايحون طرباً، واهتز بدن عمرو من الضحكات، وهو ينظر إلى أصحاب علي يحتدمون غيظاً، فانقض منهم شريح بن هانىء على عمرو فعلاه بالسوط، فقام لشريح بن عمرو فرفع سوطه، غير أن الناس قاموا بينهما. فقال شريح: «ليتني علوته بالسيف! وصاح سعيد بن قيس في الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص: «ما ضلالكما بلازمنا، وما رجعتما إلا بما بدأتما، وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه بالأمس».

فقام يزيد بن أسد من أصحاب معاوية فقال: «يا أهل العراق، اتقوا الله، لقد شخصت الأبصار إلى الصلح، وأشرفت الأنفس على الفناء، وأصبح كل امرىء يبكي على قتيل. ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره. إنه ليس لكم وحدكم الرضا».

ووقف ابن عمر يتململ وهو يتأمل أبا موسى يتغيظ على عمرو وعمرو يضحك مزهواً بنجاح الخديعة، فقال ابن عمر حزيناً: «انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة: «إلى رجل لا يبالي ما صنع وآخر ضعيف».

وهرب أبو موسى إلى مكة حيث اعتزل يتعبد ندماً.. أما عمرو وأهل الشام فانطلقوا إلى معاوية وهو ينتظر في سرادقه الفخيم غير بعيد، فسلموا عليه بالخلافة وعاد أصحاب علي إليه كاسفي البال، يتمزّقون من الغيظ..!

أما المتطرفون الذين قبلوا التحكيم إذ الإمام يرفضه، وتمسكوا بأن يكون أبو موسى هو مندوب علي، واضطروه إلى قبوله، فقد عادوا يلومون الإمام لأنه قبل التحكيم، ثم لأنه قبل أبا موسى!!.. لاموا الإمام لأنه لم يقهرهم على الصواب، وتركهم يقهرونه على الخطأ..!.. ونسوا أنهم إنما هددوه بالقتل إذا لم يذعن لما يفرضه تطرفهم وتوترهم!

وأقيمت الأفراح بدمشق، وبدأ عمرو يستنجز معاوية وعده، أن يعطيه مصر طعمة.. (أي هدية له، خراجها كله له) وكان معاوية قد أخذ يوزع الهدايا على رجاله.

وكتب معاوية إلى أبي موسى في مكة: «سلام عليك، أما بعد، فالحق لمن نصب له فأصابه، وليس لمن عرض له فأخطأ، وقد كان الحكمان إذ حكما على عليّ لم يكن له الخيار عليهما، وقد اختاره القوم عليك، فاكره منهم ما كرهوا منك، وأقبل إلى الشام، فإني خير لك من علي، ولا قوة إلا بالله».

فكتب إليه أبو موسى: «سلام عليك، فإني لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك، غير أني أردت ما صنعت ما عند الله، وأراد به عمرو ما عندك!. وقد كان بيني وبين عمرو شروط وشورى عن تراض، فلما رجع عمرو رجعت. أما قولك أن الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما، فإنما ذلك في الشاة والبعير والدينار والدرهم. فأما أمر هذه الأمة، فليس لأحد فيما يكره حكم. ولن يذهب الحق عجز عاجز ولا خدعة فاجر. وأما دعاؤك إياي إلى الشام فليس بي رغبة عن حرم إبراهيم».

فكتب الإمام إلى أبي موسى: «سلام عليك، أما بعد. فإنك امرؤ ظلمك الهوى واستدرجك الغرور، حقق بك حسن الظن لزومك بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن، فاستقل الله يقلك، فإن الله يغفر ولا يغفل، وأحب عباده إليه التوابون».

فأجابه أبو موسى: «أما بعد، فإنه والله لولا أني خشيت أن يرفعك مني منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك لم أجبك، لأنه ليس لي عندك عذر ينفعني ولا قوة تمنعني، وأما قولك (لزومي بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن) فإني اعتزلت أهل الشام، وانقطعت عن أهل العراق، وأصبت أقواماً صغروا من ذنبي ما عظمتم، وعظّموا من حقي ما صغرتم، إذ لم يكن لي منكم وليٌّ ولا نصير».

أما المتطرفون من أصحاب الإمام وتلاميذه القراء الذين كانوا قد عادوا من حروراء، فقد لقي بعضهم بعضاً حين علموا بما كان من أمر الحكمين واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فحضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم دعاهم إلى الهجرة من الكوفة وقال لهم: «يا حملة القرآن. اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى الجبال، منكرين لهذه البدع المضلة» فقال عرقوص: «إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

وكان لا بد لهم من أمير، فبايعوا عبد الله بن وهب أميراً عليهم، وكان يقال له: «ذو الثَّفِنَاتِ»، والثفنة هي الركبة وكان طول السجود قد ترك في ركبتيه آثاراً واضحة.

فلما اختاروه أميراً قال: «والله لا آخذها ريبة في الدنيا، ولا أدعها فرقاً من الموت.. فاشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنكم أهل الحق» فقال رجل منهم: «نخرج إلى المدائن، فننزلها، ونأخذ بأبوابها، ونخرج منها سكانها، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا» فقال أحد زعمائهم: «إنكم إن خرجتم مجتمعين تبعوكم. ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين. فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا النهروان وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة» قالوا: «هذا هو الرأي».

فكتبوا إلى أهل البصرة ليوافوهم بالنهروان.

واجتمعوا ليلة قرروا الخروج في مكان فسيح خارج الكوفة، فتعبدوا طوال الليل، وخرجوا قبيل الفجر، وهم يتلون: ﴿**فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين. ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾.

وحاول بعض الشباب أن يلحق بهم، فمنهم من رده أهله، ومنهم من أفلت وخرج معهم.. وكان ممن أفلت معهم طرفة بن عدي بن حاتم.

وشعر معاوية أن عمرو بن العاص يتطاول عليه بما حققه له، ويزهو بحضور ذهنه، وكاد يعيره بأنه هو الذي جاء له بالخلافة.. وأنه يطلع الناس خفية على الصحيفة التي وقع عليها أبو موسى..

فأراد معاوية أن يصغر من شأن عمرو، وأن يضعه في مكان التابع في حدود لا يتجاوزها، وبالحجم الذي يريده له أميره!.. فلما دخل عمرو، ومع معاوية رؤساء الشام ووجوه بني أمية، التفت إلى عمرو، وصفق بيديه وأشار إليه وهو يضحك!

والتفت الجميع إلى عمرو فضحكوا.

وعجب عمرو.. فقال لمعاوية: «مم تضحك يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك!؟» قال: «أضحك من حضور ذهنك عند إبداء سوأتك يوم ابن أبي طالب، والله لقد وجدته مناناً كريماً، ولو شاء أن يقتلك لقتلك».

فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين، أما والله إني لعن يمينك حين دعاك لتبارزه فاحولت عيناك، وانتفخ سَحْرُك (رئتك)، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أو فدع».

ولم يغضب معاوية، وأبدى لعمرو وللناس أن حلمه يسع ما يقوله

عمرو، واستمر يضحك، وترجرج جسده المترهل، وضحك الحاضرون، وارتجت بالضحكات جنبات القصر العظيم المتلألىء بالأنوار الساطعة.

وسرى شعاع سراج خافت في دار أمير المؤمنين بالكوفة، وهو جالس على الحصير، يفكر في قضاء الله بعد أن سمع أنباء الخديعة...

وقام ليله يتهجد ويتعبد، وذكر الله كثيراً... وحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه...

وخشي أن يكون قد نبت منه خلجة سخط، وكان في أعماقه يضطرم سخطاً على كل ما يمزق الأمة من الخديعة والتطرف، فاتجه إلى الله يدعوه: «اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني، فإني عدت فعد علي بالمغفرة، اللهم اغفر لي ما وأيت (وعدت) من نفسي، ولم تجد له وفاء عندي.

اللهم اغفر لي ما تقربت به إليك بلساني، ثم خالفه قلبي. اللهم اغفر رمزات الألحاظ (الإشارة بالعين)، وسقطات الألفاظ، وسهوات الجنان وهفوات اللسان.

الفصل السادس

ما كذبت ولا كذبت!

جلس علي بين أصحابه في مسجد الكوفة، وكلهم حزين واجم!

وتصفح الإمام وجوه أصحابه، فقرأ فيها الندم!

ما من أحد منهم يستطيع أن ينظر في عيني صاحبه.

لقد أكرهوا الإمام على ما كان يرفضه، وها هي ذي العقبى!!

وقطع الإمام الصمت المثقل بالندم بقوله: «إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها، فأبيتم إلا عصياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي؟! والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائه».

واتجهت الأنظار إلى الأشعث بن قيس، وهو يكاد يستغشى ثيابه ليختفي عن الأنظار، هرباً من العار!..

عار عليك يا أشعث..!! أنت الذي دفعت أمير المؤمنين إلى ماهو فيه الآن: أصررت على التحكيم إصراراً، وألَّبت القراء المتطرفين أيها الرجل الحكيم، ثم استكبرت استكباراً، فأبيت أن تقبل حكماً عن الإمام إلا أبا موسى الأشعري، لأنه يَمَنِيٌّ مثلك، وما ينبغي أن يكون الحكمان من مضر!!

يا للعصبية الجاهلية..!.. كيف لم يطهِّر الإسلام منها قلبك؟!

ولكن أهي العصبية الجاهلية فحسب، أم صبوت إلى دنيا معاوية بما فيها من ترف وجاه وسلطة، وهذه الأشياء التي تثير الكبرياء والعزة في النفس، ألم تعلم بأن الكبرياء والعزة لله جميعاً؟!

وقام رؤساء القبائل والعشائر، يذمون سوء مكر عمرو، ويتهمون أبا موسى الأشعري بالغفلة!

والإمام صامت. . . !

فقال أحد رؤوس العشائر: «ما منع أمير المؤمنين أن يأمر بعض أهل بيته فيتكلم. فإنه لم يبق أحد من رؤساء العرب إلا وقد تكلم؟!».

قال الإمام لأكبر أبنائه الحسن: «قم يا حسن فقل في هذين الرجلين: أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص».

فقام الحسن فقال: «أيها الناس إنكم قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى، فحكما بالهوى على الكتاب! ومن كان هكذا لم يسم حكماً، ولكنه محكوم عليه. وقد أخطأ أبو موسى إذ جعلها لعبد الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة أنه خالف أباه عمر بن الخطاب إذ لم يرضه لها، ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى، أنه لم يستأمر ابن عمر في نفسه، وثالثة، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس».

فلما جلس الحسن، قال علي لعبد الله بن عباس: «قم». فوقف خطيباً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن للحق أهلاً أصابوه بالتوفيق فالناس بين راض له وراغب عنه، فإنه بعث أبا موسى بهدى إلى ضلالة، وبعث عمرو بن العاص بضلالة إلى هدى، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه وثبت عمرو على ضلاله، لعمر الله لئن كانا حكما بما سارا به، لقد سار أبو موسى وعلي إمامه، وسار عمرو ومعاوية امامه، فما بعد هذا من عيب ينتظر؟!».

وجلس، فأمر الإمام ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بأن يقول، فقام فقال: «أيها الناس، إن هذا الأمر كان النظر فيه إلى أمير المؤمنين، والرضا إلى غيره، فجئتم إلى أبي موسى فقلتم لا نرضى إلا به وأيم الله ما استفدنا به علماً، ولا انتظرنا منه غائباً، وما نعرفه صاحباً! وما أفسد الحكمان بما فعلا أهل العراق، وما أصلحا أهل الشام، ولا وضعا حق علي، ولا رفعا باطل معاوية، ولا يذهب الحق رقية راق، ولا نفخة شيطان، ونحن اليوم على ما كنا عليه أمس» ثم جلس.

وأمر الإمام عماله الذين كانوا معه في صفين أن يعودوا إلى ولاياتهم، فعاد عبد الله بن عباس إلى البصرة، وعاد الأمراء الآخرون إلى أمصارهم!

الله وحده أعلم بما يمكن أن يحدث في هذه الأمصار، بعد أن مزق معاوية شمل الأمة، وأقسم أن يجذب إليه أصحاب علي، وأن يغلبهم على دينهم بدنياه!! إلى أين انتهت بالمسلمين الأمور إذن؟! ها هي ذي الأمة الإسلامية تمزقت دولتين: دولة في الشام يحكمها معاوية وينادونه فيها: «أمير المؤمنين»، ويلقبونه «الملك»، وهو يقول في زهو إنه في الإسلام أول الملوك!... ثم دولة أخرى يحكمها علي بورع الإمامة، وتقوى الخلافة، وزهد العارفين بالله، وهو يخاف على كل من فيها صولة الباطل وفتنة المال والجاه..!

أما زال في الأمة من يؤمن حقاً بأن معاوية يريد «قتلة عثمان؟..» لو أن معاوية يطالب بقتلة عثمان عن خطأ في فهم الدين، ولو أن الذين اصطنعهم من أهل العلم لم يفهموا الآية الكريمة: **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾** .. لو كان هو الخطأ فحسب لعذرتهم يا علي، ولكان معاوية حرياً أن ينيب إلى الصواب بعدما أرسلت له مراراً وتكراراً تعظه وتوضح له معنى الآية الكريمة التي تجعل القصاص لولي الأمر!

ولكنه ليس الخطأ فيثوبوا إلى الصواب، بل هو الضلال، وأنت لا تهدي من أحببت..! وما أشنع ما يصنعه الذين يزينون له ما يفعله!

أعلى وجه الأرض مسلم واحد يجهل أن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية؟! ما عذر العلماء الذين معه وهم يعلمون!!؟ لكم تزري الأطماع بالرجال.. حتى العلماء!

إن معاوية ليخوض هذا الطوفان من الدماء على أشلاء آلاف الشهداء إلى هدف واحد: الملك!!؟

معاوية نفسه قال لوزيره المتسكع في ضلاله عمرو بن العاص ثم كرر ما قاله، إذ يحاول عمرو أن يشجعه على مبارزتك يا علي: «يا عمرو، إنك لتعرف أن ابن أبي طالب ما صارع أحداً إلا قتله، ولكنك طمعت في الخلافة، يا عمرو!».. ويكرر: «طمعت فيها بعدي».

معاوية نفسه طلب أن تقرّه على الشام، وولاية مصر، ثمناً للطاعة والدخول في الجماعة!!.. ولاية مصر!؟ أيكافىء بها معاوية عمرو بن العاص كما تعاهدا من قبل؟! ومعاوية نفسه اكتفى بأن تقرّه على الشام لما استيقن أن الدائرة في الحرب ستدور عليه...

وإذن فأين الطلب بدم عثمان؟!.. كل المسلمين يعرفون أنه طلب الجاه والسلطة والملك!!

لو أنك لم تعزله من على الشام أول ما توليت يا بن أبي طالب، ولو لم تطالبه برد ما امتلكه بغير حق إلى بيت المال، لما رفع الرأس بالعصيان ولما خرج على الجماعة زاعماً أنه يخرج طلباً بدم عثمان!!

لقد نصحك الخلصاء بأن تترك معاوية ولا تعزله، ولا تسترد منه ما ملكه بغير حق، وسيبايع هو ومن معه من أهل الشام، وصنائعه من أهل الفتوى!!

ولكن.. أكنت تتنازل عن دينك من أجل دنياك وسلطانك؟! وإذن

فكيف تأمر بعد ذلك بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! كيف تقيم العدل بين الناس؟! كيف كنت تستطيع أن تقسم الأموال بالسوية؟».

لو أنك تركت معاوية لتكسب منه طاعته وطاعة من معه، لخسرت إذن دينك من أجل دنياك، ولأزريت بأهل التقوى، وسحقت آمالهم في العدل، ولأذعنت لأهل الدنيا، فنافقت أهواءهم وولعهم بالجاه والترف!!

إنه لقدرك يا علي أن تكون مثلاً لأهل التقوى: فتشق بيدك طريق الهداية لا تبالي بما يثيره شق الطريق من غبار، وإن امتلأ به صدرك، وغص به حلقك، وأن تسلك طريق النور وإن لوحتك الشمس، وأدمت قدميك الأشواك والصخور، وسفت عليك رياح السموم بوهجها، لأنك آخر الأمر، تقود الركب إلى الظل الظليل.. إلى واحة الحقيقة، وراحة اليقين..!

وكلما وجدت بعض حملة القرآن يرتشون في القرآن، ويبيعون دينهم بدنيا الآخرين، أصبح من المتعين عليك أنت ومن معك من المتقين والمساكين، أن تكابدوا لتحاموا عن القرآن وتدافعوا عن الدين صولة الباغين، وزيف المترفين!!

وانتهى إلى سمع الإمام صوت جليل يكاد يغيض في دموع الندم.. لكم هو صادق ورائع هذا الندم الذي يخفق به الصوت!.. ولكم هي حرًى تلك الدموع: «لقد عصيناك يا إمام المتقين.. ألنا توبة فيغفر الله لنا؟!.. ما كان يجب علينا أن نقهرك على قبول أبي موسى الأشعري».

قال الإمام في رنين حزين: «عفا الله عنكم.. اختار القوم لأنفسهم أقرب الناس ممن يحبون وهو عمرو بن العاص، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس ممن تكرهون وهو قيس بن عبد الله أبو موسى الأشعري!» وسكت وسكتوا.. لا شيء غير هفيف الزفرات!!

وأخيراً قام الإمام خطيباً فقال: «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما بعد. فإن المعصية تورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري، ونحلتكم (أعطيتكم) رأيي، لو كان لقصير أمر! (قصير رجل عربي كان له صديق يحب ملكة وأراد أن يتزوجها فنصحه قصير أن يبتعد عنها، ولكنه ذهب إليها فقتله) ولكن أبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (دريد بن الصمة الشاعر الجاهلي):

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد!
وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟!

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما، وأحييا ما أمات القرآن، واتبع كل واحد منهما هواه. بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية، واختلفا في حكمهما، وكلاهما لم يرشد، فبرىء منهما الله ورسوله وصالح المؤمنين. فاستعدوا وتأهبوا للسير إلى الشام، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين».

وارتفعت الرؤوس المنكسة، وسطع أمل جديد في الأعماق التي غشيتها ظلمات الخيبة واليأس والعار والندم، فتعانقت النداءات: «الله أكبر الله أكبر... لبيك يا أمير المؤمنين».

وأرسل الإمام إلى الذين خرجوا عليه وساروا إلى النهروان: «من عبد الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى عبد الله بن وهب وزيد بن حصن ومن معهما من الناس، أما بعد، فإن الرجلين اللذين ارتضينا حكمين قد خالفا كتاب الله تعالى، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة، ولم ينفذا للقرآن حكماً، فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا إلينا، فإنا سائرون إلى عدونا

وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه».

فأجابوه: «أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين».

ها هم أولاء بعدما اعتدلوا يصيبهم العوج، ويتطرفون مرة أخرى، ويتهمون من خالفهم بالكفر!

ألا في سبيل الله ما تلقى من الخادعين ومن الباغين الظالمين ومن الخارجين والمتطرفين على السواء!! ألا إنه بلاء شديد، ولكنه بلاء في سبيل الله يا إمام المساكين!!

فلما قرأ الإمام كتاب الخوارج إليه رأى أن يتركهم إلى حين، لقد استبد بهم الهوس، وغرهم الجهل، وضللتهم أمانيهم، وحفظوا القرآن، ولكنه لم يجاوز تراقيهم، وغالوا في التعبد، وهذا الغلو بالغ بهم هاوية الضلال من حيث أرادوا وديان الهدى!

لقد هاجروا بأنفسهم عن مجتمع المسلمين، وفي هذه الهجرة كفروا كل من يخالفهم حتى الإمام الذي علمهم هم وأساتذتهم هذا الدين!!

فليتركهم في بحرانهم، وليحشد الناس إلى قتال معاوية وجنده، عسى أن يستطيع إنقاذ الأمة بعد أن مزقها معاوية!

حتم عليه الآن أن يقاتل الفئة الباغية، وإنه لجهاد في سبيل الله.. ولينصرن الله من ينصره. ووقف يخطب الناس في المسجد الجامع بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن من ترك الجهاد في الله وداهن في أمره كان على شفا هلكة، إلا أن يتداركه الله بنعمته، فاتقوا الله تعالى، وقاتلوا من حادَّ الله، وحاول أن يطفىء نور الله، وقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين (الظالمين)، الذين ليسوا بقراء القرآن

ولا فقهاء في الدين، ولا علماء بالتأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو تولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل! تيسروا (تجهزوا) للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب (يعني الشام فهو مغرب العراق). وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله تعالى. ولا حول ولا قوة إلا بالله».

شرع أمير المؤمنين يجيّش الجيوش لقتال معاوية، فأرسل إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة، يطلب منه أن يستنفر مقاتلي البصرة إلى القتال، وأن يرسلهم إلى معسكر أهل العراق بالنخيلة، ليسيروا معاً إلى قتال أهل الشام.

فلما استنفر ابن عباس أهل البصرة، أثّاقلوا إلى الأرض!!

فظل بهم يحرضهم على القتال، فلم يجبه إلا ألف وخمسمائة على رأسهم الأحنف بن قيس. فقام ابن عباس خطيباً فقال: «يا أهل البصرة، أمرتكم بالنفير إلى أمير المؤمنين، فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة. وأنتم ستون ألف مقاتل تأخذون العطاء (الراتب) سوى أبنائكم وعبيدكم ألا انفروا إليه مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلاً، فإني موقع بكل من وجدته متخلفاً عن دعوته عاصياً لإمامه، فلا يلومن رجل إلا نفسه».

ونفر جارية، ونفر معه ألف وسبعمائة، فانضموا إلى من خرجوا مع الأحنف بن قيس، فكانوا جميعاً ثلاثة آلاف ومائتين، سيرهم ابن عباس إلى النخيلة..

فلما وافوا الإمام حزن لقلة عددهم!!

واجتمع عليٌّ برؤساء أهل الكوفة ووجوه الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أهل الكوفة، أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق وأصحابي إلى جهاد المحلين، بكم أضرب المدبر، وأرجو تمام

طاعة المقبل، وقد استنفرت أهل البصرة، فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان!! فليكتب لي رئيس كل قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم، ويرفع ذلك إلينا».

فقام سعيد بن قيس فقال: «يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة، أنا أول الناس أجاوب بما طلبت» وتكلم بمثل كلامه رؤوس العشائر جميعاً وفيهم عدي بن حاتم الطائي، وحجر بن عدي، وأشراف الناس والقبائل...

وقاموا فجمعوا له خمسة وستين ألفاً.

وكتب الإمام إلى عامله على المدائن يطلب منه أن يرسل من عنده من المقاتلين، فوافوه في النخيلة، فاجتمع له منهم جميعاً جيش كثيف.

وتناجى بعض أصحابه، لو أن أمير المؤمنين رمى بنا هؤلاء الخوارج، فإذا انتهينا من أمرهم سار بنا إلى الفئة الباغية في الشام!

فلما بلغه ذلك وقف يحرض رجاله على الجهاد فقال: «إن غير هؤلاء أهم إلينا من الخوارج، فسيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدماً، فإنهم طالما سعوا إلى إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله ﷺ ومن معه ألا إن رسول الله أمرني بقتال القاسطين، وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم، والناكثين، وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والمارقين، ولم نلقهم بعد! فسيروا إلى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا ملوكاً جبارين يتخذهم الناس أرباباً، ويتخذون عباد الله خُوَلاً (أتباعاً) وما لهم دولاً».

فتعالت الأصوات وتداخلت: «سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت».

وقام أحد أصحابه فقال: «يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك، نعادي من عاداك ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسر بنا إلى عدوك من

كانوا وأينما كانوا، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية الأتباع».

وقال رجل آخر: «يا أمير المؤمنين، إن قلب شيعتك كقلب رجل واحد في الاجتماع على نصرتك، والجد في جهاد عدوك، فأبشر بالنصر وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت، فإنا شيعتك الذين نرجو ـ في طاعتك وجهاد من خالفك ـ صالح الثواب، ونخاف ـ في خذلانك والتخلف عنك ـ شدة الوبال».

ورأى الإمام أن يرسل إلى الخوارج أحد أصحابه من أهل الشجاعة والحكمة فأرسل إليهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وهو من أحكم العرب وأشجعهم، وهو الذي حمل راية الأنصار يوم فتح مكة، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وقد جعله منه كصاحب الشرطة. وهو صاحب مكيدة في الحرب، ورأي صائب.. وهو القائل: لولا أني سمعت رسول الله يقول: المكر والخديعة في النار، لكنت من أمكر هذه الأمة. وكان عظيم الجود، حتى لقد كان يستدين ويطعم الناس!

فسألهم أن يدخلوا فيما خرجوا منه فلم يسمعوه، فذكرهم: ألم تعودوا من حروراء منذ أيام وتدخلوا في الجماعة وتصلوا معنا خلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمام الهدى وإمام هذه الأمة؟ فما غيَّركم بعد أن عرفتم خديعة عمرو لأبي موسى؟ ألا تذكر يا بن الكواء إذ أنت إمام القوم في حروراء أن أمير المؤمنين قال لك: إنه من أذنب في هذا الدين ذنباً يكون في الإسلام حدثاً استتبناه من ذلك الذنب بعينه، وأن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه وضلال ما دخلت فيه؟ فقلت لأمير المؤمنين: «إنا لا ننكر أنا قد فتنا». ثم قال أحد زعمائكم: أدركنا والله هذه الآية: ﴿**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**﴾ ثم ندمتم على خروجكم، فقال لكم أمير المؤمنين: عودوا إلى مصركم رحمكم الله، وركب فركبتم، ودخلتم وراءه الكوفة، وصليتم معنا الظهر

كما قلت آنفاً؟ فما يغيركم من ساعة لساعة رحمكم الله؟ الحقوا بنا لنقاتل أعداءنا وأعداءكم، والزموا الجماعة خلف أمير المؤمنين».

فأخذوا يتجادلون في رجوعهم خلف علي من حروراء إلى الكوفة، ولام بعضهم بعضاً... وقالوا: «إنما فتنا حين رجعنا إلى الكوفة وراء علي وصلينا خلفه!».

وعجب لهم قيس بن سعد، ما لهم كيف يحكمون؟!.. ما لهم يندفعون من النقيض إلى النقيض في ساعات.. يتطرفون من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بلا حجة أو برهان أو سلطان مبين؟!.. فسكتوا، ورفضوا أن يسترسلوا في الكلام، فعاد إلى النخيلة حيث كان أمير المؤمنين يستعد للخروج لقتال القاسطين.

وقبل أن يتحرك الإمام بجنده، ارتفعت أصوات تلح عليه أن يحاول مرة أخرى أن يرسل إلى الخوارج من يراجعهم ليدخلوا فيما خرجوا منه. فأرسل إليهم أبا أيوب الأنصاري فأتاهم فقال لهم: «عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها. فعلام تقاتلوننا؟» فقالوا: «إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غداً!» قال: «نشدتكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في العام القادم».

وعاد إلى أمير المؤمنين يصفق عجباً مما ركب هؤلاء القراء، وكأنما أصابهم مس من الشيطان، فهم يقولون ما لا يعقلون، ويعجلون الفتنة.

ورأى الإمام أن يمضي بجنده إلى معاوية وجنده، حتى إذا فرغ منهم وألزمهم الجماعة، نظر في أمر هؤلاء القراء المتطرفين الذين خرجوا عليه.

ولكن نبأ عظيماً روع الإمام! ذلك أن عبد الله بن خباب بن

الأرت، كان يسوق حماراً ركبته امرأته الحامل الوشيكة الوضع، فمر بهؤلاء الخوارج الذين عسكروا بالنهروان.. فوثبوا إليه ففزع، وفزعت امرأته، فقالوا له: «من أنت؟» قال: «أنا عبد الله بن خباب» قالوا: «ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ أأفزعناك وامرأتك؟».

قال: «نعم» قالوا: «لا روع عليك، فليأمن سربكما. أنتما آمنان».

فشكرهم.

قالوا: «حدثنا عن أبيك الصحابي الجليل رحمه الله ورضي الله عنه حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به» قال: «حدثني أبي عن رسول الله ﷺ أنه قال: تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه. يمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح فيها مؤمناً ويمسي كافراً».

قالوا: «لهذا الحديث سألناك! فما تقول في أبي بكر وعمر؟» فأثنى عليهما.

ثم عرض لرجل منهم خنزير، فلما قتله أقبل أصحابه الخوارج فلاموه وقالوا: «هذا فساد في الأرض».

فقال عبد الله بن خباب مبتسماً لنفسه: «ما عليَّ منهم من بأس إذن فقد غضبوا لخنزير وأنا رجل مسلم! إنهم لحملة القرآن حقاً».

فقالوا لعبد الله: «أنت آمن السرب معنا. ولكن قل لنا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟» قال: «إنه كان محقاً في أولها وآخرها» قالوا: «فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟» قال: «أقول إنه أعلم بكتاب الله منكم ومني وأنفذ بصيرة وأشد توقياً على دينه» قالوا: «إنك لست تتبع الهدى، بل تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائهم لا على أفعالهم.. والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً!؟».

فأخذوه فكتفوه ثم أنزلوا امرأته من على الحمار وهي تصيح وتولول!

وعرض لهم رجل من أهل الذمة فسألهم عما يفعلون ولماذا هم هنا، فقال زعيمهم: «هاجرنا بديننا من أحكام هؤلاء الكفرة الجورة علي ومعاوية وأصحابهم» ثم سألوا الذمي: «مع من أنت منهما؟» فلم يجبهم، وقال لهم: «اتبعوا أنتم من شئتم منهما أو اتركوهما جميعاً ودعوني في حالي، فأنا من أهل الذمة».

واقترح رجل منهم أن يقتلوا الذمي، فصاح فيهم زعيمهم: «أتريد منا أن نكفر؟ إن أهل الذمة في ذمة الله ورسوله. ولهم حرمة!».

فاستبشر عبد الله بن خباب خيراً وقال لهم: «أنا وامرأتي مسلمان وأنتم حملة القرآن فما علينا منكم من بأس!» ولكنهما لم يفكا وثاق عبد الله وأوثقا امرأته الحامل المتمة (في شهرها التاسع) بنخلة على شاطىء النهر فسقطت رطبة فأكلها رجل منهم، فصاح فيه رجل آخر: «أخذتها بغير حلها وبغير ثمن! هذا فساد في الأرض».

ثم جاء صاحب الخنزير الذي قتلوه وهو رجل من أهل الذمة فعاتبهم فدفعوا له ثمن الخنزير مضاعفاً، وأرضوه، فقال لهم عبد الله بن خباب:

«إن كنتم صادقين فيما أرى منكم فما عليَّ منكم من بأس؟ إني مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثاً. ولقد أمَّنتموني فقلتم لا روع عليك».

ولكنهم ذبحوه، فسال دمه حتى اختلط بماء النهر، وجاؤوا بامرأته فصرخت فيهم: «أنا امرأة وفي بطني نفس حية ألا تتقون الله وأنتم حملة القرآن».

فبقروا بطنها وقتلوا الجنين، ثم ذبحوها، وجاءت ثلاث نسوة يغثنها، فقتلوهن جميعاً. روع الإمام بهذه الأنباء عن فسادهم في الأرض، فبعث الإمام إليهم الحارث بن مرة العبدي وأوصاه بأن يتحسس

من أمرهم، ويتحقق عما بلغ الإمام عنهم، فإن صح عنده ما بلغ الإمام، فليطلب منهم تسليمه قتلة عبد الله بن خباب وامرأته والنسوة الثلاث، ولكن الحارث لم يكد يسألهم ذلك حتى قتلوه!

فلما علم أصحاب علي بذلك، وهو يتهيأ للمسير إلى معاوية وصحبه، فزعوا إلى الإمام، فقالوا: «يا أمير المؤمنين! علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا؟! سر بنا إلى القوم الخوارج فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام».

فخرج إليهم علي بنفسه يقود عدداً من أصحابه الدارعين الشجعان، فلما بلغهم أرسل إليهم: «ادفعوا إلينا القتلة منكم أقتلهم بمن قتلوه، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل المغرب (الشام) فلعل الله يقلب قلوبكم، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم».

فأجابوه: «كلنا قتلهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم».

فلما حاول أن يكلمهم ويعظهم وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واستكبروا استكباراً. ثم تنادوا بينهم: «لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيؤوا للقاء الله. الرواح الرواح إلى الجنة».

فلما حاول أن يخطب فيهم، شغبوا وعربدوا عليه قائلين: «جزعت من البلية، ورضيت بالقضية (التحكيم)، وقبلت الدنية» فقال: «حكم الله أنتظر فيكم» فقالوا مستشهدين بآية من القرآن الكريم: **﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾**. فرد عليهم بالآية الكريمة: **﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾**.

ورأى علي أن يرسل إليهم رجلاً يخجلون منه، فاختار أبا أيوب الأنصاري، وهو الذي نزل عليه الرسول ﷺ لما قدم يثرب مهاجراً من مكة، وقد آخى الرسول بينه وبين مصعب بن عمير. وأبو أيوب من

القلائل الذين بقوا من أهل بدر، والذين شهدوا المشاهد كلها مع الرسول. . وكان الرسول حين دخل المدينة اعترضه قوم من أشرافها فأمسكوا بزمام ناقته وقالوا: «يا رسول الله هلم إلى العدد والعدة والقوة» فقال لهم: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة» فكلما مر بقوم قالوا مثل ذلك، ويكرر الرسول ما قاله، حتى مر بأخواله فبركت، ثم قامت حتى بركت أمام دار أبي أيوب فلم تقم حتى نزل النبي ﷺ، فأدخله أبو أيوب بيته، وحمل عنه رحله، وأمر الرسول ببناء المسجد والحجرات وظل مقيماً عند أبي أيوب حتى انتهى بناء المسجد والحجرات فانتقل إليها.

وكان أبو أيوب يتلو قوله تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾ فيقول: «فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً» ثم ينفر إلى الجهاد.

وكانت لأبي أيوب الأنصاري عند هؤلاء الخوارج من القراء منزلة خاصة.

وأمره الإمام ألاّ يحاربهم بل يحاورهم. فسألهم لماذا خرجوا من حروراء وتبعوا أمير المؤمنين إلى الكوفة إن لم تكن هي التوبة النصوح؟!

فإن كانت هي التوبة النصوح فما أخرجهم إلى النهروان؟ وما قتلهم عبد الله بن خباب وامرأته والنسوة الثلاث؟ أيقتلونهم بغير حق، وهم حملة القرآن؟ فهم يعلمون أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً. . !! أيعفُّون عن أكل ثمرة بغير حق، ويندمون لقتل خنزير، ثم يقتلون أربعة أنفس مؤمنة؟!. . فليسلموا القتلة، وكفى الله المؤمنين القتال، أم أنهم يريدون أن يقاتلوا أمير المؤمنين، بدلاً من أن يقاتلوا ظالميهم وهم القاسطون من أهل الشام؟

فتناجوا فيما بينهم. فتنحت عصابة منهم فقالوا: «لا نقاتل علياً ولا نقاتل معه!» فرحب بهم أبو أيوب، وأمرهم أن يعودوا إلى أهلهم في الكوفة أو البصرة. وكانوا كلهم شباباً من أهل التطرف والحماسة.

وقالت جماعة أخرى: «بل نحارب الكفرة!».

وعاد أبو أيوب الأنصاري إلى الإمام يخبره بما كان من أمر الخوارج، فأعطاه الإمام راية أمان، وأمره أن يطلق منادين ينادون في القوم: «من لم يقتل ولم يتعرض (أي يشترك)، وجاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن أو إلى بلده وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم».

فقال أحد زعماء الخوارج: «والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً؟! أرى أن أنصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه».

فانصرف مئات من الفرسان إلى بلدة في طرف النهروان تاركين سائر الخوارج.

وعادت جماعة بعد جماعة إلى الكوفة أو إلى المدائن أو إلى البصرة، فلم يبق من الخوارج في النهروان إلا نحو ألفين يقودهم عبد الله بن وهب، كلهم في الدروع لا يبين منهم غير حدق العيون، وكل منهم متوتر قد اطمأن للحكم على الإمام ومن معه بأنهم كفرة، وأن قتلهم واجب شرعي وأن من قتل من الخوارج في معركة مع الإمام وأصحابه، فهو شهيد كمن قتل في سبيل الله!!

فأمر أمير المؤمنين أصحابه بالسير، وتقدمهم في القلب كعادته في كل معركة، فجعل على الميمنة حجر بن عدي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري وعلى الميسرة شبث بن ربعي، وعلى أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري.

وقال علي لرؤساء جيشه: «كفوا عنهم حتى يبدؤوكم» فقد كان يدعو الله أن يعودوا إلى الجماعة، ويدخلوا فيما خرجوا عنه، ويتوبوا ويثوبوا.

وزحف الإمام، فاعترضه أحد العرافين المنجمين فقال: «لا يا أمير المؤمنين. لا تخرج في هذه الساعة، فإنها ساعة نحس لعدوك عليك، ولا تسر في هذا الطريق، فهو طريق نحس لك!».

فقال له الإمام: «إني توكلت على الله ربي وربكم وعصيت رأي كل متكهن، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان. إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم، فمن صدقك بعد هذا فقد كذب القرآن، المنجم كالساحر والساحر كالكافر، والكافر في النار.. سيروا على اسم الله».

وزحف حتى واجههم، وهم يهمون بالقتال.

فرأى أن يحاول حقن الدماء.

فليناظر أفقههم على مسمع من الجميع، عسى أن يحقن الدماء.

وسأل عن ابن الكواء أهو فيمن انصرف راشداً، أم ما زال في الخوارج، فلما علم أنه ما زال في الخوارج ناداه، فبرز له، وأتباعه الخوارج قد اصطفوا بقيادة عبد الله بن وهب، وتهيؤوا للقتال، ورجل منهم يمشي بين الصفوف يحرضهم على القتال، وصوته كالفحيح، وريحه منتنة!!

قال الإمام: «يا بن الكواء ما أخرجكم بعد رضاكم بالحكمين ومقامكم بالكوفة؟!!» فتقدم ابن الكواء وكان أحد المتطرفين القلائل الذين يحتفظون بقدر من الحياء من علي، ويعلم أن الحياء شعبة من الإيمان فقال: «قاتلت بنا عدواً لا نشك في جهاده، فزعمت أن قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقاً، وحكمت كافراً». فقال الرجل الذي يطلق صوتاً كالفحيح: «بل قل له يا علي إنك كفرت ونافقت».

فلم يحفل به ابن الكواء، واستمر يقول للإمام: «وكان مما شكك

في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم: كتاب الله بيني وبينكم، فإن قضى عليَّ بايعتكم وإن قضى عليكم بايعتموني، فلولا شكك لم تفعل هذا والحق في يدك».

فقال الإمام: «يابن الكواء، إنما الجواب بعد الفراغ، أفرغت فأجيبك؟» قال «نعم».

قال أمير المؤمنين: «أما قتالك معي عدواً لا نشك في جهاده، فصدقت، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم. وأما قتلانا وقتلاهم، فقد قال الله في ذلك ما يستغنى به عن قولي، وأما إرسالي المنافق وتحكيمي كافراً فأنت أرسلت أبا موسى مبرنساً (أي في برنسه، والبرنس ثياب النسك)، ومعاوية حكَّم عمرو بن العاص، أي (ما هما بمنافق وكافر) . أنت أتيت بأبي موسى مبرنساً فقلت لا نرضى إلا أبا موسى، فهلا قام إليَّ رجلٌ منكم فقال: يا علي، لا نعطي هذه الدنية فإنها ضلالة؟! وأما قولي لمعاوية إن جرني إليك كتاب الله تبعتك، وإن جرك إليَّ تبعتني، وزعمت أني أعطي ذلك من شك، فحدثني ويحك عن اليهودي والنصراني ومشركي العرب، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟» قال: «بل معاوية وأهل الشام أقرب» قال الإمام: «أفرسول الله كان أوثق بما في يديه من كتاب الله أو أنا؟» قال: «بل رسول الله».

فسكت الإمام مبتسماً، ثم قال: «مرحى يا بن الكواء، أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول: **﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منه أتبعه إن كنتم صادقين﴾** أما كان رسول الله يعلم أنه لا يؤتى بكتاب هو أهدى مما في يديه؟» قال: «بلى» قال الإمام: «فلم أعطى رسول الله القوم ما أعطاهم؟!» قال: «إنصافاً وحجة» قال: «فإني أعطيت القوم ما أعطاه رسول الله».

قال ابن الكواء وقد زايله توتره وقد تفتح عقله وقلبه: «فإني أخطأت. هذه واحدة. زدني» قال أمير المؤمنين مبتسماً راضياً: «فما

أعظم ما نقمتم عليَّ؟» قال: «تحكيم الحكمين، نظرنا في أمرهما فوجدنا تحكيمهما شكا وتبذيراً».

قال الإمام: «فمتى سمي أبو موسى حكماً: حين أرسل أو حين حكَّم؟ قال ابن الكواء: «حين أرسل» قال: «أليس قد سار وهو مؤمن وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله؟!» قال: «نعم» قال الإمام: «فلا أرى الضلال في إرساله».

فقال ابن الكواء وقد أحس أنه محاصر: «بل سمّي حكماً حين حكم» قال: «نعم إذن فإرساله كان عدلاً. أرأيت يا بن الكواء لو أن رسول الله بعث رجلاً إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله، فارتد على عقبه كافراً، كان يضر نبي الله شيئاً؟!» قال: «لا» قال: «فما ذنبي إن كان أبو موسى ضل؟ هل رضيت حكومته حين حكم أو قوله إذا قال؟ قال: «لا».

وأدرك ابن الكواء أن الإمام سيبهته ويقيم عليه الحجة، وكان ما يزال في نفسه شيء من عناد في أمر الحكمين، فهو يرى أن أبا موسى منافق وأن ابن العاص كافر، وقد أوشك الإمام أن يقنعه بأن أبا موسى ذهب إلى التحكيم وهو مؤمن، ولكنه ضل في عمله فلا ذنب لمن أرسله أما عمرو فهو ليس بكافر ولكنه مخادع، وما يحمل وزر خديعته غير الذي أرسله.

أدرك ابن الكواء أن هذا ما يريد أن يصل إليه الإمام، فقال له كأنه يريد أن يفلت من حجة الإمام عليه: «ولكنك جعلت مسلماً وكافراً يحكمان في كتاب الله!» قال: «يابن الكواء هل بعث عمرو بن العاص غير معاوية؟! وكيف وحكمه على ضرب عنقي؟ إنما رضي به صاحبه كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المسلم وغير المسلم يحكمان في أمر الله؟ أرأيت لو أن رجلاً مسلماً تزوج يهودية أو نصرانية فخافا شقاق بينهما، ففزع الناس إلى كتاب الله، وفي كتاب الله: **﴿فابعثوا حكماً من**

أهله وحكماً من أهلها﴾ فجاء رجل من اليهود أو رجل من النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما في كتاب الله، فحكما».

ولم يجد ابن الكواء رداً، فتنهد وقال: «وهذه أيضاً، أمهلنا حتى ننظر».

فجعل ابن الكواء يناجي أصحابه، والإمام ينتظر نهاية نجواهم، وإذ بجماعات يقودها عبد الله بن وهب وحرقوص بن زهير وغيرهما تصيح: «إن الحكم إلا لله».

واختفى ابن الكواء، وتقدمت صفوفهم بالحراب المشرعة..

فقال لهم الإمام: «إنكم أنكرتم علي أمراً أنتم دعوتموني إليه، فنهيتكم عنه فلم تقبلوا، وهاأنذا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه، ولا ترتكبوا محارم الله، فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيماً عند الله، فكيف بدماء المسلمين؟ فيا أيتها العصابة التي أخرجها المراء واللجاجة، وصدها عن الحق الهوى، وطمع بها النزق، وأصبحت في الخطب العظيم! إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا الوادي بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين. ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة، ونبأتكم أنها مكيدة، وأن القوم ليسوا بأصحاب دين، فعصيتموني؟ فلما قبلت شرطت واستوثقت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنّة، فنبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول. فمن أين أتيتم؟!» فقال الرجل ذو الرائحة المنتنة والصوت الذي يشبه الفحيح: «إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا، وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا، فإن تبت فنحن معك ومنك، وإن أبيت فإنا منابذوك على سواء (منذروك بالحرب)».

فقال الإمام: «أبعد إيماني برسول الله ﷺ، وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر؟! لقد ضللت وما أنا من المهتدين!

لقد أنبأتكم أن القوم إنما طلبوا الحكومة (التحكيم) مكيدة ووهناً، فأبيتم علي إباء المخالفين، وعندتم عناد النكداء العاصين، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم، رأي معاشر والله أخفَّاء الهام (الرؤوس) سفهاء الأحلام، فلم آت لا أبا لكم هجراً! والله ما ختلتكم عن أموركم، ولا أخفيت شيئاً من هذا الأمر عنكم.. فبينوا لنا بماذا تستحلون قتالنا والخروج عن جماعتنا وتضعون أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضون الناس تضربون أعناقهم!؟ إن هذا لهو الخسران المبين!».

فقال رجل من الخوارج: «لا تكلموه» واندفع بهم إلى جسر النهر، فقال بعض أصحاب الإمام: «إنهم قد عبروا النهر وسيفلتون!».

فقال: «لن يعبروا. وإن مصارعهم لدون الجسر، ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة. لقد حدثني خليلي رسول الله ﷺ فوصف ناساً إني لأعرف صفتهم في هؤلاء: يقولون الحق بألسنتهم ولا يجاوز حناجرهم، من أبغض خلق الله منهم أسود مخدّج (يده أقصر من الأخرى) يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. فيا أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم.. وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليها شعرات. وإني لأرجو أن يكونوا هم هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام»؟

فسأله أصحابه: «أسمعت هذا من رسول الله حقاً».

قال الإمام: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرَّ من السماء أحبُّ إلي من أن أكذب عليه... سمعت رسول الله يقول: «يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان أحداث الأسنان (صغار السن) سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم - إيمانهم

لا يجاوز حناجرهم ـ يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة! . . ».

فأمن على قول الإمام صاحبه أبو سعيد الخدري فقال إنه سمع رسول الله يصف هؤلاء الخوارج بقوله: «يخرجون على فرقة من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله».

وسكت الجميع. ثم استطرد أبو سعيد: وسمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، وقوم يحسنون القيل (القول) ويسيئون الفعل، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. . . هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم» فسئل: يا رسول الله ما سيماهم؟ فقال: فيهم رجل ذو ثدية، محلقو رؤوسهم.

وكان القراء الخوارج كلهم محلقي رؤوسهم.

وقاد علي جيشه فأدرك الخوارج قبل أن يعبروا الجسر، وكان بعض الناس قد شك فيما قاله عليٌّ عن عدم عبور الخوارج الجسر، فلما وجدوا الخوارج دون الجسر، أحسوا بأن الله معهم وأن بشارة الإمام ستتحقق، فكبروا مستبشرين.

وخشي عبد الله بن وهب قائد الخوارج أن يجادلهم علي، فيعود بالقراء الخوارج إلى الكوفة ليصلوا خلفه كما صنع يوم حروراء. . وحذر جنده أن يكونوا كالحرورية!!.

وصاح فيهم الرجل صاحب الريح الكريه والصوت القبيح الذي يشبه الفحيح: «الرواح الرواح إلى الجنة!».

وتنادوا جميعاً: «أقبلوا إلى لقاء الله تعالى.. الرواح الرواح إلى الجنة».

وشهروا السيوف والرماح، ورموا بالنبال واقتحموا جيش الإمام، فاشتجرت الأسنة، وأمر الإمام جيشه أن يتوزع فرقتين وأن يتركوا الخوارج يتقدمون، وما أن تقدموا حتى أطبق عليهم الإمام من كل أقطارهم فطحنهم طحناً، فلم ينج منهم غير ثمانية، وكأنما قيل لهم: قوموا، فماتوا، ولم يقتل من جيش الإمام إلا سبعة.

وتفقد الإمام أرض المعركة، فوجد بها أربعمائة جريح أمر بإسعافهم ثم إرسالهم إلى عشائرهم ليتموا علاجهم.. ووزع على رجاله ما غنموه من سلاح ودروع ودواب، وكل ما استخدمه الخوارج في الحرب.. أما الأموال والإماء والعبيد والمتاع فقد رده إلى أهل الخوارج عندما رجع إلى الكوفة...

وطاف أصحاب علي بالقتلى، فوجد عدي بن حاتم ابنه طرفة فيهم فدفنه، وأمر علي أصحابه أن يبحثوا له عن المخدج، وبحثوا ملياً فلم يجدوه فأصر على أن يعاودوا البحث لأنه يجب أن يكون بين هؤلاء القتلى!

وبحث معهم حتى وجدوه كما وصفه رسول الله ﷺ، فصفق الإمام وهتف: «الله أكبر، صدق الله ورسوله، والله ما كَذَبْت ولا كُذِّبت».

وسجد طويلاً.

فإذا بالمخدّج هو صاحب الريح القبيح والصوت الذي يشبه الفحيح. الذي كان يحرض الخوارج على القتال، حين أوشكوا أن يقتنعوا بكلام الإمام وهو يحاور ابن الكواء.

ولما تعرف أصحاب الإمام على الرجل المخدج ذي الثدية بعد أن انحسر وجهه، عجبوا له وقالوا: «إنه رجل فقير متدين شديد التدين كان

يشهد طعام المساكين مع أمير المؤمنين، وكان كثير السجود، وكان يرافقنا ويناظرنا، وكان دائم الجلوس في المسجد ليلاً ونهاراً، وله ريح منتنة فهو يكاد لا يستحم، وقد قحلت مواضع السجود من جسده لكثرة السجود كغيره من متطرفي القراء الذين صاروا خوارج».

وقال جماعة من أصحاب الإمام: «الحمد لله الذي قطع دابرهم يا أمير المؤمنين».

فسكت الإمام، وسرحت نظراته والتمعت عيناه، وكأنه يستقرىء.. إذ تظهر في كل زمان ومكان طوائف من هؤلاء المتدينين المتطرفين الذين يهاجرون بعقولهم وربما بأجسادهم من المجتمع، ويكفرون مخالفيهم، ويلتقون مع القاسطين وهم ظالموهم، ليقاتلوا جميعاً حماة العدل، ودعاة الهدى، والمدافعين عن المظلومين!!

وبعد لحظات قال الإمام: «كلا، والله إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء».

فسألوه: «أمشركون هم يا أمير المؤمنين» قال: «من الشرك فروا» قالوا: «أمنافقون؟» قال: «إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً!» قالوا: «فمن هم يا أمير المؤمنين» قال: «إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم. فاذكروا عني إذا لقيتموهم من بعدي أنهم طلبوا الحق فأخطؤوه، أما القاسطون فقد طلبوا الباطل فأصابوه!».

فلما انصرف الإمام برجاله من النهروان بعد انتصارهم الساحق الماحق على الخوارج، قام في الناس خطيباً فقال: «بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله وآله. أما بعد، فإن الله قد أعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام».

فوثب الأشعث بن قيس فقال: «يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد

بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من فارقنا».

ويحك يا أشعث! لكأنك موكل بي لتقود رجالي إلى الطريق الخطأ.!. أنت الذي ناديت بقبول التحكيم والناس منهكون من الحرب، فشجعتهم على الوقوع في الشراك، والإذعان للخديعة، وجرأت علينا القراء الذين أصبحوا خوارج!!.

ويلك! أنت الذي قادتك النعرة الجاهلية ففرضت أبا موسى الأشعري حكماً لأنه من قومك اليمانية، وما كان أبو موسى ليصلح، ولا هو بالذي يفطن لأحابيل عمرو، وهكذا دفعتنا الخديعة مرة أخرى، إلى أن نغمس سيوفنا في مهج المسلمين!....

وها هو ذا ذو الفقار، السيف الذي دافع عن رسول الله ورسالته، وسفك دماء المشركين، يشهر مرة أخرى على هامات مسلمين، بعضهم من خلف ذلك السلف من أئمة الكفر! ولكنهم مسلمون!! مسلمون بغاة أهل شقاق، فما يسد الثلم الذي أحدثوه، إلا بأشلائهم هم وسائر البغاة وأهل الشقاق!!

ولم يكد الأشعث بن قيس يفرغ من إلقاء كلمته، حتى تعالت الأصوات تطالب بمثل ما طالب به.. أن يعودوا إلى الكوفة، فيستريحوا ويستعدوا بالعدة والعدد!

وأدار الإمام عنان جواده متجهاً إلى الكوفة، وعلى مقربة منها حيث يقع المعسكر في النخيلة، نزل أمير المؤمنين ونزل رجاله بالنخيلة، فأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا النفس على الجهاد، وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم.

وإن هي إلا أيام حتى تسللوا إلا قليلاً إلى بيوتهم في الكوفة، يتلذذون بنسائهم وأبنائهم. فدخل معسكرهم يتفقدهم فوجد المعسكر خالياً إلا من كبار قواده، والأعزاء من أصحابه، من المهاجرين

والأنصار، فأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم، وعاد هو إلى الكوفة محزوناً، حتى إذا صلى بالناس قام يخطبهم بعد الصلاة، فقال: «أيها الناس، استعدوا للمسير إلى عدوكم ومن في جهاده القربة إلى الله عزّ وجلّ، ودرك الوسيلة عنده، فهم حيارى من الحق، جفاة عن الكتاب (القرآن)، يعمهون في طغيانهم، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا وكفى بالله نصيرا».

ونظر إليهم، فوجد فيهم الأشعث بن قيس، منكس الرأس... لعله وراء انسحاب الرجال من معسكرهم بالنخيلة ليبيتوا في دورهم بالكوفة مخالفين رأي الإمام... كم من مرة حرض فيها الأشعث على مخالفة رأي الإمام فوجد من يتبعونه؟!

وعادت ذاكرة الإمام إلى ما طواه الزمان منذ نحو عامين: حين كان الأشعث والياً لعثمان على أذربيجان، فلما بويع علي، أرسل إليه كما أرسل لسائر عمال عثمان فأمرهم أن يرفعوا إليه حسابهم عما تحت أيديهم من أموال وجاء في كتاب عليّ إليه: «أما بعد، فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس، فلعل أمراً يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله... وإن عملك ليس لك بطعمة (هدية)، ولكنه أمانة في عنقك، والمال مال الله، وأنت من خزّاني عليه حتى تسلمه إليّ إن شاء الله، وعلى ألا أكون شر ولاتك».

فلما تلقى الأشعث كتاب أمير المؤمنين، دعا نصحاءه وقال لهم: «إن كتاب علي جاءني، وهو آخذي بمال أذربيجان، وأنا لاحق بمعاوية» فنصحه خلصاؤه: «الموت خير لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام؟!».

فردته العزة أن يكون تابعاً لمعاوية وهو شيخ أهل اليمن وسيدهم، فجمع الملأ من أهل أذربيجان وقادتهم العرب وخطبهم: «أيها الناس إن عثمان رحمه الله ولاني أذربيجان، وهلك وهي في يدي، وقد بايع الناس

علياً، وطاعتنا له لازمة، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك».

أما يزال الأشعث يصبو إلى اللحاق بمعاوية؟! ربما فمعاوية يحقق له من الجاه والنفوذ والسطوة ما يأبى عليك دينك وعدلك أن تصنعه يا علي وأنت تقود المتقين!

وأقبل إلى الإمام رجل من مكة، فجاءه بنبأ كتاب أرسله عبد الله بن عمر يلوم فيه حماه أبا موسى الأشعري على موقفه في التحكيم، ونبأ رد أبي موسى.

فقد كتب عبد الله بن عمر لحميه: «أما بعد يا أبا موسى، فإنك تقربت إليَّ بأمر لم تعلم هواي فيه! أكنت تظن أني أبسط يداً إلى أمر نهاني عنه عمر؟ أو كنت تراني أتقدم على عليٍّ وهو خير مني؟ لقد خبت إذن وخسرت وما أنا من المهتدين، فأغضبت عليَّ بقولك وفعلك علياً ومعاوية. ثم أعظم من ذلك خديعة عمرو إياك، وأنت حامل القرآن، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله، وصاحب مغانم أبي بكر وعمر، فقدمك عمرو للقول مخادعاً، حتى خلع علياً قبل أن يخلع معاوية، ولعمري ما يجوز لك على عليٍّ ما جاز لعمرو على معاوية».

أتى كتاب ابن عمر أبا موسى وهو في مكة، معتزلاً متنسكاً بجوار الحرم، لا يخاطب أحداً ولا يرد على أحد، فكتب أبو موسى: «أما بعد فإني والله ما أردت بتوليتي إياك وبيعتي لك القربة إليك، ما أردت بذلك إلا الله عزّ وجلّ، وما تقلدي أمر هذه الأمة غير مستكره، فإنهم كانوا على مثل حد السيف، فقلت: إن يصطلحوا فهو الذي أردت، وإلا لم يرجعوا لأعظم مما كانوا فيه، وأما إغضابي عليك علياً ومعاوية، فقد غضبا عليك قبل ذلك، وأما خديعة عمرو إياي، فوالله ما ضر بخديعته علياً ولا نفع معاوية، وقد كان الشرط ما اجتمعنا عليه لا ما اختلفنا فيه، وأما نهيي إليك (إخبارك باختيارك خليفة)، فوالله لو تم الأمر لأكرهت عليه!».

وأخذ الإمام يصفق عجباً من أبي موسى، وما صنعه!!

على أن علياً لم يكد يستقر في الكوفة، حتى وافته الأنباء من كل أقطار الدولة عن قوم خرجوا عاصين.. كان ذلك في ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين. خرج رجال حتى قدموا الأنبار، وآخرون قرعوا باب المدائن، وآخرون في أقصى الدولة من الشرق، وهبت عصابات هنا وهناك تعيث في الأرض فساداً وتتهم علياً بالكفر، وتحرض الناس على ألا يؤدوا الخراج، فوجه الإمام إليهم الحملات، فهزمهم أصحاب علي، وقتلوا قواد الخوارج.

ثم خرج رجل يقال له السعدي، وقاد جماعة كبيرة من الموالي، استطاع أن يضللهم ويستنفرهم للحصول على حقوقهم التي زعم لهم أن علياً نهبها.. وما كان علي يعاني ما يعاني إلا ليرد الحقوق، ويقيم العدل.. ولكن السعدي استطاع أن يخدع هؤلاء الموالي فساق منهم جيشاً ليس فيه خمسة رجال من العرب، وزحف إلى الكوفة، وكلما زحف ونادى بالثورة من أجل حقوق الفقراء والمساكين تبعه رجال مخدوعون، ليحارب بهم إمام المساكين!

لكم تعاني يا بن أبي طالب!!.. لك الله يا ولي الله!! حتى الذين تسهر وتشقى وتتعذب من أجل إسعادهم، ثاروا عليك، وأصبحوا في الحق سنداً لظالميهم وظالميك، لعدوكم جميعاً!! وهل سخط عليك من سخط إلا لأنك سويت في القسمة بين العرب والموالي؟!

وتقدم السعدي برجال صب في عروقهم شجاعة خارقة، جعلتهم قادرين على أن يقتحموا الخطر والمجهول، لينتزعوا ما زعموا أنه قد استلب من حقوقهم. وأوشكوا أن يبلغوا ضواحي الكوفة، فأرسل إليهم أمير المؤمنين يعظهم وينصحهم، ويدعو قائدهم إلى البيعة والعودة إلى داره بالكوفة ولكنه قال لرسول أمير المؤمنين: «ليس بيننا غير الحرب».

فوجه إليهم الإمام حملة لتصدهم عن الكوفة، فهزموها، واضطروا قائدها شريح بن هانىء إلى الالتقاء في قرية خارج الكوفة بعد أن تفرق عنه رجاله!

فخرج إليهم الإمام بنفسه يقود جماعة من أصحابه، وبعث إليهم جارية السعدي يدعوهم إلى الطاعة، فأبوا، ودعاهم الإمام، فحملوا عليه يريدون قتله هو أوصحابه، فانقض عليهم الإمام وجيشه، فلم ينج منهم غير أربعين سقطوا جرحى، فأمر الإمام بحملهم إلى الكوفة لعلاجهم.

ولم يكد الإمام يعود من حربه تلك، حتى جاءه الخريت بن راشد التميمي، وهو أحد أصحابه الذين شهدوا معه الجمل وصفين، وكان عزيزاً عليه حبيباً إليه، فلم يدع الإمام: «يا أمير المؤمنين» بل ناداه باسمه في غلظة ومن خلفه فرسان دارعون في عدة الحرب، الرماح في الأيدي، والأيدي الأخرى على سيوف ينعكس على مقابضها وهج الشمس، والخوذات تخفي الرؤوس والوجوه فما يبين غير العيون.

ألقى الإمام نظرة عريضة تتصفح الفرسان الدارعين في ملابس القتال، فعاد الرجل يقول: «يا علي، والله لا أطيع لك أمراً، ولا أصلي خلفك، وإني غداً مفارق لك!».

وأجفل علي من الدهشة والمباغتة ثم قال: «ثكلتك أمك! إذن تعصي ربك، وتنكث عهدك، ولا تضر إلا نفسك! خبرني لم تفعل ذلك؟» قال: «إنك حكمت الرجال، وضعفت عن الحق، وركنت إلى القوم الذين ظلموا. فأنا عليك زار وعليهم ناقم، ولكم جميعاً مباين» فقال علي: «هلم أدارسك الكتاب، وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر» قال: «فإني عائد إليك» فقال له الإمام ناصحاً: «لا تستهوينك الشياطين، ولا يستخفنك الجهال! والله لئن استرشدتني وقبلت مني لأهديتك سبل الرشاد».

ولكن الخريت، لم يعد كما وعد، بل خرج من الكوفة ومعه نحو ثلاثمائة فارس من أشجع فرسان علي، فأعلنوا العصيان، وخلعوا البيعة، وزعموا أن علياً كفر!

وحزن الإمام لخروجهم، ويا طالما دعا الله أن يجنب المسلمين سفك الدماء.. حتى معاوية كان يدعو له الله أن ينقذه مما هو فيه من ضلال، فلا يطمع في الخلافة وهو الطليق، ويعود إلى الجماعة، ويستجيب إلى دعوة الإمام لحقن الدماء ورأب الصدع.

وشعر الإمام أن وراء خروج الخريت أصابع معاوية! وربما كانت مكايد معاوية هي التي حركت كل الذين خرجوا على الجماعة بعد معركة النهروان...!... فلو أنه كان التطرف وحده، لاجتمعوا معاً في النهروان ولكن ما بال هؤلاء الذين خرجوا عليه أخيراً، كانوا ينكرون على أصحاب حروراء وعلى أصحاب النهروان خروجهم؟! إذن! ما غيرهم إن لم يكن هو إغراء معاوية الذي أقسم أن يجذب إليه خاصة رجال علي، وأن يغلب بدنياه دين علي..!؟

وفي الحق أنه نجح مع بعض الرجال، وما زال آخرون تضطرب في صدورهم الأهواء والنوازع، وتشرئب في أعماقهم الأطماع!.. ولكن الخريت من أهل التقوى، أتفتنه دنيا معاوية؟!.. بل أن أمرا بدا له؟!

وشعر أصحاب الإمام بما يعانيه بعد خروج الخريت بن راشد التميمي، وهو كما يراه الإمام رجل صاحب علم ودين وتقوى، جدير بأن يدارسه الإمام القرآن، حري بأن يناظره في السنن.

وأقبل زياد بن خصفة البكري، وهو من أشجع الفرسان وأحكم الرجال يهوّن على الإمام ما يلقى من البرحاء، فقال: «يا أمير المؤمنين إنهم لم يعظم علينا فقدهم فنأسى عليهم، إنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا، ولقلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا! ولكننا نخاف أن

يفسدوا جماعة كثيرة من أهل طاعتك ممن يقدمون عليه (على الخريت). فأذن لي في اتباعهم حتى أردهم عليك».

فسأله أمير المؤمنين: «تدري أين توجهوا؟» قال: «لا، ولكني أسأل وأتبع الأثر» فقال: «اخرج يرحمك الله، وانزل دير أبي موسى، وأقم حتى يأتيك أمري».

فجمع زياد بن خصفة البكري رجاله، وخرج بهم يتبع أثر الخريت وعصبته، حتى علم أين نزلوا.. وبلغ أمير المؤمنين أنهم قتلوا أحد الدهاقين (وهم رؤساء الفرس) وكان الدهقان قد أسلم، وأن الخريت أغرى رجالاً آخرين فانضموا إليه، فأرسل أمير المؤمنين إلى زياد بن خصفة البكري مدداً، وبعث مع قائد المدد بكتاب إلى زياد يخبره فيه أنهم قتلوا الدهقان الذي أسلم، ويأمره بأن يردهم إليه ليدخلوا في الجماعة، ويسلموا الإمام قاتل الدهقان، فإن لم يطيعوا زياداً قاتلهم...

وجهد زياد في تتبعهم حتى أدركهم، وقد تعب رجاله، وكلت خيله، فسأله الخريت: «أخبروني ما تريدون» فشحذ زياد البكري حكمته فأملت عليه قوله: «قد ترى ما بنا من التعب، والذي جئناك له لا يصلحه الكلام علانية. ولكن ننزل ثم نخلوا جميعاً فنتذاكر أمرنا، فإن رأيت ما جئناك به حظاً لنفسك قبلته، وإن رأينا فيما نسمع منك أمراً نرجو فيه العافية لم نرده عليك».

فوافق الخريت، فنزل زياد وفرسانه، فطعموا مما حملوه من زاد وميرة وشربوا من الماء الذي نزلوا عليه وسقوا الخيل، وعلفوها. فلما أسفر الصباح كان زياد ورجاله قد استراحوا، فقال زياد لبعض أصحابه: «إن عدتنا كعدتهم وأرى أمرنا يصير إلى القتال، فلا تكونوا أعجز الفريقين».

وسمع زياد أصحاب الخريت يتناجون فيما بينهم: «جاءنا القوم

وهم كالون تعبون فتركناهم حتى استراحوا، هذا والله سوء الرأي».

وخلا زياد والخريت ليتذاكرا أمرهما فقال زياد: «ما الذي نقمته على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟» لم أرض صاحبكم إماماً، ولا سيرتكم سيرة، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى» قال زياد: «وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبك الذي فارقته علماً بالله وكتابه وسنة نبيه، مع قرابته من رسول الله ﷺ، وسابقته في الإسلام؟».

وسكت الخريت هنيهة ثم قال: «ذلك ما قال لك!» فسأله زياد: «فيم قتلت هذا الرجل المسلم (يعني الدهقان)؟» فأجاب: «ما قتلته، إنما قتلته طائفة من أصحابي» قال زياد: «فادفعهم إلينا» قال: «ما إلى ذلك سبيل».

وإنهما ليتحاوران إذ أقبل أصحاب كل واحد منهما، فاقتتلوا أعنف قتال حتى فصل بينهما الليل، وأصبحوا فإذا الخريت قد مضى برجاله تحت جنح الليل، وإذا زياد بن خصفة البكري جريح، فحمله رجاله إلى البصرة أقرب المدن إليه ليعالج فيها.

وانفلت الخريت إلى الأهواز، فلحق به كل الذين أرادوا التحلل من الخراج، وتضخم جيشه بهم وبأوشاب من العرب واللصوص لحقوا به حتى أتوا فارس فأخرجوا عامل عليٍّ عليها، سهيل بن حنيف الأنصاري وهو بدري شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وثبت معه في أحد حين انهزم الناس وفروا، وبايعه على الموت، وأخذ يرمي النبل دفاعاً عن رسول الله.

فقال ابن عباس لعليٍّ: «أنا أكفيك فارس بزياد بن أبيه» وكان زياد ابن أبيه جسوراً، حاذقاً عنيفاً.

أقبل زياد بن أبيه في جند كثيف على فارس، ففر منها رجال

الخريت وأدى أهلها الخراج الذي كسروه من قبل.

ومضى الخريت إلى مكان آخر يتلاحق به من يريدون التحلل من أداء الخراج، وبعض اللصوص والصعاليك، ووصل أمير المؤمنين كتاب من زياد بن خصفة البكري، أنبأه فيه أنه في البصرة يعالج هو وسائر الجرحى، وقص عليه ما آل إليه أمر الخريت ومن تلاحقوا إليه من شر مستطير..! فوثب معقل بن قيس فقال: «يا أمير المؤمنين، كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد عشرة، فإذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم».

فوجه إليهم أمير المؤمنين جيشاً كثيفاً بقيادة معقل بن قيس وأوصاه بقوله: «اتق الله ما استطعت، ولا تبغ على أهل القبلة، ولا تظلم أهل الذمة ولا تتكبر فإن الله لا يحب المتكبرين».

وأمر الإمام عبد الله بن عباس عامله على البصرة أن يمد معقل بن قيس بألفي رجل على رأسهم رجل شجاع صالح، فإذا أتى معقلاً كان معقل هو أمير الجيش كله، ثم كتب إلى زياد بن خصفة، يحمد الله إليه، ويطلب منه العودة من البصرة.

فلما بلغ معقل الأهواز انتظر خارجها مقاتلي البصرة حتى توافوا عليه بعد يوم واحد في نحو ألفي رجل بقيادة خالد بن معدان الطائي، فساروا جميعاً تحت إمرة معقل بن قيس، فالتقوا بالخريت وأصحابه.. واصطفوا للقتال، ودعاهم معقل إلى الدخول في الطاعة فرفض الخريت ورفضوا، وكان قد صف من معه من العرب من ناحية فجعلهم ميمنة جيشه، وجعل الأكراد وأهل البلد وغيرهم ميسرته.. والتحم الجيشان، وقتل معقل وأصحابه سبعين من العرب وثلاثمائة ممن عداهم، وانهزم الخريت بمن بقي، وسار بهم إلى شاطىء البحر، وكلما سار دعا إلى العصيان ومنع الخراج، وأفتاهم بأن الهدى في حرب علي، فاتبعه خلق

كثير، من الذين سرهم ألا يؤتوا الزكاة والذين لا يحبون أن يدفعوا الجزية، فأقاموا بعيداً على ساحل البحر.

وأرسل معقل من معسكره بالأهواز إلى أمير المؤمنين بالكوفة ينبئه بهزيمة الخريت وفراره إلى ساحل البحر....

فقرأ عليٌّ الكتابَ على أصحابه، واستشارهم كما عودهم في كل أموره فأجمعوا على رأي واحد... قالوا: «يا أمير المؤمنين، نرى أن تأمر معقلاً أن يتبع آثار الفاسق حتى يقتله أو ينفيه فإنا لا نأمن أن يفسد عليك الناس».

فأرسل أمير المؤمنين إلى معقل شكره هو ومن معه على حسن بلائهم في قتالهم الخريت، ويأمره أن يطارده حتى يتوب وينيب إلى أمر الله ويدخل في الجماعة، ويؤدي من معه الزكاة والخراج، وكل ما امتنعوا عن أدائه..

فلما بلغ الخريت ما أمر به علي جاء إلى طوائف جيشه، فخاطب كل طائفة بما يرضيها، أما الخوارج فقال لهم: «أنا معكم أن علياً قد كفر حين حكم الرجال، وقد خلعه الحكمان فلا إمرة له».

ثم دعا صنائع معاوية فقال لهم: «إنا والله على رأيكم.. وقد قتل عثمان مظلوماً وقد جعل الله لوليه وهو معاوية ـ سلطاناً!!».

ودعا الذين أسلموا ثم امتنعوا عن أداء الزكاة وتناجوا فيما بينهم قائلين: «والله لديننا الذي خرجنا منه خير من دين هؤلاء، فدينهم لا ينهاهم عن سفك الدماء!» فقال لهؤلاء الذين أرادوا أن يرتدوا عن الإسلام: «ويحكم! لا ينجيكم من القتل إلا قتل هؤلاء والصبر، فإن حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يقتل ولا يقبلون منه توبة ولا عذراً».

فلما تراءى الجمعان، أمر معقل براية أمان فرفعت على مرتفع من الأرض وقال: «من أتاها من الناس فهو آمن» فأوى إلى الراية جمع

كبير، ولم يبق مع الخريت إلا قومه من بني ناجية وجمع قليل من غير المسلمين، ومن الذين أسلموا حديثاً ومنعوا الزكاة!

وأنذرهم معقل، ودعاهم إلى التوبة وتسليمه قتلة الأبرياء، والدخول في الجماعة، فما كان من الخريت إلا أن حمل برجاله على معقل وأصحابه، فاشتجرت القنا، وتقارعت السيوف، ولم يعد يسمع إلا صلصلة الحديد إذ يقع على الحديد، وسقط الخريت قتيلاً، وقتل من أصحابه نحو مائة وسبعين رجلاً، وتفرق الآخرون هاربين، ولكن معقلاً حاصرهم فلم يتمكن الآخرون من الفرار، فاستأسر بعضهم. وأسر هو رجالاً آخرين، وسبى النساء والذراري.

فأما من كان مسلماً فأطلقه، وأخذ بيعته، وترك نساءهم وأبناءهم، وأما من ارتد فعرض عليه الإسلام. فمن أسلموا أطلق سراحهم وجبى زكاة وخراج عامين: عامهم هذا، وما تأخر عليهم من زكاة وخراج عن العام الماضي.. عام صفين..

وساق الاسرى الآخرين ومعهم السبايا والأولاد، وتعالى عويل النساء وصراخ الأطفال ونشيج الرجال، حتى مروا على أردشير، فاستصرخوا مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل علي عليها، واستغاثوه: «يا أبا الفضل، يا حامي الرجال، وفكاك العناة (الأسرى) امنن علينا فاشترنا وأعتقنا» فقال مصقلة: «أقسم باللّه لأتصدقن عليكم إن الله يحب المتصدقين».

فساوم عليهم معقل بن قيس، فطلب خمسمائة ألف، وكانوا خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال، فقبل مصقلة. فقال له معقل: «عجل المال إلى أمير المؤمنين».

فلما بلغ معقل بن قيس الكوفة أخبر أمير المؤمنين بما كان بينه وبين مصقلة، فوافقه الإمام، واستحسن صنيعهما.

وكان مصقلة قد تحمل فدية الأسرى كلها من ماله، لم يسأل أحدا

من الأسرى معونة ولا مساعدة، وخشي عليٌ ألا يستطيع مصقلة الوفاء، فأرسل إليه، فلما أتاه مدح فعله، ثم سأله أن يؤدي ما عليه من مال الفدية ليودعه بيت المال، فأودع مصقلة مائتي ألف..

واستدعى مصقلة من ليلته صديقا له يدعى ذهل بن الحارث فطعما معا، ثم قال له مصقلة يستشيره: «إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدر عليه!» فقال له صاحبه ينصحه: «والله لو شئت ما مضت جمعة حتى تحمله» قال: «والله ما كنت لأحملها قومي! أما والله لو كان ابن هند يعني معاوية ما طالبني بها، ولو كان ابن عفان لوهبها لي» فقال له صاحبه: «إن أمير المؤمنين لا يرى ذلك الرأي، فهذا في رأيه حق لبيت المال».

وقبل أن ينقضي الليل، كان مصقلة في طريقه الى الشام هاربا إلى معاوية!

فلما علم الإمام بذلك قال متعجبا ضاحكا: «قبح الله مصقلة! فعل فعل السيد وفر فرار العبد، وخان خيانة الفاجر! والله لو علمنا عسره لأنظرناه فإن عجز عافيناه».

إن مصقلة لا ينسى كتاب الإمام علي له بعد أن ولاه أردشير خُرَّه بأشهر فقد كتب إليه: «بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك إنك تقسم في المسلمين الذين حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك (اختارك) من أعراب قومك فوالذي خلق الحبة، وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقا لتجدن بك عليَّ هوانا، ولتخفن عندي ميزانا، فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالا، ألا وإن حق من قِبَلِكَ وقِبَلِنَا (عندك وعندنا) من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء ..»

إن عليا ليتشدد في المساواة بين المسلمين في قسمة الفيء، تشددا

يصرف عنه الذين يحبون أن يمتازوا.. أما معاوية فهو يعرف كيف يرضي هؤلاء..

ثم أن مصقلة ليشعر أنه غير آمن في عمله مع علي، فربما كتب إليه كما كتب إلى غيره: ارفع إلي حسابك.. أما معاوية فهو يغدق بلا حساب!!

وكان أخو مصقلة نعيم بن هبيرة من شيعة علي، فبعث إليه في دمشق كتابا يلومه على هربه إلى معاوية! ولكن مصقلة كتب إليه يغريه باللحاق به: «إن معاوية قد وعدك بالإمارة والكرامة، فأقبل ساعة يلقاك رسولي والسلام».

فاجتمع أخوه وملأ من رؤوس العراق فأجمعوا أمرهم على أن يعتذروا لأمير المؤمنين عما صنعه مصقلة، فأتوه فقالوا: «يا أمير المؤمنين، إن نعيما أخا مصقلة يستحي منك لما صنع مصقلة، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلة من الرجوع إليك إلا الحياء! ولم يبسط منذ فارقنا لسانه ولا يده، فلو كتبنا إليه كتابا، وبعثنا من قبلنا رسولا، فانا نستحي أن يكون فارقنا مثل مصقلة من أهل العراق إلى معاوية!»

فقال علي: «اكتبوا».

فكتبوا إلى مصقلة: «أما بعد،

فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية رضا بدينه، ولا رغبة في دنياه، ولم يعطفك عن علي طعن فيه، ولا رغبة عنه، ولكن توسطت أمرا فقويت فيه الظن، وأضعفت فيه الرجاء، فكان أولاهما عندك أن قلت: أفوز بالمال، وألحق بمعاوية! ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق، ولا السكاسك (أسرة بالشام ذات ثراء هائل، ومنهم الذي قتل عمار بن ياسر والذي قطع رأسه) بربيعة، ولا معاوية بعلي، ولا أصبت دنيا تهنأ بها، ولا حظا تحسد عليه، وإن أقرب ما تكون مع الله، أبعد ما تكون مع

معاوية، فارجع إلى مصرك، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب، واحتمل الثقل، واعلم، أن رجعتك اليوم خير منها غدا، وكانت أمس خيرا منها اليوم. وإن كان عليك حياء من أبي الحسن، فما أنت فيه أعظم! فقبح الله أمرا ليس فيه دنيا ولا آخرة!».

فلما حمل رسول رؤساء العراق كتابهم إلى مصقلة بالشام، قال له: «يا مصقلة، انظر من جاورت، ومن زايلت، ثم اقض بعقلك دون هواك!» فقرأ مصقلة على معاوية كتاب رؤساء العراق، فقال له معاوية: «يا مصقلة إنك عندي غير ظنين، فاذا أتاك شيء فاستر عني!».

فقال مصقلة لرسول قومه: «يا أخا بكر، إنما هربت بنفسي من علي ولا والله ما يطول لساني بغيبته، ولا قلت فيه قط حرفا بسوء، اذهب بكتابي هذا إلى قومي».

وكان كتابه إلى قومه: «أما بعد، فقد جاءني كتابكم، وإني أخبركم أن من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير، وقد علمتم الأمر الذي قطعني من علي وأضافني إلى معاوية، وقد علمت أني لو رجعت إلى علي وإليكم لكان ذنبي مغفورا، ولكني أذنبت إلى علي وصحبت معاوية، فلو رجعت إلى علي أحدثت عيبا، وأحييت عارا، وكنت بين أمرين: أولهما خيانة وآخرهما غدر! ولكني أقيم بالشام، فان غلب معاوية فداري العراق، وإن غلب علي فداري أرض الروم.. وكانت فرقتي عليا على بعض العذر أحب إلي من فرقتي معاوية ولا عذر لي».

ثم همس لرسول قومه وهو يسلمه الكتاب أن يسأل أهل الشام عن قومه في علي، فقال الرسول: «قد سألت فقالوا خيرا» قال مصقلة: «فإني والله على هذا القول الحسن في علي حتى أموت».

فلما عاد الرسول إلى العراق قال لمن بعثوه: «كفوا عن صاحبكم، فليس براجع حتى يموت!» قالوا: «أما والله ما به إلا الحياء» ولكنهم

أسفوا، لأنه حكيم، ذو نجدة، ولعشيرته في الكوفة شأن كبير..

جلس الإمام بين أصحابه بعد الصلاة يحاورهم ويعظهم ويفقههم، كما تعود.

سأله رجل: «أكان سيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه وقدر» قال الإمام: «ويحك! لعلك ظننت القضاء قضاء لازما، والقدر قدرا حاتما (من الحتم)! ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. إن اللّه سبحانه أمر عباده تخيرا، ونهاهم تحذيرا، وكلف يسيرا، ولم يكلف عسيرا، وأعطى على القليل كثيرا، ولم يعص مغلوبا، ولم يطع مكرها، ولم يرسل الأنبياء لعبا، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثا، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار!»

ثم أنه نهى الناس عن التفكير في القضاء والقدر، فماذا يعود عليهم من مثل هذا الكلام! قال عن القدر: «طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر اللّه فلا تتكلفوه.. ولكن اعلموا أن من أصبح على الدنيا حزينا فقد أصبح لقضاء اللّه ساخطا، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به، فقد أصبح يشكو ربه!.. تذل الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير».

وقال كرم اللّه وجهه: «لا يقولن أحدكم: اللهم اني أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على الفتنة (أي الاختبار)، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن، فإن اللّه سبحانه يقول: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه، والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم. ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب ...... وإن اللّه جعل لكل شيء قدرا، ولكل قدر أجلا، ولكل أجل كتابا... أمره قضاء وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلم، ويعفو

بحلم.. ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم».

ثم قال يعظهم: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق اللّه عز وجل، فمن نصرهما نصره اللّه، ومن خذلهما خذله اللّه.. فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر.. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر».

ورأى الإمام أن بعض العلماء من الذين اصطنعهم معاوية، لم يكتفوا بتأويل القرآن على هوى معاوية، ليخدم دنياهم ودنياه، ولكنهم تجاسروا على رسول اللّه ﷺ فوضعوا الأحاديث، ليمجدوا بها معاوية وقومه!..

وكان أبو بكر وعمر لا يقبلان الحديث الإ إذا شهد عليه شاهدان، أما عثمان فعدل عن هذا الشرط، ولهذا أسرف في رواية الحديث رجال كان عمر يضربهم ويحبسهم إذا أسرفوا في رواية الحديث، فامتنعوا خوفا، حتى إذا قبض عمر، وثارت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية، أو بين بني هاشم وبني أمية، أكثر بعض الرواة في رواية الأحاديث، طمعا.. وكان علي كرم اللّه وجهه ينهى عن الإكثار في رواية الأحاديث الشريفة، ولا يقبل الحديث الإ بشهادة ويمين.

وإنه ليعظ ذات يوم في مسجد الكوفة إذ سأله رجل: «يا أمير المؤمنين أخبرنا عن أحاديث البدع» قال: «نعم . سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: إن الأحاديث ستظهر من بعدي حتى يقول قائلهم: قال رسول اللّه، وسمعت رسول اللّه ﷺ! كل ذلك افتراء عليّ! والذي بعثني بالحق لتفترقن أمتي على أصل دينها، فإن كان ذلك فعليكم بكتاب اللّه عز وجل، فإن فيه نبأ من كان قبلكم، ونبأ ما يأتي بعدكم، والحكم فيه بين، من خالفه من الجبابرة قصمه اللّه، ومن ابتغى العلم في غيره أضله اللّه، فهو حبل اللّه المتين، ونوره المبين، وشفاؤه النافع، وعصمة لمن

تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لايعوج فيقام، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلقه كثرة الرَّدِّ: (لا تبليه كثرة تكرار التلاوة). هو الذي سمعته الجن فولوا إلى قومهم منذرين قالوا: ﴿**يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا**﴾. من قال به صدق، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم».

وسأله سائل: «يا أمير المؤمنين، من هم أولياء اللّه» قال: «إن أولياء اللّه هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموه أن سيتركهم... لا يرون مرجوّاً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون».

جاءه من يخبره بأن معاوية هو الذي حرض هؤلاء الذين خرجوا عليه في أطراف الدولة، وقد شجعهم كل كسر الخراج وسمع الإمام أن معاوية يغري عامله على فارس زيادا المعروف بابن أبيه.. وقد وعده معاوية بأنه سيصحح نسبه، ويعترف بأخوته، ويجعله زياد بن أبي سفيان..

ولم يصدق الإمام أن معاوية يمكن أن يهدر مبادىء الدين إلى هذا الحد.. فمعاوية يعرف أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقد أبى اللّه أن ينسب مثل هذا لأب!.

ولكن الإمام تدبر الأمر، ورأى أن معاوية يتجاسر على أي شيء ولا يبالي! فاذا كان قد تجاسر على القرآن وأساء تأويله، ووجد علماء يرتشون في الدين، ويقرونه على هذا التأويل، فرفع راية العصيان زاعماً أنه ولي دم عثمان وصاحب الحق في الثأر له! وإذا كان معاوية قد تجاسر على اللّه، وأضرم الفتنة وأشعل حربا سفكت فيها دماء آلاف المسلمين، ولم يحفل بشيء في طلبه الملك، وإذا كان معاوية قد خالف رسول اللّه وتحداه، حيث أمرﷺ أمته بأن يقتلوا من دعا إلى نفسه أو لغيره وعلى الأمة إمام!.. فما الذي يردعه عن إلحاق زياد بأبيه!..

ألأن هذا يخالف مبادىء الإسلام! وأي عمل اقترفه معاوية منذ رفض البيعة وافق ما يدعو إليه الإسلام!

من أجل ذلك رأى الإمام أن من الحكمة أن يرسل إلى زياد يعظه، ويحذره، وكان زياد على قدر كبير من الشجاعة والحكمة والدهاء.. وهذه الخصال تجعل معاوية يسترخص أي شيء ليضمه إليه!

وقالوا للإمام إن العلماء الذين يرشوهم معاوية ليفتوه بما يشاء، سيحللون لمعاوية إلحاق زياد بأبيه! فتساءل ساخرا إن كان هؤلاء علماء حقا!! .. ثم مضى يصف للناس العالم الحق: «هو من اليقين على مثل ضوء الشمس، مصباح ظلمات، وكشاف عشوات، مفتاح مبهمات، دفّاع معضلات، دليل فلوات، يقول فيُفهم، ويسكت فيسلم: قد أخلص لله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه. قد ألزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه، يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية إلا أمها (قصدها)، ولا مظنة إلا قصدها، قد أمكن الكتاب (القرآن) من زمامه فهو قائده وإمامه»...

ثم وصف الإمام نوع العالم الذى يصطنعه معاوية فقال: « وآخر قد تسمى عالما وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شركا من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه، يؤمِّن من العظائم، ويهون كبير الجرائم يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع، ويقول: وأعتزل البدع، وبينها اضطجع، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان! لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، فذلك ميت الأحياء!»

ثم كتب إلى زياد بن أبيه: «قد عرفت أن معاوية قد كتب إليك يستنزل لبك، ويستفل غربك (يثلم نشاطك) فاحذره، فانما هو الشيطان: يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته، ويستلب غرَّته. وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزعه من نزعات الشيطان (وهي قوله إني أعلم

من وضعه في رحم أمه، يريد نفسه) وهذه لا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرث، والمتعلق بها كالواغل المُدْفَع (الواغل الذي يقتحم المجلس على الجالسين، المدفع أي من يطرد ويدفع من المجلس)، والنوط المذبذب (النوط ما يناط برجل الراكب من قدح أو ما أشبه ذلك فهو أبدا يتذبذب إذا استعجل سيره)».

وسأله رجل: «يا أمير المؤمنين، ما أفضل الإيمان» قال: « قال رسول اللّه ﷺ: أفضل الايمان أن تعلم أن اللّه معك حيث كنت» وسئل: «وما التقى». قال: «رئيس الأخلاق» وسئل: «ما تواضع الأغنياء وتيه الفقراء» قال: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند اللّه، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء إتكالاً على اللّه!».

وعلم أن معاوية يعد لغزو البصرة وغزو مصر... فقد جاءه نبأ ذلك من عيونه بدمشق.. فأهاب بالناس أن يستعدوا للزحف على معاوية وجنده في الشام، ليلزموهم المحجة، ويردوهم إلى الجماعة، قبل أن يقتطع معاوية أطراف الدولة.. وكفى ما كان!

ولكنه وجد تثاقلاً وفتوراً وتهاوناً.. فوجد موجدة عظيمة، ودعا رؤساء الكوفة فحذرهم من التّمزق والتفرق، وحسبهم ما سمعوه عن الإسلام من حديثى العهد بالإسلام، على الرغم مِن أنهم يعرفون أن الإسلام دين يدعو إلى الوحدة والأخوة واجتماع الشمل والمساواة والعدل!. ولكنه معاوية بأطماعه في الملك، هو الذي يلطخ وجه الإسلام بالدماء!!

أى ملك يطمع فيه وهو طليق، ومن المؤلفة قلوبهم، الذين أعطاهم الرسول ثم أبو بكر ليتألف قلوبهم، حتى إذا جاء عمر فوجد الإسلام قويا، ولا حاجة به إلى تأليف قلوب الذين لم يرسخ إيمانهم بعد، حرمهم من العطاء!.

رحم اللّه عمر بن الخطاب، فهو الذي قال حين رأى معاوية وهو وال على دمشق وحدها: هذا كسرى العرب!! ماذا تريد بعد وقد ولاك

عثمان الشام كله! ولكنك أنت الذي تقول يا معاوية: ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول اللّه: «إن وليت فأحسن».

ومن عجب أن في المسلمين من بايعك على الخلافة، وأعانك على تمزيق الوحدة!! لقد خالفوا فيك اللّه ورسوله! ولكنهم لم ينسوا قول عمر: هذا الأمر (الخلافة) في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثم في أهل أحد ما بقي منهم أحد، ثم في أهل كذا وكذا (غزوات الرسول) وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شيء (مسلمة الفتح الذين أسلموا يوم فتح مكة وعلى رأسهم أبو سفيان وابنه معاوية)».

فكيف استطاع معاوية أن يخدع المسلمين عن حقيقته! كان معاوية قد ركب البحر في زمن عثمان، وفتح بعض جزيرة قبرص التي كان يسكنها الروم ويهددون منها أطراف الدولة في الشام.. هذا فضل لا يجحد لمعاوية، ولكنه أغرقه في طوفان دماء المسلمين التي سفحها.. أخفى مآثره تلك في الثلم الذي صدع به اجتماع الأمة!!

إنه في سبيل الملك يفرق الأمة إلى دولتين، ويشهر سيف المسلم على أخيه المسلم..

لا بد من تدارك الأمر قبل أن يتفاقم يا علي، وأنت ولي كل مسلم بعد رسول اللّه، كما قال رسول اللّه ﷺ لك!..

وعاد الإمام يأمر المقاتلين أن يتجهزوا للزحف على معاوية، ولكنه وجد فيهم تكاسلاً، فلا هم تجهزوا، ولا هم نفروا إلى معسكرهم بالنخيلة، وإنما أقاموا بين نسائهم وأولادهم، واستطابوا لين الحياة، والسمر مع الإخوان!

فجمع الإمام رؤساء الكوفة ووجوهها، وسألهم عن سبب تكاسلهم، فنشط منهم نفر وحشدوا رجالهم، أما أكثرهم فتعلل وتكاسل، أو نفر محرجا مرغما كارها.

فقام الإمام فيهم خطيبا، فقال: «عباد اللّه، ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثّاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا، ورضيتم بالذل والهوان من العز خلفا؟ وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة! للّه أنتم! ما أنتم إلا أسد الشرى في الدعة، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس!... إنكم تكادون ولا تكيدون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة سادرون!..».

وسكت قليلا فوجدهم واجمين.. ثم قال: «أما بعد فان لي عليكم حقا وإن لكم عليّ حقا. فأما حقكم عليَّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كي تتعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصح لي في المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم، فان يرد اللّه بكم خيرا تنزعوا عما أكره، وترجعوا إلى ما أحب فتنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون.

أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، ما عزّت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم، كلامكم يوهي الصم، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم. إذا أمرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت، أعاليل بأضاليل، هيهات ألا يدرك الحق إلا بالجد والصبر! أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور واللّه من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحت لا أطمع في نصرتكم، ولا أصدق قولكم، فرق اللّه بيني وبينكم، وأعقبني بكم من هو خير لي، وأعقبكم بعدي من هو شر لكم مني.

أما إنكم ستلقون بعدي ذلا شاملاً، وسيفاً قاتلاً، وأثرة يتخذها الظالمون بعدي عليكم سنّة، تفرق جماعتكم، وتبكي عيونكم، وتدخل الفقر بيوتكم تمنون واللّه عندها أن رأيتموني ونصرتموني، وستعرفون ما

أقول لكم عما قليل. استنفرتكم فلم تنفروا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، وأسمعتكم فلم تعوا فأنتم شهود كأغياب، وصمٌّ ذوو أسماع، أتلو عليكم الحكمة، وأعظكم بالموعظة النافعة، وأحثكم على جهاد المحلين الظلمة الباغين، فلا آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين، إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم، تتناشدون الأشعار، وتضربون الأمثال، وقد نسيتم الحرب واستعدادها، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل!.

ويحكم! اغزوا عدوكم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، وأيم الله ماأظنكم تفعلون حتى يفعل بكم! وأيم الله لوددت أني قد رأيتهم فلقيت الله على نيتي وبصيرتي، فاسترحت من مقاساتكم ومداراتكم، ويحكم! ما أنتم إلا كإبل جامحة ضل عنها رعاؤها (رعاتها)، فكلما ضمت من جانب انتشرت من جانب!.. ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لجاهدتهم».

فقام الأشعث بن قيس!!.. الأشعث أيضاً! ماذا يريد؟ ألديك شيء جديد بعد إصرارك على قبول التحكيم ثم إصرارك على تعيين أبي موسى، ثم إصرارك على ألا يخرج الجند لقتال أهل الشام حتى يستريحوا! ألديك بعد جديد؟!

وقف الأشعث، وأمير المؤمنين يقتحمه بنظراته، كاتماً زفرات حرى مما يعانيه من مضض.. وقال الأشعث: «يا أمير المؤمنين، هلا فعلت كما فعل عثمان؟» فقال: «ويلك! والله إن رجلاً أمكن عدوه من نفسه فنهش عظمه، وسفك دمه، لعظيم عجزه! ويلك! أنت يا بن قيس فكن ذلك، أما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفي (السيف) والله يا أهل العراق ما أظن هؤلاء القوم (أهل الشام) إلا ظاهرين عليكم!».

قالوا: «أبعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين» قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إني أرى أمورهم قد علت، وأرى أموركم قد خبت، وأراهم جادين في باطلهم، وأراكم وانين في حقكم، وأراهم مجتمعين، وأراكم متفرقين، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين، وأراكم لي عاصين، أما والله إن ظهروا عليكم بعدي لتجدنهم أهل سوء! كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم في بلادكم، وحملوا إلى بلادهم منكم، وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم، ويخيفون علماءكم، وكأني أنظر إليكم يحرمونكم ويحجبونكم، ويدنون الناس دونكم، فلو قد رأيتم الحرمان، ولقيتم الذل والهوان، ووقع السيف ونزل الخوف، لندمتم وتحسرتم على تفريطكم في جهاد عدوكم، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض (الدعة) والعافية حين لا ينفعكم التذكار».

وعز على أصحابه الثقات ما هو فيه من كرب، وما استشعروه من كلماته من عذاب!. لم تكن كلمات، ولكنها كانت خفقات قلب يتمزق، ونفثات صدر يحترق!!

فقام الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري وكان جسيما مهيبا، فقال: «يا أهل العراق إن أمير المؤمنين أكرمه الله قد أسمع من كانت له أذن واعية وقلب حفيظ! إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها، حيث نزل بين أظهركم ابن عم رسول الله ﷺ، وخير المسلمين وأفضلهم بعده يفقهكم في الدين، ويدعوكم إلى جهاد المحلين، فوالله لكأنكم صم لا تسمعون وكأن قلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيبون! عباد الله، أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس، وقد شمل العباد وشاع في الإسلام، فذو حق مهزوم، ومشتوم عرضه، ومضروب ظهره، وملطوم وجهه، وموطوء بطنه، وملقى بالعراء! فلما جاء أمير المؤمنين صدع بالحق، ونشر العدل وعمل بالكتاب، فاشكروا نعمة الله عليكم، ولا تتولوا مجرمين، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وأطعنا وهم لا

يسمعون. اشحذوا السيوف، وجددوا آلة الحرب، واستعدوا للجهاد، فاذا دعيتم فأجيبوا، وإذا أمرتم فأطيعوا تكونوا بذلك من الصادقين» فقام الأشعث بن قيس مرة أخرى!! ماذا يريد شيخ أهل اليمن؟ قال: «يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب، ومن قريش، على الموالي (أهل البلاد المفتوحة)، ممن تخاف أن يختلف معك أو يفارقك».

وقام شيخ آخر لإحدى العشائر فقال: «وهذا هو الذي يصنعه معاوية بمن أتاه».

فقال شيخ لإحدى القبائل: «يا أمير المؤمنين، إنما عامة الناس همهم الدنيا، ولها يسعون، وفيها يكدحون، فأعط هؤلاء الأشراف».

وأضاف رابع: «فاذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم!»

وعجب الإمام: أقسمة الفيء بالسوية بينكم بلا تمييز، وبلا محاباة للعرب على الموالي، هو ما ينفركم مني، ويشدكم إلى معاوية!.. ولكن هذا هو الدين يا أيها الذين آمنوا...!!

قال لهم علي: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم، والله لو كان لهم مال لسويت بينهم، فكيف وإنما هو مال الله؟

وإنه لينصرف حزينا من المسجد، إذ جاءه كتاب من مصر. إنه من عامله عليها محمد بن أبي بكر ينبئه أن معاوية وعمر أرسلا إليه كتابي تحذير أن يتخلى ويتنحى لهما عن مصر وإلا قتلاه.

كتب محمد: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فان العاصي بن العاص، قد نزل أداني مصر، واجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم، وقد

رأيت ممن قبلي بعض الفشل، فان كان لك في أرض مصر حاجة فأمدوني بالأموال والرجال، والسلام».

وفي الحق أن معاوية بعد صفين لم يكن يخشى إلا مصر، كان يطمع فيها لعظم خراجها، ولكي يكسر أهلها، فأغلبهم شيعة علي، فكان معاوية يخافهم..

وحاول أن يخيف محمد بن أبي بكر فأرسل إليه يتهمه بقتل عثمان، وبأنه إن ظفر به سقتله بعثمان!..ثم قال: «ومع ذلك فاني أكره قتلك، ولا أحب أن أتولى ذلك منك. ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبداً، فتنح وانج بنفسك» كما كتب عمرو إلى محمد يروعه، ويحاول أن يحمله على الفرار: «أما بعد فتنح عني بدمك يا بن أبي بكر، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر، وإن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك، وندموا على اتباعك وهم مسلموك، واخرج منها فاني لك من الناصحين».

وما كان أحد قد خالف محمدا إلا الذين اعتزلوا في خربتا، فقد جاهروا بالعصيان، منذ عرفوا قرار الحكمين بدومة الجندل، ثم أن عدداً آخر من رؤساء العشائر اشرأبت أطماعهم إلى ما يرشوهم به معاوية، من أموال وضياع ومناصب وسبايا حسان!..

ولكن أهل مصر ظلوا على ولائهم لأمير المؤمنين، زارين على كل ما يحدث حولهم من خيانات، ورشوة، وعصيان، وتمزق لوحدة الأمة..!

فلما فرغ أمير المؤمنين من دراسة ما أرسله إليه محمد بن أبي بكر كتب إليه: «أما بعد، فقد أتاني رسولك بكتابك، تذكر أن ابن العاص قد نزل في جيش جرار، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه. وخروج من كان يرى رأيه خير له من إقامته عندك. وذكرت أنك قد رأيت ممن

قبلك فشلا، فلا تفشل وإن فشلوا، حصّن قريتك، واضمم إليك شيعتك، وأذك الحرس في عسكرك، واندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس. وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول، فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك، وقاتلهم على نيتك، وجاهدهم محتسبا للّه سبحانه، وإن كانت فئتك أقل الفئتين، فان اللّه يعين القليل ويخذل الكثير، وقد قرأت كتابي الفاجرين المتحابين على المعصية، والمتلائمين على الضلالة والمرتشيين على الحكومة (التحكيم)، والمتكبرين على أهل الدين، والذين استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم، فلا يضرنك إرعادهما وإبراقهما. وأجبهما ان تكن لم تجبهما بما هما أهله والسلام».

ثم أمر بأن ينادى في الناس: «الصلاة جامعة» فلما اجتمع الناس بالمسجد صعد المنبر فقال؟ بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله وآله: «أما بعد فهذا صريخ (استغاثة) محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابن النابغة عدو اللّه وعدو من والاه، وولي من عادى اللّه، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعا على باطلهم وضلالتهم منكم على حقكم. فكأنكم بهم وقد بدؤوكم وإخوانكم بالغزو، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر عباد اللّه، إن مصر أعظم من الشام وخير أهلاً فلا تغلبوا على مصر، فان بقاء مصر في أيديكم عز لكم، وكبت لعدوكم. أخرجوا إلى الجرعة (مكان بين الحيرة والكوفة) لنتوافى هناك كلنا غدا إن شاء اللّه».

ولكن لم يواف علياً في الجرعة إلا مائة رجل، ومقاتلو الكوفة نحو ستين ألفا يتقاضون عطاءهم، وعاد إلى الكوفة، فبعث إلى رؤسائها، فقال لهم والأسى يعتصره، من خيبة أمله في رجال الكوفة: «الحمد للّه على ما قضى من أمر، وقدَّر من فعل، وابتلاني بكم أيتها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتها، ولا تجيب إذا دعوتها، لا أبا لغيركم!

ماذا تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم! الموت خير من الذل في هذه الدنيا. . والله إن جاءني الموت وليأتيني - لتجدنني لصحبتكم جد قالٍ! ألا دين يجمعكم ! ألا حمية تغضبكم! ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ويشن الغارة عليكم! أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام الظلمة، فيتبعونه، ويجيبونه في السنة المرة والمرتين والثلاث، إلى أي وجه شاء ! ثم أنا أدعوكم - وأنتم أولو النهى وبقية الناس - فتختلفون وتفترقون عني، وتعصونني وتخالفون عليّ!».

فوثب مالك بن كعب الأرحبي فقال: «يا أمير المؤمنين إنا نسير إليهم، اندب الناس معي فانه لا عطر بعد عرس! وأنتم أيها الناس: اتقوا الله وأجيبوا دعوة إمامكم، وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوكم!»

أما محمد بن أبي بكر، فلم يكد يصله رد أمير المؤمنين حتى كتب إلى معاوية: «تأمرني بالتنحي عنك كأنك لي ناصح، وتخوفني بالحرب، كأنك علي شفيق، وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم، وأن يهلككم الله في الوقعة، وأن ينزل بكم الذل، وأن تولوا الأدبار. فان يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لعمري من ظالم قد نصرتم! وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به! وإلى الله المصير وإليه ترد الأمور! وهو أرحم الراحمين، والله المستعان على ما تصفون»

وكتب لعمرو: «أما بعد، فقد فهمت كتابك، وعلمت ما ذكرت وزعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر، فأشهد بالله إنك لمن المبطلين. وزعمت أنك ناصح لي، أقسم إنك عندي ظنين، وقد زعمت أن أهل البلد قد رفضوني، وندموا على اتباعي، فذلك حزبك حزب الشيطان الرجيم. وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل، وتوكلت على الله العزيز الرحيم. رب العرش العظيم».

ونادى منادي أمير المؤمنين في الناس أن يخرجوا ليدركوا مصر قبل أن يستولي عليها معاوية، ويجعلها بخراجها الضخم طعمة لعمرو بن

العاص! فلئن غلبهم معاوية على مصر، إنهم إذن لخاسرون..!

فلم يخرج غير ألفين من نحو ستين ألف مقاتل !! فقال علي في حزن عميق، وامتعاض، وسأم: «سيروا!الله ما أنتم ! ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضي أمرهم!».

وشيعهم بنظرات يغشاها الأسى.. بِمَنْ مِنَ الرجال ينقذ مصر، وينقذ محمدا!

أبهؤلاء الرجال!

يا للرجال!!

الفصل السابع

مصر .. عزٌّ لكم!

كان عليٌ يدعو إلى الوحدة ورجاله يتفرقون من حوله!.

ومعاوية يشق الجماعة ورجاله يتجمعون عليه!

ولم يكن ذلك لأن معاوية أفضل من علي أو أبصر منه بمعاملة الرجال ، ولا لأن رجال معاوية خير من رجال علي..!

إنما حدث ذلك لأن معاوية كان يعرف ماذا يخاطب في الرجال..

كان العصر عصر متاع، وإقبال على الحياة، وتفاخر بالأموال والبنين والخيل المطهمة، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة!

وكان بعض الناس يملك الآلاف المؤلفة من الدنانير والدراهم، والضياع الواسعة، والقصور الشامخة، ومئات الإماء، وعلى المرابط آلاف الدواب من الحمير والبغال والخيل والأنعام والأغنام!!

وكانت بعض البطون لا تتحرج مما تمتلىء به وتتكرش منه، فخاطب معاوية هذه البطون والنزعات والأهواء والشهوات فأشبعها، ووجد علماء تكرشوا وسمنوا بما أطعمهم، وامتلكوا الآلاف المؤلفة، فانسلخوا عن علمهم، وأوّلوا القرآن كما يشاء معاوية، وأفتوا له بكل ما يريد، أفتوه فتيا تحفظ عليهم الترف الذي أغرقهم فيه!! وأن بعضهم لينام قرير العين على الفراش الوثير، ويتمرغ على نضائد الحرير، راضيا عن نفسه، متخيلا أنه أرضى الله لأنه أدى المفروض عليه من الزكاة! فإذا

رأى في الأمة الشاسعة بعض أصحاب الحاجات والجياع، تأوّل من أيات القرآن، ما يزيف به على نفسه أن هذا هو ما قسمه اللّه من الرزق!!

وما من أحد منهم سأل نفسه لماذا يحسب أن اللّه تعالى فضله على غيره في الرزق!!..

إن معاوية لملكٌ، اصطنع حول حاشية ملكية، ببهارجها وزينتها، ومفتيها!

هو زعيم المحلين.. الذين يحلون لأنفسهم ما حرم اللّه .. والعلماء الذين انسلخوا من دينهم قد أصبحوا في بطانته بعض زينته، وقد تحولوا من علماء دين إلى رجال دين فهم أصحاب سطوة وسلطة.. وهو ما لم يعرفه الإسلام من قبل!!..

لهم اللّه، فقد سَنُّوا بهذا التزييف سنة سيئة فعليهم وزرها إلى يوم القيامة!! وكم عانت الأمة وتعاني من هذا الطراز الزائف المزيف من الجبابرة المرتزقة عبيد السلطان، جنود الشيطان، أعداء الرحمن، المتسبين إلى الدين، وهم يخونون الديان..!!

أما علي.. فوارحمتا لعلي!!..

وارحمتا لإمام المتقين!!

كان قد فهم روح العصر كما فهمها معاوية، وهو أفقه من معاوية بالحياة والناس، وأغزر منه علما، وأدق بصرا، وأحد منه ذكاء، وأشد دهاء لولا التقوى!!

فهم عليٌّ روح العصر، وانكباب الناس على الشهوات، فلم ينافق غرائزهم أو يدغدغها أو يستثير أهواءهم كما صنع معاوية!! ولكنه احترم إنسانيتهم، وخاطب فيهم ما هو روحي ورفيع ونبيل، ودعاهم إلى السمو الجدير بالإنسان خليفة اللّه في الأرض!

خاطب فيهم تقواهم، وحضهم على الزهادة، وأمرهم بأن يستمتعوا بما أحل الله من زينة الحياة التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق، ولكن فليكونوا أرفع من البهائم التي لا همَّ لها إلا الطعام والشراب والمتاع!!

فليتذوقوا اللذات الروحية الرفيعة!!..

إنه ليعرف ما يصلحهم: «لا أصلحكم بإفساد ديني»..

هو يحاول أن يرسخ في أعماقهم أن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملا.. وأن ما عند الله خير وأبقى، وأن العاقبة للتقوى..

ولكن هيهات!! فوراؤهم ملك يسترضي الغرائز!!

عليٌّ يقسم بين الناس بالعدل والسوية، لينال كل رجل من الآلاف المؤلفة من أبناء الأمة ما يستحقه بعمله.. وأمامه ملك يمنح الآلاف المؤلفة للنفر القليل، ويؤثرهم على غيرهم ليكونوا أوتاداً لملكه..!!

عليٌّ كرم الله وجهه يتقي الله، ويتحرج أن يملأ بطنه بالطعام وهو أمير المؤمنين، وفي الأمة جائع، ومعاوية يأكل ويطعم حتى يصاب بالتخمة، ويكسر عيون من يطعمهم!

عليٌّ يخاطب الناس فيقول لهم: «أنتم الأتقياء، وأنتم حملة القرآن»، ويستنفر منهم عزمات الإيمان، وأمامه ملك يعد الناس بالغنى، ويرشو بلا حساب، ويستنفر في الإنسان شوارد الأطماع، وأوابد الشهوات!!

وعليٌّ يشق على الناس، فيعلمهم أن في المال حقا آخر غير الزكاة، إن كان في الأمة أصحاب حاجة.. ويدربهم على أن الصدقة عبادة.. ثم يتحرى العدل حتى ليفرض الزكاة على المال إن بلغ نصاب الزكاة، مهما يكن مالكه.. فيفرض الزكاة على أموال القصّر واليتامى، بما أنهم يملكون ما يستحق أن يؤدى عليه الزكاة.. ويقوده اجتهاده

الباحث عن العدل والمساواة إلى أن الزكاة حق في المال يجب أن تؤدى حين يستوفى النصاب. أيا ما يكن المسلم صاحب المال.

ثم يجد أصحاب الحرف يكسبون ويقتنون.. وإلى جوارهم أصحاب حاجات.. فيقوده اجتهاده في بحثه الدائب عن العدل والإحسان، إلى أن يفرض الخراج (الضرائب) على ما يكسبه أصحاب الحرف وأهل الصناعات!

ويظل شعار العصر: «الصلاة وراء علي أتقى، وأطهر وأزكى، ولكن الطعام مع معاوية أشهى، وأطيب وأوفى!»

وهو شعار أطلقه بعض الذين يخدعون أنفسهم، ويريدون أن يكسبوا معاوية لدنياهم، ويحتفظوا في الوقت نفسه بعلي لدينهم!!

وعندما عاد معاوية من صفين بعد الخديعة الكبرى، وسلم عليه الناس بالخلافة، وأصبح ملكا حقا، بدأ رجال حاشيته من أهل الفتيا يأمرون الناس باسم الإسلام في أرض الإسلام أن يبايعوا لمعاوية وينكثوا بيعة علي على الرغم من أنهم يعلمون أن رسول الله قد أمر بقتل من يصنع هذا بأمته!!

كان هذا النفر من المزيفين من أهل الفتيا في بلاط معاوية، قد تحولوا بحق إلى رجال دين فاسدين، يرهبون الناس!!

كانوا قد ألفوا أن يتجاسروا على القرآن الكريم، وأن يفتروا على الله كذبا، فأوّلوا الآيات بما شاءت لهم مصالحهم، وبما أراده لهم سيدهم معاوية ليكون ملكا على المسلمين كالشمس.. وما دروا أن الكل باطل.. باطل الأباطيل، وقبض الريح!!

ويبلغ النفاق بهذا النفر من علماء المسلمين إلى وضع الأحاديث الشريفة في مدح بني أمية، وذم بني أبي طالب..!!

ولم لا! لقد تجاسر هؤلاء المرتشون على الله تعالى، فما يمنعهم من الجرأة على رسول الله ﷺ؟!

وهكذا كثرت الأحاديث الموضوعة، كما اشتط المزيفون في تأويل القرآن..!

كما يحدث في عصرنا، إذ يلجأ بعض المنافقين والمزيفين من العلماء إلى خيانة علمهم حماية لما يكنزون، ويفخر الواحد منهم بالغنى، في غير ما حياء - والحياة شعبة من الإيمان - وهو يعلم أن غناء هذا معرة، لأن الأمة الإسلامية ملأى بالصالحين أصحاب الحاجات!!..

فهؤلاء الفاسدون يجرون على سنة أسلافهم الذين لم يعرفهم الإسلام إلا منذ عهد معاوية!!

لقد عرفت الجاهلية صاحبات الرايات الحمراء اللائي يبعن الأعراض واللذات، وعرفت الأمة في عهد معاوية أصحاب الأهواء الذين يبيعون ضمائرهم، ويغلون في الثمن، ويبذلون عرضهم العلمي، وشرفهم الديني مقابل الأموال والضياع والمناصب!!

وهم شر سلف لشر خلف!!

وهؤلاء هم الذين حاول الإمام عليٌ أن يعظهم وأن يذكرهم بتعاليم الإسلام.. وأفتاهم عشرات المرات أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى.. وأنه ما من أحد يحرم زينة الحياة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وإذن فلا حاجة بهم إلى بيع ضمائرهم وشرفهم لكي يثروا فأموال الفيء قد أصبحت بحمد الله وفيرة، وقد فتح الله على المسلمين بلادا غنية كثيرة، يأتي خراجها إلى بيت المال، وهذا المال حين يوزع بالسوية يكفي الجميع..!!..

ولكنهم كعاهرات الجاهلية، يريدون أن يمتازوا!! عجبا!! ولم يمتازون؟!

والإمام الورع يقود المتقين والمساكين ليقر عدل الله في الأرض،

وليجعل المساواة دستور الحياة، وإذ بمعاوية يفتن الناس ويرمي شباك الإغراء بالمال والمناصب والمتاع على ثقات علي... ويجعلها قضيته: فيقسم باللّه أن يجذب من عليٍّ ثقات عليٍّ، وأن يغلبهم بدنياه على دينه!!

من أجل ذلك انطلق أهل الفتيا في بطانة معاوية يخفون أحاديث ويضعون أحاديث نفاقا لمعاوية، ليزدادوا ثراءا.. وعليٌّ يحاول أن يثقف ثقاته ليزدادوا إيمانا.

زعم علماء معاوية ـ وفي الحق أنهم كانوا علماء معاوية لا علماء الإسلام ـ زعموا ـ نفاقا لمعاوية ـ أن رسول اللّه ﷺ قال لمعاوية: «اللهم قِهِ العذاب والحساب وعلمه الكتاب».

وإمعانا في نفاق معاوية زيّفوا حديثا آخر: «آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليي اللّه وصالح المؤمنين» وذلك رداً على الأحاديث الشريفة الصحاح التي سمعها ثقات الصحابة: «علي مني وأنا من علي، أنا ولي من والاه وعدو من عاداه.. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»..

وغضب رواة الحديث من ثقات الصحابة لهذا الاختلاق والبهتان، فأغضى علماء معاوية عن الحديث الذي ينكر ولاية علي.. وسكتوا عن الأحاديث التي تمدحه.. ورَوّجوا للحديث الذي وضعوه في مدح معاوية!!

ثم أذاعوا عن النبي أنه قال: «من خلع يدا من طاعة لقي اللّه يوم القيامة ولا حجة له».. واستندوا إلى هذا الحديث ليطالبوا الناس بالبيعة لمعاوية أميرا للمؤمنين، بما أن أهل الشام بايعوه!

وانتفض عبد اللّه بن عمر وهو في المدينة يعظ الناس في مسجد رسول اللّه فأشهد اللّه والناس على تزييف أهل الفتيا من بطانة معاوية،

وقال انه سمع هذا الحديث من رسول اللّهﷺ، فما بال أهل الشام يحتجون به، والحديث حجة عليهم وعلى ملكهم معاوية، لا لهم!!

إنهم هم الذين خلعوا يد الطاعة بعد أن بايع المهاجرون والأنصار عليا.. وقد لزمتهم الحجة، ووجب عليهم أن يبايعوه..

وتحسر عبد اللّه بن عمر لأنه لم يجاهد مع عليٍّ الفئة الباغية وهي معاوية وحزبه!!

وقد أحسن معاوية اختيار من يشاكله في حربه عليا، وساقت إليه المشاركة في المصالح الدنيوية، أدهى العرب وأمكرهم، وهو عمرو بن العاص الذي اعتمد عليه معاوية في الكيد لعلي، فانضمت طاقتان خارقتان من الدهاء والكيد، تواجهان طاقة خارقة من التقوى والورع والصلاح، وهي طاقة تتحرج من الدهاء وتعف عن الكيد!!

ولقد أدلى عمرو مع الدهاة بدلوهم، وأسام سرح الكيد حيث أساموا، وبلغ من الحياة ما بلغ امرؤ بكيده، فاذا هو في آخر العمر يجد عصارة كل ذلك آثاما!! وإنه ليبكي بعد أن بلغ من الكبر عتيا، وأدرك أنه ملاق ربه فسائله عما صنع!

وإنه ليناجي ربه فيعترف بذنوبه.. وكلها ذنوب اشترى بها دنيا معاوية إذ يحارب دين علي!..

قال عمرو باكياً: «اللهم إنك أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أنزجر»

ثم أنه ليضع يده في موضع الأغلال التي ستكون يوم القيامة في أعناق المذنبين، ويتحسس عنقه، ثم يقول أسفا: «اللهم لا قوي فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، لا إله إلا أنت»..

فقد أدرك عمرو أن دهاءه الذي استخدمه ضد علي، جر الدواهي

على أمة محمد، فخشي ألا يفلت ـ بما أحدث هو ومعاوية ـ من عقاب الله.. فظل يبكي!!

كان يشعر بالندم المعذب، كلما مرض، وأحس أن الحياة فانية، وأنه ملاق ربه فسائله، وأن كل ما جمعه من مال وضياع، وكل ما اجتمع له من سلطان وهيبة وجاه، إنما هو باطل.. باطل الأباطيل، وقبض الريح!! وأن كل ما كاد به، وفرق به الأمة هو ومعاوية، وكل ما أسالا من دماء المسلمين، ذنوب عظام سيسأله عنها من لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو شديد العقاب!!

دخل عليه ابن عباس في مرضه فسلم عليه وقال: «كيف أصبحت يا أبا عبد الله» قال عمرو: «أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلا وأفسدت من ديني كثيرا، فلو كان الذي أصلحت هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت لفزت، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت، فصرت كالمنجنيق بين السماء والأرض لا أرقى بيدين، ولا أهبط برجلين! فعظني بعظة أنتفع بها يا بن أخي» فقال له ابن عباس: «هيهات هيهات يا أبا عبد الله!».

ودخل عليه إبنه عبدالله بن عمرو فوجده يبكي. قال عبدالله: «لم تبكي! أجزعا من الموت!» قال عمرو: «لا والله ولكن لما بعده» فقال عبدالله: «قد كنت على خير» وجعل يذكره صحبة رسول الله ﷺ وفتوحه الشام، فقال له عمرو : «تركت أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله! إني كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسي فيه: كنت أول شيء كافرا، فكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ، فلوْ متُّ يومئذ وجبت لي النار. فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياء منه فما ملأت عيني من رسول الله ﷺ حياء منه، فلوْ متُّ يومئذ قال الناس: هنيئا لعمرو، أسلم وكان على خير ومات على خير أحواله فترجى له الجنة. ثم بليت بعد ذلك بالسلطان وأشياء،فلا أدري أعليَّ أم

لي، فاذا مت فلا تبكين علي باكية!. . . .(الاستيعاب لابن عبد البر وأسد الغابة لابن الأثير والطبقات الكبرى لابن سعد).

إلى هذا المدى بلغ الندم المعذب بعمرو بن العاص. ولكنه ندم اعتراه في سن الرابعة والثمانين، وهو على فراش الموت، عندما أيقن أنه هالك، في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة.

أما في صراعه مع علي، فكان كما قال من خلال دموع الندم، قد ابتلي بالسلطان وأشياء من الجاه والترف فأفسد الكثير من دينه ليصلح القليل من دنياه كما قال. . هو نفسه.

وفي الحق أن عليا ومعاوية كانا يختلفان في كل شيء. . وكان الخلاف لصالح معاوية الذي أحسن اختيار رجال يلائمون العصر، إذ عرف معاوية اتجاه تيار العصر فسبح عليه، أما علي فواجه التيار. . !

وكان عليٌّ قد رفع الكلفة بينه وبين أصحابه، فكل واحد منهم يستطيع أن يخاطبه في أي شيء. .أما معاوية فقد كان ملكا وضع للبطانة والحاشية حدودا. . ولم يسمح لأحد بأن يطلع على سره. . وكان يتجهم في وجوه أصحابه إذا حاول أحد منهم أن يجاوز معه ما رسمه له من حدود!

كان عليٌّ يشجع الناس على أن يسألوه، والآخر يصدهم ليتهيبوه. .

كان علي يذرع شوارع الكوفة ماشيا أو على حمار، يرشد الناس، ويحذرهم من الوقوع في الشبهات،، سألوه: «وما الشبهة» قال: «إنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق، فأما أولياء اللّه فضياؤهم منها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء اللّه فدعاؤهم فيها الضلال، ودعاؤهم العمى، فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه».

وكان دون معاوية أستار كثاف، وحجاب غلاظ، أما علي فهو يمشي في سوق الكوفة، يحادث الناس، ويسألهم ويسألونه، وينصح التجار. ويقول لهم: «بيعوا ولا تحلفوا، فان اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة»

روى نافع بن أبي مطر: «خرجت من مسجد الكوفة فاذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك فانه أنقى لثوبك، وأتقى لك، وخذ من رأسك إن كنت مسلما. فمشيت خلفه وهو مؤتزر بازار ومرتد برداء ومعه الدرة (عصا صغيرة)، كأنه أعرابي بدوى فقلت: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك غريبا بهذا البلد، فقلت: أجل أنا رجل من أهل البصرة. قال: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين.

ثم أتى أمير المؤمنين أصحاب التمر، فاذا فتاة تبكي فقالت: باعني هذا الرجل تمرا بدرهم فرده مولاي فأبى أن يقبله. فقال له علي: خذ تمرك وأعطها درهمها فانها ليس لها أمر، فدفعه الرجل في غلظة، فقلت لصاحب التمر: أتدري من هذا الذي تدفعه! قال: لا. فقلت هذا علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين! فأخذ الرجل التمر فصبه وأعطاها درهمها، ثم قال: أحب أن ترضى عني يا أمير المؤمنين. قال: ما أن ترضى عنك إلا إذا أوفيت الناس حقوقهم.

ثم مر مجتازا بأصحاب التمر فقال: يا أصحاب التمر أطعموا المساكين يرب (يزد) كسبكم. ثم مر مجتازا ومعه المسلمون (المساكين) حتى انتهى إلى أصحاب السمك فقال: لا يباع في سوقنا سمك فاسد...»

وروى أحد أصحابه: «كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالتجار فيفتح القرآن ويقرأ: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا**

فساداً﴾. ثم يقول نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.

وروت امرأة من أهل الكوفة: «رأيت علياً اشترى تمرا بدرهم فحمله فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك! فقال: أبو العيال أحق بحمله».

وكان كرم الله وجهه يركب حمارا، ومن حوله الذين يركبون الخيل والبغال المطهمة، ويدلي رجليه من على ظهر الحمار إلى موضع واحد ويقول: أنا الذي أهنت الدنيا!!

وقابله رجل في الطريق وهو يحمل التمر إلى أهله، فأفرط في الثناء عليه وكان علي يتهم هذا الرجل، فقال له: «أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك»..

وما كان يمكن أن يطوف معاوية بأسواق دمشق، ولا أن يظهر للناس إلا في أبهى ثيابه الفاخرة، وما كان يمكن أن يتحدث معاوية مع أحد أو يحادثه أحد بمثل اليسر الذي يتحدث به أمير المؤمنين الإمام عليٌّ وأصحابه.

وشرد الإمام في الذين معه، وخشي عليهم الفتنة، فقد أخذت دنيا معاوية تغلبهم على دين محمد!!

ولقد التفت الإمام حوله ذات يوم، فوجد نفسه وحيدا إلا من بعض ثقاته!

فدعا الناس إليه، فلما أتوه، وقف يخطب فقال: «الحمد لله فاطر الخلق، وفالق الإصباح، وناشر الموتى، وباعث من في القبور، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأوصيكم بتقوى الله فان أفضل ما توسل به العبد الإيمان، والجهاد في سبيله وكلمة الاخلاص فانها الفطرة، وإقام الصلاة فانها الملة، وإيتاء الزكاة فانها من

فريضته، وصوم شهر رمضان فانه جنّةٌ من عذابه، وحج البيت فانه منفاة للفقر مدحضةٌ للذنب، وصلة الرحم فإنها مثراة في المال، ومحبة في الأهل، وصدقة السر فانها تكفر الخطيئة وتطفيء غضب الرب، وصنع المعروف فانه يدفع ميتة السوء ويقي مصارع الهول.

أفيضوا في ذكر اللّه فانه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد المتقين فان وعد اللّه أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيكمﷺ، فانه أفضل الهدى، واستسنوا بسنته فانها أفضل السنن، وتعلموا كتاب اللّه فانه أفضل الحديث، وتفقهوا فيه فانه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور، وأحسنوا تلاوته فانه أحسن القصص، وإذا قرىء عليكم فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون، وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون، فان العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستقيم عن جهله، بل لقد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه، عن هذا الجاهل المتحير في جهله، وكلاهما مضلل مثبور(خاسر هالك).

لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا، ولا ترخصوا لأنفسكم (تبيحوا لها ما لا يباح) فتذهلوا (تغفلوا)، ولا تذهلوا في الحق فتخسروا!

ألا وإن الحزم أن تتقوا، ومن الثقة ألا تغتروا، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه، وإن أغشكم لنفسه أعصاكم لربه.

من يطع اللّه يأمن ويستبشر، ومن يعص اللّه يخف ويندم.

ثم سلوا اللّه اليقين وارغبوا إليه في العافية، وخير ما دام في القلب اليقين.

إن عزائم (فرائض) الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها، وكل محدث بدعة، وكل محدث مبتدع، ومن ابتدع فقد ضيع، وما أحدث

محدث بدعة، إلا ترك بها سنة. المغبون من غبن دينه، والمغبون من خسر نفسه، وإن الرياء من الشرك، وإن الإخلاص من العمل والإيمان».

وأدار الإمام بصره فيمن يسمعون، فلم يجد بينهم المقاتلين! فقد انصرفوا عنه إلى مجالس اللهو الحلال، منذ عاد من صفين، وكأنهم بعد أن أشرفوا على الموت في الحرب أرادوا أن يعتصروا الحياة إلى آخر قطرة...!

فكلما دعاهم الإمام إلى الجهاد، تثاقلوا أو تعللوا، وقليل منهم من خرج لقتال الخوارج بعزيمة صدق، أما الآخرون فقد آثروا أن يجلسوا إلى نسائهم وأبنائهم، أو إلى أصحابهم يسمرون ويتناشدون الأشعار، أو يتلذذون بالغناء وفنون اللهو المباح..

وبعد أن صمت الإمام ليتأمل وجوههم، وليتعرف على أثر موعظته فيهم وجد الأنظار شاردة، وصفحات الوجوه لا تعبر! فقال: «إن الرياء من الشرك، وإن الإخلاص في العمل من الإيمان، ومجالس اللهو تنسي القرآن ويحضرها الشيطان، وتدعو إلى كل غي، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح الأبصار، وهي مصائد الشيطان، فاصدقوا الله فان الله مع من صدق، وجانبوا الكذب فان الكذب مجانب للايمان، ألا إن الصدق منجاة وكرامة. والكذب هلكة، ألا وقولوا الحق تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم، وصلوا أرحام من قطعكم، وعودوا بالفضل على من حرمكم، وإذا عاهدتم فأوفوا، وإذا حكمتم فاعدلوا، ولا تفاخروا بالآباء، ولا تنابزوا بالألقاب..

ولا يغضب بعضكم بعضا، وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين(المدينين) وفي سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وارحموا الأرملة واليتيم.

وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**.

وأكرموا الضيف، وأحسنوا إلى الجار، وعودوا المرضى، وشيّعوا الجنائز، وكونوا عباد الله إخوانا. . .

ألا وإن القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، ألا وإنه يتكلم كل يوم ثلاث مرات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، ألا وإن وراء ذلك يوم يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير **﴿وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾**، ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه، نار حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد، وماؤها صديد، وخازنها مالك ليس فيه رحمة». . ثم بكى، وبكى الناس. . !

ولقد تعود أن يقول وهو يعظ ثقاته وبطانته: «المسلم البريء من الخيانة بين إحدى الحسنيين إذا ما دعا الله، فما عند الله خير له، إما أن يرزقه الله مالا فاذا هو ذو أهل ومال ومعه حسبه ودينه، وإما أن يعطيه الله في الآخرة، فالآخرة خير وأبقى. الحرث حرثان فحرث الدنيا المال والتقوى، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات. وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام».

شتان ما بين هذا، وبين ما أخذ به معاوية بطانته وحاشيته!!

كان علي يكره لعماله أن يحتجبوا، وكان هو نفسه يلقى الرعية في المسجد والسوق والطرقات. .

وكان دون معاوية حجاب وأستار. . كما كان لكسرى وقيصر!!

ولقد تعود الإمام أن يكتب لمن يوليه من عماله: «أما بعد، فلا تحتجب عن رعيتك، فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة الضيق، وقلة

علم بالأمور، والحجاب يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيضعف عندهم الكبير. ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما يوارى عنه الناس به من الأمور، وليس على القوم سمات يعرف بها ضروب الصدق من الكذب، فانما أنت أحد الرجلين: إما امرؤ شحت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من حق واجب عليك أن تعطيه؟ وخلق كريم تسد به! وإما مبتلي بالمنع والشح فما أسرع زوال نعمتك! وما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا يئسوا من ذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك من شكاية مظلمة أو طلب إنصاف، فانتفع بما وصفت لك ، واقتصر على حظك ورشدك إن شاء اللّه»

كان رقيبا على سير الولاة، حريصا على عدلهم بين الناس، فلا يحابوا أحدا لمودة أو قرابة أو مصلحة. . وهكذا كله غير ما يفعله معاوية.

كتب كرم اللّه وجهه إلى أحد عماله يؤنبه: «رويدا فكأن قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي المغتر بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة».

ومن عجب أن معاوية كتب إليه بعد صفين وخديعة التحكيم: «يا أبا الحسن إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيدا في الجاهلية، وصرت أنا ملكا في الإسلام، وأنا صهر رسول اللّهﷺ، وأخو أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكاتب الوحي».

فعجب علي لجرأة معاوية!! وقال: «أبالفضائل يسخر علي ابن آكلة الأكباد؟!» ثم قال: اكتب يا غلام:

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعرسي   مسوطٌ لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها   فأيكُمُ له سهم كسهمي!
سبقتكم إلى الإسلام طرا   صغيرا ما بلغت أوان حلمي

مسوط: مختلط

وأرسل هذا الشعر إلى معاوية.

فأخفى معاوية كتاب علي، وكان كثيراً ما يخفي عن أهل الشام كتباً لعلي حذار أن يطلعوا عليها فيدخل ما فيها عقول بعضهم، فيكتشفوا أنهم مخطئون!! قال معاوية: «اخفوا كتاب علي لا يقرؤه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب».

كان عليٌّ حينما يحدثه الناس عن ترف معاوية وبطانته يقول ساخراً: «من هوان الدنيا على الله أنه سبحانه يجيع المؤمن مع نفاسته، ويشبع الكلب مع خساسته! والكافر يأكل ويشرب، ويلبس ويتمتع، والمؤمن يجوع ويعرى، وذلك لحكمة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين!»

كان علي يأمر أصحابه أن يبروا جيرانهم، وأن يتحابوا في الله، ويسمي معاوية وصحبه المتحابين في عمل المعصية.

ولقد أوصى الإمام أصحابه بقوله: «الله الله في الفقراء والمساكين، فأشركوهم في معايشكم.. قولوا للناس حسناً كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

كان عليٌّ يحرص على أمانة عماله، ويأخذهم بالشدة في رعاية حقوق الأمة، فإذا خافوا لحقوا بمعاوية، فجزاهم أحسن الجزاء، وأجزل لهم العطاء!! هكذا فر عامله على الرِّي، بعد أن عزله علي وحبسه وعين عليه حارسا اسمه سعد، فغافله وفر إلى معاوية بما نهبه من مال وقال:

وخادعت سعدا وارتمت بي ركائبي   إلى الشام واخترت الذي هو أفضل
وغادرت سعدا نائما في غيابة   وسعد غلام مستهام مضلل

فلما أجزل له معاوية العطاء، وأقره على ما نهبه من بيت مال الري، قال:

أحببت أهل الشام من بين الملا وبكيت من أسف على عثمان

وعلم عليٌ أن عاملا آخر من عماله أحب امرأة جميلة، فجعل لها صداقا مائة ألف درهم، فأرسل إليه علي: «ارفع إليّ حسابك!» ففر الوالي العاشق إلى معاوية بما نهب من الناس، ومن بيت المال، وأقره معاوية على ما نهبه، وكافأه بسخاء!

وهكذا .. فر عن الإمام كبار اللصوص الذين نهبوا أموال الأمة فلحقوا بمعاوية.. وكانوا كلهم ولاة وأمراء..! يا له ويا للمساكين والمتقين من هؤلاء الأثرياء، الذين لا يريدون إلا الترف!! قال قائلهم حين استقر عند معاوية بما نهبه من بيت المال وحقوق المسلمين، وبما أغدقه عليه معاوية بغير حق:

ألا من مبلغ عني عليا بأني قد أمنت فلا أخاف!

وقد جاء إلى الإمام أحد أصحابه يطلب مالاً، وكانت له دالّة عليه، وهو عبدالله بن رفعة وهو أيضاً من ذوي قرباه.. وكان معسرا، فقال له: « إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء المسلمين وجلب أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم، وإلا فجناه (جنى أيديهم) لا تكون لغيرهم».

وكان علي يستقصي المظالم فيردها..

اقترب الموسم، وشكا الناس إلى الإمام أن أهل مكة يغالون في أجرة بيوتهم.. وهاله ذلك!! إن رسول اللهﷺ أمر أهل مكة ألا يؤجروا بيوتهم لحجاج بيت الله الحرام، وقد أخذهم عمر بالشدة، وحتّم على كل صاحب دار أن يترك فناء داره للحجاج، وأن يضيف من استطاع منهم بلا مقابل

وأرسل أمير المؤمنين كرم الله وجهه إلى عامله على مكة قثم بن العباس: «أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله (التي عاقب فيها الأمم الغابرة على سوء العمل)، وأجلس لهم العصرين (أي صباحاً ومساءً)، فأفت المستفتي، وعلم الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها، فانها إن ذيدت (منعت) عن أبوابك في أول وردها لم تُحمد فيما بعد على قضائها. وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قِبَلَكَ (أي عندك) من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع الفاقة والخلاَّت (الحاجات)، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيما بيننا.

ومر أهل مكة لا يأخذوا من ساكن أجرا، فان الله سبحانه يقول: ﴿**سواء العاكف فيه والباد**﴾ فالعاكف المقيم به، والبادى الذي يحج إليه من غير أهله، وفقنا الله وإياكم لمحابه والسلام».

وقال له همام بن شريح وهو أحد النساك من أتباعه: «يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أراهم» فتثاقل عن جوابه، ثم قال: «يا همام اتق الله وأحسن فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

فأصر همام إصرارا على أن يجيبه الإمام، وأقسم عليه أن يفصل له القول في صفة المتقين.

قال الإمام: «فإن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معيشتهم ووضعهم عن الدنيا مواضعهم، فالمتقون فيها أهل الفضائل منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء (أي أنهم في البلاء لا يجزعون فكأنهم في رخاء، وفي

الرخاء لا يبطرون ولا يتجبرون فكأنهم في بلاء).

ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة. تجارة مربحة يسّرها لهم ربهم.

أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافُّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم ويستشيرون به دواء دائهم، فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم. . .

وقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ولأعمالهم مشفقون، إذا زُكِّيَ أحدهم (مدحه أحد) خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيماناً في يقين، وحرصا في علم، وعلما في حلم، وقصدا في غنى (القصد أي الاقتصاد) وخشوعاً في عبادة، وتجملا في فاقة(التجمل: التظاهر باليسر) وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحاً، حذراً

من الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة. إن استصعبت (لم تطع) عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤالها فيما تحب، قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى. يمزج العلم بالحلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلله، قانعة نفسه، منزورا (قليلا) أكله، سهلا أمره، حريزا (حصينا) دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون..

يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور...

لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق،... نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة».

وعندما انتهى الإمام من كلامه غشي على همَّام فقال الإمام: «أما والله لقد كنت أخافها عليه» ثم قال: «هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها».

فلما أفاق همام، أخذ الإمام يتفكر فيما انتهى إليه أمر الناس، وفيما مر به وبالأمة من أحداث، وفيما يحاصره من شدائد..

وصلى ركعتين.. وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال: «يأتي على الناس زمن عضوض(شديد) يعض الموسر فيه على ما في يديه ولم يؤمر بذلك. قال الله سبحانه: (ولا تنسوا الفضل بينكم). تنهد (ترتفع) فيه الأشرار، وتستذل الأخيار، ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول اللهﷺ عن بيع المضطر!!».

وحدثوه عن بطانة معاوية من الذين انسلخوا عن عملهم، كيف

تحولوا إلى طلاب مال فكلما أغدق عليهم معاوية طلبوا المزيد، فقال: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال».. ثم قال: «طالب علم وطالب دنيا»

وقال: «ما كان اللّه ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح على عبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة».

وقال: «كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشدك».

وجلس في بعض الناس بالسوق، فمرت امرأة رائعة الجمال، فتطلعت إليها أبصارهم وظلوا يتابعونها بنظراتهم، فقال: «إن أبصار هذه الفحول طوامح، فاذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله، فانما هي امرأة كامرأة» فقال رجل من الخوارج كان في الناس: «قاتله اللّه كافرا ما أفقهه!» فوثب القوم ليقتلوه فقال كرم اللّه وجهه: «رويدا إنما هو سب بسب، أو عفو بذنب!»(أي إما أن نسبه نظير سبه أو أعفو عن ذنبه»

وفي الحق أن الخوارج لم يكونوا قد انتهوا بعد معركة النهروان. لقد ضرب الإمام جمعهم في النهروان، ولكن الذين لم يتوافوا منهم إلى النهروان نجوا وانتشروا في البلاد، وعدلوا عن الهجرة إلى الجبال والخلوات، واندسوا في المجتمع، وغيروا مظهرهم الذي غلب عليهم، فأطالوا شعورهم وشواربهم وقصروا لحاهم، وكانوا من قبل يحلقون الرؤوس ويطيلون اللحى ويخفون الشوارب.

لم يمضِ غير أسابيع قليلة على يوم هزيمتهم الساحقة في النهروان، ولقد مشى الإمام بعد المعركة حينئذ محزونا بين قتلاهم، وكان منهم عدد من القراء، أهلكهم التطرف.. ونظر الإمام إلى عبد اللّه ابن وهب وحرقوص وغيرهما وهم مجندلون في العراء تسفي عليهم

الرياح السافيات، فاسترجع وقال: «بؤسا لكم! لقد ضركم من غركم!» فسأله بعض أصحابه: «ومن غرهم يا أمير المؤمنين!» قال: «الشيطان، وأنفس بالسوء أمارة. غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون. وقد تأولوا قول اللّه تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون﴾** وكذا التي بعدها: **﴿فأولئك هم الظالمون والفاسقون﴾**.. كما تأولوا قوله تعالى: **﴿لقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾**.

ثم نهض الإمام ونهض القوم، فقال لهم وهو يتمشى في السوق: **﴿قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾**.. أولئك هم الخوارج..

ومشى في السوق، فمر ببائع يحلف فقال له: «لا تحلف. ويل للصانع وويل للتاجر من (لا واللّه) و (بلى واللّه)! يا معشر التجار، ألا أن كل يمين فاجرة تذهب بالبركة. فاتقوا (لا واللّه) و (بلى والله). فقد كنا نتحدث أن التاجر فاجر وفجوره أنه يحلِّي السلعة بما ليس فيها. قال رسول اللّهﷺ: اليمين الكاذبة منفقة (مروجة) للسلعة، ممحقة للربح! واعلموا أن التاجر فاجر، إلا من أخذ الحق وأعطاه. وقد قال رسول اللّهﷺ: ألا إن التجار هم الفجار، إلا من اتقى وبر وصدق. وقال: يا معشر التجار تحشرون مع الفجار إلا من اتقى ربه وصدق. كما أنه عليه الصلاة والسلام قال: التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء».

ولم يكد ينصرف من السوق حتى وجد أحد الخوارج يقف على جماعة من الناس يعظهم بأن من اقترف الكبيرة فقد كفر، وأن الصلاة والصيام لهما شروط صحة غير التي يعرفها الناس.. وإذن فلم تكن وقعة النهروان هي نهاية الخوارج!

لقد صدمه أحدهم الساعة حين قال: «قاتله اللّه كافرا، ما

أفقهه!». وهذا هو متطرف آخر يفتي الناس في أمور الدين فيقول عجبا..!

إنهم ما زالوا يجوسون خلال الديار، ويصور لهم التطرف والتعصب والإفراط في التدين أفكارا غريبة عن الدين، حتى لقد خالفوا بها الدين نفسه!!

فأصبح من واجب الإمام علي، وهو إمام الهدى وولي كل مؤمن الآن أن يدحض كلام الخوارج، كما كان من واجبه وهو أمير المؤمنين، أن يخوض حروبا ضد الخوارج وضد معاوية جميعاً، دفاعاً عن وحدة الأمة، وذيادا عن حوض الشريعة، وعن القيم الفاضلة التي جاء بها الإسلام، وعن مكارم الأخلاق التي بعث اللّه رسوله محمدا متمما لها..

زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر، فشرح الإمام للناس، أن من نطق بالشهادتين وآمن بأركان الإسلام الخمسة لا يمكن أن يكون كافرا! وليس من حق أحد أن يحكم عليه بالكفر!!

فمن ترك الصلاة إهمالا، مذنب عاص فاسق، ولكنه ليس كافرا، إلا إذا أنكر أن الصلاة أحد أركان الإسلام! كذلك من منع الزكاة عن بخل لا عن إنكار، وكذلك من أفطر في رمضان عامدا متعمدا بغير عذر، أو من لم يحج وهو يستطيع إلى الحج سبيلا، كسلا منه أو بخلا غير منكر أنه فرض واجب!. فالذي يقصر في أداء الفريضة غير الذي ينكر الفريضة نفسها!

وقد وضع اللّه حدودا لمرتكب الكبيرة يجب على ولي الأمر أن يقيمها، فان لم يجد الحكم في الكتاب أو السنة، فقد وجب على أهل الذكر أن يستنبطوه.. وتحتم عليهم أن يعملوا العقل ليجدوا الحكم مستهدين بما في الكتاب والسنة من حكم لواقعة مشابهة، عندما تتشابه

العلة أو الحكمة أو السبب، بما تقتضيه مصلحة الأمة والعباد.

وزعم الخوارج أن نواقض الوضوء ليست هي الحدث المادي وحده، بل أن الحدث الروحي أيضاً ينقض الوضوء، كالنميمة والاغتياب والكذب فهي تنقض الوضوء فلا صلاة لمن يرتكبها، وتفسد الصيام، فلا يقبل صيام مقترفها..

وشرح الإمام للناس، أن نواقض الوضوء وما يفطر الصائم أوضحها الرسول على سبيل الحصر، فلا مجال للاجتهاد فيها، وأن الأحداث المعنوية الأخرى جرائم قائمة بذاتها، يعاقب الله عليها من يقترفها.. ويجب أن يتطهر منها القلب واللسان، ولكنها لا تنقض وضوءاً أو تبطل صياما.. فالله يتقبل من العبد صلاته إن صلاها بشروطها، ويقبل الصيام ما لم يبطله شيء من المفطرات المادية، ويعاقب في الوقت نفسه من أساء باساءته.. وما كان ربك نسيا، وهو لا يرفض الحسنى لأنها اقترنت بإساءة، فلكل عمل من أعمال الإنسان حسابه... ولكل وازرة وزرها، ولا تزر وازرة وزر أخرى..

ثم أن هؤلاء المتطرفين الخوارج أنكروا من القرآن كل الآيات التي تروي قصصا.. رفضوا قصص القرآن جميعا، والله يقول لرسوله: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾** وهكذا انتهى بهم الإفراط في التدين إلى الطعن في الدين نفسه والتشكيك في القرآن! فقالوا إن سورة يوسف تروي قصة عشق، ولا يعقل أن تكون في التنزيل فالله تعالى لا يوحي إلى نبيه بقصص عشق»!!

وهكذا صنعوا لأنفسهم قرآنا خاصا تداولوه سرا، ورفعوا منه كل القصص..!

وأفتى الإمام بأن هذا الذي يتداوله القراء المتطرفون الذين غلب

عليهم اسم الخوارج ليس هو القرآن، ولكنه تزييف على القرآن، وافتراء على الله وأخذ ببعض الكتاب وترك لبعض!! لقد جمع عليٌّ وزيد وبعض قراء الصحابة القرآن أواخر عهد الرسول وأول عهد أبي بكر، وقد أتم عثمان هذا العمل المجيد، ومصحف عثمان الذي أحرق ما عداه، هو وحده الذي يضم بين دفتيه القرآن الكريم، وليس من حق المسلم أن يقبل منه أو يرفض كما شاء له الهوى أو النزق أو التطرف أو الشطط!

وهكذا وجد علي نفسه بين الذين أحدثوا صدعاً في الإسلام بالكلمة كهؤلاء المتطرفين الخوارج، والذين أحدثوا ثلما في الإسلام بالحركة كمعاوية!! كلاهما سن سنة سيتحمل وزرها ووزر من ساروا عليها إلى يوم القيامة: استن معاوية سنة عصيان الإمام وشق عصا الطاعة والخروج على الجماعة!! فلو لم يفرق الشمل، لما عرفت الأمة الإسلامية التمزق والفرقة والخلاف، بعد معركة الجمل! إذ ندم كل قوادها الذين حاربوا عليا، وتمنوا لو أنهم ماتوا قبلها!!

ثم هاهم أولاء المتطرفون يخرجون على الأمة، ويبتدعون كلاما في الدين، يفتح باب خلاف فكري عريض، ويشق الأمة باسم حرية الفكر! باسم الفكر يدفعون بالمسلمين إلى عشوات داجية يتخبطون فيها..! ويغلقون باب التوبة أمام من عصى الله، وقد علم الناس أن الله يعفو عن التوابين..

وهكذا كتب على الإمام أن يناجز الخوارج بوصفه إماما للمتقين، وإماما للهدى، وأن يحارب بوصفه أميراً للمؤمنين معاوية وأصحابه ومن حوله من العلماء المرتشين الضالين المنسلخين عن العلم..

ورفض زعماء الخوارج أن يجادلوا عليا، ولكن عليا نهى عن الخوض فيما يخوض فيه الخوارج من كلام سدا لذرائع الفتن والمروق من الدين وإشاعة القنوط من رحمة الله في النفوس فيزداد العصاة عصيانا.. نهى عن الكلام في القضاء والقدر.. ونهى عن الكلام في

المتشابه من آيات القرآن الكريم، ونهى عن تحكيم عقل الإنسان في غير ما يتقنه، فليس للعقل أن يرفض ما جاء في القرآن، ولكنه مطالب بأن يحسن استنباط الأحكام من نصوص القرآن..

ولكن من القراء الخوارج، من كان يحب أنْ يتفقه في الدين، ومن يرفض أن يجعل للعقل سبيلا على القرآن فيأخذ بعضه ويدع بعضه، بدلا من أن يكون القرآن هاديا للعقل.. ومن هؤلاء نافع بن الأزرق.

وقد ذهب إلى عبد اللّه بن العباس يسأله في القرآن، لا منكرا لقصصه أو لبعض آياته، بل ليتفهم معانيه.

وعبداللّه بن عباس هو أنبغ تلاميذ الإمام، وأفقههم بالقرآن والسنة والشعر وأيام العرب وسائر المعارف في عصره، وكان ينتجعه شداة العلم يسألونه عن القرآن ومعانيه..

سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى: **﴿والليل وما وسق﴾** قال ابن عباس: «وما جمع» قال: «أتعرف ذلك العرب!» قال ابن عباس: «أما سمعت قول الراجز:

إن لـنـا قـلائـصـا حـقـائـقـا   مـسـتـوسـقـات لـو يـجـدن سـائـقـا

(قلائص: جمال صغيرة. حقائق جمع حقة وهي من الإبل التي استحقت أن يحمل عليها. مستوسقات: مجتمعات يقال استوسق القوم إذا اجتمعوا).

وسأله: «أرأيت نبي اللّه سليمان عليه السلام مع ما خوله اللّه وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضؤولته؟!» قال له ابن عباس: «إنه احتاج إلى الماء والهدهد يرى باطن الأرض كظاهرها، فسأل عنه لذلك» قال ابن الأزرق: «كيف يبصر باطن الأرض والفخ يغطى له بمقدار أصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه!» فقال ابن عباس: «ويحك يا ابن

الأزرق! أما علمت أنه إذا جاء القدر غشي البصر!».

هكذا انشغل الإمام باقامة العدل وتوفير الراحة للرعية، وتنوير العقول بالعلم، وإعمار القلوب بالتقوى، ومقاومة الأطماع بذكر الله..

أما معاوية، فقد عاد من صفين إلى قصره الباذخ الضخم في دمشق والناس يسلمون عليه بالخلافة، ويبجلونه كما تبجل الروم أباطرتها، وهو يقول مزهواً: «أنا ملك في الإسلام!»

وأمر الناس أن يسبوا عليا على المنابر، وأن يتهموه بالكذب، ولكن أحد العلماء الذين انسلخوا من علمهم ليكونوا من صنائع معاوية، نصحه ألا يفعل ذلك كيلا يستثير عداء الناس، فقد علم الناس أن رسول الله قال: «علي مني وأنا من علي وهو وليُّ كل مؤمن بعدي» فقال معاوية: «إنما نلعن أبا تراب، فإن قال الناس: من أبو تراب، فقولوا: هو رجل من بني عبد مناف!».

ولام سعد بن أبي وقاص معاوية لأنه يلعن عليا، وقال لمعاوية أمام بطانته: «إن يوماً واحدا من علي أفضل من معاوية حيا وميتا!» فقال معاوية: «وما يمنعك أن تسب أبا تراب!» فقال سعد: «ثلاث قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم، فلن أسبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول وقد خلفه في بعض المغازي فقال له علي: يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان! فقال له الرسول: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي! وسمعته يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا إليها، فدعا عليا فدفع الراية إليه ففتح الله عليه. وأنزلت هذه الآية: **﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾** فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: «اللهم هم أهلي»

ثم أضاف رجل من أنصار سعد: «قال رسول الله لعلي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

ثم أن معاوية دعا جماعة من ثقاته فيهم عمرو بن العاص السهمي، وبشر بن أرطأة العامري، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي، وحبيب بن مسلمة الفهري، وكلهم من قريش، ودعا ثلاثة من غير قريش فيهم، شرحبيل بن السمط الحميري. فقال لهم معاوية: «أتدرون لماذا دعوتكم!» قالوا: «لا» قال: «فإني دعوتكم لأمر هو لي مهم، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد أعان عليه» فقال رجل منهم: «إن الله لم يطلع على غيبه أحدا ولسنا ندري ما تريد!»

فوثب عمرو بن العاص بجسده النحيل فقال، وقد التمعت عيناه: «أرى والله أمر هذه البلاد المصرية قد أهمك لكثرة خراجها وعدد أهلها. فدعوتنا تسألنا عن رأينا في ذلك، فان كنت لذلك دعوتنا، وله جمعتنا فاعزم واحزم ونعم الرأي ما رأيت! إن في افتتاحها عزك وعز أصحابك، وذل عدوك، وكبت أهل الخلاف عليك».

فقال معاوية: «أهمك ما أهمك يا بن العاص، وما اهمك إلا مصر». والتفت معاوية لأصحابه وقال: «إن ابن العاص قد ظن وحقق ظنه. أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله لكم في حربكم هذه على عدوكم! ولقد جاؤوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلونكم ويحوزون بلادكم، وما كانوا يرون إلا أنكم في أيديهم، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكفاكم مؤونتهم، وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم، ثم جمع كلمتنا، وأصلح ذات بيننا، وجعلهم أعداء متفرقين، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دماء بعض، والله إني لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن أحاول حرب مصر فما ترون!».

فوافقوه جميعا، وقال عمرو: «إني مشير عليك بما تصنع: أرى أن

تبعث جيشا كثيفا، عليه رجل صارم، تأمنه وتثق به، فيأتي مصر فيدخلها فانه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها، فنظاهره على من كان من عدونا، فان اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك، رجوت الله أن يعز نصرك».

ولكن معاوية رأى أن يتأتى، ويرسل إلى من بها من أنصاره يمنيهم بقدومه، ويدعوهم إلى الانتفاض على محمد بن أبي بكر، ويرسل إلى من كان بها من عدوه، فيدعوهم إلى الصلح، ويرشوهم بالأموال الطائلة، ويخوفهم الحرب، ويمنيهم المناصب الكبرى، فان استقام الأمر بلا قتال فخير، وإلا فهي الحرب...

ولكن ابن العاص كان في عجلة من أمره لتكون مصر طعمة له كما تعاقد مع معاوية منذ تحالفا ضد علي.

فقال معاوية: «إنك يا عمرو لامرؤ بورك لك في العجلة، وبورك لي في التؤدة!» فقال عمرو: «فاعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب!».

فأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى معاوية بن خديج الكندى ومسلمة بن مخلد الأنصارى، وهما قائدا أنصاره الذين لم يبايعوا عليا واعتزلوا بخربتا بإقليم البحيرة يأمرهما بالثورة، ويعدهما بارسال جيش كثيف يساعدهما، ويمنيهما بجاه كبير.. إذ يقول لهما: «أن الله قد ابتعثكما لأمر عظيم، لأعظم من أجركما، وأرفع درجتكما ومرتبتكما بين المسلمين».

ولم يكد الكتاب يصل إلى خربتا حتى ثار من كانوا بها من أنصار معاوية، فأرسل محمد إليهم حملة فقتلوا قائدها، وأتبعها بحملة أخرى فقتلوا قائدها، ونفروا في عشرة آلاف مقاتل يريدون الوثوب على محمد في الفسطاط عاصمة مصر!

غير أن عمرو بن العاص، لم يكن سعيدا بهذه التؤدة في الحصول على مصر.. فقد كان دائما في عجلة من أمره في شأن مصر. إنه ليعرف مصر منذ كان تاجراً كبيراً في الجاهلية، ولقد زار الإسكندرية مرة في إحدى رحلاته التجارية، فصادف حضوره يوم الزينة. وفي هذا العيد كان أبناء الملوك يجتمعون ويلعبون بكرة يتقاذفونها فيما بينهم، وزعموا أن من تقع الكرة في حجره، يملك الإسكندرية. وجلس عمرو بين المشاهدين فاذا بالكرة تقع في حجره!! فعجب أبناء الملوك لأمر الكرة، وقالوا: «ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة، وأنّى لهذا الأعرابي أن يملك الإسكندرية! هذا واللّه لا يكون!».

ولكنه كان..!

فقد أسلم عمرو بن العاص، حتى إذا فتح المسلمون بلاد الشام كان عمرو أحد قواد تلك الفتوحات العظمى، فلما استقر المسلمون في الشام، والشام حينئذ هو سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وأصبح عمرو والي فلسطين على حدود مصر، وأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يستأذنه في فتح مصر.. قال: «إني عالم بها وبطرقها، وهي أقل شيء منعة، وأكثر أموالا» ولكن عمر عزف عن مواجهة الروم في مصر بعد أن كسرهم في كل بلاد الشام.. غير أن ابن العاص عاد يزين له الأمر، ويؤكد له أن أمر الروم في مصر أهون منه في بلاد الشام.

ثم أن ابن العاص أمر أصحابه أن يتسللوا من فلسطين إلى مصر.. فكتب إليه عمر بن الخطاب كتابا تلقاه وهو يقرع باب العريش، فلم يفض الكتاب حتى دخل باب العريش، وأصبح في أرض مصر. فاذا في الكتاب: «من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. فأما بعد فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر، وبها جموع الروم، وإن من معك نفر يسير، ولعمري لو كانوا من ذوي رحمك ما تقدمت ولما عرضتهم

للهلاك! فاذا جاءك كتابي هذا، فان لم تكن بلغت مصر فارجع» فقال عمرو: «الحمد لله» وأشهد الناس، فسألهم: «أي أرض هذه؟» قالوا: «مصر» فتقدم إلى الفرما (وكانت تقع شرقي بور سعيد الحالية) فلقي بها جموع الروم فهزمهم. حتى إذا بلغ بلبيس دارت معركة عنيفة بينه وبين الروم، ولكنه هزمهم، وتقدم حتى بلغ قرية «أم دنين» وكانت تقع شمالي حصن بابليون، ومكانها الآن حي الأزبكية في القاهرة) فاستعر القتال، ولم ينتصر أحد الجانبين فأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب منه مددا، فأرسل إليه الزبير بن العوام في اثني عشر ألفا..

ثم بلغ حصن بابليون (في مصر القديمة حاليا) وهو معقل منيع، فحاصر الحصن سبعة أشهر، حتى فتحه. وكان قد أقام فسطاطا خارج الحصن أثناء الحصار، فلما سقط الحصن ورأى أن يزحف إلى الإسكندرية، أمر أن يقوضوا الفسطاط، ولكنه وجد يمامة اتخذت عشها في أعلى الفسطاط، فباضت، فقال: «لقد تحرمت بجوارنا. أقروا الفسطاط حتى تنقف فراخها وتطير (تنقف تخرج من البيض).» فسمي المكان بالفسطاط، وفيه بنى عمرو مساكن له ولجنده، وأنشأ أول مسجد في أفريقية، وجعل الفسطاط عاصمة لمصر.

ثم زحف عمرو إلى الإسكندرية فافتتحها، ثم إلى برقة وطرابلس.. وولى عمر بن الخطاب على مصر وبرقة وطرابلس عمرو بن العاص ولكنه ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري على صعيد مصر. فلما قتل عمر وبويع عثمان، سأله عمرو أن يعزل ابن أبي سرح عن الصعيد، لخلاف اشتجر بينهما، ولكن عثمان عزل عمرو بن العاص، وولى مكانه ابن أبي سرح على مصر كلها. فغزا أفريقية، وهزم الروم في أول معركة بحرية خاضها المسلمون، وهي غزوة ذات الصواري قرب الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى، وكان الروم بقيادة قسطنطين ابن هرقل في ألف مركب والمسلمون بقيادة ابن أبي سرح في

مائتي مركب، فسميت ذات الصواري لكثرة ما فيها من صواري السفن.

ولم يفلح عمرو في إقناع عثمان باعادته إلى مصر، فأقام في فلسطين، يحرض على عثمان، حتى إذا قتل عثمان، أرسل إليه معاوية يستنصره ويحذره من عليّ الذي سيجرده من أمواله وضياعه إن هو لم ينهض لمقاومته مع معاوية وأهل الشام..

حتى إذا التقى معاوية وعمرو، اشترط عمرو أن تكون له مصر طعمة أي مأكلة يأكلها خالصة له، يستأثر وحده بخراجها. فلما آلت الأمور إلى ما آلت إليه، وسقط من المسلمين من جيش علي وجيش معاوية نحو سبعين ألف قتيل، وانتهى الأمر إلى التحكيم، وخديعة عمرو أبا موسى الأشعري طاب لعمرو أن يستنجز معاوية وعده.. وما كان معاوية في حاجة إلى من يذكره فقد كانت مصر أهم له من الشام لكثرة أهلها، ولحرصه على تأمين حدوده الجنوبية، ولأنه كان يعرف أنه إن ملك مصر، فقد أنهى معركته مع علي بانتصار كبير. فمن يملك مصر يملك العرب!

فلما وصل كتاب معاوية إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج ردا عليه: «أما بعد، فان هذا الأمر الذي قد ندبنا له أنفسنا، وابتغينا الله به على عدونا، أمر نرجو به ثواب ربنا، والنصر على من خالفنا، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا عثمان بن عفان.. وقد ذكرت مؤازرتك في سلطانك وذات يدك، وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا، ولا إياه أردنا، فان يجمع الله لنا ما نريد ونطلب، أو يرينا ما تمنينا، فان الدنيا والآخرة لله رب العالمين. وقد يثوبهما الله جميعا عالما من خلقه، كما قال في كتابه: **﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾** . عجل لنا بخيلك ورجلك فان عدونا قد كان علينا جريئا، وكنا فيهم قليلا، وقد أصبحوا لنا هائبين،وأصبحنا لهم منابذين، فان يأتنا مدد من قبلك يفتح الله عليك، ولا قوة إلا بالله حسبنا ونعم الوكيل».

كان سلوك ابن مخلد وابن خديج هو السلوك الشائع عند كل من رشاهم معاوية، فهم يفرحون للرشوة ولكنهم، يرددون الكلمات نفسها: انهم إنما ينضمون إليه لينتقموا ويثأروا لعثمان، وإنهم ما من أجل مال أو جاه نهضوا، ولا أرادوا مالا أو جاها، ولكن إن جمع اللّه لهم المال والجاه وأنالهم ما تمنوا فلا بأس، وهو ثواب من اللّه!! ثم يتأولون آية كريمة من القرآن كما تأولوا غيرها.. ويذهبون إلى أن اللّه قد يثيب أقواما في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: **﴿فآتاهم اللّه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة واللّه يحب المحسنين﴾**...! هكذا كان رأى المرتشين في الرشوة: إنها ثواب الدنيا.. رأى كل المرتشين من أهل الحرب، وأهل العلم!!.. وما أوَّل لهم ما تأوّلوه من القرآن الكريم، وما قدم لهم الفتيا التي تجيز لهم الرشوة، إلا أهل العلم من صنائع معاوية، وهم الذين وصفهم الإمام بأنهم شر من الجهلاء، فالجاهل له عذره من جهله، أما هم فيعملون بغير ما يعلمون، ويجعلون الحق مطية للباطل، ويتسكعون بآيات الهدى في وديان الضلال!!

عندما بلغ معاوية رد شيخ أنصاره في مصر، استدعى عمرو بن العاص فقال له: «تجهز يا أبا عبداللّه» فعجل عمرو بإعداد جيش من ستة آلاف مقاتل، مؤمنا بأن اللّه قد بارك له في العجلة كما زعم له معاوية..!

فلما تقدم عمرو بجيشه، قام محمد بن أبي بكر في الناس فقال بعد حمد اللّه والثناء عليه: «أما بعد، يا معاشر المؤمنين، فان القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة، ويفشون الضلالة، ويستطيلون بجبروتهم، قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود، فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم في اللّه. فخفوا إليهم رحمكم اللّه مع كنانة بن بشر».

وبعث محمد جيشاً من ألفي رجل هم طليعة جنده وعلى رأسهم كنانة.

ومضى هو خلفهم في ألفين آخرين.. فهؤلاء هم كل ما تيسر لمحمد بن أبي بكر جمعهم من جند مصر!!

لقي عمرو بن العاص كنانة في مقاتليه الأشداء.. وآثر عمرو بن العاص وكان قائدا ماهرا محنكا ألا يقابل كنانة، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن اللّه.. وهو يعرف أن من نفر إلى الحرب مع كنانة ومحمد، إنما نفروا حرصا على النصر أو الشهادة، ولن يفر أحد منهم حتى يظفر أو يستشهد، أما الذين زحف بهم عمرو من الشام، فقد جاؤوا طمعاً في العطاء المضاعف، وخيرات مصر، والاستمتاع بالدنيا!

وعمرو لا يجهل الفرق بين من يحارب للجنة، ومن يحارب لمتاع الحياة الدنيا.. وهو نفسه قد عرف هذا الشعور الذي يمنح المقاتل قوة لا تقهر، حين حارب تحت راية الإسلام.. جنود الروم من قبل ببعض بلاد الشام وعلى هذه الأرض الطيبة نفسها: أرض مصر.

وسرح عمرو الكتائب إلى كنانة كتيبة بعد كتيبة..!

واستنجد عمرو بمعاوية بن خديج السكوتي ومسلمة بن مخلد الأنصاري، حيث كانا غير بعيدين من الفسطاط في عشرة آلاف جندي..

فأتيا كنانة وجنده من المؤخرة وزحف عمرو بجند الشام على مقدمة كنانة، فلما رأى كنانة أنه قد حوصر بين عشرة آلاف بقيادة ابن خديج وستة آلاف بقيادة عمرو، نزل عن فرسه، وأمر أصحابه الألفين أن يترجلوا جميعا. وقرأ: **﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن اللّه كتابا مؤجلا﴾**.

فقاتل برجاله حتى أحدثوا في جند الشام مقتلة عظيمة.. ولم تتوقف الحرب حتى قتل كنانة نفسه، وتمزق رجاله، ما بين قتيل وجريح وأسير.. وإذا بجند محمد بن أبي بكر يفرون عنه ناجين بأنفسهم، ملتمسين جاه الحياة الدنيا عند عمرو ومعاوية..!

أما محمد فقد لجأ إلى خربة فاختفى فيها.. ولكن ابن خديج ظل يبحث عنه، حتى عرف مكانه، وكان ذلك النهار شديد الحرارة. فذهب ابن خديج مع ثلة من الجند، إلى الخربة فوجدوا محمدا يكاد يهلك عطشا وإعياءً فسألهم الماء، فأباه ابن خديج عليه.. وجاؤوا به إلى الفسطاط، فوثب أخوه عبدالرحمن بن أبي بكر إلى عمرو فقال في غضب عارم: «لا والله لا يقتل أخي صبرا!.» فقال معاوية: «أقتلتم كنانة بن بشر ابن عمي وأخلي عن محمد! هيهات!: ﴿**أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر!**﴾ صدق الله العظيم».

وألح العطش على محمد فقال: «اسقوني قطرة ماء!» فقال له ابن خديج: «لاسقاني الله إن سقيتك قطرة أبدا! إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء، حتى قتلتموه صائما محرما، فسقاه الله من الرحيق المختوم. والله لأقتلنك يا بن أبي بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم!» فقال محمد: «يا بن اليهودية النساجة، ليس ذلك اليوم إليك! إنما الله الذي يسقي أولياءه ويظمىء أعداءه وهم أنت وقرناؤك ومن تولاك وتوليته، والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغتم!» فقال ابن خديج: «أتدري ما أصنع بك! أدخلك جوف حمار ميت ثم أحرقه عليك بالنار!».

فقال محمد: «إن فعلتم ذلك بي فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله، وأيم الله إني لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوفني بها بردا وسلاما علي، كما جعلها على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإني لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنار تلظى، كلما خبت زادها الله سعيرا»..

فقام ابن خديج محنقا فضرب عنق محمد بسيفه... ثم أدخل جسمه في جوف حمار ميت بوحشية باردة عجيبة!! ثم أحرقه بالنار، ووقف يتلهى ويتلذذ، ويمني نفسه بما وعده به سيده معاوية بن أبي

سفيان من عطاء ضخم ومنصب كبير، ورفع عقيرته يسب الإمام عليا، سبا منكرا وينظر إلى من حوله عسى أن يبلغوا ابن أبي سفيان بإخلاص ابن خديج له!!

وأرسل ابن خديج رأس ابن أبي بكر إلى ابن أبي سفيان!! لكأن الآباء يعودون، كل بفجوره أو تقواه!! فلما جاؤوا ابن أبي سفيان برأس محمد بن أبي بكر.. أمر أن يطاف به في دمشق. فكان أول رأس طيف به في الإسلام!!

وحين علمت عائشة ما حدث لأخيها كظمت غيظها حتى نزفت دما، ثم بكت أحر بكاء، وصرخت تلعن معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج..! وضمت إليها أولاد محمد، وحرمت على نفسها الشواء أبدا، فلم تأكله حتى توفيت.

وظلت كلما تعثرت قدمها تقول: «تعسا لمعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن خديج!» وتعودت أن تدعو عليهم عقب كل صلاة.

وجاء عليا رجلان ينعيان إليه محمدا، أما أحدهما فقد جاء من مصر، يتحدث باكيا عما أصاب محمدا، وأما الآخر فقد جاء من الشام يروي عجبا مما رآه في الشام.

فقد صعد معاوية منبر المسجد الجامع في دمشق فأذن في فرح عظيم بقتل محمد بن أبي بكر.. وكأنها بشارة كبرى يبشر بها أهل الشام!! بقتل محمد!! ثم قرىء كتاب عمرو إلى معاوية، وفيه: «أما بعد، فانا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع جمة من أهل مصر، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب، فرفضوا الحق، فجاهدناهم، واستنصرنا الله عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحونا أكتافهم، فقتل الله محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر وأماثل القوم. والحمد لله رب العالمين. والسلام».

وقال صاحب عليّ الذي جاء من الشام لعلي: «والله يا أمير المؤمنين قلما رأيت قط قوما أسر، ولا سرورا قط أظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر» فقال علي: «أما أن حزننا عليه على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافا!».

فأرسل علي إلى مالك بن كعب الذي كان قد أرسله لينجد محمدا في ألفي رجل، فرده قبل أن يبلغ مصر، ويهلك بجيشه.. فما يجدي ألفا رجل أمام نحو ستة عشر ألفا أو يزيد!!

ثم وقف علي يخطب الناس: «ألا وإن مصر قد افتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم، الذين صدوا عن سبيل الله، وبغوا الإسلام عوجا. ألا وإن محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله، وعند الله نحتسبه، أما والله لقد كان ما علمت ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحب سمت المؤمن، إني والله لاألوم نفسي على تقصير ولا عجز، وإني بمقاساة الحرب لجد بصير، إني لأقدم على الحرب، وأعرف وجه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخكم معلناً، وأناديكم مستغيثاً فلا تسمعون لي قولا، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة. دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة... فتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد، ولا رأي له في الاكتساب للأجر، ثم خرج إلي منكم جنيد (تصغير جند) متذائب (مضطرب) ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون! فأف لكم!»

ثم عاد إلى داره محزوناً مهموماً محسوراً!!

لماذا يحدث كل هذا! بأى سحر من متاع الحياة الدنيا أصبح رجال معاوية أطوع له من بنانه وهو يركض بهم في الباطل، إذ أنت تقود رجالك إلى الهدى يا علي! فبأي فزع من وطيس الحرب ينفضون عنك!!...

ما كنت تريد الخلافة، ولكنهم تكاثروا عليك حتى قهروك .. وها هو ذا سيفك ذو الفقار الذي حطم هامات الشرك، لم يعد يرتفع بعد ليشق بوجهه ظلمات الجهل في بلاد كنت ترجو أن يفتحها الله على المسلمين، وينقذ أهلها بالإسلام مما يعانونه من هوان!!

كم من الأبطال الصناديد استشهدوا في هذه الحروب بين أهل القبلة! ثلاثون ألفا يوم الجمل، وسبعون ألفا يوم صفين. ومئات يوم النهروان!! أكثر من مائة ألف قتيل لم يشرق بدمائهم فجر الهدى على بلاد تغشاها ظلمات الضلال... ولكنها جميعا مهج مسلمين!!

لو أن هذه الآلاف المؤلفة التي احتشدت يوم الجمل وفي وقعة صفين والنهروان، تحركت راية واحدة هي راية الإسلام، وخلف إمام واحد هو الذي بايعه المهاجرون والأنصار، فزحفوا شرقا وغربا، لأضاؤوا بالإسلام دنيا الإنسان جميعا.. أما كان ذلك أفضل من هذا التمزق، وهذه الفتنة التي يسقط فيها خيرة حملة القرآن، والدعاة والشجعان والهداة والمتقون!!

لقد سننت هذا الشقاق يا معاوية! أميران للمؤمنين في زمن واحد ودولة واحدة. ابتدعت هذا الخلاف بين الأمة الإسلامية، فلتتحمل أمام الله وزر هذه السنة، التي سيتبعها بعدك خلف كثيرون، ويمزقون ويفرقون هذه الأمة العظيمة إلى دويلات متناحرة أو متنافرة، وإذ هم يصبحون شتى مختلفين ويمسي بأسهم بينهم شديدا!!

لئن تمزقت هذه الأمة يا علي، فلن يجتمع شملها آخر الدهر!

ستظل متفرقة أبدا.. ولكنه قدرك يا إمام المتقين وإمام المساكين، أن تخوض الغمرات وتكابد الأهوال الشداد، لكي ترأب الصدع الذي أحدثه معاوية بطمعه الخادع المخدوع في الملك!! ولكن. بمن من

وشعر علي بأنه يريد أن يبث شكواه إلى قلب كبير عزيز عليه.. أين أنت يا رسول الله ﷺ!!.. أين أنت يا أبا بكر!! يا عمر!! يا عمار!! يا سلمان.. يا أبا ذر!! أين أنت أيتها الصديقة الحبيبة فاطمة الزهراء!! ما عاد لك أحد بعد يا علي تستطيع أن تلقي برأسك على كتفه وتبكي!! أواه يا بن أبي طالب!! آه من قلة الزاد وبعد السفر!!

لم يعد من أحبائك إلا القليل!!.. ومن تستطيع أن تبثه شكواك منهم أقل من القليل!!

وكتب الإمام إلى ابن عمه ووزيره وتلميذه وصديقه، عامله على البصرة عبدالله بن عباس: «سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فان مصر قد افتتحت، وقد استشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عز وجل نحتسبه، وقد كنت كتبت إلى الناس، وتقدمت إليهم في بدء الأمر، وأمرتهم باغاثته قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً، وعودا وبدءا، فمنهم الآتي كارها، ومنهم المتعلل كاذبا، ومنهم القاعد خاذلا، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجا، وأن يريحني منهم عاجلا، فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة وتوطين نفسي عند ذلك، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا. عزم الله لنا ولك على هداه وتقواه إنه على كل شيء قدير. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وعز على عبدالله بن عباس أن يبلغ السأم والمضض والأسى بأستاذه وخليله وإمامه هذا المبلغ. فكتب إليه مواسيا: «لعبدالله عليّ أمير المؤمنين من عبدالله بن عباس، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاك محمد بن أبي بكر، وإنك سألت الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التي ابتليت بها فرجا ومخرجا وأنا أسأل الله أن يعلي كلمتك، واعلم أن الله صانع لك، ومعز دعوتك، وكابت عدوك، وأخبرك يا أمير المؤمنين أن

الناس ربما تباطؤوا ثم نشطوا، فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومنّهم. واستعن بالله عليهم. كفاك الله الهم! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

أينصحك عبدالله بن عباس أن تمني الناس.. بماذا تمنيهم! ما تمنيهم إلا برضا الله والخير الآجل إن هم عملوا الصالحات وأحسنوا واتقوا ثم اتقوا وأحسنوا..!

أما معاوية فيمنيهم بالمتاع العاجل، وزينة الحياة الدنيا وزخرفها..!

وظل الإمام أياما لا يرى إلا حزينا، كأنه مغلوب على أمره!.. فقال له بعض أصحابه: «لقد جزعت على محمد بن أبي بكر يا أمير المؤمنين» فقال: «وما يمنعني! إنه كان لي ربيبا، وكان لبَنِيَّ (أبنائي) أخا، وكنت له والدا، أعده ولدا».

ورأى الإمام أن يعظ الناس بدلا من أن يتركهم، وأن يضع أقدامهم على طريق الهدى، عسى أن يستنقذ وحدة الأمة التي مزقها معاوية وعصبته!

ورأى أن يزهدهم في الدنيا التي يغلبهم بها معاوية على تقواهم ودينهم فأمر أن ينادي في الناس: «الصلاة جامعة».

فلما اجتمع الناس في المسجد صعد المنبر فقال: «أما بعد، ما أنتم إلا كالإبل ضل رعاتها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر! فما تنتظرون! أما ترون أطرافكم قد انتقصت! أما ترون مصر قد فتحت! وإلى شيعتي بها قد قتلت! وإلى بلادكم تغزى، وأنتم ذوو عدد كثير، وشوكة وبأس شديد! فما بالكم! لله أنتم من أين تؤتون، ومالكم تؤفكون!!. ولوأنكم عزمتم وأجمعتم لم تراموا. إلا أن القوم (جند

معاوية) تناصحوا، وأنتم تغاششتم وافترقتم.. فأجمعوا على حقكم، وتجردوا لحرب عدوكم.. إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء وأولي الجفاء، ومن أسلم كرها... أكلة الرشاوى وعبدة الدنيا وأهل البدع، ويود هؤلاء لو ولوا عليكم، فأظهروا فيكم الفساد والفجور والتسلط، واتبعوا الهوى وحكموا بغير الحق، ولأنتم على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل خير منهم وأهدى سبيلا، فيكم العلماء والفقهاء، والنجباء والحكماء، وحملة الكتاب والمتهجدون بالأسحار، وعمار المساجد بتلاوة القرآن. أفلا تسخطون! أفلا تهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم! فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري. فوالله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصيتموني لا ترشدون! خذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها عدتها، فقد شبت نارها، وعلا سنانها، وتجرد لكم فيها الفاسقون، كي يعذبوا عباد الله، ويطفئوا نور الله!

ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى في الجد في غيهم وضلالهم، من أهل البر والزهادة والإخبات في حقهم وطاعة ربهم! إني والله لو لقيتهم فردا وهم ملء الأرض، ما بليت ولا استوحشت وإني من ضلالتهم التي هم فيها، والهدى الذي نحن عليه، لعلى ثقة وبينة، ويقين وبصيرة، وإني إلى لقاء ربي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر، ولكن أسفا يعتريني، وحزنا يخامرني، أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا وعباده خولا (اتباعا)، والفاسقين حزبا، وأيم الله لولا ذلك لما أكثرت تأنيبكم وتحريضكم، ولتركتم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسي، متى حم لي لقاؤهم. فوالله إني لعلى الحق، وإني للشهادة محب، ف**﴿انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف، وتبوؤا بالذل، ويكن نصيبكم الخسران، إن أخا الحرب هو اليقظان، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين.

«اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى، وزهدنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خير لنا من الأولى».

❀ ❀ ❀

وبادر عليٌ إلى علاج الموقف بعد أن استولى عمرو على مصر، وقتل أميرها، فرأى أن يبعث أحد رجلين: قيس بن سعد، أو الأشتر فكلاهما يستطيع أن يستنهض شيعة علي وهم أكثر الناس بمصر، ويجمعهم حوله، وينقض بهم على عمرو.

ولكنه كان قد ولى قيس بن سعد أمر الشرطة، فتركه ليعمل صاحب شرطته، واستدعى الأشتر وكان عامله على نصيبين وكتب له عهداً طويلا يرسم له فيه أسلوب الحكم.

وأرسل الإمام إلى أهل مصر: «أما بعد، فقد وجهت إليكم عبدا من عباد اللّه لا ينام في الخوف، ولا ينكل عن الأعداء حذر الدوائر، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوه، فانه سيف من سيوف اللّه... وهو حسام صارم، ومن أشد عباد اللّه بأسا، وأبعد الناس عن دنس وعار، رزين في الحرب، حليم في السلم، ذو رأي أصيل، وصبر جميل.. فان أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا، فانه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي، لنصيحته وشدة شكيمته على عدوه، عصمكم اللّه بالحق، وثبتكم بالتقوى، ووفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، والسلام عليكم ورحمة اللّه».

وقال له الإمام وهو يودعه: «استعن باللّه على ما أهمك وأخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم على الشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة».

وسار الأشتر إلى مصر، حتى انتهى إلى القلزم (وهي مدينة كانت تقع قرب السويس على شاطىء الخليج وهي على الطريق بين مصر والحجاز)

وكان معاوية قد عرف من عيونه أن الأشتر قد ولي مصر، فخافه على مصر، وخشي أن يلتف حوله أهل مصر - وهم شيعة علي - فيثبوا على عمرو بن العاص، ويستردوا مصر إلى دولة علي

فبعث إلى صاحب خراج القلزم: «إن الأشتر قد ولي مصر، فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت أنا وبقيت أنت! فلتحتل في هلاكه ما قدرت عليه» وكان خراج القلزم كثيرا ووفيرا.

فلما جاء الأشتر القلزم أتاه صاحب الخراج مرحبا متوددا، فقال له: «أيها الأمير، هذا منزل فيه طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج، فأقم واسترح».

ثم قدم له طعاما، ثم سقاه عسلا مترعا بالسم، فمات الأشتر من فوره.

وعندما بلغ الخبر معاوية صفق طربا، وقال: «إن للّه جنودا من عسل!» و«أعلن البشرى لأهل الشام، وقام في الناس خطيبا فقال: «أما بعد، فانه كان لعلي بن أبي طالب يمينان، فقطعت إحداهما يوم صفين وهو عمار بن ياسر وقد قطعت الأخرى اليوم، وهو مالك الأشتر!»

أما علي فلما بلغه موت الأشتر، حزن حزنا شديداً، وظل يقول: «إنا للّه وإنا إليه راجعون! الحمد للّه رب العالمين اللهم إني أحتسبه عندك، فإن موته من مصائب الدهر!».

ثم غلبه الدمع فقال وهو يحاول أن يكفكف دمعه: «رحم اللّه مالكا فقد وفى بعهده، وقضى نحبه، ولقي ربه، مع أنا قد وطّنّاأنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول اللهﷺ فإنها أعظم المصيبات!».

ولكنه كان أحيانا يهمهم في أسى فاجع: «مالك وما مالك!!.. لو أحبني جبل لتداعى!!»

وأرسل صاحب خراج القلزم، إلى معاوية كتابا طويلا وجده في متاع الأشتر. كما كان قد أرسل إليه عمرو بن العاص من قبل، كل ما وجده عند محمد بن أبي بكر من كتب علي..

فلما نظر معاوية في هذه الكتب جميعاً وجد فيها علما غزيرا، فأبدى إعجابه بها وحرصه عليها، وبصفة خاصة عهد علي إلى الأشتر.

فاقترح عليه الوليد بن عقبة أن يحرق هذه الكتب جميعاً فقال معاوية: «مه (مهلا) لا رأي لك!» فقال الوليد: «أمن الرأي أن يعلم الناس أن أحاديث أبي تراب (علي كرم اللّه وجهه) عندك تتعلم منها!» فقال معاوية: «ويحك أتأمرني أن أحرق علما مثل هذا! واللّه ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم!» فقال الوليد: «إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله!».

فتأنى معاوية ولم يبادر بالإجابة، وبعد أن أعمل فكره قال للوليد ومن معه من الخلصاء: «إنا لا نقول إن هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكن نقول هذه من كتب أبي بكر الصديق، كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها ونأخذ منها...!»

وكانت الكتب التي وجدوها عند محمد هي التي قرأها على أهل مصر كما مر بنا آنفا.. وكان بعضها شرح لما خفي على ابن أبي بكر من أمور السنة.

أما عهد علي إلى الأشتر، فقد أذهل معاوية ومن معه حقاً، لما جمع من الحكمة وأحكام في السياسة وكل أمور الدين والدنيا..

وتساءل أحد ثقات معاوية ألا يخشى إن زعم لهم أنه يدرس كتب أبي بكر ويعمل بها، أن يسأل لما لم يدرس وصية عمر إلى الخلفاء من بعده. ويعمل بها!

فسأله معاوية: «وما تلك؟» فقال الرجل: «أوصى عمر الخليفة من بعده فقال: «أوصيك بتقوى اللّه لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا، أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا، فانهم درء (دفع وصد) العدو، وأوصيك بجباة الأموال والفيء، لا تحمل فيأهِم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيرا، فانهم أصل العرب، ومادة الاسلام، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم!».

فوثب رجل من أغنياء بادية الشام وقال: «هذه لهجة أبي ذر! وقول أبي تراب ابن أبي طالب!»

فاستمر صاحب معاوية يقرأ من ورقة معه بقية وصية عمر للخليفة من بعده: «وأوصيك بأهل الذمة خيرا، أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم.. وأوصيك بتقوى اللّه وشدة الحذر منه، ومخافة مقته، وأن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى اللّه في الناس، ولا تخشى الناس في اللّه. وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم».

فوثب البدوي الغني مرة أخرى: «هذه سيرة أبي تراب!»

واستمر الرجل يقرأ وصية عمر: «.. فان ذلك باذن اللّه سلامة لقلبك وحط لوزرك، وخير في عاقبة أمرك، حتى تفضي بذلك إلى من يعرف سريرتك، ويحول بينك وبين قلبك. وآمرك أن تشتد في أمور اللّه، وفي حدوده ومعاصيه، على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة، واجعل الناس عندك سواء، لا تبالي على من وجب الحق!»

فصاح الرجل: «كأنك تقرع أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان!»

فاستمر القارىء يقرأ بقية وصية عمر للخليفة من بعده: «ولا تأخذك في الحق لومة لائم. وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك اللّه مما أفاء اللّه على المؤمنين، فتجور وتظلم. واحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه اللّه عليك. وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط اللّه لك، اقترفت إيمانا ورضوانا. وإن غلبك عليه الهوى ومالت بك شهوة، اقترفت سخط اللّه. وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة.. .. فان عملت بالذي وعظتك، وانتهيت إلى الذي أمرتك، أخذت به نصيبا وافرا، وحظا وافيا، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك، يكن ذلك بك انتقاصا، ورأيك فيه مدخولا، لأن الأهواء مشتركة، ورأس كل خطيئة إبليس وهو الداعي إلى الهلكة.. .. ثم اركب الحق وخض إليه الغمرات، وكن واعظاً لنفسك، وأنشدك اللّه لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضربهم فيذلوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، ولا تحرمهم عطاياها عند محلها.. فتفقرهم.. ولا تجعل المال دولة (متداولا) بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم.. هذه وصيتي إياك، وأشهد اللّه عليك، وأقرأ عليك السلام».

فصاح أحد الحاشية المقربين يلوم الرجل الذي قرأ الوصية، ويتهمه بأنه يعرض بأمير المؤمنين معاوية!

وتساءل آخرون: «كيف يسمح معاوية لرجل كهذا بأن يغلظ له كل هذه الغلظة! فما قراءة وصية عمر إلى الخليفة من بعده؟».

فاستند معاوية على يسراه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه، وهو يتأمل الرجل قائلا له مستهينا به: «يا هناه!» (كلمة تنكير) فقالوا له: «يا أمير المؤمنين أتحلم عن هذا!» فقال: «إني لا احول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا!».

الملك إذن هو كل ما يعنيه!.

الملك لا الخلافة!.

وبعد قليل قال: «رحم اللّه أبا بكر، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، أما نحن فتمرغنا فيها! واللّه إنه لملك آتانا اللّه إياه!»

وبعد أن سكت قليلا قال: «دعوني أتأمل في عهد عليٍّ للأشتر: «فما قرأت علما أجمع منه ولا أغزر ولا أحكم، ولا أشد إلماما بالآداب والقضايا والأحكام والسياسة».

وأخذ يقرأ عهد عليٍّ للأشتر، الذي وضع فيه الإمام دستور الحكم في الإسلام.

الفصل الثامن

إمام المتقين.. ورجل العصر!

كان هذا هو عهد الإمام للأشتر.

وهو أطول عهد كتبه خليفة إلى أحد عماله، وهو أجمعها للمحاسن، وأكثرها علما، وهو دستور للحكم، وناموس للتعامل، ونبراس يهتدي به الراعي والرعية على السواء.

ولقد عز على الإمام أن تصير مصر وأهلها إلى ما صارت إليه!. إذ أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف فيها وفيهم كيف يشاء!..

وكان الإمام يحب مصر ويؤثر أهلها، فهو لا ينسى أنهم أصهار الرسول وأنه أوصى بهم: «استوصوا بالقبط خيراً» والقبط هم المصريون..

وهذا هو عهد الإمام أو كتاب الإمام للأشتر.. وهو حري بأن يكون وثيقة سياسية دستورية، تضبط موازين الأمور، لو أنها طبقت في عصرنا هذا المضطرب المتمزق المتوتر بالمتناقضات، وهو مهما يكن من أمر، تبيان للمبادىء الشرعية في سياسة أمور الدولة.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى اللّه، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسنته، التي لا يسعد أحد إلا باتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر اللّه سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فانه جل اسمه، قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات (يمنعها من الجموح)، فان النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم اللّه.

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري اللّه لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك، فان الشح بالنفس الانصاف فيما أحببت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل (أي يسبق الخطأ)، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ (أي تأتي السيئات على أيديهم) فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك اللّه من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك، واللّه فوق من ولاك! وقد استكفاك أمرهم (طلب اللّه منك رعاية مصالحهم)، وابتلاك بهم، ولا تنصبن نفسك لحرب اللّه (حرب اللّه أي مخالفة شريعته)، فانه لا يد لك بنقمته (لا طاقة لك)، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمن على عفو، ولا تفرحن بعقوبة... وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك اللّه فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فان ذلك يطامن (يخفف) إليك من جماحك (جموحك)، ويكف عنك من غربك (حدتك)، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

وإياك ومساماة (المباراة في السمو) الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال».

وبعد أن يضع الإمام هذه القواعد الصارمة السامية لما يجب أن يكون عليه سلوك الحاكم الصالح، وما ينبغي أن يتصف به من ورع وأدب وتقوى، وخشية لله تمنحه الشجاعة، ورحمة بالناس تسلك به طريق العدل، وقدرة على أن يستميل إليه قلوب الرعية ليصلحوا بمودته.. بعد هذا كله يضع الأمام قواعد واضحة وحدودا بينة للعدل والحيدة، فيقول: «أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك، فانك إلا تفعل تظلم! ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض (أبطل) حجته وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فان الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية، فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة (أي يذهب به)، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة».

وهذا المبدأ وضعه الإمام مستنبطا مبادىء الإسلام، وهو مبدأ أساسه احترام رأي الأغلبية، وجعل رضا الأغلبية أساس الحكم..

ثم يستمر الإمام في إرساء هذا المبدأ وتبيانه: «وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأفضل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف (الإلحاح)، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع (جمع) المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم».

من أجل موقفه هذا من الخاصة والعامة، أحبه العامة وارتضوه

إماما وهاديا مهديا، وأنكره معظم الخاصة، وكرهه أقوام منهم، حتى لقد حاربوه وتمنوا قتله، وفروا من دينه إلى دنيا معاوية، الذي أحسن استمالة أهواء معظم الخاصة، فأشبع الأطماع، وأرضى الأهواء!!

ثم يمضي الإمام فيضع ناموسا خلقيا للتعامل بين الوالي والمحكومين، متحريا تحقيق مصالح الأمة التي هي كل مقاصد الشريعة وأهدافها.

يستطرد الإمام فيقول: «وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم (أبغضهم) عندك أطلبهم لمعائب الناس، فان في الناس عيوبا الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فانما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت، يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر (عداوة) وتغاب (تظاهر بالغباء) عن كل ما لا يصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فان الساعي غاش (الساعي بالوقيعة أو النميمة) وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور، فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله».

وبعد أن يوضح الإمام هذه الأصول من مكارم الأخلاق التي لا تقوم السياسة الشرعية إلا بها.. بعد هذا يمضي الإمام في شرح أصول أخرى للسياسة الشرعية فيكتب في عهده لمالك الأشتر، مستخلصا حكمة التعامل من تجارب الحياة فضلا عن مبادىء الإسلام: «إن شر وزارتك من كان للأشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأثمة (جمع آثم)، وإخوان الظلمة، وأنت واجدٌ منهم خير الخلف ممن لهم مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم

(ذنوبهم) وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه، ولا آثما على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفا، وأقل لغيرك إلفا، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك (مرارة الحق صعوبته على نفس الحاكم) وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا من هواك حيث وقع. وألصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على ألا يطروك (عودهم على ألا يمدحوك) أو يفرحوك بباطل لم تفعله، فان كثرة الإطراء تحدث الزهو.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة! وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه (من شكر أو عقاب) واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن الظن راع برعيته من إحسانه إليهم (لأن الإحسان يقودهم إلى الطاعة) وتخفيفه المؤونات عنهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم (أي عندهم). فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فان حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك (صنعك) عنده، وإن أحقَ من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الالفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تُحْيِيَن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك لما نقضت منها.

وأكثر ممارسة العلماء، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك».

ثم يخلص الإمام من هذا إلى تقسيم الرعية إلى طبقات، ويحدد صفات وماهية كل طبقة، وحاجاتها، وما يجب على الحاكم الصالح لها، وما يجب عليها، ويوضح حتمية التكافل الاجتماعي: «واعلم أن

الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنود الله، ومنها كتّاب العامة والخاصة (الكتاب هم الموظفون والمستخدمون بلغة عصرنا) ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأصحاب الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكلٌّ قد سمى الله له سهمه (أعطى نصيبه من الحق)، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه - ﷺ - عهدا منه عندنا محفوظاً».

ويمضي الإمام فيفصل الطبقات ومهامها: «فالجنود، بإذن الله، حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقرون به على جهاد العدو (أي الرواتب والمكافآت ونحوها)، ويعتمدون عليهم فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم.

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال (الولاة) والكتاب، لما يحكمون به من المعاقد (العقود وما شابهها) ويجمعون من المنافع (من حفظ الأمن والجباية وتصريف الناس في المنافع العامة وما شابه ذلك) ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق (الانتفاع) بأيديهم ما لا يبلغه غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم (مساعدتهم) ومعونتهم. وفي الله لكل(منهم) سعة. ولكلٍّ على الوالي حق بقدر ما يصلحه.

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه اللّه من ذلك بالاهتمام والاستعانة باللّه، وتوطين النفس على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل».

ويشرح الإمام أسلوب التعامل مع كل هذه الطبقات: «فول من جنودك أنصحهم في نفسه للّه ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبا (أطهرهم) وأفضلهم حلما: ممن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء (يعلو عليهم ويشتد ليحمي منهم الضعفاء) وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف. . . ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الولدان من ولدهما، ولا يتفاقمن من نفسك شيء قويتهم به (لا تعد شيئاً قويتهم به أعظم مما يستحقونه)، ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها، فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به، وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه.

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته (أي ساعدهم بمعونته لهم)، وأفضل عليهم من جِدَتِهِ (أي جاد عليهم من غناه)، مما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم (مما يكفيهم ويكفي أهليهم الذين يخلفونهم وراءهم حين يخرجون للحرب)، حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو، فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم (أي حفظهم وصيانتهم). . . فافسح في امالهم وواصل حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع، وتحرض الناكل إن شاء اللّه.

ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى، ولا تُضيفنّ بلاء امرىء إلى

غيره ولا تقصِّرنَّ به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً.

واردد إلى اللّه ورسوله ما يضلعك من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال اللّه تعالى لقوم أحب إرشادهم: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى اللّه والرسول﴾** فالرد إلى اللّه الأخذ بحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة «وهي ما اتفق الرواة على نسبتها للرسول ولم يختلفوا على صحة هذه النسبة».

ثم انتقل للكلام عن القضاة بعد أن انتهى من الكلام عن الجند فكتب:

«ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تُمْحِكُه (تغضبه وزنا ومعنى) الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء لا يضيق من الرجوع) إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه (أي يجب مراجعة الأحكام وتصويب أخطائها) ما يزيل عنه هموم العيش، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، وانظر في ذلك نظراً بليغاً، فان هذا الدين قد كان أسيرا في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا!»

وينتقل كتاب الإمام بعد ذلك إلى سائر الطبقات.

«ثم انظر في أمور عمالك (العمال: الولاة) فاستعملهم اختبارا (أي ولهم الأعمال بالامتحان)، ولا تولهم محاباة وأثرة.. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة (أي الخطوة السابقة وهم المسلمون الأوائل)، فانهم أكرم أخلاقا، وأصح أعراضا، وأقل في المطامع إشراقاً، وأبلغ في العواقب نظراً. ثم أسبغ عليهم الأرزاق (أغدق عليهم الرواتب الكبيرة) فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك (أي خانوها)، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون (الرقباء) من أهل الصدق والوفاء عليهم، فان تعاهدك في السر لأمورهم حَدْوة لهم (أي حث لهم، أي يحدوهم) على استعمال الأمانة والرفق بالرعية.

وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصابه من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله (الخراج هو ما يشبه الضرائب في أيامنا هذه)، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا».

ثم يمضي كتاب الإمام فيضع آداباً وسياسة لجباية الخراج، بقوله: «فان شكوا ثقلا (كثرة المفروض عليهم من الضريبة) أو علة أو انقطاع شرب (الماء الذي تشربه الأرض لتنبت وتثمر) أو إحالة أرض (فساد البذر فيها) اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو

أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به إليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وفرحك باستفاضة العدل فيهم.... فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طَيِّبَةً أنفسهم به فان العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها وإنما يُعْوِز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع (جمع المال أثناء ولايتهم)، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر».

ثم يتحدث الإمام بعد ذلك عن الكتَّاب.

والكتَّاب في عصر الإمام هم أفراد الجهاز الإداري للدولة .. وكان أمير المؤمنين يريد أن ينشىء جهازاً جديداً للإدارة في مصر، بدل الجهاز الذي أنشأه عمر حين دوّن له الدواوين عقيل بن أبي طالب، إذ كان الخليفة عمر قد اضطر إلى قبول النظم الإدارية القائمة في البلاد المفتوحة، وهي نظم أنشأها الرومان والفرس والمصريون القدماء. وكانت لغات البلاد المفتوحة لا اللغة العربية هي اللغات الرسمية في الدواوين!

وقد تحرى الإمام ألا تجتمع سلطات إدارية واسعة في يد واحدة، بل وزع السلطات الإدارية بين المسؤولين. كل وما يتقنه.

كتب الإمام:

«ثم انظر في حال كتّابك، فولِّ على أمورك خيرهم... ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك (السكون والثقة) وحسن الظن منك، فان الرجال يتعرضون لفراسات الولاة، بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم في العامة أثرا، وأعرفهم بالأمانة وجها، فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهرها كبيرها، ولا يتشتت عليها

كثيرها، ومهما يكن في كتابك من عيب، فتغابيت عنه، ألزمته (أي لزمك فكان عيبك).

ويتحدث عهد الإمام للأشتر بعد ذلك عن طبقة أخرى من طبقات الأمة وهي التجار.

«ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا: المقيم منهم والمضطرب بماله (الذي يتنقل بماله بين البلاد)، والمترفق ببدنه (المرافق هي المنافع)، فانهم مواد المنافع، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك.... وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم - مع ذلك - أن في كثير منهم ضيقاً (عسر المعاملة) فاحشا، وشحا قبيحا، واحتكارا للمنافع، وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة. فامتنع من الإحتكار فإن رسول اللّهﷺ، منع منه، وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل، واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع (المشتري)، فمن قارف حكرة (احتكارا) بعد نهيك إياه فنكل به، وعاقبه في غير إسراف».

وينتهي الإمام في حديثه عن طبقات الأمة إلى الطبقة الفقيرة، فيوصي بها، ويأمر بحسن معاملتها، ورعاية كرامتها:

«ثم اللّه اللّه في الطبقة السفلى، الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزَّمنى (أصحاب العاهات أو الأمراض المزمنة التي تمنعهم من العمل والكسب)، فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا (القانع: السائل. المعتر: المتعرض للعطاء بلا سؤال). واحفظ اللّه ما استحفظك (ما طلب منك حفظه) من حقه فيهم، واجعل لهم قسما من بيت مالك، وقسما من غلات صوافي الإسلام (من ثمرات أرض الغنيمة) في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر (طغيان النعمة) فانك لا تعذر..

فلا تشخص همك عنهم (لا تصرف همك)، ولا تصعر خدك لهم (لا تتكبر عليهم)، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال. ففرغ لأولئك ثقتك (أي خصص للبحث عنهم رجالا تثق فيهم ليتعرفوا على أحوالهم) من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالاعذار إلى الله (أي بما يكون لك عذر عنده تعالى) يوم تلقاه، فان هؤلاء من بين الرعية أحوج للإنصاف من غيرهم، وكل (منهم) فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن (كبار السن) ممن لا حيلة لهم، وممن لا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم».

ثم يتحدث عن واجبات الحاكم:

«واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه بشخصك. وتجلس لهم مجلسا عاما. فتتواضع فيه للذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك (أي تأمر الحرس والشرطة والأعوان ألا يتعرضوا لذوي الحاجات) حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع (متردد ومتلعثم)، فاني سمعت رسول الله ﷺ - يقول في غير موطن: لن تقدس أمة (أي لا يطهر الله أمة) لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع. ثم احتمل الخرق (العنف وزنا ومعنى) والعي، ونح عنهم الضيق والأنف (الإستكبار)، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها: منها إجابة عمالك بما يعيا (يعجز) عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك (فالموظفون المصريون يحبون المماطلة وتضيق صدورهم بسرعة قضاء الحاجات!)، وامض لكل يوم عمله، فان لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت. وإن كانت كلها لله إذا صلحت النية، وسلمت منها الرعية.

. . . وليكن في خاصة ما تخلص به للّه دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط اللّه من بدنك في ليلك ونهارك، ووف ما تقربت إلى اللّه من ذلك. . وإذا أقمت الصلاة فلا تكونن منفراً ولا مضيعا فان في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول اللّه ـ ﷺ ـ حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي!. فقال: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيما».

ويمضي عهد الإمام للأشتر فيوصي بألا يحتجب عن الرعية، وهي وصية تعوَّد الإمام أن يوصي بها كل من استعمله. . وقد ذكرناها آنفا أكثر من مرة.

ثم يسترسل ناصحا:

«ثم ان للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال (بمنعهم من التدخل في شؤون الحكم). .
. . والزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة ذلك محمودة (إحقاق الحق وإن كان ثقيلا فهو محمود العاقبة)

وإن ظنت الرعية فيك حيفاً (ظلما) فأصْحر (اظهر لهم) لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك (بظهورك)، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك (تعويضا لها على العدل)، وإعذارا (تقديم العذر وإظهاره) تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق».

ثم يمضي فيقدم منهجا للسياسة الشرعية الخارجية:

«ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك للّه فيه رضا، فان في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمنا لبلادك. ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فان العدو ربما قارب ليتغفل (يستغفل) فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن. وإن عقدت بينك وبين عدوك

عقدة (معاهدة) أو ألبسته منك ذمة (عهدا) فحط (احفظ) عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنَّةً (وقاية. أي حافظ على ما أعطيت من العهد بحياتك)، فانه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود. فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسنّ بعهدك (لا تنقضه)، ولا تختل عدوك (تخدعه)، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره (أي يفرغون ويهرعون إليه)... ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته».

ثم يمضي في نصح الحاكم:

«إياك وسفك الدماء بغير حق، فإنه ليس شيء أدنى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام: فان ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود (قصاص).... وإياك والاعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء فان ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيّد (إظهار الزيادة عن الواقع) فيما وقع من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فان المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى: **﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**.

ثم يمضي عهد الإمام للأشتر فيوضح مبادىء الأخلاق والسلوك والعدالة التي يجب أن يتحلى بها الحاكم، ويتعامل مع الرعية على أساسها:

«إياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التساقط فيها عند إمكانها (التساقط: الإسترخاء والتهاون)، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت (لم يعرف توجه الصواب فيها)، أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل أمر موقعه.

وإياك والإستئثار بما الناس فيه أسوة (متساوون)، والتغابي عما تعني به مما وضح للعيون، فانه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم!

املك حمية أنفك (املك نفسك عند الغضب)، وسورة حدك (حدة بأسك)، وسطوة يدك، وغرب (حدة) لسانك، واحترس من ذلك بكف البادرة (ما يبدر من اللسان عند الغضب)، وتأخير السطوة، حتى يسكن غضبك فتملك الأختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك (سبقك) من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، أو فريضة في كتاب الله،فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرُّع نفسك إلى هواها. وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه (يريد العدل فهو عذر لك عند من قضيت عليه، وعذر عند الله فيمن وقَّعت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة)، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة (أي مضاعفتها)،

وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا إليه راجعون. والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليما كثيرا، والسلام».

لما قرأ معاوية هذا الكتاب وسمعه خاصته وتناقلوه ونقلوه إلى غيرهم. اهتز يقين عدد منهم بدعوى معاوية، فمالوا إلى عليّ..!

وكان قد استثار بعض الناس على معاوية ما سمعوه عما جرى لمحمد بن أبي بكر، فقد استبشع هؤلاء قتله على هذا النحو الوحشي.. فلما سمعوا أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تدعو على معاوية وعمرو في كل صلاة، نفروا من معاوية..

ونفّرهم من معاوية ما وجدوه من بذخ هو السفه بعينه، وما شاهدوه في دمشق من صور الترف المستبد، وإلى جواره غير بعيد صور من الفقر المدقع تثير الأسى والإشفاق والإحساس بالمهانة والعار!.

وشعر بعضهم أنهم قد تحولوا في دنيا معاوية إلى أثرياء حقا.. ولكنهم فقدوا سمو الروح، ولم يعودوا إلا كائنات تأكل وتشرب كالسوائم، وتتمرغ في الملذات كالبهائم!

ثم أنهم ليؤولون القرآن، ويحرفون آيات القصاص عن مواضعها، وهم يعلمون!! فما قضى الله بأن يقتص أهل القتيل من القاتل حين أنزل الآية ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**﴾. بل أراد أن يقوم بالأمر ولي الأمر، لكي يحقن الدماء، وتحيا أنفس كانت حرية بأن تراق دماؤها إن ترك أمر القصاص لأهل القتلى!!

ثم أن الذين لم يفرغوا قلوبهم من التقوى، وجدوا أنهم سيتحملون مع معاوية وعمرو إثم الشقاق الذي صرف الإمام عليا عن نشر الإسلام، وشغله بالفتن الداخلية.. هذا الخلاف الذي أزهق أكثر من مائة ألف من مهج المسلمين المجاهدين!!

وهكذا انتفض الذين فروا بدنياهم إلى معاوية، ليندموا ويتوبوا، ويفروا بدينهم إلى علي.

وجاؤوا إليه أرتالا.. فأخذ معاوية يستثير العصبية الجاهلية في القبائل..

ولكن الإمام رأى أن يكتب لآخر مرة إلى معاوية عسى أن يتوب، وعسى أن يعظه ما تسبب في سفكه من دماء المسلمين، وعسى أن يدخل فيما دخلت فيه جماعة المسلمين!

فكتب: «يا معاوية أرديت جبلا من الناس كثيراً (أي أهلكت صنفا) خدعتهم بغيك (ضلالك)، وألقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم (بعدوا عما كانوا يقصدونه وكان بعضهم قد انحاز لمعاوية متوهما أنه يطالب بقتلة عثمان حقا!) ونكصوا على أعقابهم، وتولوا على أدبارهم، وعولوا على أحسابهم (تعصبوا لقبائلهم تعصب الجاهلية الأولى)، إلا من فاء من أهل البصائر فانهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إليَّ من موازرتك (مناصرتك)، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد! فاتق اللّه يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك، فان الدنيا منقطعة عنك، والآخرة قريبة منك».

وذهب الإمام إلى المسجد الجامع يعظ الناس، ويعلمهم كما تعود منذ كان في المدينة في الأيام الرائعة الذاهبة.

وسمع همهمة تبرم منهم، وأحس أن النعرة القبلية التي أثارها معاوية وحشد الناس باسمها، قد بدأت تتسلل إلى أعماقهم لتثير فيهم حمية الجاهلية.. فاذا هم يضيقون بمساواتهم بالموالي أهل البلاد المفتوحة: مصر وبلاد الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية.

لقد حسب الإمام أن الإسلام طهَّر المسلمين من هذه العصبية

الجاهلية وهذه النعرة القبلية. ولكن معاوية كان يدس إلى أهل العراق من يثير فيهم العصبية الجاهلية..! فهذه القبيلة خير من تلك، فهي إذن أولى بالرعاية!! والعرب جميعاً هم مادة الإسلام، فهم خير إذن من أهل البلاد المفتوحة، فهم أولى بالرعاية من الموالي(!!) ويجب أن يمتازوا في العطاء.. وخاصة الناس خير من العامة، فيجب أن ينالوا نصيبا أكبر!!

وكان معاوية قد رسم خطتين لتمزيق رجال علي: الأولى قائمة على الدهاء والخديعة، وهي إثارة العصبية فيما بينهم فلا يجتمعون، ثم استمالة رؤوسهم بالإغداق عليهم..!

أمّا الخطة الثانية فهي إرهابهم، وضرب من يستعصي عليه حتى تصبح حياته وحياة أولاده أهم عليه من علي وإمامته.. وحتى من دينه!!

وأحس عليٌّ بأن بعض رجاله قد استثارهم أنهم ـ هم أشراف العرب ـ يتساوون في العطاء بالموالي من أهل البلاد المفتوحة، وبالعامة من قبائلهم..!

وإذ أحس أمير المؤمنين باشتعال العصبية والتعصب والنعرات الجاهلية، وإذ أحس بالأطماع تشرئب من أعماق بعض الذين أنقذهم صلاحهم من التورط، وقف يخطب الناس فقال: «الحمد للّه الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده.

ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب:

﴿أني خالق بشراً من طين. فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس..﴾، اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله، فعدو

اللّه هو (إمام المتعصبين وسلف المتكبرين الذي وضع أساس العصبية. . . . فاحذروا عباد اللّه أن يعديكم بدائه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله. فلعمرى لقد فوَّق لكم سهم الوعيد (فوق السهم يفوقه أعده للرمي)، ورماكم من مكان قريب، وقال: **﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾** (سورة الحجر آية ٣٩). . . صدقه أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم (الشاردون المتأثرون بالروح القبلية)، واستحكمت الطماعية منه فيكم فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف (تقدم) بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل (جمع ولجة وهي الملجأ)، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخان الجراحة (يقتل بعضكم بعضا). . . . فأطفؤوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من شطرات الشيطان ونخواته، ونزعاته ونفثاته. . . فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس اللّه وصولاته ووقائعه ومثلاته، واستعيذوا باللّه من لواقح الكبر، كما تستعيذونه من طوارق الدهر، واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم! فاذا تفكرتم في تفاوت حالتهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم، من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتّحاضّ عليها والتواصي بها. واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم (بكسر الفاء فقرة الظهر)، وأوهن منّتهم (قوتهم)، من تضاغن القلوب وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي. . . . . فان اللّه سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل يمن وأجل من كل

خطر. . . . ألا فالحذار الحذار من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم، فانهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء (انتساب) الجاهلية، فاتقوا اللّه. . . ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، اتخذهم إبليس مطايا وجندا يصول بهم على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم. . .»

ولكن رشوة معاوية للناس كانت أبلغ تأثيرا فيهم من بلاغة الإمام، وورعه، وتقواه. . !

لقد تغير الزمان. . اللّه أكبر، صدق رسول اللّهﷺ يا علي. .

وسجد علي للّه حين تذكر تحذير الرسول للأمة. . قال عليه الصلاة والسلام إنه لا يخشى عليها الفقر، ولكن الغنى، وما يصنعه الغنى ببعض الرجال!. .

وصدق أبو بكر رضي اللّه عنه حين نصح خليفته عمر أن يحذر هذا النفر من صحابة رسول اللّه الذي اشرأبت أعناقهم إلى الدنيا بعد أن فتح اللّه عليهم بلادا واسعة الغنى. . وصدق حين لامهم على مظاهر الترف آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة. .

ورحم اللّه عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، فقد منع هؤلاء من مغادرة المدينة إلا للجهاد في سبيل اللّه، وألزمهم جميعاً أن يقيموا في عاصمة الدولة يستشيرهم، ولا تغيب عنه تصرفاتهم. . !

لكم تغير الزمن منذ عهد الرسول وعهد الشيخين يا علي!! أين ذلك العصر الورع المشوب بالرهبة من خشية اللّه، المضيء بالفداء والتكافل، والمنافسة في البذل وبالرحمة!

أين ذلك الزمن الذي كانت التقوى فيه هي زينة الرجال والنساء،

من هذا الزمن الذي يتباهى فيه الرجال والنساء بالثراء.. حتى العلماء والفقهاء!

لكل زمان دولة ورجال!! من أجل ذلك كان رجال الزمن الرائع الذاهب أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة وابن عوف وطلحة والزبير وعمار وأبو ذر وسعيد بن زيد وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم من شرفاء المهاجرين والأنصار.. أما رجال هذا الزمن.. فمن هم؟! ـ معاوية، وعمرو، وجنودهما!!

كيف تغير هذان الرجلان، ولهما في تلك الأيام الرائعة الغابرة بلاء عظيم وجهاد في سبيل الله.. كيف تغير عمرو بن العاص أحد فاتحي الشام وفاتح مصر! كيف انحاز إلى باطل معاوية، وهو يعرف أنه على الباطل!

ألأن معاوية حذره منذ أول يوم بويع فيه لك يا علي، وأعلنت أنك ستسترد إلى بيت المال، كل ما أخذ بغير حق من مال وضياع ومتاع، حتى لو كانوا قد تزوجوا به النساء، واشتروا به الإماء!

أليس من أجل ذلك أرسل معاوية إلى عمرو: «يا عمرو ما كنت صانعا فاصنع إذا قشرك ابن أبي طالب من كل ما تملكه كما تقشر من العصا لحاها» لكم أضلهم الحرص على الأموال والضياع والمتاع!!

من أجل ذلك نصبوا قميص عثمان على منبر جامع دمشق، واختفوا وراءه بما يحركهم من حرص على الغنى وأحلام في الثراء وأطماع في الجاه والملك!

من أجل ذلك استغل معاوية في رؤوساء القبائل نعرات أطفأها الإسلام وأيقظ فيهم ما أنامته الحكمة وتقوى الله من عصبية الجاهلية الأولى!

وإذن فكيف المرجع يا علي؟! «كيف المرجع، ولقد أصبحت في

زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيسا (ذكاء وعقلا)، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة مالهم؟! قاتلهم الله!»

أسفاه يا علي!! فقد يرى الرجل الحكيم الورع التقي «وجه الحيلة رأي العين، ودونه مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها بعد القدرة عليها» وينتهزها من لا تحرج له في الدين، ولا ورع له!..

وهكذا استطاع معاوية أن يصطنع لنفسه ولأهدافه الملكية كل أهل الشام.. كلهم جميعا إلا قليلا ممن غلبهم ورعهم على إغراءات معاوية... وأهل الشام كما قال عنهم معاوية لا يعرفون فضل أحد في الإسلام، فهم حديثو عهد بالاسلام!! ولا يعرفون لشيء فضلا إلا العطاء!!

ولكم يغدق عليهم معاوية!.

ثم أن معاوية ليصطنع لنفسه كثيرين من رؤساء القبائل العربية: يثير فيهم العصبية القبلية، والنعرات المتعصبة، ثم يغدق عليهم ويجزل لهم من العطاء بغير حق أضعاف ما يعطيهم علي بحق!

علي يأخذهم بصرامة الحق، بما تحتمه سياسة إمام الدين، ومعاوية يجتذبهم بالرشوة بما تقتضيه حيلة رجل العصر الذي رأى أن يسبح على موجة العصر، وأن يروي الأطماع التي استنبتها العصر في أعماق الرجال والنساء..!!

علي لا يسكت على عوج أو خطأ يراه، بل يبادر فيقومه ويصلحه.. أما معاوية فيسترضي الناس بكل ما يرضيهم، ولا يجعل له على أحد سلطانا ما دام لا ينازعه الملك، ولا يحول بين أحد وبين ما يقول أو يعمل ما دام هذا لا يحول بينه وبين الملك..

فما من شيء يعنيه أول الأمر وآخر الأمر غير الملك!!

وإنه ليصرح بهذا في كل أقواله وأفعاله حتى لقد يبلغ الأمر حد

الإهانة، فيحولها إلى دعابة، ويصطنع الحلم، ويمارسه حتى ليشتهر به!.

تراهن جماعة من أهل الشام خليعا منهم على أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول: «سبحان اللّه ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هندا!».. ففعل الرجل السفيه ذلك، فلما انتهى معاوية من صلاته قال للرجل: «يا أخا العرب. إن أبا سفيان كان محتاجاً إلى ذلك منها، فخذ ما جعلوه رهاناً لك!»..

كان اهتمام معاوية بالعرب، وبرؤساء القبائل العربية بصفة خاصة، أما الإمام فكان اهتمامه بكل المسلمين، ولم يكن اهتمامه بأهل الذمة أقل من اهتمامه بالمسلمين.. وكان يسوي في العطاء بين الخاصة والعامة.. بين الرؤساء والمرؤوسين في القبائل العربية، وبين العرب وأهل البلاد المفتوحة المعروفين بالموالي! على الرغم من أن بعض العرب يستنكف أن يسوى بالموالي!!

ولكم نصحه ثقاته: «يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال، وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب ومن قريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس!!».

ولكم رد عليهم بالكلام نفسه: «إن المال مال اللّه، ويجب أن يقسم بالسوية». إنه من أجل إقامة العدل قبل الخلافة.. فان لم يقم العدل، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، ويدفع الباطل ويحمي حوض الشريعة وينشر مكارم الأخلاق، ويجعلها أساساً للتعامل بين الناس، فلماذا قبل البيعة؟!

دخل عليه عبداللّه بن عباس فوجده يخصف نعله بنفسه.. فلما حدثه في أمر شدته على نفسه وعلى الناس قال أمير المؤمنين: «إن الخلافة أهون عليَّ من النعل إن لم أقم بها العدل والحق، وأدفع الباطل!»

وعلي ليس كمعاوية: فقد ربته الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين، ومحمد سيد الخلق أجمعين.. أما معاوية فرباه أبو سفيان، وهند بنت عتبة!! وما أبعد ما تنتجه تربية سيد الخلق وسيدة نساء العالمين، مما تنتجه تربية رأس الكفر وآكلة الأكباد.. بعد ما بين السماء والأرض!

إنه ليس كمعاوية: فقد كرم اللّه وجهه منذ كان صبيا فلم يسجد لوثن أو صنم، وقد تربى على الفداء، فنام في فراش رسول اللّه حين تآمر عليه كفار قريش ليقتلوه، مفتديا الرسول بحياته!!

فما من خصلة من خصال علي إلا ناقضتها خصلة من خصال معاوية!

رأى الإمام عليٌّ الناس من حوله يتواكلون، وذهب بعضهم إلى أن كل شيء مقدر، فما جدوى خروجهم إذن لحرب معاوية وأهل الشام، واللّه غالب على أمره! فإن كان قد قدر للإمام أن يظل أميراً للمؤمنين فسيخزي معاوية، وإن كان قد قدر لمعاوية أن يصبح هو الخليفة والملك، فلا راد لقضاء اللّه!!

وفزع الإمام مما يسمع.. من أين جاؤوا بهذه الأفكار! وكيف يفهمون الإسلام!

وجلس بين الناس يعظهم فقال: «كان رسول اللّهﷺ: ذات يوم جالسا وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: ما منكم من نفس إلا وقد علم اللّه منزلها من الجنة والنار، فقالوا: يا رسول اللّه فلم نعمل! أفلا نتكل؟! قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له. ثم تلا قوله تعالى: **﴿فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى﴾**.

وظل الإمام يعلمهم أن اللّه يحاسب كل إنسان بعمله، ولو أن اللّه قهر كل إنسان على ما يعمله وأجبره عليه، لما جاز له سبحانه أن

يحاسب الناس، ولما كان هناك ثواب ولا عقاب، ولأصبح المحسن كالمسيء، والبر كالفاجر!!

وفي الحق أن الإمام كان لا يحب أن يخوض الناس فيما لا يعلمون، وكان يؤثر لهم أن يتمسكوا بتعاليم دينهم في كل أمور حياتهم اليومية.. ولقد جعل من نفسه قدوة.

زاره رجل من أصحابه فطلب الطعام، ولم يكن أمير المؤمنين موجودا فأخرج إليه أبناؤه قصعة فيها مرق بحبوب. فقال: «تطعمون هذا وأنتم أمراء الناس!» قالوا: «كيف لو رأيت طعام أمير المؤمنين!».

وكان أمير المؤمنين يأتي السوق كل يوم يصنع ما تعود أن يصنعه: يعين الحمال على حمولته، ويرشد الضال، ويعظ التجار.. وينصح من يجده في السوق ممن يلون أمرا من أمور المسلمين (أي الموظفين والمستخدمين) ألا يقبلوا الهدايا من أهل السوق، ولا من أحد من الرعية، ويحتج بالحديث الشريف: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا (راتبا)، فأخذ أكثر من رزقه فهو غلول(رشوة)».

وكان يرى تناول الطعام عند أحد من الرعية نوعا من الرشوة، إن لم يكن الداعي والمدعو صديقين.. وقد دعاه صاحب له عزيز عليه إلى الطعام فقال ضاحكا: «سآتيك على ألا تتكلف ما ليس عندك ولا تدخر عنا ما عندك، فشر الإخوان ما تكلف له» فضحك صاحبه وقال: صدقت يا أمير المؤمنين.

ثم روى الإمام لبعض عماله وقضاته وهو يبتسم: «إن عمر بن الخطاب حكى له، أن رجلا أهدى له رجل جزور (جمل أو ناقة)، ثم جاء يخاصم إليه بعد ذلك فجعل يقول: يا أمير المؤمنين افصل بيننا كما تفصل رجل الجزور! ثم قال عمر لعلي: «فوالله ما زال يكررها ويكررها عليَّ حتى كدت أقضي له! فاقض أنت أمره يا أبا الحسن!»..

وأضاف علي يعظ الناس أن عمر بن الخطاب رحمة الله عليه، مع منزلته في الإسلام، وشدته وصلابته في الحق، ومكانه من الدين، قد عرض له ما عرض في رجل جزور أهديت إليه، مع قلتها وخساستها، فكيف بمن لا يدانيه في شيء من أشيائه، ولا يقاربه في فضله ودينه، وقد قبل هدية مهدٍ من رعيته أو غير رعيته، جليلا خطرها، عظيما في قلبه موقعها، خاصم إليه خصما له، فما تراه فاعلا..!

وخطب التجار في السوق فقال ما تعود أن يقوله لهم: «قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر فيه إلا إقبالا، ولا الشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، فهذا زمان قويت عدته (عدة الشيطان)، وعمت مكيدته، وأمكنت (سهلت) فريسته. اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدل نعمة اللّه كفرا، أو متمردا كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقرا! أين خياركم وصلحاؤكم! وأحراركم وسمحاؤكم! وأين المتورعون في مكاسبهم! والمتنزهون في مذاهبهم! أليسوا قد ظعنوا (رحلوا) جميعاً عن هذه الدنيا الدنية والعاجلة المنغصة!! وهل خلقتم إلا في حثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان استصغارا لشأنهم، وذهابا عن ذكرهم؟ فإنا للّه وإنا إليه راجعون! ظهر الفساد فلا منكر متغير، ولا زاجر مزدجر! أفبهذا تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده؟! هيهات! لا يخدع اللّه عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته. لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به.

ألا وإن أفحش الظلم ظلم الحاكم للمحكوم، والقوي للضعيف، والمحتكر للعامة! يا معشر التجار ألا إن التجار هم الفجار إلا من اتقى ربه وصدق، وبر، ووصل، وأدى الأمانة، والتاجر الصدوق مع النبيين والشهداء».

فما كان يمل من تكرار هذه الموعظة على التجار.

وذات يوم أقبل يتحدث مع التجار، فلاحظ أن فيهم عددا من الموالي (غير العرب)، وكانت الكوفة هي ملتقى التجار بين الشرق والغرب، فيها بضائع الأرض ومعارفها جميعا. ولاحظ أن الموالي الذين يتعلمون العربية يلحنون فيها، وكان هذا اللحن يستملح من الإماء، أما الرجال فلحنهم معرة. ولقد أوشكوا أن يفسدوا اللغة!

واعتزم الإمام أن يأمر بوضع علم النحو لصيانة اللسان العربي.

ولقد كان الإمام يحض الناس على التعلم، ويقول في السوق وفي الطريق وفي المسجد وحيثما تجمع له الناس: «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الأزمان» وكان يحض التجار على تعلم الحساب..

وقد تعود أن ينصح بقوله: «العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.. هلك خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر: أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

وكان يقول متحسراً: «لو أن حملة العلم حملوه بحقه، لأحبهم اللّه وأهل طاعته من خلقه، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم اللّه وهانوا على الناس!».

وقال: «إذا مات المؤمن العالم، ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى يوم القيامة»

وكان يكرر: «يا طالب العلم، إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وفائدته العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه

الرضاء، وجيشه محاورة العلماء، وماله الأدب، وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأواه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه محبة الأخيار، والعلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم!.. العلم تحفة في المجالس وصاحب في السفر، وأنس في الغربة».

وكان ينصح هواة الطعام بأن يقتصدوا ويعظهم بقوله: «كثرة الطعام تميت القلب، كما تميت كثرة الماء الزرع».

ذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى بيته، فوجد على ابنته لؤلؤة من بيت المال كان قد عرفها. فسأل: «من أين لها هذه اللؤلؤة! للّه عليّ أن أقطع يدها!» فوثب إليه خازن بيت المال فقال له: «أنا واللّه يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي ـ واليوم عيد ـ على أن تردها، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم تعطها!» فوبخه، وحذره أن يعود لمثلها، ثم قال: «يا بنت ابن أبي طالب لا تذهبي بنفسك عن الحق! أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في العيد بمثل هذا!».

واعتذر خازن بيت المال، ورآه الإمام يرتعد من الخوف، فقال يهون عليه: «إنني لأرفع نفسي عن أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكثر من حلمي، وعورة لا يواريها ستري، أو إساءة أكثر من إحساني».

وإن الإمام لفي داره إذ جاءه كتاب من معاوية، وشاع الخبر بين الناس. فتوافوا على الإمام، فقد حسب الناس أن معاوية تاب وأناب.

ولكن الكتاب كان فيه مسائل لم يعرفها معاوية، ولا أحد من أهل الفتيا الذين معه عرفها، فأرسل معاوية إلى الإمام علي يسأله عنها!

من ذلك أن رجلا خطب إلى رجل آخر ابنته من امرأته الحرة، فزوجه ابنته من الأمة، فلما اكتشف الزوج الحقيقة بعد الدخول شكا إلى معاوية فسأل من حوله فقالوا: «إنما هي امرأة بامرأة». فلم يطمئن الرجل

إلى صحة هذا الرأي، وطلب أن يسألوا علي بن أبي طالب.

فرد عليهم الإمام: يجلد الأب لتدليسه وافترائه، وعليه أن يجهز الأخرى (بنت الحرة) من ماله، أما بنت الجارية فطالق، ولكنه لا يقرب أختها حتى تنقضي عدتها كيلا يجمع بين الأختين!..

ومنها أن رجلين تنازعا في ثوب فأقام أحدهما البينة، وقال الآخر: «اشتريته من رجل لا أعرفه». فلم يعرف معاوية ولا من معه ما حكم المسألة، فقضى الإمام لمن ادعى وأقام البينة.

ومنها أن رجلا قال له بنو عمه وهم أيضاً بنو عم امرأته: «إن امرأتك لا تحبك فان أحببت أن تعلم ذلك فخيرها: فقال لها اختاري، قالت: «ويحك اخترت ولست بخياري»، وكررتها ثلاث مرات. فقالوا له: «حرمت عليك».

ولم يقضِ معاوية ومن معه بحكم، حتى قضى الإمام بأنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره!

وقد غضب بعض أصحاب الإمام لأنه يجيب معاوية في أمور الدين ويهديه إلى الصواب، فقال: «أما يكفيكم أنه احتاج إلينا وسألنا! الحمد للّه الذي جعل عدونا يسألنا عما نزل في أمور ديننا» ثم أمرهم بأن يخلصوا في المشورة إذا ائتمنهم عدوهم واستشارهم!

وقام الإمام يكتب أوامره كما تعود لمن يستعمله على الصدقات: «انطلق على تقوى اللّه وحده لا شريك له، ولا تروِّعنّ مسلما، ولا تجتازن عليه كارها، ولا تأخذن منه أكثر من حق اللّه في ماله، فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم.. ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج (تبخل) بالتحية لهم، ثم تقول: «عباد اللّه، أرسلني إليكم ولي اللّه وخليفته لآخذ منكم حق اللّه في أموالكم، فهل للّه في أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه! فان قال قائل: لا! فلا تراجعه. وإن أنعم لك منعم (قال نعم)، فانطلق معه من غير أن

تخفيه أو توعده أو تعسفه (ترهقه)! فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فان كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فان أكثرها له، فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها، ولا تسوءن صاحبها فيها. ثم اصدع المال صدعين (اقسمه نصفين) ثم خيره، فاذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله، فاقبض حق الله منه، فان استقالك فأقله (إن طلب الإعفاء من هذه القسمة فأعفه منها)، ثم أخلطهما، ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق الله في ماله. . . ولا تعمل بشيء من طاعة الله فيما تظهر، وتخالف إلى غيره فيما تسر! فمن لم يختلف سره وعلانيته، وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة. وآمرك بتقوى الله في سرائر أمرك، وخفيات عملك، حيث لا شاهد غيره سبحانه، ولا وكيل دونه.

وآمرك ألا ترغب عن الناس تفضلا بالإمارة عليهم، وألا تجبههم، ولا تعضهم (أي تضرب جباههم وتؤذيهم) فإنهم الإخوان في الدين، والأعوان على استخراج الحقوق. وإن لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا، وحقا معلوما، وإن لك شركاء أهل مسكنة، وضعفاء ذوي فاقة، وإنا موفوك حقك فوق حقوقهم، وإلا فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة، وبؤسا لمن خصمه عندالله الفقراء، والمساكين، والسائلون، والغارم، وابن السبيل! ومن استهان بالأمانة ورتع في الخيانة، ولم ينزه نفسه ودينه عنها، فقد أحل بنفسه في الدنيا الذل والخزي، وهو في الآخرة أذل وأخزى، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغش غش الأئمة».

وكان هذا دستورا للجباة، وهم بلغة عصرنا مأمورو الضرائب، فمن حاد عنه أخذه الإمام بالشدة، وحمله على الطريق الصواب، وهداه إلى المحجة.

خلا الإمام إلى نفسه يفكر في كل ما مر به.. وطالما خلا إلى نفسه ففكر وتدبر واعتبر!!

وتذكر الإمام بعض ما تعلمه عن كتب الهند والفرس واليونان.. وتذكر ما قاله كسرى أنو شروان ملك الفرس الغابر قال: «إنما أفحص عن الأعمال لا السرائر، وأحكم الأجساد لا القلوب، وأحكم بالعدل لا بالرضا».

ثم تذكر نصيحة ملك فارس لولي عهده: «لا توسعن على عمالك توسعة يستغنون بها عنك فيطغوا، ولا تضيقن عليهم ضيقا يضجون به منك!».

صدق رسول الله.. علمنا أن نطلب العلم حيث وجدناه ولو في الصين وهي أقصى الأرض، وعلمنا أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها...! وتذكر الإمام مثلاً جاء في كتب الهند، فابتسم.. ودخل عليه بعض أصحابه، وما كانوا ليتركوه يخلو إلى نفسه، فثمة هموم ومشاغل أو مشاكل أو مسائل!

فلما سألوه أي شيء طاف بخاطر أمير المؤمنين فأضحكه.. قال: «حكاية من كتب الهند أو الفرس!!» ثم استطرد يحكي الحكاية: «أثوار ثلاثة كن في أجمة، أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهن عليه. فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فان لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة! فقالا له: دونك فكله. فأكله. فلما مضت أيام، قال للأحمر: لوني على لونك فدعني آكل الأسود، لتصفو لنا الأجمة! فقال: دونك فكله! فأكله.. ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة! فقال دعني أنادي ثلاثا، فقال: افعل. فنادى: إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض!».

وفهم الناس ما يعني الإمام بهذا المثل، فلو أنه نهض بالمهاجرين

والأنصار فقاوموا المتطرفين من القراء يوم اتهموا عثمان بالكفر، لما غلب الثوار أهل المدينة على أمرهم فقتلوا عثمان!. ولو أنه قمع هؤلاء المتطرفين بعد أن بويع، لما أفسدوا عليه أمر صفين وقهروه على التحكيم، ثم أفسدوا عليه أمر الأمة إذ اتهموه بالكفر لأنه قبل التحكيم، ثم انطلقوا يحكمون بالكفر على من يخالفهم وعلى من لم ينخلع من طاعة علي!

ووجد أصحاب الإمام أن المقام مقام اعتبار وعلم وموعظة، فسأله أحدهم عن صفة المؤمن، فقال الإمام: «المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدرا، وأذل شيء نفسا، يكره الرفعة، ويشنأ (يبغض) السمعة، طويل غمه، بعيد همه، كثير صمته، مشغول وقته، شكور صبور، سهل الخليقة لين العريكة».

فسأله أحد الجهلاء سؤالا غير واضح، وفيه عنت، عن معضلة مبهمة!.

فقال الإمام ناصحا: «اسأل تفقها ولا تسأل تعنتا، فان الجاهل المتعلم أشبه بالعالم، وإن العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت!»

فتجهم الرجل فقال الإمام له ضاحكا: «من لان عوده كثفت أغصانه!»

فعاد صاحبه الذي سأله عن صفة المؤمن يسأله: «ما أفضل الإيمان يا أمير المؤمنين» فهش له الإمام وأقبل عليه قائلا: « قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: «إن أفضل الإيمان أن تعلم أن اللّه معك حيث كنت» ولاحت من الإمام نظرة عطف حانية أبوية على صاحبه الذي يسأله عن المؤمن والإيمان، فضاق الرجل الجاهل الذي سأل الإمام متعنتا بمكانة صاحبه الآخر عند أمير المؤمنين!

وأدرك الإمام ما ينطوي عليه هذا الجاهل من حسد، فقد وشت به نظراته، فقال الإمام ناصحاً مشفقاً: «ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من

الحاسد، نفس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم. مغتاظ على من لا ذنب له، نحيل بما لا يملك!».

وشرد الإمام قليلا، فأدرك بعض أصحابه ما يعانيه من تخاذل جنوده بعد أن استولى معاوية على مصر، وقتل محمد بن أبي بكر والأشتر، ونفرا من شيعة الإمام ثم سرح سرايا ترشو الخوارج، وتغير بهم على أطراف البلاد، وتقتل الأبرياء لأنهم في طاعة علي، لم يحكموا بكفره!

فوثب بعض أصحاب الإمام فقالوا: «يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم» فقال ساخرا: «ما تكفوني أنفسكم فكيف تكفوني غيركم! إن كانت الرعايا قبل لتشكو حيف رعاتها، فانني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأني المقود، وهم القادة!!»

وسكت أصحابه، ولكنه ابتسم في مرارة، وظل يفحص وجوههم، فوجد أحدهم متجهما فسأله عما به، فعلم أنه خرج من بيته مغاضبا بعد أن أغلظ لأهله، فذكره الإمام بالحديث الشريف: «خيركم خيركم لأهله».

فذم الرجل النساء جميعا، زاعما أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وأن النساء ناقصات عقل ودين! فحذرهم الإمام من النعرة الجاهلية، أيام كانوا يكرهون الإناث ويفضلون الذكور، وحين كانت المولودة توأد.. ثم ذكرهم بمكانة فاطمة الزهراء عند أبيها سيد المرسلين، ويحب الرسول لبناته.. وقال: «آمركم بالنهي عن المنكر، والإحسان إلى نسائكم» فلما جادله أحدهم قال: «انصروا المظلوم، وخذوا فوق يد الظالم المريب، وأحسنوا إلى نسائكم».

وحاول الرجل الجاهل أن يقول في حدة ما يناقضه به، فقال له الإمام: «لا تجعلن ذرب لسانك على من أنطقك، وبلاغة قولك على من

يسددك!. وليس جزاء من عظم شأنك أن تضع من قدره، ولا جزاء من سرك أن تسوءه!».

وتشعب حديث أصحاب الإمام، فتحدث أحدهم بنوع من الإعجاب عن مكر معاوية ودهائه، فقال الإمام: «والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس! ولكن كل غدرة فجرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما أستغفل بالمكيدة، ولا أستغمز (أستضعف) بالشديدة».

ولاحظ أحد أصحابه أنه يلبس قميصا جديدا ولكنه يضع عليه رداء قديما فسأله في ذلك، فقال الإمام ضاحكا: «إنما ألبس هذا الرداء ليكون أبعد لي عن الزهو والكبر».

وكان الإمام على الرغم من خشونة ملبسه نظيف الثوب، طيب الرائحة.. فقد كان يحب الرائحة الطيبة، ويرغب فيها.. وكان إذا رأى رجلا يدخل المسجد في ثياب قذرة، أو له رائحة منكرة، زجره، فليس هذا من النسك، فالنظافة من الإيمان، وقد قال تعالى: **﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾**.

وسأله بعض أصحابه: «ما تقول في أبي بكر وعمر!».

وعجب الإمام لهم!! ما جدوى هذا الآن، ومعاوية يهاجم أطراف البلاد وجنده يقتلون وينهبون!

أما زال هناك من يريد أن يسمع قول الإمام في أبي بكر وعمر! لكم قال!! وقال: «إن الله اجتبى لرسوله من المسلمين أعوانا أيده الله بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام. فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة (أبو بكر) وخليفة الخليفة (عمر)

ولعمري إن مكانهما من الإسلام لعظيم، وإن المصاب بهما لجرح

في الإسلام شديد، رحمهما الله وجزاهما أحسن ما عملا».. وكم قال في عمر: «أقام السنة، وذهب نقي الثوب، قليل العيب، أصاب خيرها، أدى إلى الله طاعته، واتقاه بحقه».

وطال الصمت، فعادوا يسألون الإمام: «ما تقول في أبي بكر وعمر!» وكان السؤال يعني حق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في تولي الخلافة قبله! فقال لائما منكرا غاضبا مؤنبا: «أهذا ما أهمكم! وقد تفرغتم لهذا، وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي قد قتلت!»

ثم ناشدهم أن يحرضوا أصحابهم على الخروج لمعاوية، فسكتوا فقال:

«أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم... هيهات أن أطلع بكم سرار العدل (سرار: الظلمة، يعني الظلمة التي غشيت العدل) أو أقيم بكم اعوجاج الحق! اللهم إنك تعلم أن لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحكام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك».

جاء عليا فيء كثير ملأ بيت المال مرة بعد مرة، ثم مرة ثالثة، فقام فوزعه بالسوية بين المسلمين كما تعود، وأخذ هو نصيبه كواحد منهم.. ثم جاءه مال آخر كثير من أصبهان فخطب الناس فقال: «اغدوا إلى عطاء رابع، فوالله ما أنا لكم بخازن» وبعد أن وزع الأموال كنس بيت المال وصلى فيه.. كما تعود.. ثم تمدد على أرضه، فأغفى..

فجاءه من يخبره أن معاوية أرسل جيشا يغزو البصرة، وأنه رشا بعض كبارها، وأنه استثار العصبية الجاهلية في رؤسائها وبصفة خاصة رؤساء بني تميم، فقد جاء ابن الحضرمي على رأس جند كثيف، فاتجه

إلى بني تميم وسائر أشراف البصرة، فقرأ ابن الحضرمي كتاب معاوية إلى أهل البصرة يعدهم فيه إن هم بايعوه وخلعوا بيعة علي أن يعطهيم عطاءين لاعطاء واحدا في السنة!!.. فاعتزل بعض شيوخ البصرة إذ شعروا بالمهانة من هذا العرض بالرشوة، وعلى رأسهم حكيمهم الأحنف.. ومال بعضهم إلى معاوية فقال لابن الحضرمي: «لننصرنك بأيدينا وألسنتنا».

وازدرى بعضهم هذا الأسلوب المهين، فأزرى بمبعوث معاوية وقال له: «والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذي جئتنا به لنجاهدك بأسيافنا ورماحنا، ولا يغرنك هذا الذي يتكلم فما هو بشيء!»

وقال رجل حر آخر: «لبئس ما جئتنا به، وما تدعونا إليه أنت ومعاوية!! أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير: أتيانا وقد بايعنا عليا واستقامت أمورنا، فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا أعناق بعض ونحن الآن مجتمعون على بيعة علي، وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء، أفتأمرنا أن ننتضي أسيافنا ويضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا!»

وانقسم أهل البصرة، فمنهم من انحاز إلى مبعوث معاوية ابن الحضرمي ومنهم من قاتله.. وكان عبدالله بن عباس أمير البصرة عند علي بالكوفة حينئذ، ولهذا انتهز معاوية فرصة غيابه، وأرسل حملته الكثيفة ليستولي على البصرة!

غير أن الأتقياء وأحرار الضمائر من أهل البصرة، رفضوا أن ينكثوا ببيعة علي.

ولما كان معاوية قد حاول أن يثير عصبية بني تميم فقد أرسل علي جيشا بقيادة أحد رؤسائهم وهو جارية، فهزم جارية جند الشام بقيادة ابن الحضرمي، وفر ابن الحضرمي إلى قصر حصين أمامه خندق عميق مليء

بالماء، فاحتمى به، ومعه ابن حازم، فأمرته أمه ـ وهي امرأة حبشية ـ أن ينزل من القصر، فأبى ابن حازم فقالت تهدده: «لتنزلن أو لأنزعن ثيابي!» وبدأت تنزع ثيابها، فأسرع بالنزول ونجا!!

أما ابن الحضرمي، فقد ظل ممتنعا بالقصر، ودونه الخندق العميق المليء بالماء، ولكن جارية عبر برجاله هذا الخندق، فأحرق القصر على من فيه، وهلك ابن الحضرمي ومعه سبعون رجلا، ما بين حريق وغريق!!

وهدأ معاوية عن علي قليلا!

ولكنه حرض بعض الخوارج الذين لم يشهدوا النهروان.. كان يعرف أن الخوارج يتهمونه كما يتهمون عليا بالكفر، ولكنه استطاع أن يخدعهم.. وتوافق النقضيان ضد علي!!

وخرج هؤلاء المتطرفون يعربدون على الناس بأن مرتكب الكبيرة كافر، وأفتوا بتكفير كل من كان في طاعة علي، وكل من رفض أن يجاريهم في اتهامهم عليا بالكفر.. فأرسل إليهم أمير المؤمنين ناصحا: «إن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله بضلالي! وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب. وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء ونكحا (تزوجا) المسلمات. فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله! ثم أنتم شر الناس من رمى بهم الشيطان مراميه، وضرب بهم تيهه (سلك في بادية ضلاله)... وسيهلك فيَّ صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط

يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس فيَّ حالاً النمط الأوسط، فالزموه والزموا السواد الأعظم، فان يد اللّه مع الجماعة، وإياكم والفرقة. فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب! ألا من دعا إلى هذا الشعار (الخروج على الجماعة) فاقتلوه ولو كانت تحت عمامتي هذه».

له اللّه هذا الإمام فيما يلقاه! وإن الخوارج ليكفرونه إذ بآخرين يؤلهونه!!

وأرسل الإمام إلى من يؤلهونه من يردهم إلى الهدى، ولكنهم أبوا، وغالوا في تأليهه.. وفروا وتفرقوا فلم يدركهم أحد من أصحاب الإمام!!

ثم أرسل حملة يقودها أحد أصحابه إلى الذين يكفرونه، فهزموها، وقتلوا صاحب الإمام، فأرسل إليهم حملة أخرى كثيفة فهزمتهم.. وكان ذلك في رجب سنة ثمان وثلاثين.

وصعد الإمام المنبر ليشكو للناس خروج هؤلاء الخوارج الجدد وقال لهم: «لا تقتلوا الحوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأصابه» (يعني معاوية).

ثم أبدى الإمام ندمه لأنه لم يأخذ الخوارج بالشدة والحسم أول الأمر حين قهروه بمساعدة الأشعث بن قيس على الكف عن القتال في صفين ليقبل التحكيم، ثم قادهم الأشعث بعد ذلك ليقهروه مرة أخرى على قبول أبي موسى حكما، عصبية جاهلية من الأشعث لأنه يماني مثله، ثم ندموا بعد ذلك لأنهم قبلوا التحكيم، فاتهموا عليا بالكفر لأنه خضع لهم!!

فاعترضه الأشعث وقال: « يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك!»

الأشعث أيضاً..!!

فخفض الإمام بصره وهو على المنبر.. وانفجر بكل ضيقه مما يصنعه الأشعث منذ صفين وقال: «ما يدريك ما عليّ مما لي! عليك لعنة اللّه ولعنة اللاعنين!.. منافق ابن كافر (وكان هذا الأشعث من عليّ كابن سلول من رسول اللّه كل منهما رأس النفاق)، واللّه لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى (وكان الأشعث قد ارتد أيام أبي بكر فلجأ إلى حصن أثناء حروب الردة، فلما حوصر طلب أن يسلم المسلمين الحصن إذا أمنوه هو وعشرة من أقاربه، فأمنوه فأخذوه أسيراً هو وأقاربه العشرة فعفا عنهم أبو بكر لأنهم رجعوا إلى الإسلام. أما سائر من كان في الحصن من قومه فقد قتلوا جميعا فكان الأشعث يعير بهذا). فما فداك في واحدة منهما (يعني الأسر مرتين) مالك ولا حسبك.. وإنّ امرءا دل على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، أحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد!»

عاد معاوية يرسل حملات على بلاد متفرقة من أرض خلافة علي..

ليت معاوية وله بلاء سابق في الجهاد، وليت عمرو بن العاص وله سوابق مشهودة في الفتح، ليتهما جمعا دهاءهما ورجالهما إلى رجال علي وذكائه وعلمه وورعه وتقواه وحكمته وفضله وشجاعته، وما يعمر قلبه وقلوب الصالحين من رجاله من حب الاستشهاد في سبيل اللّه!! ليت كل أولئك اجتمعوا وتوجهوا تحت راية الإسلام بقيادة علي إلى الفتح والجهاد ونشر الإسلام، إذن لأشرقت شمس هذا الدين على العالم كله، ولأصبحت البشرية كلها أمة واحدة مسلمة!!

ولكن الذي كان يشغل معاوية وأصحابه هو إسقاط علي بما يمثله علي وبكل ما ينادي به، لتبقى تحت أيديهم الأموال الطائلة والضياع الشاسعة، وليتمتعوا بزينة الحياة وطيباتها وملذاتها، فيتخموا، وإن التمس آخرون أقواتهم في مزابل أقوام أغنياء!

ما كان يشغل معاوية وعمرو وجنودهما إلا الملك!!

من أجل ذلك بكى عمرو أحر بكاء، وندم أشد الندم على ما فرط منه عندما أحس بدنو الأجل!!

على أن الإمام حاول أن يتيح للأمة فرصة تلتقط فيها أنفاسها، لتستأنف الجهاد في سبيل اللّه، فلعلها إن اتجهت لنشر دين اللّه، تاب وأناب قوم توابون، وجاء نصر اللّه والفتح!

أرسل علي صاحبه المجاهد الجسور الحارث بن مرة العبدي إلى بلاد السند، في خيل عظيمة، وانضم إليه الكثير من المقاتلين، حتى من الذين تكاسلوا عن الخروج لحرب أهل الشام!! ذلك أنهم رأوا في فتح السند جهادا أعظم في سبيل اللّه، فخرجوا بتلك الروح المتوقدة المقدسة التي كانت تلهب عزائم الصحابة المجاهدين الأوائل في المغازي والفتوحات الكبرى، أيام الرسول والخلفاء الثلاثة الراشدين من بعده!..

خرج هؤلاء المجاهدون بقيادة الحارث بن مرة العبدي ليضيئوا بنور الإسلام بلادا تلفها ظلمات الجهالة والشرك والجور، وإنهم لعلى يقين أن لهم إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة!

وانتصر رجال عليٍّ انتصارا رائعا في بلاد السند، وغنموا أموالا طائلة، وقسم الحارث بن مرة العبدي قائد الجيش في يوم واحد ألفا من السبايا..!

وكانت أرض السند من أخصب الأراضي وأكثفها سكانا، فأجرى فيها الإمام الحكم الذي أجراه عمر على الأرض المفتوحة.. وهو الحكم الذي اتفق عليه عمر وعلي وعثمان في عهد عمر وأقنعوا به بقية المهاجرين، وأيدهم الأنصار أن تبقى الأرض في يد زارعيها من أهل البلاد المفتوحة، وأن يؤدوا عنها خراجا لبيت المال، ليسد حاجات

الأمة وينفق منه أمير المؤمنين على المصالح العامة جميعا.. وهذا هو الإنفاق في سبيل الله.

وكان علي قد أمر قائد جيشه الحارث بن مرة العبدي أن يعرض الإسلام على أهل البلاد التي فتحها، وأن يشرح لهم مبادىء الدين الجديد وأن يبين لهم ما يحققه الدين للانسانية من كرامة وحرية ومساواة وحقوق.. فلا مفاضلة بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، والعمل الصالح!!

فدخل في الإسلام كثير من أهل السند، ودفع الآخرون جزية ضخمة.

إن عليا ليعلم علم اليقين أن سكان العالم جميعا يتطلعون إلى الإسلام منقذا لهم من غائلة الاستعباد والهوان، ومن ليل الشرك الداجي الظلمات!! ولو بلغهم الإسلام، لدخلوا في دين الله أفواجا..

ولكن كيف السبيل! ألا تتقي الله يا معاوية أنت وعمرو!

لكم دعا الإمام أن يهدي الله معاوية وعمرو بن العاص وجنودهما فيدخلوا في الطاعة، وينطلقوا جميعا تحت راية الإسلام، والأخوة الإسلامية شرقا حتى الصين، وغربا حتى بحر الظلمات، فينشروا الإسلام في كل بلاد يحيا عليها بشر، ويحرروا الإنسانية المشوقة إلى الحرية والعدل والنور والإخاء، ويجعلوا كلمة الله هي العليا، فيصبح الإسلام وقد عمر قلوب الناس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ليكون العالم كله أمة واحدة تشهد أن لا إله إلاالله وأن محمدا رسول الله، وتقيم حياتها على التراحم والتآخي ومكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام، وتصبح الإنسانية كلها أهل القبلة!!

يا للأحلام، ويا للأماني!!

فما كاد الإمام وأصحابه المتقون والمساكين، يفرحون بنصر الله

والفتح المبين في السند، حتى روعتهم أنباء تقطع نياط القلوب!

فبدلا من أن تتحد جيوش المسلمين لتنشر نور اللّه على أرض البشر، سلط معاوية بعض المسلمين ليسفكوا دماء إخوانهم المسلمين غدراً وعدوانا وبغيا..

بعث معاوية سراياه إلى أطراف بلاد علي، تنقض عليها، وتنتقضها وتقتل الآمنين، وتنهب الأموال:

فقد بعث النعمان بن بشير إلى عين التمر وهي بلدة قريبة من الأنبار قرب الكوفة، فاستولى عليها وقتل أهلها، ولما بلغ عليا الخبر حض الناس على الخروج لإنقاذ إخوانهم في عين التمر من بطش البغاة، فتثاقل الرجال!.. يا للرجال!

وشجع هذا التخاذل معاوية فبعث سفيان بن عوف وأمره أن يستولي على هيت (قرب الأنبار)، وأن يوقع بأهل الأنبار والمدائن، فلما أتى هيتا وجدها خاوية على عروشها فقد ولى أهلها منه فرارا ثم جاء جند معاوية الأنبار وكانوا ستة آلاف، فلم يجدوا من جند علي غير مائتين إذ كان قائدهم كميل قد خرج بثلاثمائة رجل ليدافع عن هيت حين علم أن أهل قرقيسيا يريدون الغارة عليها لحساب معاوية!! واستولى سفيان بن عوف قائد حملة معاوية على كل ما في الأنبار من أموال، حتى حلي النساء!! فقد نهب ما في بيت مالها، كما نهب أموال أهلها!

فلما علم الإمام حض جنوده للخروج لإنقاذ الأنبار، فتثاقلوا، ثم خرجوا متكارهين، فوصلوا إلى الأنبار حين بلغ سفيان بن عوف دمشق، فسر معاوية بما صنع وكافأه أحسن مكافأة!!

وبعث معاوية عبداللّه بن مسعدة إلى تيماء بين الشام ووادي القرى، وأمره أن يستولي على الصدقة التي يؤديها أهل البادية لبيت مال علي، وأن يقتل من امتنع!! فاستولى على الصدقات، وزحف حتى بلغ

مكة والمدينة فأرسل علي إليه جندا يقودهم المسيب بن نجبة الفزاري، فتقاتل الجندان، وانتهز الأعراب الفرصة فنهبوا إبل الصدقة التي كان جند معاوية قد نهبوها وفر جماعة من جند معاوية عائدين إلى الشام، وبقي قائدهم ابن مسعدة وعدد قليل منهم، فامتنعوا بأحد الحصون، فحاصرهم المسيب وجند علي وأوشكوا أن يحرقوا الحصن على من فيه، ولكنهم استعطفوه وبكوا وعلا نشيجهم، فرق لهم المسيب، وكانت تعمر قلبه الرحمة والمروءة كإمامه عليّ، فعفا عنهم، وخرجوا عائدين إلى الشام بعد أن عاهدوه على ألا يعودوا لمثلها..!

لو أن رجال معاوية صنعوا كما صنع المسيب، لكبت معاوية وخاب من حمل ظلما، ولحقنت دماء كثيرة!!

وأرسل إلى معاوية بعض المهاجرين والأنصار يعظونه وينصحون له بأن يكف عن بغيه، حقنا لدماء المسلمين!

ولكن معاوية كان قد صمم على ألا يسكت حتى يسقط عليا، ليصبح هو ملكا على الأمة الإسلامية كلها، مهما يكلف هذا المطلب أمة محمد من دماء!!

وأرسل معاوية الضحاك بن قيس وأمره بأن يسير إلى الطريق بين الكوفة ومكة فيقطع الطريق، ويغير على كل من يمر بهذا الطريق ممن يدين بالولاء لعلي، فيستولي على أمواله ويقتله!!

وهكذا قتل الضحاك وجنوده كثيراً من الأبرياء، واغتصب كثيراً من الأموال، ثم انحدر برجاله متجها إلى مكة يغير على الأعراب وأهل القرى، فان أقروا بالطاعة لعلي قتلهم ونهب أموالهم. فلما بلغ ذلك عليا أرسل إليه حجر بن عدى في أربعة آلاف مقاتل، فالتقيا واقتتلا حتى هبط الليل ففر الضحاك بن قيس بما نهب من أموال وأنعام ومتاع. ثم بعث معاوية يزيد بن شجرة إلى مكة، أميرا على الحج من قبله، وأمره

معاوية أن يأخذ البيعة من الناس في الموسم، فمن رفض البيعة فليقتله! . . واستنهض قثم بن العباس عامل عليٍّ على مكة أهل مكة فلم ينهض معه أحد!! فاتفق ويزيد مبعوث معاوية أن يتركا أمر الحج بالناس، لكيلا يقتتلا في الموسم عند المسجد الحرام!

فحج بالناس شيبة بن عثمان، فلما انقضى موسم الحج أرسل عليٌّ مددا لقثم، فيه أبو الطفيل ومعقل بن قيس، فاقتتل الجيشان، وانهزم ابن شجرة وفر جند معاوية، كما أسر حجر بن عدي كثيراً من رجال معاوية ففاداهم علي بأسراه عند معاوية!

ثم أرسل معاوية سرايا إلى دومة الجندل، وإلى نصيبين، فأنفد إليهم على صاحبه كميل بن زياد وهو في هيت، فسار إليهم، وأمده برجاله، فهزموا جند معاوية، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، وفر الآخرون عائدين إلى الشام، فغنم جند كميل ماشية كثيرة وخيلا ومتاعا، فأرسل إليه الإمام علي يأمرهم ألا يغنموا من أموال المنهزمين إلا ما قاتلوا عليه وبه، الخيل والسلاح فحسب!

وسار معاوية بنفسه حتى بلغ دجلة. . رجع دون أن يحارب! وتذكر بعض أصحابه ما دار بينه وبين عمرو ذات يوم من أيام صفين. قال له عمرو: «والله يا معاوية قد أعياني أن أعلم أشجاع أنت أم جبان! لأني أراك تتقدم حتى أقول: أراد القتال، ثم تتأخر حتى أقول: أراد الفرار» فقال معاوية: «والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما، كما قال الشاعر الجاهلي القطامي:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة ... فان لم تكن لي فرصة فجبان

فلما أسرف معاوية في الاغارة على بلاد علي، وأعمل فيها النهب والقتل جمع الإمام الناس، وحضهم على الجهاد فسكتوا مليا. . فقال لهم:

«أتخرسون أنتم!» فقام قوم منهم فقالوا: «يا أمير المؤمنين إن سرت معنا سرنا معك».

فقال:

«ما بالكم لا سددتم لرشد، ولا هديتم لقصد! أفي مثل هذا ينبغي أن أخرج؟! إنما يخرج في مثل هذا رجل ممن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم، ولا ينبغي أن أدع المصر، والجند، وبيت المال، وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين، والنظر في حقوق المطالبين، ثم أخرج في كتيبة أتبع أخرى أتقلقل تقلقل القدح (السهم قبل أن يلصق به الريش) في الجفير الفارغ! (الجفير: وعاء يوضع فيه السهم والسهم غير المراش يتقلقل في وعائه فالريش يمنع القلقلة). وإنما أنا قطب الرحى، تدور عليَّ وأنا بمكاني، فاذا فارقتها استحار (اضطرب) مدارها، واضطرب ثُفالها (ما يوضع بين الرحى والأرض ليسقط عليه الدقيق). هذا ـ لعمر اللّه ـ الرأي السوء!! واللّه لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو ـ لو قد حم لي لقاؤه ـ لقربت ركابي ثم شخصت عنكم، فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال. إنه لاغناء لي في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم. لقد حملتكم على الطريق الواضح التي لا يهلك عليها إلا هالك (المحتم هلاكه لفساده). من استقام فالى الجنة، ومن زل فالى النار والسلام.

وانتظر الإمام أن ينهضوا، ولكنهم ظلوا ساكتين، كأنهم خشب مسندة! فقال ساخرا: «ليتني صرفتكم برجال معاوية صرف الدينار بالدراهم: الواحد بعشرة!».

ثم قال وقد أدرك شدة حرصهم على الحياة، ومتاع الدنيا: «أحذركم الدنيا.. قد تزينت بغرورها، وغرت بزينتها، وهانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يصفِّها اللّه تعالى لأوليائه، ولم يضن بها على أعدائه، خيرها زهيد، وشرها عتيد (حاضر) وجمعها ينفد، وملكها يسلب، وعامرها

يخرب، فما خير دار تنقض نقض البناء. وعمر يفنى فيها فناء الزاد!..
.. إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتد حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا (غبطهم غيرهم) بما رزقوا.

قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال. فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة، وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر، وسوء الضمائر.. فلا تناصحون (تتناصحون)، ولا توادون (تتوادون)! ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تملكونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه! ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم وقلة صبركم عما زوى منها عنكم! كأنها دار مقام، وكأن متاعها باق عليكم!! وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا أن يستقبله بمثله قد تصافيتم على رفض الآجل، وحب العاجل.

وأعلن أمير المؤمنين آخر الأمر أنه سيسير بنفسه إلى قتال معاوية في معقله بالشام حماية لمهج المسلمين من بغيه..

وأرسل الإمام إلى أمرائه وعماله: «من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى من يمر به الجيش من جباة الخراج وعمال البلاد. أما بعد، فاني قد سيرت جنودا هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى، وصرف الشذى (الشر)، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش (أذاه، فهو بغير رضاه) إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا إلى شبعه، فنكلوا (عاقبوا من تناول منهم شيئا ـ ظلما ـ عن ظلمهم (جزاء ظلم بظلم)، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضاريهم والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم (أي في حالة الاضطرار) وأنا بين أظهر الجيش، فارفعوا إلي مظالمكم وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم، ومالا تطيقون رفعه إلا بالله وبي، فأنا أغيره بمعونة الله إن شاء الله».

وقبل أن يفرغ عليٌّ من تجهيز جيش صالح للزحف على الشام، وخلال تثاقل من أصحابه أسأمه، وتكاره منهم فجعه، جاءته أنباء مروعة عن مذابح في الحجاز واليمن لم يعرفها الإسلام من قبل!!

فرأى أن يصرف ما جمع من جند لدفع هذه الغاشية.. وجهز أربعة آلاف جندي لإنقاذ أهل الحجاز وأهل اليمن، من شر المذابح..

ذلك أن معاوية بعث إلى الحجاز واليمن جيشا كثيفا بقيادة بسر بن أرطأة، وهو فاتك، فاسق، شرير، غليظ القلب، شديد الفجور، بذيء العداء لآل البيت وللإمام علي... وبسر هذا بارز الإمام في صفين فلما أوقعه الإمام كشف عورته لينجو من سيف الإمام، كما فعل عمرو فانصرف عنه الإمام متقززا.. فهجاهما شاعر من الشام من جند معاوية بشعر فاحش!!

بلغ بسر بن أرطأة بجيشه الكثيف مدينة رسول اللّه، فقام أميرها أبو أيوب الأنصاري يحرض الناس على الخروج لحماية المدينة وأهلها من بطش الفاتك العربيد بسر بن أرطأة. فلما لم ينهض أحد مع أبي أيوب الأنصاري خرج إلى الكوفة يستنجد بعلي بنفسه، وأخبره أن بسر بن أرطأة قد توعد أهل المدينة إن لم يخلعوا طاعة علي، ويبايعوا لمعاوية، أن يقتل الرجال ويسبي النساء والذراري!! ما أبشع هذا، وأبعده عن أخلاق العرب حتى في الجاهلية!! لم تعرف العرب مثل هذا الهول في جاهلية ولا في إسلام..

وروع الإمام لهذا الصريخ، وأرسل حجر بن عدي على رأس الجيش الذي كان معدا للزحف على الشام.

وسيطر الذعر على أهل المدينة، ولم يستطع أحد منهم أن يفر فينجو برأسه ودينه، فقد أحكم بسر بن أرطأة حصار أبوابها لا يخرج أحد من رجالها قبل أن يخلع بيعة علي، ويبايع لمعاوية!!

وتناجى الناس: «إنها بيعة قهرا! بيعة ضلالة!»

ثم زحف بسر بن أرطأة بعد ذلك إلى مكة، وكان أبو موسى الأشعري معتزلا الناس، يتعبد في البيت الحرام، فخشي أبو موسى على نفسه، فهرب. فلما علم ذلك ابن أرطأة قال: «ما كنت لأطلب أبا موسى وقد خلع عليا!»

وكتب أبو موسى إلى قومه باليمن وكان عليٌّ قد استعمل عليها عبيدالله بن عباس، وهو من أسخى الناس يدا، وأرحمهم قلبا.

وزحف ابن أرطأة إلى اليمن، وفي طريقه إليها أثخن في الأرض، وقتل كل من رفض أن ينخلع من طاعة عليٍّ ويبايع لمعاوية ونهب أموالهم.

ووصلت أخباره إلى اليمن قبل أن يصلها، ولم يكن في اليمن من جند علي إلا مئات قليلة، فأرسل عبيدالله بن عباس إلى علي يطلب منه مددا فتثاقل الناس في الكوفة عن الخروج، فاضطر عبيدالله بن عباس أن يذهب إلى الكوفة ليعود بالمدد بنفسه، قبل أن يصل ابن أرطأة إلى اليمن.

ولكن الناس في الكوفة تكاسلوا عنه.. فلما دخل بسر بن أرطأة اليمن هدد أهلها بالقتل إن لم يبايعوا لمعاوية فرفضوا أن ينخلعوا من طاعة علي وأبوا أن يبايعوا لمعاوية، فأعمل فيهم ابن أرطأة القتل..

بدأ بقتل عبدالله بن عبد مدان الحارثي، الذي استخلفه عبيدالله بن عباس بدلا منه على اليمن..

ثم قتل مالك بن عبدالله بن عبد مدان.

وذهب إلى بيت عبيدالله بن عباس فلم يجد به أحدا، فأحرقه، وعلم أن امرأة عبيد الله وطفليهما في بادية بني كنانة.. فلما عرف

مكانهما ذهب إليهما فأخذ الطفلين وأراد ذبحهما فقال له صاحب البيت: إن كنت قاتلهما فاقتلني معهما !!

وقاتل الرجل حتى قتل، فأخذ بسر بن أرطأة الطفلين من أحضان أمهما فذبحهما أمامها وأمام نسوة بني كنانة، فقالت امرأة منهن: «ما هذا! قتلت الرجال فلم تقتل الولدان! والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام! والله إن سلطانا لا يقوم إلا بقتل الضعيف والصغير والشيخ الكبير، وبرفع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء!»

فقال لها بسر: «والله لقد هممت أن أضع فيكن السيف» فقالت: «والله إنها لأخت التي صنعت، وما أنا لها منك بآمنة» ثم قالت للنساء اللائي حولها: «ويحكن! تفرقن»!

وبعد أن فرغ ابن أرطأة من إبادة الرجال والولدان، سبى النساء المسلمات، وباعهن في الأسواق!! فكن أول مسلمات سبين في الإسلام!!.. كما كان رأس محمد بن أبي بكر أول رأس طيف به في الإسلام.. وكما كانت بيعة معاوية خليفة في عهد عليّ أول انقسام للدولة في الإسلام!!

وبكى الناس على الإسلام، فلم ير يوم أكثر باكيا وباكية من تلك الأيام السود!!

ومن خلال الدموع لاحت صورة أبي ذر الغفارى رحمه الله.

ها هو ذا يوم العورة الذي حذر منه أبو ذر قد حل!!

حقا ما كان أحد أصدق لهجة من أبي ذر، كما قال عنه الرسولﷺ.. ها هن النساء المسلمات يسبين ويبعن في أسواق الإماء!!!

قال رجلان ممن شهدا المأساة أنهما سمعا أبا ذر رضي الله عنه يدعو ويتعوذ في صلاة صلاها، طال قيامها وقعودها وركوعها: فسألناه:

مم تعوذت! وفيم دعوت! فقال: «تعوذت بالله من يوم البلاء أن يدركني، ويوم العورة أن أدركه» فقلنا: «وما ذلك! قال: «أما يوم البلاء فتلتقي فئتان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضا، وأما يوم العورة فان نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها! فدعوت الله ألا يدركني هذا الزمان» وبكى الناس!!

أما زوجة عبيدالله بن عباس، فقد ذهب عقلها بعد أن ذبح ابن أرطأة ولديها فدعا الإمام عليه: «اللهم اسلبه عقله».

فلما بلغ به الكبر فقد عقله، فكان يمسك بسيف من خشب ويطوف به ويضرب به الهواء، أو زقا منفوخا، والصبيان من حوله يتضاحكون، وطال به العمر في هذا الجنون..

لقد قتل بسر خلقا كثيرين من أنصار علي وشيعته من أهل الحجاز واليمن فكان في شيخوخته يصرخ فزعا إذ يتخيل أشباحهم تطارده، وبصفة خاصة طفلي عبيد الله بن عباس.. كانت نظراتهما تعذبه عذابا هائلا فيشعر في كل لحظة أنه يختنق، وظل يتدحرج في الطرقات، فيركله الصبيان!!

أرسل عليٌّ جيشا إلى بسر يقوده جارية بن قدامة الفارس الصنديد، وجيشا آخر يقوده وهب بن مسعود، ليطبقا عليه، ولكن بسر بن أرطأة قتل من قتل، ونهب ما نهب، وهرب إلى الشام عائدا بما نهب، حيث استقبله معاوية استقبال الغزاة الفاتحين، وكافأه أجزل مكافأة، وأثنى عليه أعظم الثناء!

وكان عبيد الله بن عباس حسن السمعة محبا للخير محسنا إلى الناس، فبكى الناس طفليه، وحنقوا على معاوية حنقاً شديداً، ولعنوه.. واستبشعوا صنيعه!! كيف يأمر ويرضى بهذه الأعمال الوحشية، التي لا تفعلها الوحوش نفسها!!

وعبيد اللّه بن عباس هو أول من وضع الموائد بالطعام على الطرق يأكل منها من يشاء..

وكانوا يقولون عنه: «إنه أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر.. وكان من أرق الناس قلبا.. ما سمع عن صاحب حاجة إلا انهمرت عيناه إشفاقا عليه، وحمل إليه كل ما يستطيع من مال، وإن استدان!».

ويروى عنه «أن سائلا اتاه وهو لا يعرفه فقال له: تصدق، فاني نبئت أن عبيد اللّه بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه» قال: «وأين أنا من عبيد اللّه» قال: «أين أنت منه في الحسب أم في كثرة المال؟» قال: «فيهما» قال السائل: « أما الحسب في الرجل فمروءته وفعله وإذا شئت فعلت، وإذا فعلت كنت حسيبا» فأعطاه عبيد اللّه ألف درهم واعتذر له عن ضيق الحال. فقال له السائل: «إن لم تكن عبيد اللّه ابن عباس فأنت خير منه. وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس» فأعطاه ألفا أخرى. فقال السائل: «هذه هزة كريم حسيب».

ويروى عن جوده أيضاً: أنه جاءه رجل من الأنصار.. وكان الأنصار أثيرين عند بني هاشم، وكانت فاطمة الزهراء رضي اللّه عنها تقول لهم: «أنتم حضنة الإسلام، وأعضاد الملة». فلما أتى الأنصاري عبيد اللّه قال له: «يا بن عم رسول اللّهﷺ، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك تبركا مني به، وأن أمه ماتت» فقال عبيد اللّه: «بارك اللّه لك في الهبة، وأجزل لك الأجر على المصيبة» ثم دعا بوكيله فقال له: «انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته» ثم قال للأنصاري: «عد إلينا بعد أيام فانك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة» قال الأنصاري: «لو سبقت حاتما بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدا، ولكنه سبقك فصرت له تاليا، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده، وطل كرمك أكثر من وابله».

حاول الإمام مرة أخرى أن يستنفر الناس ليزحف بهم إلى معاوية، فلا إنقاذ لحياة المسلمين وأموالهم إلا بهزيمة معاوية، وقهره على لزوم جماعة المسلمين.

ولكنهم تكاسلوا!

وجاءته الأنباء أن جندا لمعاوية عادوا إلى الأنبار فنهبوا أموالها حتى حلي النساء!! وانصرفوا آمنين، وبعد أن قتلوا، ونهبوا، وفتكوا، وفسقوا، لم يعرض لهم أحد!!

وها هو ذا الإمام يجلس وحده حزينا كئيبا، يتمنى لو أن الله أراحه من هؤلاء الناس الذين لم يعد العار نفسه يستنفر نخوتهم..!!

وإنه ليفكر فيما يصنع ليحرك هذه الهمم الميتة، وإنه ليدعو الله أن يقبضه إليه ليستريح، فقد ملهم وسئم عشرتهم، إذ برجل يسأله: «يا أمير المؤمنين أين كان ربنا قبل أن يخلق الأرض والسماء! فقال: «أين: توجب المكان وكان الله عز وجل ولا مكان» ولاحظ أحد أصحاب الإمام كآبة الإمام فنهر السائل، ولكن الإمام نصحه ألا يغلظ على الناس وقال له: «من لانت كلمته وجبت محبته».

وسأله أحد أصحابه: «صف لنا المرائي يا أمير المؤمنين» وسكت الإمام مليا.. لكم كان يعاني في أعماقه.. ثم قال: «للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص منه إذا لم يثن عليه!»

وتحلق حوله عدد من أصحابه ومن الموالي وسألوه أن يعظهم.. فتنهد، ومسح بيديه دمعة أسى على ما يحدث للاسلام والمسلمين.. ثم قال: «من حلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة، ومن أبصر عيب نفسه

عمي عن عيب غيره، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بئرا وقع فيها، ومن نسي زلته استعظم زلة غيره، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تجبر على الناس ذل، ومن تعمق في العمل مل، ومن صاحب الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه، ومن حسَّن كلامه كانت الهيبة أمامه، ومن خشي اللّه فاز، ومن استفاد الجهل ترك طريق العدل، ومن عرف أجله قصر أمله. . .»

وسكت قليلا شرد عقله يفكر في أمر معاوية وما يصنعه بالناس. . حتى العلماء! لكم يدمر من نفوس، ويخرب من ضمائر، ويسفك من دماء!!. .

وقال الإمام: «قال عيسى بن مريم عليه السلام: سيكون في آخر الزمان علماء يزهدون في الدنيا ولا يزهدون، ويرغبون في الآخرة ولا يرغبون، وينهون عن إتيان الولاة ولا ينتهون، ويقربون الأغنياء، ويبعدون الفقراء، ويتبسطون للكبراء، وينقبضون عن المساكين، أولئك إخوان الشياطين أعداء الرحمن. . » وما كان يعني الذين رشاهم معاوية فحسب، بل يعني المرتشين وأهل الأهواء من العلماء في كل زمان ومكان. . !!

ومضى عليٌّ إلى رؤساء الكوفة يستفز غيرتهم على الدماء والأعراض، فلم يجد إلا تثاقلا، وتبلدا، كأن القوم فقدوا نخوة الرجال!. . فهم أشباه رجال لا رجال!!.

وإذا بأنباء رهيبة تأتيه: إن معاوية بعث سفيان بن عوف من بني عامر، مرة أخرى إلى بلاد عليٍّ، فغزوا الأنبار، وقتلوا رجالها وانتهكوا نساءها، ونهبوا أموالها حتى حلي النساء! وخرجوا عائدين إلى معاوية،

لم يمسسهم سوء، ولم يصبهم قرح، ولا تعرض لهم رجل!.. هكذا تعود جند معاوية أن ينتهكوا الأنبار ويعودوا آمنين سالمين...!.

فخرج علي وحده مغاضباً يزفر أنفاسه الحرى ويجر رداءه إلى النخيلة خارج الكوفة، وهي المكان الذي اتخذه معسكرا لجنوده كلما جهزهم للجهاد!!.

لم يكن في النخيلة أحد من الجند، ولكن الناس تبعوا الإمام أسفين حيارى منكسي رؤوسهم تحت وطأة الندم والعار...

ووقف علي كرم الله وجهه على مرتفع صنعه بيده من الأحجار، وسيفه على حمائل من ليف، فمحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على رسوله وآله ثم قال:.

«أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه ثوب الذل، وشمله البلاء، ودُيِّثَ بالصغار والقماءة (لوّث وأصبح ديوثا لا غيرة له)، وضرب على قلبه بالإسهاب (والإسهاب هو ذهاب العقل وكثرة الكلام بلا جدوى). وأديل الحق منه، بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف (الإنصاف).

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان..

وهذا أخو غامد (عامل معاوية)، وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم من مسالحها (المسلحة: المعسكر) «معسكرها» وقتل رجالا ونساء كثيرين. وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة (ذات العهد: أي الذمية) وينتزع حجلها (خلخالها) وقلبها (أساورها) وقلائدها ورعاثها

(قرط)، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين وما نال رجل منهم كلم (جرح)، ولا أريق لهم دم!.

فلو أن امرءا مسلما مات بعد هذا أسفا، ما كان به ملوما، بل كان به عندي جديرا!.

فيا عجبا! عجبا والله يميت القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم على حقكم! فقبحا لكم وترحا (هما وحزنا) حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون!.

فاذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حمارة القيظ (شدة الحر) أمهلنا ينصرم عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القر (شدة البرد)، أمهلنا فينسلخ عنا البرد، فكل هذا فرارا من الحر والقر، فاذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر!.

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة ـ والله ـ جرت ندما وأعقبت سدما (غيظا)! فاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نغب التهمام (نغب جمع نغبة كجرعة لفظا ومعنى، والتهمام: الهم) أنفاسا، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاماً مني! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهأ أنذا قد ذرفت على الستين! ولكن لارأي لمن لا يطاع!».

الفصل التاسع

سلام عليه.. عليه السلام!.

أقبل العام الأربعون بعد الهجرة، والمسلمون في فزع شديد مما يصنعه جند معاوية بالرجال والأطفال والأموال!.

وفي الحق أن ما أحدثه جند معاوية كان صدعا في الإسلام ما ابتلي دين بمثله من قبل قط!.

لقد زلزل أركان الدين الجديد زلزالا عنيفا..!.

وقارن الناس بين ما يسفكه معاوية من دماء في طلب الملك، وبين ما يبذله علي من عناء في التماس جمع الشمل.. فأطلقوا ألسنتهم في معاوية...

لهذا نشط بعض المرتزقة من علماء معاوية يردون عليهم، فوضعوا أحاديث في فضل معاوية وفضل بني أمية، غير أن من الضمائر ما استيقظ في بلاط معاوية، فنصحه بعض أهل الفتيا بأن يكف أذاه عن المسلمين.. وقالوا له إنهم لا يجدون في القرآن آية يؤولونها أو يحرفونها عن موضعها ليحللوا له ذبح الأطفال، وقتل الرجال، وانتهاك النساء وسبي المسلمات، وهدم الدور على ساكنيها كما فعل بسر بن أرطأة في مدينة رسول اللّه، وفي اليمن، وكما صنع أخو غامد في الأنبار..! ولئن كانوا قد استطاعوا أن يؤولوا آيات القصاص والفيء، ويجدوا في تأويلها ما ينفع معاوية ويخدم أهدافه، إنهم ليعجزون عن الفتيا بصحة ما صنعه ابن أرطأة والغامدي، وما من إنسان واحد حتى

من الهمج يمكن أن يسكت عما يحدث!! وإن نفوسهم لتتقطع حسرات لما أصاب المسلمين وهم ينظرون، وإنهم ليخشون أن يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون على صمتهم عن قتل النفوس الزكية، وعن هذا الفساد العريض البشع في الأرض!!.

ونصح بعضهم معاوية أن يرفع السيف عن مهج المسلمين وحرماتهم!.

وأدرك معاوية أنه خسر كثيراً بما فعله جنوده، وأن عليا هو الرابح الوحيد، وإن الذين بايعوا له تحت تهديد السيف من أهل الحجاز واليمن لن يلبثوا حتى ينقضوا عليه إن تمكنوا منه! وأدرك أن هذه البيعة لا يعترف بصحتها أحد، لا الذين أعطوها مقهورين، ولا حتى المرتزقة من أهل الفتيا.. فهم آخر الأمر لا يستطيعون أن يذهبوا في الضلال والتضليل إلى هذا المدى كله، مهما يغدق عليهم ويملأ خزائنهم بالآلاف المؤلفة من الدراهم والدنانير.!.

وزعم أقوام أن معاوية ليس أفقه من علي بصناعة الإمارة على المسلمين، ولا هو بأدهى منه ولا بأوسع حيلة، ولكنه رجل العصر حقا!.. عصر كثرت فيه الثروات، وتوفرت الملذات، ورجاله يشرئبون إلى الغنى والمتاع والجاه، فما عرفوا كالسلف الصالح من الصحابة سعادة البذل في سبيل الآخرين، وما استمتعوا بالسمو الذي يثيره في القلب جهاد صادق في سبيل اللّه، ومحاماة أبية عن العدل والحق وكرامة الإنسان!!.

حقا.. حقا.. إن رجل هذا العصر هو معاوية، فهو وحده يخاطب الأطماع، ويشبعها، ويستنفر الأهواء فيرضيها، ملك قادر قاهر، لا يعف عن شيء يخدم به هدفه، حتى الغدر نفسه.. وحتى سفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات، وسبي النساء المسلمات!!.

أما علي كرم الله وجهه.. فوارحمتا لعلي! ولي الله القانت.. إمام الورع والتقوى.. خليفة راشد.. لا يرضى الدنية في دينه أو دنياه، يعرف طريق الغدر ولا يسلكه، الخدعة عنده لا تجوز إلا في الحرب، أما في زمن السلم فهي لون من الخيانة والكذب، ومسلك زري لا يجمل بالإنسان التقي...

هو قدوة، له قيمه العليا ومثله السامية التي يتمسك بها ولا يتنازل عنها لأنه تربى عليها، ولأنها وحدها هي الجديرة - في رأيه - إصلاح الناس...

يعرف ما يرضي الناس - كما قال لهم - ولكنه لا يأتيه، لأنه يرى فيه ظلما لآخرين، وإغضابا لله!..

عليٌّ رجل دولة بصير بسياسة أمور الرعية، ولكنه يريد أن يقيم سياسته على دعائم من مكارم الأخلاق، ولا يضيره ما يعاني وهو يشق الطريق الوعر إلى الحقيقة، ليقيم العدل، ويحقق للناس المساواة، ويدفع الظلم، ولو أنه عدل عن نهجه السوي لحظة، لتهدمت قيم نبيلة، وانهارت مثل عليا..

أما معاوية فهو يصنع كل شيء، وأي شيء، مهما يكن من شيء، للوصول إلى الغاية.. وغايته الملك...

عليٌّ يرى أن صلاح الغاية لا يتم إلا بصلاح الوسيلة، وغايته مصلحة الأمة، وصلاحها..

ولأن يخسر أمنه، وراحته، خير من أن يهدر قيمه.. ولإن يهدي به الله رجلا واحدا، خير له من الدنيا وما فيها!!.

علي استقى من منبع النبوة، وتربى بخلق النبوة، فكان رباني هذه الأمة..

أما معاوية فقد استقى من منبع أبي سفيان وهند، وتربى على

اكتساب المنفعة من أي سبيل، ووجد عصرا سلطانه المنفعة، وهدفه المنفعة، وقانونه المنفعة، فكان بحق رجل العصر.. بينما كان عصر المنافع هذا ينبذ أصحاب التقوى وينبو بأهل الورع، ولهذا عذب العصر الشرس إمام المتقين وإمام المساكين..

وإذ رأى معاوية أن حملاته الوحشية قد سفكت من الدماء أكثر مما كان يحسب، وروعت الناس وأسخطتهم عليه، وأكسبته معرة ذبح الأطفال، وسبي المسلمات، وقتل الأبراياء، ونهب الأموال، وانتهاك الحرمات.. إذ رأى معاوية هذا، اعتزم أن يكف عما أخذ فيه من فتك وغدر وفساد في الأرض، وأرسل إلى الإمام عليٍّ كتابا يطالبه فيه بالموادعة والمهادنة وقال: «أما إذا شئت فلك العراق ولي الشام، ونكف السيف عن هذه الأمة، ولا نهريق دماء المسلمين».

ولم يكن لعلي حيلة بعد...

فبمن من الرجال يجاهد في سبيل اللّه معاوية وحزبه، ويردهم إلى الجماعة!.

وتحكمت الظروف في الحكمة فسكت علي، ولم يرد!!.

وهكذا اضطر إلى ما ظل يرفضه منذ بويع له..!!.

ووجدها الإمام فرصة لالتقاط الأنفاس، ليحكم دستور الدولة، ويقيم أمر القضاء، ويجري العدالة، ويرعى حقوق الناس، ويصلح شؤون الرعية وينظم السياسة الشرعية...

أزعجه اختلاف العلماء في الفتيا ومصدر التشريع واحد فقال: «ترد على أحدهم القضية فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على آخر فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم (أي الخليفة الذي ولاهم القضاء) فيصوّب آراءهم جميعا، وإلههم واحد! ونبيهم واحد! وكتابهم واحد! أفأمرهم اللّه تعالى

بالاختلاف فأطاعوه! أم نهاهم عنه فعصوه! أم أنزل عليهم دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه! أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى! أم أنزل اللّه سبحانه دينا تاما فقصر الرسول الله ﷺ في تبلغيه وأدائه، واللّه سبحانه يقول: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ وقال: ﴿**وفيه تبيان لكل شيء**﴾ وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: ﴿**ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾. وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لاتفنى عجائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به»..

وفي ذلك العصر المضطرب، كان الرجل يمسي مؤمنا بمبادىء علي، ويصبح متطلعا للحاق بمعاوية، ويروح في حال، ويغدو في حال! وفي هذا المضطرب تختلط الأشياء، وقد وجد الإمام الناس قابلين لتصديق أي شيء في أي إنسان، لكثرة ما كابدوه من تغيرات عجيبة في أمور الحياة وقلوب الناس.. فقال الإمام ناصحا: «أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين (أي متانة في دينه وإيمانه)، وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال. أماأنه قد يرمي الرامي وتخطىء السهام، ويحيك الكلام (من حاك القول في القلب أثر فيه)، وباطل ذلك يبور، واللّه سميع وشهيد. أما أنه ليس بين الباطل والحق إلا أربع أصابع» فلما سئل في ذلك جمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه وقال: «الباطل أن تقول: سمعت، والحق أن تقول: رأيت».

فسألوه: «ما العمل: أيسكتون» فقال: «لا خير في الصمت عن الحكم، كما أنه لا خير في القول بالجهل، بل يستنبطون من كتاب اللّه وسنة رسوله».

ثم سئل عن التوحيد والعدل فقال: «التوحيد ألا تتوهمه (يعني اللّه تعالى، لأنك تحدده بوهمك) والعدل ألا تتهمه».

ولكن الإمام قد سئم كل شيء.. ها هو ذا يرغم بعد ما سال

طوفان من دم المسلمين على قبول ما رفضه أول الأمر، أن يستقل معاوية بالشام، ويضم إليه مصر!! .. وهكذا تتمزق الدولة الواحدة لأول مرة في الإسلام!! .. والإمام الذي جاهد من أجل وحدة الأمة مقهور، بلا حيلة، ولا حول!!.

وتمنى لو أن الله تعالى قبضه فأراحه من هؤلاء الرجال الذين ابتلي بهم! إذن لأمن الغدر والكيد، وسفاهة السفهاء، وتكبر الحمقى والجبارين، وكذب الفجار، وتخاذل الأنذال!!.

وإذن لاستراح من خيانة الأصدقاء، وسوء مكر الأعداء!!.

يا رسول الله ﷺ .. لقد وعدتني يوما بالشهادة.. ألم يحن الوقت بعد.. فاتتني الشهادة في سبيل الله في بدر وأحد والخندق وخيبر، وفي كل أيامك المجيدة، أيام كنت تقودنا لنصنع بوهج السيوف فجر الحياة الرائعة العذبة القادمة، ونورنا بين أيدينا ومن خلفنا وعن اليمين وعن الشمال... ! أسفاه!! ما بال هذه السيوف اليوم!.. واحزنا! إنما يصنع وهجها غسق الزمن السعيد، زمن الحق والحقيقة والعدل والمساواة واحترام الإنسان!! أيغرب هذا كله في مستنقع الفتنة!.. لا كانت الحياة إذن.. فيم أنت أمير المؤمنين يا علي إن لم تنصر الحق، وتدفع الباطل!.

وصمم الإمام على أن يصوغ قواعد الحكم ويعلمها للناس قبل أن يفارق ربه لتكون من بعده دستورا متكاملا للسياسة الشرعية، يستنبط أحكامه من الكتاب والسنة..

وعاد يعظ الناس ويعلمهم أمور الدين.. وينفث حسراته على تفرق الأمة. قال: «أما بعد، فان الدهر لم يقصم جباري دهر قط، إلا بعد تمهيل ورخاء، ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل (أي الشدة) وبلاء، وفي دون ما استقبلتم من عتب (شدة)، وما استدبرتم من خطب

معتبر! وما كل ذي قلب بلبيب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كل ذي نظر ببصير، فيا عجبا! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصيٍّ، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات! المعروف عندهم ما عرفوا، والمنكر ما أنكروا! مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، كل امرىء منهم إمام نفسه، قد أخذ منها ما يرى بعرى وثقات (جمع عروة وثقى) وأسباب محكمات!» ثم قال: «... ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها (من أراد السلامة من محنتها فليهيىء وسائل النجاة وهو فيها)، ولا يُنجى بشيء كان لها (أي عمل يقصد به الدنيا): ابتلي الناس بها فتنة، فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه، وإنها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينا تراه سابغا حتى قلص، وزائدا حتى نقص».

ثم أخذ يشرح للناس معاني آيات القرآن ويقول لهم: «اسألوني».

سأله رجل عن معنى الآية الكريمة: **﴿(وما كان اللّه ليعذبهم وأنت فيهم وما كان معذبهم وهم يستغفرون)﴾** فقال كرم اللّه وجهه: «كان في الأرض أمانان من عذاب اللّه، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله ﷺ. وأما الأمان الباقي فالاستغفار، وقد عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار!!».

وسئل عن معنى قوله تعالى: **﴿إنا للّه وإنا إليه راجعون﴾**. فقال: «إن قولنا: (إنا للّه) إقرار على أنفسنا بالملك (أي العبودية للّه تعالى)، وقولنا (وإنا إليه راجعون) إقرار على أنفسنا بالهلك (أي الهلاك)...

وسكت قليلا ثم قال: «لا يترك الناس شيئا من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح اللّه عليهم ما هو أضر منه».

واستمر: «لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه(نياط: على وزن كتاب، عرق معلق به القلب) وذلك القلب له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فان سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب أشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته العرّة (يعني الغفلة)، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع وإن عضته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظته (آلمته) البطنة: (امتلاء البطن حتى يضيق النفس)..

وسكت الناس قليلا، ثم انهالوا عليه يسألونه، وشعر أن الناس في حاجة إلى كثير من النصح، وإن كثيراً من العادات التي اكتسبوها في حاجة إلى تغيير، ليصح المجتمع كله.. فقال: «لو قد استوت قدماي من هذه المداحض (المزالق، يعني الفتن والحروب التي استهلكت وقته منذ بويع) لغيرت أشياء!..».

ووجد أن الطمع الدنيوي هو أخطر ما ابتلي به الناس، فقال: «إن الطمع مورد غير مصدر (من ورده هلك فيه ولم يصدر عنه)، وضامن غير وفي، وربما شرق شارب الماء قبل ريه (قبل أن يرتوي به)، وكلما عظم الشيء المتنافس عليه عظمت الرزية لفقده، والأماني تعمي أعين البصائر والحظ يأتي من لا يأتيه».

وجاءه أن أقواما ثاروا عليه في بعض الأمصار البعيدة، فأرسل إلى عامله على ذلك المصر، يأمره بأن يدعوهم إلى الطاعة بالحكمة والموعظة الحسنة: «فان عادوا إلى الطاعة فذلك الذي نحب، وإن توافت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان، فانهد (انهض) بمن أطاعك إلى من عصاك، واستعن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره (المتثاقل كراهية للحرب) مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه».

وعاد الناس يسألونه..

سألوه ما معنى قوله تعالى: **﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾** فقال: «كم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون، كان في الدنيا غذي (يتغذى) ترف، وربيب شرف، يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به .. .. فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك الدنيا إليه في ظل عيش غفول، إذ وطىء الدهر به حسكه (نبات فيه شوك قوي)، ونقضت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب... وإن للموت لغمرات..».

وسألوه عن معنى قوله تعالى: **﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه﴾**. فأجاب: «إن اللّه سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء القلوب (والذكر الحق هو استحضار الصفات الإلهية) تسمع به بعد الوقرة (ثقل السمع)، وتبصر به بعد العشوة (ضعف البصر)، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح للّه ـ عزت لاؤه ـ في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات (فترات الخلو من الأنبياء) عباد ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذوات عقولهم، فاستصبحوا (أضاؤوا المصابيح) بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة، يذكرون بأيام اللّه، ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا له طريقه (القصد هو الاعتدال)، وبشروه بالنجاة، ومن أخذ يمينا أو شمالا ذموا إليه الطريق، وحذروه من الهلكة، وكانوا كذلك مصابيح في الظلمات، وأدلة تلك الشبهات، وإن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا، فلم تشغل تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم اللّه في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط (العدل) ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما

وراء ذلك فكأنما اطَّلعوا على غيوب أهل البرزخ في طوب الإقامة فيه... فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم (مقاماتهم) المحمودة، ومجالسهم المشهودة، وقد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصروا عنها، أو نهوا عنها ففرطوا فيها.. .. لرأيت أعلام هدى، ومصابيح دجى، قد حفت بهم الملائكة، وتنزلت عليهم السكينة، وفتحت لهم أبواب السماء، وأعدت لهم مقاعد الكرامات، في مقام اطَّلع اللّه عليهم فيه فرضي سعيهم، وحمد مقامهم... ».

فلما انتهى من كلامه، سكت الناس. فقال: «اسألوني قبل ألا تسألوني!».

فبكى الناس، وأدركوا أن الإمام يشعر بدنو أجله!

وسألوه عن قوله تعالى: ﴿**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**﴾ قال: «يا أيها الإنسان ما جرأك على ذنبك، وما غرك بربك، وما أنسك بهلكة نفسك! أليس من ذلك بلول!(من بلَّ من مرضه بلولا أي شفاء) أليس من نومك يقظة! أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك! فربما ترى الضاحي بالشمس فتظله (الضاحي بالشمس أي الماشي في وهجها) أو ترى المبتلى يمض جسده، فتبكي رحمة له (يمض جسده أي ينهكه إنهاكا شديدا)، فما صبرك على دائك، وجلدك بمصابك.... فكن للّه مطيعا، وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك، يدعوك إلى عفوه، ويتغمدك بفضله، وأنت متولٍّ عنه إلى غيره. فتعالى من قويٍّ ما أكرمه! وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته، وأنت في كَنَفِ ستره مقيم، وفي سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، ولم يهتك عنك ستره!!... . فما ظنك به لو أطعته! وأيم اللّه لو أن هذه الصفة كانت في متفقين في القوة، ومتوازنين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق، ومساوىء الأعمال! وحقا أقول ما الدنيا غرتك ولكن

بها اغترزت. . . . وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم».

ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو، والناس وراءه يرددون دعاءه: «اللهم صن وجهي باليسار (الغنى)، ولا تذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلي بحمد من أعطاني، وأفتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله وليُّ الإعطاء والمنع، إنك على كل شيء قدير».

ولاحظ أصحابه اكتئابه فحاولوا مواساته، فقال لهم كرم الله وجهه مهوّنا من شأن ما يعانيه: «.. ينحدر عني السبيل، ولا يرقى إليَّ الطير.. إني لمَّا نهضت بالأمر (يعني الخلافة) نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط (ظلم وبغى) آخرون. كأنهم لم يسمعوا اللّه سبحانه يقول: : ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾! واللّه لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها (زينتها)، أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (من حضر البيعة من المهاجرين والأنصار)، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ اللّه به على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم (الكظة امتلاء البطن من الطعام)، ولا سغب مظلوم (السغب: الجوع الشديد)، لألقيت حبلها على غاربها (أي تركتها)».

وسأله رجل عن الأمير البر والأمير الفاجر فقال: «أما الإمرة البرَّة فيعمل فيها التقي، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته».

وأراد رجل من أهل الكوفة أن يخفف عنه، وأن يواسيه، فقال: «ما كان أحرانا أن نغزو بلادا جديدة وننشر دين اللّه إلى أقصى الأرض لو لم يكفر أهل الشام» فقال الإمام: «لا تقولوا كفر أهل الشام، بل قولوا فسقوا وظلموا» فقال رجل من الأنصار: «يا أمير المؤمنين واللّه ما قاتلنا أهل الشام إلا على طمع الدنيا، وما قاتلناهم معك إلا على

الآخرة، فكنا نتنادى في صفين: يا معشر الأنصار أصدقوهم الضرب، فانهم قوم يقاتلون على طمع الدنيا وأنتم قوم تقاتلون على الآخرة».

ونال أقوام من طلحة تقربا إلى الإمام، فنهرهم، وذكرهم بأنه لما وجد طلحة في القتلى معفرا يوم الجمل، أجلسه واعتنقه، ومسح التراب عن وجهه وبكى عليه!.

وقال سفيان الثوري للناس: «لما انقضى يوم الجمل خرج علي بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه مولاه وبيده شمعة يتصفح وجوه القتلى، حتى وقف على طلحة بن عبيد الله في بطن واد متعفرا، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول: أعزز علي يا أبا محمد أن أراك متعفرا تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية، إنا لله وإنا إليه راجعون:

شقيت نفسي وقتلت معشري أليك أشكو عُجَزي وبُجَري

(العيوب والأحزان، وما أبدى وما أخفى).

ثم كرر الإمام ما كان يقوله كلما ذكروا له يوم الجمل: «والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾**، وإذا لم نكن فمن هم؟!».

وفي الحق أن كل ما عانته الأمة منذ بغى معاوية بن أبي سفيان على أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، يرجع إلى تغير طبيعة العصر، وإلى الخلاف الشاسع بين طبع كل من الرجلين:.

عليٌّ صارم حاسم كالسيف لا يقبل المهادنة أو المساومة في الحق، ولا التنازل عما يعتقد أنه حق مهما يخسر..

أما معاوية فيحسب حساب الكسب والخسارة! فالحياة عند معاوية صفقات، يبرم منها وينقض، ويساوم، ويتنازل، ويهادن بقدر ما تدر من ربح أو تجلب من خسارة!.

والحياة عند عليٍّ موقف، لا يبالي إذا اتخذه عن اقتناع وإيمان بما يكسب أو يخسر، ما دامت الحقيقة هي التي تربح، وما دام العدل هو الذي يُقضى.. وما دام ينصر بموقفه حقا ويدفع باطلا!!.

وما أبعد الفرق في هذه الحياة بين الموقف والصفقة!.. فصاحب الصفقة يعطي أقل مما يأخذ، وصاحب الموقف قد يعطي كل شيء ويفقد كل شيء حتى الحياة نفسها، ولا يفكر فيما يأخذ أبدا، بل يفكر فيما يفيد القضية التي يدافع عنها...!.

معاوية همُّه الدنيا وما تفيء به عليٌّ الحاضر، وعليٌّ همه الآخرة وما يكون عليه المستقبل..

وإن الإمام ليعرف ما صنعته النعرة الجاهلية، والعصبية القبلية.. وهو إن ينس لا ينس يوم جاءه زعماء بني أمية، فما حدثوه عن قتلة عثمان كما أجلبوا فيما بعد، ولكنهم قالوا له متلطفين: «يا أبا الحسن لقد وترتنا جميعا (يشيرون إلى قتل آبائهم وكبارهم في معركة بدر وغيرها).. ونحن نبايعك على أن تضع عنا ما أصبناه أيام عثمان».. ما كانوا يريدون منه إلا الإبقاء على أموالهم وضياعهم..!.

ولكنه ما كان ليساوم أو يهادن في دينه ولا في حقوق الأمة!! وكان يرى أن كل ما أصابوه أيام عثمان، إنما اصابوا به العدل نفسه في مقتل! فكان يجب أن يرده الإمام الجديد إلى بيت المال ليقسمه بالسوية بين المسلمين بلا تفرقة.. وإلا فلماذا قبل الخلافة إن لم يكن من أجل إقامة العدل!!.

أما معاوية فقد كانت له سياسته التي يجذب بها رؤساء القبائل والعشائر، الإغداق عليهم، وبذل الوعود بالمناصب الكبرى، وإغراقهم فيما يثير فيهم الإحساس بالكبرياء، وإتخامهم من ملذات الحياة الدنيا...

فعلي ومعاوية طرفا نقيض في كل ما يأخذان وما يدعان من صغار

فلكل واحد من الرجلين طبيعة تشي بهواجس النفس، وخفقات القلب، وخطرات العقل، واتجاه الضمير والخطوات!.

وهي طبيعة تنبىء عما عسى أن يفعله كل منهما في مواجهة ما تطرحه عليه الحياة الجديدة التي فتنت الكثيرين. . !.

وهي طبيعة صاغتها النشأة، وصهرتها البيئة، وثقفتها تقواه، والجهاد في سبيل الله. .

في بيت الله الحرام ولد علي، وفي حجر النبوة نشأ. . .

بيئة هي الطهر، والنقاء، والوضوح، والأمانة، والصدق، والقداسة!!.

ربته الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين، فأنبتته نباتا حسنا، وكفله سيد الخلق أجمعين، فأدبه منذ سنواته الخضر بآداب الإسلام. . . فكان أدب عليٍّ من أدب الرسول اللهﷺ ، وأدب الرسول هو ما أدبه به ربه فأحسن تأديبه، فكان خلق عليٍّ هو القرآن. . .

وهكذا قدّر لعلي أن ينزهه الله منذ نعومة أظفاره عن الشرك بالله، وكرم الله وجهه عن عبادة الأصنام، والسجود لها، وصاغ القرآن الكريم والسنة الشريفة مشاعره وعقله وأحاسيسه وثقافته. .

وشكّله حب الفداء والإيثار وهو في مطلع الشباب، فافتدى الرسول بنفسه حين قررت قريش قتله، فنام في فراشه. . !.

وإذن فقد نشأ عليٌّ في حجر النبوة، وتربى بهديها الرباني، ثم صهره اضطرام المعارك، وهو يجاهد الكفار في سبيل الله!.

أما معاوية فقد نشأ في بيت أبي سفيان، رأس الكفر في الحجاز، وربته أمه هند بنت عتبة التي عرفها المسلمون باسم آكلة الأكباد، منذ

خرجت في معركة أحد تقود نساء المشركين، ومعها وحشي الذي وعدته بكل ما يغري مثله إن هو قتل حمزة أسد اللّه فقتله قتلة ما كانت تعرفها العرب!! كان حمزة يفعل الأفاعيل بالمشركين يوم أحد. . فلما انجلى عنه الغبار دلت هند وحشيا على مكانه، فهز رمحه وقذفه على ظهر حمزة، فسقط سيد الشهداء. ولم تتركه هند حتى استخرج لها وحشى الكبد من جوف الشهيد العظيم، فمضغت الكبد وتجرعت الدم!!.

وتربى معاوية منذ نشأ، في قصر ضخم يملكه رجل من أكبر أغنياء مكة، يعمر لياليه بالمتاع، وما من شيء يعنيه إلا قتل محمد وصحبه، وهدم الإسلام قبل أن يرتفع بنيابه، وتتوطد أركانه!. . كلا الوالدين يملأ قلبه الضغن وطلب الثأر، وخوف ضياع المكانة، وفقدان السكينة إذا انتصر محمد، وأتباع محمد. . .

حتى إذا أسلم معاوية وأبوه وأمه وغيرهم من الطلقاء حرص أبو سفيان شيخ بني أمية على أن تكون له ولقومه مكانة في الدولة الجديدة، بعد أن دالت دولتهم. . وكان بنو هاشم هم أقرب قريش إليهم فكلهم من بني عبد مناف، فلما بويع أبو بكر رضي اللّه عنه بعد أن قبض رسول الله ﷺ، طاف أبو سفيان ببني عبد المناف وحاول أن يستفز صديقه العباس للبيعة لعلي لتكون الخلافة في بني عبد مناف، ولكن عليا أبى، واتهم أبا سفيان باثارة الفتنة!!.

ثم لم يرق لبني أمية أن يتولاها عمر رضي اللّه عنه وهو ليس من بني عبد مناف، ولكن أبا سفيان كان يعرف شدة عمر فأذعن له! فلما استعمل عمر على دمشق معاوية بن أبي سفيان مكان أخيه الذي مات، قدم معاوية على أمه هند فنصحته: «يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك! وقد استعملك هذا (تعني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه)، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته».

ثم دخل معاوية على أبيه، فقال له: «إن هؤلاء الرهط من

المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعا وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيما من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فانك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لنوفست عليه:..!.

على هذه التعاليم والقيم التي يؤمن بها أبو سفيان وهند نشأ معاوية...

أما عليٌّ فقد نشأ ونما على أن المروءة هي النصيحة في الحق، لا الموافقة على الخطأ. وإن الرياء شرك بالله! وكان كرم الله وجهه يعظ الناس بقوله: «رأيت رسول الله ﷺ يبكي فسألته. ما يبكيك؟ قال: إني تخوفت على أمتي الشرك، أما أنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا. ولكنهم يراؤون بأعمالهم».

وما تعلم عليٌّ أنه قلما ولدت مثله حرة، كما تعلم معاوية من أمه هند،بل علم رسول الله ﷺ عليا أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، وصاغت أسلوب حياته الآية الكريمة: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾، فشكلت هذه الآية مكارم أخلاقه، وأساسها التقوى.

فما بالإمام من حرص على الإمارة بجاهها وسطوتها وسلطانها، ولكن ما يكابده حقا هو حرص الإمامة على صياغة مجتمع فاضل على أساس وطيد من العدل، وفي ظل ظليل من التراحم.. من أجل ذلك فهو يناضل لكي يغرس قيما نبيلة شريفة تثمر في نفوس المسلمين، وتزدهر بالفضائل، لا أن يؤسس ملكا شامخا عضوضاً يمنحه الجاه والعزة والكبرياء.. فهو يعرف أن الكبرياء والعزة لله جميعا..!.

كان يخصف نعله ذات يوم قبل معركة الجمل، ودخل عليه صفيه ووزيره وتلميذه عبد الله بن عباس، فعجب ابن عباس من أن يخصف

أمير المؤمنين نعله بنفسه وهو يحكم نصف الأرض التي يعرفها البشر حينئذ، فقال لابن عباس: «ما قيمة هذه؟» قال: «لا قيمة لها» فقال الإمام: «والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلاً».

تلك كانت قضيته ورسالته: إقامة الحق ودفع الباطل...

أما معاوية فكانت قضيته هي الاستيلاء على السلطة!!.. لهذا كان لمعاوية حرس لا يفارقه حتى في الصلاة.. أما علي فقد رفض أن يتخذ له حرسا، ورأى في ذلك مظهراً من مظاهر الملك، وهو إمام!!.

وثمة أوجه أخرى للاختلاف بين علي ومعاوية:.

فعليٌّ إمام المساكين يضرب لهم مثلا في الصبر والاحتمال، فهو زاهد ناسك، يحب من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، فإن شعر بزهو يتسلل إلى نفسه قمعه بإذلال باطنه لله، واخشيشان ظاهره للناس، فهو كما قال عنه الرسول ﷺ مخشوشن في الله!.

المساكين الذين ارتضوا عليا إماما ورضي بهم أصحابا وأتباعا، هم الذين انقطعت بهم أسباب الرزق لعلة أو نحوها، أو لم يجدوا عملا، فوجب على ولي الأمر أن يكفيهم مطالب الحياة. وأن يوفر لهم المقام الكريم في هذه الدنيا، وأن يوجههم إلى ما يتقنونه ويفيدون به الناس كطلب العلم أو التفرغ له، إن أعياهم النهوض بالأعمال البدنية.. وإن لم يجد ولي الأمر في بيت المال ما يسد حاجتهم، وما يبلغ بهم حد الكفاية، وجب عليه أن يفرض في أموال الأغنياء حقاً لهم، ففي أموال الأغنياء حقوق غير الزكاة، وإذا احتاجت الأمة فلا مال لأحد.. وقد لعن الله أقواما في الغابرين لأنهم كانوا يصنعون بأموالهم الخاصة ما يشاؤون لا ما يقتضيه الصالح العام، ولا ينفقون أموالهم في سبيل الله، والإنفاق في سبيل الله، هو الإنفاق على مصالح المجتمع كله، من

جهاد لتوفير أمن الأمة، وإقامة ما يقتضيه صالح الأمة من مرافق في الصناعة والزراعة والتعليم والصحة والتثقيف ونحو ذلك.. والمسلمون يجب أن يعتبروا بقصص الأولين التي قصها اللّه تعالى في القرآن، فما أنزلها اللّه عزّ وجلّ إلا عبرة لأولي الألباب.. أفلم يسمعوا اللّه تعالى يقول عن قوم شعيب! أفلم يعرفوا كيف عاقبهم اللّه بظلمهم هذا...!.

ولعل هذا المنحى في التفكير والسيرة، هو الذي كان يستفز ضد الإمام عليٍّ أكثر الأثرياء وطلاب الثراء، وأهل المطامع والأهواء..

وهذا التفكير نفسه هو الذي كان يجذب إليه أهل التقوى، والورعين والفقراء والمساكين...

وزهد عليٍّ زهد لم يكن يقوى عليه كثير.. وكان معاوية على النقيض منه.. ما كان من الزاهدين.. فهو فتى مترف، يلبس كل يوم حلتين ثمينتين، ويتحلى بالنفائس، وهو يحب الطعام الفاخر مهما يتكلف، وكان يتخير من أنواع الطيور والأحياء المائية ما يجلب إليه من أماكن بعيدة، وعلى مائدته من الحلوى وحدها عشرة أصناف.. من أجل ذلك كان بعض المنتسبين إلى العلم يقولون: «الطعام مع معاوية أشهى والصلاة خلف عليٍّ أزكى: وهكذا كانوا ينتقلون في صفين بين مائدة معاوية ومصلى علي..!!.

وقد انتهى النهم بمعاوية إلى المرض بأحد أمراض التخمة..! وترهل وازداد ترهلا يوما بعد يوم فعجز عن القيام طويلا، فكان يخطب وهو جالس، فكان أول من جلس في خطبة منبرية..

معاوية يمرض من التخمة لكن علياً يتحرج من أن يشبع وفي الأمة جائع واحد، ويبكي للمحرومين ويقول: «اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، هل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنيا بدّل نعمة اللّه كفرا».

أجل.. هكذا كان الزمان..: غنى فاحش وبؤس مدقع، وكان

واجب أمير المؤمنين خلال هذه الفوضى أن يقيم العدل ويدفع الباطل. . . ولقد كان عليٌّ كرم اللّه وجهه يؤنب بخلاء الأغنياء بقوله: «فلا أموال بذلتموها للذي رزقها، ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها. تكرمون باللّه على عباده (أي تصبحون ذوي كرامة بنسبتكم للإيمان باللّه تعالى) ولا تكرمون اللّه في عباده! فاعتبروا بنزولكم من كان قبلكم». . وكان يكتب لمن يحس فيه التطلع إلى الدنيا من عماله: «أما بعد، فان المرء ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق. . ليكن سروررك بما قدمت، وأسفك على ما خالفت، وهمك فيما بعد الموت». .

ويكتب لعامل آخر: «أما بعد، فانك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك! واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، وإن الدنيا دار دُوَل، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك!».

وكان يعظ أصحابه بقوله: «. . اعلموا ان ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص في الآخرة وزاد في الدنيا، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر. إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه. وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم، فذروا ما قل لما كثر، وما ضاق لما اتسع».

وبهذا الثراء الروحي الضخم، وبهذه التقوى التي تمنح صاحبها قوة خارقة كان علي يستقبل صروف الدهر، ويستخلص منها العبرة، ولا يأسى على ما يستطيع دفعه، ويستقصي حكمة اللّه ووجه الخير فيما ينوبه من نائبات. . ضاق بعض أهل المدينة بالتسوية في القسمة بينهم وبين العامة وهم الرؤساء، فلحقوا بمعاوية الذي كان يميز في القسمة ويؤثر الرؤساء والأقوياء وأهل السطوة. فأرسل سهل بن حنيف إلى علي يخبره

بأمر الهاربين من دينهم إلى دنيا معاوية، فأجابه الإمام: «أما بعد، فقد بلغني أن رجالا من قبلك (أي من عندك) يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غيا ولك منهم شافيا فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم (إسراعهم) إلى العمى والجهل، إنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون (مسرعون) إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة (سواء) فهربوا إلى الأثرة، فبعدا لهم وسحقا!».

ويروي الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه عنه في حديثه عن نهم معاوية وإسرافه على نفسه في الأكل، قال ابن عباس: «كنت ألعب مع الغلمان فاذا رسول الله ﷺ قد جاء فقلت: ما جاء إلا إليَّ، فأختبأت على باب، فجاءني، فخطاني خطاة أو خطاتين ثم قال: اذهب فادع لي معاوية ـ وكان يكتب الوحي ـ فأتيت رسول اللّه فقلت: إنه يأكل. فقال: اذهب فادعه، فقيل إنه يأكل، فأخبرته فقال في الثالثة: لا أشبع اللّه بطنه فما شبع بعدها!».

تربى معاوية على أن يبتغي مرضاة الناس، إما مرضاة أمير يخافه أو رعية يرجوهم!.

فرق آخر بين علي ومعاوية: .

كان معاوية يقول لخصومه: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا. قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم (لأحكم)». وكان يقول: «إن السلطان ليغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد». أما علي فكان لا يريد أن يقاتل أحدا، وما قاتل إلا ليوطد أركان الدين، وإلا لكي يأخذ الناس ما أتاهم به الرسول، وينتهوا عما نهاهم عنه. ما قاتل إلا مضطرا مكرهاً دفاعاً عن

العدل، ليقيم الحق ويدفع الباطل..

وكان علي وهو أمير المؤمنين، لا يغضب إلا لما يغضب له الصبور الحليم، وكان يعاقب كما يعاقب الأب الرحيم الحكيم! فهو يقول: «إذا قدرت فاذكر قدرة اللّه عليك، وليكن عفوك شكرا لنعمته إن مكنك من عدوك».

وهو شديد التواضع، يقول لمن يفضله على غيره من الصحابة: «إن أنا إلاّ رجل من المسلمين».

لم يعد العصر عصر نبوة، ولا عصر خلافة راشدة، فقد تغير الزمان والناس!! فإذا بالناس كما وصفهم أبو ذر رضي اللّه عنه: «كان الناس وردا بلا شوك، فأمسوا شوكا بلا ورد!».

وأصبح التهادن أسلوب العصر وقانون التعامل بين الناس، ولكنه ما كان ليهادن..

ولقد خسر الخلافة نفسها لأنه لم يهادن، فعندما عرض عليه عبدالرحمن بن عوف البيعة على ألا يجعل أمرا من أمور المسلمين لأحد من عشيرة بني هاشم رفض الشرط، وقال إنه سيولي أمور المسلمين أصلح المسلمين للأمر، وأنهضهم بالعبء، وأنفعهم للمسلمين، سواء كان من بني هاشم أم من غيرهم...

وعندما اشترط عليه ابن عوف أن يبايعه على أن يسير على كتاب اللّه وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده، رفض عليٌّ الشرط، لأنه رأى في التقيد بسنة أبي بكر وعمر حرجا، فهذا التقيد تقييد لحريته في الاجتهاد واستنباط أحكام جديدة لوقائع قد تستحدث، والعصر يتغير ويطرح على الفكر مسائل ومشاكل لم تطرح من قبل.. وما باله لا يجتهد وقد خالف أبا بكر وعمر في بعض الفتيا، فأخذا برأيه...!.

من أجل ذلك لم يبايعه ابن عوف..

وبايع عثمان الذي قبل شروط ابن عوف جميعا، ثم ما لبث أن جعل عشيرته من بني أمية على رقاب الناس، وما زالوا يظلمون الأمة ويخالفون سنة الرسول والشيخين من بعده، حتى أثاروا الرعية على عثمان، فاستغل المتطرفون من القراء تلك الأخطاء وحكموا على عثمان بالكفر، ومخالفة القرآن، وما قرأ أحد منهم القرآن إلا بفضل عثمان، ثم نادوا بالبيعة لعلي ثم حكموا عليه من بعد بالكفر، وما فهم أحد منهم القرآن إلا بفضل علي وتلميذه عبدالله بن عباس!!.

وإنه لممض ومحزن حقا أن يصاب علي بمعاوية!! فها هو ذا رجل تقي يسوس الناس بورع الزاهد، ويضبط الأمور بحكمة الناسك، ويحكم بالتقوى.. يواجه رجلا أدرك نهم الناس إلى الثراء والجاه واللذة، فأشبع كل هذه النزعات والنزغات...

رجل واجه الثروة بالعدل في قسمتها بلا تمييز، وآخر عرف أن رؤوس الناس وخاصتهم هم الذين يقودون العامة من عشائرهم وقبائلهم، فأغدق على الخاصة والرؤساء، ليكسب ولاء العامة الأتباع، وتم له ما أراد!!.

ولهذا كان الولاء لولاية علي ولاء تقوى وورع وحب في الله، والولاء لمعاوية ولاء تطلع وطمع وحب للدنيا..!.. أما الذين والوا معاوية فقد ركبوا تيار عصرهم، وأما أتباع علي فقد كانوا يسبحون ضد التيار...

كان العصر عصر مساومات ومهادنات وصفقات وثراء مقبل بلا حساب من خراج البلاد المفتوحة وجزيتها. وكان عصر مراوغات... فراوغ معاوية وساوم، وهادن، وعقد الصفقات، ووزع الثروات، بما تفرضه روح العصر. أما الإمام علي فوقف صامدا حاسما لا يساوم ولا يتنازل ولا يهادن في الحق، ولا يسكت عن باطل!.

من أجل ذلك رفض من أول يوم نصيحة الذين أشاروا عليه بأن يقر معاوية على الشام ليحصل على بيعته، وبأن يخص رؤساء القبائل والعشائر بعطاء أكبر ليضمن ولاء أتباعهم من العامة!.

ورفض أن يقر الذين أثروا في زمن عثمان على ما لا حق لهم فيه.. وطالبهم برد الأموال والضياع، وإن كانوا قد تزوجوا بها النساء واشتروا الإماء! بينما كان معاوية يمنح رؤساء القبائل ومن استرزق عنده من العلماء كما يشاء فهو يقطعهم أجود الأرض، ويعطيهم فيجزل العطاء، ويهبهم أجمل الاماء!!.

وكان معاوية يفخر بسياسته، ويزهو بأنها جذبت إليه كثيرين من أتباع علي.. وكان علي ينصح الناس أن يلتزموا جادة الحق، وألا يرهبوا طرق الحقيقة إن خلت من سالكيها، فالعقبى لهم!!.

وفي الحق أن في أتباع معاوية من استيقظ ضميره فلحق بعلي كمصقلة بن هبيرة الذي فر من علي لأنه لم يستطع أن يؤدي ما عليه من ديون لبيت المال ثمن السبي الذي افتداه كما مر آنفا. فلما علم عليٌّ بهربه قال: «ماله فَعَلَ فِعْلَ السيد وفر فرار العبيد! أما لو أنه أقام لأخذنا ما قدر عليه، فان أعسر أنظرناه (أمهلناه)، وإن عجز لم نؤاخذه بشيء!» وعاد مصقلة فارا من دنيا معاوية إلى دين علي، ففرح به وأثنى عليه..

ولكن بعض الذين فتنتهم الدنيا من أصحاب عليٍّ ضاقوا بما يعانون معه من خشونة العيش، والشدة في المال، ففروا إلى طيبات الرزق، والتميز والمتاع عند معاوية...

ولكن لقد فضل الإمام أن يقسم المال بالسوية، فيتساوى الناس في سد حاجاتهم وفي بلوغ حد الكفاية، بدلا من أن يخص عددا قليلا من رؤسائهم بالأموال الطائلة والعطاء الكبير، ويترك الكثرة الكاثرة تعاني من الحاجة..!.

وكان الإمام شديداً حاسماً في حساب عماله، يأخذهم بالعنف إن اغتالوا حقا من حقوق المسلمين، أو أستاثروا دونهم بشيء...

من أجل ذلك كان يتسرب من عماله إلى معاوية من فتنتهم الحياة الدنيا!.

والإمام لا يجهل أن المال والبنين فتنة، فقد سمع اللّه تعالى يقول: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾... وهو يعلم أن الناس إلا من رحم اللّه قد زين لهم حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة!!.

وكان الإمام يحب أن يعلم الرعية، ويأخذها إلى الطريق المستقيم، وكان في ذلك يجابه رجلا يحب أن يداهن من رعيته أصحاب النفوذ على العامة، وإن أخذوه إلى الطرق الملتوية..!.

ولقد فجع الإمام في أحد عماله، ممن اصطفاهم ليلوا بعض أمور الناس وكان هذا العامل مثالا للأمانة والصمود والحكمة وحسن السياسة، وكان الإمام يثق به ويقربه، غير أنه لم يطق الحرمان والشظف والاستمرار طويلا على نهج الإمام، فأصاب شيئا من بيت المال وزعم أنه حقه...!.

فكتب إليه الإمام مؤنبا، وأنهى كتابه بقوله:

«كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما! وتبتاع (تشتري) الإماء وتنكح (تتزوج) النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء اللّه عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد! فاتق اللّه وأدِّ إلى القوم أموالهم، فانك واللّه لئن لم تفعل وأمكنني اللّه منك لأعذرن إلى اللّه فيك. فواللّه لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة، ولما

تركتهما حتى آخذ الحق منهما»..

فكتب إليه عامله: «أما بعد، فقد بلغني كتابك عن الذي أصبت من بيت المال، ولعمري إن حقي في بيت مال الله أكثر من الذي أخذت. والسلام»..

فكتب إليه علي: «أما بعد، فان العجب كل العجب منك، إذ ترى لنفسك في بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين!! وقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من الإثم، ويحل لك ما حرم الله عليك. عمرك الله! إنك لأنت البعيد (يعني البعيد عن الصواب)، قد بلغني أنك اتخذت مكة وطنا، وضربت بها عطنا (مرابض الغنم والإبل والأنعام) تشتري المولدات من المدينة والطائف، وتختارهن على عينك، وتعطي بهن مال غيرك، وإني أقسم بالله ربي وربك رب العزة، ما أحب أن ما أخذت من أموالهم حلالا أدعه ميراثا لعقبي، فما بال اغتباطك به تأكله حراما! ضح رويدا (أي لا تعجل في ذبح الأضحية، وهو مثل يضرب في النهي عن العجلة في الأمر) فكأنك قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادى فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة»..

فكتب إليه ذلك العامل: «والله لئن لم تدعن من أساطيرك لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به!».

إلى هذا المدى أفسدت الأموال الناس!. وتلك هي روح العصر!! صدق رسول الله حين قال أنه لا يخشى الفقر على أمته من بعده، وإنما يخشى إقبال الدنيا عليها، وكثرة المال، فيتحاسد الناس ويتفرقوا بعد أن أصبحوا بنعمة الله إخوانا...! وها هو ذا رجل تقي من أصحاب علي وثقاته، يتأول نصوص الشريعة كالمرتزقة من أصحاب معاوية التماسا للمنفعة وتحقيقا للمصلحة.. ثم يسمي تنبيهه إلى الحق وأداء الأمانة والتعفف عما لا يحق له، أساطير!! ثم يهدد إمامه أن ينضم بما استباحه

من مال إلى عدوه.. إلى هذا المدى فسد الناس بعد رسول الله وعهد الشيخين، فأصبحوا كما وصفهم أبو ذر شوك بلا ورد، بعد أن كانوا وردا بلا أشواك، في الزمن الرائع الذاهب..!.

وإن منهم من يقول عن نفسه للناس إن الدنيا مالت به ومال بها، وإنه ابن الدنيا، «فهي أمي وأنا ابنها، فاني لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم!»..

معاوية هو الذي يصارح الناس بهذا...

وهذا حق كله، فهو ليس بخير الفئة الباغية، ولكنه أنفعهم لها، فهو ابن الدنيا بحق كما وصف نفسه!.

أما علي فقد كان خير حزبه، ولكنه لم يكن خيرا لدنياهم، بل ربما كان عدو دنياهم، ولكنه خيرهم لدينهم وأخراهم!!..

من أجل ذلك كان الصالحون يقولون عن معاوية: «إنه واسع الدنيا ضيق الآخرة» وما كان معاوية ليحفل بما يقال عنه ولا بما يقال له، ما دام هذا القول لا ينزع الملك منه!!.

سأل معاوية عمرو بن العاص: «ما أعجب الأشياء!» قال عمرو: «غَلَبَةُ من لا حق له ذا الحق على حقه» فقال معاوية: «أعجب من ذلك أن تعطي الدنيا من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة».

ظل أهل الورع والتقوى ينصرون عليا على الرغم من كل شيء.. قال أحدهم: «إن الدنيا لم تبن شيئا إلا هدمه الدين، وإن الدين لم يبن شيئا فهدمته الدنيا! ألا ترى أن قوما لعنوا عليا ليخفضوا منه، فكأنما أخذوا بناصيته جرا إلى السماء».

وكان الناس على الرغم من اكتشافهم أن معاوية وحزبه لبسوا قميص عثمان ليخفوا وراءه الطمع في الملك والرياسة، ما انفكوا يسألون عليا عن عثمان!.

قال علي لأحد أصحابه: «انطلق إلى قومك فأبلغهم كتبي وقولي» (أي مواعظه) فقال الرجل: «إن قومي إذا أتيتهم يقولون: ما قول صاحبك في عثمان!» فقال الإمام: «أخبرهم أن قولي في عثمان أحسن القول، إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين».

ومن عجب أن معاوية استطاع ان يخفي الحقيقة فيما اصطنع من ضجيج وشغب، كما أخفى أطماعه وراء قميص عثمان... فلما هدأت الحرب، واستقرت المهادنة، اكتشف الناس أن أحداً لم يتهم علياً بقتل عثمان حتى بويع، فلما بويع وأعلن في أول خطبة خطبها بعد البيعة أنه سيرد إلى بيت المال ما وزعه عثمان، وأنه سيسترد القطائع التي أقطعها عثمان رضي الله عنه لهؤلاء، ليفلحها زارعوها ويدفعوا خراجها إلى بيت المال لا إلى أصحاب الأقطاعات.. لما أعلن الإمام علي سياسته تلك، فزع معاوية وأمثاله من الذين أترفوا في زمن عثمان، فقد تيقنوا أن عليا سينزع من الخاصة والرؤساء ما لا يحق لهم ويوجهه لمصالح العامة، فجاءه الملأ من بني أمية يسألونه أن يبقي على ما في أيديهم من عطايا عثمان وأن يقرهم على أعمالهم، فأبى، فلما أبى اتهمه معاوية واتهموه جميعا بقتل عثمان، وأعلنوا أنهم لن يبايعوه.!وأنهم ليعلمون أن عليا أبعد الناس عن هذه الشبهة، وأنه حاول أن ينقذ عثمان جهده!.

وقد روى عثمان بن حنيف وهو من أصحاب عليٍّ الثقات: «إني شهدت مشهدا اجتمع فيه علي وعمار ومالك الأشتر، فذكروا عثمان فوقع فيه عمار، ثم أخذ مالك (الأشتر) فحذا حذوه، ووجه علي يتمعر (يتغير وزنا ومعنى: يتغير من شدة الغيظ) ثم تكلم أحدهم، فقال: «ما على رجل يقول: كان والله أول من ولي فاستأثر، وأول من تفرقت عنه هذه الأمة» فقال علي: «لقد سبقت لعثمان سوابق لا يعذبه الله بها!».

وكان أسلوب عليٍّ في إدارة بيت المال يستفز ضده الأثرياء

والخاصة. فقد كان يدخل بيت المال مرة في كل جمعة وينظر إلى ما فيه من الذهب والفضة ويقول.

ابْيَضي واصْفَري وَغُرّي غيري إنـي مـن الـلّـه بـكـل خـيـر

ثم يوزع ما في البيت فيسوي في القسمة بين الناس جميعا من الخاصة والعامة، والرؤساء والمرؤوسين والعرب والموالي.. حتى إذا فرغ من القسم كنس بيت المال، وفرش له فيه فصلى فيه ركعتين، ولقد ينام فيه إذا كان الوقت صيفا...

أحسن الذين قاوموه استغلال الأنفة والحمية الجاهلية عند رؤساء القبائل فأثاروا سخطهم على هذه المساواة... ولأمر ما كان هذا النوع الشحيح الفاسد من الناس هم أعداء رسالات السماء، وقتلة الأنبياء.. فكيف بعليّ وما هو بنبي!!.

والتقى ابن عباس بعمرو بن العاص في الحج، فقال له ابن عباس: «حملك معاوية على رقاب الناس، فأنت تسطو بحمله وتسمو بكرمه!».

فقال عمرو متوددا: «أما واللّه إني لمسرور بك، فهل ينفعني عندك» قال ابن عباس: «حيث مال الحق ملنا، وحيث سلك قصدنا». وكانت هذه الصراحة في الحق، والتنزه عن الدنية من خلائق بني هاشم.

ثم التقيا بعد ذلك في موسم من مواسم العرب، حيث قام عمرو بن العاص خطيبا فمدح معاوية وبني أمية، وتناول بني هاشم، وافتخر بمشاهده في صفين فاعترضه عبد اللّه بن عباس قائلا: «يا عمرو، إنك بعت دينك لمعاوية، وأعطيته ما بيدك ومنّاك ما بيد غيرك (يعني مصر)، وكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذته منه دون الذي أعطيته، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك كدَّرها عليك بالعذل (اللوم)

والتنقيص. وذكرت مشاهدك بصفين، فواللّه ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت لطويل اللسان، قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبَلتْ، وأولها إذا أدْبَرتْ، لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، وأخرى لاتقبضها عن شر، ولسان غادر ذو وجهين، ووجهان: وجه موحش، ووجه مؤنس، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره، لحري أن يطول عليها ندمه. لك بيان وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك».

فقال عمرو: «واللّه ما في قريش أثقل علي مسألة، ولا أحر جوابا منك ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت، غير أني لم أبع ديني لمعاوية، ولكني بعت اللّه نفسي، ولم أنس نصيبي من الدنيا، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لاتُعَلّم العوان الخمرة (تُعلَّمُ بالبناء للمجهول المرأة الثيب كيف تضع خمارها. والمثل يضرب للمجرب العارف بأمره)، وأما ما أتي إليَّ من معاوية في مصر، فان ذلك لم يغيرني له! وأما خفة وطأتي عليكم بصفين، فلم استثقلتم حياتي، واستبطأتم وفاتي! وأما الجبن، فقد علمت قريش أني أول من يبارز، وأمرُّ (من المرارة) من ينازل، وأما طول لساني فإني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان: .

لساني طويل فاحترس من شباته (حده)

عليك وسيفي من لساني أطول

وأما وجهاي ولساناي، فاني ألقى كل ذي قدر بقدره، وأرمي كل نابح بحجره، فمن عرف قدره كفاني نفسه، ومن جهل قدره كفيته نفسي ولعمري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعني ذلك عندك!.

ثم أنشد:

بـــنـــي هـــاشـــم مـــالـــي أراكـــم كـــأنـــكـــم
بـــي الـــيـــوم جـــهـــال ولـــيـــس بـــكـــم جـــهـــل!
ألـــم تـــعـــلـــمـــوا أنـــي جـــســـور عـــلـــى الـــوغـــى
ســـريـــع إلـــى الـــداعـــي إذا كـــثـــر الـــقـــتـــل
وإنـــي حـــســـمـــت الأمـــر بـــعـــد اشـــتـــبـــاهـــه
بدومة (دومة الجندل) إذ أعيا على الحكم الفصل

برح الخلفاء، وبان لكل ذي بصيرة أن معاوية لم يهمه دم عثمان، ولم يخرج مطالبا به إلا تعلة، وإخفاء لحقيقة هدفه وهو الملك.. وما أهمه غير الملك! هكذا لبس قميص عثمان المخضب بدم الخليفة المقتول ظلما، كل من أراد أن يخفي حقيقة نواياه، وأن يظهر الرحمة وباطنه من قبله العذاب!.

وعلى الرغم من كل شيء، فما زال الشغب الذي أحدثه معاوية ومن معه يشوش بعض العقول فيغم عليها موقف عليٍّ من عثمان.

قال رجل للإمام علي: «إني سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فان نجوت اليوم نجوت غدا إن شاء الله» (يعني إن نجوت من دم عثمان في الدنيا نجوت من العقاب في الآخرة).

ما كان سؤال كهذا ليوجه للإمام علي، ولكن عليا تعود أن يصبر نفسه وأن يتحمل في سبيل الحقيقة عناءً عظيما.. ومن مثل هذه الأسئلة ما يمزق النفوس المرهفة كنفس علي، غير أنه كان قد أجمع أمره ـ بكل ما أوتي من علم وحكمة ـ أن يصبر على سوء الظن، وأن يعلم الناس، ويبصرهم بما لم تكتشفه بصائرهم بعد..

قال علي للرجل: «سل ما بدالك». قال الرجل: «أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره؟» قال: «إن عثمان كان إماما، وإنه نهى عن القتال، وقال: من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا». قال الرجل: «فأي منزلة وسعت عثمان إذ استسلم حتى قتل!»

فأجاب الإمام: «المنزلة التي وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه: **﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾**» فسأل الرجل: «فهلا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل؟» قال الإمام: «إنا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا. قال الله تعالى: : **﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور﴾** فقاتلنا نحن من ظلمنا، وصبر عثمان، وذلك من عزم الأمور».

ما انفك علي يوضح للناس أن معاوية ومن معه من العلماء الذين انسلخوا من علمهم وثبوا على الدنيا بتأويل القرآن، فصرفوا قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص﴾** وقوله: **﴿ولكم في القصاص حياة﴾** وقوله: **﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا﴾** فصرفوا هذه الآيات عن معناها وأفتى المفتون المرتشون بأن هذه الآيات تبيح لمعاوية الطلب بثأر عثمان دون ولي الأمر.. ثم قال عليٌّ: «عصبوا بي دم عثمان (حملوني مسؤوليته) وألَّب عالمهم جاهلهم!!».

وقد أخذ أنصار معاوية يذيعون أن الصالحين يبغضون عليا ويحبون معاوية.

دخل رجل على الحسن البصري فقال: «إنهم يزعمون أنك تبس عليا» فبكى الحسن حتى اخضلت لحيته، ثم قال: «كان علي بن أبي طالب سهما صائبا من مرامي الله على عدوه، ورباني هذه الأمة، وذا فضلها وسابقتها وذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ لم يكن بالنَّومة عن رسول الله ﷺ ولا الملولة في ذات الله، ولا السروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة وأعلام بينة. ذلك علي بن أبي طالب يا لُكَعُ».

فلما ذاعت في الناس مقالة الحسن البصري، بدأ أنصار معاوية

يشهرون بالإمام.. وتزعمهم عمرو، فلم ينكر حق الإمام في الخلافة ولكنه أخذ عليه مآخذ تجعله غير أهل للخلافة...!

قال عمرو بعد أن كافأه معاوية بولاية مصر، وترك له كل خراجها: «إن عليًّا رجل ذو مزاح ودعابة كبيرة فهو لا يصلح أميراً للمؤمنين، أما معاوية فهو جاد حازم صارم فهو أصلح منه».

وسمع الإمام هذا، فقال: «عجباً لابن النابغة. يزعم أني ذو دعابة وأني رجل تلعابة، إني وشر القول أكذبه. إنه يسأل فيلحف، ويُسأل فيبخل، فاذا احمر البأس، وحمي الوطيس، وأخذت السيوف مأخذها من هام الرجال، لم يكن له هم إلا نزعه ثيابه، ويمنح الناس استه، أعطبه اللّه وأترحه (أحزنه)».

ثم سكت طويلا فسألوه أن يتكلم، فقال: «إنا لأمراء الكلام: فينا تشعبت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه» ثم قال: «واعلموا رحمكم اللّه أنَّا في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان، مصطلحون على الإدهان، فتاهم عارم (شرس سيّىء الخلق)، وشائبهم آثم، وعالمهم منافق،.. لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم...

واعلموا أن اللّه يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة».

ولا ريب أن شر ما تصاب به أمة هو ما ذكر الإمام: ألا يعظم الصغير كبيراً، ولا يرحم الغني فقيراً، وأن ينافق العلماء!!.

وسكت الإمام قليلا، وعيناه تنظران إلى بعيد.. ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ يبكي، فسألته: ما يبكيك يا رسول اللّه! قال: إني تخوفت على أمتي الشرك من بعدي. أما أنهم لا يعبدون شمسا ولا قمراً،

ولكنهم يراؤون بأعمالهم».

وكان الإمام يردد هذا الحديث على الناس كلما حذرهم من المراء.

وجاءه خبر من بعض نواحيه أن أقواما ثاروا على عامله وأوشكوا أن يغلبوه، فسيَّر إليهم الإمام جندا، وكتب إلى أمراء بلاده التي سيمر بها الجند كتابا كان قد تعود أن يرسله كلما سيَّر جندا: «من عبدالله عليّ أمير المؤمنين إلى من مر به الجيش من جباة الضرائب وعمال البلاد: أما بعد، فاني سيَّرت جنودا هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب عليهم من كف الأذى، وصرف الشذى (الشر). وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة (أذى) الجيش إلا من جوعة المضطر الذي لا يجد عنها مذهبا إلى شبعه فنكلوا (عاقبوا) من تناول منهم شيئا ظلما عن ظلمهم، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم».

فقد كان الإمام حريصا على حماية حقوق كل فرد من أفراد الرعية، وعلى ضبط الأمور، بحيث لا يجور العسكر على الناس، ولا يبغي أحد على العسكر..!

خلا الإمام إلى نفسه يستعرض ما مر به وبالأمة من أحداث...

وعجب لأن بعض الأثرياء ينكرون عليه أنه يسوي في القسمة بين الناس، ويريدون له أن يخصهم بمال أكثر ممن سواهم، لأنهم أشراف الناس ورؤساؤهم. من أين جاؤوا بهذا!.. ألأن عمر كان يميز في العطاء!.. ولكن عمر لم يميز رؤساء الناس، بل ميز السابقين إلى الإسلام، وميز آل البيت وأزواج النبي.. وعلي من آل البيت ينزل راضيا عن هذا الامتياز ليسوي بين الناس!.. إن عمر على النقيض حرم رؤساء من الذين كانوا يسمون المؤلفة قلوبهم، حين وجد الإسلام قد قوي،

فلما احتج شيخهم أبو سفيان أغلظ له عمر وأعلن أن الإسلام في غنى عن هؤلاء المؤلفة قلوبهم...

أفلا تذكرون سنة الرسول في التسوية...

أفلا تذكرون سيرة أبي بكر.. فليسألوا أم المؤمنين عائشة.. .. ألم تقل عائشة رضي اللّه عنها: «قسم أبي أول عام الفيء فأعطى الحر عشرة، وأعطى المملوك عشرة، وأعطى المرأة عشرة وأمتها عشرة، ثم قسم في العام التالي فأعطاهم عشرين عشرين!».

بلى .. كان أبو بكرْ رضي اللّه عنه ـ وهو من هو حرصا على اتباع السنة ـ يسوي بين الناس في القسم: الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء.. وكان لا يبقي في بيت المال شيئا إلا قسمه...

وعجب الإمام للذين يلومونه لأنه شديد الوطأة على عماله، يحاسبهم حساباً عسيراً.. أفلا تدبروا سيرة عمر.. ألم يقاسم عماله ما أصابوه من مال فوق عطائهم.. فليتذكروا أخذ عمر لأبي هريرة! ألم يحاسبه ويقاسمه ماله! (الطبقات الكبرى لابن سعد).. لقد كان عمر يولي عمالا هم أدنى من الذين لا يوليهم، فلما سئل: مالك لا تولي الأكابر من أصحاب رسول اللّه كعثمان وعلي؟ قال: «أكره أن أدنسهم بالعمل» وفي الحق أنه كان يستبقيهم لا لأنه لا يريد أن يدنسهم بالعمل فحسب، بل ليكونوا أهل مشورته، ولكيلا يفتتن بهم أهل الأنصار...

ثم لماذا يلومون عليًّا لأنه يؤثر الزهد! أفلا تدبروا خيرة أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما..!.. لقد كان عمر يقول: «إني أنزلت نفسي من مال اللّه منزلة وصي اليتيم من مال اليتيم: : **﴿من كان غنيا فليستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾**».

وقد اشتكى عمر يوما، وكان دواؤه في العسل، ولم يكن عنده عسل، ولكن كان في بيت المال كثير منه. فجمع أهل مشورته فقال:

«إن أذنتم لي، وإلا فانه حرام» فأذنوا له.

وقد جاء المسلمون فدخلوا على أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها فقالوا لها: «أبى عمر إلا شدة على نفسه وحصرا، وقد بسط الله في الرزق فليبسط في هذا الفيء فيما شاء منه وهو في حل من جماعة المسلمين». فقالت حفصة بنت عمر لأبيها: «إن الله قد أوسع عليك الرزق، وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير، فلو طعمت طعاما ألين من طعامك، ولبست لباسا ألين من ثيابك!» فقال: «سأخاصمك إلى نفسك. أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش؟». وما زال يذكرها بما كان يصنعه حتى أبكاها!! ثم قال لها عن الرسول وخليفته أبي بكر: «إني قد قلت لك أني والله لئن استطعت لأشاركنهما في عيشهما الشديد لعلّي ألقى معهما عيشهما الرضيّ».

وعندما لامه بعض أصحابه قال: «أما والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأرفعكم عيشا، ولكني سمعت الله ثناؤه عيَّر قوما بأمر فعلوه وقال: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾. من أجل ذلك عندما كلمه عماله في أن يفرض لهم من بيت المال عطاء أكبر مما يفرضه قال لهم: «يا معشر الأمراء، أما ترضون لأنفسكم ما أرضاه لنفسي» قالوا: «يا أمير المؤمنين إن أرض المدينة العيش بها شديد ولا نرضي بطعامك وإنا بأرض ذات ريف..» فأمر لهم بعطاء يجعلهم يعيشون عيشة أواسط الناس لا عيشة أغناهم ولا أفقرهم...

ولكن الأمراء فسدوا في أيام عثمان، وكان عثمان على الرغم من غناه يعيش عيشة الزاهدين، ويتصدق من حر ماله فيطعم الفقراء أشهى الطعام، ولكنه أغدق على عماله من بيت المال، فعاشوا عيشة المترفين...

وكان عمر قد اختار عماله من ذوي القدرة على إدارة شؤون الولايات، لامن أهل الصلاح والتقوى.. فقدرتهم للأمة، وصلاحهم

لأنفسهم، ولكنه كان يقظا لهم، ولا يغمض عنهم، وهددهم أن المخطىء منهم، سيضع خده على الأرض، لكي يطأه بقدمه.. فخافوا، واستقاموا ما استطاعوا.. أما عثمان فقد ترك الأمر لعماله من بني أمية، فاستغلوا واستبدوا وأثاروا السخط على الخليفة ذي النورين، هذا السخط الذي استغله أعداء الإسلام، والذي استثمره غلاة القراء والمتطرفون منهم، فأفتوا بأن عثمان ذا النورين قد كفر، وأهدروا دمه بدعوى الكفر، فبطش به الثائرون والساخطون!.

لقد أنكر الناس على عثمان أنه ولَّى الأحداث العارمين من عشيرته بني أمية، وفضلهم على أهل القدرة والصلاحية من أجلة أكابر الصحابة، فلاموا عبدالرحمن بن عوف الذي بايع عثمان على أن يتبع سنة الشيخين، وعلى ألا يجعل قومه بني أمية على رقاب الناس. قالوا لابن عوف: «هذا عملك واختيارك لأمة محمد!» فقال: «لم أظن هذا به» وأتى عثمان فقال له: «إني إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، وقد خالفتهما». قال عثمان: «عمر كان يقطع قرابته في اللّه، وأنا أصل قرابتي في اللّه». فقال عبد الرحمن: «للّه عليَّ ألا أكلمك أبدا».. فمات وهو لا يكلم عثمان!.

وما زال المتجبرون من بني أمية يظلمون الناس، حتى أثاروا السخط على ذي النورين.. واشتعلت الثورة عليه تطالبه بالاعتزال أو الاعتدال أو بعزل أقاربه الظلمة.. وما فكر أحد من المهاجرين والأنصار الذين أنكروا بعض أعماله في قتله.. ولا الثوار.. ولكن قتل مظلوما!! فمن قتل عثمان! ومن قتل عمر من قبله!.

ومن قبلهما من قتل أبا بكر!.. نعم من قتل أبا بكر خفية!.

من دس له السم قبل عام من وفاته!.

حدث الليث بن سعد إمام أهل مصر والنوبة عن عقيل عن ابن

شهاب أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت لأبي بكر فقال الحارث لأبي بكر: «ارفع يدك يا خليفة رسول الله ﷺ، والله إن فيها لسم سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد» وقال فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة. (الطبقات الكبرى لابن سعد).

لكم عانى من التفكير في استقصاء هذه الأسرار واستجلائها.. من يكيد للإسلام هذا الكيد كله.. وأي شيطان أغرى معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، بالخروج على وحدة الأمة وتمزيقها إلى دولتين، وإنهاك جيشها في حروب داخلية، بدلا من أن يتجه هذا الجيش من رهبان الليل وفرسان النهار إلى الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام.. لو أن ابن أبي سفيان وابن العاص مكنًا عليا من ذلك لارتفعت راية الإسلام على كل مكان من أرض البشر، ودخل كل الناس ـ كل بني آدم، في دين الله أفواجا..!.

وجاء إلى الإمام من يدعوه.. لقد طالت خلوته في داره، وفي المسجد من ينتظره...

وخرج الإمام في إزاره الخشن، الذي يصل إلى نصف ساقيه، وعلى ظهره بردة كلاهما من صنع قطر، وعلى رأسه قلنسوة مصرية، لطيفة بيضاء، كان يستبدلها أحيانا بعمامة سوداء، وفي يساره خاتمه المنقوش عليه: «الملك لله، محمد رسول الله» ومضى يتكفأ بمنكبيه الضخمين، ولحيته الطويلة العريضة البيضاء.. وبدا له أن يمر بالسوق ليفاجىء أهله.. فرأى منظرا أغضبه فصاح: «لا تنفخوا اللحم» وأنذر من يصنع هذا بعقاب شديد في الدنيا والآخرة، وذكر الناس بقول رسول الله«من غشنا فليس منا».

وإن الإمام ليعاني من غلاة أعدائه، إذ بجماعة من غلاة محبيه تسب الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين، وتدعو ألى تقديس عليٍّ لأن

روح الله حلت فيه! وقد استتابهم فلم يتوبوا. . وقد علم كرم الله وجهه أن السنة قتل الكافر، ولكنه لما رأى جرما عظيما جعل العقوبة أعظم منه، فأمر بإحراقهم بالنار. فلم يرجعوا وقالوا: «بهذا يبين صدق قولنا إنه لإله، حلت فيه روح الله. لأن الرسولﷺ قال: «لا يعذب بالنار إلا ربها!».

ولكنه على الرغم من هذه الهموم الكثيفة الممزقة التي توزعت جهده، كان يحاول أن يقيم أسسا وطيدة للحكم والسلوك. . فجعل أكبر همه حض الناس على التقوى، لأنها رأس كل الفضائل. . جعل همه أن يثقف النفوس بمكارم الأخلاق، ويؤدبهم بالقرآن والسنة. . .

ما عساه يملك إلا أن يعلم هذه النفوس أن تتنزه عن الطمع، وأن تضيء جوانبها بالورع !.

قال يعلم الناس: «أوصيكم بتقوى اللّه والعمل بما أنتم عنه مسؤولون، فأنتم به رهن، وإليه صائرون، فان اللّه عزّ وجلّ يقول: **﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾** وقال: **﴿ويحذركم اللّه نفسه وإليه المصير﴾** وقال: **﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾**، فاعلموا عباد اللّه أن اللّه سائلكم عن الصغير والكبير، فإن يعذب فنحن الظالمون، وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين، واعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة اللّه ومناصحته في التوبة، فعليكم بتقوى اللّه عزّ وجلّ، فانها تجمع من الخير مالا يجمع غيرها، ويُدْرَك بها من الخير ما لا يُدْرَك بغيرها، خير الدنيا وخير الآخرة، يقول اللّه سبحانه: **﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخر أخير ولنعم دار المتقين﴾**.

وقد علم الناس حتى معاوية وعمرو أن أصحاب رسول اللهﷺ كانوا إذا أشكل على أحدهم أمر سأل عليًا. . .

وكان تفاعل الحضارات في الكوفة قد خلق فيها تيارات فكرية

متباينة، إذ كانت الكوفة ملتقى القوافل والتجار من الشرق والغرب، فالتقت فيها حضارات الرومان والفرس والهند ويونان ومصر والصين.. فمن كل هؤلاء البلاد كان يجيء تجار ويذهب تجار، ويختلطون ويتحاورون، ويتباحثون في غير شؤون التجارة وهموم الدنيا.. فنشأ اتجاه للعناية بالإلهيات..

وقد جاء أحد هؤلاء المهتمين بالإلهيات فسأل الإمام عليا: «هل نرى ربنا!» فقال: «وكيف نعبد ما لم نره».. ثم أضاف كرم الله وجهه: «لم تره العيون في الدنيا بكشف العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. قال الله تعالى: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ فأثبت الرؤية بالقلب في الدنيا. وقال النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك».

وكان التوزع الذي يمزق نفس الإمام يدعوه إلى التأمل، ويشحذ عزمه ليجمع شتات نفس تفرقها اقتحامات العصر وأهل الهوى، والاهتمام بهموم التقوى، فقال يصف نفسه: «ما أنا ونفسي إلا كراعي غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب».

وقال يعلِّم الناس: «الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله تعالى فهو لغو، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهي باطلة، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا وصمته فكرا، ونظره عبرة، وحركته تعبدا، ويسلم الناس من لسانه ويده».

وقد قال أحد تلاميذه مستخلصا ما تعلَّمه من الإمام: «من ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد فإمامه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ولصلة الرحم وأداء الحقوق فإمامه عمر بن الخطاب رضي الله

عنه، ومن لا يحوم حول الدنيا، وإن جمعت عليه من غير طلبه رفضها، فإمامه علي رضي الله عنه».

وكان الإمام إذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه، فيقال له: مالك يا أمير المؤمنين فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى (على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان فلا أدري أأحسن حملها أم لا!».

وسأله أحد أهل الكوفة الذين دخلهم الاهتمام بالإلهيات: «ما حقيقة الإيمان!» قال: «الإيمان على أربع دعائم: الصبر واليقين والعدل والجهاد. والصبر على عشر مقامات..» ومضى يحدد مقامات كل دعامة من هذه الدعائم. فكان أول من تحدث عن المقامات التي تحدثت عنها الصوفية فيما بعد.

وسأله رجل آخر: «بم عرفت ربك» قال: «بما عرفني نفسه، لا تشبهه صورة، ولا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شيء ولا يقال شيء تحته، وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه. أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه، داخل في الأشياء ولا كشيء، ولا من شيء، ولا في شيء، ولا بشيء سبحان من هو، هكذا ولا هكذا غيره... خلق الأشياء لا من شيء كان معه، ولا عن شيء احتذاه، ولا عن شيء امتثله، فكل صانع فمن شيء صنع، وكل عالم فمن بعد جهل علم، والله تعالى عالم لا من بعد جهل... والإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان ازداد القلب بياضاً، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد القلب سوادا، فاذا استكمل النفاق اسود القلب. .. وأسلم الناس من جعل عقله أميره، وحذره وزيره، والموعظة زمامه، والصبر قائده، والاعتصام بالتقوى ظهيره، وخوف الله تعالى جليسه، وذكر الموت والبلى أنيسه».

ورأى الإمام اقتحام أفكار غريبة على ورع بعض الناس، فاذا منهم من يدعو إلى التواكل، لأن اللّه تعالى قدر كل شيء وقضاه، فلا جدوى من عمل الإنسان، وكل سعيه تحت الشمس لن يغير ما كتبه عليه القضاء...

ولقد قال له شيخ من شيوخ الكوفة: «أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر» فقال كرم اللّه وجهه: «والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا واديا ولا علونا جبلا إلا بقضاء وقدر». فقال الشيخ: «عند اللّه أحتسب عنائي. مالي من الأجر شيء!». فقال الإمام: «بل أيها الشيخ عظم اللّه لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين» فقال الشيخ: «وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟» فقال: «لعلك تظنه قضاءً واجبا وقدرا حتما، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من اللّه لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء، ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن! تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، أهل العماء عن الصواب في الأمور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن اللّه تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيرا، ولم يكلف مجبرا ولا بعث الأنبياء عبثا! **﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾** » فقال الشيخ: «فما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا» قال الإمام: «أمر اللّه بذلك وإرادته» ثم تلا: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾**. فنهض الشيخ مسرورا بما سمعه من الإمام، وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا ... جزاك ربك بالإحسان إحسانا

وابتسم الإمام وهو يتذكر يوم جاؤوا بسارق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأله: «لم سرقت؟» فقال السارق: «قضى الله عليَّ» فأمر عمر بقطع يده، وضربه أسواطا. وقال: «قطع اليد للسرقة، والجلد لما كذب على الله».

وانبرى رجل يسأل الإمام: «أليس كل شيء في علم الله» قال الإمام: «بلى، قال رسول الله ﷺ: مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم، والأرض التي أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب، كذلك لا يحملكم علم الله عليها».

وكان أعداء علي يزعمون أن كل ما حدث منهم قضاء من الله وقدر.. فليس لأحد أن يلومهم، وقد أفتاهم الذين يعيشون بدينهم في بلاط معاوية بذلك!.. وعلم الإمام بما يزعمون، وجاء إلى البصرة قوم منهم يحاولون إذاعة آرائهم تلك، ليصرفوا أهل البصرة عن عليّ ويأخذوا البيعة لمعاوية بما أن هذا هو قضاء الله وقدره. فأمر علي ابنه الأكبر الحسن بأن يكتب إلى أهل البصرة كيلا ينخدعوا بمزاعم الضالين المضلين من بطانة معاوية، فكتب: «من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله لا يطاع استكراها، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم عليه، فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء الله حال بينهم وبين ما فعلوا. فاذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، فلو أجبر الله الخلق على الطاعات، لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي، لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عاجزا في القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم».

أما والي البصرة عبدالله بن عباس فقد أثاره ما يقوله الذين في بطانة معاوية من علماء انسلخوا من عملهم، وروعه أنهم يرسلون رسلهم إلى البصرة ليفسدوا رجالها، بأمور ليست من الدين في شيء، فقال لأهل البصرة: «سمعت أن قوما يقولون أن الله أجبرهم على المعاصي. فلو أعلم أحدا قال هذا لقبضت على حلقه فعصرته حتى تذهب روحه! لا تقولوا أجبر الله على المعاصي، ولا تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملوه، فتجهلوا الله!».

ثم أرسل إلى بطانة معاوية من علماء الشام، الذين زعموا أن انضمامهم لمعاوية ضد أمير المؤمنين قضاء من الله وقدره: «أما بعد.. أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون؟، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون! هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه وينسبه علانية إليه؟!.. وهل منكم إلا من السيف قلادته، والزور على الله شهادته خالفتم أهل الحق حتى ذلوا وقلوا، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا، فأنيبوا إلى الله وتوبوا، وتاب الله على من تاب، وقبل من أناب».

ها هو ذا عدو جديد يجب على الإمام أن يواجهه إلى جوار البغاة من أهل الشام، والخوارج، والمغالين في حبه الذين ألهوه... ها هو ذا عدو جديد خطير يظهر: هو هذا الرأي الذي يبرر الخطأ الإنساني والخطيئة نفسها بأنها قدر الله.. فاذا برجال من المسلمين يسرقون، ويقتلون، ويفسدون في الأرض ويقولون: كان ذلك في علم الله فلم نجد منه بدا. فعاقبهم الإمام وأقام الحد على كل جريمة كما شرع الله، وقال: «كان في علم الله تعالى أنهم يرتكبون المعصية، ولكنه جل شأنه لم يحملهم على ارتكابها».

ثم مضى الإمام يجادل الناس في كل أمور الدين والدنيا، فما راعه إلا أن كثيرا منهم لا يفقهون معنى الأحاديث الشريفة.

قال رسول الله ﷺ: «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين» ففهم بعض الناس أن المسكين هو الفقير، فتكلفوا الفقر على الرغم من أن الإمام كان يلعن الفقر أمامهم، ويحذرهم منه، ويحضهم على العمل ليكسبوا ويغتنوا فيستغنوا عن الناس بما هيأ لهم الله من كسب أيديهم.

فأخذ الإمام في شرحه للحديث الشريف يبين للناس أن المسكين ليس هو الفقير، والمسكنة ليست عدم المال، فقد يكون الرجل بلا مال أو قليل المال وهو جبار شقي. وفي الحديث الشريف: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل (فقير) مستكبر» فالمسكنة خلق في النفس، وهي التواضع لله، والخشوع في ذات الله، ونبذ التكبر، كما قال عيسى عليه السلام. **﴿وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا﴾** . والمساكين هم أهل الفضل والبر والتواضع والخشوع الذين وصفهم الله تعالى بقوله: **﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾**.

أولئك هم المساكين الذين ارتضاهم عليٌّ أصحابا ورضوا به إماما . . .

وضع الإمام أصولا كثيرة في التعامل أساسها حماية الإنسان والأمة، وهي أصول استنبطها من الكتاب أو السنة، إذ أخذ الإمام نفسه بقيود الشريعة لا يعدوها . . من أجل ذلك لم يكن هناك من شيء أو إغراء مهما يكن خطره يحمله على مخالفة الشرع . . من ذلك أنه نهى عن ضرب المتهم، ورفض الوصول إلى الاعتراف من ضرب المتهم أو تعذيبه، في عصر جعل التعذيب أسلوبا للتحقيق . . وكان يقول في حماية ضمانات المتهم: «إن يثبت عليه الجرم بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد، وإلا لم أعترضه».

وهذا التمسك بقواعد الشريعة هو الذي حدد موقفه من معاوية، فقد علم أن الشريعة تحرم استعمال الفاسق، وإذا كان معاوية في رأيه فاسقا، فقد عزله كما عزل غيره من عمال عثمان إعمالا للقاعدة الشرعية: «لا تجوز ولاية الفاسق»... فلو أنه هادن معاوية وأقره حتى يأخذ بيعته ثم عزله، لما استطاع أن يبرر تصرفه هذا أمام المسلمين، إلا بأنه خدعه حتى استقرت الخلافة، ولو أنه كان قد صنع ذلك فأقر على الولاية من يرى فيه الجور والعدوان والظلم لهد أركان الشريعة، ولما حق له أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، ولشجع عماله الآخرين على ظلم الرعية وخيانتها وهم آمنون!! ولما استطاع أن يقيم حقا أو يدفع باطلا، وإذن لأصلح أمر دنياه بفساد دينه.. ومن يدري فربما فسد عليه أمر دنياه أيضاً!! ذلك أن الناس لم تبايعه إلا على سجايا فيه: أولها شجاعته في الحق، وحرصه على العدل، وغيرته على الشريعة ومحاماته عن الإسلام بما جاء به من مكارم الأخلاق جميعا، وحرصه على أن يكون عمله خالصا للّه وفي سبيل اللّه.. وما من عمل في سبيل اللّه خير من رعاية مصالح الأمة...

لقد نصب نفسه للناس إماما فعليه كما قال: «أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه».

فلو أنه هادن من اتهمهم بالجور وبالفسق وأقرهم على أعمالهم، لما صدقه أحد من شداة العدل وأهل التقوى!! ولكنه كما قال متضرعا إلى اللّه تعالى. لم يصنع ما صنعه منافسة على سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحكام، ولكن لنرد المظالم عن دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المُعَطَّلة من سنتك».. أو كما كان يقول للناس: «..ليس أمري وأمركم واحدا. إني أريدكم للّه وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيها الناس أعينوني على أنفسكم، وأيم اللّه لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل

الحق وإن كان كارها.

وفي تمسكه اليقظ والواعي بقواعد الشريعة نهى الناس عن الشح، وربط بين الشح والإيمان، فهما يدوران وجودا وعدما، ذلك أن اللّه تعالى وصف أقواما بقوله: ﴿**أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا**﴾ وقال الرسولﷺ: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب أبدا»... ومدح اللّه أقواما فقال: ﴿**..ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾».

من أجل ذلك كان أهل الشح هم ألد أعدائه في حياته وبعد موته. ولم يستطع أعداء مبادئه عبر الأجيال أن يهاجموه، فمدحوا الخارجين عليه. قال الإمام أحمد بن حنبل في علي ومعاوية: «أعلم أن عليا كان كثير الأعداء، ففتش له أعداؤه عن عيب، فلم يجدوا، فجاؤوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيدا منهم له».

وإذ كان الإمام شديد الحرج في المال العام، فإن هذه الشدة نفرت منه أصحاب الأطماع.

نزل بابنه الحسين ضيف، فاشترى الحسين خبزا واحتاج لإدام فطلب من قنبر غلام أبيه أن يفتح له زقا من زقاق عسل، جاءتهم هدية من اليمن، فأخذ منها ما أطعم به الضيف. فلما جاء أمير المؤمنين، وطلب الزقاق ليفحصها قال: «ياقنبر أظن أنه حدث بهذا الزق حدث!» فأخبره، فغضب وسأل الحسين: «ما حملك على أن أخذت منه قبل القسمة» قال الحسين: «إن لنا فيه حقا فإذا أعطيناه رددناه» قال الإمام: «وإن كان لك حق فليس لك أن تنتفع به قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم» ثم دفع إلى قنبر درهما، وقال: اشتر به خير عسل تقدر عليه، ليقسم مع ما في الزقاق.

وكان الإمام حريصا على أن ينشيء نظاما للحكم يصون كرامة

الإنسان من أجل ذلك اهتم بتربية الفرد على مبادىء الإسلام، الذي يجعل الإنسان حر الاختيار كريماً، عفيفا، جديراً بأن يكون خليفة الله في الأرض، وبتكريم الله إياه، فقد قال تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ فيجب على الإنسان أن يكون جديراً بالمكانة التي اختارها له خالقه. . وإذا كان هدف الشريعة هو تحقيق مصلحة الخلق، فقد استنبط الإمام أن هذه المصلحة تقوم على حماية الدين والنفس والمال والعقل والنسل. . « فمقصود الشرع من الخلق خمسة: أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة مفسدة، ودفعها مصلحة. . . وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، ومقاصد الشرع جلب المصلحة، ودفع الضرر».

وجد الإمام الناس قد أسرفوا في طعن بعضهم على بعض، فمنهم من يتهم كل من خالفه بأنه كافر أو هو فاسق أو هو على الأقل زنديق!! فأوضح لهم بأن من يتهم إنسانا بغير دليل ولا بينة يرد عليه اتهامه، فمن اتهم من خالفه بأنه فاسق ولم يقم الدليل، يعتبر هو الفاسق دون من اتهمه!!.

وقد جعل الإمام للعقل سلطانا في فهم الشريعة، فهو يستطيع أن يعرف الحسن فيأتيه، والقبيح فينتهي عنه، ما لم يكن في النص أمر واضح أو نهي واضح. . ويجب على العقل حين لا يجد نصا بحكم أن يستنبط الحكم بما يحقق المصلحة ويدفع المفسدة. . وما من واقعة تستجد في أي زمان أو مكان إلا أمكن إخضاعها لأحكام القرآن والسنة. . أو ما تقتضيه المصلحة العامة. . والسبيل إلى ذلك أن نعمل العقل، فحكم العقل يقضي بأن يترك ما فيه ضرر، ويؤخذ ما فيه منفعة.

وكان المدين يحبس في الدين، فمنع الإمام هذا، وقال: «حبس الرجل في السجن بعد معرفة ما عليه ظلم».

وقد حكوا عن الإمام: «بينا عليٌّ رضي اللّه عنه جالس في مجلسه، إذ سمع ضجة. فقال: ما هذا! قالوا: رجل سرق ومعه من يشهد عليه. فأمر بإحضارهم. فشهد شاهدان عليه أنه سرق درعا، فجعل الرجل يبكي، ويناشد عليا أن يتثبت في أمره. فخرج عليٌّ إلى مجتمع الناس بالسوق، فدعا بالشاهدين، فناشدهما اللّه وخَوَّفهما، فأقاما على شهادتهما، فلما رآهما لا يرجعان دعا بالسكين وقال: ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر. فتقدما ليقطعاه فهاج الناس واختلط بعضهم ببعض، فقام عليٌّ من الموضع، فأرسل الشاهدان يد الرجل وهربا!.

فقال عليٌّ: «من يدلني على الشاهدين الكافرين!» فلم يوقف لهما على خبر، فخلى سبيل الرجل.

كان لا يحكم بالظاهر، ويأمر القضاة بأن يحققوا ويتحققوا فلعل في الباطن ما يكذب الظاهر...

جاؤوه برجل وجد في خربة بيده سكين ملطخة بالدم، وبين يديه قتيل غارق في دمه، فسأله أمير المؤمنين علي كرم اللّه وجهه فقال الرجل: «أنا قتلته» قال: «اذهبوا به فاقتلوه» فلما ذهبوا به، أقبل رجل مسرعا، فقال. «يا قوم لا تعجلوا ردوه إلى أمير المؤمنين» فردوه، فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين: ما هذا صاحبه، أنا قتلته» فقال عليٌّ للرجل الأول: «ما حملك على أن قلت، أنا قاتله، ولم تقتله» قال: «يا أمير المؤمنين، وما أستطيع أن أصنع وقد وقف العسس على الرجل يتشحط في دمه، وأنا واقف، وفي يدي سكين، وفيها أثر الدم، وقد أخذت في خربة!..ألا يقبل مني فاعترفت بما لم أصنع، واحتسبت نفسي عند اللّه».

فقال علي: «بئسما صنعت. فكيف كان حديثك!». قال الرجل: «إني رجل قصاب، خرجت إلى حانوتي في الغلس، فذبحت بقرة وسلختها، فبينما أنا أسلخها والسكين في يدي أخذني البول، فأتيت

خربة كانت بقربي فدخلتها، فقضيت حاجتي، وعدت أريد حانوتي، فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط في دمه فراعني أمره، فوقفت أنظر إليه والسكين في يدي فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا عليَّ، فأخذوني. فقال الناس: هذا قتل هذا ما له قاتل سواه، فأدركت أنك لا تترك قولهم لقولي، فاعترفت بما لم أجنه».

فسأل عليٌّ الرجل الثاني الذي أقر بالقتل: «فأنت كيف كانت قصتك؟» قال: «أغواني إبليس، فقتلت الرجل طمعا في ماله، ثم سمعت حس العسس فخرجت من الخربة، واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصف، فاستترت منه ببعض الخربة حتى أتى العسس، فأخذوه وأتوك به فلما أمرت يا أمير المؤمنين بقتله علمت أني سأبوء بدمه أيضاً، فاعترفت بالحق» فقال علي لابنه الحسن: «ما الحكم في هذا!» وكان يعلم أولاده على نحو ما تعلم هو من أستاذه العظيم رسول اللّه: يطرح القضية ويسأل عن الحكم ثم يجيز أو يصحح. فقال الحسن: «يا أمير المؤمنين إن كان قد قتل نفسا فقدأحيا نفسا. وقد قال اللّه تعالى: **﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾** . فأقر الإمام الحكم، وخلى عن الرجلين، وأخرج دية القتيل من بيت المال».

ثم أنه أصدر من الفتيا ما يلائم الظروف الجديدة، فقد تغير العصر، واستحدثت مشكلات فوجب عليه أن يواجهها باجتهاده.

من ذلك أن قد أمر بتضمين الصناع.. فاذا تلف عند صانع شيء عوض صاحبه، كالخياط إذا تلف عنده قماش، كان عليه أن يعوض صاحبه، والحداد إذا تلف عنده سيف أو سكين يشحذه كان عليه أن يعوض صاحبه ولم يكن هذا الحكم موجودا من قبل، ولا أفتى الإمام بهذه الفتيا في عهد أحد من الخلفاء الثلاثة الراشدين، ولكنه وجد الزمان قد تغير، فأفتى بأن الصناع ضامنون لما تحت أيديهم. وعلل ذلك بقوله: «فسد الزمان، ولا يصلح الناس إلا بهذا»..

ولم يتخل قط عن موعظة الناس.. وقال يعظ خاصة أصحابه

وأبناءه: «إن أولياء الله هم الذين إذا نظروا إلى باطن الدنيا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منهم ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالا، ودركهم لها فوتا، أعداء ما سالم الناس، وسلم ما عادى الناس، بهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجوًّا فوق ما يرجون، ولا مخوفا فوق ما يخافون».

وقال: «كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتا فان قال بز القائلين، ونقع غليل السائلين... وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان على ما يسمع أحرص منه على أن يتكلم، وكان إذا بَدَهَه أمران ينظر أيهما أقرب إلى الهوى فيخافه. فعليكم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها، فان لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير».

دخل الإمام المسجد، فإذا في انتظاره أبو الأسود الدؤلي قاضيه على البصرة.. وهو أحد القراء الفقهاء الشعراء الظرفاء، قرأ على الإمام. وكان من أصغى القراء وأكثرهم حبا وولاء للامام.

قال أبو الأسود: «يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم! ففسدت ألسنتها، وأوشكت لغة العرب إن تطاول عليها الزمن أن تضمحل».

وكان الإمام قد لاحظ في الكوفة فساد ألسنة بعض الصغار الذين تربيهم الإماء من الموالي.. ولكنه سأل أبا الأسود: «وما ذاك» أراد أن يعرف ما ألم بالبصرة.. فروى أبو الأسود: «إن ابنة لي دخلت عليَّ فقالت: ما أشدَّ الحرَّ (رفعت أشد وجرت الحر). فرأيتها تستفهم عن أي زمان الحر أشد، فقالت لها: ما نحن فيه. قالت: إنما أخبرك ولم أسألك. فعلمت أنها قصدت التعجب، فقلت لها: يا بنية فقولي ما أشدَّ

الحرَّ (بالنصب في الكلمتين) وأرادت بنت أخرى لي أن تتعجب من جمال السماء فقالت: «ما أحسنُ السماء (برفع أحسن وجر السماء). فقلت لها: «نجومها» فقالت: «إني لم أرد أي شيء منها أحسن إنما تعجبت من حسنها» فقلت: «إذن فقولي ما أحسنَ السماءَ (بنصب أحسن والسماء)».

ثم روى له أبو الأسود الدؤلي أن رجالا جاؤوا إلى أمير البصرة فقالوا: «أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون» فصرخ فيهم أمير البصرة: «ليس هكذا. قولوا توفي أبونا وترك بنين!».

فنصح أمير المؤمنين لأبي الأسود الدؤلي أن ينهض في الوقت فيشتري صحفا بدرهم، ثم أملى عليه: «الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف. والاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل» ثم قال كرم الله وجهه لأبي الأسود الدؤلي: «واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر. فاكتب قواعد اللغة في هذا النحو». فسمى ما كتبه علم النحو. قال أبو الأسود: «فجمعت أشياء وعرضتها عليه، وكان من ذلك حروف النصب، فكان منها: إن وأن وليت ولعل وكأن ولم أذكر لكن، فقال لي: لم تركتها! فقلت: لم أحسبها منها، فقال عليه السلام: بل هي منها فزدها».

ونصح الإمام من يكتب: «فَرِّق بين السطور، وقلل بين الحروف، فان ذلك أجدر بصباحة الخط».

وكتب إلى عماله وكتابه: «أرقوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا من فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإياكم والإكثار، فان أموال الأمة لا تحتمل الإضرار (يدعو إلى الاقتصاد في استهلاك ما يكتب عليه وأدوات الكتابة ونحوها)».

كذلك تفرغ الإمام في تلك الفترة، لإصلاح كل أمور الرعية...

قال في أمر المال: «قلة العيال أحد اليسارين»، فحض بذلك على الاعتدال في الإنجاب...

وقال: «ما ذهب من مالك ما وعظك».. وقال لابنه محمد المعروف بابن الحنفية (لأن أمه من قبيلة بني حنيفة): «إني أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه، فان الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت».

ولاحظ أبو الأسود أن أمير المؤمنين عليا لم يعد ضاحك السن كما عرفه من قبل، فأراد أن يسري عنه فقال له: «يا أمير المؤمنين ما زلت أعمل بنصيحتك: سل عن الجار قبل الدار وعن الرفيق قبل الطريق، حتى ابتليت بجار حسبته صالحا، فاذا به يقذفني بالحجارة كل يوم، فبعت الدار، فعيَّرني الناس بأني بعت داري، فقلت لهم: «ما بعت داري بل بعت جاري!»».

فلما وجد أبو الأسود سحابات الهموم ما زالت على وجه الإمام، قص أبو الأسود عليه قصته مع أحد الثقلاء عساها تسري عن الإمام قال أبو الأسود إنه كان جالسا في دهليز داره وبين يديه رطب، فجاءه رجل من الأعراب شديد الجفوة، غليظ القفا، ثقيل الوطأة، فقال: «أأدخل!» قال له أبو الأسود: ما وراءك أوسع لك! ولكن الرجل تقدم ودخل على أبي الأسود فسأله: هل عندك شيء تطعمنيه! قال أبو الأسود: «نأكل ونطعم العيال، فإن فضل شيء فأنت أحق به من الكلب!» فقال الأعرابي: «ما رأيت قط ألأم منك!» فقال أبو الأسود: «بلى قد رأيت، ولكنك قد أنسيت!» قال الأعرابي: «أنا ابن أبي الحمامة». فقال أبو الأسود: «انصرف، وكن ابن أي طائر شئت» قال: «أسألك بالله إلا أطعمتني مما تأكل» فألقى إليه أبو الأسود ثلاث رطبات، فوقعت إحداهن في التراب، فأخذها فمسحها بثوبه ـ وكان قذرا ـ فقال له أبو

الأسود: «دعها فان الذي تمسحها منه أنظف من الذي تمسحها به». قال الرجل: «إنما كرهت أن أدعها للشيطان» فقال أبو الأسود: «لا والله، ولا لجبريل وميكائيل تدعها».

وكان أبو الأسود معدودا في الفرسان والظرفاء والدهاة والحاضري الجواب، فسأله أحد الحاضرين: «يا أبا الأسود أنت حريص وداهية كما قد علمنا. ألم يغلبك أحد على دهائك وحرصك!» فضحك أبو الأسود وقال: «بلى! ما غلبني قط إلا رجل أخذت منه ثوبا بعشرين، ومررت بجماعة فسألوني عنه، فقلت متباهيا: أخذت هذا الثوب بأربعين، فلما وفيت للرجل العشرين قال: ما آخذ إلا أربعين وهؤلاء شهود عليك».

فضحك الإمام وضحكوا جميعا.

وسأل أبو الأسود الإمام: «ما رأي أمير المؤمنين فيما قاله أمير البصرة عبدالله بن عباس حين سئل عن أحب كلمات العباد إلى الله، فقال: أحب كلمة إلى الله هي: (لا له إلا الله) لا يقبل العمل إلا بها، وهي المنجية، والثانية هي: (سبحان الله) وهي صلاة الخلق، والثالثة هي: (الحمد لله) وهي صلاة الشكر، والرابعة: (الله أكبر) فواتح الصلاة والركوع والسجود والخامسة: (لاحول ولا قوة إلا بالله) وهي كلمة الإسلام لله. فما رأي أمير المؤمنين فيما قال؟» فقال الإمام في إعجاب بابن عباس: «لله أبوه. إنه لكما قال». وسأل أبو الأسود، أحد الحاضرين: «أنت أحد أصفياء أمير المؤمنين وقد قرأت عليه وإني سائلك عن ثلاث» قال الرجل ضاحكا: « اسأل عن ثلاثين إن شئت، أجبك إن شاء الله» قال أبو الأسود: «من الناس؟ ومن الملوك! ومن العلماء» فقال تلميذ الإمام: «أما الناس فهم العلماء. وأما الملوك فهم الزهاد، وأما السفلة فهم.. هم الذين يعيشون بدينهم كهؤلاء الذين اصطنعهم معاوية!».

وضحك، وضحكوا.. ولكن أمير المؤمنين لم يضحك، فقد

عاودته أحزانه وإشفاقه على الدين منذ رأى بعض العلماء ينسلخ عن علمه، ويرتشي في دينه. . .

وكان أبو الأسود يلبس رداءً مرقعا فقال له أحد الحاضرين: «لقد أدمنت لبس هذه المقطعة» فقال أبو الأسود: «رب مملول لا يستطاع فراقه!» فعلم الحاضرون أنه مل هذا الثوب القديم، وأنه احتاج إلى كسوة فأهداه أحدهم كسوة. فقال أبو الأسود: «ألم نسمع من أمير المؤمنين عن رسول الله ﷺ:أيما عامل أصاب في عمله فوق رزقه الذي فرض له، فهو غلول» فقال صاحب الإمام الذي أراد أن يهديه الكسوة: «هذا إن كنت من رعيتك. ولكنك قاضي البصرة، وأنا من أهل الكوفة!» فأمر الإمام أبا الأسود أن يقبل الهدية، فليست فيها شبهة الرشوة. وإن برئت الهدية من شبهة الرشوة وجب قبولها، وذكرهم بالحديث الشريف: «تهادوا تحابوا».

وإنهم لجالسون إذ جاءت امرأة تبكي، فشكت من زوجها وقالت إنه يضربها ضربا مبرحا. فتغير وجه أمير المؤمنين ونهى الرجال عن ضرب زوجاتهم وقال: «أتت امرأة الوليد بن عقبة النبي ﷺ تشتكي الوليد، تزعم أنه يضربها، فقال لها: ارجعي فقولي له إن رسول اللّه قد أجارني فلا تضربني. فانطلقت، فمكثت ساعة، ثم رجعت، فقالت: يا رسول اللّه، ما أقلع عني! فقطع رسول اللّه هدبة (قطعة من طرف الثوب) من ثوبه فقال لها: «اذهبي بهذه فقولي له: إن رسول اللّه قد أجارني فلا تضربني، فانطلقت فمكثت ساعة، ثم رجعت فقالت: يارسول اللّه ما زادني إلا ضربا! فرفع يديه فقال: اللهم عليك الوليد، مرتين أو ثلاثا». . .

فقال أحد الحاضرين إن الرجل يحب امرأته هذه حتى ليكون أطوع لها من بنانها، ثم يبغضها حتى يوجعها من الضرب، فذكرهم الإمام بالحديث الشريف الذي يدعو المؤمن إلى الإعتدال والقصد في كل

أموره: «أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما..». فقال فتى من تلاميذ الإمام: «على المرء أن يعتدل ويقتصد ويترك الغلو حتى في عبادة اللّه تعالى. ولقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام، فهلكوا. أفرطت النصارى في حب عيسى بن مريم حتى قالوا: هو ابن اللّه، جل اللّه عما قالوا وعز، وأفرطت الغالية من الرافضة في حب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، حتى قال بعضهم: هو إلههم، وقال بعضهم هو نبي مبعوث، وقال آخرون فيه أقوالا عجيبة، وأبغضت اليهود عيسى بن مريم حتى قذفوا أمه بالفرية، وأبغضت المارقة من الخوارج إمامنا علي بن أبي طالب رضوان اللّه عليه حتى أكفروه!».

مضى الإمام يؤسس قواعد العلوم والفقه والقضاء، فقد أتاحت له الهدنة مع معاوية الفرصة ليعلم الناس، ويحكم القواعد، ويؤدي ما شغلته عنه الحرب من إصلاح الرعية، وتهذيبها، ودحض ما قد يغزو نفوسها من أباطيل.. وظل يقول: «إسألوني..».

وسألوه عن الراسخين في العلم فقال: هم الذين أغناهم اللّه عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب، والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح اللّه تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا في العلم».

وقال عن آداب العلماء وشرف العلم، وفي الإزراء على من يهدر منهم هذا الشرف، وينتهك آداب العلم وأخلاقه: «لو أن حملة العلم أحبوه بحقه لأحبهم اللّه وأهل طاعته من خلقه، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا، فمقتهم اللّه وهانوا على الناس».

ثم قال: «إن أبغض الخلائق إلى اللّه رجلان: رجل وكله اللّه إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، شغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة،

فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حَمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته. ورجل مُوضع (مسرع) في جهال الأمة، عار في أغباشٍ (ظلمات) الفتنة.. قد سماه أشباه الناس عالما وليس به.. ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن (فاسد)، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامنا ما التبس على غيره فان نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثًا من رأيه، ثم قطع به جاهلٍ خَبَّاط جهالات، عاشٍ رَكّاب عَشَوات.. لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا أهل لما فُوِّض له. وإن أظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه. تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه المواريث.. إنما الناس رجلان: متبع شرعة، ومبتدع بدعة وليس معه من اللّه سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة».

وسئل«كم المسافة بين المشرق والمغرب؟» قال: «مسيرة يوم للشمس» وسئل: «كم بين السماء والأرض!» فقال: «دعوة مستجابة!».

وقال وهو يعظ أصحابه: «يضر الناس أنفسهم في ثلاثة أشياء: الإفراط في الأكل اتكالا على الصحة، وتكلف عمل ما لا يطاق اتكالا على القوة، والتفريط في العمل اتكالا على القدر!».

وسئل: «لماذا إذا أكل لا يشبع؟» قال: «من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يلقى الغشاء على قلبه، والنعاس في عينه والكسل على بدنه... وكثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع.. فلا تطلب الحياة لتأكل، بل اطلب الأكل لتحيا.. ولا تجلس إلى الطعام إلا وأنت جائع ولا تقم منه إلا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وأعرض نفسك على الخلاء إذا نمت، فاذا استعملت هذا استغنيت عن الطب..».

وكان ينصح الأمهات: «ما من لبن يرضع به الوليد أعظم بركة من لبن أمه».

وقال يضع قواعد للإنفاق: «إن اللّه وضع في أموال الأغنياء

أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك..».

وكان هذا المبدأ هو ما أثار ضده البخلاء من الأغنياء والذين لا يحبون أن ينفقوا في سبيل الله.، والذين يريدون أن يستأثروا بالمال دون غيرهم.. أثارهم هذا المبدأ ضد الإمام منذ نادى به إلى يومنا هذا، وسيظل يثير أقواما من أهل الأطماع والأهواء والشح حتى يرث الله الأرض ومن عليها.!.

ومبدأ آخر أثارهم عليه، ومازال يُثير أمثالهم حتى اليوم.. ذلك قوله كرم الله وجهه: «من آتاه الله مالا فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم (المدين)، وليصبر نفسه على النوائب ابتغاء الثواب، فان فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة».. وقوله: «اسع في كدحك ولا تكن خازنا لغيرك». وموعظته في أمر المال: «أما بعد، فان الذي في يدك من الدنيا قد كان له أهل قبلك، وهو صائر إلى أهل بعدك، وإنما أنت جامع لأحد رجلين: إما رجل عمل فيما جمعته بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقيت بما جمعت له. وليس أحد هذين أهلا لأن تؤثره على نفسك، ولا أن تحمله على ظهرك، فارج لمن مضى رحمة الله، ولمن بقي رزق الله.. الفقر هو الموت الأكبر:.. الفقر يخرس الفطن عن حجته.. والمُقِلُّ غريب في بلدته... ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى!.. لا حاجة لله فيمن ليس لله في ماله ونفسه نصيب!.. الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة... من أتى غنيا فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه»... «يا بن آدم، كن وصي نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك.. ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله وأحسن تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله»... «لكل امرىء في ماله شريكان:

الوارث والحوادث.. .ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وسرف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند اللّه. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه ولا عند غير أهله، إلا حرمه اللّه شكرهم، وكان لغيره ودهم، فان زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم، فشر خليل، وألأم خدين».

وقال يحض على الخير: «الفرص تمر مر السحاب، فانتهزوا فرص الخير» وقال: «إضاعة الفرصة غصة...».

وكان من مبادئه التي أخذ يغرسها في قلوب الناس: «ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب...زهدك في راغب فيك نقصان حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس...الشقي من حرم نفع ما أوتي من العقل والتجربة... من التوفيق حفظ التجربة.. لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت في إيلامه، فان العاقل يتعظ بالآداب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب...ثلاثة إن تظلمهم ظلموك: عبدك، وزوجتك، وابنك...لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».

كان من أحسن الناس وجها، وكان كثير التبسم، ولكنه منذ حين تغشى الكآبة وجهه الحسن!.

وتذكر قول رسول الله ﷺ: «سألت ربي ألا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها، وسألته ألا يسلط عليهم عدوا فيستبيح بيضتهم فأعطانيها، وسألته ألا يسلط بعضهم على بعض فمنعنيها..»!.

هذا هو ما يكربه ويعذبه حقا، إن المسلمين تسلط بعضهم على بعض، وقد أصبح بأسهم بينهم شديدا، وما عادوا كما كانوا وكما يجب أن يكونوا رحماء بينهم.

فها هم أولاء أهل الشام قد أخرجهم عليه وعلى الجماعة فئة باغية

يقودها معاوية، وعمرو، والمرتشون ممن انسلخوا عن عملهم، وركضوا في الجهالة والهوى وحب الشهوات، وحكمتهم بطنهم ونهمهم، ومع ذلك وجدوا من يسمي الواحد منهم عالما أو شيخا أو إماماً..! وإنهم ليعلموا أن رسول اللّه عليه الصلاة والسلام أمر بقتل من يدعو إلى نفسه أو إلى غيره وفي الأمة إمام! ولكنهم يخالفون الرسول إذ ينصرون الباغي على الإمام الشرعي!!.

ومن الحق أن العلماء جميعا وأهل السنة بلا استثناء، قد اتفقوا على أن الصواب مع علي، وأن ما رآه علي في أمر القصاص من قتلة عثمان هو الشريعة.. فالقصاص بغير دعوى ولا إقامة بينة ليس من الشريعة في شيء، والشريعة تحتم على مخالفي علي أن يدخلوا في طاعته بعد أن بايعه الناس أميرا للمؤمنين، ثم يقوم أولياء دم عثمان وهم أبناؤه فيدعون بالدم، فيعمل أمير المؤمنين بما توجبه الشريعة: القصاص من القتلة الذين تثبت عليهم الجريمة.

اجتمع نفر من الخوارج، فبكوا على إخوانهم الذين قتلهم علي يوم النهروان فقالوا: «ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا! إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين كانوا لا يخافون في اللّه لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم، فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا» فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم علي بن أبي طالب» وقال البرك بن عبد اللّه: «أنا أكفيكم معاوية» وقال عمرو بن بكر«أنا أكفيكم عمرو بن العاص» فتعاهدوا وأقسموا باللّه: «لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه».

ثم انطلق كلٌّ إلى وجهته، وتواعدوا أن يفتك كل واحد منهم بمن توجه إليه، في صلاة الفجر في اليوم السابع عشر من رمضان، وكان ذلك في السنة الأربعين للهجرة.

فأما البرك بن عبداللّه، فقد توجه إلى معاوية، فرفع السيف ليضربه

وهو يسجد في صلاة الفجر فتكاثر عليه حرس معاوية فوقع السيف في إلية معاوية. فقال له طبيبه لما فحص الجرح: «يا أمير المؤمنين، اختر أما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد» فقال معاوية: «أما النار فلا صبر لي عليها، وأما الولد ففي يزيد وعبد اللّه ما تقر به عيني» فسقاه الطبيب شربة فشفي، ولم ينجب بعدها. وأمر معاوية بقتل البرك، فأخذوه فقتلوه..

وكان لمعاوية حرس كبير لا يتركه حتى في المسجد، وما حاول علي أن يجعل عليه حرسا..!!.

وأما عمرو بن بكر، فانه جلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة ولكن ابن العاص تخلف عن الصلاة لألم باغته في بطنه، فأمر صاحب الشرطة واسمه خارجة أن يصلي بالناس. فشد عليه ابن بكر وهو يحسبه ابن العاص فقتله، فأوثقوه وجروه إلى عمرو بن العاص فقال: «من هذا!» قالوا: «عمرو بن العاص» فقال: «ومن قتلت» قالوا«خارجة». وكان خارجة يعدل ألف فارس، وقد جاء إلى مصر في المدد الذي أرسله عمر بن الخطاب لفتح مصر، وأرسل فيه الزبير بن العوام. قال القاتل لعمرو: «واللّه ما ظننته غيرك» قال عمرو: «أردتني وأراد اللّه خارجة» وأخذوه فقتلوه.

وأما عبد الرحمن بن ملجم فقد أتى الكوفة واشترى سيفا بألف، وظل يسقيه السم أربعين يوما حتى لفظه، وكان في خلال تلك الأيام الأربعين يقصد باب علي فيسأله، فيعطيه أمير المؤمنين ويكرمه، فرأى امرأة جميلة رائعة من نساء الكوفة تدعى قطام، ففتن بها، وكلمها وكلمته، فوجدها على رأي الخوارج.

وأسرته المرأة بجمالها الفائق وظرفها وحسن حديثها، فأخذت قلبه واستولت على مجامع لبه، فتقدم إليها خاطبا. فقالت له: «لا أتزوجك حتى تشتفي لي فقد آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه» قال:

«وما تريدين» قالت: «ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة (جارية)، وقتل علي».

وعلم منها أن عليا قتل أباها وأخاها يوم النهروان، فقال لها: «أما قتل علي فما أراك ذكرته وأنت تريدينني» قالت: «بلى التمس غرته، فان أصبته شفيت نفسي ونفسك، ونفعك العيش معي. وإن قتلت فما عند اللّه خير من الدنيا وما فيها» قال: «واللّه ما جاء بي إلى الكوفة إلا قتل علي. فلك ما سألت» قالت: «سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك»، وبعثت إلى ابن عم لها اسمه وردان، فكلمته في ذلك فوافق.

فلما أهل رمضان زار ابن ملجم صاحبا له اسمه شبيب فقال له: «هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: «وما هو» قال: «تساعدني على قتل علي بن أبي طالب» ففزع شبيب فزعا شديداً، وقال: «ثكلتك أمك! لقدجئت شيئا إدا! كيف تقدر على قتله؟». قال ابن ملجم: «إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجد منفردا دون من يحرسه، فنكمن له في المسجد، فان خرج إلى الصلاة فجراً قتلناه، فان نجونا نجونا، وإن قتلنا سعدنا بالذكر في الدنيا وبالجنة في الآخرة» فقال شبيب: «ويلك! إن عليا ذو سابقة في الإسلام وذو فضل، واللّه ما تنشرح نفسي لقتله» قال ابن ملجم: «ويلك! إنه حكَّم الرجال في دين اللّه، وقتل إخواننا الصالحين، فنقتله ببعض من قتل. فلا تشكن في دينك».

فاتفقا، وانطلقا إلى قبة ضربتها قطام في المسجد فاعتكفت فيها منذ أول رمضان تصوم النهار، وتقوم الليل.

أما علي كرم اللّه وجهه، فقد كان منذ دخل رمضان يفطر مرة عند الحسن، ومرة عند الحسين، ومرة عند ابن أخيه جعفر، ويقوم عن الطعام قبل أن يملأ بطنه، ويقول: «يأتيني أمر اللّه وأنا خميص».

وكان عبد الرحمن بن ملجم يسم سيفه علانية ويقول متباهيا: «سأفتك به فتكة يتحدث بها العرب».

فقالوا ذلك لعلي، وكان يغدق على ابن ملجم كلما سأله، وكثيرا

ما كان يسأله!.

وقد اشترى ابن ملجم سيفه وتعهده بالشحذ والسم من المال الذي يغدقه عليه الإمام.. فبعث إليه الإمام فسأله: «لم تسم سيفك!» قال: «لعدوي وعدوك».

وتذكر وهو ينظر إلى ابن ملجم أن رسول الله ﷺ قال يوما: «يا علي من أشقى الأولين؟» قال: «الذي عقر الناقة» (ناقة اللّه التي أرسلها اللّه في ثمود قوم صالح ليرعوها فعقرها واحد منهم فعذبهم اللّه جميعا) قال النبي: «ومن أشقى الآخرين؟» قال علي: «لا أدري» قال: «الذي يضربك على هذا (يعني يافوخه)،فيخضب هذه (يعني لحيته)!».

وكان الإمام عليٌّ كلما أعطى ابن ملجم مالا، نظر إلى سيفه فقال: «أما إن هذا قاتلي» فقالوا له: «وما يمنعك من قتله» فيبتسم قائلا: «إنه لم يقتلني بعدا!»..ثم ينظر إلى ابن ملجم ويقول: «أريد حياته ويريد قتلي!».

ويتصدق عليه كما ألف أن يتصدق بالمال الذي يأتيه من أرض له في الحجاز.. وقد آثر كرم اللّه وجهه أن يعيش على هذا المال، وألا يتقاضى من بيت المال عطاء نظير نهوضه بأعباء الحكم.

ولما تأكد لأصحاب الإمام أن خطراً يتهدده نصحوه مرة أخرى أن يتخذ حرساً يحميه، ولكنه أبى!.

وتذكر أنه في صدر شبابه مرض مرضا شديدا حتى أشرف على التلف، فزاره النبي ﷺ، وكان عنده أبو بكر وعمر يعودانه، فهمس أبو بكر للرسول أن عليا ميت في مرضه هذا! فقال الرسول «إن عليا لن يموت في مرضه هذا، وهو لن يموت ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ!!».

اللّه أكبر يا علي.. صدق رسول اللّه.. لكم تجرعت من الغيظ

حتى اكتظ به بدنك وعقلك وقلبك.. وكادت روحك تزهق منه. هأنتذا ترى الباطل يصول على الحق ويكاد يسحقه، وأنت لا تملك أن تقيم الحق فقد خذلك رجالك!..فبمن تقيم الحق بعد.

وهأنتذا ذا ترى أمة محمد تتوزع إلى دولتين، وتمزقها الخلافات والأطماع!! إن كل المسلمين ليعرفون أن رسول اللّه أمرهم بقتل من دعا إلى نفسه، وعلى الناس إمام.. فما بالهم يتركون معاوية يزعم أنه أمير المؤمنين!.

وثقل على الإمام أن يدع أهل الباطل يركضون في وديان الضلال، ويفتنون الناس بالرشوة عن دينهم، والفتنة أشد من القتل!.

وعز عليه أن يسكت عن الظالم فيقره بهذا السكوت على ظلمه!.

لكم يحزنه أن أتباع محمد الذين كانوا أعداء فألف اللّه بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة اللّه إخوانا يتفرقون اليوم إلى شيع متناحرة، ويتقطعون فيما بينهم إلى دولتين!!.. يا لشقاء ما صنعه معاوية وعمرو بوحدة أمة محمد!!. .

أمر الإمام المنادين أن ينادوا الناس فاجتمعوا في فضاء عريض بالكوفة يتسع لأضعاف ما يتسع له المسجد.

وأمر الإمام فنصبوا له حجارة، فوقف عليها، وعليه قميص من صوف كان يلبسه في الحرب، وحمائل سيفه من ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وعلى جبينه علامة واضحة من أثر السجود، ولحيته العريضة الضخمة بيضاء كالقطن، فقال: «الحمد اللّه الذي إليه مصائر الخلق، وعواقب الأمر، نحمده على عظيم إحسانه، ونير برهانه، ونوامي (زوائد) فضله وامتنانه، حمدا يكون لحقه قضاء ولشكره أداء... ونستعين به استعانة راج لفضله، مؤمل لنفعه... ونؤمن به إيمان من رجاه مؤمنا، وأناب إليه موقنا، وخضع له مذعنا، وأخلص له موحدا، وعظمه

ممجدا، ولاذ به راغبا مجتهدا. لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركا، ولم يلد فيكون موروثا هالكا، ولم يتقدمه وقت ولا زمان، ولم يتعاوره (يتبادله ويتداول عليه) زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم، فمن شواهد خلقه السموات موطدات بلا عمد، قائمات بلا سند... جعل نجومها أعلاما يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار... ويعلم مسقط القطرة ومقرها، ومسحب الذرة ومجرها، وما يكفي البعوضة من قوتها، وما تحمل الأنثى في بطنها.

الحمد للّه الكائن قبل أن يكون كرسي ولا عرش، أو سماء أو أرض أو جان أو إنس. لا يدرك بوهم، ولا يقدر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا يبصر بعين، ولا يحد بأين (بمكان).. ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، لا إله إلا هو أضاء بنوره كل ظلام، وأظلم بنوره كل نور.

أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه الذي ألبسكم الرياش (اللباس الفاخر) وأسبغ عليكم المعاش. ولو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما أو إلى دفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان ابن داود ـ عليه السلام ـ الذي سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة، فلما نال طعمته (المأكل أو ما يؤكل والمراد رزقه المقسوم)، واستكمل مدته، رمته قسى الفناء (جمع قوس) بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون، وإن لكم في القرون السالفة لعبرة.

«أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟ أين أصحاب مدائن الرَّس (كانوا يسكنون على نهر يسمى الرس في أذربيجان وكانوا يعبدون الشجر. وكلما أرسل اللّه إليهم نبيا يدعوهم إليه، ألقوا نبيهم في حفرة وتركوه حتى يهلك صبرا وجوعا وهم يتلذذون بأنينه، فسلط اللّه عليهم بركاناً أفنى مدائنهم وأذاب أجسادهم، وهذا هو

ملخص ما رواه الإمام لما سئل عن مدائن الرس) أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفؤوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين! وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الآلاف، وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن؟!...

أيها الناس، إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا (تجتمعوا). لله أنتم! أتتوقعون إماما غيري يطأ بكم الطريق، ويرشدكم السبيل؟!.

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدبراً، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى.

ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم ـ وهم بصفين ـ ألا يكونوا اليوم أحياء يسيغون الغصص ويشربون الرنق (الكدر)؟! قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم.

أين إخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، أين عمار وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ (كلهم من الصحابة الذين قتلوا في صفين، وذو الشهادتين هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من أهل بدر، قد قبل الرسول شهادته بشهادة رجلين) وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة (أي أرسلت رؤوسهم مع البريد إلى البغاة للتشفي منهم)(شرح الشيخ محمد عبده)».

ثم ضرب الإمام علي بيده الشريفة الكريمة على لحيته وبكى فأطال البكاء. ثم قال: «أوِهِ! (كلمة توجع) أواه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه! أحيوا السنة وأماتوا البدعة. دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه».

ثم نادى بأعلى صوته: .

«الجهاد الجهاد عباد الله! ألا وإني معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج!».

وخرج، وخرج معه بعض الناس.

ثم عقد لابنه الحسين في عشرة آلاف مقاتل، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري ولغيرهم، وهو يريد الزحف إلى الشام. وكان ذلك في اليوم العاشر من رمضان، وانتظر أن يكتمل الجيش مائة ألف أو نحوها ليستطيع أن يواجه بهم ما سيحشده معاوية وعمرو من جند الشام ومصر، وهم أكثر من مائة وعشرين ألفا.

وظل علي يحرض الناس على الجهاد، وينتظر خروجهم فلم يخرج إليه أحد بعد غير الذين خرجوا..!!.

وشعر بمضض رهيب!!.

فأخذ المصحف فوضعه على رأسه ثم قال: «اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه (يعني المصحف) فأعطني ثواب ما فيه. اللهم إني مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير طبيعتي وخلقي وأخلاق لم تكن تعرف لي! اللهم فأبدلني بهم خيرا منهم، وأبدلهم بي شراً مني، اللهم أمت قلوبهم موت الملح في الماء».

شعر أصحاب الإمام من نظرات ابن ملجم، أنه يريد الفتك بالإمام وقدروا أن معه عددا آخر من الخوارج أهل التعنت والتطرف.

فاختار أصحاب عليٍّ كل ليلة عشرة منهم يبيتون بالسلاح ساهرين على حراسته دون أن يستأذنوه... ورآهم ذات ليلة فسألهم: «ما يجلسكم؟» قالوا: «نحرسك يا أمير المؤمنين» فقال ساخرا: «من أهل السماء؟!» ثم قال: «إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضي في السماء، وإنه ليس من الناس أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه فاذا

جاء القدر خليا عنه، وإنه لا يجد عبد عرف حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

لقد كره الإمام الحياة وتمنى الموت، منذ فقد الأمل في أن ينصره أهل العراق.. كان أهل الشام كلما ازدادوا حول معاوية قوة وفتكا، ازداد أهل العراق تمزقا وتفرقا حول علي.. فضاق بهم وسئم وملأت نفسه الكآبة! فكان يقول: «والله لتخضبن هذه من هذه (يشير إلى لحيته ورأسه) فما يحبس أشقاها! ما له لا يقتل؟! ما ينتظر؟!».

كان كرم الله وجهه يتعجل نهايته فقد سئم الناس وملها، وإنه ليتعذب من الغيظ الذي أحرق به أهل العراق قلبه الشريف!.

وهكذا كان الإختلاف بين علي ومعاوية حتى في اللحظات الأخيرة من عمر علي!!.

رفض الحراسة، فسهل الأمر على قاتليه.

أما معاوية فكانت حوله حراسة كثيفة، فلما رفع قاتله السيف ليقتله، انقض الحراس على الفاتك فوقع سيفه على إلية معاوية، ولولا الحرس الكثيف لقتله!.

وفي ليلة الجمعة التي توافق السابع عشر من رمضان، صبيحة ذكرى غزوة بدر الكبرى، أغلظت قطام لابن ملجم، فاتهمته بالجبن، وبأنه استكان إليها ولن يضرب عليا.. وكان قد تزوجها، فطالبته بانجاز وعده، فأفهمها أن موعده الليلة.

وكمن في المسجد هو وابن عمها، وشبيب بعد ما عصبتهم قطام بالحرير فجلسوا مقابل الباب الذي ألف الإمام أن يدخل منه.

وقبل أن يخرج الامام إلى الناس قال لابنه الحسن: «يا بني إني بت أوقظ اهلي لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر، فملكتني عيناي فنمت، فسنح (عرض) لي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من

أمتك من الأود واللّدد (العوج والخصومة). فقال لي: ادع عليهم. فقلت: «اللهم ابدلني بهم من هو خير منهم، وابدلهم بي من هو شر مني».

ثم خرج كعادته ليوقظ الناس ويناديهم: «الصلاة الصلاة» ثم يؤمهم في صلاة الفجر. فلما خرج من المسجد زعق الأوز في وجهه، فحاول الناس إسكاتهن فقال: «ذروهن، فانهن نوائح!».

فلما دخل الإمام المسجد، ضربه شبيب فأخطأه، وضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه وقال: «الحكم للّه يا علي لا لك ولا لأصحابك!» فقال علي: «فزت ورب الكعبة! لا يفوتنكم الكلب!».

فتكاثر الناس على ابن ملجم لعنه اللّه وهو يطوح بسيفه، فرموا عليه قطيفة وصرعوه وقعدوا على الصدر، أما الآخران فقد هربا في الزحام!.

فقال علي ودمه ينزف من رأسه فيخضب لحيته، وقد أخذ أصحابه ابن ملجم: «احبسوه فان مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إليّ في العفو أو القصاص! النفس بالنفس. إن هلكت فاقتلوه، وإن بقيت رأيت فيه رأيي! يا بني عبد المطلب لا ألفِيَنَّكُمْ تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين! ألا لا يُقْتَلَن إلا قاتلي! إن عشت فالجروح قصاص وإن مت فاقتلوه، لكن احبسوه وأحسنوا».

ثم طلب الإمام أن يأتوه بابن ملجم، فجاؤوا فقال له: «أي عدو اللّه، ألم أحسن إليك؟!» قال: «بلى» قال: «فما حملك على هذا!» قال: «شحذته أربعين صباحا وسألت اللّه أن يقتل به شر خلقه» فقال الإمام: «لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلقه».

وكان الحسن ما يزال في داره لم يخرج إلى الصلاة بعد، فلم يحن وقتها، فدخل الناس فزعين عليه، ومعهم ابن ملجم مكتوف اليدين.

فبكت أم كلثوم بنت علي ـ التي مات عنها عمر بن الخطاب ـ ونادت ابن ملجم: «أي عدو الله، لا بأس على أبي، والله مخزيك!» قال: «على من تبكين؟! والله لقد شريت السيف بألف، وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم واحدا!» قالت باكية: «لا بأس على أمير المؤمنين»قال: «ما هو أمير المؤمنين ولكنه أبوك!».

ونظر ابن ملجم إلى الحسن فقال له: «أريد أن أسارك بكلمة فضع أذنك على فمي». قال الحسن: «تريد أن تعض أذني!» قال ابن ملجم: «والله لو أمكنتني منها لأخذتها من صماخها».

وحان وقت الصلاة، فأذن لها، فطلب الإمام من جعدة بن هبيرة أن يصلي بالناس، وجعدة هو ابن أم هانيء بنت أبي طالب أخت الإمام.

وجاء الطبيب ليعالج جرح الإمام، فلما فحص جرحه وجسده وجد الجرح غائراً، والسم يسري في بدنه، وأيقن أنه لا علاج له، فصارح أصحاب الإمام بما رآه، وأشار عليهم أن يطلبوا من الإمام أن يستخلف الخليفة بعده. فقالوا له وهم يحاولون أن يغمضوا عيونهم لكيلا يرى الإمام فيها الدموع: «يا أمير المؤمنين، إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ أنبايع للحسن؟» فقال: «ما آمركم ولا أنهاكم. أنتم أبصر بأموركم» فأعادوها عليه وكلماتهم تغيض في الأسى العميق: فقال: «لا .. أترككم كما ترككم رسول الله، فان يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله».

وأخذ ابن ملجم يتلو وهو مطروح مكبل: **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾**.

وأخذ الأمام يردد: «لا إله إلا الله» ثم تلا: **﴿فمن يعمل مثقال**

ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

ثم دعا ولديه الحسن والحسين فقال: «أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الحق لومة لائم». ثم نظر إلى ابنه محمد بن الحنفية وهو أصغر منهما فقال: «هل حفظت ما أوصيت به أخويك!» قال: «نعم» قال: «فاني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، لعظيم حقهما عليك، فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما» ثم قال للحسن والحسين: «أوصيكما به، فإنه أخوكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه».

ثم قال للحسن: «أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فانه لا صلاة إلا بطهور، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة. وأوصيك بغَفْر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم ضد الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المكر، واجتناب الفواحش».

ثم قال لهم مرة أخرى: «ألا لا يُقْتَلَنَّ إلا قاتلي، انظر يا حسن، إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل، فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور!»».

ثم طلب كرم الله وجهه أن يملي وصيته، فأملى: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي بتقوى الله

ربكم، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرقوا، فانني سمعت أبا القاسم صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: «إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام! «انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوهم يهون اللّه عليكم الحساب. اللّه، اللّه، في الأيتام فلا يضيعُنّ بحضرتكم. واللّه اللّه في جيرانكم، فانهم وصية نبيكم ﷺ ما زال يوصي بالجار حتى ظننا أنه سيورثه. واللّه اللّه في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم، واللّه اللّه في الصلاة، فانها عمود دينكم، واللّه في بيت ربكم فلا يخلو ما بقيتم.. واللّه اللّه في الجهاد في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم. واللّه اللّه في الزكاة فانها تطفىء غضب الرب. واللّه اللّه في ذمة نبيكم (أهل الكتاب من غير المسلمين) فلا يُظلَمُنّ بين أظهركم. واللّه اللّه في أصحاب نبيكم، فان رسول اللّه أوصى بهم. واللّه اللّه في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، واللّه اللّه فيما ملكت أيمانكم. الصلاة الصلاة، لا تخافن في اللّه لومة لائم، فانه يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم (أي يحميكم منه)، وقولوا للناس حسنا كما أمركم اللّه، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي الأمر شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم! وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب. حفظكم اللّه من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم. أستودعكم اللّه. وأقرأ عليكم السلام ورحمة اللّه».

ولم يسمع له حينئذ صوت بعد حتى قبض وهو يتمتم: لا إله إلا اللّه.

ولكن صوته العظيم اخترق الآماد والمسافات والقرون، لتضيء كلماته الرائعة ظلمات النفوس، وتنير طريق الهداية للسالكين... وقتل اللعين ابن ملجم، وحل الحسن بن علي محل أبيه... ويا له من أب للصالحين في عصره، وفي كل العصور!.

وهكذا، ووري التراب جسده النبيل...

جسد رجل لم تعرف الإنسانية حاكما ابتلي بمثل ما ابتلي به من فتن، على الرغم من حرصه على إسعاد الآخرين، وحماية العدل وإقامة الحق ودفع الباطل!...

قبض الشهيد، واستقر في وعيْ الزمن أنه كلما قيلت كلمة الإمام فهو الإمام علي، على كثرة الأئمة في الأسلام! ذلك أن ما امتلكه من علم وفقه في الدين وما أوتي من الحكمة لم يتوفر قط لفقيه أو عالم...

قبض الشهيد الرائع البطولة، الأسطوري، المثالي، واستقر في ضمير الزمن، أنه كلما نطق أحد باسم أمير المؤمنين فحسب فهو الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، على الرغم من كثرة الخلفاء في كل عصور الإسلام،فكل خليفة بعد أبي بكر هو أمير المؤمنين... ذلك أن عليا اجتمع له من عناصر القدوة وشرفها، واجتمع فيه من مقومات القيادة ونبالتها وشرفها ما لم يجتمع قط لحاكم...

وهكذا كان فريداً حقا: عالما وحاكما!.

فسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا...

وسلام عليه إذ توارى جسده في التراب، وبقيت كلماته منارات إشعاع ومنابع حكمة، ومثار عزائم، وعدة للمتقين والمساكين بعد كتاب الله والأحاديث النبوية الشريفة...

وسيظل القلب ينبض بما قال، وتشرق به النفس، ويزهو به العقل!.

ولله در حكمته وعظمته حين قال«اسأل عن الجار قبل الدار، وعن الرفيق قبل الطريق. انصروا المظلوم وخذوا فوق يد الظالم وأحسنوا إلى نسائكم.. ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب.. من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.. الناس أبناء ما

يحسنون. . أوَاقنع في نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر!. . ألا وإني قاتل رجلين: رجلا ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه. . . ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع. . ما جاع فقير إلا بما متع به غني. . . لو تمثل لي الفقر رجلا لقتلته. . . إن اللّه فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعامة وبضعفة الناس. . إذا كان الراعي ذئبا فالشاة من يحفظها؟!. . إذا غضب اللّه على أمة غلت أسعارها، وغلبها أشرارها!. . .

إذا تغير السلطان تغير الزمان. . إن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. . اعلموا أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل. . الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الخق منه. . أحب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكرهه لها، ولا تظلم كما تحب ألا تظلم. . لا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم. . من ظن بك خيراً فصدق ظنه، ولا تضيّعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه. . . إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوما ما. . استقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك. . ولا ترغبن فيمن زهد عنك. . أستودع اللّه دينك ودنياك، واسأله خير القضاء. . .

«أيها الناس، ألا لا يقولن رجل منكم غدا ممن قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا القفار وفجروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرقفة، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وصيرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول اللّه يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإن الفضل غدا عند اللّه. فأنتم عباد اللّه، والمال مال اللّه، يقسم بينكم بالسوية لافضل فيه لأحد على أحد. . أما بعد فانما أهلك من كان قبلكم

أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه (بالرشوة)، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه (أي صار الباطل قدوة).. لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فان الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل (يقصد الدنيا)..إياكم والمراء والخصومة فانهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق.. أشقى الرعاة من شقيت به الرعية... لا تقبلن في استعمال عمالك وأمرائك شفاعة إلا شفاعة الكفاية والأمانة.. المسؤول حر وحتى يعد.. إذا أخطأتك الصنيعة إلى من يتقي الله، فاصنعها إلى من يتقي العار إذا أردت أن تصادق رجلا فانظر مَنْ عدوه.. من حفر بئراً وقع فيها.. من تجرأ لك تجرأ عليك.. من تذكر بُعد السفر استعد.. لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان.. لا يكن أهلك أشقى الخلق بك ولاتهن من يكرمك.. لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال.. لا تهدمن محاسنك بالفخر والتكبر.. لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا على البخل أقوى منك على البذل، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل..لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الإمور عليه: فان البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حالة سكونه، فكيف يسلم مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه؟ لا تمار سفيها ولا فقيها، أما الفقيه فتحرم خيره، وأما السفيه فيحزنك شره.. لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل وَيُرَجِّي التوبة بطول الإمل: يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم.. لا تكثر العتب في غير ذنب.. لا تقبل الرئاسة على أهل مدينتك فانهم لا يستقيمون لك إلا بما تخرج به من شرط الرئيس الفاضل!.. الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به، فاذا تكلمت به صرت في وثاقه.. أضر الأشياء عليك أن تعلم رئيسك أنك أعلم بالرئاسة منه.. أصحاب السلطان كقوم

رقوا جبلاً ثم سقطوا منه، فأقربهم إلى الهلكة والتلف، أبعدهم في المرتقى!.. ارض من الناس لك، ما ترضى لهم به منك.. ارحموا ضعفاءكم، فالرحمة لهم سبب رحمة اللّه لكم.. اذكر عند الظلم عدل اللّه فيك، وعند القدرة قدرة اللّه عليك.. أذل الناس معتذر إلى لئيم.. إذا نزل بك مكروه فانظر، فان كان لك فيه حيلة فلا تعجز، وإن لم تكن فيه حيلة فلا تجزع.. إذا غضب الكريم فألن له الكلام، وإذا غضب اللئيم، فخذ له العصا... إذا فعلت كل شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً.. إذا قُذفتَ بشيء فلا تتهاون به وإن كان كذباً، بل تحرَّز من طرق القذف جهدك، فإن القول وإن لم يثبت يوجب ريبة وشكا.. إذا أيسرت فكل الرجال رجالك، وإذا أعسرت أنكرك أهلك.. إذا رفعت أحداً فوق قدره فتوقع منه أن يضعك دون قدرك.. إذا رغبت في المكارم فتجنب المحارم.. عمّر قلبك بذكر اللّه والاعتصام بحبله وأي سبب أوثق مما بينك وبين اللّه إن أنت أخذت به».

وكم من الكلمات المشرقة، والمواقف المضيئة خلفها الإمام ميراثا للإنسانية كلها، ودليلا، ونبراسا!.

وصدق رسول اللّه حين قال لعلي: «أنت سيد في الدنيا، سيد في الآخرة.. من أحبك فقد أحبني، وحبيبك حبيب اللّه، ومن أبغضك فقد أبغضني، وبغيضك بغيض اللّه، وويل لمن أبغضك من بعدي!».

وقبل أن يموت كان قد أوصى بربع أرضه التي في الحجاز لأصحاب الحاجات...

فقضى، ولم يخلِّف تراثا غير الحكمة، والقدوة الحسنة، وما مات أحد من رعيته إلا خلَّف من المال أكثر مما ترك الإمام...

عاش يناضل دفاعا عن الشريعة، والعدل، والحق، والمودة، والإخاء والسلام، والمساواة بين الناس.. فسلام عليه!.

سلام عليه يوم قال فيه رسول اللّه عليه الصلاة والسلام: «رحم اللّه عليا اللهم أدر الحق معه حيث دار».

ودار الحق معه حيث دار، وما عاداه في حياته وبعد موته الا البغاة، وفرسان الضلال، وعبيد الشهوات، وأهل البدع والشح والأهواء..!.

سلام عليه يوم قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: «من اتخذ عليا إماما لدينه، فقد استمسك بالعروة الوثقى».

وعبر أجيال متطاولة تعاورت فيها الأحداث والمآسي العظام، والهزائم التي تقصم الظهر وتكسر القلب، والانتصارات التي تثير الكبرياء في النفس.. عبر تلك الأزمان اتخذه المتقون إماما.. فقد كان دعاؤه مع عباد اللّه الصالحين: واجعلنا للمتقين إماما...

واتخذه المساكين إماما.. واتخذه الفتيان والنساك والزهاد والعلماء والمجاهدون والشجعان إماما.. سلام عليه.. عليه السلام.

أهم المراجع

- **القرآن الكريم**: كتب التفسير، وبصفة خاصة الطبري وابن كثير والزمخشري والسيوطي والنسفي والقرطبي.
- **الحديث الشريف**: الستة الصحاح.
- **الأدب المفرد**: الإمام البخاري.
- **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم**: محمد فؤاد عبد الباقي.
- **نهج البلاغة**: للإمام علي بن أبي طالب، اختيارات الشريف الرضي، شرح الإمام محمد عبده.
- **الإحكام في أصول الأحكام**: ابن حزم.
- **أحمد بن حنبل**: عبد الحليم الجندي.
- **أحمد بن حنبل**: الشيخ محمد أبو زهرة.
- **إحياء علوم الدين**: الإمام الغزالي (المتوفى في القرن السادس الهجري).
- **الاختيارات الفقهية**: ابن تيمية.
- **الاستيعاب**: ابن عبد البر.
- **أسد الغابة**: ابن الأثير.

- **الإسلام وحقوق الإنسان**: د. القطب محمد القطب طبلية.
- **الأشباه النظائر في القرآن**: البلخي.
- **الإصابة في معرفة الصحابة**: ابن حجر.
- **أصول الفقه**: الشيخ عبد الوهاب خلاف.
- **إعجاز القرآن**: الباقلاني.
- **إعلام الموقعين**: ابن قيم الجوزية.
- **الأغاني**: الأصفهاني.
- **الأم**: الإمام الشافعي.
- **الإمامة والسياسة**: ابن قتيبة (مع مراعاة ما قيل عنه أنه منتحل).
- **إنباه على أنباء النحاة**: القفطي.
- **البداية والنهاية**: ابن كثير.
- **بلاغة الإمام علي**: د. أحمد الحوفي.
- **البيان والتبيين**: الجاحظ.
- **تاريخ التشريع الإسلامي**: الشيخ محمد الخضري.
- **تاريخ الفقه الإسلامي**: د. محمد يوسف موسى.
- **تاريخ الأم والملوك**: ابن جرير الطبري.
- **تهذيب الآثار، وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار**: الطبري (قرأه وخرّج أحاديثه محمود شاكر).
- **التوابون**: ابن قدامة.
- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**: الرماني والخطابي والجرجاني.
- **حسن المحاضرة**: السيوطي.
- **خزانة الأدب**: البغدادي.

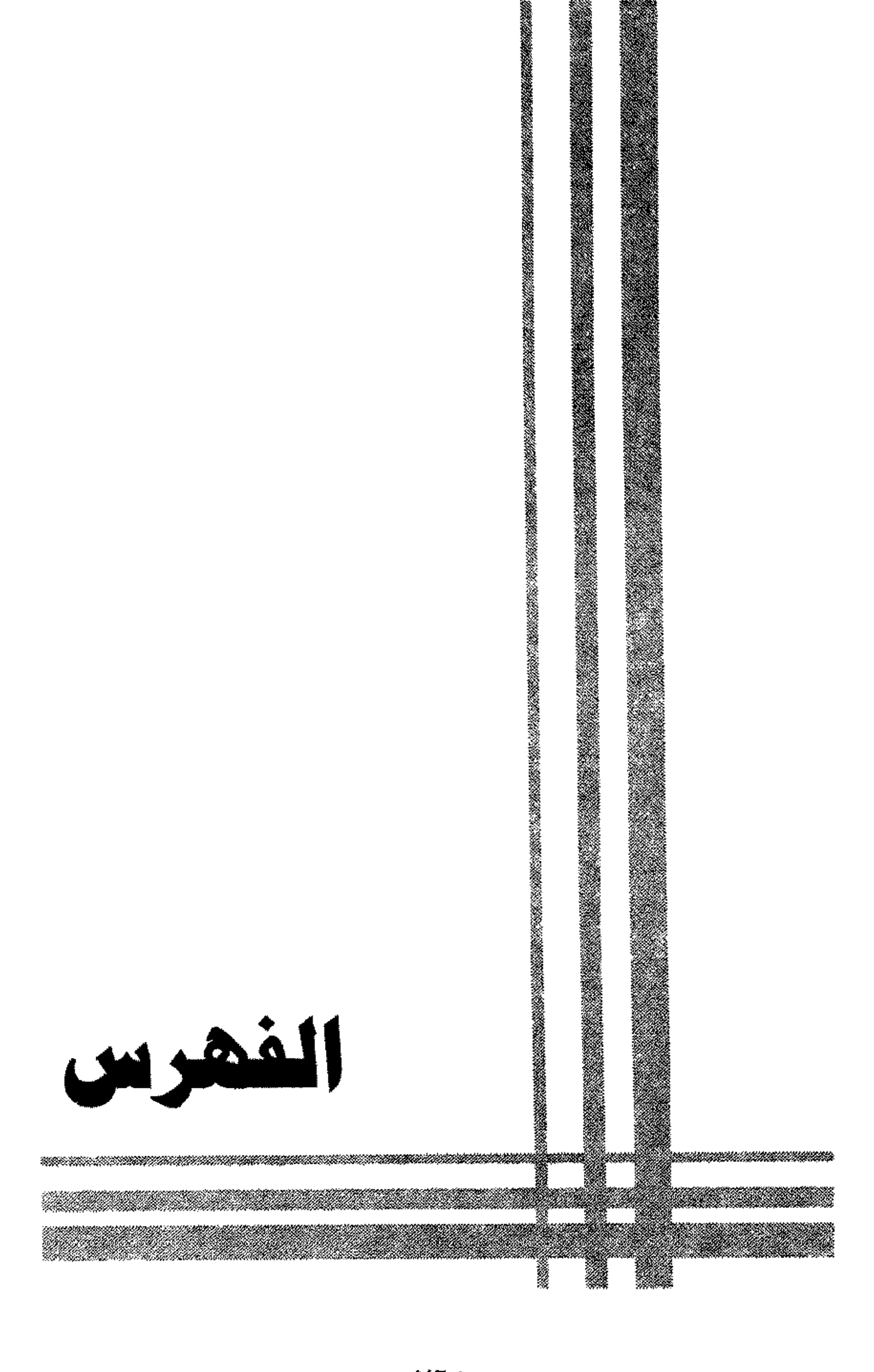
- **خصائص العشرة الكرام البررة**: الزمخشري.
- **خلفاء الرسول**: خالد محمد خالد.
- **الذيل على رفع الإصر**: السخاوي.
- **الروض الأنف**: السهيلي.
- **سجع الحمام في حكم الإمام**: جمع وضبط وشرح علي الجندي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد يوسف المحجوب.
- **السياسة الشرعية**: ابن تيمية.
- **السيرة النبوية**: ابن هشام.
- **صبح الأعشى**: القلقشندي.
- **الطبقات الكبرى**: ابن سعد.
- **الطرق الحكمية**: ابن قيم الجوزية.
- **عبقرية الإمام**: عباس محمود العقاد.
- **العقد الفريد**: ابن عبد ربه.
- **عيون الأخبار**: ابن قتيبة.
- **الفاروق عمر**: د. محمد حسين هيكل.
- **الفتاوى الكبرى**: ابن تيمية.
- **الفتنة الكبرى**: د. طه حسين.
- **فضائح الباطنية**: الإمام الغزالي.
- **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية**: الشيخ مصطفى عبد الرزاق (شيخ الأزهر الأسبق).
- **الفهرست**: ابن النديم.
- **القاموس المحيط**: الفيروزأبادي.

- **الكامل**: المبرد.
- **الكامل**: ابن الأثير.
- **لسان العرب**: ابن منظور.
- **اللمع في التصوف**: الإمام الطوسي.
- **المال في الإسلام**: عبد الكريم الخطيب.
- **مروج الذهب**: المسعودي.
- **معجم البلدان**: ياقوت الحموي.
- **المغني في أبواب التوحيد والعدل**: عبد الجبار (القاضي أبو الحسن)
- **المقدمة**: ابن خلدون.
- **الملكية في الشريعة الإسلامية**: الشيخ علي الخفيف.
- **النجوم الزاهرة**: ابن تغرى بردى.
- **النظم الإسلامية**: د. القطب محمد القطب طبلية.
- **نهاية الأرب**: النويري.
- **وفيات الأعيان**: ابن خلكان.
- **وقعة صفين**: نصر بن مزاحم.
- **يتيمة الدهر**: الثعالبي.

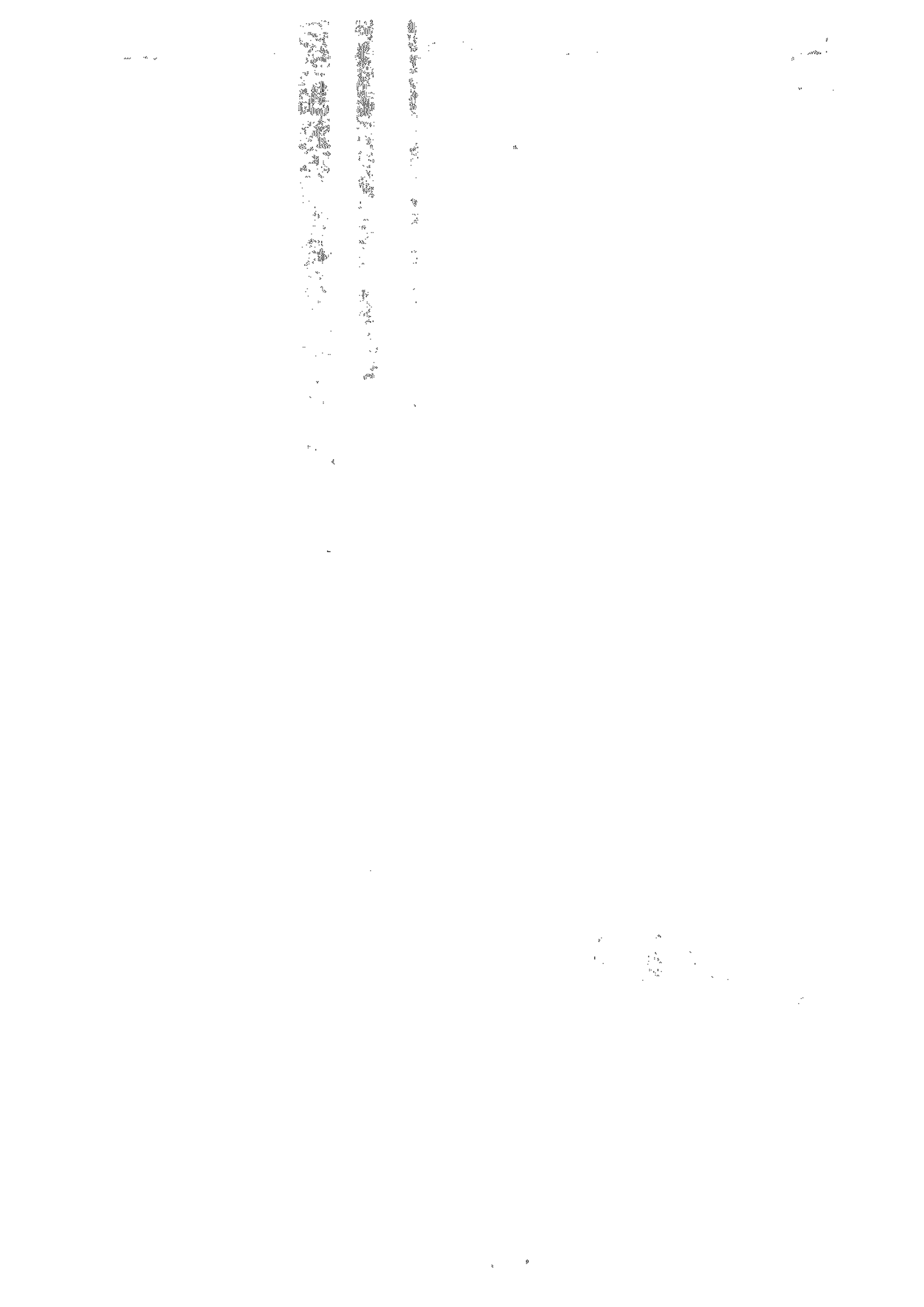
كتب للمؤلف

- **قصيدة من أب مصري إلى الرئيس ترومان**: دار الفكر (١٩٥٢).
- **أرض المعركة (صور من كفاحنا الشعبي)**: دار محفوظ (١٩٥٢) ـ طبعة ثانية (الأعمال الكاملة) هيئة الكتاب (١٩٧٨).
- **الأرض (رواية)**: الكتاب الذهبي، ودار محفوظ ١٩٥٤ـ الطبعة الثالثة: هيئة الكتاب (١٩٧٩).
- **أحلام صغيرة (مجموعة قصص قصيرة)**: كتب للجميع ١٩٥٥ـ طبعة ثانية (الأعمال الكاملة ـ هيئة الكتاب سنة ١٩٧٨ـ في مجلد واحد مع أرض المعركة).
- **باندونج والسلام العالمي**: : دار الفكر ١٩٥٥.
- **قلوب خالية (رواية)**: الكتاب المفضي ١٩٥٥ـ الطبعة الثانية الكتاب الماسي ١٩٦٨.
- **الشوارع الخلفية (رواية)**: ١٩٥٨ المكتب التجاري طبعة رابعة ١٩٧٩ (هيئة الكتاب الأعمال الكاملة).
- **محمد رسول الحرية**: عالم الكتب ١٩٦٢ـ طبعة سابعة هيئة الكتاب ١٩٧٩.
- **مأساة جميلة**: أو مأساة جزائرية (مسرحية شعرية): دار المعارف ١٩٦٢.

- **الفتى مهران (مسرحية شعرية)**: المكتبة العربية (هيئة الكتاب - ١٩٦٥).
- **رسالة إلى جونسون قصيدة طويلة**: دار التعاون ١٩٦٧.
- **تمثال الحرية (مسرحية شعرية في فصل واحد**: دار التعاون ١٩٦٧.
- **خطاب من أب مصري وقصائد أخرى (ديوان شعر)**: الدار القومية (هيئة الكتاب).
- **وطني عكا (مسرحية شعرية)**: دار الشروق - ١٩٦٨.
- **الفلاح (رواية)**: عالم الكتب ١٩٦٨ - طبعة ثانية - تونس ١٩٧١.
- **ثار الله - الحسين ثائراً - مسرحية شعرية**: الدار القومية ١٩٧٠.
- **ثار الله - الحسين شهيداً - مسرحية شعرية - ١٩٧٠**: دار الهلال - ١٩٧٢ الدار القومية.
- **قراءات في الفكر الإسلامي**: الدار القومية (هيئة الكتاب) بيروت ١٩٧٢.
- **النسر الأحمر - النسر والغربان - مسرحية شعرية**: دار المعارف ١٩٧٥.
- **النسر الأحمر - النسر وقلب الأسد - مسرحية شعرية**: دار المعارف ١٩٧٥.
- **شخصيات إسلامية - أئمة الفقه التسعة**: دار اقرأ - بيروت ١٩٨٠.
- **عرابي زعيم الفلاحين - (مسرحية شعرية)**: الأهرام - ١٩٨١.

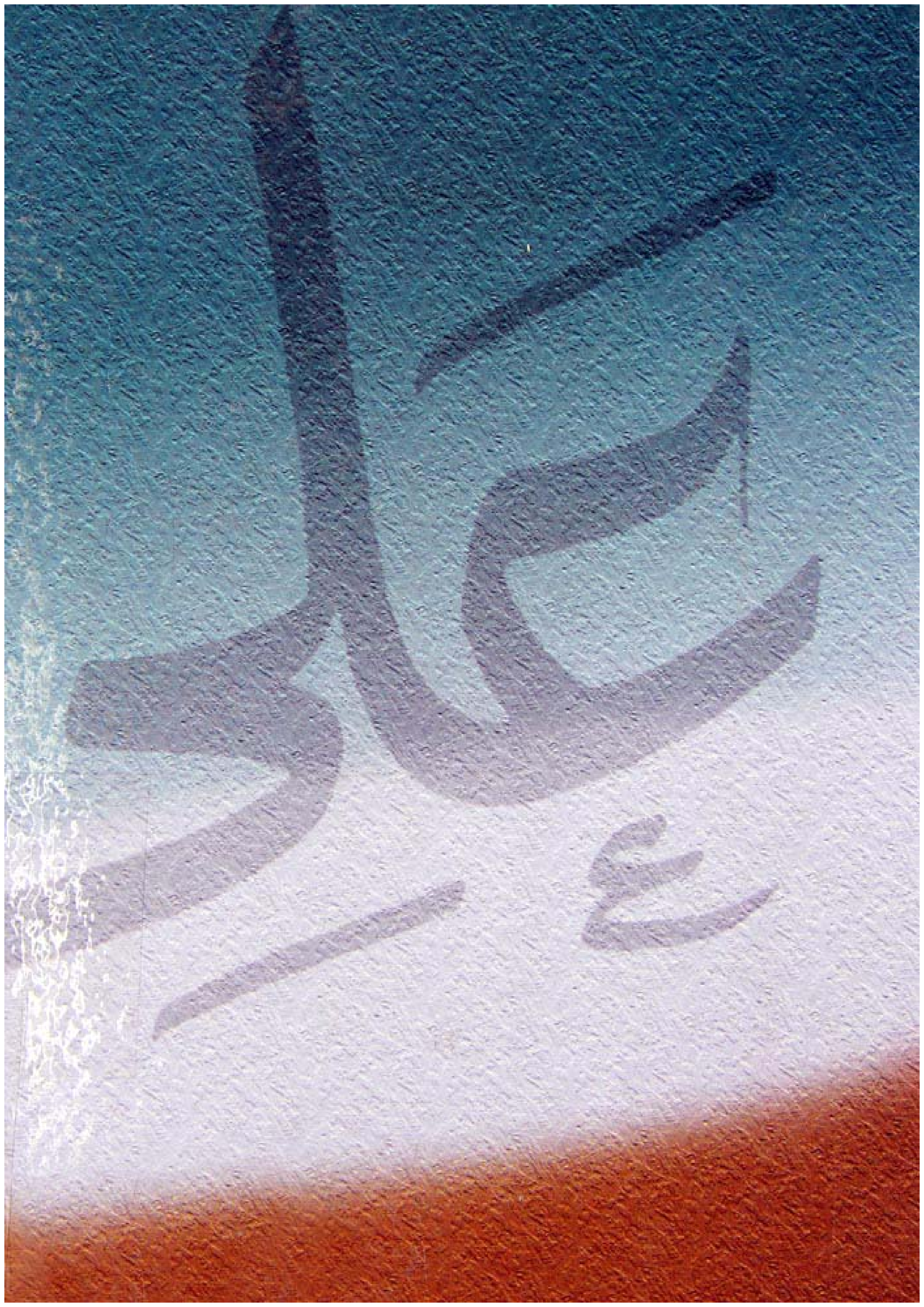


الفهرس



الفهرس




علی
ع